



الذكيوتو شوق ضيقها

عصر الرواية والخطاب

مصر

تاريخ
الأدب
العربي



عصر
الدول والإمارات
مصر

عصر
الدول والإمارات
مصر

تأليف
الدكتور شوقي ضيف



shiabooks.net

رابطہ بديل < mktba.net



منشورات ذوي القربى

اسم الكتاب :	تاريخ الادب العربى (ج ٧)
المؤلف :	شوقى الضيف
الناشر :	ذوي القربى
الطبعة :	الأولى
تاريخ الطبع :	١٤٢٨
الكمية :	١٠٠٠ نسخة
المطبعة :	ستاره
شابك ج ٧ :	٩ - ١٩٠ - ٥١٨ - ٩٦٤ - ٩٧٨

مركز التوزيع : قم - پاساژ قدس - الطابق الاول - رقم ٥٩ - تليفون : ٧٧٤٤٦٦٣ - ٢٥١ - ٩٨ +

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بمصر في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، وكان المؤرخون للأدب العربي - كما ذكرنا في مقدمة الجزء الخامس من هذه السلسلة - يُدخلون منه أكثر من ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني تنتهي سنة ٦٥٦ حين أغارت قطعان المغول على بغداد، وقوّضت ما كان بها من مدنية وحضارة، وهو خطأ محض لأن سلطان الخلافة العباسية كان قد تداعت أركانه منذ دخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤ إذ لم يعد لها سلطان حقيقي إلا على بغداد وأعمالها، بل إن سلطانها في بغداد كان سلطاناً منقوصاً، إذ كان السلطان الحقيقي فيها بيد البويهيين ومن خلفهم من السلاجقة. وصحب ذلك توزع العالم العربي إلى دول وإمارات حتى العصر الحديث. وأيضاً كان هؤلاء المؤرخون للأدب العربي يستون القرون الثلاثة التالية لغزو المغول بغداد باسم العصر المغولي، بينما كان سلطان المغول لا يتجاوز العراق وإيران، ومن الخطأ الواضح أن نقول إن ديار مصر كانت تعيش في العصر المغولي، بينما لم يكن لسلطان المغول في تلك الديار أي ظل، والصحيح أن عصر الدول والإمارات كان يظلمها، وامتد جناحاه زمنياً حتى شمل ما سواه المؤرخون باسم العصر العثماني.

وينبغي أن نعرف أن الطول الزمني لعصر الدول والإمارات لا يعني أن تاريخ الأدب العربي ظل في كل دولة من دوله أو إمارة من إماراته متسبها بسبات أدبية واحدة في أزمنته المتغايرة عبر قروته المتطاولة، مهما مرّ بالدولة أو الإمارة من أحداث ومهما ألمّ بها من خطوب فإن ذلك يخالف طبائع الشعوب المتطورة دائماً من زمن إلى زمن. وهو ما جعلني أقسم تاريخ الأدب في كل بلد تقسيماً زمنياً يحيط بأطواره الأدبية المتعاقبة وصورة مجتمعه وحياته العلمية. ودعاني ذلك إلى أن أرجع في كل قطر إلى الحقب السالفة لعصر الدول والإمارات منذ الفتح العربي لها لا سياسياً فحسب، بل أيضاً اجتماعياً وأدبياً وعلمياً، حتى تتضح شخصية القطر بكل ما يتميز به في حياته السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية منذ فجر تاريخه العربي إلى العصر الحديث.

وقد يُظَنُّ أن طول هذا العصر دفع إلى شيء من التقاطع الأدبي أو العلمي بين دولة وإماراته، وهو ظن محطّئ، فقد كان بين شعوبها جميعا تواصل لا ينقطع أشبه بتواصل ذوى الأرحام: تواصل في العادات والتقاليد والمعيشة والدين والأدب والعلم، واستشعر ذلك أسلافنا إلى أقصى حد، فكانوا إذا ألفوا كتابا عن الشعراء مثلا ساقوا فيه شعراء العالم العربي جميعا كما في الهتية للشمالي والغريدة للمهاد الأصهباني، وبالمثل إذا ألفوا كتابا عن القراء أو المفسرين أو المحدثين أو عن صنف من الفقهاء كالشافعية أو عن النحاة. ودأبوا منذ القرن الثامن الهجري يجمعون في القرن علماء العالم العربي وأدباءه جميعاً في كتب مرتبين فيها ترتيبها أبجديا بحيث نستطيع أن نؤرخ في كل قرن للحركتين الأدبية والعلمية في أى قطر عربي، ومعنى ذلك أنه ظلت تربط بين الأقطار العربية طوال عصر الدول والإمارات والأزمنة قبله وحادثة أدبية وجدانية، وعلمية عقلية.

وقد بدأت في هذا الجزء بعرض تاريخ مصر السياسي، وأقدم الأزمنة التي خطها التاريخ بها زمنُ الخلفاء الراشدين وماتلاه سريماً من زمن الأمويين، وفيها أخذ الدين الحنيف ينتشر في مصر ويعتقه كثيرون من سكانها القبط. وبحكمها ولاية من قبل العباسيين ويدخلها مع جنودهم كثير من العناصر الفارسية. وتستشعر مصر استقلالها السياسي منذ أواسط القرن الثالث الهجري في عهد الطولونيين، وبالمثل في عهد الإخشيديين. وتستولى عليها الدولة الفاطمية وتتشظى فيها خلافة شيعية مستقلة عن خلافة العباسيين ببغداد، وتبوء جميع محاولاتها بنشر عقيدتها الإسماعيلية الشيعية بين المصريين بإخفاق ذريع. ويمتد حكمها أكثر من مائتي عام، وتأخذ في الضعف بعد نحو قرن وينزل حملة الصليب الشام في أواخر القرن الخامس الهجري ويستولون على بيت المقدس. ويحطّ خلفاؤها في نوم عميق إلى أن قبض الله لمصر صلاح الدين الأيوبي، فأسس بها الدولة الأيوبية، وأخذ يسحق ضلوع حملة الصليب في جطّين وغير جطّين، وتبعه خلفاؤه الأيوبيون ينزلون بهم ضربات قاصمة. ويخلفهم المماليك، وينازلون المغول في عين جالوت ويمزقون جموعهم، وتفرّ قلوبهم على وجوهها إلى الشمال، ويظهرون الشام من تلك الفلول ومن بقايا حملة الصليب ورجسهم. ويدور الزمن دورات، وينزل العثمانيون مصر، وتتحوّل من دولة ذات سلطان عظيم إلى ولاية عثمانية.

ويُحِيل النّيلُ مصر من قديم إلى جنات وزروع وغروس شقي، وأهلها ذلك لرخاء

واسع - على مرُّ الزمن - لمن يسعون في مناكبها. ودائماً كان بها - في العهد الإسلامية - ثلاث طبقات: عليا، ووسطى، ودنيا. وفي الطبقة العليا الوالى وصاحب الخراج، والقاضى، وقواد الجند، وكبار الإقطاعيين، وكبار التجار ومعهم الأشراف من البيتين العباسى والعلوى. وفي الطبقة الوسطى العلماء والجند وأوساط الزراع والصناع والتجار، وفي الطبقة الدنيا أهل الريف وعامة الصناع والتجار والرقيق من أواسط إفريقيا ومن أرمينية وشعوب البحر المتوسط. وترك الحكام للكتيسة وكبار الإقطاعيين من القبط ما لهم من الأرض وحقوقها نظير الخراج، وأدى المقتدرون من القبط الجزية، وهى في حقيقتها ضريبة دفاع، إذ لم يكونوا يشتركون في الحرب وحماية وطنهم. وكانت الزراعة تدرّ كثيراً من طيبات الرزق، وكانت الصناعة رابحة: صناعة الورق والنسيج واستخراج بعض المعادن كالنطرون. وتلقى مصر بكنوزها في حجر أحمد بن طولون فيبنى قصره العظيم، وجامعه الكبير وبيارسناناً ضخماً، ويفرق ابنه خارويه في ترف بالغ. وتنعّم الدولة الإخشيدية ببراء مصر، ويتضخم في عهد الفاطميين، ويكثر من القصور والبذخ والترف وأدواته، ويتسعون في الاحتفال بالأعياد الإسلامية، وأعياد القبط والفرس. وأصبحت مصر في عهد صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين ثكنة حربية تُعدُّ لضرب حملة الصليب الضربات القاضية، ومع ذلك اتسمت مصر في العمران وبناء المدارس الكثيرة والخانقاهات، وبخلفهم المهاليك، وتميش مصر طوال زمنهم في رغد من العيش، وتزدهر بها الحياة والعمران ازدهاراً واسعاً وكانت قد أصبحت ملاذاً لعلماء العالم العربى النازحين من وجه النورمان والإسبان غرباً ومن وجه المغول شرقاً. وتدور بها الدوائر فيحتلها العثمانيون، وفزائلها غير قليل من الرخاء ومن منزلتها الكبرى في العالم العربى.

وتحدثت عقب ذلك عن الدعوة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية المتطرفة ومبادئها وتسلّم المصريين بعقيدتهم السنية وكأنما كانت تلك الدعوة بمصر صحبات ذهبت أدراج الرياح وبالمثل تحدثت عن الزهد وكيف أن مصر عرفت الضربين من التصوف الفلسفى والتصوف السنى مع بيان أهم طرقه وأعلامه وخانقاهاته.

ومعروف ما لمصر من دور عظيم في نشأة الحضارة الإنسانية ونشأة العلم بمعناه العالمى وظلت ترعاه طويلاً. وكانت قد خدعت جذوته قبيل نزول الإسلام بها، وعاد إليها الانتقاد تدريجياً بحيث لا تصل إلى أواسط القرن الثانى الهجرى حتى يصبح لعلمائها حظ واضح من المساهمة في الدراسات الدينية ونشرها في العالم العربى، فهى

تنشر قراءة ورش، ومذهب مالك في بلاد المغرب والأندلس، وتنتشر مذهب الشافعي في الشام وبغداد وخراسان. وسرعان ما تكتب تاريخ الفتح لإفريقيا والأندلس لأول مرة، وتكتب رواية للسيرة النبوية الزكية، تصبح إماماً لكتب السيرة الشريفة، ويضع أحد أبنائها وهو ذو النون أسس التصوف الإسلامي. وتزداد حركتها العلمية نشاطاً في عهد الفاطميين ويؤسسون بها جامعة سموها دار العلم، ألحقوا بها مكتبة ضخمة. وتأخذ الحركة العلمية بمصر في ازدهار واسع لعهد الأيوبيين وما أسسوا بها من عشرات المدارس، ويزداد عددها في عهد المماليك ازدياداً مفرطاً حتى يقول ابن بطوطة حين زار مصر لأيامهم إن أحداً لا يستطيع أن يحيط بها لكثرتها. ولم تكن المدارس وحدها دور العلم فقد كانت تشاركها في ذلك المساجد والجموع مثل الجامع الأزهر. ومع خلود تلك الحركة العلمية في عهد العثمانيين ظلت مصر حامية للتراث العربي، وموتلاً لعلماء المغرب والشرق، وظلت تضيء في جامعة الأزهر مصابيح العلم والعرافان.

وعرضت نهضة العلوم المختلفة بمصر عرضاً تفصيلياً تاريخياً على مر الأزمنة، وبدأت بعلوم الأوائل، وألمت بما كان لمصر فيها من نشاط قبل الفتح العربي سواء في الهندسة أو الرياضة أو الفلك أو الطب أو الكيمياء أو الفلسفة. وانتقلت مصر الإسلامية بما كان فيها من هذا التراث، وضمت إليه ما نقل ببغداد من الفلسفة وعلوم الأوائل عن اليونانية وغير اليونانية. وقد تحدثت عن النشاط العلمي والفلسفي لمصر منذ أيام الفاطميين وأعلامه على مر الحقب، وتحدثت عن جغرافيتها منذ ابن سليم مكتشف المجرى الأعلى للنيل في أواسط القرن الرابع الهجري. وبالمثل تحدثت عن النشاط في علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وأعلام مصر فيها جميعاً على مر التاريخ ومع كل عظم مصنفاته القيمة. وأيضاً عرضت علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والمذاهب الفقهية وعلم الكلام والتاريخ وعلماءها جميعاً على تعاقب الحقب، وما لهم من مصنفات بالغة القيمة، وذكر في كل علم من العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل من نهضوا فيه أيام العثمانيين. وبذلك أصبح التاريخ العلمي لمصر وعلمائها الأقداد في كل علم وفن مرسومًا رسماً دقيقاً منذ القرن الثاني الهجري حتى العصر الحديث.

وقد أخذت مصر - بعد الفتح العربي - تتعرب سرّياً لاعتناق كثير من سكانها القبط الإسلام لما استقر في نفوسهم من أن من مسلم منهم يصبح له جميع حقوق

العربي الفاتح، ويدلُّ بوضوح على كثرة من أسلم منهم أن الجزية التي كانت تؤخذ من القبط في عهد عمر بن الخطاب هبطت إلى أقل من النصف في عهد معاوية. وعملت على السرعة في تعرب مصر هجرات كثير من القبائل إليها حين سمعوا بزروعها ونهارها وطيبات الرزق فيها، وامتزجوا بسكانها عن طريق المعيشة والمصاهرة، مما أعدَّ لتعرب من لم يدخل من القبط في الدين الحنيف، حتى إذا كنا في القرن الثالث الهجري ثم تعرب القبط برهبانهم وبطاركتهم وإن ظلت القبطية حية في بعض الأديرة.

وكان نشاط الشعر العربي بمصر محدوداً زمن الأمويين لأن كثرة الجيش العربي الفاتح كانت من اليمنية، والشعر إنما يكثر على لسان القبائل المضربة والقيسية، وربما نظمت بها أشعار لم يسجلها الرواة، حتى إذا كنا في زمن ولاتها العباسيين رأينا الشعر يأخذ في النشاط بها، ونزها أبو نواس وأبو تمام، وازداد نشاطه فيها لعهد الدولتين الطولونية والإخشيدية ونزها المتنبي وأحدث نزوله بها حركة أدبية خصبة.

وتتحول مقاليد الحكم فيها إلى الدولة الفاطمية. وترجم التعالي في كتابه «التيمة» لكثيرين من شعراء مصر، ويفرد لها العهد الأصهباني مجلدين في كتابه «الحريمة» ترجم فيها مائة وأربعين شاعراً، ويطرد هذا الازدهار للشعر في مصر طوال زمن الأيوبيين والمماليك، وتظل منه بقية أيام العثمانيين.

ويكثر في مصر الشعر الدوري منذ ابن وكيع التنيسي في القرن الرابع الهجري، وتكثر الرباعيات حتى إذا ازدهرت الموشحات في الأندلس درسها ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين الأيوبي ووضع لها عروضها ورسومها كما وضع الخليل بن أحمد في القرن الثاني الهجري عروض الشعر العربي ورسومه. وابن سناء الملك فيها موشحات تشيع فيها حلاوة الجرس والسلاسة والعذوبة، وبذلك كتب لها الذيوع الواسع بعده في مصر على ألسنة الشعراء مثل الغزالي، وأكثر المتصوفة في زمن المماليك من النظم فيها وتلحينها في أذكاءهم. ويستظهر الشعراء - منذ القاضي الفاضل - ألوان البديع ومحسناته، ويصبح التفنن فيها مقياس إبداعهم.

وأخذت - بعد ذلك - أن ترجم لأعلام الشعر في مصر طوال عصر الدول والإمارات محلاً لشخصياتهم الأدبية وموزعاً لهم على أغراض الشعر وموضوعاته الأساسية، فللمديح أعلام مبدعون من مثل ابن سناء الملك واضع عروض الموشحات، وللرثاء والشكوى أعلامها النابون مثل علي بن النضر بملكته الشعرية

المخصصة، وللدعوة الإسماعيلية أعلام مختلفون مثل ابن هاني الشاعر الفاطمي، وللنزل أعلام وجدانيون مرهفون مثل البهاء زهير، وللنفر والهجاء أعلام مبرزون مثل تميم بن العز وابن النُزوي المُنذع في هجائه، وللطبيعة وبمحاسن اللهو أعلامها مثل الشريف العقيلي وله في الطبيعة المصرية ديوان كبير بديع، وللزهد والتصوف والمدائح النبوية أعلام يتفنون بالحب الإلهي مثل ابن الفارض وبالحب النبوي مثل البوصيري، وللشكاه أعلام تروج أشعارهم بالتندير والدعابات والتوريات والمزل مثل ابن دانيال وله مسرحيات هزلية بديعة. وعرضت شعراء الشعر الشعبي العامي وطرائف مما نظم أعلامه من فنونه في الأزجال والتوريات والفكاهات المستملحة. وبلغ عدد من ترجمت لهم من شعراء مصر الألفاظ في عصر الدول والإمارات اثنين وأربعين شاعرًا، ومع كل شاعر تصوير شخصيته الأدبية وخصائصه الفنية وروائع شعره. وقد ذكرت مع كل غرض من أغراض الشعر شاعرًا تابعًا من الشعراء أيام العثمانيين. ولم أترجم لعشرات من شعراء مصر تكتظ بهم كتب الطبقات والتراجم لأنه لم يكن لأحدهم دور بارز في تطور الشعر بمصر، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها على مر الأزمنة، وإنما أكتب تاريخها الأدبي في الشعر، ومن كان لهم دور في التطور به أتاح لهم مجداً أدبياً كبيراً أو قليلاً.

ومضيت أعرض النثر وكتابه بمصر بادئاً بالرسائل الديوانية منذ أنشأ أحمد بن طولون ديوان الإنشاء واتخذ له كتاباً مجيدين. وعنى الفاطميون بهذا الديوان ويشتهر فيه غير كاتب بحسن بيانه، وخاصة في الحقبة الأخيرة من أيامهم. وتبلغ الرسائل الديوانية الذروة الأدبية على يد القاضي الفاضل وزير صلاح الدين، ويتألق نجمه وتصيح له مدرسة كبيرة، ويتكاثر تلاميذها في بقية أيام الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وترجمت لأربعة من أعلام الكتابة الديوانية. وأخذت الرسائل الشخصية تزدهر بدورها منذ زمن الفاطميين، واتسع ازدهارها بعدهم، وترجمت لثلاثة من أعلامها النابيين. وعنى بعض الكتاب - منذ أيام الفاطميين - بكتابة المقامات، وقلما تقوم على الشحادة الأدبية مثل مقامات الحريري، إنما تقوم على بعض مسائل علمية، أو على وصف الطبيعة، أو على قصص فكاهية، أو على وعظ، أو على مفاخرات بين الأزهار، أو بين السيف والقلم، وما إلى ذلك من موضوعات أدبية، وترجمت لأربعة من كتابها البارعين. وتكثر المواعظ والابتهالات والمناجيات الربانية على نحو ما صوّرت ذلك عند ثلاثة من أعلامها المهمين. وعرضت - بعد ذلك - أربعة من كتب النوادر

هى: كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف، وهو حكايات قصيرة لطيفة تحض على عمل الخير، وكتاب أخبار سيبويه فى نقد الحكام والناس ممزوجاً بالتأله، وكتاب الفاشوش فى حكم قراقوش وكان صلاح الدين ينيبه عنه أحياناً فى حكم القاهرة، وصورة ابن عماتى فى طائفة من الأحكام الطائشة تحكى غفلته وحمقه وبلهه، وكتاب هز القحوف ويكتظ بنوادير لاذعة على لسان أهل الريف المصرى تصور يؤسهم أيام العثمانيين. وتلا ذلك أربع سيرة شعبية: سيرة عنترة، والسيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة سيف بن ذى يزن، وجميعها تصور البطولة العربية وفضائلها الرفيعة. وعرضت أخيراً كتاب ألف ليلة وليلة وتاريخ نقله إلى العربية وما أضيف إلى قصصه الهندية من قصص بغدادية وقصص مصرية مع بيان ما يتميز به كل نوع من أنواع هذه القصص. وقد صاغت مصر الكتاب بلغتها العامية وانتشر بها فى العالم العربى منذ عصر المماليك. وبنفس العامية انتشر فى البلاد العربية من قديم ما ألفته مصر من كتب السير الشعبية المذكورة آنفاً: سيرة عنترة وأخواتها. وكان لذلك أثره الكبير فى تعرف تلك البلاد على العامية المصرية قبل العصر الحديث بثبات السنين.

وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربى فى مصر أثناء حقب طويلة تمتد من فجر تاريخها العربى إلى العصر الحديث جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت من المصادر والمراجع المتصلة بتاريخ مصر ودولها المتعاقبة، وبمجتمعاتها وطبقاتها وشؤونها المعيشية والعقيدية، وبالحركة العلمية فيها ونموها وازدهارها، مع العرض التاريخى لعلبانها الأفاضل فى علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية والكتابة التاريخية. ورجعت أيضاً إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من الشعر ودواوينه، وما اتصل به من الرباعيات والموشحات، كما رجعت إلى الكتابات النثرية المتنوعة من مثل الرسائل والمقامات والمواظع والسير والقصص الشعبية، مع رسم الشخصيات الأدبية للشعراء والكتاب التايهين وعرض خصائصهم الفنية عرضاً نقدياً تحليلياً. ولا أزعم أنى صورت تاريخ الأدب العربى فى مصر قبل العصر الحديث تصويراً كاملاً، إنما حاولت، وأرجو ألا أكون قصرت. واقه أسأل أن يلهمنى السداد فى الفكر، والإخلاص فى القول والعمل. وهو حسبى ونعم الوكيل.

القاهرة فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠م.

شوقى ضيف

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

فتح العرب لمصر والحقب الأولى^(١)

(١) فتح العرب لمصر

معروف أن مصر نهضت بأقدم دور في تاريخ الحضارة الإنسانية ، فعنها تلتقت الأمم القديمة هتحة البناء كما تشهد بذلك أهراماتها الشائعة . كما تلتقت عنها فكرة الكتابة ونقش الحروف ، وبذلك كان لها فضل كبير في بث المعرفة ، وأعطتها النيل لتكون أستاذة الأمم في العناية بالزراعة وتنظيم الترع والجسود . وهي أول من حاول تأليف أمم الشرق الأوسط في وحدة امتدت من الفرات إلى النيل ومن آسيا الصغرى إلى بلاد البت والتوبة . ودار بها الزمن دورات ، فدخلها الرعاة المكسوس والأشوريون ، وسرعان مازابلوها ، وغزاها الفرس في عهد قبيز عام ٥٢٥ ق . م ونزلا الإسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق . م وأسس بها مدينة الإسكندرية ، وأقام بها قائده بطليموس هو وأبناؤه دولة البطالة الإغريقية متخذين الإسكندرية عاصمة لهم . وفي عام ٣١ للميلاد استولى عليها الرومان ، واثارت عليهم مصر مراراً ، ودخلها الفرس وقاومتهم مصر والرومان ، فخارقوها سريعاً ، ونسوه أحوالها سوءاً شديداً ، فإن هرقل إمبراطور بيزنطة كان يضطهد من لا يعتنقون مذهبه المكنائى المسيحى ، وكان المصريون يعاقبة ، يقولون بأن الله والمسيح

للمسعودى وحسن المحاضرة السوطى (طبعة عيسى البابى الحلبي) ١٠٦ / ١ وضع العرب لمصر لبطر (الترجمة العربية) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) طبع بيروت ١ / ٩٩ .

(١) أنظر في فتح مصر فتوح مصر لابن عبد الحكم وفتوح البلدان للبلاذرى وتاريخ الطبرى وابن الأثير والمغرب لابن سديد قسم القسقاط (طبع جامعة القاهرة) وخطط القفري (طبعة دار التحرير) ٥٥١ / ١ والنجوم الزاهرة لابن تيمى بردى : فواتح الجزء الأول ومروج الذهب

انحداً في طبيعة واحدة بينما كان الملكاني يرون أن للمسيح طبيعتين طبيعة لاهوتية روحية وطبيعة ناسوتية جسدية ، وعارض المصريون المذهب الملكاني البيزنطي معارضة شديدة ، ويعين هرقل قبرس (المقوقس) بطريقاً للإسكندرية جامعاً إلى سلطته الدينية السلطة الزمنية ، ويأخذ في حمل المصريين على مذهب الملكاني فيقاومونه مقاومة حادة ، ويعنف بهم وبرهبانهم ويثقل عليهم في الضرائب . وبذلك يضيف إلى الفُلل الديني غلاً اقتصادياً .

وتقاوم مصر بكل ما استطاعت ، إذ كانت تعدّ الدين مظهر استقلالها وحريتها وشخصيتها ولذلك اشتد سخطها على ييزنطة ، وبينما هي في هذا السخط الحاد إذا العرب بقيادة عمرو بن العاص يقبلون من الشرق عام ١٩هـ / ٦٤٠ م ويستمرّون في زحفهم حتى حصن بابليون (بالقرب من ممفيس القديمة) ويطول حصارهم له ، فيغزو عمرو إقليم القيوم ويشدد الحصار على حصن بابليون ، ويضطرّ قبرس (المقوقس) إلى التسليم . ويتجه عمرو إلى الشمال الغربي ويستولى على الإسكندرية . ولم يكن يقاومه في حصن بابليون والإسكندرية جميعاً سوى الروم . وكان المصريين وجدوا فيه وفي العرب مخلصاً لهم ، إذ سرعان ما عرفوا أن الإسلام يكفل لهم حريتهم الدينية ولا يمسّ كنائسهم ومعابدهم ، ولذلك لم يقاوموا هؤلاء الفاتحين إذ وجدوهم يردون لهم استقلالهم الديني .

ودالما الدين في مصر يوضع فوق السياسة والحكم وفوق كل شيء . وما كان ليحقل أن يحمل المصريون السلاح ويدافعوا عن الروم الذين يعتقدون على مذهبهم الديني وحريتهم الدينية ، حتى لقد قرّ البطريق القبطي بنيامين وظل محتباً حتى دخل العرب مصر وكفّلوا للقبط معتقداتهم الدينية ، ورفضوا عن كواهلهم ما أبهظها من ضرائب الروم الفادحة . فكان طبعاً أن يتعاون قبط مصر مع العرب وأن ينفضوا أيديهم من الروم ، ولذلك حين عاد أسطولهم إلى الإسكندرية واستولوا عليها لم يلقوا تأييداً منهم ، وهزمهم العرب بقيادة عمرو بن العاص هزيمة ساحقة عام ٦٤٦ م / ٢٥هـ ومن بقى منهم ولّى في البحر المتوسط إلى غير مآب . وبدأت من حينئذ مصر دورتها العربية الجديدة .

(ب) زمن الولاية^(١)

أصبحت مصر ولاية تتبع الخلافة ، وكان أول ولايتها عمرو بن العاص الفاتح لها ، ولا يزال باقيا من آثاره في القاهرة مسجد الذي يحمل اسمه والذي بناه في القسطنطينية : موضع معسكره في حصاره لحصن بابلون وتسمى منطقتة الآن باسم مصر القديمة . وحين تم له طرد الروم من الإسكندرية بنى بها مسجد الرحمة . وكان ذلك إيذانا باستيلاء الإسلام عليها كما استولى على مصر من جميع أطرافها . وولى مصر في عهد عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان عمرو بن العاص قد تغلغل في إفريقيا الشمالية فبعثه يتغلغل فيها ، وفي سنة ٣٤ حاول الروم غزو الإسكندرية ، فزاهم في البحر ودمر سفنهم ، وتسمى الغزوة « ذات الصواري » لكثرة مااجتمع فيها من السفن . ثم كانت الفتنة أيام عثمان رضوان الله عليه ، واختلف عليها ولاية لعل رضى الله عنه ، ووليا عمرو بن العاص لمعاوية حتى توفى سنة ٤٣ وفي أيامه أرسل عقبة بن نافع فتغلغل في إفريقية ، وكانت له فيها أيام ولاية عمرو بن العاص الأول جولات بعيدة ، وستصبح له فيما بعد حين يوليه معاوية قيادة الفتوح في المغرب جولات أكثر عمقا ، يخط فيها مدينة القيروان بالقرب من تونس الحالية .

وتولى مصر بعد عمرو بن العاص ابنه عبد الله أشهرها ، ثم عزله معاوية وولى عليها عقبة بن عامر الجهني ، وأخذ الولاية في أيام بنى أمية بتعاقبون عليها حتى بلغوا في نحو تسعين عاما ثمانية وعشرين واليا ، إذ ألغى الأمويون في ولاية مصر سنة تغيير الولاية ، وهى سنة سيئة ، إذ كان الوالى يقدم وهو يعلم أنه معزول عما قبل ، فكانت لاهتمه شئون مصر بمقدار مااهتمه شئون نفسه والعمل على اكتناز الثروة الضخمة قبل أن يسلم كتاب الغزو . وربما كان خير وال أموى تولى مصر حينئذ عبد العزيز بن مروان ، وقد امتدت ولايته من سنة ٦٥ حتى سنة ٨٦ واشتهر بما بنى في حلوان من قصور وغرس من جنات وزروع وكان جوادا ممدحا ، وإليه شدَّ الشعراء الرحال من الحجاز ونجد والعراق ، ويقال إنه كان له ألف جفنة (قنر) تُنصب كل يوم حول داره لإطعام

خلدون وخطط للمقرئى ٥٦١/١ وما بعدها وحسن المحاضرة
٥٧٨/١ ما بعدها .

(١) انظر في ولاية مصر زمن الأمويين والعباسيين كتاب
الولاية والقضاة للكندى (طبعة جيست) والجزء الأول
وأثنى من النجوم الزاهرة وتاريخ الطبرى وابن الأثير وابن

الناس ، وكان له بجانبها مائة جفنة يطاف بها على القبائل . ولاريب في أن هذا الجود الفياض إنما كان على حساب الشعب ، وما يؤدى من ضرائب باهظة . وكان للولاة الأمويين في فرض الضرائب الاستثنائية أقاليم كثيرة ، وكانت الرعية تضج منها في كل أقاليم الدولة .

وبطل هذا الظلم يزداد عسفا إلى أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩ فيأمر برفع الظلم عن رعيته وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية . وقد وجد الولاة يلزمون كل من أسلم من القبط وغيرهم من الموالى بالجزية ، كأنهم لا يزالون على دينهم القديم ولم يدخلوا في الإسلام ، معطلين بذلك أحكام الدين الخفيف ، فوقف كل هذا الظلم وما يجترأه من فساد ومن تعطيل أوامر الدين ، من ذلك ما كتب به إلى حيان بن شريح صاحب ديوان الجند والحراج في مصر : « ضَعِ الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى يقول : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ويقول (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يد وهم صاغرون) . ويبدو أن حيان بن شريح تلكأ في تنفيذ أمر عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه غاضبا : « قد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، فبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعث جاييا » (١) .

واضطرب حيان بن شريح أن يصدع لأمر عمر ، غير أن مدة خلافته كانت قصيرة ، إذ سرعان ماتوفى لأول سنة في المائة الثانية ، فعاد ولاية بنى أمية إلى سيرتهم الأولى في مصر وغير مصر ، ومضوا يعصرون القبط ، سواء منهم من أسلم ومن ظل على دينه . وبذلك نفهم انتفاض القبط على الولاة سنة ١٠٧ وكذلك بأخرة من أيام الأمويين ، فإن الولاة لم يكونوا يراعون فيهم ما فرضه الإسلام من العدل وحرمة من الظلم والصف . وظلت الفسطاط حاضرة الولاة الأموي منذ اختط عمرو بن العاص للناس منازلهم فيها ، ولاتزال آثارها باقية إلى اليوم . ويقول المؤرخون إن الدور فيها كانت تتألف أحيانا من ست طبقات أوسع . ولما قدم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر منهزما وتبعه الجيش العباسى إلى الصحراء أمام مدينة الفسطاط أذن القواد للمسكر بالبناء حيث نزلوا ، فقامت ضاحية أو مدينة العسكر بحوار الفسطاط ، وكان يترها ولاية بنى العباس ، وتلقانا بعض انتفاضات القبط حتى سنة ١٥٠ ثم لانعود نسمع عنها ، إنما تلقانا انتفاضات

(١) انظر في هذه الرسالة وسابقتها خطط القرى ١/ ١٤٢

للرب . وفي رأينا أن في ذلك إشارة واضحة إلى ماتم فعلا من امتزاج بين الأقباط والعرب ، فإن كثيرين من القبط دخلوا في الإسلام وكثيرين من العرب سكنوا القرى وزرعوا الأرض وامتزجوا بالقبط وأصبحوا يؤلفون أمة واحدة . وأول انتقاض يلقانا - للرب - انتقاض دحية حفيد عبد العزيز بن مروان بالصعيد لسنة ١٦٥ وكان قد تولى موسى بن مصعب الموصل فشدد في استخراج أموال الخراج وضاعف ما يُطلب من كل قدان وجعل خراجا على الأسواق والدواب وارتشى في الأحكام فتارت عليه قيس والجمانية ، وانتهى أمره بقتله . وقضى سريعا على ثورة دحية سنة ١٦٩ . ونظّل نسمع عن انتفاضات في الحوف الشرق ، ويستغل الفرصة الجوى في تئيس وبنو السرى الذين استولوا حيناً على مقاليد الأمور ، مما اضطر المأمون أن يسند إليهم الولاية على مصر من حين إلى حين . وتحدث في هذه الأثناء ثورة الفقهاء في قرطبة على الحكم الرضى الأمير الأموى وبأمرهم بمغادرة البلاد ، فيترلون الإسكندرية ويستولون عليها . ويرسل المأمون قائده عبد الله بن طاهر ، فيعيد الأمن إلى مصر لسنة ٢١٠ ويُخرج منها الأندلسيين إلى جزيرة كريت ويستولون عليها . ويعود ابن طاهر في سنة ٢١٢ وينتفض أهل الحوف مراراً ، ويثور القبط ، ويضطر المأمون إلى القدوم بمسكركه إلى مصر سنة ٢١٧ فيقضى على ماها من فن . ويأمر واليه على مصر في سنة ٢١٨ أن يأخذ الناس بمحنة خلق القرآن المشهورة . ويتولى بعد المأمون أخوه المعتصم في نفس السنة المذكورة ويأمر بإسقاط العرب من الدواوين بمصر وغير مصر ، ومنذ هذا التاريخ يتدججون نهائياً في أهل مصر من القبط ومن أسلم منهم . ويفتزو الروم دمياط سنة ٢٣٨ وسرعان مايرحطون عنها إلى غير رجعة .

وربما كان أهم ماخلفه زمنُ الولاة أيام الدولة العباسية كثرة العناصر الفارسية التي دخلت مصر ، فقد كان الجيش الذى تعقب مروان بن محمد ، وبنى له «المسكرة» ، أكثره إن لم يكن كله من الفرس ، وظلت الجنود التي ترسل مع بعض الولاة أو للقضاء على بعض الانتفاضات والفن فارسية في جملتها ، وكان كثير ممن يسند إليهم الولاية بمصر قُرُصاً ، وبالمثل من كان يُسند إليهم القضاء . وكل ذلك معناه أن العناصر الفارسية تكاثرت بمصر في زمن العباسيين ، وكان لهم أسلاف قدماء جاءوا مع اليمنيين في فتح مصر ، إذ كانت اليمن في الجاهلية تابعة جينا للفرس فكان بها عناصر فارسية ، وقد دخلت في الإسلام وشاركت اليمنيين في رحلتهم للفتح . وبذلك كله نستطيع أن نفسر وجود نفر غير قليل يرجعون إلى أصول فارسية بين علماء مصر وفقهائها مثل الليث ابن سعد الفقيه المشهور وكذلك بين كتابها في الدواوين .

(ج) الطولونيون^(١)

هم أول أسرة حكمت مصر حكما مستقلا ، وحقا كانت تتبع الخلافة العباسية ، غير أن تبعيتها لها كانت اسمية ، وزعم هذه الأسرة ومؤسس دولتها أحمد بن طولون ، وهو تركي الأصل ، كان أبوه طولون من موالى المأمون والمقرين منه ، ورزق بابنه أحمد سنة ٢٢٠ هـ فنى بتريته ، وبدأ بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه ، وأكسب على حلقات العلماء وخاصة فقهاء الأحناف يتروء منها . ومازال أبوه يخدم الخلفاء حتى توفى في عهد للتوكل ، فقوض لأحمد ما كان لأبيه من الأحمال ، وولى بعض الشغور ، وكان شديد الإزراء على الترك في معاملتهم السيئة للخلفاء ، ونال الحظوة عند الخليفة المستعين ، وحاول الأتراك أن يدفعوه إلى المشاركة معهم في مقتله فأبى ذلك ، ولم تلبث مصر أن أقطعت لزواج أمه بإيكباك ، فأتابه عنه في حكمها سنة ٢٥٤ هـ وسرعان ما أخذ يعمل على الاستقلال بها . وبدأ ذلك بأن جمع في يده شئوننا المالية بجانب شئوننا الإدارية ، واتخذ جيشا ضخما بلغ عداده مائة ألف ، وفي أثناء ذلك حُصِّت إلى حكمه الإسكندرية وبرقة ، ولانصل إلى سنة ٢٦٤ هـ حتى تضم إليه الشام . وبلغ خراج مصر في زمنه أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار ، مما جعله يتسع في إقامة المباني والمؤسسات . وكان قد سكن العسكر في أول أمره شأن الولاة من قبله ، ثم أخذ في بناء مدينته القطائع ، بادئا بقصره الكبير ثم بقطاع لجندة من الترك والنوبة والروم ولحواشييه من القواد وكبار الموظفين . وعنى ببناء مسجده الكبير ، وبُنيّت مساجد كثيرة وطواحين وحمامات وأفران وحوانيت . وجعل أمام قصره ميدانا كبيرا يُلقَّب فيه بالكرة ، ولما عظم أمره كان يطعم الفقراء والمساكين كل يوم ، ويقال إن صدقاته كانت تبلغ في السنة أكثر من مليون دينار ، وبني مارستانا ضخما ، واتخذ لنفسه ديوانا كبيرا على شاكلة دواوين الخلافة . وحدثت خصومة بينه وبين الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد وقائده ، مما أدى إلى اشتباك جيوشهما . وعنى في دولته بأن ينقل إليها الألفظة الفارسية التي كانت متبعة في بغداد وسامراء . وأخذ البيعة من بعده لابنه خسارويه . ولم يلبث ابن طولون أن توفى سنة ٢٧٠ هـ .

المقريزي ١/ ٥٨٩ وسيرة أحمد بن طولون للبلي (طبعة محمد كرد علي) وراجع أحمد بن طولون وخسارويه والطولونيون في فاترة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠ .

(١) انظر في الطولونيين تاريخ الطبى والبحرى وابن الأثير وابن خلدون والجزء الثالث من النجوم الزاهرة والمغرب لابن سيد (طبع جامعة القاهرة) ص ٧٣ وما بعدها والولاة للكندي (طبعة صادر) ص ٢٣٩ وما بعدها وخطلط

وتبلغ دولة الطولونيين في عهد خمارويه كل ما كان يؤمل لها من ازدهار . وتحدث في أوائل حكمه تناوشات بين جيشه وعسكر الموفق ، وسرعان ما يتخذ بينها صلح وثيق . ويقال إن رواتب الجيش المصرى بلغت في أيامه تسعمائة ألف دينار ، مما يدل على ضخمة الجيش ومدى عنايته به . وفرغ بعد صلحه مع الموفق للعناية بشئون دولته ، وزاد في قصر أبيه وحول الميدان الذى كان أمامه بحوار مسجد أبيه إلى بستان رائع حمل إليه كل صنف من الشجر وأنواع الورود والرياحين والزعفران ، غير ما اتخذ فيه من الفساق والنافورات ، وسنعرض لذلك في غير هذا الموضع ، ووسع اصطبلاته لكثرة دوابه وحيواناته الأليفة والوحشية . ويقول المؤرخون : كان من عجائب الدنيا في زمنه عرض الخيل بمصر . وبلغ من مجده وعظم شأنه أن طلب الخليفة المعتضد منه في سنة ٢٧٩ أن يزوجه ابنته قطر الندى ، وبنوه المؤرخون بجهازها وما كان فيه من تحف وهدايا لقيسة ، ويقولون إن خمارويه بنى لها على رأس كل منزلة بين القطائع وبغداد قصرًا قرشًا أروع قرش . ومع كل ما انتهى إليه من ملك مصر والشام ومع ما اشتهر به من الشجاعة والبأس قُدِّر له أن يقتل بأيدي غلمانة في دمشق سنة ٢٨٢ . وأقام قواده بعده ابنين صغيرين له بادئين بأكبرهما ، أبى الجيش ، ولا بدور العام حتى يخلعوه ، ويولوا أمهات هرون وكان ضعيفًا ، فلم يستطع لاهو ولا جيشه الصمود أمام القرامطة وشجَّ جيوشهم في الشام ، مما جعل للمعتشين يلبسون من الخليفة المكفى أن يفهمهم بمجده ويلبى استغاثتهم . ويُقتل هرون سنة ٢٩٢ ويتولى بعده عمه شيان الحكيم اثني عشر يومًا إذ سرعان ما يُقدَّم إلى مصر جيش الخلافة بقيادة محمد بن سليمان ، فيزيل حكم الطولونيين ، ويكسبهم الشعراء طويلا . وتعود مصر ثانية ولاية عباسية ، ويتعاقب عليها ولادة مختلفون من بغداد ، وتكثر في عهدهم غارات الفاطميين من عاصمتهم المهدية بحوار القيروان على حدود مصر السفلى والعليا ، ويُذخرون مرارًا ، ويحجزهم إلى حين الإخشيد وأبناؤه .

(د) الإخشيدون ^(١)

الإخشيد هو محمد بن طُغج بن جُفَّ الفَرَغانى التركى خدم أبوه وجده الخلفاء العباسيين ، كما خدمهم بدوره ، ويقال إنه وُلد سنة ٢٦٨ وما زال يعمل في خدمة الخلفاء وقوادهم حتى وُثِّق

ترجم الإخشيد وكافور وسطط للقرى ٦١٧/١ ومروج
اللعب للسعودى ومصر في عصر الإخشيديين للدكتورة
سيدة كاشف ، وراجع مادة إخشيد في دائرة المعارف
الإسلامية .

(١) انظر في الإخشيديين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون
والرولة للكندى ص ٣٠٤ وما بعدها والجزءين الثالث
والرابع من التجرم الزاهرة والمغرب (قسم القسطنط)
ص ١٤٨ وما بعدها وابن خلدون (طبعة دار صادر) في

الثغور ، ويلمع اسمه حين تولى مدينة الرملة بفلسطين سنة ٣١٦ ولم يلبث أن تولى دمشق سنة ٣١٨ وجاءته الكتب في سنة ٣٢١ بولاية مصر غير أنه لم يدخلها ، وظل على دمشق حتى ولاء الخليفة الراضى مصر سنة ٣٢٣ وضم إليه البلاد الشامية والجزيرة والحرمين . وفى سنة ٣٢٧ خلع عليه الراضى لقب الإخشيد ، وهو لقب ملوك فرغانة موطن أجداده ، وغلب اللقب على اسمه . وولى ابن رائق أمر دمشق ، فجمع جنده لحرب الإخشيد ، وتنشب الحرب ، ويتعقد بينها الصلح على أن يترك ابن رائق مدينة الرملة للإخشيد وتظل معه بقية الشام ، وسرعان ما يتوفى وتعود ديار الشام جميعها إلى الإخشيد . وتقع وحشة بينه وبين سيف الدولة الحمداني صاحب حلب ويصطلحان على أن تكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص ، أما باقى بلاد الشام فتكون للإخشيد . ويأخذ البيعة من بعده لابنه أنوجور ويتوفى لآخر سنة ٣٣٤ . وكان حازما يقظا فى حروبه وتدير شئون دولته مكرما لجنوده . ويقال إن جيشه كان يبلغ أربعمئة ألف ، وكان له ثمانية آلاف ملوك وكان يحرصهم فى كل ليلة ألفان . وكان أنوجور ابنه فى الرابعة عشرة من عمره حين ولى مصر وكانت ولايته اسمية ، أما الولاية الحقيقية فكانت لكافور كبير حاشية أبيه الذى اختاره وصيا عليه ، وكان عبداً أسود خصباً ، واختطف - فيما يبدو - إلى حلقات العلماء ، واشترى الإخشيد وأعجب به فأعتقه ومازال يرقى به فى المناصب حتى أصبح من قواده . ولما توفى سيده نهض يشئون ابنه أنوجور على خير وجه ، وساس مملكته خير سياسة ، وكان الحاكم الحقيقى صاحب الأمر والنهى فى إقليسى الدولة الكبيرين : مصر والشام . وكان يبنى الشعراء ويكثر من عطاياهم ، وزار مصر حيثئذ للتبى ، وله فيه مدائح وأهاج مشهورة .

ومازال كافور يدير أمور الدولة لأنوجور حتى توفى سنة ٣٤٩ وأخذ البيعة من بعده لأخيه على وقام على دولته خير قيام حتى توفى سنة ٣٥٥ فاستقل بالأمر من هذا التاريخ واتخذ جعفر بن الفضل ابن الفرات وزيراً له . وكان يُدعى له على المنابر فى مصر والشام ومكة والحجاز . وكانت تُقرأ عنده ليلا السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وكان سيوسا ماهراً ، من ذلك أنه كان يذعن بالطاعة للعباسيين وفى الوقت نفسه يهادى المزعزعات الفاطمية صاحب المهديّة والمغرب ويظهر ميله إليه خداعاً . وكان على علم بالعربية ، وكان كريماً معطاء . وكانت أيامه أيام هناة ورغاء ، ولم يلبث أن توفى سنة ٣٥٧ فعقد أولياء الدولة الولاية لأحمد بن على بن الإخشيد ، وكان صيباً فى الحادية عشرة من عمره ، واضطربت الأموال فى الشام اضطراباً شديداً لغارات القرامطة هناك ، وعيّنهم

في الأرض فسادًا ، ولم تلبث جيوش للعرز الفاطمي أن زحفت من الغرب بقيادة جوهر الصقل سنة ٣٥٨ واستولت على البلاد وانقرضت الدولة الإخشيدية .

٢

الفاطميون - الأيوبيون

(١) الفاطميون^(١)

تتسب هذه الأسرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وقد تكونت حوله فرقة الإسماعيلية بينما تكونت حول أخيه موسى الكاظم الفرقة الاثنا عشرية ، وكانت الفرقتان تمشان على التقية والدعوة سرًا لأئمتها العلويين من سلالة موسى وإسماعيل . وأتيح للإسماعيلية داع خطير هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسي من الأهواز ، وكان ملأ بالفلسفة والملل والأديان ، فنظم الدعوة الإسماعيلية ووضع مبادئها الشيعة الغالية . وبارح موطنه إلى البصرة ثم إلى سَكْمِيَّة بالقرب من اللاذقية في الشام ، ومن هناك اتخذ دعاة للنحلة الإسماعيلية في العراق وغير العراق ، مما هيأ لظهور القرامطة في البحرين وجنوبي العراق ، كما هيأ لظهور داع إسماعيل من جنوبي الجزيرة يسمى أبا عبد الله ، وتصادف أن التقى في أثناء الحج بنفر من قبيلة كتامة المغربية ، فارتضوا دعوته الإسماعيلية وأمرؤه عليهم وسار معهم إلى موطنهم ، فجمع حوله منهم جيشا قضى به على الأغلبية حكام تونس سنة ٢٩٦ ومضى إليه من سَكْمِيَّة عبيد الله الفاطمي ويسلمه مقابلد الأمر ، وتدين له البلاد ، فيتلقب بالمهدي ويعلم نفسه خليفة شرعيا ، ويبني عاصمة جديدة له بجوار القيروان يسميها المهديّة نسبة إليه .

وكان القداح قد جعل أئمة الدعوة الإسماعيلية قسمين : أئمة حقيقيين مستورين أو مستقرّين ، وأئمة بجانهم مستودعين هم رهوس الدعاة المسمون بالحجّج ، وبذلك كان هو نفسه إماما

الزاهرة لابن تغرى بردى وابن خلّكان في تراجم الخلفاء وجوهر الصقل والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصفي والنكت المصرية لعارة اليمن وصبح الأمتى في مواضع مغرقة والفاطميون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم ميتر.

(١) انظر في الفاطميين المنظم لابن الجوزي وتاريخ مصر لابن ميسر وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) طبع دار الكتب واتخاذ الحفا بأخبار الخلفاء للمقريزي وكتابه الخطوط ٢١/٢ وما بعدها وكتاب حسن الحضارة والأجزاء الثالث والرابع والخامس من النجوم

مستودعا ، ومن هنا جاء الشك في نسب عبيد الله وأبنائه الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء ، فقيل إنه فاطمي حقيقة وأنه ابن أئمة مستورين هم على الترتيب التقى والوفى والرضى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وإنما استتروا خوفا على أنفسهم من العباسيين ، وأسماء الأولين على الترتيب الحسين وأحمد وعبيد الله ، وقيل بل هو غير فاطمي من أبناء القداح الإمام المستودع أو أحفاده . وما شكك في هذا النسب المحض الذى كتبه الخليفة القادر العباسي سنة ٤٠٢ بشهادة القضاة والأشراف العلويين بالطعن في نسب الفاطميين . وقد رفض ابن خلدون في تاريخه هذا الطعن ومايطوى فيه من شك في نسب عبيد الله وأسرته الفاطمية وجزم بصحة نسبه إلى على رضوان الله عليه والسيدة فاطمة الزهراء .

ويتبع سلطان عبيد الله في المغرب ، ويضم إلى سلطانه ليبيا والجزائر ، وتشن عساكره غارات على مصر ، ويتوفى سنة ٣٢٢ فيخلفه ابنه القائم وتستولى جنوده على المغرب ، ويثور عليه الحوارج في جبل أوراس ثورة عنيفة ، ويتوفى سنة ٣٣٤ ويخلفه ابنه المنصور فيقضى نهائيا على ثورة الحوارج ، ويتوفى سنة ٣٤١ فيمتلئ ابنه المزعرش الخلافة الفاطمية ، وتدين له المغرب بالولاء ماعدا سجلماسة وفاس ويفتحهما قائده جوهر الصقل ويمهد له البلدان المغربية حتى المحيط الأطلسي ماعدا مدينة سبتة ، فلما ظلت لبني أمية أصحاب الأندلس .

وكانت عين المزعر على مصر ، فلما وصله الخبر بموت كافور وشعر كأنما انهار السد الذى كان يحول بينه وبين الاستيلاء عليها أمر قائده جوهر بالاستعداد لفتحها ، وجهزه بأكثر من مائة ألف فارس وبكل مايلزمه من المال والسلاح . ولم يكذبشرف على الإسكندرية حتى لقبته جماعة من المصريين برسالة من الوزير جعفر بن الفرات بطلب الصلح والأمان . وتقدم جوهر حتى وصل بعسكره إلى الجزيرة ودخل الفسطاط والبر الشرق بجيشه دون مقاومة تذكر من الإخشيدية والكافورية . ونزل بالقرب من الجامع الأزهر ، وأخذ ثوبا يخطط مدينة القاهرة . وكتب جوهر إلى المزعر يبشره بالفتح ، وقطع الخطبة لبني العباس ولبس السواد شعارهم ، وأمر أن يلبس الخطباء البياض وأن يقال في الخطبة : ه اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سيطلى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المزعر لدين الله . وأخذ جوهر في بناء الجامع الأزهر واستغرق ذلك ثلاث سنين . واختط قصر الخلافة ، وحفر أساسه في أول ليلة نزل فيها بالقاهرة ، واختطت

كل قبيلة - رُخطة عُرفت بها وبُنيت حاراتها من يومئذ ، من مثل حارة الروم والحسنية والحرفشف . ولم يلبث أن ضم الشام إلى مصر سنة ٣٥٩ وعُطِب للمعز فيها وفي الحرمين . وفي نفس السنة = ٣٥٩ أمر المؤذنون أن يؤذّنوا بحدّ على غير العمل . وظل جوهر مستقلاً بتدبير مصر والشام أربع سنين وعشرين يوماً إلى أن وصل المعز سنة ٣٦٢ وكان عاقلاً حازماً أدبياً ، وتروى له بعض أشعار ، وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية ، ولم تبق بلد من الشام إلى فاس والمحيط الأطلسي إلا أقيمت فيه دعوتُه وعُطِب له في جمعته وجماعته إلا سنة واحدة فإنها كانت مع الأمويين أصحاب قرطبة كما ذكرنا . ولما استقرت له الأمور بمصر استخلف على إفريقية يوسف بُلكيّن بن زيري الصنهاجي . واستمر جوهر في علو منزلته إلى سنة ٣٦٨ إذ رأى المعز أن يعزله عن دواوين مصر وجباية أموالها ، ورد إليه العزيز مكانه حتى وفاته سنة ٣٨١ .

وتوفى المعز سنة ٣٦٥ بعد أن وطّد الملك العظيم لأبنائه وأحفاده يتوارثونه نحو مائتي عام ، وخلفه ابنه العزيز نزار ، وكان كريماً شجاعاً ، يفضو عند المقدرة محباً للصيد وخاصة صيد السباع ، وكان ينظم الشعر لكن لا يبلغ فيه مبلغ أخيه تميم . واتسمت مملكته بالقياس إلى مملكة أبيه ففتحت له بقية بلاد الشام : حمص وحماة وشييز وحلب ، وعُطِب له بالموصل وبالحمن . وعهد إلى غير وزير بتدبير مملكته ، منهم يعقوب بن كِلْس وكان يهودياً وأسلم . وبقي قصر البحر ، ولم يكن له مثل شرقاً ولا غرباً ، وقصر الذهب . وقال ابن الجوزي إنه ولّى عيسى بن نسطوروس النصراني ومنشا اليهودي فكبت إليه سيدة مصرية بالذي أعزّ اليهود بمنشا والنصارى بآبن نسطوروس وأذلّ المسلمين بك إلا نظرت في أمري ، فقبض عليهما وأخذ من آبن نسطوروس ثلاثمائة ألف دينار . ويروى أنه كان يقول : « أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولم الخيل واللباس والفضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندي » .

وما زال العزيز رفيقاً برعيته حتى توفى سنة ٣٨٦ وخلفه ابنه الحاكم ، وكان في الحادية عشرة من عمره ولم يكن سوى العقل ولا النفس ، فاضطرب سلوكه واضطرب حكمه بين جبن وشجاعة وبخل وسخاء ، وتارة يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً ، وتارة يجلس في الظلام الدامس ، وحيناً يحب العلماء والصلحاء ، وحيناً يفتك بهم في غير رحمة ، وقتل كثيرين من قادة دولته وأصحاب مناصبها الرفيعة . وتارة يأمر بأن يُكْتَب على المساجد والجوامع سبّ أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمر بن العاص وتارة ينهى عن ذلك . وتارة يمنع من صلاة التراويح

ونارة يبيعها ، وكان ينهى عن بعض المأكولات مثل الملوخيا والتمر والجرجر والسك لاقتر له والزيب . وحُرِّم الخمر وشُدِّد في تحريمها ، ورأى لذلك منع بيع العنب وقطع كرومها ، وأراق في النيل خمسة آلاف جِرَّة عمل خشية أن تصير نبيذا . وفي سنة ٤٠٤ منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع لذلك الأساكفة من صنع الأحذية والخفاف لمن وظل ذلك حتى نهاية حكمه . وحُرِّم - فيما حُرِّم - الفناء ولعب الشطرنج والتره على ضفاف النيل ، إلى غير ذلك مما يصور خبله وشذوذه وفساد عقله . وكان دعاة عقيدته الإسماعيلية لا يزالون يُشيعون - مستضيين بنظرية الفيض الأغلاطونية - أن للإمام الفاطمي نسبتين نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة ، مما أدى بالحاكم إلى أن يظن أنه تجسد للذات الإلهية وأغراه بذلك دعائه ، وفي مقدمتهم داع دُرُزى من جبال لبنان ، ويقال بل هو أعجمي دَعَا في تلك الجبال بربوبيته وتبعه الناس هناك . وانسابت من هذه العقيدة عقيدة التجسد للذات الإلهية شعبة إلى التَّصَوُّف في سوريا ، إذ يؤمنون بربوبية علي بن أبي طالب . ولما لم يعد في قوس الصبر مترع حيكت مؤامرة لقلته وتخليص البلاد من شره وخبله ، فقتل في شوال من سنة ٤١١ ويقال إن أخته ست الملك هي التي دبرَّت قتله .

وول الخلافة الفاطمية بعد الحاكم ابنه الظاهر ، وله ست عشرة سنة ، وقامت عمنه ست الملك بتدبير دولته أحسن قيام وبذلت الأموال الكثيرة في الجند وصامت الناس سياسة حسنة ، واستقام الأمر للظاهر ، وعدل في الرعية ، وأعلن البراءة من عقيدة التَّصَوُّف والتَّزَوُّف جميعا . وحوالى سنة ٤٢٠ خرج عليه صالح بن مرداس الكلبي واستولى على حلب ، كما خرج حسان بن المفرج البدوي إلى مدينة الرَّمْلَة وغلب على أكثر الشام ، وجمع هو وصالح بن مرداس الجموع لحرب الظاهر ولقيتهما جيوشه عند غزة ، فانهزم حسان وقتل صالح ، وعادت الشام إلى الطاعة . وبني الظاهر قصر الزُّوْلَة وكان جوادا سمحا حلما محببا للرعية .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ وخلفه ابنه المستنصر وهو في السابعة من عمره ، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر ، واستوزر كبيرين كان من بينهم صدقة بن يوسف الفلاحى استوزره سنة ٤٣٦ ، وكان يدبِّر له الدولة أبو سعد التستري اليهودى ، وقُتِلَا في سنة ٤٣٩ . ويؤسس محمد بن علي الصليحي دولته الصليحية في اليمن ويعلن ولاءه للمستنصر ، ويدعوه على المنابر هناك ، وتقدم حتى سنة ٤٤٣ وإذا المبرز بن باديس يعلن العصيان في المغرب ، ويقطع الخطبة للمستنصر ويخطب لبني العباس ، وبذلك تخرج المغرب من طاعة الفاطميين . وما توافى سنة ٤٥٠ حتى يعظم شأن

أرسلان الباسيرى في بغداد فيقطع خطبة الخليفة العباسى في عاصمته ويخطب للمستنصر ويدعو له على المنابر نحو عام إلى أن قَضَى عليه وعلى قُتته أو دعوته السلطان طُغْرُكُوكُ السلجوق . ويحدث في أيام المستنصر غلاء عظيم تظل مصر تعانيه سبع سنوات كسرى يوسف المهلكة ، بدأت في سنة ٤٥٧ وظلت حتى سنة ٤٦٤ وفيها اشتد القحط بالبلاد واستولى عليها الخراب والوباء وكان الناس إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع ، ويقال إن الرغيف بيع بخمسين دينارا وإن البيضة بيعت بدينار وتوجهت أم المستنصر وبناتها في سنة ٤٦٢ إلى بغداد من فرط الجوع . وزاد طين هذا الغلاء بَلَّةٌ نشوب حرب في الجيش بين الترك والسودان ، وكادت لا تبقى في قصر الخليفة تحفة نفيسة إلا بيعت بأرخص الأثمان . وبدا من الصعب إنقاذ مصر من كل هذا البلاء لولا أن استجد المستنصر في سنة ٤٦٨ بيدر الجمالى ، وكان قد تولى الشام والسواحل للمستنصر ، فاستدعاه وفُرض الأمور إليه ، فاستقامت بحسن تدبيره وهدأت الفتن وأصبح الحكم والأمر كله له وليس للمستنصر إلا الاسم ومات قبله بأشهر ، فعهد إلى ابنه الأفضل بالقيام مكانه ، ويتلقب شاهنشاه أو ملك الملوك ولا يلبث المستنصر أن يتوفى سنة ٤٨٧. ويقال إنه قد عهد من بعده إلى ابنه الأكبر نزار ، غير أن الأفضل الجمالى كان يكرهه ، فلما اجتمع الأمراء والخوفاص بعد وفاة المستنصر حُبِّبهم في أن يخلفه ابنه أحمد ، فبايعوه بالخلافة وجعلوا أو جعل الأفضل لقبه المستعل . وأحدث ذلك انقساماً بين إسماعيلية مصر وإسماعيلية إيران فبينما كان الأولون يعترفون بإمامة المستعل كان الآخرون لا يعترفون بإمامته إنما يعترفون بإمامة نزار ويرون أن سلالة هم الأئمة الحقيقيون ، وحاول نزار أن يسترد الخلافة فثار بالإسكندرية وقضى الأفضل على ثورته . ولا يزال هذا الخلاف قائماً بين الإسماعيلية في الهند إلى اليوم ، فالْبُهْرَةُ مستعيلة وشيعة أغاخان نزارية . ولم يكن للمستعل مع الأفضل حكم ، كما كان حال أبيه المستنصر مع بلدر الجمالى ، وظل ذلك حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطمية ، فقد أصبح الخلفاء الفاطميون وراء الحجاب ولا أمر لهم ولا نهى إلا أن يخرجوا في مواعيد أول العام الهجرى ولصلاة الجمعة في رمضان وصلاة العيدين .

ولعل الحكم الوراثى لم يتضح شره ولا عواقبه الوخيمة كما اتضح في عهد الفاطميين بمصر ، فقد كان الخليفة الثالث وهو الحاكم - مجنوناً أو مجبولاً ، وتولى المستنصر وهو في السابعة من عمره كما مرّ بنا ، وكأنما جيء بالخلافة أرجوحة للصبي ، وتوفى المستعل سرياً سنة ٤٩٥ فأقام الأفضل ابنه الأمر مقامه وهو في الخامسة من عمره ، والبلاد في أشد الحاجة إلى حاكم حازم ، فالسلاجقة

يستولون على كثير من مدن الشام وماتلبث طائفة الصليبيين أن تجتمع على ديار الشام والموصل ، وتتعاقب الكوارث والخطوب منذ سنة ٤٩٠ إذ تقدم جموعهم من آسيا الصغرى ، ويسفل بلدوين إلى الرها بالموصل ويستول علىها ويكون بها أولى إماراتهم واستولت جموع أخرى على أنطاكية وكونوا بها إمارتهم الصليبية الثانية . ويأخذون المعرة في سنة ٤٩٢ ويستول جودفرى في نفس السنة على بيت المقدس وتكون بها إمارتهم الصليبية الثالثة ويستول ريموند على طرابلس سنة ٥٠٢ وتكون بها إمارتهم الصليبية الرابعة ، ويستولون على مدن لبنان وكثير من مدن فلسطين مثل الرملة وعكا ، ولا يبقى لمصر في الشام سوى عسقلان . وكل ذلك يحدث والأفضل سادر في غفلة والجيش المصرى غائب عن حماه إلا بعض تجريدات برية وبحرية لا تنفى شيئا . ويُقتل الأفضل سنة ٥١٥ ويُقتل الخليفة الأمر سنة ٥٢٤ ويتولى عرش الخلافة الحافظ ، ويستوزر أحمد بن الأفضل الجبالى وكان هو وأبوه وجده سنيين ، فيأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا في خطبهم للحافظ كما يأمر المؤذنين أن يسقطوا من أذانهم « حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ » أحد شعارات الفاطميين ، وكأنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، غير أن أنصارها من حواشيا وشيعتها أسرعوا قتلوه . ويتولى الخلافة بعد الحافظ ابنه الظاهر سنة ٥٤٤ ولا يلبث أن يتوفى فيخلفه ابنه الفاتر وهو فى الخامسة من عمره سنة ٥٤٩ ويتولى سنة ٥٥٥ فيخلفه العاضد آخر خلفائهم وهو فى الحادية عشرة من عمره . وكان الخلافة أصبحت أرجوحة حقيقة للصبي والعلان ، ونظل نرى مع كل خليفة وزراء ، وغالبا يسقطون مقتولين . ولم يكن لكل منهم من شاغل سوى أن يجمع أكثر ما يمكن من الأموال لنفسه ، مُثْقَلًا فى أثناء ذلك على المصريين بالضرائب الفادحة ، بينما يعيش هو ومن وراءه من الخلفاء للهو والقصف .

وتفقد فى أثناء ذلك التدهور والاحتلال أداة الحكم فى مصر فسادا شديدا . ومع ذلك لا تزال ترسل إلى الشام بعض تجريدات ذرا للرماد فى العيون ، وحتى عسقلان يحتلها الصليبيون ويطمحون إلى احتلال وادى النيل . وبأخرة من أيام هذه الدولة يقتل ضرغام وشاور على الوزارة ويفزع شاور إلى البطل المغوار نور الدين صاحب حلب مستنجدا به ويهجم حينئذ أملىك الصليبي صاحب بيت المقدس على مصر ويتقدم حتى بليس ، ويقطع المصريون عليه الجسور والسدود فيضطر إلى العودة . ويقدم سنة ٥٥٩ شاور ومعه عساكر نور الدين بقيادة شريكوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويمكثان لشاور فى الوزارة ، وسرعان ما يقلب ظهر الجن لشريكوه وجنوده .

ويدفعه شيطانه إلى الاستعانة ضده بأمريك والصليبيين ، ومحاصرون شيركوه في بلبس يضطرون إلى رفع الحصار عائدتين إلى بيت المقدس . ويخرج شيركوه من مصر ، فيعظم بنى شاور وطفانيه ، فيستنجد العاضد بنور الدين سنة ٥٦٢ ، ويرسل ثانية شيركوه وصلاح الدين ، فيستنجد شاور بأمريك ، ويليّه ، وتدور عليه الدوائر ، ويخرج على وجهه هو وجنوده من القاهرة ، ويخرج أيضا شيركوه وصلاح الدين إلى الشام . ولا يلبث الصليبيون أن يعودوا لامتلاك مصر ويقدم أسطول صليبي إلى تّيس وبعظم الخطب . ويستصرخ العاضد وشاور نور الدين ، فيرسل إليهما عسكريا بقيادة شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٤ ويستنقذان مصر من الصليبيين وشاور جميعا . ويتولى شيركوه الوزارة للعاضد شهورا ، ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، ويكتب إليه نور الدين مرارا يأمره بتحويل الخلافة في مصر من الفاطميين إلى العباسيين . وتصادف أن مرض العاضد مرض الوفاة ، وفي أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين ، فأقام الخطبة لبني العباس في أول المحرم سنة ٥٦٧ ولم تمض إلا أيام حتى توفى العاضد في يوم عاشوراء . وبذلك انتهى أمر الفاطميين وحكمهم للديار المصرية .

(ب) الأيوبيون^(١) (صلاح الدين)

اتفق المؤرخون على أن الأيوبيين أسرة كردية أصلها من بلدة دُوين في آخر إقليم أذربيجان وما ولد شافى جد صلاح الدين وأبوه أيوب وعمه شيركوه ، وقد هاجروا منها إلى بغداد ، ولم يلبث أيوب أن أصبح حافظا لقلمة تكريت ، والتحق شيركوه بعاد الدين زنكى ، وتحول أيوب إلى العمل مع حاكم دمشق ، بينما ظل شيركوه عند زنكى ولما توفى عمل مع ابنه نور الدين وحدث أن حاصر عسكر نور الدين دمشق بقيادة شيركوه بينما كان أخوه أيوب على رأس حاميتها ، واتفق الأخوان على تسليمها لنور الدين ، فعين أيوب حاكما عليها ، وأقطع شيركوه حمصا ، وقربه منه . فلما استنجد شاور والعاضد بنور الدين أرسل إليهما عسكريا بقيادة شيركوه

الدين لابن شداد والفتح القسوى في الفتح القسوى والبلق الشافى لعماد الأصبهان وابن علكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين والحروب الصليبية حديثا في العرية واللغات الأجنبية .

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون وفتح الكروب لابن واصل والروضتين وذيال الروضتين لأبي شامة وخطط المقرئ والسلوك الجزء الأول ومرة الزمان لسيد ابن الجوزى والجزءين السادس والسابع من التحريم للزاهرة وديال الزهور لابن لباس وسيرة صلاح

وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب، وتطورت الظروف كما مررنا، ففقد صلاح الدين نهائياً على الدولة الفاطمية، ورد مصر إلى الخلافة العباسية، واستولى على قصر الفاطميين وما كان به من أموال وكنوز. وجد في إصلاح أحوال مصر، فحط عن كواهل المصريين أثقال الضرائب الباهظة التي كان يتنافس وزراء الفاطميين في فرضها، وبذل الأموال، وملك قلوب الرجال، وطمحت نفسه إلى أن يصبح والياً للخلافة العباسية بمصر، إذ نراه يلُمع في الرسالة التي كتب بها إلى وزير بغداد، بنيت فيها بإزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية، إلى ما يدور بخله قائلا عن نفسه: «إنه مفتخر إلى أن... يقلد ما فتح، ويبلغ ما اقترح، ويقدم حقه ولا يُطرح، ويقرب مكانه وإن نزع، وتأتيه التشريفات الشريفة». ويأخذ في إعداد جيش قوى للقاء الصليبيين وينحى منه العناصر الزنجية والأرمينية التي كانت تعمل في جيش الفاطميين.

ويطعم إلى الاستيلاء على فلسطين باب مصر الشرق، ويحاصر الشوك في سنة ٥٦٧ ويرفع الحصار عنها حين علم أن نور الدين يجهز الجيوش لحرب الصليبيين وكأنه خشي لقاءه، ومع ذلك كان يعمد نفسه تابعاً له، وكان الخطباء في مصر يدعون في آخر خطبهم لنور الدين. وعاد صلاح الدين في السنة التالية إلى حصار الشوك والكرك، ثم رفع الحصار، وإن كان قد استولى على أيلة (العقة). وفي سنة ٥٦٩ يستأذن نور الدين في إنفاذ أخيه توران شاه على رأس جيش إلى اليمن للقضاء على خارجي هناك استعمل شأنه وكذلك على بقية الدعاة للفاطميين، ويذهب إليها ويستولى عليها. وفي هذه السنة قبض على جماعة من شيعة الفاطميين كانوا يدبرون مؤامرة لقتله وكان من بينهم داعي دعاة الفاطميين وعارة اليمن الشاعر، وقتل داعي الدعاة وصلب عمارة.

وفي هذه السنة توفي نور الدين، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل، وكان في الحادية عشرة من عمره، وبدا في وضوح أنه لا يصلح للتهوض بأعباء الحكم وجهاد الصليبيين. وأعترف صلاح الدين بسلطانه، وأمر بالدعاء له في خطبة الجمعة وصلّت النقود باسمه. ولم يادر بالتجهيز إلى الشام لانشغاله بأسطول لنورماندي صقلية هاجم الإسكندرية وحاق بالأسطول الهزيمة، وأيضاً لانشغاله بثورة في جنوبي بلاد الصعيد أشعلها موالو للفاطميين يسمى الكتر ودارت عليه الدوائر. ومربناً آنفاً أنه أرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على اليمن ومفاتيح البحر الأحمر، ونراه يسير عسكرياً بعد عسكر إلى بلاد المغرب الأفريق ودانت له بالطاعة برقة وقسطنطية وقصعة وتوزر مما يدل على أنه فكر مبكراً في وحدة البلاد العربية التي أرادها نور الدين. وها هو مبكراً قد أصبح

يضم سلطانه جزءاً من الشمال الإفريقي المغربى والحجاز واليمن . وجاءته الأخبار بأن نواب الملك الصالح إسماعيل يستقلون بالحكم ويتنازعون تنازعا مريراً مستعينين بالصليبيين ، فاستقر في نفسه أنه لايد أن يفرض سلطانه على ديار الشام والموصل قبل أن يسدد للصليبيين ضرباته . وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ بجيش كثيف ، وقصد دمشق واستولى عليها ، كما استولى على كثير من المدن الشامية . وتقاومه جنود الملك الصالح إسماعيل وابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل ويكتبُ له النصر ، ويعقد صلحا مع الملك الصالح يُتق له فيها حلب وحدها ، بينما تدخل الديار الشامية جميعها في سلطانه . ويعود إلى مصر سنة ٥٧٢ ويأمر قراقوش ببناء سور ضخيم حول القاهرة والفسطاط حماية لها ، ويُنظّل المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج بمجدة ويعوض صاحب مكة عنها آلاف الأرباب لهما تفرق في أهل الحرمين ، ويأخذ في إنشاء المدارس والرباطات بالقاهرة منذ هذا التاريخ . ويعود إلى الشام في سنة ٥٧٣ ويواقع الصليبيين في غير معركة وترجع كفته رجحانا واضحا ، ويمضى إلى الشمال وديار الموصل ويستولى على كثير منها : ويعود إلى مصر ويفسط الأمور فيها ويأمر ببناء قلعة الجبل . وبأنه الخبير بموت الملك الصالح إسماعيل ، فيخرج في أول سنة ٥٧٨ ويتم له الاستيلاء على حلب وبعض بلدان الجزيرة والموصل . وتسوّل لرايخنالد نفسه أن يهاجم مكة والمدينة من حصنه الكرك واستولى على أيلة وشحن سفا بالرجال وآلات الحرب ، وعاثوا في البحر الأحمر وموانيه الحجازية والمصرية ، وتعقبه العادل نائب أخيه صلاح الدين في مصر بأسطول مصرى فتك بسفنه ورجاله .

ونصل إلى سنة ٥٨٣ فبعد صلاح الدين جيشا ضخما لمنازلة الصليبيين الجنوبيين وينفخ في نفير الحرب فيأتيه المهادنون من كل حَنَب ، ويتجه نحو طبرية ، وتلتق إحدى سراياه في شرق حيفا بجاعة من الداوية والإشتارية الطائفتين اللتين نذرتا أنفسهما لحرب المسلمين ، وتسحقهما السرية ويقتل قائد الطائفة الثانية . ويتجمع الصليبيون من كل مكان بقيادة جاي لوزيمان صاحب بيت المقدس ، وتنشب بينهم وبين صلاح الدين موقعة جُطّين المشهورة في غربي طبرية ، ويُمنَحَقُ بجيشهم محقا ، ويولى هاربا ريموند صاحب طرابلس وريئال صاحب صيدا ، ويأخذ المسلمون الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويقع في الأسر قادتهم وزعاؤهم جاي لوزيمان صاحب بيت المقدس وهو صاحب جبل شالى بيروت وهفرى صاحب يثين إلى الجنوب الشرق من صور وجيرار مقدم الداوية ورايخنالد صاحب الكرك ، وبلغ من كثرة القتل والأسرى أن قال

أبوشامة في كتابه الروضتين : « من شاهد القتل قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتل » . واستعرض صلاح الدين كبار الأسرى ، ولم يكن هم إلا رايحالد صاحب الكرك لما مر من محاولته غزو مكة والمدينة ، ولما مثل بين يديه قال له : ها أنا أنتصر منك لمحمد ﷺ ، وعرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ، فسلّ خنجره وضربه ضربة قاتلة ورُميت جثته على باب الحنية . وطمان بقية زعمائهم ، غير أنه أمر بقتل من أسروا من الداوئة والإسبانية لحبسهم أنفسهم على قتال المسلمين . وغصّت حيثذ أسواق دمشق بأمرى الصليبيين المسترقين ، وبلغ من كثرتهم أن كان يباع الأسير منهم بثلاثة دنانير .

وعلى أثر هذه الموقعة العظيمة فُتحت القلاع والمدن في فلسطين وجنوى لبنان أبوابا لصلاح الدين الأيوبي ، فاستولى على عكا وحيفا ونابلس وبيت جبريل (برسيج) وغزة والرملة وبيروت وصيدا . ولم يبق في الجنوب سوى الكرك والشوك ، وبقيت صور التي لجأت إليها فلول الصليبيين . وعزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس ، فحاصرها وضايقها بالزحف والقتال والمنجنيقات ، حتى أسلمها من كان بها من الصليبيين راغبين خاضعين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ وتكس الصليب الضخم الذي كانوا قد أقاموه على قمة الصخرة ، وأزيلت كل آثار الصليبيين من المسجد الأقصى وأقيمت به صلاة الجمعة بين التهليل والتكبير والفحجج بالدعاء ، وأمر صلاح الدين أن يزيّن المسجد بالفستيفساء والرخام ، ونقل إليه متبرافخا من حلب لا يزال به إلى اليوم . وظن أنه لم يعد في حاجة إلى جيوش ضخمة بعد انزواء الصليبيين في صور وطرابلس وأنطاكية ، فتخفف من جيوشه وعاد كثير من عساكره إلى بلادهم ، وظلت البلاد المتبقية من فلسطين تدخل في حوزته ، مثل صفد والكرك والشوك وحصن كوكب . واستولت عساكره على بعض الحصون في لبنان وشمال أنطاكية ، كما استولت على اللاذقية .

وأشعل مقوط القدس الحرب الصليبية من جديد ، إذ أخذ البابا يصرخ في الملوك ، وحمل الصليب لحرب المسلمين في فلسطين سنة ٥٨٧ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، ومُنيت حملة فردريك في أثناء اجتيازها آسيا الصغرى بحسائر لا تكاد تحصى في الأرواح ، ولم يبق منها إلا فلول ، أما حملتا فيليب وريتشارد فقلعتا من البحر ، وحاصرنا عكا وسقطت في أيدي الصليبيين بعد دفاع مستميت من حاميتها ، وعاد فيليب إلى فرنسا ، وظل ريتشارد حتى سنة ٥٨٨ يقود الجيوش الصليبية وينازل صلاح الدين . واستولى على

بعض البلاد الساحلية ، واضطرَّ إلى الصلح مع صلاح الدين على أن تظل للصليبيين المدن الساحلية من صور إلى يافا ، وسمح صلاح الدين للتصاري أن يزوروا القدس حُجَّاجاً عزلاً من السلاح . وسار صلاح الدين إلى دمشق ولم يلبث أن لبى بها نداه ربه في صفر سنة ٥٨٩ هـ فكاه الناس وذرفوا عليه الدموع الغزار . وسقط في غير هذا الموضع عند عثائه بالعارة والبارستات والمدارس ، وقد أشاع الرخاء في مصر بما أسقط عن كواهل الناس من المكوس والضرائب الباهظة . وكان عبا للعدل ، وكانت سماحته في معاملة الصليبيين مضرب الأمثال بينهم ، ولا يزال مؤلفو الغرب يتوهمون بها إلى اليوم ، وكان رفيقا برعبته عطوفا على أهل العبادة والصلاح . وكان قد قسم في سنة ٥٨٢ هـ البلاد بين أبنائه وأهله ، فأعطى ابنه العزيز عثمان مصر وجعل أخاه العادل أتاكبا له (مدبرا للدولة) وأعطى ابنه الأفضل دمشق وأعطى ابنه الظاهر حلب ، وأعطى ابن أخيه تقي الدين عمر بلدانا في شمال الشام وميفارقين بديار بكر ، وعاد صلاح الدين قبل وفاته فجعل للعادل الموصل وديار بكر والكرك والشوبك . وتوفى فخلفه على مصر العزيز عثمان سنة ٥٨٩ هـ وكان باراً بالريعية عادلا منصفاً ، بينما كان أخوه الأفضل في دمشق يسير في الناس هو ووزيره ضياء الدين بن الأثير سيرة سيئة ، فرأى أن يأخذها منه ، وجعل لذلك جيشا ساربه إلى دمشق ، غير أن أخاه الأفضل استجده بعمه العادل فأصلح بين الأخوين ، وانصرف العزيز عثمان إلى مصر ، وظل الأفضل ووزيره سادرين في غيبتها ، مما جعل العادل يكذب إلى العزيز بوجوب أخذ دمشق ، والتقى بها سنة ٥٩٢ هـ وأرغما الأفضل على تركها إلى صرخند سنة ٥٩٤ هـ واستخلف العزيز عثمان على دمشق المعظم عيسى ابن عمه العادل . وعاد إلى مصر يحكمها حكما رشيدا حتى توفى سنة ٥٩٥ هـ . وخلفه ابنه المنصور وكان صبيا في العاشرة من عمره ، فاستقدم الجند الأفضل ليدبر له الحكم ، وما إن وضع قدمه في مصر حتى كاتب أخاه الظاهر في حلب ، مزينا له المهجوم معه على دمشق وأخذها من ابن عمهما المعظم عيسى ، والتقى جيشاهما هناك ، ولكن العادل عرف كيف يوقع بينهما ، وعاد الأفضل بمنوده إلى مصر ، فتبعه عمه العادل ، وعرض عليه أن يترك القاهرة ويأخذ ميفارقين وديار بكر ، ولم يجد بداً من القبول ، وسرعان ما أخذ العادل فتوى من الفقهاء بأنه لا يجوز ولاية الصغير على الكبير ، وعند ذلك قطع في سنة ٥٩٦ هـ الدعاء في خطبة الجمعة للمنصور ، وأمر بالدعاء له ولابنه الكامل من بعده .

وأصبح العادل منذ هذا التاريخ حتى سنة ٦١٥ هـ سلطانا لمصر ، مع ما كان يده من فلسطين ودمشق والجزيرة وديار بكر والموصل . ولما استقامت له الأمور في كل تلك الدولة قسمها بين

أولاده ، فأعطى ابنه الكامل محمدًا الديار المصرية . وأعطى ابنه موسى البلاد الشرقية وراء الشام وشركه فيها إلى وفاته أخوه الأوحـد . وأعطى ابنه المعظم عيسى دمشق . وسير السلطان الكامل من مصر ابنه المسعود إلى اليمن سنة ٦١٢ فلـكـها . وبذلك دخلت في حوزة العادل الحجاز واليمن وكل البلاد التي أظـلـهـا الواء صلاح الدين ، وكان محكمًا بحسن التدبير الحكم وسياسة الملك ، وكان فارسًا مجاهدًا أبلى بلاء حسنًا مع أخيه صلاح الدين في الحروب الصليبية ، وكان تقيا وقد طهر ولاياته من الخمر وكل ما يجر إلى الفسق والإثم . وسار سيرة أخيه في رفع المكوس والمظالم ، وله صنف فخر الدين الرازي كتابه « تأسيس التقديس » وسيره إليه من خراسان . وتضاءلت في أيامه الحروب الصليبية ، وفي سنة ٦٠٩ يغزو الصليبيون دمياط ويُرْثِدُون على أعقابهم . ويعيدون الكرة في سنة ٦١٥ ويتفق أن يتوفى العادل ويخلفه الكامل في مصر نهائيًا ويشغل من بعض الوجوه بتدبير الحكم ، ويظل الصليبيون بدمياط نحو ثلاث سنوات يعيشون فسادًا ، وتسول لهم شياطينهم أن يتقدموا في البلاد مع فرع دمياط نحو المنصورة ، وكان النيل في قمة فيضانه ، فسلط المصريون مياهه عليهم ، وأيقنوا الهلاك فراسلوا السلطان الكامل طالبين منه الأمان حتى يرحلوا عن دمياط مدحورين ، وتسلم منهم دمياط في رجب سنة ٦١٨ وكان يومًا مشهودًا ، كثفت به الشعراء طويلا . ودانت للكامل دمشق سنة ٦٢٦ وكذلك البلاد الشامية والشرقية وكان ابنه المسعود قد استولى على الحجاز واليمن . ويروي بعض من حضروا الحج بمكة سنة ٦٢٠ أن الخطيب هناك دعا للملك الكامل ، قال : « صاحب مكة وعييدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والجزيرة ووليدها » . وما زال نجمه متألقا حتى توفي سنة ٦٣٥ .

وكان الكامل قد جعل ابنه الأكبر نجم الدين أيوب على الشرق وإقليم ديار بكر ، وجعل ابنه الأصغر العادل على مصر والديار الشامية ، وكان في الثامنة عشرة من عمره ، فلم ير الأمراء بدءًا من توليته حسب رغبة أبيه ، وعظم ذلك على نجم الدين أيوب ، فزحف بجيشه إلى دمشق واستولى عليها ، ثم سار متجها إلى الديار المصرية ، وحفلت رحلته بأحداث كثيرة ، حتى إذا وصل إلى مصر قبض على أخيه العادل وأعلن نفسه سلطانا على مصر سنة ٦٣٧ . وكان قد أكثر من شراء المالك . وبنى لهم قلعة الروضة في سنة ٦٣٨ وأنشأ فيها دورًا وقصورًا كثيرة وعمل لها ستين برجًا وبنى بها مسجدًا واتخذها دار ملكه وسكنها بأهله وأسكن معه فيها مماليكه البحرية . وكان أبناء عمومته وإخوته قد خرجوا عليه في الشام واستولى عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستعان بالصليبيين وسلم إليهم القدس وطبرية وصقلان . فزحف السلطان نجم الدين أيوب بجيش كثيف

إلى الشام في سنة ٦٤٢ واستول على بيت المقدس من الصليبيين وأفناهم قتلاً وأسرًا ، واسترد دمشق ، وعادت له مملكة جده العادل بكاملها حتى حلب والموصل والجزيرة . وبينما كان في دمشق سنة ٦٤٧ مرض في أولها ، وبينما هو مريض علم بغزو الصليبيين لدمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقدّيس ، وأنهم أحاطوا بدمياط من جميع جوانبها وسقطت في أيديهم وأنهم خرجوا منها في اتجاه مدينة المنصورة ، فصمم على لقائهم والمرض ينقل عليه وحُمِلَ إلى مصر في محفّة ، وزحف بجيشه مسرعاً إلى تلك المدينة ولم يمضِ على المرض بها ، فمات ميتة الشهداء مجاهدًا في سبيل الله . وأُخفيت زوجته شجرة الدر وفاته حتى يحضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة شرق الشام . وأُخذت له البيعة بالسلطنة وهو غائب ، وقدم إلى المنصورة وأدار بمجرد قدومه في أول المحرم لسنة ٦٤٨ معركة حاسمة مع الصليبيين مرّفقهم فيها شرمزق ، وكانوا بوسط الطريق بين دميّاط والمنصورة ، فقتل منهم بضعة آلاف وأسر أكثر من عشرين ألفاً بينهم لويس التاسع ، وحملته إلى المنصورة مركب في النيل تضرب فيها الصنوج والطبول بينما الأسرى يُجرّون بالحبال على ضفتي النهر والمصريون يهللون ويكبرون من حولهم . ويسجن لويس في المنصورة بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء . ومن عجب أن يكافأ توران شاه على هذه الموقعة الباسلة التي قضى فيها قضاء مبرما على أكبر حملة صليبية وُجّهت إلى مصر باغتيال ممالك أيه له ، وكان لويس لا يزال في الاعتقال فاقدى نفسه وظول حملته بأموال وفيرة ، وعاد إلى بلاده خاسرًا ذليلًا .

واجتمع رأى الممالك على تولية شجرة الدر الملكَ بعد توران شاه ، وكانت جارية تركية اشتراها السلطان نجم الدين أيوب وأعتقها وتزوجها ، وكانت راجحة العقل حنة السيرة جيدة التدبير ، فاتفق الممالك على أن تلى شؤون السلطنة ، وتم أمرها ، غير أن الأيوبيين في الشام سرعان ما خرجوا عليها ، فانتقضت الوحدة التي انعقدت بين الشام ومصر منذ انقضى الحكم الفاطمي ولم يمضِ على سلطنتها نحو ثمانين يومًا ، وأُحسّت بمرح الموقف ، فرأت التزوج من عز الدين أيك أنابك العسكر وأن تتحول مقابل السلطنة إليه . وحاول - خداعًا للأيوبيين في الشام - أن يشرك معه في الحكم صبيًا أوييًا هو الملك الأشرف موسى ، وكان في السادسة من عمره ، ولكنه عاد فتخلص منه . وعلى هذا النحو تحول ملك الديار المصرية في سنة ٦٤٨ من الأيوبيين إلى الممالك وقائدهم أيك ، ولا ريب في أن عهد الأيوبيين كان من أعظم العهود بمصر ، فقد نهضوا بها نهضة عظيمة واستطاعوا بجنودها أن يقهروا الصليبيين ويزجحهم عن صدر الشام ، ويردوهم عن قرّاء وحماها إلى البحر المتوسط وما وراءه .

الممالك - العنانيون

(١) الممالك^(١)

أخذ خلفاء صلاح الدين يستكثرون من شراء الممالك الترك وجلبهم من أواسط آسيا وتكوين فرق عسكرية منهم في جيوشهم ، وأكثر منهم خاصة السلطان نجم الدين أيوب ، وكان الأيوبيون لم يتعطلوا بما كان من هؤلاء الترك في العصر العباسي الثاني واستيلائهم على مقاليد الحكم في بعض الولايات الكبرى كما حدث في مصر نفسها لعهد أحمد بن طولون والإخشيدي التركيين . وما إن تولى السلطان نجم الدين أيوب وخلفه ابنه توران شاه حتى استولى الممالك على صولجان السلطان باسم شجرة الدر التركية ، وسرعان ما أسلمت الحكم والسلطان - كما مر بنا آنفاً - إلى عز الدين أيلك قائدهم . وظل الممالك من هذا التاريخ وهو سنة ٦٤٨ يحكمون مصر إلى الفتح العثماني سنة ٩٢٢ في مجموعتين كبيرتين تسمى أولاها الممالك البحرية نسبة إلى نهر النيل الذي كان يحيط بجزيرة الروضة مسكنهم الذي أنزلهم فيه السلطان نجم الدين أيوب . وكانوا يستكثرون من شراء الممالك ويبتزلونها في أبراج القلعة حيث يربون تربية عسكرية جيدة ، ويسمون نسبة إلى مسكنهم الممالك البرجية ، وهم المجموعة الثانية التي خلفت الممالك البحرية في حكم مصر منذ سنة ٧٨٤ . تولى عز الدين أيلك شئون مصر سنة ٦٤٨ ورأى كما أسلفنا أن يشرك معه في الحكم الملك الأشرف موسى محاولة لكسب رضا الأيوبيين في الشام ولكنهم ظلوا مغاضبين له ، وأخذوا في حربه ، حيثئذ رأى أن يتخلص من الأشرف موسى. وحدثت حروب ومتناوشات بينه وبين الأيوبيين ، وارتضوا أخيراً أن تكون له مصر وفلسطين حتى نهر الأردن ، غير أن شجرة الدر زوجته

القاهرة) وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات (طبع بيروت) وغزوات قبرص وروندس للسبوطي (طبع بئنا) والدرر الكفنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والضوء اللامع للشاطي ودولة الظاهر ودولة بني قلاوون لجمال الدين سرور والمصر المسالكي لسيد عبد الفتاح عاشور وبروكلمان ص ٣٦٥ وما بعده .

(١) انظر في الممالك السلوك والخطط للمقريزي والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والبدية والنهاية لابن كثير وتاريخ ابن خلدون والنجوم الزاهرة الجزء السابع وما بعده من أجزاء وبدائع الزهور لابن إياس والتبر المسبوك في ذيل السلوك للشاطي ومجالس السلطان الغوري وآخرة الممالك لابن زنبيل وتشريف الأيام والمصور في سيرة الملك للنصور (طبع

شُكِّت في إخلاصه لها ، فدبرت مؤامرة ضده سنة ٦٥٥ فأت مقتولا ولم تلبث أن لقيت نفس المصير ، وتولى زمام الحكم السلطان المنصور على بن أيك حتى سنة ٦٥٧ وكان قُطز أتابكاً له قبض عليه واستولى على مقاليد الحكم . وكان التار قد استولوا في العام السابق على بغداد ونكلوا بها تنكيلا عظيما ومضت زحوفهم بل سيولهم تتقدم إلى الشام وأخذت تهبط إلى الجنوب فعمد قُطز إلى مملوك عظيم من ممالك السلطان نجم الدين أيوب هو يبرس في قيادة طليعة الجيش حتى إذا انتهى إلى عين جالوت بين بيسان وناבלس سنة ٦٥٨ أصدر أمره إلى يبرس أن يتابع سيره تجاه التار وأنقى بقية الجيش بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت . والتحم يبرس بالتار وأظهر بسالة نادرة في حربهم ، وتبعه الجيش يستبسل بقيادة قُطز ، منزلا بالتار ضربات قاصمة حتى اضطروا إلى الفرار مؤلّين وجوههم إلى الشمال لا يلوون ، تاركين وراءهم ما لا يكاد يحصى من الغنائم والأسرى . وتعدّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ ، إذ صدّت التار نهائيا عن مصر والشام ، وقد ثبتت أقدام الممالك لاني حكم مصر وحدها ، بل لقد انضوت الشام جميعها تحت لوائهم ، ويقتسم شرفها بحق قُطز ويبرس . وليبرس فيها الشرف الأكبر ، إذ كان على طليعة الجيش ، واستطاع أن يقتحم بطليعة صفوف التار ، ويزلزل أقدامهم ويحدث الفوضى في عساكرهم . حتى إذا تم هذا النصر المبين ظن أن قُطز سيكافئه عليه مكافأة كبيرة ولم يلبث أن طلب منه نيابة حلب ، ولكن قُطز لقصر نظره بحل عليه بها ، فكان طيعيا أن يدبر مؤامرة ضده في أثناء قفوله إلى مصر ، وواتته الفرصة فقتله ، وانتخبه أمراء الممالك وقوادهم سلطانا على الديار المصرية والشامية ، وتلقب باسم الملك الظاهر .

وكان يبرس سلطانا حازما على الهمة شديد البأس بعيد النظر يحسن تدبير الملك وسياسته ، فرأى أن انتصار عين جالوت وحده لا يكفي في تثبيت سلطانه ، وانتبه لظهور أمير عباسي بدمشق فر من التار فاستدعاه إلى القاهرة ، حتى إذا تأكد نسه إلى بني العباس بايعه هو والناس بالخلافة في حفاوة بالغة ، ولم يلبث هذا الخليفة العباسي أن قلّده سلطنة مصر والبلاد الشامية وغيرها مما يظله سلطانه . وبذلك ثبت عرشه ووطد سلطانه ضد أي محاولة قد يحاولها أحد الأيوبيين لاستعادة ملك آباؤه . وظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر طوال حكم الممالك إلى أن أخذ السلطان سليم الأول العثماني آخر خلفائها معه إلى القسطنطينية ، وأخذ سلاطين آل عثمان يقلدون الخلافة على المسلمين إلى أن أزالها مصطفى كمال أتاتورك كما هو معروف . وأتاح وجود هذه الخلافة العباسية الاسمية بالقاهرة للظاهر يبرس ومن خلفه من الممالك أن يعدّوا أنفسهم حماة الخلافة والإسلام ، وأقادوا

من ذلك سيطرتهم على الحجاز والحرمين ، ووضع يبرس تقليدًا أن يسافر محملًا إلى مكة سنويا يحمل الكسوة الشريفة ، وهو تقليد لا يزال قائمًا إلى اليوم . وعُني بوضع نظام دقيق للإدارة في مصر والشام كما عني بالبريد ، فكان الخبر يصل من دمشق إلى القاهرة في ثلاثة أيام .

وظل طوال حكمه يُمدد جيوشه ويزحف بها لحرب الصليبيين والتار وغزو أرمينية والسلاجقة بآسيا الصغرى وغزو النوبة في الجنوب . أما الصليبيون فاستولوا على كثير من قلاعهم وحصونهم ومدنهم مثل قيسارية وأرسوف وصفد وبيثين والرملة ويافا وحصن الأكراد والقرين القريبة من عكا وصافيتا وصفا والشقيف . ولم يلبث أن استولى على أنطاكية سنة ٦٦٧ فأنهت المملكة الشمالية التي كان قد أقامها الصليبيون ، ومعروف أن زنكي استولى من قديم على مملكتهم القديمة الرها واستولى بعده صلاح الدين على مملكتهم في بيت المقدس . وما زال الظاهر يبرس ذاهبا آيبا من الفرات لحرب التار وسحقهم ، وغزا السلاجقة في آسيا الصغرى ، وضع أرمينية الصغرى مرتين واستعصى فتح حصون الإسماعيلية بالقرب من اللاذقية ، وفتح دنقلة كرسى بلاد النوبة ، ودانت له بالطاعة . ومن أهم أعماله أنه أقام في سنة ٦٦٣ لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة ، المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي قاضيا ، وظل العمل بذلك جاريا في عصر المماليك ، وفي أيامه سنة ٦٧٥ طافوا بالمحمل ويكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوما مشهودًا ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية . وشيد مسجدًا كبيرًا بالقاهرة لاثزال أطلاله قائمة إلى اليوم . وهو يُعَدُّ من أبطال مصر والعرب العظام أمثال صلاح الدين ، ويعد عصره من العصور الإسلامية الذهبية ، وظلت بطولته في حروب التار والصليبيين عالقة بالأذهان أزمنة طويلة ، وألفت حولها قصة مشهورة ، وما زالت الأجيال تريد فيها إيمانًا بفروسيته الحارقة . وقد توفي سنة ٦٧٦ بدمشق ودُفن بها ، وتولى بعده ابنه الملك السعيد ، ولم يكد يدور به في الحكم عامان حتى ثار عليه أمراء المماليك وخلعوه وولوا أخاه بدر الدين سلامش وكانت سنة لا تتجاوز السابعة ، وجعلوا قلاوون أتابكًا له .

وسرعان ما استغل قلاوون الفرصة ، فاستخلص الملك لنفسه ، وتلقب باسم السلطان المنصور ، وهو من أعظم سلاطين المماليك حزمًا وعزمًا وتدييرًا وبأسًا ، وقد اتبع سياسة الظاهر يبرس في الإيقاع بالتار والصليبيين أما التار فتنازلهم مرارًا وأنزل بهم خسائر فادحة حتى رضخوا وطلبوا منه الصلح مدحورين ، وأما الصليبيون فقد صمم على إزالة مملكتهم الرابعة والأخيرة في طرابلس ، ونازلها سنة ٦٨٨ وفتحها قهرًا بالسيف ، وملك ما جاورها من القلاع والبلدان مثل

جبل وبيروت . وكان قد حدث شغب في بلاد النوبة ، فذهب إليها بعض قواده ورم ما بها من شغب . وتوفي سنة ٦٨٩ وظل الملك في أبنائه وأحفاده نحو مائة عام ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، وكان شجاعا وبطلا مغوارا ، فصمم على طرد الصليبيين من الشام ، فجمع عساكره وتوجه إلى عكا فوصلها في يوم واحد ويسر الله له فتحها في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ وكان الصليبيون استولوا عليها بأخرة من أيام صلاح الدين في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وقتلوا المسلمين بها ، فثار لهم السلطان خليل وقتل من كان بها من الصليبيين حين فتحها . وأغلقت عزائم الفرنج بعد عكا وأخذ السلطان خليل صور وصيدا وجيفا واستسلمت قلاع الصليبيين الأخرى ، وتطهرت البلاد من رجسهم وإثمهم ، فلم تبق لهم في الشام بلد ولا قلعة ولا قرية ولا جزيرة .

والعجب أن يكافئ المالك السلطان خلیلا على هذا العمل الباسل العظيم جزاء السلطان العظيم توران شاه بعد واقعة للنصرة ، فيآمرؤا على قتله ، وتنتج مؤامرتهم سنة ٦٩٣ ويخلفه أخوه الناصر محمد ، وهو لا يجاوز التاسعة من عمره ، ويعين كنيثا نائبا له ، وما يكاد يدور العام حتى يستولى على السلطة ، وينتصبها منه بعد عامين لاجين ، وتعود بعد عامين آخرين إلى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ . وتنب حروب بينه وبين تار العراق ، وترجع كفتهم ويستولون على دمشق وغيرها من مدن الشام ويعيثون فيها فسادا . ولا يلبث الناصر محمد أن يجمع لهم جيشا كثيفا سنة ٧٠١ وينازلهم في مرج الصفر بالقرب من دمشق ويسحق جموعهم سحقا ، وتولى فلهم الأوبار نحو العراق ويغداد لا تلوى على شيء . ويأخذ كبار المالك في التنافس حول السلطة ويخشى الناصر محمد أن يفتكوا به فيذهب إلى الحج ويعتزلهم في الكرك جنوبي الأردن ، ويرسل إليهم بكتاب يعلن فيه تنازله عن الحكم ، ويتفق المالك على تولية ركن الدين يبرس سنة ٧٠٨ ولا يدور العام حتى يعود الناصر محمد إلى سلطته ويتولى الحكم في مصر والشام للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ . وكان المصريون يحبونه حبا شديدا ، وكان عهده عهد رخاء عظيم ويتضح في كثرة المنشآت التي أسسها من مدارس ومساجد وخانقاهات . وبلغت الدولة في عهده أوج مجدها ، فقد قضى أبوه وأخوه ، كما قلنا ، على الصليبيين نهائيا ، ولم تبق منهم بقية ، وانتصر هو على التتار في ولايته الثانية على مصر انتصارا حاسما ، وعقدوا معه صلحا سنة ٧١٩ ولم يعودوا يفكرون في الغارة على الشام .

ويظل الناصر في الحكم حتى سنة ٧٤١ ويخلفه أبنائه وأحفاده حتى سنة ٧٨٤ وتعود مصر

أو يعود الحكم في مصر ثانية إلى ما حدث في الدولة الفاطمية من عواقب وخيمة لأن يصبح الحكم وراثيا . ويكنى أن نعرف أن ثمانية من أبناء الناصر تولوا الحكم إحدى وعشرين سنة مما يعنى عدم الاستقرار ، وكان منهم من يعيش للهو وسماع المغنيات مثل السلطان الصالح إسماعيل والسلطان شعبان ، ومثل السلطان زين الدين ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وفي نفس السن تولى أخوه السلطان حسن وفي عهده انتشر وباء الطاعون بالقاهرة . وتخلقه فترة يحكم فيها أحفاد الناصر لمدة عشرين عاما ، وكثير منهم كان صبيًا ، كما ذكرنا ، فكان طبيعيا أن يفسد الحكم في عهدهم فسادا شديدا . وفي سنة ٧٦٦ سُوِّلت لحاكم قبرص بطرس لوزينجان شياطينه أن يغير على الإسكندرية ، فأغار عليها لمدة ثلاثة أيام ، ثم ولى بمن معه هاربا حين علم باقتراب الجيش المملوكي .

وطبيعي وقد فسد حكم آل قلاوون فسادا لاصلاح له بعده ، أن يحاول المالك التخلص من هذا الحكم ، وكانت مجموعة المالك البرجية قد أخذت تظهر على مسرح الحوادث ، وأخذوا يسيطرون على أداة الحكم منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون ، وأخذ نجم برقوق من بينهم يعلو في سماء مصر ، وما زال يدبر للأمر هو وأعوانه حتى أطاحوا بأحفاد قلاوون وتسلم مقاليد الحكم سنة ٧٨٤ وظل في أيدي المالك البرجية إلى نهاية الدولة المملوكية ، وكان أدبيا يهتم بمجالس الأدب والعلم ، وخلفته طائفة من المالك البرجية مثل شيخ ورساي وجفقى وقايتباى والغورى . وظل برقوق على رأس الدولة حتى توفي سنة ٨٠١ إلا ما كان من سنة واحدة أبعد فيها عن الحكم وهي سنة ٧٩١ وسرعان ما عاد إليه . وتكرر في زمن هذه الدولة البرجية المناكفات بين الأمراء ، كما يكثر فرض الضرائب على الشعب . وسبباً بأخرة من حكم برقوق إعصار تارى جديد ، يقوده تيمورلنك ، ويتزل الإعصار بالعراق والموصل ويستصرخ الحكام هناك برقوق ، ويشغل تيمورلنك بغزو الهند حيا ، فيعلن أحمد بن أويس حاكم بغداد تبعته لبرقوق رجاء أن يحميه من الطاغية المغول ، ويكسب له برقوق تقليداً أو مرسوماً بنياته عنه في بغداد ويزوده بالمال والعتاد والرجال ، ويعود تيمور سريعا ويستولى على بغداد . وفي هذه الأثناء يتوفى برقوق بينما يتجه تيمور بجيشه إلى الشمال يريد الاستيلاء على الشام ، ويستولى على حماة وحمص وبعليك ، وكان ممالك برقوق قد ولوا عليهم ابنه فرجا ، فخرج على رأس جيش للقائه ولكنه هزم بالقرب من دمشق سنة ٨٠٢ ودخل تيمور دمشق وظل جنوده فيها مدة يهبون ويسلبون ويأتون من الفطائع ما صورته ابن عربشاه في كتابه عجائب المقدور في نواب تيمور ، مما اضطر السلطان فرجا إلى قبول الصلح

معه ، وبارج تيمور الشام سريعاً إلى آسيا الصغرى وأنزل بالسلطان بايزيد العثماني ضربة قاصمة ، وعاد إلى بلاده . وسرعان ماتوفى وتمزقت دولته بين ورثته ، وكفى الله الممالك وديار مصر والشام شره وخطره .

ويحتدم التنافس بين أمراء الممالك البرجية ويستخلص الحكم لنفسه المؤيد شيخ سنة ٨١٥ وله عمائر كثيرة أشهرها جامع المؤيدى ، ويقال إنه لم يُبْنِ في الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموى بدمشق ، وتوفى سنة ٨٢٤ . وبوبع ابنه المظفر أحمد وله سنة واحدة وثمانية أشهر ، فكان طبعياً أن يستولى على الحكم بعض الأمراء ، ويتولى سلطانان ، ويخلفهما السلطان برسباى سنة ٨٢٥ ومربنا غزو حاكم قبرص بطرس لوزنجمان للإسكندرية سنة ٧٦٦ وكان القبارصة كثيراً ما يتعرضون في البحر المتوسط للسفن المصرية والشامية . فصمم برسباى على أخذ قبرص وأرسل لها ثلاث حملات ، استطاعت ثالثها أن تستولى عليها من جميع أنحائها ، وعادت الحملة بفنائم وأسرى كثيرين ومحاكم قبرص مقيداً في الأغلال ، وقبّل الأرض بين يدي برسباى ، وتعهّد أن تظل جزيرته موالية لمصر وأن يكون نائباً فيها للسلطان ، وعاد إلى جزيرته عقب ذلك سنة ٨٣٠ بعد أن دفع دية كبيرة وبعد أن التزم بأن يؤدي لمصر سنوياً ألف دينار جزية . وخلف برسباى ابنه العزيز سنة ٨٤١ لمدة عام ، ولم يلبث الأمير جقمق أن عزله ، وتولى الحكم سنة ٨٤١ وحاول أن يكتسب مجدداً حرياً كمجد برسباى ، فوجه ثلاث حملات إلى جزيرة رودس ، ولكنها لم توفق جميعاً إلى الاستيلاء عليها ، ويتوفى سنة ٨٥٧ . وتكثر المنازعات بين أمراء الممالك البرجية . ويستخلص الحكم لنفسه قايتباى سنة ٨٧٢ وكان شديد الرأى شجاعاً ساهراً على دولته المترامية الأطراف ، منتقلاً فيها من القاهرة إلى مدن القرات إلى مكة والمدينة ، ويبدو أنه كان يعنف في جمع الأموال والضرائب ، وكان يهتم ببناء المدارس والمساجد وترميم المنشآت . وظل حاكماً للدولة تسعة وعشرين عاماً إذ توفى سنة ٩٠١ . وخلفه أربعة سلاطين حكموا مدداً قصيرة ، واختار أمراء الممالك بعدهم قانصوه الغورى سنة ٩٠٦ ، وهو من خيرة سلاطين الممالك البرجية ، وكان شاعراً واشتهر بمجالسه الأدبية . وكان طاعناً في السن ، بينما كان يترامى في الأفق شبح عدوين كبيرين يهددان مصر والممالك بالخطر الجسيم ، أولهما خطر البرتغال واكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند منذ سنة ٩٠٣ مما آذن بتحول زمام تجارة توابل الهند من أيدي المصريين إلى أيدي البرتغاليين ، وضياح ماكانت تأخذه مصر من ضرائب ورسوم على هذه التجارة في طريقها إلى أوروبا وتغور البحر المتوسط . وأخذ البرتغاليون يناوشون

العرب في جنوب الجزيرة العربية ، أو قل إن العرب هم الذين بدءوا بهذه المناوشات ، ووقف الغوري معهم وانتصروا في موقعة بحرية عليهم . غير أن البرتغاليين مضوا بعيدون الكرة ، وهاجموا مدينة عدن ونزلوا في بعض الجزر الواقعة بالقرب من باب المندب وأصبحوا يهددون مدينة عدن واليمن جميعها ، فأرسل إليهم سريعا قانسوه الغوري نجدة طردت البرتغاليين من هذه الأنحاء ، واستدارت تحتل اليمن حتى تظل مصر حارسة لها .

وتهدد مصر خطر أكثر جساما ، فإن العثمانيين كانوا قد استولوا على القسطنطينية وأخذ نجمهم في الصعود ، وسمعوا بما أنزله إسماعيل الصفوى بأهل السنة في بغداد من سفك لدمائهم وقسوة متناهية فأعكس سليم الأول بالحرب وانتصر عليه في سنة ٩١٤ واستولى منه على الجزيرة والوصل ودبار بكر وأعاد سليم الكرة فهزم إسماعيل الصفوى سنة ٩٢٠ . وعرف أن قانسوه الغوري كان قد عقد معه حلفا ، فصمم على منازلته ولم يكن ذلك غائبا عن قانسوه فجدد جيشا كثيفا ومضى به إلى شمالي سوريا لرد العدوان ، إن حدث ، في حينه ، وأرسل إلى سليم يطلب إليه عقد معاهدة صلح بينهما فرد رسله ردا سيئا ، ولم تلبث أن نشبت بينهما معركة مرج دابق شمالي حلب سنة ٩٢٢ ودارت اللوثر على قانسوه وجيشه ، وقُتل وهو يلوذ بالفرار . ولم تكن تنقص جيش المالك الشجاعة ، إنما كان ينقصه سلاح مهم استعمله العثمانيون في المعركة هو سلاح المدفعية ، فكان طبيعيا أن تكون لهم الغلبة ، وفتحت مدن الشام أبوابها لسليم ، ودخل دمشق . ويبدو أنه كان يريد أن يدع للمالك مصر ويكتفى بممتلكاتهم في آسيا ، فكانت خليفة قانسوه في مصر طومان باى يعرض عليه أن يترك مصر له وللمالك على أن يعترفوا له بالسيادة ، فيخطب له ، وتضرب السكة باسمه . ولكن طومان باى أبى ذلك وأخذ يستعد لحربه ، وأحس بتخاذل المالك من حوله ، بينما كان سليم يتقدم نحو مصر ودخل حدودها واتجه إلى القاهرة ، والتقى بجيش طومان باى بالقرب من العباسية على أبواب القاهرة وأنزلت مدفعيته به هزيمة ساحقة ، وفر طومان باى . ودخل سليم القاهرة في اليوم التالي وكان أول يوم جمعة في شهر المحرم لسنة ٩٢٣ فدعى له في الخطبة ، وسلم قصر طومان باى بعد قتال عنيف أما هو ففر إلى الصعيد ثم إلى الدلتا واشتبك مع العثمانيين في بعض مناوشات خاسرة ، ولم يلبث أن سلم غلرا إليهم ، فأمر السلطان بشقه على باب زويلة . وبذلك انتهى حكم للمالك لمصر وتقوضت دولتهم .

(ب) العثمانيون^(١)

مكث السلطان سليم في مصر بعد فتحه لما نحو ثمانية أشهر ، ذاق فيها المصريون ألوانا كثيرة من الظلم والخن ومصادرة الأموال وأيضا مصادرة العلماء ورجال المهن والفنون والصناعات ونقلهم في السفن إلى القسطنطينية ، وقد نُقل كثير من التحف والآثار الرائعة من المساجد ومن قصور المالكين حتى الرخام كانوا يترعون . وكأنما وضع سليم خطة أن يحرم مصر من كل ما كان بها من تراث فني غير ما حمله من كتب لا تزال تزخر بها مكتبات القسطنطينية إلى اليوم . وهكذا جرّدت مصر من علمائها وقائديها وراثتها الفكرية والفنية ، وعاشت حقبا سوداء امتدت إلى نحو مائتين وتسعين عاما ، وحتى الخلافة الإسلامية التي كانت تتيج لها زعامة أو شيئا من الزعامة في العالم الإسلامي سلبها منها سليم ، إذ دفع المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس في مصر إلى أن يتنازل له عن الخلافة ، ويقال إنه تقلدها في مصر ، ويقال بل بعد ذهابه معه إلى القسطنطينية .

وجعل سليم على مصر نائبا له أو واليا ، كان يلقب بالبasha ، ويتخذ القلعة مقرا له طوال حكم العثمانيين لمصر ، ولم ينفرد بالحكم ، فقد أشرك معه سليم - وظل ذلك ساريا بعده - قادة الجند العثمانيين الذين تركهم بعده في مصر ، وأيضا أشرك معه حكام مديريات القطر أو أقاليمه ، وقد اختارهم سليم جميعا من المالكين ، وكأنه رأى أن يشركهم في الحكم ، للإشراف على شئون الأقاليم . ولم يلبث أن توفي سليم ، وخلفه أخوه سليمان سنة ٩٢٦ وفي أيامه استقر نظام حكم العثمانيين السياسي لمصر بحيث كان بها وال له الإشراف العام على شئونها المختلفة ، ومعه ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار ورئيس الفرق العسكرية والدفتدار (مدير الخزانة) والروزنامجي (حافظ السجلات) وأمير الحج وقاضى القضاة ورئيسهم وفتية الأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة وبعض رؤساء المالكين أو كبيرهم . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير كان يتألف من الكتبخدا (نائب الوالي) والدفتدار والروزنامجي ومندوب عن كل فرقة من الفرق العسكرية .

(١) القومية في مصر وظهور محمد علي لمحمد الرحمن الرافعي
ومقدمة تاريخ العرب الحديث لمحمد الكرمي هراية والمخطط
التوثيقية لكل مبارك (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب)
١٤٦١/١ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان
ص ٤٤٨ .

(١) انظر في العثمانيين آخره المالك لاين زنبل ويحاج
الزهور لاين لباس وأخبار الأول فحين تصرف في مصر من
الدول للإسحاق وتاريخ الجبرق والبلاء العربية والدولة
العثمانية لاسطع المصري . والمجلة الفرنسية وظهور محمد
علي لمحمد فزاد شكرى والجيزة الأول من تاريخ الحركة

وكان الديوان الصغير يتخذ كل يوم ويبلغ قراراته إلى الوالى ، وبالمثل كانت قرارات الديوان الكبير تبلغ إلى الوالى ويعمل على تنفيذها جميعاً .

وظل المالك - منذ سليم - يملكون في البلاد سلطة ثالثة بجانب سلطة الجند والوالى ، إذ جعلوا حكماً للأقاليم ، وكان كل منهم يسمى سنجقا : اسماً تركياً . كان في الأصل يعنى البيرق ، إذ كان السنجق عادة يتسلم بيرقا فسّى باسمه وسميت مديريته باسم السنجقية ، وأعطوا أيضاً لقب بك ، فكان هناك الوالى الباشا والسنجقة المالك البكوات ، وكانوا يشرفون على مديرياتهم من الناحيتين الإدارية والمالية ، وكان لهم نواب يسمون الكُشاف جمع كاشف . وكان يتبع الكشاف الملتزمون وهم من الترموا بدفع ضرائب معينة عن قرية أو قرى ، وكانت للملتزمين سلطة واسعة على الفلاحين فهم يتصرفونهم اعتصاراً دون شفقة أو رحمة ، والفلاحون يتصبّون عرقاً لكى ينعم الملتزم والكاشف والسنجق ، وما يزالون يثقلون عليهم بالضرائب والإتاوات ويهرقونهم من أمرهم عسراً ، حتى أصبحوا يعانون ما لا يطاق من البؤس والفاقة . وبذلك كسدت الزراعة ، كما كسدت التجارة منذ استولى العثمانيون على مصر وكشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت تجارة أوروبا والهند إليه . وزاد الأمور سوءاً أن العثمانيين اتبعوا سياسة مستمرة أن لا يظل الوالى في مصر إلا مدة قليلة قد تكون عاماً وقد تكون أقل من عام ، فلم يشعر الولاة بشيء من الاستقرار ، وكأنهم كانوا يجيئون ليدخروا لأنفسهم شيئاً من ماله وكانوا يذهبون دون أن يفكروا في أى إصلاح ، ويكفى أن تعرف أنه حكم مصر حتى مجئ نابليون مائة وخمسون والياً عثمانياً .

وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تضعف منذ القرن الثانى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ضعفاً شديداً فأخذ سلطان السانجق المالك يقوى ، وخاصة أنه كانت يدهم أزمته الشئون الإدارية والمالية في البلاد ، وأيضاً فإن العثمانيين كانوا يتخذون منهم في القاهرة زعيماً لهم يسمونه شيخ البلد ، فأخذت مشيخته أو سلطته تقوى ، حتى غدا مناظراً أو مائلاً للوالى العثمانى . وبلغ من سلطان شيخ البلد ومالكه أن كانوا أحياناً يعزلون الولاة ، وربما جاءهم وال لا يرضونه ، فكانوا يمتنعون عن نهشته ، ولا يحضرون قراءة المرسوم بتوليته ، حينئذ لا يجد بداً من حمل حقائبه والعودة إلى القسطنطينية فكان طبعاً أن يفكر بعض شيوخ البلد من زعماء المالك في الاستقلال بمصر ، وتولى على بك الكبير مشيخة البلد ، وصمم على الاستقلال ، ولم يلبث أن خلع الوالى التركى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وضرب السكة

باسمه ، وفتحت جيوشه معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة : سلطان مصر وخاقان البحرين . وأرسل قائداً من قواده وهو محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا ، وفتحت له دمشق وغيرها من مدن الشام أبوابها . غير أن الباب العالي العثماني لم يلبث أن استغواه بما وعده به من الولاية على مصر فانقلب على سلطانه على بك الكبير ، ونشبت بينها الحرب وسقط في ميدانها على بك سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . وبذلك أضاع محمد بك أبو الذهب على مصر فرصة ذهبية : أن يرد لها استقلالها وحريتها ، وظل شيخا للبلد ، يؤمى عليها من العثمانيين من يختاره إلى أن توفى بعد ستين في عام ١١٨٩ هـ . وخلفه على مشيخة البلد إبراهيم بك ومراد بك شريكين فيها ، وخرجت المشيخة من أيديهما فترة إلى إسماعيل بك ، وتوفى فعادت إليهما لإبراهيم الرياسة ، وأصبح شيخا للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م . وتنزل الحملة مصر وتظل تجاهدتها جهاداً عنيفاً مريراً ثلاث سنوات ، ولم ينفع نابليون قائدها ما أنشأه من مجالس شورى ألفها من بعض شيوخ الأزهر ومن كبار التجار والأعيان ، وجعل لها النظر في الضرائب وشئون الحكم .

لم يَكرّ هذا الخلداع المصريين فقد عرفوا أنها مجالس صورية لتنفيذ مظاممه الاستعمارية ، ومازالوا يقاومون الحملة مقاومة باسلة ، حتى اضطروها إلى مبارحة البلاد سريعا . وأولى أن تدرس هذه الحملة وآثارها بمصر مع عصرها الحديث ، إذ أذكت في المصريين الشعور القومي . فلما خرجت إلى البحر المتوسط وما وراءه وعاد المصريون إلى الحكم العثماني رأوا أن من واجهم التخلص من نيره الظالم البغيض وأن يختاروا حاكمهم واختاروا محمد على سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٥ م وبدءوا بقوة نهضتهم الحديثة .

المجتمع^(١)

مصر - كما وصفها الذكر الحكيم - جنات وعيون وزروع ومقام كريم. وفي جنات هذه الزروع وجناتها عاش سكانها من القبط ومن نزل بها من العرب ، ومع الزمن يزداد اختلاط العرب بسكانها وخاصة منذ أسقطهم الخليفة العباسي المعتصم من دواوين الجيش في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجري ، فقد مضوا بمخالطون سكانها لا في مدنهم فحسب ، بل أيضا في قراهم وزروعهم مؤلفين جميعا شعبا مصرى . وكانت تتوزعه - كغيره من الشعوب العربية - ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . وتشمل الطبقة الأولى الوالى وصاحب الخراج والقاضى وكبار أصحاب المناصب وقواد الجند ومعهم الأشراف من يبقى العباسيين والعلويين وكبار التجار والإقطاعيين من المماليك . والطبقة الوسطى تشمل العلماء والجند وأوساط الزراع أصحاب الملكيات الصغيرة والقائمين على الصناعات . أما الطبقة الدنيا فتشمل الفلاحين والصناع وصغار التجار . وبحوار هذه الطبقات كان هناك رقيق يجلب من أوساط إفريقيا ومن بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط ، وكان كثير منه يجرى ويصل إلى أرفع المناصب على نحو ما هو معروف عن فانتك الرومى وكافور الحبشى القائدين في زمن الإخشيد . وكان هناك أهل الذمة من الأقباط .

ويعد النيل مصر من قديم برحاء لا مقطوع ولا ممنوع ، ومعروف أن أرضها قبيل الفتح العربى كانت موزعة بين الدولة والكنيسة وكبار الإقطاعيين ، وقد ترك العرب الفاطميون للكنيسة وللإقطاعيين ما لهم من الأراضى على أن يؤدوا عنها الخراج أو كما نقول الآن الضرائب ، وبالمثل كان يؤدونها أصحاب الملكيات الصغيرة من الأرض وكل قالح لها أو زارع . وترك للقبط الإشراف

شهاد ورحلة ابن جبير ومحمد التميمي ومحمد النعم للبيكى
والمدخل لابن الحاج ونظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين
لسبطى مصطفى مشرقه والمجمع المصرى لى عصر السلاطين
المالكيك لسيد عبد الفتاح عشود والحضارة الإسلامية في
القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز وقصة القاهرة وتاريخ مصر في
البصير الوسطى لستافى لين بول وتاريخ الشعوب الإسلامية
لبروكلمان .

(١) انظر في المجمع الرواة والنفاسة للكنندى والمغرب لابن
سعيد بنسبه عن القسطنطين والقاهرة ومروج الذهب
للسعودى ومصر عند المقدسى وابن حوقل وتاريخ مصر
والإشارة إلى من تال الوزارة لابن ميسر وترجمة يحنوب
ابن كلس والأفضل بن بصر الجبالى فى ابن حلكان والمخطط
للمغريزى والمجزئين الثالث والرابع من صحيح الأعمش
والنجوم الزاهرة لابن تيمى بردى وديالىع الزهرى لابن لياس
وكتاب لوائين الدوليين لابن عماد وسيرة صلاح الدين لابن

المال على شئون الخراج أو ضرائب الأرض ، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القرن الحاضر . وكان أهل الذمة من القبط وغيرهم يؤدون الجزية ، وهي تتراوح بين دينار ودينارين سنويا ، يؤديها القادر بمقدار قدرته ، ولم يكن يؤذيها رهاب ولا شيخ ولا امرأة ولا صبي ، وهي في واقعها ضريبة دفاع لأنهم لم يكونوا يشتركون في الحرب .

وكانت تؤخذ بجانب ذلك مكوس على الصناعات ، ومن أهمها صناعة القراطيس من ورق البردي ، وكانت هذه الصناعة رائجة جدًا حتى أواخر القرن الثاني الهجري حين نقلت في عهد الرشيد من الصين صناعة الورق وأنشئ لها مصنع ببغداد . وأهم من هذه الصناعة صناعة النسيج والسياب ، وقد ظلت مزدهرة طوال الحقب ، وكان النساء والغلمان في الوجه البحري يشتركون فيها ، واشتهرت بها المدن الشمالية : دمايط وشطا وتيس وديق والإسكندرية ، وكان من نسيج الأخيرة ما يباع بما يعادل وزنه من الدراهم ، وكان ثمن الثوب اللين مائة دينار وقد يبلغ مائتين ، واشتهرت تيس بثوب كانت تصنعه للخليفة منسوجا بالذهب وليس فيه من الغزل سوى أوقيتين ، وكان يقدر بألف دينار . وكانت السجاجيد والأبسطة والستور تصنع بالقيوم والصعيد ، وكانت تصنع المحصر في أمكنة كثيرة ، كما كانت تصنع بعض أنواع الجلود . وعلى كل هذه الصناعات كانت تؤخذ المكوس كما كانت تؤخذ على استخراج بعض المعادن وخاصة الشب والظفرون ، وأيضًا على بناء السفن . وكانت التجارة رائجة ، وكان يتجر فيها كثير من الفرس والروم واليهود . وبما يدل بوضوح على رخاء مصر في عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقرئ في وقع في أثناء زيارة المأمون لمصر سنة ٢١٧ إذ مر بقريه يقال لها « طاه الخلل » وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية ، فعرضت له تسأله أن يتزل في ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمة ، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصري ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إياه شديدا ، وتأمل الذهب أو اللنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل على أنه ربما من عام ، فقال : هذا والله أعجب . وتوسلت إليه أن يقبلها ، فتمنع وقال لها : رُدِّي مالك بارك الله لك فيه ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندي من هذا الذهب شيء كثير . فأخذته المأمون ليبت المال وأقطعها عدة ضياع وأعطاه من قريتها مائتي فدان بغير خراج . ومارية إنما هي

إقطاعية واحدة وكان وراءها إقطاعيون كثيرون من القبط والعرب ، فإن الدولة كانت قد دأبت على أن تمنح بعض الموظفين الكبار بمصر وبعض الشخصيات العربية إقطاعيات مختلفة في القرى المصرية . وبما يدل على الرخاء حيث ارتفع رواتب الولاة وأصحاب الخراج وكبار الموظفين وحتى القاضي موضع الزهد والتقصيف إذ يذكر الكندي في كتابه الولاة والقضاة أن عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون في سنة ٢١١ رسم لقاضي القضاة سبعة دنائير كل يوم . وحقا كان يحدث أحيانا قحط أو أوبئة أو تضرعات من كثرة الضرائب الاستثنائية التي يفرضها بعض عمال الخراج ، حتى ليأخذ ذلك في الحين الطويل بعد الحين شكل ثورة ، ولكن هذا كله سرعان ما يزول ، كأنه سحابة صيف سرعان ما تنقشع ، ويعود إلى مصر الأمن والرخاء ، فبينما مصر - كما يقول عمرو بن العاص في رسالته المشهورة إلى عمر بن الخطاب - لؤلؤة يفضاء إذا هي غبرة سوداء . فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقتاء .

وكانت أسواق القضاة تعكس صور الرخاء في مصر ، فهي تتوجج بالأطعمة والحلوى والفواكه وبالطيب والمسلك والعنبر وماء الورد ومختلف الأقاويه . ويبدو أن المساكن بها والفرف والحوانيت كانت توجر ، ويؤجر معها الأثاث . وعرفت مصر حينئذ ضروب الملاهي من الصيد وأدواته ومن سباق الحمام وسباق الخيل ، ويروى الكندي أن والي عليها يزيد بن عبد الله منع من حلبات السباق سنة ٢٤٢ وسرعان ما عادت سنة ٢٤٩ . وكان الناس يحارثون أحيانا بين الكباش والكلاب . ويبدو أنه كانت هناك بعض دور للخمر ، ولابد أنها كانت قليلة ، ويذكر ابن سعيد - إن صح ما يذكره - أن محمد بن أبي الليث الخوارزمي قاضي المتصم بمصر كان يشرب النبيذ وله عليه نغماء . وكان الناس يهتمون بالغناء وما يصحبه من آلات الموسيقى والطرب ، ويذكر ابن سعيد أيضا أنه لم يكن بمصر مغنية إلا ركب إليها القاضي لعهد الرشيد المسمى بالعمرى كى يسمع غناها ، وربما قوم لما ما انكسر من غنائها وما دخل عليه من تحريف في لحنه . وكان الناس يخرجون للترفة في جزيرة الروضة أمام القضاة وعلى شاطئ النيل . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بفتح الخليج (وفاة النيل) وبالأعياد الإسلامية وأيضا بالأعياد القبطية وبعيد النيروز الفارسي لأول الربيع .

ويطول مصر - كما مر بنا - أحمد بن طولون مكوّنا بها الدولة الطولونية ، وتلق مصر في حجره وحجر ابنه بخارويه بكنوزها ، وكان حازما بعيد النظر رهوفا بالريعية ، فأتقن عن كواهلها كثيرا من الضرائب التي كان قد فرضها عليها ابن المدير عامل الخراج ، وكان قد زاد عليها الضرائب ،

وفرض ضريبة على النطرون وعلى المراعى وعلى المصايد فأسقط ابن طولون ذلك كله . واستغل بمصر ، وفتح له كنوزها ، وأغدقت عليه من طياتها ، فكُون جيشه الضخم ، وأخذ فى بناء قصره خارج القسطنطينية وقطائع لمساكره من الترك والسودان والروم وغيرهم وأيضاً لقواده ، وعمرت مدينته القطائع وتفرقت فيها الحارات والشوارع والأزقة والحوانيت والسُكك وبنيت المساجد والطواحين والحمامات والأفران . وبنى جامعته الكبير وأنفق عليه مائة وعشرين ألفاً من الدينار ، وبنى بهارستاناً وأنفق عليه ستين ألف دينار ، وجعل أمام قصره ميداناً كبيراً للعب كرة الصولجان ، أنفق عليه خمسين ألف دينار . وكان ينفق على مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، وكان يُعَمِّلُ سباط عظيم ، وبنادى : من أحب أن يحضر سباط الأمير فليحضر ، وكان الناس يأكلون ويعملون ما يشاءون . وكان ما يدخل إلى خزائنه فى كل سنة بعد نفقائه مليون دينار ، وخلف فى خزائنه من الذهب حين موته عشرة ملايين من الدينار .

واستقر السلطان بعده لابنه خمارويه وعظم دخل الدولة ، وأخذ خمارويه يفرق إلى أذنيه فى النعيم ، فزاد فى عمارة قصر أبيه ، وجعل الميدان الذى أمامه بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين والورود وأصناف الشجر وكسا النخل نحاساً تخرج من عبوة المياه وتنحدر إلى فسائى يفيض الماء منها إلى مجار تنقى سائر البستان ، وسرح فيه طيوراً حسنة الصوت وطواويس مختلفة . وجعل لنفسه مجلساً سماه دار الذهب طلاً حيطانه بالذهب واللازورد وجعل فيه تماثيل أو صوراً بارزة لحظاياهم ومغنياته وعلى رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة . وجعلت فى هذا البستان بين يدى القصر فسقياً من الزنبق طولها خمسون ذراعاً وكذلك عرضها ، كان يرى لها فى اللبالي المقمرة منظر عجيب حين يتألف نور القمر بنور الزنبق . واتخذ خمارويه بيوتاً للسباع وغيرها من الوحوش سوى الإصطبلات الواسعة للخيول . وكانت حلبات السباق فى أيامه تقوم مقام الأعياد ، ويقال إن عرض الخيل حينئذ كان من عجائب دار الإسلام . وما يدل على ما وصلت إليه الدولة من ثراء جهاز ابنته قَطْرُ الثدى حين زوجهها الخليفة العباسى المعتضد ، وكان من جملة ذكّة تتألف من أربع قطع من الذهب عليها قبة من الذهب مشبكة بها أقراط فى كل قرط حبة من جواهر لا يعرف لها قيمة ، وكان فى الجهاز مائة هاون من الذهب ، وبنى خمارويه - كما مرّ بنا - قصر فى كل منزل منزلاً تنزل به ابنته من مصر إلى بغداد .

وما يدل على ثراء مصر لعهد الطولونيين ثراء واسعا أن أبا بكر محمد بن المافرانى عامل الخراج ووزير خمارويه تملك من الضياع ما بلغ دخله أربعائة ألف دينار فى كل سنة سوى ما كان يؤدّيه من

الضرائب ، ويقال إنه حج إحدى وعشرين حجة وكان ينفق في كل حجة مائة ألف دينار . وكانت مصر تحتفل بالأعياد احتفالات كبيرة : الإسلامية منها والقبطية ، بل لكأنما كانت أيامها كلها في عهد الطولونيين أعيادا . ولذلك بكت دولتهم بدموع غزار . وتحلفهم فترة تعود فيها مصر إلى عهد الولاة ، وسرعان ما يتولاها الإخشيد ، فيعيد إليها بهجتها ورخاءها ، ويفضل نراتها استطاع أن يعد لنفسه جيشا ضخما مكونا من ٤٠٠ ألف مقاتل سوى ثمانية آلاف من مماليكه الأرقاء ، ومازال سعيه بحكم مصر يعلو إلى أن صار له حكم الشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن . وأصبحت مصر بعده لأبنائه ووصيهم كافور الإخشيدى . وكانت مصر تتم بثراتها ، ويبدو أنه تكونت فيها طبقة من كبار الإقطاعيين من العمال والصناع والتجار والزراع لفتت بقوة الإخشيد ، فإذا هو يكثر من مصادرة عماله وكتابه ، ويقول ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب إنه « كان إذا توفي قائد من قواده أو كاتب تعرض لورثته وأخذ منهم وصارهم وكذلك كان يفعل مع التجار المياسره ويقول ابن سعيد أيضا إنه لما توفي التاجر عفان بن سليمان أخذ من ميراثه مائة ألف دينار . وكان سباق الخيل في أيامه - كما كان في أيام خنارويه - يقوم مقام الأعياد . وكانت لوزيره ومدير الدولة زمن أولاده جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنّابة دار للأقاعي والحيات والعقارب لما قِيمَ وحارٍ من الحواة ومعه مستخدمون .

وظلت مصر طوال زمن الإخشيديين تعنى ببعض اللهو والفناء ، وفي ترجمة الإخشيد بكتاب المغرب أن أبا بكر الماذنالي دحاه إلى طعام وجمع له المغنين من الرجال والنساء . وكان يحاكي ابن طولون في احتفاله بعرض الجيش ليلة عيد الفطر وفيما كان يتخذ عقب العرض من يُصَب السباط للناس . وكان المصريون يحتفلون بعيد الفطر وغيره من الأعياد الإسلامية احتفالات كبيرة ، وبالمثل كانوا يحتفلون بالأعياد القبطية . وشهد المسعودى لعهد الإخشيد سنة ٣٣٠ أحد هذه الأعياد وهو عيد الغطاس المسيحي ، ويكون عادة ليلا ، ويقول إن الإخشيد كان بقصره في جزيرة الروضة ، وأمر فأسرج من شاطئ الفسطاط وشاطئ الجزيرة ألف مشعل غير ما أسرجه أهل مصر من المشاعل والشمع . ومئات الآلاف من الناس على الشواطئ وفي الزوارق وقد أحضروا المأكّل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والغزف والقصف . ونجد بعض الشعراء يذكرون الأديرة وما فيها من خمر ، كما نجدهم يذكرون الطرد والصيد ويقول ابن سعيد إنه كانت بالفسطاط بعض دور للقمار .

وثُلّفى مصر بكنوزها للفاطميين ، ويؤسسون بها أو يقيمون الدولة الفاطمية ويمتد سلطانها من

شواطئ إفريقيا الشمالية إلى بلاد الموصل ، وتدخل في حوزتهم اليمن والحجاز في أغلب أيامهم .
وينتم الفاطميون بالخراج الذي أخذ يتزايد من نحو مليون ومائتي ألف دينار حين نزل جوهر الصقل
القاهرة إلى خمسة ملايين ونصف من الدنانير لعهد الخليفة المستمل . وكانت المكوس تُفرض على
كل شيء حتى قال المقرئى إنه لم يسلم منها حيثئذ إلا الهواء . ويذكر المقدسى أنه كان يُجبى من
تنيس يومياً ألف دينار على ما تنسج من الثياب ، ويقول المقرئى إنه بلغ المتأخر على تنيس في
ثلاث سنوات مليون دينار ومليون درهم ، وبالمثل كانت تجبى مكوس كثيرة على ما ينسج من
الثياب في شطا ودمايط وديق والإسكندرية ، ويقال إنه جُبى من تنيس ودمايط والأشمونين في
يوم واحد ٢٢٠ ألف دينار . ومما كانت تجبى عليه المكوس السُّبُّ والتَّطْرُون . وكانت تُفرض
مكوس على الحمامات ، وكانت تُعَدُّ بالثلاث في القسقاط والقاهرة ، وعلى الحوانيت ، ويذكر
ناصر خسرو أنها كانت تبلغ فيها نحو عشرين ألفاً ، وكان إيجار الحانوت يتراوح بين دينارين
وعشرة دنانير شهرياً . وبجانب هذه المكوس كانت هناك الجوالى التى بدفعها أهل الذمة .
وكانت - كما يقول ابن عماتى في كتابه قوانين الدواوين - تُفرض مكوس على المتاجر الصادرة
والواردة تبلغ نحو عشرين فى المائة من العروض أو البضائع . وكانت هناك جبوس كثيرة أو بعبارة
أخرى أوقاف محبوسة على وجوه البر ، أخذت تتزايد منذ نهض الليث بن سعد فقبه القسقاط فى
القرن الثانى - لأول مرة - بهذا الصنيع . وكل ذلك كان يصبُّ فى خزائن الدولة الفاطمية ، حتى
لتصبح مصر وكأنها فردوس العالم العربى ، وفيها يقول المقدسى : « هى الإقليم الذى اقتخر به
فرعون على الورى .. أحد جناحى الدنيا ، ومفاخره لا تحصى ، مصره (يريد القسقاط) قبة
الإسلام ونهره أجل الأنهار ، وغيراته تُعَمَّرُ الحجاز ، وبأهله يبهج موسم الحاج ، وبِرّه يعمُّ الشرق
والغرب ، قد وضعه الله بين البحرين (الأحمر والمتوسط) وأعلى ذكره فى الحافظين ، حسبك أن
الشام - على جلالتها - رُستاقه (قُرَاه) والحجاز - مع أهلها - عياله » .

وطبى أن تتضخم - مع هذا الثراء الهائل فى مصر - الطبقة العليا : طبقة الأسرة الفاطمية
وزراتها وقوادها وكبار موظفيها وأشراف العلويين وكبار إقطاعيها ونجارها . وقد أكثر الفاطميون
من الإقطاع للوزراء والقواد ، وكان عندهم نظامان للإقطاع : إقطاع تمليك بورث وإقطاع
استغلال يمنح حق الانتفاع لشخص بعينه ولا بورث . ويؤزى أن يعقوب بن كِلْس أول وزرائهم
بمصر كان راتبه فى العام مائة ألف دينار ، وقالوا إنه لما توفى ترك من الجواهر ما قيمته أربعائة ألف
دينار ومن المصوغات ما قيمته نصف مليون دينار . وذكر ابن خلكان أن وزيرهم فى أوائل القرن

السادس المجرى الأفضل بن بدر الجمالي ترك ستائة مليون دينار ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج وثلاثين راحلة حقائق ذهب ، ودواة ذهب محلاة بجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير على كل مسمار متدبل مشدود مذهب بِلُون من الألوان وخمسمائة صندوق كسوة لحاصته من نسج تنيس ودمايط ، وخلف من الرقيق والحليل والبغال والجواميس والبقر ما لا يعلم قدره إلا الله . وكأنما حُول كل أموال مصر في عهده إلى خزائنه ، وأى خزائن إن أكبر مليونير أمريكي في عصرنا لا يبلغ من الثراء مبلغه . وحيثما كانت تحدث بمصر أحيانا مجاعات بسبب نقص التيل والقحط ، كما مر بنا في عهد المستنصر ، وقد تحدث أوبئة ، ولكن مصر كانت تنفض عنها ذلك دائما وتعود سريعا إلى رخائها الذي أتاح للوزيرين السالفين كل هذا الثراء .

وإذا كان هذا حال وزيرين فما بالنا بأحوال الخلفاء وما كانوا يفرقون فيه من ثراء وترف ، ويكنى لبيان ذلك أن نعرف أنه بعد أن تقوّضت الدولة واستولى صلاح الدين على مقابله الحكم كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر الفاطمي ، فإذا به من الكنوز ما لا يكاد يخطر ببال ، حتى يقول المقرئى : « خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يقي به ملك الأكاسرة ولا تصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله المالك العامة ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حسابات الخلق في الآخرة » .

ولعل في كل ذلك ما يدل على الثراء والترف والبدخ في أيام الدولة الفاطمية ، وبزخر حديث المقرئى وغيره بملابس الخلفاء وعماهم المرصعة بالجواهر وما كانوا يتخذون من زينة في أثاثهم وأواني طعامهم وفي قصورهم وبساتينها وأروقها وأفنيها وأعمدتها وأرضها المفروشة بالرخام المتعدد الألوان ، مما بهر ناصر خسرو في القرن الخامس ، كما بهر غليوم رئيس أساقفة صور في نهاية أيام الفاطميين سنة ٥٦٢هـ على نحو ما يلقاننا في كتاب كنوز الفاطميين . ويقول ناصر خسرو إن أهل القاهرة كانوا يعمون بزراعة الأزهار في سطوح منازلهم حتى تُرى كأنها حدائق ، وما يدل على سعة الرخاء لعهد ما ذكره عن سيدة بمصر كانت تملك خمسة آلاف قَدِير ، تُوجَر كل قدر منها بدرهم . ولعل فيما ذكرنا من هذا الرخاء والترف ما يدل على أن الصناعة كانت مزدهرة بمصر ، وكان العائد منها على الصناع عظيما وبالمثل كانت التجارة وأيضا الزراعة . وكل شيء يؤكد أن الفلاحين كانوا يتعاملون مع الملاك بنظام المزارعة الموجود حتى الآن ، فللمالك نصف المحصول وللزارع أو الفلاح النصف الآخر ، وتلقانا في النصوص كلمات الخولى والسائس والحراث والجناين

والأجبر والأعوان وعاصر النبيذ .

ويدو أن مصر أخذت تعنى عناية واسعة بالقضاء منذ هذا العصر ، حتى لنجد ابن الطحان يؤلف فى الفناء والمغنين كتابا . وشاع النبيذ والشراب بأكثر مما كانا يشيعان فى الأزمنة السابقة لكثرة الوافدين على مصر من الشرق للدعوة الفاطمية ، وكأنما حملوا إلى مصر شغف بيئاتهم - وخاصة إيران - به .

وانتسح الفاطميون بالأعياد الإسلامية ، وهى - كما يقول المقرئى - موسم رأس السنة ، ويوم عاشوراء ، ومولد الرسول ﷺ ، ومولد على ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان أو غرة رمضان ، وسماط رمضان من اليوم الرابع حتى اليوم السادس والعشرين ، وليلة الحتم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد الأضحى ، وعيد الغدير (الذى يؤمن الشيعة بأن الرسول عهد فيه بالخلافة إلى على بن أبى طالب) وكبوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج (وفاة النبل) وعيد النيوز (أول الربيع) وهو عيد فارسي كان الناس يوقنون فيه النار ويرشون الماء . ومن أعياد النصارى عيد الفطاس وعيد ميلاد المسيح وخميس العدس قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وفيه يأكل القبط العدس ، وعيد الزيتونة وهو يوم أحد الشعانين ، وكانت الكنائس تزيّن فيه بأغصان الزيتون وقلوب النخل . وبعض هذه الأعياد كانت تتحول كرنفالات كبيرة ، إذ يقول المقرئى : « كان الناس بمصر يخرجون فى بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتمائيل والسماجات ، والخيال هو لعبة خيال الظل المضحكة التى تحولت مع الزمن إلى لعبة الأراجوز المعروفة ، ولعل التمايل هى نفس أشباح الأراجوز ، أما السماجات فأشخاص يتراءون فى صور منكورة مضحكة ، وقد يحاكي نفر منهم شعوبا أجنبية وكأن ظاهرة ضحك المصريين من أصحاب الرطانات فى العربية وغيرها قديمة . وكانوا يتسلّون بنطاح الكباش ومهارشة الكلاب والديكة . وبينما كان الفاطميون وأهل القاهرة مقبلين على هذه الملاهى كان الصليبيون - كما مر بنا - قد نزلوا بالشام واحتلوا بيت المقدس وأنطاكية وأكثر ثغورها ، وكان لابد من منقذ مصر والبلاد الشامية مما أصابها من فساد شديد فى أداة الحكم .

وانتقل الحكم والسلطان إلى صلاح الدين وأسرته الأيوبية ، وفى عهده وعهد الأسرة جميعا تحولت مصر إلى ثكنة عسكرية ضخمة ، وسرعان ما أخذت تبشير النصر على الصليبيين تلوح ، بل سرعان ما تهاوت قلاعهم تحت أقدام المصريين ، وتهاوى معها بيت المقدس ، وردّت الديار

إلى أصحابها إلا قليلا . وكان المفروض أن ينقل صلاح الدين كواهل المصريين بالضرائب الباهظة من أجل السلاح والإنفاق على جيوشه ، غير أن الذى حدث كان عكس ذلك تماما ، فقد خُفِّفَ الضرائب عن المصريين ورفع عنهم أكثر المكوس إن لم يكن كلها ، حتى يقول المقرئى إنه أسقط منها ما يزيد عن مليون دينار ومليون أردب وبالمثل أسقط عن أهل الذمة ضرائب كثيرة حتى قالوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار . ولعل مما يدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن يمتنع شيئا من أموال الناس وأن كل ما كان يتحول إليه من الجواهر والضرائب يُنْفَقُ في الحرب دون أن يمتنع منه أى شيء لنفسه ما ذكره ابن تغرى بردى وغيره من المؤرخين مثل ابن شداد في سيرته من أنه حين لجى نداء ربه لم يوجد في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصريا ودينارا واحدا ذهبا صوريا ، ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا ضيعة ولا مزرعة . ويروى ابن تغرى بردى أن ابنه العزيز كان يسير سيرته في الرعية ، ويقول إنه وهب لصياد ديتارين ، وتطهر عليه أن يدفع له هذا المبلغ اليسير . وبالمثل كانت سيرة خلفائه سيرة عادلة ، وكانوا دائما كأنهم مرابطون لحرب الصليبيين ، وقد مات السلطان نجم الدين أيوب وهو يجاهد لويس التاسع وخطفه ابنه توران شاه - كما مر بنا في غير هذا الموضع - فأُنْزِلَ به زمرة ساحقة ، وهو آخر سلاطين هذه الدولة بمصر الذين ظلموا ياجاهدون الصليبيين حتى الألفاس الأخيرة من حياتهم .

وعنى صلاح الدين ببناء القلعة وبناء كثير من المدارس والرباطات ، وظل خلفاؤه يُعْتَوْنَ بالعمران ، مما أُنْمَشَتْ الصناعات في القاهرة ، وكانت صناعة الثياب مزدهرة بتيش وغيرها . وقد عُنى الأيوبيون بالتجارة ، وعقدوا - كما يقول بروكلمان - سلسلة من الاتفاقات التجارية مع الدول الأوربية مما عاد بفوائد كثيرة على التجار المصريين ، وكانوا يعتنون بالزراعة ونظم الري عناية فائقة . ويصف ابن جبير في رحلته لعهد صلاح الدين ريف مصر وقراه التي لا تحصى كثرة ، ويقول إن العمارة فيها متصلة ، وفيها الأسواق وجميع المرافق . ولحقته صلاة الجمعة بإحدى هذه القرى فصلَّى بها الإمام في مجمع حافل وخطب خطبة بليغة جامعة . ويشيد بالمارستان الذى بناه صلاح الدين بالقاهرة وما فيه من عناية بالمرضى ، ويذكر موضعا فيه مقتطعا للنساء ومقاصير عليها نوافذ من حديد أُتْخِذَتْ محابس للمجانين ، كما يذكر مارستانا آخر بالفسطاط على ذلك الرسم بعينه . ويذكر جزيرة الروضة ومبانيها المشرفة الحسان ويقول إنها مجتمعت اللؤلؤ والزينة ، فأهل الفسطاط والقاهرة لم ينسوا حتى في عهد صلاح الدين وحروبه وجهاده لهموم ومرحهم ، وحقا لم يُنَمَّ

الأبويون بالأعباد الكثيرة التي كان يعنى بها الفاطميون والتي بلغت في تقدير المقرئ نحو ثلاثين عبداً ، ولكن على كل حال بقيت منها بقية إسلامية كانت تُمدّ فيها الأسطة للشعب وكذلك بقيت بقية من الأعباد النصرانية . وطبيعي أن يُشغل الأبويون عن الأعباد المصرية بحروبهم مع الصليبيين وما كانت تُستفيدُ منهم من أموال ضخمة . ويدعو أن فنون اللهو وما يتبعها من القمار والخمر مما عُرف في عهد الفاطميين ظلت في أيام الأبويين وإن خفت حدتها ، ويقول ابن تغري بردي عن السلطان العادل الأيوبي إنه طهر جميع ولاياته - في مصر وغير مصر - من الخمر والحواشي والقمار . وطبيعي أن لا تفارق البسمة شفاء المصريين في أيام انتصارات سلاطينهم الأبويين على الصليبيين وأن لا يفارق المرح نفوسهم ، ومن خبر ما يصور ذلك كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لابن ممانى صاحب ديوان الجيش والمال لمهد صلاح الدين ، وكان قد عين قراقوش محافظاً للقاهرة وأمره ببناء القلعة ، والكتاب مجموعة من النواذر المضحكة على قراقوش وأحكامه الحمقاء . وسرعان ما أصبح قراقوش شخصية خيالية لكل حاكم مجبول فيه بله وغفلة وحمق ، وسُمي في تركيا قراقوز ، وعاد إلينا باسم أراجوز وبمروضة المضحكة .

ويتحول صَوْلجان الحكم وأزمته إلى أيدي سلاطين المالك ، ويكسبون لمصر مجد الانتصار على التتار ، وتنحصر موجهتهم إلى العراق وماوراءه ، ويَطْرُدون نهايا الصليبيين من ديار الشام . ويعود التتار مع تيمورلنك إلى الشام وتنسحب جموعه إلى آسيا الصغرى ، ويتوفى فتمزق دولته . وتُعَدّ أيام المالك من أزهى أيام مصر الإسلامية إن لم تكن أزهاها ، فقد ورثت عن بغداد الخلافة العباسية ، كما مربنا ، وتوافد عليها العلماء والأدباء من العراق وما وراءه فآرين من وجوه التتار ، وكانت الأندلس تمر بأيامها الأخيرة فوفد عليها أدباؤها وعلمائها ، كما وفد من قبل علماء صقلية وأدباؤها حين احتلها النورمان . وبذلك كله كانت مصر منذ عصر الأبويين موئلاً العروبة والإسلام . وظلت بها ثلاث طبقات متقابلة طوال زمن المالك : طبقة الحكام ، وطبقة وسطى من كبار التجار ، وطبقة دنيا من الفلاحين والعامة . وكانت الطبقة العليا الأولى تمش منفصلة عن الشعب : في جزيرة الروضة أولاً ثم في الجبل ، على نحو ما هو معروف عن المالك البحرية والبرية ، وقد ظلوا محافظين على طبقتهم فهم لا يختلطون بالشعب ، ودائماً كانوا يعملون على تنمية أنفسهم بمناصب جديدة منهم ، كان يستوردها لهم النحاسون من أحداث الرقيق المجلوب غالباً من القوقاز وجنوى روسيا ويزنطة ، وكانوا يدرّبونهم في القلعة على الفروسية ، ويُمِلُّون لهم أساتذة يعلمونهم الكتابة والحساب وشيئا من القرآن الكريم والحديث النبوي ، حتى إذا شُيِّدوا

توزعهم أمراء المالك ، مكُونين منهم فرقا عسكرية . وما يلبث جنود هذه الفرق أن يقتنوا الإقطاعات . وكانت أحيانا إقطاعات تمليك كما مربنا في العصر الفاطمي فهي تورث ، وأحيانا كانت إقطاعات استغلال . وبمرور الزمن تكاثرت هذه الإقطاعات في أيام المالك تكاثرا شديدا ، حتى اضطرب بعض السلاطين إلى فكها ولكن سرعان ما كانت تعود .

وبذلك كان من أهم ما يميز عصر المالك أنه عصر إقطاع ، وكان الفلاح لا يزال إقطاعه وكأنه - حياته - قن كما يقول المقرئ . ويعجب السبكي في كتابه معيد النعم من هذا الرق للفلاح ، ويقول : من حق الفلاح أن يكون حرا لا يلد لآدمي عليه . وكأنما حُرِّم أصحاب الأرض الحقيقيون من تملك الأرض ، وتملكها المالك الأرقاء ، وكانوا كثيرا ما يفرضون عليهم - كما يقول ابن إياس - ضرائب استثنائية غير الضرائب العادية . ومع ذلك ففي النصوص أن نظام الزراعة المعروف كان - كما أسلفنا - مستمرا في هذه الحقب ، وهو النظام الذي يعمل للفلاح نصف المحصول وللمالك نصفه الآخر ، ويبدو أن أصحاب الإقطاعات كثيرا ما كانوا يظلمون الفلاحين . على أن تسلط المالك على الأرض والزراعة جعلهم يعنون بالجسور ونظام الري وبالثروة الزراعية عامة وكذلك بالثروة الحيوانية . وكانت الدولة تشتري كثيرا من المحاصيل وتعيد توزيعها على تجار التجزئة ، حتى تمنع المضاربات التجارية .

وكانت الصناعة مزدهرة ، فقد كانت أيام المالك أيام ترف في بناء القصور الباذخة وفي كل شئون الزينة ، وكانت للدولة مصانع خاصة للخيل السنية التي يملكها السلاطين على الأمراء وكبار رجال الدولة . وكانت تزدهر صناعة الملابس والفرش والأثاث والجلود والحلى والمعادن والزجاج الملون . وكانت الدولة تهتم بصناعة الأسلحة وسفن الأساطيل . وكل ذلك عمل على ازدهار الصناعات ، وما يدل على هذا ازدهار بوضوح أن نجد لكل فئة من الصانع نقابة خاصة تنظر في شئونهم فيما بينهم وبين أنفسهم كذلك فيما بينهم وبين الشعب من جهة والحكومة من جهة ثانية . وكانت التجارة بالمثل مزدهرة ، بل كانت أكثر ازدهارا ونشاطا ، فإن مصر حينئذ كانت تملك بالشاطئ الأكبر من أزمة التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبعبارة أخرى بين الهند وشرق آسيا وبين أوروبا ، مما جعلها تعقد شبكة من المعاهدات بينها وبين جمهوريات إيطاليا التجارية مثل جنوا والبندقية فضلا عن بقية ثغور البحر المتوسط وجزره . وكانت الدولة تحصل على دخل ضخم من مكوس التجارة ، حتى إذا سقطت أهمية طريق مصر إلى الشرق باكتشاف فاسكودي جاما طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ كان ذلك إيذانا بانتهاء دولة المالك في مصر واستيلاء العثمانيين عليها .

ولعل في هذا كله ما يدل على مبلغ الثراء ، الذى كانت تحياه هذه الدولة ، عن طرق مختلفة من التجارة والصناعة وخراج الأرض والجوالى ، وأيضا فإن الحبوس أو أراضى الأوقاف التى أشرنا إليها في غير هذا الموضع مضت تتزايد زيادات كبيرة ، بحيث كانت مصدرا أساسيا من مصادر دخل الدولة ، وكانت تُصَمُّ إليها ضريبة أخرى من مصادرة أموال التجار أحيانا وفاء بما قد تتطلبه الحروب ، وكانت مصادرة الإقطاعات مستمرة بمجرد أن يموت أصحابها . وكل هذا معناه أن دولة المماليك كانت ثرية ثراء طائلا ، وهو ثراء أعدها لتنهض نهضة كبيرة بالحركة العلمية ويفن العارة ، وتكتظ القاهرة بمساجد سلاطينها وقبابها الشائعة الرائعة .

وعادت إلى مصر في أيام هذه الدولة أعيادها الكثيرة في العصر الفاطمى : الإسلامية والقبطية عدا الأعياد الشيعية . وأضاف المماليك عيد محمل الحج . وعادت الكرنفالات والاحتفالات الكبيرة في هذه الأعياد ومن يتنكرون بها من أصحاب المسخر والساجات . واتسعت فنون اللهو والتسلية ، وكان الناس يخرجون للترهة في أمكنة كثيرة على شاطئ النيل مثل الأزبكية وكان يمر بها قديما ، ومثل بولاق وجزيرة الروضة . وكانوا يستأجرون القوارب والسفن الشراعية للترهة بها في النيل ومعهم بعض المغنين والمغنيات ، واشتهر بينهم كثيرون ، ويذكر ابن حجر منهم في كتابه « الدرر الكامنة » عبد العزيز الحنفى أعجوبة زمانه في فن الغناء وهوى ، أعجوبة أيامها في الضرب على العود ومحمد بن على الدهان وكان يتقن الغناء على القانون . ويذكر السخاوى منهم في كتابه « الضوء اللامع » خديجة الرحابية . وكان هناك من يتعاطون الخمر أحيانا وكذلك الحشيش ، وقد يكثر من يتورطون في تعاطيها فيضطر السلطان إلى الأمر بإحراق الحشيش وإراقه دنان الخمر في كل مكان كما صنع الظاهر بيبرس . ومن ملاهيم جيتة النرد والشطرنج وتطير الحمام وتهارش الدبكة والصيد ورمى الطير بالبندق . وارتق حينذاك خيال الفل وأصبح مسرحا شعبيا تاما ، ويؤلف له ابن دانيال ثلاث مسرحيات ألفها في عهد الظاهر بيبرس ، وجميعها تصور مواقف ومشاهد فكاهية تثير الضحك في المتفرجين . ويقول السخاوى إنه كان من ملاهيم سماع سيرة عنترة وذات الحمة وأبى زيد الهلالي والظاهر بيبرس . وكأنما كُتب على الشعب المصرى أن يؤدي نكتا باهظا لمرحه ولهو في زمن المماليك ، فإذا العثمانيون يمتاحون دياره . وتُتم سماء مصر فقد كسبتها سحب المظلمة نحو ثلاثة قرون إلا قليلا ، إذ تحولت من إمبراطورية ذات سلطان وصولجان إلى ولاية عثمانية ، وليس ذلك فحسب ، فقد جُردتها فاتحها سليم من علمائها ورجال الفنون بها ومهرة صناعها . وتراثها الفنى وكل ما كان بها من مخف نفيسة ، ويقال إنه أبطل بمصر خمسين

صناعة . وبذلك كان فتح العثمانيين لمصر كارثة من كل وجه ، لم تكن كارثة سياسية فحسب ، بل كانت أيضا كارثة علمية وفنية وصناعية ، وحتى مسرح خيال الظل شاهده سليم فأقيم على صاحبه بطائفة من الدنانير ، كما يقول ابن إياس ، وخط عليه ققطانا مذهباً ، واصطحبه معه إلى القسطنطينية . وعلى هذا النحو انتكست مصر انتكاسة لم تستطع أن تفيق منها إلا بعد فترة طويلة . وقد ضاعت منها حيثز مواردها التجارية وما كان لها من مكانة في التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وضاعت مواردها الصناعية ، فقد غادرها مهرة الصناع إلى القسطنطينية ، ولم يبق لها إلا الزراعة ، والعماليك ويعتمدون خيراتها وطيبتها من الرزق ، حتى لا يبقى للفلاح سوى البؤس والفنك وشظف الحياة . وربما كان خير ما يصور تعاسة الفلاحين المصريين في هذه الفترة كتاب « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » لبوسف الشريفي وهي قصيدة عامية هزلية ومثلها شرحها ، وهما يحملان سخرية لاذعة بالحكم العثماني للمصريين وما أرقق به العثمانيون والمماليك الفلاح المصري من عسف وظلم لا يدانيه ظلم ، ظلم جبر أظفح ما يمكن من الجهل والبؤس ، حتى ليصبح أفقر طعام الفلاح غبز الشعير والجبن القريش (الحلال من الدهن) والبصل والعقدس والبيسار ومن وزاته سيات السخرة . وهو يسوق ذلك في أسلوب فكه يحمل كثيرا من السموم .

٥

التشيع : الدعوة^(١) الفاطمية الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضع - أن مصر دخلت في يعة علي بن أبي طالب بالخلافة وأنه اختلف عليها ولاية من قبله ، غير أن ذلك لا يعنى أنها اتخذت التشيع عقيدة ، وحقا كان يحدث فيها أحيانا تحركات لبعض العلويين وبعض شيعتهم وأنصارهم ، غير أنها لم تكن تحركات مذهبية ، إذ لم تكن تعد أن تكون نصره لعلوى بعينه . وتمضى مصر معتنقة لمذهب أهل السنة بعيدة عن العقيدة الشيعية . وبنزلها دعاة الدولة الفاطمية حين تأسست بالمغرب . ولم يفلح أحد منهم

الإسلام لجولدنسيهر (الطبعة العربية) ص ٢١١ وما به من مراجع وكتاب أصول الإسماعيلية لبشارد لويس (من منشورات مكتبة المثنى) وكتاب في أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين وما به من مراجع وخاصة للمستشرق ليفانوف .

(١) انظر في هذه الدعوة رسالة الخواجه الدعوة للفاطمي النعمان بن محمد (طبع بيروت) وكذلك دعائم الإسلام له (طبع دار المعارف) وراحة العقل للكرمال (طبع القاهرة) والمجالس المستنصرية (طبع دار الفكر العربي) وكذلك الحمة في آداب اتباع الأئمة . وانظر كتاب العقيدة والشرعية في

في حملها على الثورة ضد العباسيين، وكأن دعوتهم لم تكن تلبث أن ترد معهم إلى المغرب.

وما نصل إلى سنة ٣٥٨ حتى يفتحها جوهر الصقلي وينشئ بها القاهرة ويتخذها الفاطميون حاضرة لهم، ويقيمون بها دولة شيعية إسماعيلية وتظل مصر متمسكة بعقيدتها السنية. ومرُّ بنا أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت في زمن مبكر إلى اثني عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة إلى ابنه موسى الكاظم وتوالت بعده في خمسة من الأئمة آخرهم محمد المهدي المنتظر المختفي منذ سنة ٢٦٠ للهجرة. وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى في حياته لأن الإمامة عندهم تنتقل إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه. ومرُّ بنا كيف أن عبد الله بن ميمون القذاح نظم الدعوة الإسماعيلية، وأن أحد دعائها هي لعبيد الله الفاطمي حكم تونس فنزلها وأعلن دعوته سنة ٢٩٧، وخلفه القائم فالنصور فالعز الذي اتسع بالدولة ومدَّ حدودها شرقاً إلى الشام.

ويؤمن شيعة الفاطميين الإسماعيلية بمجموعة من المبادئ أولها فكرة أن إمامة المسلمين الشرعية إنما هي لعل وأبناؤه من أئمتهم المنحدرين من السيدة فاطمة الزهراء، وكل إمام منهم وصيُّ سلفه طبقاً للتزيب الإلهي في خلافة أو ولايته الربانية على أمور الأمة. وقد بدأ الرسول ﷺ - في اعتقادهم - فأوصى بخلافة على وإمامته من بعده، ورووا في ذلك أحاديث حملوها هذا المعنى مثل: «هل مني بمنزلة هرون من موسى» كما رووا أحاديث خاصة بهم تشير إلى تابع الإمامة في آل البيت، ووجهوا بعض الآيات القرآنية نفس الوجهة مثل قوله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا).

وبمبدأ ثانٍ قرروه هو طاعة الإمام سواء دعا لنفسه سراً أو علانية وجهراً، فطاعته جزء لا يتجزأ من إيمان الإسماعيلية، فهم كما يؤمنون بالله ورسوله يؤمنون بإمام العصر ويفوضون أمورهم إليه ويلبسون أنفسهم من دونه. فريضة مقدسة، يتضوون تحت لوائه ويبرهون من أعدائه ويوالونه أصديق الولاء.

وبمبدأ ثالث هو عصمة أئمتهم، إذ يرفضونهم فوق المستوى الإنساني بفصائل فطرية فيهم يجعلهم مبرئين من اللنوب مطهرين من الآثام، لا يتورطون في معصية، ولا يقعون في أي خطيئة مها كانت صغيرة، لما يتقل في أصلاهم - حسب اعتقادهم - من نور إلهي ينقّي أرواحهم

وَيُخْلِجُهَا مِنْ دَوَاعِي الشَّرِّ وَأَتَامَهُ . وَهُوَ نُورٌ ظَلَّ يَنْحَدِرُ مِنْ آدَمَ وَأَبْنَانَهُ الطَّاهِرِينَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَحَفِيدِهِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَأَنَّمَا أَصَابَ عَلِيًّا حَفِيدَهُ الْآخِرَ مِنْهُ شِعَاعٌ مَا يَزَالُ يَنْتَقِلُ فِي الْأُتَمَّةِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ .

ومبدأ رابع هو الانساع بالتأويل في القرآن الكريم وآياته ، مستدلين بمثل قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رِبِّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) زاعمين أن للقرآن ظاهرا ووراء ظاهره باطنا لا يعلمه إلا أنتمهم ، خصصوا به دون غيرهم من البشر . واشتق الدكتور محمد كامل حسين من هذا المبدأ عندهم نظرية المثل والمثول ، فظاهر القرآن مثل وباطنه في رأيهم ممثول ، وجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول . وعلى الإسماعيلي أن ينحى عن بصره الظاهر المتبادر الذي يحول بينه وبين رؤية الشريعة على حقيقتها وفي باطنها . وهم بذلك يقتربون من نظرية الأفلاطونية الحديثة التي تدعو إلى نبذ الأسرار والحجب المادية حتى يفصح الإنسان إلى وطنه السماوي . وقد أوغلوا في التأويلات الباطنة ، لآى الذكر الحكيم ناسبين ذلك إلى أنتمهم ، مما لا يحتمله ظاهر القرآن أى احتمال ، ولذلك يسميهم أهل السنة الباطنية .

ونصل إلى المبدأ الخامس الذى يفصل العقيدة الإسماعيلية عن النظرية العامة لأهل السنة والشريعة الإسلامية فصلا تاما . وهو مبدأ تتداخل فيه نظرية الفيض الأفلاطونية ، إذ يزعمون أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار كل دور يتكون من سبعة ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكللى الفعال الذى انتقلت إليه قدرة الله ، وعنه تصدر النفوس الكلية التى يمثلها الأئمة الستة في الدور كما تصدر جميع المخلوقات . ويأخذ تاريخ البشرية منذ آدم هذا النظام الدورى السبعى الكونى ، وكل دور يدعى عمل الناطق السابق له ويمهد لناطق الدور الجديد . ويتجلى النور الإلهي في كل دور من هذه الأدوار ويبلغ كماله في الإمام الناطق الحامل لرسالة نورانية باهرة . وهم يزعمون أن الرسول كان عقلا فعلا وأن عليا وصيه - في اعتقادهم - كان نفسا كلية ، فلما رفع الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبح على عقلا فعلا . وما زعموه أن نفوس الأئمة الستة قبل العقل الناطق تعود بعد الوفاة إلى عالم العقول وتصبح مثله عقولا كلية مديرة للكون .

ومبدأ سادس هو إطلاعهم كل صفات الذات العلية على أنتمهم ، وهم ييدمون فيقولون ان لكل إمام نسبتين : نسبة إلى عالم الطبيعة ونسبة إلى عالم القدس ، بالضبط كما يعتقد النصارى في المسيح . وزعموا أن الله - جل جلاله - ينبغي أن يتره عن كل الصفات والأسماء ، وقالوا - يزعمهم - إن أسماء الحسنى إنما هى أسماء العقل الأول الفعال أو العقل الكللى وأن الله أعلى من أن

يسمى باسم أويوصف بصفة . ومضوا فأضفوا صفاته وأسماءه على أئمتهم ، وبذلك رفعوهم إلى مرتبة التأليه ، بل لقد حسبوهم تجسداً للذات العلية ، حتى ليقول الداعي شهاب الدين أبو فراس في كتابه « مطالع الشموس في معرفة النفوس » : « اعلم أن الإمام الموجود للأمام لا يخلو منه زمان ولا يحوزه مكان ، لأنه إلهي الذات ، سرمدي الحياة ، ولو لم يتأنس إلى معرفته بالحدود والصفات لما كان للخلق إلى معرفته وصول » . وكان أبو فراس لا يصف الإمام الفاطمي وإنما يصف الله سرمدي الوجود الذي لا يحده الزمان ولا يحصره المكان والذي لا يعرف إلا بأسمائه وصفاته . ولا ريب في أن الدعاة من أمثاله هم الذين سؤلوا للحاكم بأمر الله أن يظن أو يتوهم أنه التجسد الإلهي للذات العلية ، فدعا له بعض دعائه إلى عبادته . ولما طفع الكيل قُتل في ضواحي القاهرة ، وأنشأ أنصاره أنه اختفى وسيرجع يوماً إلى الدنيا وعالمها المحسوس .

ومبدأ سابع وهو مبدأ سلبى ، إذ كانوا يُلغون الاجتهاد والأخذ بالقياس في الشريعة على نحو ما هو معروف عند أهل السنة ، إذ جعلوا المرجع إلى الإمام ، وهو معصوم من الخطأ ، والحكم إذن حكمه والفتوى فتواه دون منازع . وبذلك ألغوا حرية الفكر والرأى وما يتبعها من الاجتهاد العقل في أمور الأمة والجماعة . وثبت عندهم ذلك واستقرت بسببه طاعتهم للإمام ووجوب الخضوع لأحكامه ، إذ هو الوارث لعلوم أهل البيت .

وهذه هي أهم المبادئ في العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ولهم في الفقه بعض آراء خالفوا فيها الجماعة مثل المنادة في الأذان بـ « على خير العمل » ومثل ميراث البنت لكل مال أبيها إذا لم يكن لها أخ ، ومثل مسح القدمين في الوضوء بالماء لا غسلها . ولعل دولة عرية لم تُعَنَّ بالدعاية كما عُنِيَ الفاطميون ، فقد كان لهم في كل بلد دعاة ، وكانوا يقسمون العالم العربي والإسلامي إلى أقسام سموها جزائر وعينوا لكل جزيرة دعائها ، وللدعاة جميعاً رئيس أعلى يسمى داعي الدعاة وباب الأبواب ، ويليّه الحجة وهو كبير الدعاة في الإقليم ، وصاحب التأويل الذي يعقد مجالس الحكمة ويتلو على الناس علوم أهل البيت ويأتى وراء ذلك الدعاة والنقباء من كل صنف .

ومن يحاول التعرف على دعاة هذه الدولة سيلاحظ توا أنهم كانوا غير مصريين وأنه كان بينهم المغربي والشامي والإيراني ، وكان مصر لم تقبل على الدعوة الفاطمية ، بل ظلت سُنَّة ومبتعدة عنها ، وكأنها دخلتها من باب وخرجت من باب آخر ، كريح مرت ولم تترك وراءها أثراً . ومعنى ذلك أن مصر لم تعتنق المذهب الإسماعيلي الفاطمي ، ربما اعتنقه بعض أفراد . أما مصر الأمة والشعب فقد ظلت منصرفة عنه في إصرار لسبب طبيعي وهو أن مصر بلد معتدل

المزاج لا يتطرف يمينا ولا يساراً، بل إن التطرف يخالف طبيعته ويهاينها أشد الهابنة. وحاول بعض الباحثين أن يجد شيئاً من أثر التشيع الفاطمي، فعثر على أساء أفراد كانوا ينتسبون أو ينسب لهم التشيع هنا وهناك، ونجزم بأنهم لم يكونوا إسماعيليين يؤمنون بالمبادئ السابقة، إنما كانوا سُنيّين محبين لأهل البيت، وكانت مصر قبل الفاطميين وإلى اليوم تحبهم، ولكن دون أن تعتنق مذهبها من مذاهب الشيعة، فضلاً عن المذهب الإسماعيلي وما في مبادئه من غلو مفرط.

٦

الزهد^(١) والتصوف

مصر - من قديم - بلد دين ، تعيش به وتعيش له ، وما أهراماتها إلا رموز ضخمة لديها الوثقى في عصر الفراعنة ، حتى إذا اعتنقت المسيحية توغلت فيها وفيها تحمله من زهد في حطام الدنيا ومتاعها الفاني ، نافذة خلال ذلك إلى الرهبة التي أشاعتها في هذا الدين ، حتى غدت من خصائصه ، فإذا أناس من معتقيه يعزلون العالم وكل ما فيه من شهوات ومآرب إلى الأديرة ينفقون فيها حياتهم ناسكين متعبدين . وتدخل مصر في الإسلام وسرعان ما تقبل على تمايمه الزاهدة التي تحض على التقوى والنسك ، ترفضها في ذلك نوازعها الدينية الموروثة ، وهي نوازع ظلت تنبض بقوة في المجتمع المصري الإسلامي . وحقا قد نجد أحيانا أفرادا من الشعب أو من الأمراء الحكام يمجنون ، وقد نجد أسرابا من الهون في بعض الأزمنة المتأخرة ، ولكن ذلك لم يكن يعدو زبداً أوقشورا تبدو أحيانا فوق السطح ، أما الأعماق فتروض المتاع الدنيوي المادى وتعلق بما عند الله من المتاع الأخروي الروحي .

وابن شطكان وابن شاذلي في تراجم بعض المصوفين والزهاد
وابن تغري بزي ودينامي الزهد لابن أبي اليسر وتاريخ الجبل
وكتاب في التصوف الإسلامي لنيكلسون والحركة الفكرية في
مصر في القرنين الأولين والملوكي للدكتور عبد الطيف
حمزة وإبراهيم النسوتي وأحمد البدي في دائرة المعارف
الإسلامية والتصوف في مصر إبان العصر العثماني والشرافي
للدكتور توفيق الطويل .

(١) انظر في الزهد والتصوف الولاية والقضاء للكندي ،
والغرب ، وحسن الماضرة للسيوطي ، وطبقات الصوفية
للأبي عبد الرحمن السلمي ، والطبقات الكبرى للشرافي .
وكذلك كتاب لوائح الألوام ، والخطط للمقرئ في
الخطابات والرباطات والزوايا ، والرسالة القشيرية ،
وكشف المحجوب للهجويزي ترجمة الدكتور إسماعيل عبد
الحادي قنديل وأخبار الحكماء للقفطي وتهذيب ابن حاكم

ومنذ الفتح الإسلامي تنشأ في مصر وتنمو جماعات من النساك العباد تجرد عن متاع الدنيا وتبذ طياتها ، وأقرأ في تراجم القصاص الوعاظ والفقهاء والمحدثين والقراء والقضاة ، فستجد عشرات من هذه الفئات يزهدون في متاع الدنيا ، بل يفرطون في الزهد متحملين في ذلك مشقات عنية من الجوع وغير الجوع . نذكر منهم سليمان التنجي ، وهو أول من قصّ ووعظ الناس بمصر في زمن معاوية فإن السيوطي يذكر عنه في كتابه حسن المحاضرة أنه كان يسمى الناسك لشدة عبادته ، وكان ينظم القرآن في كل ليلة زلفى وتعبداً لربه . ومنهم المزني صاحب الشافعي وأكثر تلاميذه تصنيفاً في مذهبه ، وفيه يقول ابن خلكان في ترجمته : « كان في غاية الورع ، وبلغ من احتباطه أنه كان يشرب في جميع فصول السنة من كوز نحاس ، قبل له في ذلك ؟ قال : بلغني أنهم يستعملون السرجين (روث البهائم) في الكيزان والنار لا تطهرها . وذكر أنه كان إذا فاتته الصلاة في جماعة صلى منفرداً خمسا وعشرين مرة أو صلاة استدراكاً لفصيلة الجماعة ، مستنداً في ذلك إلى قوله ﷺ : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بنحو عشرين درجة » . وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة . » ومنهم بكار بن قتيبة القاضي في عصر ابن طولون ، وفيه يقول ابن سعيد في كتابه المغرب : قسم الفسطاط : « كان أحد البكّائين والتالين لكتاب الله ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قضايا جميع من تقدموا إليه وما حكم به وبكى خشية خطئه ، وكان يكثر الوعظ للخصوم » . ويورد السيوطي تَبْناً طويلاً بمن كان بمصر من الصالحين والزهاد والصوفية في كتابه حسن المحاضرة ، ويذكر بينهم سيدات عابدات ناسكات في مقلمتين السيدة نفيسة حفيدة الحسن بن علي بن أبي طالب للتوفاة سنة ٢٠٨ ، وكانت مقيمة في موضع مسجدنا اليوم بالقاهرة ، وكان الناس يجتمعون إليها لسماع الحديث ، ولما دخل الإمام الشافعي القاهرة حضر إليها وسمع الحديث عنها . ومن هؤلاء للمتعبات الناسكات فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبي صالح للتوفاة سنة ٣١٢ وقد عاشت طويلاً ، ويقال إنها ظلت ستين سنة لا تنام إلا وهي في مُصَلَّاهَا بغير فراش .

وطبيعي ومصر دار كبيرة من دور الزهد والعبادة والنسك أن ينشأ فيها سريعا التصوف ، ويذكر الكندي أنه ظهرت في ولاية السري بن الحكم سنة ٢٠٠ للهجرة بالإسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرهم بالمعروف ويعارضون السلطان في امره ترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي . ويمكن أن نتخذ هذه السنة تاريخاً تقريبا لظهور التصوف في مصر . ويروي الكندي أنه كان في القاهرة جماعة مماثلة لعهد المأمون كانت تحيط بقاضيه عيسى بن المنكر

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكأن التصوف عُرف في مصر بقوة منذ أوائل القرن الثالث الهجري . وقد أورد القشيري في رسالته آراء مختلفة في اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هي من الصفاء أو من الصوف لأن الصوفية كانوا يلبسونه ويتخذونه شعاراً لتقشفهم ، أو هي من الصفة وأهلها الذين كانوا ينقطعون للعبادة في المسجد زمن الرسول ﷺ ، ولا يرجع القشيري رأياً هل آخر ، وذهب البيروني إلى أن كلمة التصوف مشتقة أو مأخوذة من كلمة صوفياً بمعنى الحكمة عند اليونان ، ونظن طناً أنها مشتقة من الصوف لأن لبسه شاع مبكراً بين المتصوفة .

وما نغضى طويلاً في القرن الثالث الهجري حتى نسمع بأبي حاتم العطار المصري أستاذ أبي تراب النخشي المتوفى سنة ٢٤٥ وأهم منه ذو النون المصري المتوفى مع أبي تراب في نفس السنة ، واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن أحمد الإخيمى . كان أواحد وقته زهداً وورعاً وعبادة ونسكاً ، طلب الفقه في أول حياته فتلمذ لليث بن سعد فقيه القسطنطينية ، ثم رحل إلى الإمام مالك في المدينة المتوفى سنة ١٧٩ فروى عنه الموطأ ، ثم نزع إلى التصوف والنسك فتلمذ لشقران العابد . ويذهب نيكلسون إلى أنه المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامى مستنداً في ذلك إلى قول ابن تغرى بردى « إنه أول من تكلم ببلده في ترتيب الأحوال والمقامات ، وبذلك يجعله نيكلسون أستاذ المتصوفة جميعاً - غير متأرجع - في العالم الإسلامى . وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وأنه ذكر كاس المحبة الذى يسقى به الله المحبين وأنه كان يقسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسماً عاماً للمسلمين جميعاً وقسماً خاصاً بالفلاسفة والعلماء وقسماً خاصاً بالصوفية الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك ميز المعرفة الصوفية من المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية تعتمد على البصيرة والحدس ، والثانية عقلية تعتمد على التفكير والمنطق ، ومعنى ذلك أن التصوف ليس فلسفة ولا علماً ولا فكراً وإنما هو أحوال ومقامات وهو - بذلك - إن صح أن يسمى علماً ، علم باطن مقصور على الخواص . ودائماً كان يفرق بين الخواص وهم المتصوفة وبين العوام أو عامة المسلمين بمثل قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » وكان يقول : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عن الله بالغفلة » . وكان يقول أيضاً : « الصوفى من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكنت نطقته عن الجوارح بقطع العلائق » . وكان يكثر من الحديث عن مبدأ التوكل الصوفى على الله قائلاً : علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات الحب لله متابعة حبيب الله (أى رسوله) في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته » . وفي هذا القول ما يدل

بوضوح على أن التصوف عنده لم يحدث بينه وبين الشريعة أى انفصام وأن ما ذكره المجبورى فى كشف المحجوب من أنه كان من الملامية الذين يتظاهرون بالاستخفاف بأمور الشريعة عار عن الصحة ، فالتصوف عنده لا يقوم بدون الشريعة ، والحياة الصوفية لا تتحقق بدون الفرائض والسنة الشرعية . واستحضره الخليفة المتوكل من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل وردّه مكروماً ، وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع يبكى ويقول : حَيَّ هَلَا بَدَى النون . ويقال إنه كان على معرفة بعلم الكيمياء .

ويذكر القشبرى فى رسالته والمجورى فى كتابه كشف المحجوب وغيرهما طائفة من تلاميذه الصوفية من أعلام القرن الثالث ، منهم ابن الجلاء شيخ مشايخ الشام ويوسف بن الحسين الرازى شيخ مشايخ إيران والجنيد شيخ مشايخ بغداد وزميله الخزاز وهو أول صوفى تكلم فى الفناء وسهل بن عبد الله الشترى شيخ الحلاج الصوفى المشهور . وفى ذلك ما يشهد بأن أثر ذى النون ومصر فى التصوف وتاريخه كان أثراً بعيداً وعميقاً إلى أقصى حد . ويشتهر بعده غير صوفى بمصر ، ويفد عليهم كثيرون من متصوفة البلدان الأخرى طوال القرن الثالث ، ونذكر من متصوفتها حيثنك أبا بكر الدقاق المتوفى سنة ٢٩٠ واشتهر أحد صوفيتها وهو بنان الحمّال المتوفى سنة ٣١٦ بكثرة كراماته ، ومن صوفيتها أبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ . ويقول ابن سعيد فى المغرب قسم الفسطاط : كان الإنشيد يحب الصالحين ويركب إليهم ويطلب دعاءهم ، وأنه ركب إلى رجل صالح بالقرافة يسمى ابن المسيب وسأله الدعاء ، وأنه كثيرا ما كان يلم بأبى سهل بن يونس ويطلب منه الدعاء فى خشوع مثبّرّاً به .

وتدخل مصر فى أيام الفاطميين ، ويبدو أنهم لم يكونوا يهتمون بالصوفية لسبب مهم وهو أن كلامهم كان يزعم لنفسه علم الباطن ، وكان الصوفية يقولون بحق إن علمهم ينبع من القلب ومن التأمل الباطنى ، وزعم الفاطميون لأنتمهم أنهم أصحاب علم لا يشركهم أحد فيه ، فأدى ذلك إلى شيء من التعارض بين الطرفين ، وبذلك انصرف الفاطميون عن الاهتمام بالتصوف وأهله . وفى هذه الأثناء حدث صدع كبير بين الفقهاء والمتصوفة وخاصة فى المشرق : فى العراق وإيران إذ رجع المتصوفة أنفسهم فوق الفقهاء درجات ، وقالوا إن الأهم فى الحياة الدينية عمل القلب لا عمل الجوارح والنهوض بالفرائض الدينية ، بل إن منهم من أهمل هذه الفرائض ، مما جعل الفقهاء يحملون عليهم حملات عنيفة . وتنبه القشبرى والغزالى إلى خطورة هذا الصدع فى بنية الحياة الدينية وحياة الأمة ، فعلا بقوة على رأيه ، بحيث لا يكون المتصوف متصوفاً حقاً إلا إذا

أدّى الفرائض والسنن الدينية ، ولابد للفقهاء في هذه السنن والفرائض من الإخلاص وصفاء القلب وصدق الشعور الباطني .

وبذلك عادت إلى صفوف المتصوفة والفقهاء - بل إلى صفوف الأمة - الوحدة ، ودعمها ووثقها حدث خطير هو اجتياح حملة الصليب لديار الإسلام في الشام والموصل منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، فوقفت الأمة جميعها بتياراً مرصوحاً ضد أعداء الإسلام ، حتى يذيقوهم وبال عدوانهم ويسحقوا جموعهم سحقاً . وحمل المتصوفة والفقهاء السلاح وتقدموا صفوف المجاهدين ، وبذلك نفهم عناية صلاح الدين بهم جميعاً ، فقد أخذ يقيم المدارس للفقهاء ، كما أخذ يُعنى بإقامة الزوايا للمتصوفة ، واتخذ لهم في القاهرة داراً كبيرة من دور الفاطميين كانت تسمى دار سعيد السعداء ، جعلها لهم خانقاه ومعناها بالفارسية دار عبادة ، يبدون فيها القنوس يسكنون . وفتح أبواباً للصوفية الواردين على القاهرة من العالم الإسلامي منذ أنشأها في سنة ٥٦٩ هـ وهي أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر ، ووقف عليها بستاً وعقارات تكفل نفقاتها عن سعة ، وجعل لها شيخاً سُمي شيخ الشيوخ ، ورُئِب للصوفية فيها كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً ، وبني لهم حماماً وأجرى عليهم الجرايات ، ورسم لهم رسماً : أن من ترك منهم عشرين ديناراً لما دونها كانت لمصوفتها وأن من أراد منهم السفر يُعطى ما يكفل له سفره . وكانوا يخرجون منها كل يوم جمعة للصلاة في الجامع الحاكمي في مشهد مهيب ، فشيخهم يتقدمهم وبين يديه خدام المصحف الشريف ، وقد حُمل المصحف على رأس أكبرهم والصوفية وراءه ماشون بسكون وخفر ، حتى إذا صلوا الجمعة عادوا إلى الخانقاه بنفس المشهد الرائع .

وأخذ التصوف من حيث يزدهر في مصر ، وانتفض فيه المجاهدان : انجاه فردى فلسفي ، وانجاه جماهي سني ، ويمثل الانجاه الأول ابن الفارض سلطان العاشقين للذات الإلهية ، وهو يصور في شعره وجدّه وهيامه ربّه وأحواله فيه ومقاماته ومدى مانم به في شهوده ، مع مدحه للرسول الكريم ، وقد رَفَعَ حقيقته المحمدية لواء يتجمع حوله المسلمون ليسدوا للصليبيين الفرية القاضية . وكان يقابل هذا المترع الصوفي الفلسفي الفردى المترع الصوفى الجمعي ، وقد هيات له خانقاه صلاح الدين السالفة الذكر ، وكان كثيرون منهم قد أقبلوا من العراق والشرق يحملون مبادئ طريقتين من طرق التصوف السني ، هما الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة ٥٦١ هـ والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ، وأخذت الطريقتان نشيعان بين المتصوفة المصريين ، وما غصى في القرن السابع طويلاً حتى يتزل

بالإسكندرية من شاذلة في الجزائر الشيخ أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ ويؤسس بها الطريقة الشاذلية ، ويتبعه خلق كثير في الإسكندرية والقاهرة ، ونراه هو وأتباعه ومريديه في مقدمة الصفوف التي تَمَرَّتْ في موقعة المنصورة سنة ٦٤٧ حملة لويس التاسع ، بفضل ما أذكوه في المجاهدين لأعداء الله من حماسة ملتهبة .

وتدول دولة الأيوبيين بمصر وتختلفهم دولة المماليك ، وتعظم رعايتها للمتصوفة ، فتبنى لهم كثيراً من الخوانق والرباطات والزوايا ، ويُعدُّ المقرئ من الخوانق اثنين وعشرين كان من أهمها الخانقاه البيبرية ، ويقول المقرئ : بناها ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٧ وهى أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا ، وكان بها أربعمائة صوفى ، وكانت فيها دروس منظمه للحديث النبوى وقراءة الذكر الحكيم . ثم خانقاه سرياقوس بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ وكان بها مائة خلوّة لمائة صوفى وبني لها مسجدا وحاما ومطبخا ، وأيضا كان ملحقا بها حمام للنساء مما يدل على أنه كان لبعض المتصوفات فيها خلوات خاصة . و خانقاه شيخون بناها سنة ٧٥٧ ورتب فيها دروسا لفقهائ المذاهب الأربعة ودرسا للقراءات ودرسا للحديث ومشيخة لسباع صحيح البخارى وصحيح مسلم . وبجانب الخانقاهاات بنى أمراء المماليك للمتصوفة اثني عشر رباطا ، وكانت تُرتَّب لها الجرايات وبجالس الوعظ . وأصل الرباط الثغر في دار الحرب ، ولعل في إطلاقه على زوايا المتصوفة حيثئذ ما يدل على صلته المستمرة بالجهاد . ومن الطريف أن أحد الرباطات كان مخصصا للمتصوفات والأرامل ممن لا يجدن من يعولن ، وكانت شيختهن صوفية وعادة تكون واعظة . وبني المماليك ستا وعشرين زاوية للعباد والناسك وكانت تُرتَّب لكل هذه الزوايا والرباطات والخانقاهاات الأطعمة والحلوى والكسوة والزيت والصابون ، ومن أجل ذلك حُبست عليها أوقاف كثيرة .

وكان طبيعيا أن تكثر الطرق الصوفية في زمن هذه الدولة التي اتسمت في رعاية المتصوفة وتلتقى في أوائلها بأبى الحسن الشاذلى مؤسس الطريقة الشاذلية - كما قدمنا - وقد تعددت فروعها حتى بلغت أحد عشر فرعا أهمها الطريقتان : الوفائية والخلوتية . وقد تفرعت الأخيرة بدورها إلى أربعة فروع . وتلتقى إبراهيم الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ مؤسس الطريقة البرهامية . وبأحمد البدوى المتوفى بطنطا سنة ٦٩٥ مؤسس الطريقة الأحمدية وقد تعددت فروعها حتى بلغت ستة عشر فرعا .

ودخلت مصر في أوائل أيام الأيوبيين - كما قدمنا - الطريقتان القادرية الجبلانية والرفاعية ،

ودخلتها فروع من المولوية أتباع جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ ، ومن القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، وكانوا يحلقون لحاهم وحواجبهم، وقُلت أفعالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض وكانوا لا يتشفون ولا ينتسكون ، وكان لهم زاوية خارج باب النصر بالقاهرة بالقرب من القرافة ، ويقول المقرئ إن أول ظهورهم كان بدمشق سنة ٦١٩ للهجرة . وعُرفت بمصر بأخوة من أيام المالك الطريقة النقشبندية أتباع محمد النقشبندی المتوفى سنة ٧٩١ وكذلك الطريقة البكاشية . وشاعت أيام العثمانيين الطريقة الخلوتية المتفرعة - كما أسلفنا - من الطريقة الشاذلية ، وفي مقدمة أعلامها بمصر مصطفى كمال الدين البكرى المتوفى سنة ١١٦٢ للهجرة ، والشيخ الحنفى ، ومنه أخذ الطريقة الشيخ أحمد الدردير ، وسنعرض له في غير هذا الموضع .

وتتميز هذه الطرق بعضها عن بعض بالأوراد ، فكل من ردد خاص وهو مجموعة من المناجيات لله والأدعية والابتهالات ، وتتميز أيضا بالأزياء ، فهناك للسوقية وبيارقهم وأعلامهم خضراء ، وهنالك القادرية يضاء ، وهى عند الأحمدية حمراء ، وعند الرفاعية سوداء . وكانت لهذه الطرق تنظيمات دقيقة منتهى الدقة ، فتابع الشيخ يلزمه مدة تقصر أو تطول حتى يتلقن عنه طريقته ، وحتى يثبت إخلاصه الشديد له ، فليحظه بمريديه أو تلاميذه ويلبسه خرقة التصوف : شعار الطريقة ، ويصبح ظلًّا له ، إذ تلاشى إرادته في شيخه تلاشيًا تامًا وفى ذلك يقول الشعراني فى كتابه : « لوائح الأنوار » نقلًا عن الشيخ إبراهيم للسوق : « المريد مع شيخه على صورة الميت ، لا حركة ولا كلام ، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ، ولا يعمل شيئًا إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك » . ونمضى الأيام ويصبح للمريد شيخًا ، وكانوا يرسلون بالمريدين إلى البلدان والقرى ، وبذلك يصبح للشيخ صاحب الطريقة أتباع كثيرون فى وطنه وفى الوطن الإسلامى الكبير ، وإذا هو صاحب طريقة كبرى ، ولكل طريقة شيوخها الكبار .

وكان مما أتاح لهذه الطرق مكانة كبيرة فى نفوس العامة أنهم كانوا يتمثلون على أوقاف محبوسة على زواياهم ورباطاتهم وحنافياتهم ، فلم يكونوا يأخذون من الدولة رواتب مثل الفقهاء المدرسين والقضاة والمحدثين والقراء ، ممن كانوا يتمثلون فى معاشاتهم على الهيئات الحاكمة ، أما هم فلم يكونوا يتمثلون عليها . وبذلك كان لهم استقلال روحى واضح ، جعلهم يقفون أحيانًا فى وجوه الحكام ، ويقاومونهم حين يتطلب الشعب هذه المقاومة بسبب ظلم أوطيان أو زيادة فى الضرائب أو غير ذلك . وهو ما جعل العامة فى كافة البلاد الإسلامية تتعلق بهم تعلقًا

شديداً ، كما جعل الحكام من الماليك وغيرهم يخشونهم ومحسبون حسابهم . ولعلنا لم ننس ما مر بنا في نشأة جماعة من المتصوفة بالإسكندرية والقسطاط وأنهم كانوا يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الحكام أحياناً . ونرى المتصوفة يستظهرون هذا كله في أيام الماليك ، فإذا ثارت العامة لفساد أو طغيان أو انحلال في الأخلاق كان المتصوفة من وراء ثورتها ، وكان سلاطين الماليك يرهبونهم ويتقنون لهم ما يريدون . وما يدل على مكانتهم لزمانهم أن نجد طومان باي بأخرة من سلاطين الماليك لا يقبل السلطنة إلا بعد أن يأخذ له الشيخ أبو السعود الجارحي العهد على الأمراء جميعاً ، فقد لجأ إلى صوفى ولم يلجأ إلى شيخ الإسلام والفقهاء والقضاة في عصره . وقد أفضنا في الحديث عن التصوف السنّى وطرقه في أيام الماليك ، ولم نعرض للتصوف الفلسفى إلا عند ابن الفارض ، وكان مصر انصرفت عنه إلا ما قد يفد عليها مع بعض أصحابه مثل الشترى الأندلسى ، وعفيف الدين التلمسانى نزىل دمشق وساكنها المتوفى سنة ٦٩٠ . وربما كان المصرى الوحيد الذى اعتنق التصوف الفلسفى ومذهب ابن عربى فيه عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى من الأسرة الحسنية ببنيى ، نزل أبوه مصر ، وسكن هو الصعيد وشغف بالتصوف . وينقل ابن حجر في ترجمة له بكتابه الدرر الكامنة أنه من أتباع ابن عربى ، وربما لقيه حين زار مصر ، أوله رحل إليه في دمشق ، إذ عاش نحو مائة سنة وتوفى سنة ٧٠٣ وكان مذهب ابن عربى في الحلول والاتحاد بالذات الإلهية وجد له عن طريقه مَسَرّاً إلى مصر .

على أنه ينبغي أن نذكر أن التصوف بأخرة من أيام الماليك وفي أيام العثمانيين أخذ ينحرف عن طريقه السوى القديم ، بسبب تحول خائفاهاته ورباطاته وزواياه الى تكايا وبيعت كتبرين من الدجالين والمشعوذين ومن سَمُوا بالمجاهيب وال دراویش . وكان منهم من يخلق رأسه ولحيته وشعر حاجبيه ورموش عينيه ، ومن يدعى الكرامات وأنه من أولياء الله ، والله براء منه ، لانحرافه عن جادة الدين . على أنه ينبغي ان لا يبالغ الباحثون في الحملة على المتصوفة في الأزمنة المتأخرة ، إذ مما لا شك فيه أنهم هم وأسلافهم السابقين استطاعوا دراویش وغير دراویش أن يحافظوا للإسلام طوال الأزمنة الماضية على وحدته السنية حتى في زمن العثمانيين : أكثر الأزمنة تدهورا وتأخرا . ولعل أكبر صوفى مصرى ظهر في زمنهم هو الشمرانى المتوفى سنة ٩٧٣ وكان واسع المعرفة عميقها بالعلوم الإسلامية وكذلك بالتصوف واتجاهيه الفلسفى والسنّى ، إذ قرأ ابن العربى وابن الفارض كما قرأ القرزلى والقشبرى وغيرهما من أصحاب الطرق الصوفية ، وآثر التصوف السنّى وانتظم في سلك الطريقة الشاذلية ، وحاول أن يكون لنفسه طريقة متفرعة منها سماها الطريقة

الشعرانية . وله مصنفات كثيرة تُعَدُّ بالعشرات ، أكثرها في التصوف ، أشاع فيها إيمانه بالكرامات والحقائق لا لغيره من المتصوفة فحسب ، بل أيضا لنفسه وما حدث له مع الجن والملائكة . وكان مثل كبار المتصوفة قبل زمنه يمتز بكرامته إزاء الحكام إلى أقصى حد ، فهو لا يقبل منهم مالا ولا هدية . وسأله أحد الحكام العثمانيين وهو راحل إلى الآستانة ألك حاجة عند السلطان ، فأجابه ثورا : ألك أنت حاجة عند الله ؟ فوجم الحاكم ولم ينبس ببنت شفة . ويقول الجبرقى في الجزء الأول من تاريخه : « كان الإمام العلامة الحنفى قطب رضى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإيادنه » . ومعنى ذلك أن الصوفية ظلوا في أيام العثمانيين الحالكة - كما كانوا في الأيام السالفة - يستشعرون استقلالهم الروحى والمادى إزاء الحكام ، كما ظلوا يستشعرون إرادة الشعب وماله من قوة وسلطان .

الفصل الثمانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

تميزت مصر بتأثيرها الواسع فى الحضارة الإنسانية من قديم ، وهو تأثير لا يتوقف عند الرق بغير الزراعة وشتى الثرى وتدبير القنوات ، إذ يمتد إلى فن المعمار وبناء الأهرامات وفن الملاحة وبناء السفن وصناعات المعادن والحرف والنسيج وورق البردى . وليس هذا فحسب فإنها نسجت لأول مرة حلل الحروف الهيروغليفية التى اشتقت منها الحروف الفينيقية ، وأبضا ليس هذا فحسب ، فإنها أسهمت بقوة فى نشأة العلم بمعناه العالمى ، سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى . وعمل الرض من اقتحام الجيوش المغيرة لأسوارها وحصونها فى الحين بعد الحين ظلت فيها الروح العلمية كالجنوة المتقدة لا تحمد مها تراكم عليها من التراب . ونستطيع أن نتبين شرا كثيرا من هذه الجنوة فى عهد البطالة الذين انحلوا الإسكندرية عاصمة لهم ، فقد بنوا فيها متحفا ضخما ضم بين جناحيه جامعة كبرى كان بها مدرسة للطب ، وثانية للرياضيات والفلك ، وثالثة للقانون والفلسفة ، وضم أيضا مكتبة كبيرة يقال إنه كان بها أربعمائة ألف كتاب أو أكثر . وطبيعى أن تكون اليونانية لغة الدولة هى نفسها لغة العلم فى تلك اللرة من تاريخ مصر ، ويغزو الإسكندرية يوليوس قيصر وتُحرَق المكتبة فى أثناء غزوه . وتطور الظروف سريعا وتصبح مصر ولاية رومانية ، وينشئ المصريون مكتبة صغرى بمجد السرايوم على قلعة الأكروبوليس . ولا نصل إلى سنة ٣٩١ للميلاد حتى يثور القبط بالإسكندرية على ورة الوثنية الإغريقية ومعبدهم السرايوم ويهدموه ويُتَمَرُوا معه المكتبة . ولا يُتمى الرومان بالحركة العلمية فى مصر أى عناية ، فقد عَدُّوها مَحَرَّنًا يهدم بالقمع ، ومع ذلك ظلت فيها بقايا كثيرة من حركتها العلمية لعهد البطالة . وظلت الإغريقية سائدة فى لغة

العلم ، وشاركتها القبطية وخاصة في الطقوس الدينية والكتابات التاريخية ، وأخذت تشاركها قبل الفتح العربي اللغة السريانية التي كانت منتشرة في الأديرة وخاصة في مجال الطب ، وفي ذلك يقول بترل : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب في القرنين السادس والسابع (للميلاد) كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذاتمة بين الناس وأن آدابها كانت دائما تدرس في الإسكندرية »^(١) .

ومر بنا في الفصل الماضي أن الحكم الروماني في مصر قَبِل الفتح العربي كان لا يطاق لاضطهاد القبط دينيا ولإرهاقهم بالضرائب الباهظة ، ولذلك عدَّ القبط العرب مخلصين لهم من نير هذا الحكم الجائر الظالم . وكل شيء يؤكد أن مصر استبقت حينئذ كل ما كانت قد حصلت عليه من علوم ومعارف ، ولا سيما في الطب . وليس بصحيح ما قيل من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية حين انتصها ، فقد دحضَ هذا القول بترل وأثبت بالدليل القاطع بطلانه لما مر من أن مكتبة الإسكندرية الكبرى إنما أُحرقت تاريخيا في عهد بوليوس قيصر قبل دخول العرب مصر بنحو ستة قرون ، بينما أُحرقت مكبتها الصغرى قبل أن تخفق رايات العرب في ربوع مصر بنحو قرنين ونصف^(٢) ، وإذن فالقول بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية افتراء ليس له أى أساس تاريخي .

ومعروف أن الإسلام دفع أمته في كل مكان إلى العلم والتعلم ، وليس بين أيدينا ما يكشف كشفا تاما الحركة العلمية بمصر في عصر الولاة ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أنه انبعث فيها حركة علمية إسلامية عريضة قوية ، فبمجرد أن فُتحت مصر أخذ بعض الصحابة يتجردون لإقراء المسلمين القرآن وعرض بعض الأحاديث النبوية عليهم ليفقهوا على تعاليم دينهم ، وكانوا يفتونهم في بعض المسائل حتى يميزوا الحلال من الحرام ، ويعظونهم مذكرين لهم باليوم الآخر وما عند الله من الثواب الآجل . ونهض بهذا الجهد العلمي طبقات من الصحابة الفاتحين لمصر ومن التابعين ومن جماعوا في إثرهم . وفي كتاب حسن المحاضرة للسيوطي أثبت طويلة بأسماء القراء والمحدثين والفقهاء

(١) انظر في هذا النص وما تقدمه من حديث كتاب فتح العرب لمصر تأليف بترل (الترجمة العربية) ص ٨٣ وما بعدها وراجع مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد في كتاب التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي ، وقد فصل القول في نشاط هذه المدرسة

العلمي حتى الفتح العربي .

(٢) بترل ص ٣٤٨ وما بعدها وقارن بصفحة ٨٣ وما كتب في الفصل الثامن ومقال ماكس مايرهوف في التراث اليوناني .

والوعاظ ممن اضطلموا في الحقب الإسلامية الأولى بمختلف الدراسات الدينية .

وكانت هذه الحركة العلمية تحظى - منذ أول الأمر - برعاية الدولة وولايتها ، فقد كانت ترسل إلى مصر من يفقه الناس في أمور دينهم ، وبدأ ذلك منذ زمن عمر^(١) بن الخطاب . وكان هناك دائماً القضاة للحكم بين الناس في خصوماتهم وللفتوى فيما يحدّ لهم من الشئون ، وكانوا عادة من الفقهاء وكثيرون منهم كانوا محدّثين ، وكان يُستدّ إليهم الوعظ . ودائماً تلقانا نصوص هنا وهناك تدل على أن الدولة كانت تنعى بإرسال بعض المحدّثين والفقهاء إلى مصر لتعليم الناس ، من ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١) أرسل إلى مصر نافعاً^(٢) مولى ابن عمر يعلم الناس السنن ، كما أرسل ثلاثة من الفقهاء للفتيا كان من بينهم يزيد^(٣) بن أبي حبيب وقد أقام بها حتى توفي وكون بها مدرسة فقهية كان لها أثرها البعيد بعده . ولم تكن مصر تكتفى بمن يرسلهم إليها الخلفاء الأمويون ، فقد أخذت تتكون فيها أجيال من القراء والفقهاء المحدّثين نجد أسماءهم مرتبة حسب وفياتهم في حسن المحاضرة . وكلما خطونا خطوة في العصر العباسي الأول أحسنا بازدياد هذا النشاط ، ومن المؤكد أنه كان مما يُدّك به الأعطيات والرواتب التي كانت تفرضها الدولة وولايتها للعلماء ، كما كان الشأن في بغداد والبصرة والكوفة .

وظاهرة مهمة نلاحظ على القضاة والعلماء في مصر ، فإن منهم من كان ذاسعة في الثراء ويبدو أن القضاة كانوا يتقاضون أعلى الرواتب ، فقد كان عبد العزيز بن مروان وإلى أخيه عبد الملك حل مصر بفرض لعبد الرحمن بن حجبيرة الحولاني القاضي ألف^(٤) دينار كل عام ، ومربنا في الفصل الماضي أن عبد الله بن طاهر حين ولي مصر لعهد المأمون فرض لقاضي القضاة سبعة دنانير كل يوم . وكان الليث بن سعد الفقيه ثرياً ثراء طائلاً ، ويقال إن هرون الرشيد أقطعه إقطاعات كثيرة كانت تدرّ عليه آلاف الدنانير ، وكان يرسل إلى مالك إمام أهل المدينة سنويًا مائة دينار . وكان ينثر أمواله نثرًا على تلاميذه ومن يهاجر إلى مصر من المحدّثين والفقهاء^(٥) . وكان عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المتوفى سنة ٢١٤ من ذوى الأموال والرياع ويقال إنه أهدى إلى الشافعي حين نزل مصر ألف دينار وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألفًا ثانية ومن رنجلين آخرين ألفًا ثالثة^(٦) . وفي ذلك ما يدل على أن كبار التجار والأثرياء في مصر كانوا يرفدون العلماء

(١) حسن المحاضرة ١/ ١٣٧ .

(٢) ابن خلكان ١/ ١٣٠ .

(٣) ابن خلكان ٣/ ٣٤ .

(١) حسن المحاضرة ١/ ١٩٠ .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٢٩٧ .

(٣) حسن المحاضرة ١/ ٢٩٩ .

بأموالهم . ويقال إنه كان ليونس بن عبد الأعلى أحباس^(١) (أوقاف) . وكان طيبات مصر وغيرها حُبَّت في حُجور العلماء . فكان منهم كثيرون في يسار ونعمة ، وكانوا يصلون زملاءهم وتصلهم الدولة وكبار التجار والموسرين ، مما هيا للعلم أن يخلصوا للعلم وينبغيوا فيه .

وظاهرة ثانية نلاحظ بجانب الظاهرة السابقة وهي أننا لا نكاد نتقدم إلى أواسط القرن الثاني للهجرة حتى يصبح لعلماء مصر حظ واضح من المساهمة في الفكر الإسلامي العربي ، وقد ظلت أكثر من قرن تلقى آثار هذا الفكر وتُحاول أن ترعاها وأن تضيف إليها من شخصيتها ما ينميها ، وغلب عليها حيثُذ التلقي والتلمذة ، فهي تلقى قراءات الذكر الحكيم والحديث النبوي والفقه واللغة والأخبار والتاريخ العربي الإسلامي ، وتُسخِ ذلك كله وتمثله حتى إذا توسّطت القرن الثاني للهجرة أخذت تسهم بحظ قوى فيما تلقاه . ولعل من الطريف حقاً أنها أخذت ترتعم بقوة المغرب والأندلس جميعاً ، فإذا هي تعدّهما لقراءة ورّش والاستقبال مذهب مالك إمام المدينة والحجاز . وليس ذلك فحسب ، فإنها هي التي كُتبت لأول مرة تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس ، وأذاعت رواية للسيرة النبوية ، مستحدث عنها فيما بعد ، كانت إماماً لكُتب السيرة المعطرة ، ونفذ أحد أبنائها وهو ذو النون المصري إلى وضع أسس التصوف ، كما مرّ بنا في الفصل الماضي . ومعروف أنها استقبلت على رأس المائتين الإمام الشافعي وحملت عنه مذهبه ونشرته في بلدان العالم الإسلامي ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة ذيوفا وانتشاراً .

وعلى هذا النحو أصبحت مصر في زمن الولاة مركزاً مهماً من مراكز العلم وقصدها الطلاب من أطراف المغرب والأندلس لحمل العلم عن علمائها المختلفين . ونغضى إلى زمن الدولة الطولونية فنرى الحركة العلمية نامية ناشطة على نحو ما تصور ذلك أسماء العلماء المصريين والوافدين المُثَنّوَة حسب تاريخ الوفيات والتخصصات العلمية في كتاب حسن المحاضرة . ويتّفق أحمد بن طولون جامعهم المشهور ويرتّب لإملاء الحديث النبوي فيه الربيع بن سليمان المرادى ويحمل إليه صناديق المصاحف وينقل إليه القراء والفقهاء^(٢) . وليس بين أيدينا نصوص توضح أعطياته للعلماء ، ويبدو أنها كانت كبيرة إذ يُروى أنه كان يعطى القاضي بكّار بن قتيبة كل سنة ألف دينار خارجاً عن المقرر له وأنه ظل على ذلك أعواماً كثيرة^(٣) . ولا بد أن عطايها مقاربة كانت تُعطى للقراء والفقهاء والمُحدّثين والقائمين على دراسة التاريخ واللغة والأدب . وأخذت مصر منذ زمن ابن طولون (٢٥٤ -

(٣) ابن خلكان ١/ ٢٧٩

(١) ابن خلكان ٣/ ٢٥٠

(٢) خطط القرطبي ٣/ ١٤٦ وما بعدها

٢٧٠ هـ) بل قبل زمنه بعشرات السنين تصبح مقصدا للعلماء وطلاب العلم لا من المغرب والأندلس فحسب ، بل أيضا من الشام والعراق وإيران وخراسان . وقد نزلها خمسة من أصحاب الصحاح يكتبون الحديث النبوي عن علمائها ، وهم البخاري وأبو داود ومسلم وابن ماجة والنسائي^(١) وأقام فيها الأنصير واتخذها مسكنا ودارا له ، وكان يتزل في زقاق القناديل ، وأمل بها سنته ، وأخذها عنه الناس من المصريين وغيرهم .

وكان ابن طولون وغيره من ولاة مصر وحكامها يترن من يتزل بها من العلماء وطلاب العلم ، يدل على ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أن ابن جرير الطبري المتروخ والمفسر المشهور المتوفى سنة ٣١٠ نزلها وهو في نحو الثلاثين من عمره سنة ٢٥٣ وتركها قليلا إلى الشام ثم عاد إليها سنة ٢٥٦ ليتزود مما لدى علمائها من الحديث والفقه . وكان شافعيًا ، وجمعت الرحلة بينه وبين أبي بكر محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري المتوفى سنة ٣١١ حامل قراءة ورش عن يونس بن عبد الأهل وفقه الشافعي عن تلميذه : الزنى والريبع بن سليمان المرادي إلى موطنه : نيسابور بخراسان ، وأيضًا محمد بن نصر المروزي المتوفى سنة ٢٩٤ حامل فقه الشافعي إلى سمرقند عن الزنى وغيره من تلاميذه ، وكذلك محمد بن هرون الروياني المحدث وله مستند . جاءوا جميعًا إلى الفسطاط يدرسون على شيوخه ، ويقال إنهم اجتمعوا يوما ولم يبق عندهم ما يجرهم ، وكان والي مصر قد علم بأمرهم - وأكبر الظن أنه ابن طولون - فأرسل إلى كل منهم مائة دينار ، ويقال إنه أرسل إليهم ألف دينار^(٢) . وإذا كان طلاب العلم يُعْتَقُّ عليهم الأموال بمصر فما بالنا بما كان يُعْتَقُّ على علمائها .

وما نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى تكون مصر قد نشرت مذهب الشافعي في خراسان عن طريق أبي بكر بن إسحق النيسابوري ومحمد بن نصر وأيضًا عن طريق عبدان المروزي الذي تفقه على الزنى والريبع بن سليمان ، ويقول السيوطي إنه هو الذي أظهر مذهب الشافعي في خراسان^(٣) ، وظلت مصر منذ هذا التاريخ من أهم بيئاته . ومن أهم تلاميذ أصحاب الشافعي المصريين أبو القاسم الأنطاقي عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٢٨٨ وفيه يقول السبكي : هو الذي اشتهرت به كتب الشافعي ببغداد ، وعليه تفقه شيخ المذهب هناك وحامل لوائه في بغداد والعراق

(١) حنن الحضارة ١/ ٣٠٦ ، ٣٠٩ وطبقات الشافعية (٢) معجم الأدباء ١٨/ ٤٦ وحسن الحضارة

٣١٠/١ .

السبكي (طبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة) ٢/ ٧ ،

(٣) حنن الحضارة ١/ ٣٤٩ .

١٧١ ، ١٥٣ .

أبو العباس بن سريج^(١) . أما الشام فحمل إليها المذهب عن تلاميذ الشافعي أبو زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ إذ أدخله إلى دمشق وولى قضاءها ، ولم يتوله بعده لا في الشام ولا مصر إلا شافعي المذهب حتى عصر الظاهر يبرس^(٢) . وأما الحجاز فيقول السبكي عنها إنها لم تبرح منذ ظهور مذهب الشافعي وإلى يومنا هذا في أبدى الشافعية : القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة^(٣) . وعمضى السبكي قائلا إن أهل اليمن شافعية إلا أن يكونوا زيديين ، ويذكر أن مذهب الشافعي شاع في فارس ، وأما أذربيجان فلا تعرف سواه . وكل ذلك بفضل تلاميذ الشافعي المصريين الذين قاموا على مذهبه غير قيام واستطاعوا نشره في القرن الثالث عن طريق تلاميذهم حتى أقصى المشرق .

ونمضى مصر في العتابة بالدراسات الدينية لعهد الإخشيديين في القرن الرابع ويصور ذلك من بعض الوجوه ما رواه ابن سعيد من أنه كان في جامع عمرو للمالكيين خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات^(٤) . ومعروف أن مصر كانت مالكية حتى قدوم الشافعي ، فانتقم مصر مذهبها والمذهب المالكي ، ولم يكن للمذهب الحنفي أتباع إلا بعض من كان يتولى القضاء بها لعهد بني العباس ، ولا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة . أما جمهور القضاء فكان من المالكية ، حتى إذا كنا في أواخر القرن الثالث الهجري انتقل القضاء من أيديهم نهائيا إلى الشافعية كما مر بنا آنفا في حديث السبكي . وأتبع للمذهب الحنفي إمام مصري كبير من أئمة هو أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١ فهبأ له بمصر حياة لم تكن له من قبل ، وهي التي أتاحت لقيام الحلقات الثلاث التي يُدرّس فيها الفقه الحنفي كما ذكر ابن سعيد . وتأخذ الدراسات اللغوية والنحوية في النمو بمصر منذ عهد الدولة الطولونية ويؤمها الأخفش الصغير تلميذ المبرد ، ويظل هذا النمو مطردا في زمن الدولة الإخشيدية ، ويقصدها الطلاب المغاربة والأندلسيون ويحملون عنها المعاجم وكتاب سيويه وغير ذلك من كتب اللغة والنحو .

وعملت الدولة الإخشيدية على إنماء الحركة العلمية وساعدها على ذلك أنه كان يضطلع بالوزارة لها مدة متطاولة جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف باسم ابن حنّابة وكان يُقدّر على العلماء ويميز صلاتهم ، قصده الأفاضل - كما يقول ابن خلكان - من البلدان الشاسعة ، وكان من حفاظ الحديث النبوي وكان له مجلس في المسجد يبلّغ فيه على الناس ، وعُني بتأليف مستند

(٣) السبكي ١/٣٢٢ .

(١) السبكي ٢/٣٠١ وانظر ٣/٢١ .

(٤) الغرب لابن سعيد (قسم القضاة) ص ١٧٣ .

(٢) السبكي ٣/١٩٧ وحسن الحاضرة ١/٣٩٩ .

خاص به ، وإليه رجع الدارُقُطْنِيّ على بن عمر أكبر محدثي العراق في عصره ، وأعانه في تأليف مسنده مع من كان يُعْبِته فيه من المصريين وأقام لديه مدة ، وبالف ابن حترابة في إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئا كثيرا وحصل له بسببه مال وفير^(١) .

وظل ابن حترابة يقود الحركة العلمية بمصر طوال وزارته وقد امتدت نحو عشرين عاما من أيام كافور إلى قرب انتهاء الدولة الإخشيدية ، وطبيعي ومثله يقوم على ذلك أن تمحى في النثر والنشاط . ومن نزل مصر حيثئذ المسعودي على بن الحسين المؤرخ المشهور . ومنها ذاعت كُتبه التاريخية وفي مقدمتها كتابه مروج الذهب ، وظل مقبلا بها حتى لبى نداء ربه سنة ٣٤٥ وقيل بل سنة ٣٤٦ .

وترداد الحركة العلمية نموا ونشاطا في زمن الدولة الفاطمية ، إذ عمل الخلفاء الفاطميون ووزرائهم على دَفْع هذه الحركة دفعا قويا ، وما تكاد تمحى سنوات في عهد هذه الدولة حتى نجد الخليفة العزيز (٣٦٦ - ٣٨٦ هـ) يرسم راتبا لسبعة وثلاثين من الفقهاء ويبنى لهم دارا بجوار الجامع الأزهر^(٢) الذي كانوا يتخذونه مقرا لدعوتهم الإسماعيلية . ولا نعرف هل كان الفقهاء جميعا إسماعيلية أو كان بينهم نفر من أهل السنة ، على أننا نجد ابنه الحاكم يسند إلى قتيبين مالكيين التدريس في هذا الجامع^(٣) ، مما يدل على أنه تحول سريعا إلى جامعة كبرى للدراسات الدينية واللغوية . وفي أخبار وزير العزيز ابن كلّس أنه كان يُجْرَى بأمره ألف دينار شهريا على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمجلّدين^(٤) ، مما يدل على أنه نشأت حركة علمية كبرى لا للدراسات العلمية فحسب ، بل أيضا لنسخ المخطوطات في مختلف العلوم والآداب . وأكثر دلالة على ذلك ما يُروى من أن العزيز عُني بإنشاء مكتبة في القصر ، كان بها ما يزيد على مائة ألف مجلد ، وفي رواية على مائتي ألف^(٥) ، وكان أمينه القائم عليها الشاشقي^(٦) على بن محمد صاحب كتاب الديارات ، ويقال إنه كان بها أكثر من ثلاثين نسخة من معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وأكثر من عشرين نسخة من تاريخ الطبري ، ومائة نسخة من معجم الجهمرة لابن دريد . وما زال العزيز يُعَيِّن بهذه المكتبة هرو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، حتى قيل

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم مير

(١) ابن خلكان ١/ ٣٤٧ ، ٣/ ٢٩٨ .

٢٥٠ / ١ نقلا عن يحيى بن سعيد الأنطاكي .

(٢) صبح الأعشى ٣/ ٣٦٣ والمخطوط ١٥٧/ ٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/ ١٠١ والمخطوط ١٢٨/ ٢ .

٢٧٥ .

(٤) ابن خلكان ٣/ ٣١٩ .

(٥) النجوم الزاهرة ٤/ ١٧٨ .

إنها أصبحت أربعين خزانة مملأة بنفائس المجلدات في الحديث النبوى والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والتاريخ وعلوم الأوائل ، ويقال إنه لم يكن في العالم دار كتب تماثلها وأنها كانت من عجائب الدنيا . وعلى الرغم من بيع بعض مصاحفها وكتبها في أيام المجاعة المائلة لزم من المستنصر فإنها ظلت زاخرة بالكتب ، حتى يقال إن صلاح الدين أهدى وزيره القاضي الفاضل منها مائة ألف مجلد أودعها مدرسته الفاضلية ، وظل ابن صورة دلال الكتب يبيع منها للناس مدة من السنين^(١) . وكانت هذه المكتبة الضخمة تعد أماً لمكتبات القاهرة والفسطاط جميعاً ، فقد كانت تُلحق بكل جامع خزانة للكتب ، وكان الفاطميون يمدونها من حين إلى حين بما يلزمها من المصنفات ، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يروى عن الحاكم من أنه أنزل من القصر إلى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ١٢٩٨ مصحفاً وإلى جامع ابن طولون ٨٠٠ مصحف كان منها ما هو مكتوب بالذهب^(٢) . وإنما نصّبوا على إزال المصاحف لجلالها ، ولابد أنهم أنزلوا معها كثيراً من الكتب . ونفس مكتبة القصر كان يختلف إلى خزائنها الخارجية العلماء والطلاب للقراءة والنسخ منها والاطلاع .

وتأسس في سنة ٣٩٥ جامعة كبرى تسمى دار العلم ، حُمل إليها من خزائن القصر كتب كثيرة تحتوي على سائر العلوم الإسلامية والآداب والفلسفات وعلوم الأوائل ، يقول المقرئى « حضرها الناس على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والورق والأقلام والمحابر . وكانت بها دروس للمحدثين والقراء والفقهاء وأصحاب النحو واللغة والمنجمين والأطباء والمتفلسفة ، وكل هؤلاء كانت تجرى عليهم وعلى الطلاب الرواتب . وما تدخل سنة ٤٠٠ حتى يكتب الحاكم وثيقة كبيرة للاتفاق منها على دار العلم وعلى الجوامع الكبرى ، ويخصر القراشين والحضر والحبر والورق والأقلام في دار العلم بمائتين وسبعين ديناراً سنوياً . ومن المؤكد أن الحاكم كان يفتنى بهذه الجامعة أن تكون مركزاً للدعوة للعقيدة الإسماعيلية بدليل أنه جعل رئيساً لها أحد دعايتها من بيت النعمان وهو عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ويبدو أنه وجد في ذلك ما يهدد بثورة أهل السنة المصريين ، فأضاف إلى علمائها الإسماعيليين من أصحاب نخلة طائفة من فقهاء أهل السنة ومحدثيها وعلى رأسهم عبد الفتى بن سعيد الفقيه الشافعى المشهور وأكبر حفاظ

(١) انظر في هذه المكتبة وكل ما ذكرت هنا المخطوط (٢) المخطوط ١٤٦/٣ ، ١٦٣ .

١٢٧/٢ وما بعدها .

الحديث المصريين في زمنه . وما زالت هذه الجامعة ناهضة بالحركة العلمية في القاهرة حتى عهد الأفضل بن بدر الجمال إذ رأى إغلاقها ، لنشوب جدل عنيف بها فيما صنع من جمل المستغل بالله الخليفة الفاطمي بعد أبيه المستنصر دون أخيه نزار الذي كان يكبره ، وخشى من ذلك حدوث ثورة ، غير أن التزارية لم يلبثوا أن قتلوه ، وقيل بل قتله الأمرين المستغل . غير أن الجامعة أودار العلم لم تلبث أن أعيدت سنة ٥١٧ هـ بعد نقلها إلى دار جديدة ظلت فيها حتى نهاية الدولة الفاطمية ^(١) .

وإذا كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية استغلوا الجامع الأزهر ودار العلم في أول تأسيسها لنشر الدعوة الإسماعيلية فإن الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص في القسطنطينية ظل مركزا للدراسات أهل السنة . ولابد أن نلاحظ أن القاهرة حين أسست إنما كانت مسكنا للخلفاء الفاطميين وحواشيها من رجال الدولة وجنود الجيش القادم معها من المغرب ، بينما كانت القسطنطينية حيث سكن المصريين ، كما كان شأنها قبل دخول الفاطميين ، وكان مسجدها جامعة كبرى للدراسات السنية . ويذكر المقدسي الذي زارها سنة ٣٧٥ أنه رأى في جامع عمرو بها بين العشائين مائة مجلس وعشرة ^(٢) للقراء والدراسات السنية . ومع ذلك كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية يترأون فيه ويفتون الناس أحيانا ^(٣) ، كما أخذ أهل السنة بدورهم يحاولون الإملاء وإلقاء المحاضرات في الجامع الأزهر ، ولم يجد الحاكم بدءا - كما مر بنا - من أن يعين في الأزهر وفي دار العلم بعض أهل السنة من المحدثين والفقهاء .

ولعل في ذلك ما يخفف حدة القول بأن الفاطميين كانوا يضطهدون فقهاء أهل السنة ويحاربونهم ، ويذكرون في هذا الصدد الاعتداء في سنة ٣٨١ أي لعهد العزيز على رجل وُجد عنده موطأ الإمام مالك ^(٤) ، وقد يكون السبب أن الرجل تعرض للدعوة الإسماعيلية بالسب والثلب . ويذكرون أن الحاكم أراق دماء نفر من فقهاء أهل السنة ، وكان فيه سفه وخجل ، فلم يرق دماهم وحدهم ، بل أراق أيضا دماء كثيرين من الدعاة الإسماعيليين ورجال الدولة . وكان بيت النعمان أهم البيوت المغرية في نصرتهم والتأليف في عقيدتهم الفاسدة ، ومع ذلك قتل الحسين بن علي بن النعمان كبير قضاته ، ووُلِّي بعده ابن عمه عبد العزيز الذي أقامه رئيسا لدار العلم ،

(١) انظر في دار العلم القديمة والجديدة المخطط

ص ٢٠٥

(٢) ابن خلكان ٣٠/٧ وانظر المخطط ٣١/٣ .

٢١٨ ، ١٩٤/٢ .

(٣) المخطط ٢٧٥/٣ .

(٤) أحسن التظيم في معرفة الأعلام (طبع لندن)

كما مر بنا ، ولم يلبث أن قتلته سنة ٤٠١ وولّى بعده مالك بن سعيد الفارقي ، ولم يلبث أن سفك دمه ^(١) . وإذن قتل الحاكم لجباة من أهل السنة ليس دليلاً كافياً على اضطهاد الفاطميين لهم إذ كان لا يتيق ولا يذر من كبار دعائه وقضائه ورجال دولته الإسماعيليين .

ومما يذكر من اضطهاد الفاطميين لفقهاء أهل السنة أن الخليفة الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) أمر بطرد ^(٢) الفقهاء المالكية من مصر أى الفسطاط سنة ٤١٦ . وينقص هذا الخبر كتاب رواه عنه صاحب النجوم الزاهرة حمل فيه حملة شعواء على من يؤلهون علياً وأباه الحاكم ، وفيه يقول : « قالوا في آبائنا وأجدادنا منكراً من القول وزوراً ، ونسبونا بغلوهم الأضغ ، وجهلهم المستغفلع إلى مالا يلبس بنا ذكره ، وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال » ^(٣) . ومثله لا يضطهد المالكية ولا يفهم من البلاد . وكان لا يزال بمصر في عهده عبد الوهاب بن علي البغدادي المالكي أحد الأئمة المالكية المجتهدين في المذهب ، نزل مصر لضيق حاله ببغداد وتوفي بها سنة ٤٢٢ يقول السيوطي : « أكرم بمصر وتمول وسعد جداً ، ومرض فكان يقول في مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متاً » ^(٤) . هـ . فصر في عهد الخليفة الظاهر وقبله وبعده كانت لاتزال مركزاً كبيراً للإشعاع العلمي والدراسات الدينية ، يترها العلماء ليشاركوا في نهضتها العلمية ، ويترها طلاب العلم ليتزودوا منها خير زاد . ونفرب مثلاً بمكي بن أبي طالب القيسي القبرواني المتبحر في القراءات المتوفى سنة ٤٣٧ والمولود سنة ٣٥٤ فقد جاءها يطلب العلم فيها سنة ٣٦٧ ثم عاد إليها سنة ٣٧٤ ورجع إلى بلده ثم عاد سنة ٣٧٧ لأخذ القراءات عن شيوخها ورجع إلى القيروان سنة ٣٨٠ ثم عاد سنة ٣٨٢ لاستكمال القراءات ، ومضى بعد سنوات إلى جامع قرطبة بالأندلس يقرئ فيه الناس ^(٥) . ومثله أبو عمر والداني الأندلسي نزل مصر سنة ٣٩٧ وحمل القراءات عن أساتذتها وهو في الخامسة والعشرين من عمره ^(٦) . فهذان عالمان سنيان جليلان نزلا مصر لعهد العزيز والحاكم على الترتيب ووجدوا فيها ما يكفل لها الإقامة بها والعيش فيها .

ومن نزل مصر من كبار المحدثين النقاش الحافظ المتوفى سنة ٣٦٩ وأبو سعيد الماليني المتوفى سنة ٤١٢ وأبو نصر السجزي المتوفى سنة ٤٤٤ ونزلها في العقد الثاني من القرن السادس أكبر حفاظ

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٦ .

(٥) ابن خلكان ٢٧٤/٥ .

(٢) الحطط ٣١/٣ .

(٦) معجم الأدياء ١٢٦/١٢ وكان أستاذ الداني في

(٣) النجوم الزاهرة ٢٤٩/٤ .

القراءات هو نفسه أستاذ مكي : عبد المنعم بن غليون الحلي

(٤) حسن الحاضرة ٣١٤/١ .

نزىل مصر .

الحديث في عصره. الإمام السُّنِّي . ونزلها من كبار فقهاء الشافعية أبو العباس الذَّيْل المتوفى سنة ٣٧٣ وأبو الحسن الحلبي المتوفى سنة ٣٩٦ وأبو الفضل البغدادى المتوفى سنة ٤٤١ وأبو القاسم العراقي المتوفى سنة ٤٧٧ وأبو الفتح المقدسى المتوفى سنة ٥١٨ ، ونزلها من فقهاء المالكية الأبهري الصغير وعبد الله بن الوليد الأندلسي المتوفى سنة ٤٤٨ وعبد الجليل بن مخلوف الصقل المتوفى سنة ٤٥٩ وأبو بكر الطرطوشي الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٥ وأبو العباس القاسي^(١) المتوفى سنة ٥٦٠ .

وإذا كان هؤلاء العلماء والطلاب الوافدون وجدوا في مصر مستقراً لهم ومقاماً فأول أن يجد ذلك أنبأها ، وأيضاً فإن وراءهم كثيرين من محدثي مصر وفقهائها الشافعيين والمالكيين والقراء يُعَدُّون بالمشرات على طول السنوات في عهد الدولة الفاطمية ، مما يؤكد أن الفاطميين لم يعلنوا معارضة هذه الدراسات ، بل لعلمهم كانوا يشجعون كثيرين من أهلها ومن الوافدين عليهم ، حتى يقول نزيلها الإمام عبد الوهاب المالكي قوله السالفة : « عندما عشنا متاً . » ولعلنا لسنا في حاجة إلى كل هذه الأدلة لنبرهن على أن الفاطميين لم يقفوا حجر عثرة ضد نشاط أهل السنة ومذهبي الفقه الشافعي حينئذ في مصر: المذهب الشافعي والمذهب المالكي فإن القلقشندي يشهد لهم بذلك شهادة بيّنة إذ يقول عنهم: « كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويكثرونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة الذوايح في الجوامع والمساجد على خلاف معتقدهم .. ومذاهب مالك والشافعي وأحمد (بن حنبل) ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه^(٢) . » وهو محق في مذهب أبي حنيفة إذ لم يكن له نشاط بمصر في عهد الفاطميين ، أما مذهب ابن حنبل فغير محق في إثبات نشاط له حيث إن كان نشاطه مثل نشاط مذهب أبي حنيفة يكاد يكون معدوماً .

على كل حال هذه شهادة صريحة للفاطميين بأنهم كانوا يترضون أهل السنة ، وحقق حين دخلوا مصر أسندوا وظيفة القاضي القضاة إلى النعمان فقيهم وتوارثها بعده بعض أبنائه وأحفاده ، ثم ولوها بعض شيعتهم . ويبدو أنهم أخذوا في عصر المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) يتركون هذه السياسة ، إذ عُيِّنوا على رأس القضاة فقيها شافعي هو أبو عبد الله محمد^(٣) بن سلامة القضاعي أحد أئمة زمنه المتوفى سنة ٤٥٤ . ويبدو أن كثيرين من القضاة الفرعيين في الإسكندرية وغيرها كانوا

(١) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٧ وانظر حديث السيوطي في كتابه حسن الحاضرة عن فقهاء الشافعية في زمن الفاطميين ٤٠٤/١ وما بعده .

(٢) راجع في هؤلاء الفقهاء والمحدثين حسن الحاضرة للسيوطي وما به من إثبات خاصة بهم في جزئه الأول .

(٣) صحيح الأمتي للقلقشندي ٥٢٠/٣ .

شافعين أو مالكيين. ويتولى الوزارة بدر الجمالي (٤٦٨ - ٤٨٧ هـ). ثم ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) ويصبحان ولي الأمر ويحجران على الخلفاء وكانا لا يعارضان أهل^(١) السنة ولا يتصحبان ضلعم. وحين يتولى أحمد الأفضل حفيد بدر الوزارة يعين أربعة قضاة: شيعيا إسماعيليا وشيعيا إماميا ومالكيًا وشافعيًا^(٢). ويظهر أن هذا أصبح تقليدا منذ صنع أحمد الأفضل هذا الصنيع سنة ٥٢٥ هـ.

ويترك في الإسكندرية السلفي أكبر حفاظ الحديث في العصر ويأخذ في إملائه، ويتوافد عليه الطلاب من مصر وغير مصر، ويتولى الإسكندرية العادل بن السار في عهد الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) وكان شافعي المذهب مثل السلفي فاحتل به وزاد في إكرامه وبني له مدرسة فؤد تدرسها إليه، يقول ابن خلكان: وهي معروفة باسمه إلى الآن أي في زمنه^(٣). وفي صبح الأعشى سجل^٤ بإستاد هذه المدرسة إلى الفقيه السلفي والقيام على نفقة من فيها من القراء والفقهاء والمرابطين والصلحاء وطلبة العلم من أهل الإسكندرية ومن الواردين إليها والطائفتين عليهما سواء كانت النفقة نقدا أو غلة، مع بيان أنه أعد لهم جميعا فيها المئوى والمسكن. وبذلك يكون ما ذكره المقرئ وغيره من أن المدارس لم تعرف في مصر إلا في عهد صلاح الدين غير صحيح^(٥). فقد كانت بها مدرسة السلفي المذكورة، وكانت مدرسة سنية شافعية. ونفس دار العلم يمكن أن نعدّها مدرسة بالمعنى الكبير الذي كان لنظامية بغداد، إذ كانت مؤسسة علمية كبرى.

وكانت الدولة الفاطمية قد انتهت إلى انحلال وفساد شديد وأخذ الظلام يعم ديارها في مصر والشام وفي غفلة من الزمن يستولى حملة الصليب على بيت المقدس وساحل الشام على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي، ويستغيث الفاطميون بنور الدين صاحب حلب، ويرسل إليهم بجند على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وتتطور الظروف مريعا، وينهى صلاح الدين حكم الفاطميين ويقبض على صولجان الحكم، ويكاد يقضى على الصليبيين في الشام إلا قليلا ويستولى على بيت المقدس وتتكاثر فتوحاته، ويحقق للعرب والمصريين الزعيم المتظر لتخليص البلاد من حملة الصليب. وعلى نحو ما قاد هذه الفتوح قاد نهضة علمية رائدة، إذ كان محبا للدراسات الإسلامية شغوقا بها وخاصة بالحديث النبوي مما جعله يتزل الإسكندرية ليلتقاء على

(١) المغرب ص ٢١٦.

(٢) ابن خلكان ١/١٠٥.

(٣) أخبار مصر لابن مبر ص ٧٥.

(٤) الخطط ٣/٣١٥ وانظر حسن الحاضرة ٢/٢٥٦.

السلف أكبر حفاظه في عصره . وكان يستمع إلى الفقهاء ويروى أنه تلقى على بعض الشيوخ موطأ مالك برواية فقيه الإسكندرية الطرطوشي المالكي^(١) ، بينما كان السلفى شافعيًا ، وكان صلاح الدين نفسه شافعي المذهب . ولعل في ذلك ما يفسر اهتمامه بفقهائى المذنبين ، بل لقد ضم إليهم أيضا فقهاء للمذهب الحنفى ، فإذا هو ينشئ خمس مدارس بالقاهرة والفسطاط ، أنشأ اثنين منها فى أثناء وزارته للعاقد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٦ : مدرسة لفقهائى الشافعية بجوار جامع عمرو سميت مدرسة ابن زين التجار باسم الشيخ الذى قُوض إليه تدريس الفقه الشافعى بها ثم حُرِفَ باسم المدرسة الشريفة ، ومدرسة لفقهائى المالكية بالقرب منها سميت المدرسة القمحية للقمح الذى كان يأتيها من ضبعة بالقيوم وقفها عليها صلاح الدين ، حتى إذا استولى على مقاليد الحكم بمصر أنشأ ثلاث مدارس اثنين للشافعية إحداهما بجوار مسجد الشافعى والثانية بجوار مشهد الحسين ، أما الثالثة فجعلها للحنفية وسميت السيفية^(٢) . والمهم أنه رُغب لكل هذه المدارس الأساتذة والمدرسين والمعيدين ، فقد كان نظام الإعادة معروفاً حيث ، ورُغب لها أيضا الأئمة والمؤذنين والقُومة والطلاب ، وجعل لكل مدرسة أوقافها الخاصة للإنفاق المستمر عليها فى حياته وبعد وفاته ، وألحق بكل مدرسة مساكن للمعلمين والطلبة . وكأن كل مدرسة كانت تشبه كلية من كليات الجامعات فى عصرنا ، فع كل مدرسة مساكنها وميزانيتها للإنفاق اليومى والشهرى عليها .

وبذلك بدأ مصر دورة علمية كبيرة فى عهد الدولة الأيوبية لا فى عهد صلاح الدين وحده ، بل أيضا فى عهد من خلفوه من الأيوبيين ، إذ كانوا فى جملتهم علماء ، وكذلك كان وزراءهم وأمرأؤهم منذ عهد صلاح الدين نفسه ، ولكثيرين منهم مدارس أنشأوها فى الفسطاط والقاهرة عددها المقرئى - والطريف أنه اشترك معهم فى إنشائها بعض التجار - وقد بلغ بها خمسا وعشرين مدرسة^(٣) . ويبدو أن إحصائيته غير كاملة ، فإنه لم يقف عند مشهد الحسين وقفه توضح أنه كان مدرسة كبقية المدارس . ونستطيع أن نميز بين هذه المدارس ثلاث مدارس للفقه الشافعى وراء المدارس التى أنشأها صلاح الدين ، إحداهما أنشأها ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه وسميت مدرسة منازل العز وهو اسم المنازل التى أقيمت فيها ، وكان مما وقفه عليها

(٢) ابن خلكان ٢٠٦/٧ وقارن بحديث المقرئى من المدارس فى الجزء الثالث من المخطوط .

(٣) انظر حديث المقرئى فى ذلك بالمخطوط ٣١٣/٣ وما بعدها .

(١) انظر فى ذلك ابن واصل فى كتاب مفرج الكروب فى تاريخ بنى أيوب ١/ ١٩٥ وما بعدها وكان يرسل يولديه : العزيز والأفضل سطلال مصرودمشق بعده للساج من السلف وفقهائى الإسكندرية . انظر حسن المحاضرة ١٩/٢ .

جزيرة الروضة المعروفة الآن بالقاهرة والثانية المدرسة الشريفة بناها أحد أمراء الدولة الأيوبية سنة ٦١٢ . والثالثة المدرسة الفاترية بناها الوزير الفاتري سنة ٦٣٦ . وبالمثل نستطيع أن نميز للفقه المالكي بجانب المدرسة الفتحية التي أنشأها له صلاح الدين المدرسة الصاحية التي بناها له صاحب ابن شكر وزير السلطان العادل . وأيضا نستطيع أن نميز للفقه الحنفي بجانب المدرسة السيوفية التي أنشأها صلاح الدين مدرستين إحداهما سميت الأركشية بناها أحد الأمراء ، والثانية سميت العاشورية أنشأها إحدى كريمات الأمراء . وهناك مدارس بنيت لأصحاب الفقه الشافعي والمالكي مثل مدرسة القاضي الفاضل ، وأخرى بنيت للفقه الشافعي والحنفي مثل المدرسة القطبية التي أنشأها السيدة مؤمنة ابنة السلطان العادل . ويبنى السلطان نجم الدين أيوب بأخرة من زمن هذه الدولة سنة ٦٤١ مدرسة كبرى للمذاهب الأربعة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، وهي أول مرة أو أول مدرسة تُعنى فيها مصر بدراسة الفقه الحنبلي . وينشئ السلطان الكامل سنة ٦٢٢ أول مدرسة تُعنى بالحديث النبوي تسمى دار الحديث الكاملة نسبة إليه . ويلاحظ ابن خلكان ومن بعده ابن تفرى يردى أن جميع المدارس التي أنشأها صلاح الدين لم تُسم منها مدرسة باسمه ، مع ما رغب لها من الأوقاف العظيمة ، ومع ما كان له من الفتوحات الكبيرة^(١) .

وهذه المدارس جميعا كانت تُعنى بالدراسات الإسلامية من الحديث والتفسير والقراءات ، وبالدراسات اللغوية من النحو وغير النحو وكذلك الدراسات البلاغية ، لأن الفقيه في أى مذهب لا يتم تكونه إلا مع إتقانه هذه الدراسات . وأهمل صلاح الدين وخلفاؤه الجامع الأزهر لأنه كان مركز الدعوة الإسماعيلية ، غير أن الجوامع الأخرى والمساجد الكبرى ظل بها بعض النشاط العلمى ، وكان صلاح الدين يفتى عليها وعلى علمائها وطلابها كما كان يفتى على مدارسه السالفة ، وفى ذلك يقول ابن جبير الذى زار القاهرة والفسطاط لعهد سنة ٥٧٨ : « ما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان (صلاح الدين) يعم جميع من يأوى إليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال^(٢) » .

وكانت الإسكندرية فى عهد الفاطميين مثل الفسطاط مركزا لدراسات أهل السنة ، وقد بنى فيها ابن السار - كما أسلفنا - مدرسة فوض الإشراف عليها للحافظ السلفى الشافعى ، ويبدو أن

(١) ابن خلكان ٢٠٧/٧ والنجوم الزاهرة ٥٥/٦ . (٢) رحلة ابن جبير (طبع ليدن) ص ٥٢ .

صلاح الدين أنشأ في الإسكندرية مدارس جديدة كما يفهم من كلام ابن جبير إذ يقول : « ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخرة العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والمخارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعب ، يقدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله ^(١) . وأخذت المدارس نعم مدن مصر الكبرى بينها ولاية صلاح الدين عليها ومن جاءوا بعده ، وأيضا أمراء يته ، من ذلك أن تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخيه بنى في القيوم مدرستين إحداها للشافعية والثانية للمالكية ^(٢) ، وتأسست بأسوان مدرسة مبكرة ^(٣) ، وأنشأ ابن هبة الله حاكم قوص سنة ٦٠٧ المدرسة النجبية ^(٤) بها . ويبدو أنه لم تكن تخلو بلدة كبيرة في مصر لعهد الأيوبيين من مدرسة . وكانت بها جميعا الجوامع والمساجد ، واشتهرت الإسكندرية منذ العصر الفاطمى بمجامع العطارين الذى بناه بدر الجبالى ، وظل به نشاط علمى وافر زمن الأيوبيين ، وبالمثل كانت الجوامع الكبرى في دمياط والحلة وطنطا والمنيا وأسيوط وقوص وإسنا ، إذ نقرأ في كتب التراجم من حين لآخر عن علماء كانوا يعنون في هذه البلدان بدراسات الفقه والحديث والقراءات .

وتنشأ - بجانب المدارس السالفة - مدارس كثيرة في عهد المماليك ، ويعدها المقريزى ويذكر تاريخ إنشائها والأوقاف التى رُصدت لها ، وتبلغ عنده نحو خمس وأربعين مدرسة ، بناها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأحيانا بعض نسايتهم وأمهايتهم ، وقد عدَّ للشافعية منها أربعة : المدرسة ^(٥) الطبرسية والحسامية والسابقية والمهدية الخليلية ، وللحنفية ثلاثا : الغزنوية والجبالية والمهندادية . ومدارس مختلفة بنيت للمذاهب مثل المدرسة الأقباقوية والجبالى ومدرسة أم السلطان وكذلك المدرسة الظاهرية وجميعها للشافعية والحنفية ومثل المدرسة الحجازية والمسلمية وهما للشافعية والمالكية ، ومثل المنكوتنمية للمالكية والحنفية . وبنيت للمذاهب الأربعة مدارس مختلفة مثل المدرسة المنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه محمد الناصر .

ويقول ابن بطوطة الذى زار القاهرة والفسطاط سنة ٧٢٦ لعهد محمد الناصر بن قلاوون :

(١) ابن جبير ص ٤١ وما بعدها .

(٢) ابن خلكان ٤٥٦/٣ .

(٣) الطالع السعيد للإدغرى (طبع مطبعة الجبالية)

ص ٨٥ .

(٤) الطالع السعيد ص ٢٢٠ .

(٥) انظر لها بل من حديث من هذه المدارس خطط

المقريزى ٣٤٠/٣ وما بعدها .

أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بمصرها لكثرتها . وظلت المدارس تتكاثر بعد زيارته لمدة نحو قرنين من الزمان طوال عصر المماليك . ولن نستطيع الوقوف عند جميع هذه المدارس لمعرفة نشاطها العلمي ونكتي منها بثلاث هي المدرسة الظاهرية للظاهر بيبرس والمنصورية للنصور قلاوون والناصرية لابنه الناصر . أما الظاهرية ^(١) فتم إنشاؤها لأوائل عهد المماليك سنة ٦٦٢ وقد جعلها الظاهر لتدريس الفقه الشافعي والحنفى وتدريس القراءات والحديث النبوى ، وأجرى الرواتب على أساتذتها وطلابها وألحق بها مساكن لهم كما ألحق بها مكتبة تشتمل على أهميات الكتب فى سائر العلوم وبني بجانبها مكتبة لتحفيظ أيتام المسلمين كتاب الله وأجرى لمن به من الأطفال الجرايات والكسوة ، وأوقف عليها الرُّبْع أو الحلى المعروف اليوم باسم تحت الربع ، وكان ربعا كبيرا مملوئا بالدور والخوانيت . أما المدرسة المنصورية ^(٢) فأنشأها السلطان المنصور قلاوون لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة سنة ٦٨٤ وجعل لكل مذهب مدرسا وثلاثة من المعيدى ومقرنا للذكر الحكيم وخمسين طالبا ، وأجرى عليهم جنبا وعلى قومتها وفراشيها الرواتب ، وبني بجوارها مكتبة لتحفيظ ستين من أيتام المسلمين القرآن الكريم ، وأسند لفقهاء القيام على ذلك مع إجراء الجرايات على الأيتام والكسوة فى الشتاء والصيف . وبني تجاه المدرسة قبة عظيمة جعل فيها خمسين مقرا ودورا للحديث ودورا للتفسير ومع للمدرسين الطلاب وكذلك مع المقرئين . وجعل فيها مكتبة كبيرة تشتمل على شتى أنواع العلوم والآداب ، وجعل لها أميناً ومساعدين له وفراشين وبوابين . وحاكى الناصر أباه قلاوون فى مدرسة للمذاهب ^(٣) الأربعة سنة ٧٠٣ وجعل بها مكتبة جليلة ورصد لها أوقافا كثيرة . وبالمثل كان كل من بينى مدرسة يقف عليها ما يحفظ لطلاتها وطلابها نفقاتهم وكثيرا ما كانوا يلحقون بها مساكن لهم .

ولم تكن المدارس وحدها ساحات العلم لعهد المماليك ، فقد كان يَشْرُكها الجوامع والمساجد . وفى مقدمتها الجامع الأزهر ، وكانت قد تعطلت فيه الدراسة طوال عهد الأيوبيين كما تعطلت فيه أحيانا صلاة الجمعة إلى أن أعادها عز الدين الحلى نائب الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ فصلى فيه الجمعة ورتب فيه مدرسا للفقه الشافعى ومحدثا لإملاء الحديث النبوى وسبعة لقراءة الذكر الحكيم ورصد لذلك أوقافا وافرة ^(٤) . وسرعان ما أخذ الأزهر دوره التاريخى العظيم ، فعدا أكبر جامعة

(١) انظر فى هذه المدرسة المخطوط ٣/ ٣٤٠ .

وما بعدها .

(٢) انظر فى هذه المدرسة المخطوط ٣/ ٣٤٢ والسلوك

(٣) المخطوط ٣/ ٣٤٦ .

المقريزى (طبعة القاهرة) ١/ ٧١٦ وما بعدها و ١٠٠٠ (٤) المخطوط ٣/ ١٦٠ والسلوك ١/ ٥٥٦ وما بعدها

للدراستات الإسلامية واللغوية . وبشيد المقرئى التوفى سنة ٨٤٥ بالدراسات فى هذا الجامع أو الجامعة قائلا : « لا يزال جامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسة وتلقيه والاشتغال بأنواع العلوم : الفقه (على المذاهب الأربعة) والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر ، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجد فى غيره ^(١) » . واهتم به السلاطين والأمراء وأرباب الأموال ، فرُصدت له أوقاف كثيرة على مرالسنين . وزخر جامع ابن طولون بنشاط علمى جم منذ عهد السلطان المنصور لاجين ^(٢) سنة ٦٩٤ قد رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودرا للفسير ودرسا للحديث النبوى ، وألحق به مكتبا لتحفيظ القرآن الكريم . وبالمثل عُنى بيبرس الجاشنكير بعمارة جامع الحاكم سنة ٧٠٣ ورتب ^(٣) فيه دروسا لإقراء الفقه على المذاهب الأربعة والحديث النبوى والقراءات ، وألحق به خزانة كتب نفيسة .

وهذا النشاط العلمى فى مساجد القاهرة والفسطاط ومدارسها كان يلتقى به نشاط مماثل فى الإسكندرية ومدن مصر الكبرى . وهو نشاط كان يَشْرِك علماء مصر فيه كثير من علماء البلاد العربية الأخرى التى أخذت تفسح لهم فى مدارسها ، بل أخذت تضمهم إلى صدرها ، إذ شعرت بقوة أنها حاملة لواء العلم والفكر العربيين وأنه ينبغى أن تعمل بقوة لتحبيما إزاء غارات أعداء الإسلام على صقلية والأندلس وغارات حملة الصليب على الشام وأخيرا غارات التار على إيران والعراق وديار الشام ، بحيث أصبحت مصر منذ عهد صلاح الدين ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها ، وكأنما انتدبت نفسها لهذه المهمة الخطيرة ، فهى تعنى عناية واسعة بإنشاء المدارس ، وهى تستقبل علماء الأقطار العربية المذكورة وتسد إليهم كثيرا من المناصب العلمية ، وأحيانا المناصب الوزارية ، فقد كان على سبيل المثال لصلاح الدين وزيران : القاضى الفاضل والعماد الأصبهانى ، والأول شامى والثانى عراقى الثقافة أصبهانى المولد . وأيضا فقد نزلها كثيرون من علماء المغرب بسبب اختلال الحكم وضعف الحكومات . ومن يرجع إلى كتاب مثل حسن المحاضرة للسيوطى وما يذكر فيه - على الترتيب الزمنى - من أسماء الأئمة المجتهدين وحفاظ الحديث النبوى وفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة وأئمة القراء وعلماء النحو واللغة والتاريخ والصوفية والوعاظ وأصحاب علوم الأوائل من الطب وغيره يمثّل إليه أنه لم تبق بلدة فى العالم

(١) المخطوط ١٦٣/٣ .

(٢) المخطوط ١٦٥/٣ ويقول المقرئى إنه رصد له أوقاف

كبيرة فى الجزيرة والصعيد والإسكندرية .

(٣) المخطوط ١٤٨/٣ وحسن المحاضرة ٢/٢٤٩ .

الإسلامى العربى إلا بعثت إلى القاهرة والإسكندرية بشيوخها وبطلاب العلم فى هذه الحقب التى امتدت من الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ إلى نهاية عصر المماليك سنة ٩٢٢ ، بل ظلت من ذلك بقية فى أيام العثمانيين .

ونَهَضَ مصر بدور مهم فى حماية العلوم ، فقد رأت من واجبها أن تعنى بتدوين كل ما خلفه السلف خوفاً من ضياعه ، وخاصة أمهات التراث العربى وأصوله ، وانتهجت لذلك نهجا سديداً فى توثيق روايتها وأخذها عن حررروا صياغتها وضبطوها أدق ضبط ، فهى لا تؤخذ من الصحف المكتوبة مباشرة بل تؤخذ سماحا عن الشيوخ الثقات ويروى جيل عن جيل بمنتهى الدقة ولا يروى إلا من شهد له شيخ بأنه جدير بروايتها ، على نحو ما هو معروف فى نظام الإجازات . ووضعت مصر لطلاب كل علم متونا ، ووضعت عليها شروحا ، وشرحت الشروح أحيانا ، ونحن لا نقروها الآن حتى يروى أن علماءها كانوا فى هذه الشروح لا يتركون لعالم سالف منذ القرن الثانى للهجرة حتى زمنهم رأيا إلا دونه ، وبذلك تستحيل بعض الشروح وحواشيا إلى ما يشبه دوائر معارف فى العلم الذى تتناوله ، إذ تُعرض فيها آراء العلماء على اختلاف الأزمنة واختلاف البلدان العربية . وامتازت الحركة العلمية لمهد المماليك بكتابة دوائر معارف كبرى تجمع مواد فنون كثيرة ، من ذلك كتاب نهاية الأرب للنورى المتوفى سنة ٧٣٣ وهو يتناول علوم الفلك والجغرافيا والتاريخ الطبيعى والحيوانات والزواحف والطيور والصيد والنباتات والثمار والأزهار والإنسان وعاداته وطرق الحكم ووظائف الدولة وشئون السياسة وتاريخ الدولة العربية من أقدم الأزمنة حتى زمن النورى . ويُشبه هذه الدائرة كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ وهو فى جغرافية العالم العربى والعلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وتاريخ الدولة العربية وأعلامها فى الشعر والنثر على مر السنين . ومن كتب دوائر المعارف الأدبية كتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » لمحمد بن أحمد الأبهى^(١) المتوفى سنة ٨٩٨ والكتاب موزع على ٤٨ بابا فى القرآن وفضله والعقل والعلم والأدب والحكم والأمثال والبيان والبلاغة وسياسة الملك والعدل والشرف والجلود والبخل والشجاعة والعمل والكسب والحيوانات والحشرات والبحار والأنهار والجبال وعجائب المخلوقات وغير ذلك .

ولعل فى ذلك ما يصور خطأ الأحكام الجائرة التى صُبت على مصر وخاصة أيام المماليك . إذ نعت المؤرخون للأدب العربى هذه الحقب المتطاولة بأنها كانت زمن المحطات وركود فى جميع

(١) انظر فى الأبهى الضم اللاص ١٠٩/٧ .

جوانب الحياة العقلية ، وهو ما تنقسه الحقائق السابقة نقضا ، وسيوضح هذا النقض بصورة أدق حين نعرض في الفصول التالية لوجوه النشاط العلمي ، فسرى أن مصر لم تشهد حقبا علمية مزدهرة بمقدار ما شهدت في زمن المالك ، وكان كثير منهم مثقفين مثل الأيوبيين ، وعملوا على إذكاء النهضة العلمية بما أنشأوا من المدارس وما ألحقوا بها وبالمساجد من المكتبات وما رصدها لها من أوقاف كثيرة تكفل للعلماء والطلاب حياة علمية خصبة .

ويكسب لهذه الحركة العلمية العظيمة أن تتوقف ويعيبها غير قليل من الخمود إذ احتلت جحافل العثمانيين مصر ، وجردوها السلطان العثماني الفاتح سليم من كثير من علمائها وقضاتها وحشدتهم في السفن إلى عاصمته إستانبول . وجرّد بعض المدارس من أعمدتها ورخامها الملون وكتبها النفيسة ، وما توفى سنة ٩٢٨ حتى تلى وظائف قضاة المذاهب الأربعة التي كانت قائمة بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس ويحل محلهم قاضى العسكر . وكل ذلك عمل على انتكاس الحركة العلمية بمصر ، ومع ذلك ظلت جذوات منها تتقد في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس ، إذ نسمع في ترجمة هذا العالم أوداك أنه كان يدرس في المدرسة السيوفية الحنفية التي أنشأها صلاح الدين أوفى المدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب أوفى المدرسة الأقباقية التي أنشئت في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ويذكر الجبرتي مدارس لم يذكرها المقرئ في خطه مثل المدرسة الغورية التي أنشأها السلطان الغوري ، ومثل المدرسة السانية ^(١) ، ويردد ذكر القبطانية والجنبلانية والأصفرية ^(٢) ، وأكبر الظن أنها كانت مدارس ناشطة هي الأخرى .

ومع ما أصاب مصر وحركتها العلمية من الفتح العثماني الذي جثم على صدر البلاد وكان عاملا مهما في خمود الدراسات العلمية بها ، فإن مصر ظلت ملاذاً للعلماء من جميع الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط ، وظلت القاهرة موئلهم جميعا يفدون عليها للتعليم في الجامع الأزهر والاختلاف أحيانا إلى بعض المدارس ، حتى إذا نضج أحدهم علميا أصبح شيخا ينحلق حوله التلاميذ في الجامع الأزهر أوفى أحد جوامع القاهرة ومدارسها ، وقد يرجع إلى بلده يعلم فيها ما تلقن على شيوخه في الأزهر ، وكان قد أصبح منذ عصر المالك أكبر جامعة إسلامية . ونذكر من مشهورهم ابن طولون الهمشي المؤرخ وعبد القادر البغدادى صاحب الموسوعة الأدبية المعروفة

(١) تاريخ الجبل (طبعة بولاق) ١٦٢ / ١ و ٢٢٠ . (٢) الجبل ١ / ٧٥ ، ٨٦ ، ٢٢٠ .

باسم خزانة الأدب والمقرى التلمسانى أكبر مؤرخى الأندلس ، وبهاء الدين العالمى صاحب الكشكول . وعُرِبت مصر بعض الولاة العثمانيين وأحاثته مؤلفاً أديباً مثل راغب باشا وبها سنة ١١٦٠ وموسوعة « سفينة الراغب » مشهورة . وقد ألف بالقاهرة الزيدى البنى تاج العروس : شرحه على القاموس المحيط للفيروزابادى . وبذلك ظلت مصر فى العهد العثمانى المظلم حامية للتراث العربى المتبقى بها ورعاية لعلماء العالم العربى ، بفضل مصاييح العلم التى كانت تضىء بها خاصة فى الجامع الأزهر . وما زالت شهرته تدوى فى العالم الإسلامى إلى اليوم ، وجعل العثمانيون له رئيساً من كبار علمائه كانوا يسمنونه شيخ الأزهر ، ويعتدّ الجبرئى شيوعه منذ سنة ١١٠٠ للهجرة إلى أن ينتهى إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى معاصر الحملة الفرنسية .

٢

علوم الأوائل - علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مر بنا فى أول هذا الفصل أن مصر أسهمت فى نشأة العلم بمعناه العالمى سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى ، وتشهد لها الأهرامات بما كان فيها من علم هندسى ، وتشهد لعلوم الرياضى^(١) برديات رياضية فرعونية مختلفة ، وبالمثل تشهد للعلم الطبى برديات فرعونية تدل على أن الطب والتشريح بمعناهما العلمى العالمى نشأ فى ديارها ورقيا رقيقاً بعيداً^(٢) .

وكان من الممكن أن تستمر مصر فى حركتها العلمية لولاما دهمها من الغزو الأجنبى ، واستطاعت أن تنصر البطالة وأن تستعيد - كما أسلفنا - حركتها العلمية وإن اتخذت اليونانية لساناً لها ، فنهضت بالإسكندرية عاصمتها حيثند دراسات الهندسة والرياضة والفلك والطب ، أما الهندسة فشاد صرحها إقليدس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، مكونا بالإسكندرية مدرسة هندسية كان لها شأن عظيم ، وقد ظلت تُدرّسُ كعبة فى العربية وفى أوروبا حتى القرن الماضى^(٣) ، وأما الطب فشهدت الإسكندرية فيه نهضة كبيرة على يد هيروفيلوس وأضرابه ، وقد اشتهر بتشريحه

(١) انظر العلم عند العرب لألدوسيل (ترجمة النكود

عبد الحليم النجار - نشر الجامعة العربية - دار القلم)
ص ٣٣ وما بعدها .

(٢) ألدوسيل ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) ألدوسيل ص ٤٣ وقصة الحضارة لودجبرانت
(نشر جامعة الدول العربية) ١٣٧/٨ .

العين ووصفه للشبكية وأعصاب النظر وتشريح المخ وتحديد وظيفة الشرايين وغير ذلك من مباحث طبية^(١). وغزا مصر الرومان ، كما أسلفنا ، وظلت حركتها العلمية والفلسفية في النحر ، كما ظلت الإسكندرية زعيمة العالم اقبلت في العلوم . ومن أكبر علمائها حيثنذ بطليموس المولود بالصعيد ، غير أنه بارح مسقط رأسه مبكراً إلى الإسكندرية ، حيث ظل يرصد الأجرام السماوية حتى منتصف القرن الثاني الميلادي ، ولم يلبث أن سجل معلوماته الفلكية والرياضية والجغرافية في كتابه « النظام الرياضي للنجوم » وقد سماه العرب « المجسطى » أي الأعظم بنفس اللقب الذي وضعه له اليونان . وله كتب أخرى منها موجز جغرافي ، وكان لبحوث المجسطى وغيره تأثير عظيم في علم الهيئة والفلك والرياضيات عند العرب^(٢) . ويلقانا هيرون ، وهو أرشيدس صغير كما يقال ، وله رسائل في الرياضة والطبيعة والميكانيكا ترجمت إلى العربية ، وتاريخه غير معروف لمن العلماء المعاصرين من يرجع به إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، ومنهم من يجعله في القرن الثالث بعد الميلاد^(٣) . ونفذت مصر في هذا القرن عند أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد إلى مذهب فلسفي كان تجديداً لفلسفة أفلاطون ، ولذلك يسمى الأفلاطونية الجديدة . وظل نشاط مصر في الطب عظيماً ، وقد نزلها جالينوس (١٣١ - ٢٠١ م) ولم يكف بمقامه فيها بالإسكندرية ، فقد جالس خلال ديارها حتى وصل جنوبها والنوبة وبواديها^(٤) ، وبما لارب فيه أنه انتفع أكبر انتفاع بنهضة علم الطب والتشريح في مصر ، وترك في الإسكندرية بعده مدرسة عنت بدراسة كتبه وتلخيصها ، وقد عقد ابن أبي أصيبعة لأعلامها فصلاً مستقلاً^(٥) . وظلت الإسكندرية كما كانت طوال عهد البطالمة نحو ستة قرون يُهرعُ إليها جميع طلاب الطب من ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وكان حَسْبُ الطبيب للدلالة على براعته أن يقال إنه تعلم الطب في الإسكندرية^(٦) . ومن تعلم الطب بها في القرن السادس سرجيوس من « رأس عين » بالموصل وإيتيوس من آمد بالموصل أيضاً ، ومن أطبائها في أوائل القرن السابع أهرن القس السرياني الذي أمر

(١) تاريخ الحكاء (مختصر الزوزني) للقفطي (طبع

لندن) ص ١٣٧ .

(٥) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة

الحياة ببيروت) ص ١٥١ والقفطي ص ٧١ .

(٦) ماكس مايرهوف ص ٤٥ وماجبلها وقصة الحضارة

١١٠ / ١١ .

(١) قصة الحضارة ١٥٦ / ٨ وماكس مايرهوف في

كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٤٥ .

(٢) قصة الحضارة ١٠٦ / ١١ والتدويل ص ٤٥

وماجبلها .

(٣) التدويل ص ٤٥ ، ٤٧ وقصة الحضارة

١٠٨ / ١١ .

عمر بن عبدالعزيز ينقل كتابه من السريانية إلى العربية . وظل بالإسكندرية نشاط فلسفي بعد أفلوطين يمثل في القرن السادس للميلاد يحيى النحوي شارح أرسطو والفيلسوف المسيحي يوحنا الأباقي^(١) . وما لا شك فيه أن القبطية شَرِكت اليونانية لُزمن الرومان في الدراسات العلمية والفلسفية ، وانفردت بمباحث فقهية في الدراسات الدينية . ومُرُّ بنا أن السريانية - وكانت منتشرة قبل الفتح العربي بأديرة مصر - دخلتها مع بعض القساوسة والرهبان في القرنين السادس والسابع للميلاد .

ويُظَلُّ مصر وكل ما كان بها من تراث علمي وفلسفي لواء الإسلام ، ومعروف أن الإسلام لم يجارب في أي بلد فتحه ما به من علم وفلسفة ، ومُرُّ بنا كذب الأسطورة القائلة بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية ، فقد أحرقها الرومان قبل نزوله مصر بنحو ستة قرون ، وإنما أطلنا في بيان هذا التراث لندل على أنه ظل طويلا ، أما ما يقال من أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) نقل نشاط علماء الإسكندرية إلى أنطاكية وحران^(٢) فقله من باب المبالغة ، وكل ما يمكن أن نتصوره أنه ربما انتقل بعض أطباؤها وعلمائها من الإسكندرية إلى أنطاكية ليقتربوا من بيزنطة كما يقول ما يرهوف . أما ما ذكره ابن أبي أصيبعة من انتقال التراث اليوناني ومعلميه إلى أنطاكية وحران فيعتوره الشك لسبب بسيط وهو أن المفروض أن ينقل عمر بن عبد العزيز أصحاب التراث اليوناني من الإسكندرية إلى عاصمته دمشق لا إلى أنطاكية . ولعل ابن أبي أصيبعة بالغ في هذا الرأي . ويشهد لما نقوله ما يذكره ابن النديم من أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٩٢ هـ اهتم بعلم الكيمياء ، أو كما يسميه الصنعة فأحضر إلى دمشق جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا يتولون بمصر ونفصحو بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي^(٣) . فكان الطبيعي أن يصنع عمر بن عبد العزيز صنيعه فينقل علماء الإسكندرية إلى عاصمته لا إلى أنطاكية وبخاصة أنه اهتم فعلا بنقل كتاب أهرون القس الإسكندري في الطب وكلف بذلك ما سرجويه البصري كما هو معروف ، ولو أنه نقل حقا علماء الإسكندرية إلى أنطاكية كما يقول ابن أبي أصيبعة لكلف أحدهم بنقله . وربما كان أكثر من هذا التصور منطقا أن يقال إن كثيرين من علماء

ص ١٧١ .

(٢) الفهرست ص ٣٥٢ .

(١) انظر مقالة ما يرهوف في كتاب التراث اليوناني

ص ٣٧ وما بعدها .

(٢) راجع مقالة ما يرهوف السالفة وابن أبي أصيبعة

الإسكندرية اليونانيين بارحوما مع اقحام عمرو بن العاص لها ، ويطلب أن يكونوا قد حملوا معهم كتباً كثيرة من التراث اليوناني خاصة . ومع ذلك فقد بقى منه ومن علمائه ما أتاح لحركة الإسكندرية العلمية أن تظل مستمرة ، وإن فقدت كثيراً من نشاطها . يدل على ذلك العلماء الإسكندريون المستعربون المذكورون آنفاً والذين استدعاهم خالد بن يزيد بن معاوية لترجمة كتب الصنعة ، كما يدل على ذلك ابن أبي طيب عمر بن عبد العزيز الذي كان يتولى التدريس بالإسكندرية واستدعاه ولزمه في خلافته ، ويبدو أنه تعرف عليه حين كان أبوه والياً على مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) ويقال إنه أسلم على يده ^(١) .

ومن المؤكد أن أديرة مصر ظلت منذ العهد الروماني تحفظ بكثير من التراث اليوناني وخاصة في الطب والكيمياء ، كما ظلت الإسكندرية تحفظ بشهرتها بالطب أجيالاً .. يدل على ذلك أن نجد هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) يستدعى منها طبيباً مشهوراً لعلاج إحدى جواربه هو بليطيان ^(٢) بطريك الإسكندرية . وبالمثل ظلت مصر تحفظ بشهرتها في علم الكيمياء ، ويذكر ألدوميل كتابين في الكيمياء ألفهما بمصر في أوائل القرن الثالث الهجري عالم أو علماء - كما يقول - من القبط ^(٣) . ومن اشتهر بمعرفة الكيمياء من المصريين ذو النون المتوفى سنة ٢٤٥ واضح أسس التصوف كما مر بنا في الفصل الماضي .

وتبدأ مصر في زمن الخليفة المتوكل (١٣٢ - ١٤٧ هـ) باتخاذ المارستانات ^(٤) ، ومعروف أنها كانت مستشفيات من جهة ومدارس لتعليم الطب من جهة ثانية . وسرعان ما يتولى مصر أحمد بن طولون ، وينشئ مازستاناً جديداً أنفق عليه ستم ألف دينار ، وكان به قسم للمجانين وحمامان : حمام للرجال وحمام للنساء ، وكان يركب لزيارته في كل يوم جمعة وتفقد أطبائه وخزائن الدواء فيه ^(٥) . ويذكر ابن أبي أصيبعة من الأطباء لزمه إبراهيم بن عيسى والحسن بن زيرك وسعيد بن توفيل النصراني وطبيب العيون خلف ^(٦) الطولوني ، وله كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتهما ظل يؤلفه في نحو أربعين عاماً من سنة

(٤) خطط المقرئ : مارستان المنافر ٣ / ٣٨٦ .

(٥) الخطط ٣ / ٣٨٦ .

(٦) انظر في خلف ومن قبله ابن أبي أصيبعة ص ٥٤١ وما بعدها .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١ وقد خطط بين ابن أبي

الإسكندري وابن أبي آخر . انظر مقالة مايرهورف ص ٦٤ وما بعدها .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٠ .

(٣) ألدوميل ص ٢٦٩ .

٢٦٤ إلى سنة ٣٠٢ . وتظل مصر تنعى بالطب بعد الطولونيين ، وترعاه الدولة الإخشيدية ويلمع اسم الطبيب سعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية المتوفى سنة ٣٢٨ وله فيه مؤلفات ^(١) مختلفة . ومن الأطباء لمعهد الإخشيد نسطاس ^(٢) بن جريج ، وينشئ كافور الإخشيدى مارستانا برعاه غير طبيب ، ومن الأطباء لمعهد عيسى بن البطريق أخو سعيد ، والبالسى وكان طبيا متميزا في معرفة الأدوية المفردة ، وله فيها كتاب ألفه لكافور ^(٣) .

وفي ذلك كله ما يدل على أن دراسة الطب ظلت ناشطة في مصر ، وبالمثل ظلت الكيمياء كما أسلفنا ، وأيضا ظلت الرياضيات ، ولعل خير من يصور ذلك أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، عالم زمنه الرياضى ، والمظنون أنه كان يعيش في أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، واشتهر بأنه نقح علم الجبر الذى اكتشفه الخوارزمى . ويذكر الدوميل أن له رسالة في المصلحة ذوى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية وكتاب الطرائف في الحساب وقد ترجم بدوره إلى الألمانية ، ويذكر أيضا أن لكارينسكى كتابا عن علم الجبر باسم الجبر عند أبى كامل ^(٤) . ويقول القفطى إنه صاحب مدرسة وإن له تلاميذ تخرجوا في علمه ، لعل منهم على بن أحمد العمرانى الموصلى العالم بالحساب والهندسة الذى توفى سنة ٣٤٤ إذ يقول القفطى عنه إنه شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، وله عدة كتب في التنجيم . على كل حال تدل تصانيف أبى كامل شجاع أنه كان عالما حاذقا في الرياضيات والهندسة . وكأن مصر ظلت طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة تهتم بهذا الجانب من تراثها العلمى حتى أنتجت فيه أبا كامل شجاعا .

وحقا نهضت بغداد كما مربنا في كتابى العصر العباسى الأول والثاني بترجمة التراث اليونانى في العلوم والفلسفة وأضافت إليه التراث الفارسى والهندي فنقلتها إلى العربية ، وكل ذلك تحول سريعا إلى تراث عربى عام للأمة في بغداد والقاهرة وغيرها من بلدان العالم العربى الكبيرة ، وقد بلغ من تمثل بغداد للرياضيات أن ابتكر الخوارزمى علم الجبر ، وبلغ من تمثل القاهرة لما كان بها من مصنفات تتصل بالرياضيات أن تجرد أبو كامل شجاع بن أسلم الرياضى المصرى لتفجير جبر الخوارزمى . واهتمت البيئات العربية بتفجيحه ، فإذا على بن أحمد العمرانى الموصلى يعنى بشرحه

(٤) انظر في شجاع بن أسلم الدوميل ٢١١ ، ٢١٦

وبروكتان ١٩٣/٤ والقفطى ٢١١ ، ٢٢٣ .

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٤ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٤٥ .

وتفسره لهذا التنقيح في كتاب مستقل نوه به وبأصله القدماء .

وظل النشاط محتلما في الرياضيات وعلوم الفلك والتنجيم طوال زمن الفاطميين ، ومن المنجمين لمعهد المعز وابنه العزيز محمد^(١) بن عبد الله العنق وأبى^(٢) عبد الله بن القلانسي ، ومن أعظم الفلكيين بمصر وعند العرب قاطبة أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدقي المصري ، وقد بدأ بعمل زيج كبير أو بعبارة أخرى بعمل لوحات فلكية مفصلة لمعهد العزيز وأخذ في تنقيح زيجه لمعهد الحاكم ابنه وقد أقام له مرصداً ضخماً كان قسماً من دار العلم ويقال إنه أتم زيجه سنة ٣٩٧ وأنه كان يشغل أربع مجلدات ضخام ، ويقول ابن خلكان إنه لم ير في الأرياج على كثرتها أطول^(٣) منه ، وقد سماه الزيج الحاكمي الكبير ولم يلبث أن توفي سنة ٣٩٩ .

ونزل مصر لمعهد الحاكم أكبر علماء الرياضة والطبيعة العراقيين لزمته أبو علي الحسن بن الهيثم البصري^(٤) ، وفرح الحاكم بقدومه وخرج للقاءه على باب القاهرة . ولما وقف على جبل الحاكم سكن قبة على باب الجامع الأزهر ، ويقال إنه كان يكتب الجسطى في الفلك والهيئة لبطليموس ومصنفات إقليدس في الهندسة وبيعها جميعاً بمائة وخمسين ديناراً . ويدعو أن نبوغه الفلسفي والرياضي والفيزيقي إنما تحقق في مصر التي اتخذها سكناً له ومقاماً لأكثر من ثلاثين عاماً ، وبها ألف كتابه « المناظير » في العدسات وانعكاسات الضوء ، وقد تُرجم قديماً إلى اللاتينية ، وله تأثير علمي عالمي بعيد . وعليه تتلمذ كثير من المصريين وأخذوا منه كل ما عنده في الطيبيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة . والمظنون أن دار العلم كانت تعنى فيما تعنى بديروس الرياضيات والطبيبات والفلك والفلسفة ، إذ كان الخلفاء الفاطميون يعنون بالعلماء في كل هذه الجوانب . وظلت هذه العناية متصلة في عهد الظاهر بن الحاكم وعهد ابنه المستنصر . ومما يدل على النشاط في الدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية ما يرويه ابن السكيتي من أنه رأى^(٥) في خزانة القصر الفاطمي سنة ٤٣٥ لمعهد المستنصر من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة

(١) القفطي ص ٢٨٥ .

٢٨١ .

(٢) القفطي ص ٤١٠ .

(٤) تقدمت مصادر ابن الهيثم في الجزء الخامس من

تاريخ الأدب العرب ، وراجع ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠

والدوميل ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٥) القفطي ص ٤٤٠ .

(٣) انظر في علي بن عبد الرحمن الصدقي القدوميل

٢١٩ و٢٢٠ وكان ٢٢٤/٤ وابن خلكان ٤٢٩/٣

والقفطي ٢٣٠ وتاريخ الفلك عند العرب للبني ١٨٦ ،

آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس الجغرافي وكرة أخرى من فضة من عمل أبي الحسين الصوفي لعهد الدولة البويهية .

ويشتهر من تلاميذ ابن الهيثم رياضي متفلس هو مبشر^(١) بن فاثك ، ويقول القفطى قرأ عليه فضلاء زمانه . ويتكاثر الفلكيون والمنجمون والرياضيون بأخرة من القرن الخامس الهجرى لعهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) يقول المقرئى : « وكان منجمو الحضرة سنة ٥٠٠ سهلون وابن الحلبي وابن الهيثم وغيرهم يُطلقُ لهم الجارى في كل شهر والرسوم والكسوة لعمل التقويم في كل سنة^(٢) » ثم يذكر أنه فكر في عمل مرصد ضخم فنشط في إقامته ، ويذكر المقرئى أنه كان يعمل به من المهندسين أبو جعفر بن حسداى والقاضى ابن أبي العيش والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاى الإسكندراني المهندس وأبو محمد عبد الكريم الصقلى المهندس إلى غيرهم من الحساب الرياضيين والمنجمين . ويعدّد من ذكرناهم أولا ويضيف إليهم ابن دياب والقلمى وأبا نصر تلميذ سهلون . ويتزل مصر لعهد الأفضل أمية بن أبي الصلت المتفلس والأديب الأندلسى ، ويكتب عن مصر وأدبائها وعلمائها رسالة مشهورة باسم الرسالة المصرية ، ومن يذكرهم من الفلكيين المصريين رزق الله النحاس المصرى وعلى بن النصر ، وقد ترجم لها القفطى^(٣) ، وذكر من المهندسين المصريين أبا على المهندس ، وله أيضا ترجمة في القفطى^(٤) .

وتعوج القاهرة بالأطباء منذ عصر المزمز أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن أطبائه موسى^(٥) بن العازار الجراح اليهودى ، ومن أطبائه وأطبائه ابن العزيز أبو عبد الله النجيبى المقدسى^(٦) وأحمد^(٧) بن محمد البلدى وأبوسهل كيسان^(٨) بن عثمان وأعين^(٩) بن أعين ومنصور^(١٠) بن مقشّر . ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء في عهده من مثل إسحق^(١١) بن إبراهيم بن نسطاس وما سويه^(١٢) وكان طيبا وصيدلانيا وطبيب العيون أبى القاسم

وبروكلمان . ٢٩٠/٤

(١) القفطى ص ٢٦٩ وابن أبي أصيبعة ص ٥٦٠ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٣٢٢ وبروكلمان ٢٩١/٤ .

(٣) خطط المقرئى في ذكر المرصد ٢٣٣/١ وما بعدها .

(٤) القفطى ص ٢٦٧ وانظر ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٨ .

(٥) القفطى ص ١٨٦ و ٢٣٧ على الترتيب .

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٦ .

(٧) القفطى ص ٤١٠ .

(٨) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ .

(٩) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٥ .

(١٠) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٤ .

(١١) التوسيل ص ٢٤٠ .

(١٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٦ والقفطى ص ١٠٥ .

عمار^(١) بن علي وله المتخب في علاج أمراض العين . ومن أهم الأطباء حيثث ابن^(٢) رضوان التوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وجعله الحاكم رئيسا على جميع الأطباء ، وظل في هذه الوظيفة نحو خمسين عاما ، ودوت شهرته في العالم العربي مما جعل علماء يكتاتونه ويرحل بعضهم إليه لمناظرته في مسائل الطب ، ومن رحل إليه من بغداد طيبيا ابن بطلان كما مر بنا في حديثنا عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ويقول ابن أبي أصيبعة موازنا بينهما : « كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها » . وقد ترجم شرحه لكتاب جالينوس في الطب إلى اللاتينية ، ونشر مرارا شرحه للمقالات الأربع لبطليموس في علم الهيئة والفلك .

وتنشط صناعة الطب في مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه ، وأيضا بفضل دار العلم ، فقد كان الطب يدرس فيها ، إذ يذكر المقرئ في حديثه عنها أن الحاكم أحضر منها في سنة ٤٠٣ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه^(٣) . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن المنطق كان يدرس بها هو وما يتصل به من الفلسفة . ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان علي^(٤) بن سليمان ، وكان في أيام العزيز والحاكم والظاهر ، وكان متقنا للطب والفلسفة والعلوم الرياضية ، وله في الفلسفة والطب كتب مختلفة . ومن خلفوا ابن رضوان تلميذه إفرائيم^(٥) بن الحسن اليهودي ، وقد حصل من المستنصر وأبائه على أموال كثيرة ، وكان شغفا بالكتب الطبية والفلسفية وغيرها ، وكانت لديه منها خزانة كبيرة ، واشتهر بأنه كان عنده دائما نساخ يكتبون له ما يريد من الكتب ، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن تاجرا عراقيا من تجار الكتب اشترى منه عشرة آلاف مجلد ، وهم بمحملها إلى العراق ، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالي في أيام وزارته ، فبعث إليه بالمال الذي اتفق مع العراق عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر ، ويقولون إنه حوّلها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد . ومن تلاميذ إفرائيم سلامة^(٦) بن رحمون الطبيب ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نصب نفسه لتدريس كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة . ونظّل نسع عن أطباء في العهد الفاطمي لا في القاهرة

(٣) خطط المقرئ ٢ / ٢١٨ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٧ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٨ والتفتي ص ٢٠٩ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ وألدوميل ص ٥٤٨ .

وبروكلان ٤ / ٣٠٣ .

(٢) التفتي ٤٤٣ وابن أبي أصيبعة ص ٥٦١ وألدوميل

ص ٢٤١ و ٢٥١ وما بعدها .

فحسب ، بل أيضا في المدن مثل الحسين^(١) بن منصور طيب إسا بالصعيد المتوفى في أوائل المائة السادسة . ومن أهم الأطباء بالقاهرة ابن^(٢) العين زرى وله كتاب الكافي في الطب بدأ في تأليفه سنة ٥١٠ وانهى منه سنة ٥٤٧ قبل وفاته بعام واحد ، ويقول ابن أبي أصيعة : « كان له تلاميذ عدة يشتغلون عليه » وترجم منهم لطبيب يسمى بلمظفر^(٣) بن المعروف . ولحق طائفة من تلاميذه العصر الأيوبي .

ولعل فيما قدما ما يوضح نشاط الأطباء وأصحاب الرياضيات والطبيعات والفلك بمصر طوال زمن الفاطميين ، ولم نحاول أن نحيل في بيان صلة المصريين حيثئذ بالفلسفة على الدعوة الإسماعيلية ، كما يصنع بعض الباحثين المعاصرين ، لأن المصريين لم يعتنقوا هذه الدعوة ، وكان دعائهم يلقنون تلاميذهم الفلسفة في مراحل الدعوة حتى إذا وصلوا بهم إلى المرحلة التاسعة أحالوهم - كما يقول المقرئ - على ما يقرر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية . ومن المؤكد أن المصريين لم يقبلوا على هذه الدعوة بدليل أن دعائهم كانوا دائما من المغرب أو من الشام أو من إيران . ويبدو أنه كان للمصريين نشاطهم المستقل في دراساتهم للفلسفة عن طريق دراساتهم للعلم والرياضيات والطبيعات ، ومن يرجع إلى تراجم من عرضنا لهم في ابن أبي أصيعة والقفطى سيجد لهم مصنفات فلسفية متنوعة كثيرة .

وإذا تقدمنا إلى العصر الأيوبي وجدنا مصر تحمل بقوة مسئوليتها في طرد الصليبيين من ديار الشام ، ومع ذلك تظل الحركة العلمية نامية بها بفضل ما أنشأ فيها صلاح الدين وخلفاؤه الأيوبيون من المدارس . وتظل العناية متصلة بعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أنه بلقانا بعض البارعين في الدراسات الفلسفية مثل السيف الأمدى المتوفى سنة ٦٣١ وأفضل^(٤) الدين الحزنجي المتغلب المتوفى سنة ٦٤٢ وكان يتقن العلوم الفلسفية والدراسات الإسلامية وله تصانيف في المنطق والطبيعات ، ويقول ابن أبي أصيعة إنه قرأ عليه بعض الكليات من كتاب القانون في الطب لابن سينا ، وقد ولاه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قضاء مصر سنة ٦٣٨ بعد عزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقا وغربا - كما يقول السيوطي - عز الدين بن عبد السلام . ولعل

(١) حسن الحضرة ٥٤٠/١ والطالع المجد للأندلس

(٢) ابن أبي أصيعة ص ٥٧١ .

١٢٠ .

(٤) ابن أبي أصيعة ص ٥٨٦ وحسن الحضرة ٥٤١/١

وطبقات الشافعية للسبكي ١٠٥/٨ .

(٢) ابن أبي أصيعة ص ٥٧٠ .

في ذلك ما ينقص كل ما قيل عن الأيوبيين من أنهم وقفوا الدراسات في علوم الأوائل ولم يشجعوا عليها . فقد قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أحد علمائها المتعمقين في مباحثها على جميع فقهاء زمنه الشافعية . ويبرع في عهد الأيوبيين مهندس رياضي كبير هو قيصر^(١) بن أبي القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ وهو من أصفون بالصعيد ، كان فقيها حنفيًا عالما بالقراءات وتعلق بالرياضيات والموسيقى وأنواع الحكمة ، وهو الذي أقام لأمر حياه نواعير نهر العاصي البديعة التي لا تزال تنحدر المياه فيها من علوها حتى إلى اليوم ، مؤلفة بذلك منظرًا بالغ الروعة . وكان فلكيًا مبدعًا ، فأنشأ كرة سماوية عظيمة لا تزال محفوظة إلى الآن في المتحف الوطني لمدينة نابولي بإيطاليا .

وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين ، وقد بدأ هذا الاهتمام باغناذه مارستانًا ضخمًا في القاهرة وفيه يقول ابن جبير : « مما شاهدناه بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارستان وهو قصر من القصور الرائعة حسنًا واتساعًا »^(٢) ، ويذكر أنه عين له قيمًا وضع لديه خزائن العقاقير . ويقول إنه وضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة ، وبين يدي القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكثرة وعشا ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية ، ويذكر أن المارستان قسما خاصا بالمرضى من النساء ومعهم من الخدم من يتكفل بحاجاتهم ، وقسما خاصا بالمجانين على مقاصيره شبائيك الحديد . ويقول ابن جبير إن بالفسطاط مارستانًا آخر على مثال ذلك الرسم بعينه . وطبيعي أن يحتاج المارستانان إلى كثير من الأطباء . ولابد أن نلاحظ أن المارستان في القاهرة وبغداد جميعا كان دائما مدرسة للطب . كما كان مستشفى . بالضبط شأن القصر العيني بالقاهرة حديثا كما أسلفنا . وأول من يلقانا منهم الشيخ السديد^(٣) أبو المنصور عبد الله الذي خدم الخلفاء الفاطميين ثم صلاح الدين وطالت حياته حتى سنة ٥٩٢ وكان رئيسا على سائر المطيبين بمصر حتى وفاته ، وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل ابن^(٤) جميع وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب ، ومثل الموفق بن شوعة المتوفى سنة ٥٧٩ وأبي البيان بن المدور المتوفى سنة ٥٨٠ وأبي الناقد الكحل طبيب العمون المتوفى سنة ٥٨٤ وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١ . وتكاثر الأطباء المصريون في عهد صلاح الدين وبعده

(١) انظر في قيصر حسن الحضارة ٥٤٢/١ والطالع

السيد ص ٢٥٩ وأندوسيل ص ٣٠٥ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٥١ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧٢ وحسن الحضارة

٥٤٠/١ .

(٤) انظر في ابن جميع ومن تلاه من أطباء اليهود ابن أبي

أصيبعة ص ٥٧٦ وما بعدها وأندوسيل ص ٣٢٠ وما بعدها

وص ٥٦٦ .

مثل أبي^(١) البركات بن القضاى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وجال^(٢) الدين ابن أبي الحوافر القيسى وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رئاسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل في هذه الوظيفة حتى عهد الكامل . وكان ابنه فتح^(٣) الدين أحمد ماهراً في الرمد وطب العيون ، ويقول ألدوميل إنه ألف كتاباً يحتوي على ١٥ فصلاً في علم الرمد . وتكلم في أحد الفصول عن عملية الكتاراكت . وعاش إلى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وولى أحياناً رئاسة الأطباء . ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل نفيس^(٤) الدين بن الزبير المتوفى سنة ٦٣٦ هـ ويقول ابن أبي أصيبعة إن أولاده مقيمون في القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل وتميزون في علمها وعملها .

ويستمر ابن أبي أصيبعة في ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين . ويختم تراجمهم بترجمة لابن^(٥) البيطار المالقي الأندلسي المولد المتوفى سنة ٦٤٦ هـ وقد بارح موطنه في العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارساً لما فيها من نباتات ، وألقى عصاه بمصر فجمعه السلطان الكامل رئيساً على جميع العشائين ، وهو بحق إمام النباتيين لزمه ، وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارساً لأنواع النبات ، وقرأ ما كتبه ديسقوريدس وغيره من النباتيين . وهو بحق يعد أعظم الصيدلانيين قاطبة قبل العصر الحديث ، وله كتابان : كتاب الجامع في الأدوية المفردة وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء منها ثلاثمائة لم يتناولها صيدل قبله ، وله في نفس الموضوع كتاب ثان هو المعق في الأدوية المفردة ، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب . وإذا كانت مصر أتاحَت لابن البيطار المالقي الأندلسي بحجوها العلمي الحصب أن يؤلف فيها كتابيه السالفين في الأدوية فإنها أتاحَت لأحمد بن يوسف التيفاشي المغربي المتوفى سنة ٦٥١ هـ أن ينزل بها في أواخر القرن السادس الهجري ، وهو لا يزال باقياً صغير السن ويتكوّن فيها علمياً ، ويعود إلى بلده ، ولا يلبث أن يعود إلى مصر ويتولى بها القضاء ، وقد بدأ مبكراً بدراسة التاريخ الطبيعي واختار علم المعادن مع عنايته بالصيدلة والطب ، ويؤلف كتابه «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» وفيه يتناول خمسة وعشرين حجراً في خمسة وعشرين فصلاً^(٦) ، ويسوق في كل حجر كالماس والياقوت

(٥) انظر فيه ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وحسن الهاضرة

٥٤٧/١ وألدوميل ص ٤١٤ وما بعدها .

(٦) نشر كتابه «أزهار الأفكار» في القاهرة الدكتوران

محمد يوسف ومحمود بسيوني خفاشي بالمهجة المصرية العامة

للكتاب ، وراجع فيه مقدمتهما وما بها من مراجع .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٤ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ وألدوميل ص ٣٢٢ ،

٣٢٦ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ .

مثلا ما ذكره جالينوس أو غيره من فلاسفة الإغريق ، ويتحدث عن معدنه وتكوينه وخواصه ومنافعه ، مما قد يدخل في المعارف الطبية ، ويتصل بهذه المعارف كتابه « المنقذ من التهلكة في دفع مضار السمائم المهلكة » . ويلقانا في عهد السلطان الكامل المنصور^(١) بن بركة الذهبي الكامل وكتابه « كشف الأسرار العملية لضرب النقود المصرية » وفيه يتحدث عن إعداد المعادن وتصفياتها وطرق استعمالها في سك النقود ، ويتناول دار سك النقود وواجبات مَنْ بها من الموظفين .

وتنظر لمصر قيادتها العلمية في زمن المماليك ، ويظل يترها العلماء من الشرق والغرب ، وتظل تعنى بالفلسفة^(٢) ، ويذكر السيوطي حشدا^(٣) من متلفستها وعلماء المعقولات بها مثل شمس الدين محمد بن حمود الأصماني المتوفى سنة ٦٨٨ وتلميذه تاج الدين البارنباري المتوفى سنة ٧١١ وشمس الدين أبي التثاء محمود بن عبد الرحمن الأصماني المتوفى سنة ٧٤٩ وعلاء الدين علي بن أحمد المدرس بمدرسة برقوق المتوفى سنة ٧٩٠ وابن جماعة عز الدين محمد بن شرف المتوفى سنة ٨١٩ والكاتبي محيى الدين محمد بن سليمان المتوفى سنة ٨٧٩ .

وظل كثير من المصريين يشتغلون بالطبيعات والرياضيات ، ومن أهم التاريخ الطبيعي بيلك القبحي الذي صنف حوالي سنة ٦٨٠ كتابه « كثر التجار في معرفة الأحجار » ويقول الدوميل : « لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ نجد فيه توضيحا لاستعمال البوصلة عند الملاحين وطرق استعمالها^(٤) » . ويظن أن معرفة المصريين والعرب بها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك ، ربما إلى القرن السادس الهجري المقابل للثاني عشر الميلادي ، بل ربما إلى النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي المقابل للقرن الخامس الهجري . والمهم أن مصر هي التي سجلت اكتشافها عند عالمها بيلك . وأكبر الظن أنها هي التي أعدت لصنعها ، وصنعتها بفضل اشتغالها بالملاحية في البحرين المتوسط والأحمر من قديم . وكان ملاحوها في عصر المماليك يقدون ويروحون في البحرين للتجارة والغزو أحيانا على نحو ما هو معروف عن تجارهم مع موانئ إيطاليا وغزوهم لقبرص وطردهم للبرتغاليين من شواطئ اليمن بأخرة من أيام المماليك . على كل حال يرمز اكتشاف

(٣) انظر حسن الحاضرة للسيوطي ١/ ٥٣٩ وما بعدها .

(١) انظر فيه الدوميل ص ٣٠٨ ، ٣١٠ .

(٤) الدوميل ص ٣١٤ وما بعدها .

(٢) راجع البحر المحیط لأبي حيان ٥/ ١٤٨ - ١٥٠

تفسير سورة يونس آية ٢٧ .

مصر للوصول إلى نشاط المعارف العلمية فيها طبيعة ورياضية . ويلقانا بها محمد^(١) بن موسى الهميري المتوفى سنة ٨٠٨ وموسوعته في علم الحيوان التي سماها « حياة الحيوان الكبرى » معجم للحيوان مرتب أبجديا حسب أنماطه وأنواعه ، ومع كل حيوان خصائصه العلمية والطبية وطرف من الحديث النبوي والأمثال والأشعار وتراجم لبعض العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ، وهو مطبوع في مجلدين ومترجم إلى الإنجليزية .

وارتقى حيثذ فنّ المعمار وما يتبعه من الهندسة رقيا بعيدا ، لكثرة الأبنية التي شادها سلاطين المماليك منذ الظاهريين ، وفي مبانیه يقول ابن تقي بردي : « بُني في أيامه بالديار المصرية ما لم يُبَنَ في أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين) ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرّباع والخانات والقواسم والدور والمساجد والحمامات^(٢) » . وتوالى السلاطين بعده وخاصة قلاوون يكتفون من الأبنية الرائعة ، وكل ذلك كان يقوم عليه مهندسون مصريون بارعون مما لا تزال نرى آثاره في مساجدهم الباقية . ويؤنّه السخاوي بمهندس مصري بارع لعهد السلطان برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) هو شمس الدين الطولوني ، ويقول : « كان المول عليه وعلى أبيه في العائر السلطانية^(٣) » . وظل العلماء المصريون يعنون بالرياضيات والفلك ، ويشهر منهم رياضي كبير هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن الهائم^(٤) الفرضي من علماء القرن التاسع الهجري ، وله كتب كثيرة في الحساب والجبر ذكر مخطوطاتها بروكلمان ، منها في الحساب مرشد الطالب إلى أسس المطالب ، كان واسع الانتشار . وفي دار الكتب المصرية بعض شروح له وبعض مخطوطات مختلفة من كتب ابن الهائم الرياضية .

وظل لمصر نشاطها زمن المماليك في دراسة الطب والتأليف فيه ، وكان مارستان القاهرة الذي أنشأه صلاح الدين يُعدّ أكبر معهد لتدريس الطب ، وقد تخرّج فيه كثيرون مثل ابن أبي أصيبعة^(٥) المتوفى سنة ٦٦٨ صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وهو كتاب نفيس إذ يشمل

(٤) انظر ابن الهائم في الفهارات ١٠٩/٧ والفضة اللاع ٢ رقم ٤٤٩ وألنوميل ٥٠٦ ، ٥١٣ وروكلمان (الطبعة الألمانية) ١٢٥/٢ .

(٥) راجع ابن أبي أصيبعة في النجوم الزاهرة ٢٢٩/٧ والفهارات ٣٢٧/٥ وأيضاً ألنوميل (انظر الفهرس) ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) راجع في الهميري حسن الماضرة ٤٣٩/١ والفضة اللاع .. رقم ٢٠٤ وفهارات الذهب ٧٩/٧ والبر الطالع ٢٧٢/٢ وألنوميل ص ٥٠٧ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) النجوم الزاهرة ١٩٦/٧ .

(٣) الفضة اللاع ٢٢١/١ .

على ترجمة نحو أربعمائة طبيب عربى ، ويمكن أن نضم إليه الأطباء الذين كانوا مُلتفِئين بالظاهر يبرس مثل شهاب^(١) الدين بن فتح الدين القيسى ورشيد^(٢) الدين أبى حليقة النصرانى . وما يلبث أن يلى السلطنة بعد يبرس المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) فينشئ بهارستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى : « وهذا الجارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا^(٣) » ، وقد جعله أقساما كبيرة : قسما للمرضى بالحميات ، وقسما للرمم ومرضاه ، وقسما للجرحى ، وقسما لمن به إسهال ، وجعل فيه قسما للنساء ، وأمكنة للأدوية وتركيبها ، وأمكنة لإعداد الطعام وأخرى للمحاصيل ، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال وفراشات لخدمة النساء ونصب فيه الأسرة للمرضى وأمدّها بكل ما تحتاج إليه من فُرش . وأهم من ذلك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه ، كى يلقى فيها دروسه على طلاب الطب^(٤) . وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معا ، وقد شاهده ابن بطوطة بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاما سنة ٧٢٧ للهجرة فقال : « أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعيد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصره . ويُذكر أن مجبّاه (نفقائه) كان ألف دينار كل يوم^(٥) » . وتلقانا في عهد قلاوون بجانب كلية الطب التى كانت ملحقة بمارستانه كما ذكرنا مدرسة للطب سميت المدرسة^(٦) المهيئية نسبة إلى منشئها الطبيب مذهب الدين محمد بن أبى حليقة المار ذكره في عهد يبرس ، وكان قد خدمه مع أبيه وأسلم في أيامه وسمى محمدا ، ويقول ابن أبى أصيبعة : مولده سنة ٦٢٠ وإنه قرأ على أبيه الصناعة الطيبة وصور أقسامها الكلية والجزئية وحصل معانيها العلمية والعملية^(٧) .. وبلغ من ازدهار دراسة الطب حيثذ أنه كان يدرس في المساجد الجامعة ، إذ نجد السلطان لاجين (٦٩٦ - ٦٩٧ هـ) يعمر جامع ابن طولون ، ويرتب فيه دروسا - كما مر بنا - للفقهاء على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوى ، وبجانب ذلك يرتب فيه درسا للطب^(٨) ، ومن درسوا فيه بعد زمنه في القرن الثامن الطيب شمس^(٩) الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى سنة ٧٧٦ .

٢٠/١ .

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٨٥ .

(٢) خطط المقرئى ٣/٣٧١ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٠ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ٧/٣٢٧ .

(٤) خطط المقرئى ٣/١٤٨ .

(٤) راجع في هذا المارستان خطط المقرئى ٣/٣٨٦ .

(٥) حسن المحاضرة ١/٥٤٦ .

وما بعدها .

(٥) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية)

ويكنى ليان ازدهار دراسة الطب حيث أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمته علاء الدين على بن أبي الحزم المعروف باسم ابن النفيس^(١) العلامة في فنه الذي لم يكن في زمنه من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم ، كما يقول ابن تغرى بردى ، ويكفيه فخراً ما ذكره ألدوميل وغيره من الغربيين من أنه اكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية ، مسجلاً بذلك كشفاً طلياً خطيراً لم يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمنه اكتشافه . ومن كتبه « الشامل في الطب » و« المذهب في الكحل » و« شرح القانون في الطب لابن سينا . وقد توفى سنة ٦٨٧ بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذي كان يعمل به رئيساً لأطبائه . وولى رئاسة الأطباء بعده مذهب الدين بن أبي حليقة المار ذكره ، ويسرد السيوطي في حسن^(٢) المحاضرة أسماء طائفة من الأطباء في القرن الثامن الهجرى . ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد^(٣) بن الألفاني المتوفى سنة ٧٤٨ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان في طب العيون ، ومن مصنفاته في الرمد « كشف الغين في أحوال العين » وله كتاب في الطب للمترى سماه « غية اليب » وكتاب في الفصد سماه « نهاية القصد » وكتاب في الأحجار النفيسة سماه « نخب الذخائر » ومن كتبه : « إرشاد القاصد إلى أقصى المقاصد » وهو مختصر جامع لقنون شتى تبلغ ستين فنا نشره شبرنجرف في المكتبة الهندية . واشتهر بعده في طب العيون صدقة^(٤) بن إبراهيم الشاذلى ، ويطلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء النصف الثاني من القرن الثامن الهجرى المقابل للقرن الرابع عشر الميلادى . ومما يدل على شهرة مصر لأبام الماليك في الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس في كتابه بدائع الزهور من أن السلطان بايزيد العثماني أرسل في سنة ٧٩٥ رسولا إلى السلطان برقوق يسأله أن يبعث إليه بطبيب مختص بأمراض المفاصل فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاج^(٥) . ويظل هذا النشاط الطبى في مصر حتى نهاية زمن الماليك إذ تلتقى في زمن قانصوه الغورى (٩٠٦ - ٩٢١ هـ) بالطبيب محمد القوصى ، وإليه قسّم كتابه « كمال الفرحة في دفع السموم وحفظ الصحة » ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٥٤٣ وما بعدها .

(٣) البدر الطالع للشوكافى ٧٩/٢ وانتظر ألدوميل ص ٥٠٥ ، ٥١٠ .

(٤) ألدوميل ص ٥١٠ .

(٥) راجع بدائع الزهور في السنة المذكورة .

(١) انظر في ابن النفيس النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧٧

والسبكي ٨/ ٣٠٥ وحسن المحاضرة ١/ ٥٤٢ والشفرات

٥/ ٨٠١ وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٣٤ وروضات الجنات

٤٩٤ والدارس في أخبار المدارس ٢/ ١٣١ وألدوميل

ص ٣٢٣ ، ٣٢٦ وكتاب بول غليونجي ح .

ومعروف أن عناية العرب بالبيطرة ومداواة الخيل قديمة ، وكان طبيعيا والطب ينشط في مصر النشاط السالف في أيام المماليك أن يُعنى بعض أطبائها بالطب البيطرى ، ومن خير ما ألفت فيه كتاب لطبيب بيطرى كان المشرف على نخيل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، هو أبو بكر^(١) بن المنذر بن بدر المتوفى سنة ٧٤١ واسم الكتاب «كامل الصناعتين: الزردقة والبيطرة» والزردقة دراسة الخيل والبيطرة : علم أمراض الخيل وأدويتها وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية الدكتور بيرون ، وترجمه إلى الألمانية حديثا فروزر . ولأبدر^(٢) الجلودكى المتوفى سنة ٧٤٣ (وقيل بل سنة ٧٦٣) كتب في المعادن منها ، المصباح في علم المفتاح وهو مطبوع في بومباي ، وكتاب نتائج الفكر في أحوال الحجر وهو مطبوع في القاهرة .

وتكاد تتوقف هذه الحركة العلمية الدائبة في زمن العثمانيين . ولكن نظل منها بقايا غير قليلة في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس . وتظل مصر ترعى العلوم الإسلامية واللغوية وبعض ما تبقى فيها من علوم الأوائل ، ومن يرجع إلى كتاب الكواكب السائرة في علماء المائة العاشرة لنجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ وكتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للمعجبى المتوفى سنة ١١١١ سيجد فيها كتيرين يعنون بالرياضيات والفلك مثل عبد القادر المتوفى الفلكى بالمدرسة الغورية المتوفى سنة ٩٨٠ ومصطفى بن شمس الدين الدماطى المتوفى سنة ١٠٣٨ وعبد الله المقدسى الأزهرى المتوفى سنة ١٠٧٠ . ويسوق الجبرقى في تاريخه تفاصيل كثيرة عن الرياضيين والفلكيين في القرن الثانى عشر الهجرى ويذكر في طليعهم رضوان^(٣) الفلكى المتوفى سنة ١١٢٢ صاحب الزيج الرضوانى ، ويقول الجبرقى إنه حرره على أصول الرصد السمرقندى وزينه المشهور الذى صنعه أوليغ بك سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧ م . وبنوه الجبرقى بأن أباه كان يملك نسخة من هذا الزيج النفيس ، وكذلك كان يملك نسخة منه حسن^(٤) أفندى قطه . فكان بالقاهرة منه نسختان غير النسخة التى كان يملكها - فيما نظن - رضوان الفلكى . ويشيد الجبرقى بأبيه في الرياضيات والفلك ، ويتلمذ من تلاميذ رضوان هو جمال الدين يوسف^(٥) الكلارجى المتوفى سنة ١١٥٣ ويقول إنه اخترع ما لم يسبق به ، ويذكر أنه ألفت كتابا في الغلال ورسم المنحرفات والبساط والمزاويل والأسطحة ، وأن له في منازل القمر كتابا أسماه «كتر الدرر في أحوال منازل القمر» .

(١) التوسيل ص ٥٠٥ .

(٤) الجيغ ٧/٢ .

(٢) التوسيل ص ٥٠٦ ، ٥١٣ .

(٥) الجيغ ١/١٦٨ .

(٣) تاريخ الجيغ (طبعة بولاق) ٧٤/١ .

وبنوه طويلا بحسن^(١) المثل المتوفى سنة ١١٧٠ هـ ومعارفه في الجبر والمقابلة والحساب ومصنفاته ، كما ينوه بتلميذه محمد^(٢) بن موسى الجناحي المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ/ ١٧٨٦ م ومؤلفاته في الرياضيات . ويذكر الجبري في القرن المذكور أسماء رياضيين آخرين مما يدل على أن مصر ظلت تعنى بالرياضيات والمهنة والفلك طوال أيام العثمانيين . ويبدو أن الجبري وغيره ممن ترجموا لعلماء القرنين السابقين لتاريخه العاشر والحادي عشر لم يعنوا بالترجمة للأطباء . إلا ما قد يذكره عفا مثل شهاب الدين بن سلامة^(٣) القليوبي المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ وله عدة كتب طبية كانت رائجة في زمنه ، وأهم من هذه الكتب وكان أكثر منها رواجاً كتاب التذكرة الطبية للأنطاكى^(٤) داود بن عمر المتوفى سنة ١٠٠٨ . ومن يقرأ الجبري وتراجمه في القرن الثاني عشر الهجري يراه يذكر طبيبا يسمى قاسم^(٥) بن محمد المتوفى سنة ١١٩٣ وكان عناية مصر بالطب ظلت إلى أواخر العهد العثماني ، وليس ذلك فحسب ، فإن الجبري يذكر أنه عهد إليه تدريس الطب بالمارستان المنصوري ، ومعنى ذلك أن مارستان المنصور قلاوون الذي مر بنا ذكره وإشادة ابن بطوطة وغيره به ظل قائما طوال أيام العثمانيين ، وظل قائما معه تدريس الطب لطلابه فيه ، بالقبض كما كان الشأن أيام المنصور قلاوون ومن تلاه من المماليك .

(ب) علم الجغرافيا

ولم نتحدث حتى الآن عن علم الجغرافيا ونشاط مصر فيه والمصريين . ولعل أول ما يلقانا من ذلك ما نقرؤه في القسم الثالث من كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ للهجرة وفيه يتحدث عن خطط القسطنطينية والإسكندرية . ولما صرنا محمد بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٢٥٠ كتاب بعنوان الخطط^(١) سقط من يد الزمن . ونزل مصر واستقر بها في سنة ٣٣٤ المسعودي على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ ويشتهر بكتابات التاريخية وحشده فيها كثيرا من المعارف الجغرافية عن الأرض وجبالها وأغوارها وبحارها وأنهارها وسكانها وأحوالهم

(٥) الجبري ٥٤/٢ .

(٦) تاريخ الأدب الجغرافي لكراتكوفسكي ترجمة

صلاح المين عثمان هاشم (نشر لجنة التأليف والترجمة

والنشر) ١/١٦٨ .

(١) الجبري ٢١٩/١ .

(٢) الجبري ١٢٥/٢ .

(٣) خلاصة الأثر ١/١٧٥ .

(٤) انظر مصادر ترجمة داود الأنطاكى في قسم الشام

الاجتماعية . وفي مصر أو بعبارة أدق في الفسطاط نُقِّع كتابه « مروج الذهب » سنة ٣٣٦ وهو في التاريخ العام للأمم والدول وبه معلومات جغرافية كثيرة . وفي الفسطاط ألف كتابه « التنبيه والإشراف » وهو ملء بالمعارف الجغرافية الفلكية والطبيعية والوصفية ، وبه معلومات قيمة عن مصر وما بها من محصولات وتجارات وصناعات . وتدخل مصر في العهد الفاطمي وسرعان ما ترسل الدولة الفاطمية بابتين سليم^(١) الأسواني في سنة ٣٦٥ إلى النوبة في مهمة دبلوماسية ويتغلغل في السودان ويؤلف كتابه « أخبار النوبة والمُقرّة وعلوّة والبجّة والنيل » يصف فيه تلك البلاد وسكانها ، وينقل عنه المقرئى وابن إياس مرارا ، وهو أول كتاب يصور المجرى الأهل للنيل . ويكتب عن السودان بعده بفترة قليلة رحالة مصرى هو الحسن الملهي في كتابه « المسالك والممالك » الذى أهداه إلى العزيز الفاطمي سنة ٣٧٥ ولذلك قد يسمى بالعزيزى وهو - كما يقول آدم ميتز - يصف بلاد السودان وصفا دقيقا . وهو أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت في كلامه عن السودان^(٢) .

وتعود مصر في القرن التالى إلى الكتابة عن الخطط أو تخطيط المدن ويؤلف القضاى^(٣) كتابه خطط مصر . ويخلفه في القرن السادس المجرى جغرافى مصرى كبير هو أبو الفتح نصر^(٤) بن عبد الرحمن الإسكندراني المتوفى سنة ٥٦١ ويشيد ياقوت في مقدمته لمعجم البلدان بكتاب جغرافى له سماه « ما اختلف واختلف من أسماء البقاع » وله كتاب ثان أهم منه ألفه توضيحا له سماه « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار المذكورة في الأخبار والأشعار » ومنه نسخة محفوظة في مكتبة المتحف البريطانى تضم ٢٩٣٨ سما ولاحظ وستفيلد ناشر معجم البلدان أن ياقوت ضمن معجمه مادة هذا الكتاب^(٥) . ويترى مصر في أواخر القرن السادس المجرى عبد^(٦) اللطيف البغدادي ويُعنى بتأليف كُتُب عنها يسبه : « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر » . والكيب موزع على مقالتين تحدث مؤلفه في أولاهما عن طبيعة مصر وسكانها ونباتها وحيوانها وآثارها وعمرانها ، وفي الثانية تحدث عن النيل وعما أصاب مصر في مقامه بها من قحط ووباء مروعين .

لعماد الأصبغى (قسم مصر) ٢٢٥/٢ ونية الرواة

للسيوطى ص ٤٠٣ وكراشكوفسكى ٣٢٢/١ .

(٥) انظر كراشكوفسكى ٣٢٣/١ ومقدمة وستفيلد

للجزء الخامس من معجم البلدان .

(٦) ابن أبى أصيبعة ١٨٣ وكراشكوفسكى ٣٤٥/١

(١) كراشكوفسكى ١٩٢/١ وروكلان ٢٥٣/٤ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع المجرى لآدم ميتز

ترجمة د. أبى ريدة ٨-٧/٢ .

(٣) كراشكوفسكى ١٦٩/١ وابن خلكان ٢١٢/٤ .

(٤) انظر مقدمة كتاب معجم البلدان وغريدة القصر

ولا يلقانا بمصر جغرافيون مهمون في القرن السابع الهجرى ويتكاثرون في القرن الثامن ، وفيه نلتقى بآبن^(١) المتوج محمد بن عبد الوهاب الزبيرى المتوفى سنة ٧٣٠ وكتاب له عن خطط مصر إلى أعوام بصع وعشرين وسبعائة . وكان في زمنه التويرى^(٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٣ صاحب الموسوعة الكبرى : « نهاية الأرب » التى مر ذكرها في الحركة العلمية والتى أهداها إلى السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، وهى مقسمة إلى خمسة فنون ، والفن الأول عن السماء والأرض ، وهو مكتظ بالمعلومات الجغرافية عن الأرض وتكوينها الطبعى وبلدانها وسكانها . وكان يعاصره ابن فضل^(٣) إمام العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس ديوان الإنشاء للسلطان الناصر وله أيضا موسوعة كبرى مر ذكرها في الحركة العلمية سماها « مسالك الأبصار » وفيها عرض جغرافى عام للبلدان والأمم الإسلامية والأجنبية في الغرب والشرق . وتهم الدولة في هذا القرن الثامن بعمل روكلات أو عبارة أخرى بعمل سجلات لمسح الأراضي المصرية ، ومن أهمها الروك^(٤) الناصرى سنة ٧١٥ في عهد السلطان الناصر بن قلاوون . ويظل النشاط الجغرافى بمصر في القرن التاسع الهجرى ، ونلتقى في أوائله بآبن دلقاق^(٥) والى دمياط وبعض بلدان الشام المتوفى سنة ٨٠٩ وهو يعنى بخط مصر في كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ويحفظ دار الكتب المصرية منه بالجزءين الرابع والخامس وفيها يصور خطط القاهرة والإسكندرية . ويعنى معاصره القلقشندى^(٦) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على الكاتب بديوان الإنشاء المتوفى عام ٨٢١ بوصف جغرافى متفرق لمصر والبلاد العربية وبلاد التتار والهند والسودان والحبشة وبعض البلدان الأوربية الغربية والشرقية .

ولا نلبث أن نلتقى بالمقرئى^(٧) تقى الدين بن علاء الدين المتوفى سنة ٨٤٥ وكتاباه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المشهور باسم الخطط موسوعة كبرى لمصر وجغرافيتها وخططها

(٥) الثلثات ٨٠/٧ وكراتشكوفسكى ٤٧١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٦) انظر مراجع القلقشندى في ترجمته بالتفصيل الخامس .

(٧) الفهرست اللامع للسجوى ج ٢ رقم ٦٦ والنيل الصائى لابن تقيى بردى (طبع دار الكتب المصرية)

٣٩٤/١ والسيرى ٥٥٧/١ والشوكانى ٧٩/١ والقرغون في مصر زيادة ص ٣ .

(١) الدرد الكائن لابن حجر (نشر دار الكتب الحديثة) ١٥٥/٤ وحسن الحضارة للسيوطى ٥٥٥/١ وكراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .

(٢) ابن حجر ٢٠٩/١ والسيوطى ٥٥٦/١ والخطط الجديدة لعل مبارك ١٥/١٧ وكراتشكوفسكى ٤٠٨/١ .

(٣) انظر مراجع ابن فضل الله في ترجمته بالتفصيل الخامس .

(٤) كراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .

وتاريخها وحضارتها وآثارها ومساجدها وكنائسها وأديرتها ومنشأتها وأعيادها وأحوالها الاجتماعية .
ويصنف خليل^(١) بن شاهين الظاهري المتوفى سنة ٨٧٢ في كتابه « زبدة الممالك في كشف الطرق
والممالك » برسم الجغرافية الإدارية لأراضى دولة المماليك في مصر والشام . ويختم القرن التاسع
الهجرى بابن الجيعان^(٢) المتوفى سنة ٩٠٢ وله « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ووصف
لرحلة السلطان قايتباي في سنة ٨٨٣ إلى بلاد الشام سماه « القول المستطرف في سفر مولانا
الألف » . وينتهى الجغرافيون في العهد المملوكى بابن^(٣) إياس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٣٠
وله كتاب « نشق الأزهار في عجائب الأقطار » ولا يزال غير مطبوع ، وفيه يتحدث عن الجغرافية
الفلكية والطبيعة لمصر والعالم ، ومن أهم ما يشتمل عليه ثبت بمقاييس النيل وفيضانه على مر
السنين .

ويكاد يتوقف هذا النشاط الجغرافى بمصر في عهد العثمانيين ، إذ تحولت ولاية تابعة لهم ، ولم
يعد أبناءؤها يشعرون بمكانتهم التي كانت لهم زمن المماليك ، إذ كان يدين جزء كبير لهم من البلاد
العربية بالطاعة وفي مقدمته الشام والحجاز . ومع ذلك لا يتعدى هذا النشاط ، بل تظل منه بقايا
إذ نجد ابن^(٤) زنتيل المتوفى سنة ٩٦٠ يصنف في الجغرافيا كتابا أسماه « تحفة الملوك والراغب لما في
البر والبحر من العجائب » ولا يزال مخطوطا لم ينشر . ونلتقى في القرن الحادى عشر بالسنهورى^(٥)
محمد بن أحمد وله كتاب في منازل البريد بين القاهرة ومكة . وكان بعاصره شهاب الدين القليوبى
المر ذكره بين أطباء الحقبة العثمانية وله كتاب جغرافى في مناسك الحج ومنازله ورسالة في معرفة
أسماء البلاد : أطوالها وانحرافات ، وتبدو الرسالة كأنها زيج صغير ، وهى بذلك تدخل في الجغرافية
الفلكية ، كما يدخل النشاط في الفلك والمهنة الذى عرضناه مع الرياضيات عند الفلكى والرياضى
الكبير رضوان وأمثلة من الفلكيين . وبذلك ظلت الجغرافية الفلكية ناشطة وخاصة فيما يتصل
بالزيجات ، ونشطت معها كتب الرحلات ، ومن أهمها رحلة لمصطفى^(٦) أسعد اللقبى الدماطى
المتوفى سنة ١١٧٣ جعل عنوانها : « موانع الأنس برحلى لوادى القدس » وقد استغرقت الرحلة

-
- (١) الضوء الملاح ج ٣ رقم ٧٤٨ وزيادة ص ٢٣ .
(٢) كراتشكوفسكى ٤٧٢/٢ .
(٣) الكواكب السائرة ١٢٠/١ وكراتشكوفسكى
(٤) زيادة ص ٤٦ وكراتشكوفسكى ٤٩٠/٢ ودائرة
(٥) زيادة ص ٧٥٥ وكراتشكوفسكى ٧٥٥/٢ .
(٦) انظر فيه تاريخ الجغرى ٢٢١/١ - ٢٤٢ وراجع
المعارف الإسلامية .

سنة أشهر في سنة ١١٤٩ بدأها من موطنه دمياط إلى القدس ، وعُني باختصار كتاب الأنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل لأبي اليمن مجير الدين الحبلى ، وسعى مختصره « لطائف أنس الخليل في تحايف القدس والخليل » . وواضح أن الجغرافيين المصريين أخذوا يعنون في العصر العثماني جغرافية الأراضي المقدسة في فلسطين والحجاز .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والتحد

أخذت مصر تُعنى بدراسات اللغة والنحو مع عناية مدرستى البصرة والكوفة بها . مما دفع فيها إلى نشوء طبقة من المؤدبين ، وأخذت هذه الطبقة تتكاثر منذ القرن الثانى للهجرة ، فكانت تلقن الشباب في القساط والإسكندرية مبادئ العربية ، وانضم إليهم في هذا التلقين بعض العلماء الذين هاجروا إلى الديار المصرية مثل عبد^(١) الرحمن بن هرْمَز الأعرج تلميذ أبى الأسود الدؤلى . نزىل الإسكندرية المتوفى بها سنة ١١٧ للهجرة . وطبيعى أن يظل نشاط هؤلاء المؤدبين مطرداً طوال القرن الثانى للهجرة ، لسبب واضح هو عناية المصريين بقراءات القرآن الكريم وضبط ألفاظه لغوياً ونحوياً . ولدارستهم لتفسير القرآن الكريم وللفقه ، وسرى فيما بعد نشاطهم الجم في هذه الميادين . ولم تُنمَّ كتب التراجم بأسماء هؤلاء المؤدبين وإحصائهم ، ولكن لاشك في أنهم كانوا كثيرين . وقد ترجم السيوطى في كتابه البغية لواحد منهم هو سرج الغول الذى لحق زمن الإمام الشافعى حين نزل القساط سنة ١٩٩ وكان عالماً باللغة ولم يكن أحد بالقساط يظهر شعره إلا بعد عرضه عليه ورضاه عنه ، ويقال إنه كان يذاكر الشافعى في اللغة والشعر ، وإنه كان يعجب بمعارفه ، وروى أنه كان يقول عنه حين يقوم من مجلسه : نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم ، وحسبه تلك الشهادة الرفيعة من الإمام الشافعى . ومن كان يتمتع به الشافعى في القساط من اللغويين عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة ، ويقول السيوطى عنه إنه كان إماماً في اللغة والنحو والعربية ويذكر أنه كان يتناشد هو والشافعى كثيراً من أشعار العرب^(٢) .

(٢) له كتاب سماه « ما وقع في أشعار الجرم من الغريب » وانظر مصادر ترجمت في ص ١٥١ .

(١) راجع ابن هرْمَز في أخبار التحريق البصريين للسيرافى ص ٢١ وتذكرة الحفاظ ٩١/١ وطبقات القراء لابن الجوزى ٣٨١/٤ وإنباء الرواة ١٧٢/٢ وما به من مراجع .

ويزور محمد بن يحيى اليزيدى مصر في العقد الثاني من القرن الثالث في صحبة المعتصم سنة ٢١٤ ويتخذها دار مقام له حتى وفاته ^(١) ويُحدث بها ضرباً من الثراء في حياتها اللغوية إذ كان لغويًا كبيراً مثل أبيه وأخيه إبراهيم ، وله كتاب المقصور والممدود ، وأغلب الظن أنه روى للمصريين كتاب أبيه : « النواذر في اللغة » وأيضاً كتاب أخيه إبراهيم في اللغة الذي سماه « ما اتفق لفظه وافترق معناه » جمع فيه كل الألفاظ المشتركة في الاسم - كما يقول ابن علكان - المفترقة أو المختلفة في المعنى ، وهو من الكتب اللغوية الجيدة . ويزور مصر ابن جرير الطبري في العقد السادس من القرن الثالث ، وكان يحفظ ديوان الطرماح فطلب إليه للمصريون أن يأخذوه عنه ، فرواه لهم مفسراً غريبه ^(٢) .

ونلتقى في الفسطاط لأواسط القرن الثالث بعالم مصرى لغوى ونحوى كبير هو ولاد ^(٣) التميمي المتوفى سنة ٢٦٣ لهعد الدولة الطولونية ، وكان قد رحل إلى العراق وسمع بها العلماء وأخذ ما عندهم ، ويقال إنه لم يكن بمصر شيء كبير من كتب اللغة والنحو قبله ، ويذكر حفيده أحمد أنه توارث هو وأبوه عنه ديوان رؤبة . مما يدل على عنايته برواية دواوين الشعر القديم ، وخاصة الدواوين التي تكتظ بالغريب مثل ديوان رؤبة . ونلتقى بعده بلغوى مصرى معجمى أو من أصحاب المعاجم هو أبو الحسن علي ^(٤) بن الحسن الهنائي الأزدي المعروف باسم كُراع القل لقصره ودمامته ، وهو وإن كان دميماً قصيراً فقد كان عالماً لغوياً لا يُنقُ غباره ، ألف أربعة معاجم ، ويقول القفطى في ترجمته بإنباه الرواة إنه يملكها جميعاً ، وهى المتضد في اللغة ، وهو معجم كبير رتبته على الحروف الهجائية ، ومعجم مختصر له سماه المجرّد ، جرده من الشواهد ، ومعجم ثالث لأمثلة الغريب على أوزان الأفعال سماه الأوزان . والمعاجم الثلاثة مفقودة . أما المعجم الرابع فسماه المنجّد قصره على ما اتفق لفظه واختلف معناه أو بعبارة أخرى على المشترك اللفظي ، وهو معجم نفيس ، وقد نشر في القاهرة . والألفاظ المشتركة فيه مرتبة حسب الحروف الهجائية لا حسب مخارج الحروف كما في معجم العين للخليل . ولم تُردّ في ترتيبها إلى أصولها الثلاثية والرباعية كما هو معروف في المعاجم العربية ، بل ترتب حسب صورها اللفظية . وكأنه أراد بذلك اليسر والسهولة ، وتابعه أصحاب المعاجم - باستثناء الأزهرى في معجمه تهذيب اللغة - في

(١) انظر إنباه الرواة ٢٣٦/٣ وتاريخ بغداد ٤١٢/٣ . (٤) راجع ترجمة الهنائي في إنباه الرواة ٢٤٠/٢ .

(٢) معجم الأدباء لباقوت ٥٣/١٨ . ومعجم الأدباء ١٧/١٣ .

(٣) انظر ترجمة ولاد في إنباه الرواة ٣٥٤/٣ .

ترتيب الألفاظ حسب الحروف الهجائية مثل الجوهري في الصحاح والزخشي في أساس البلاغة ، غير أن الجوهري رأى أن يكون الترتيب الهجائي للألفاظ بحسب أواخرها ورأى الزخشي أن يكون الترتيب بحسب أوائلها مثل كراع الفمل .

وتلتحم مباحث اللغة بمباحث النحو أو بعبارة أدق نظل ملتزمة في القرن الرابع على نحو ما يتضح عند أبي العباس أحمد^(١) بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وأبي جعفر أحمد^(٢) بن محمد النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . أما ابن ولاد فقد خرج أبوه محمد نحويًا ولغويًا ماهرًا ، ولم يكف بما أخذه عن أبيه وبعض العراقيين النازلين بمصر فرحل إلى بغداد ودرس على كبار اللغويين والنحاة بها ، وتسامع به وبزميله أبي جعفر النحاس أهل المغرب والأندلس فرحلا إليها بأخلاقهم عنها ويدرسون . وكان ابن ولاد يضيف إلى دراسته لكتاب سيويه عرضه دواوين الشعراء القدماء وكان يقول لطلابه : ديوان رؤية رواية لى عن أبي عن جدى . ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان ذى الرمة ، وسرى ما قليل أن ابن ولاد كان الطريق إلى إحدى رواياته ، وبذلك كان يدرس لطلابه في القسطاط أصعب ديوانين عريين لغويًا ، واشتهر في زمنه بروايته لمعجم العين المنسوب إلى الخليل ، وعنه حملة منذر بن سعيد قاضي الجماعة بالأندلس المشهور . ومن مصنفاته اللغوية كتاب المقصور والملود ، وهو معجم لها مرتب على الحروف الهجائية مثل كتاب المنجد لكراع الفمل ، وكأنه تابعه في ترتيب معجمه تيسيرًا للانتفاع به . أما أبو جعفر النحاس فكان واسع العلم في اللغة والنحو والدراسات القرآنية ، وقد رحل إلى العراق مثل ابن ولاد وحمل عن علمائها علماء كثيرًا ، وكان يعنى في دروسه بشرح الشعر القديم ، إذ فسر عشرة دواوين منه كان يملئها على طلابه . ومن أهم مصنفاته اللغوية « شرح القصائد التسع المشهورات وتشتمل على التعليقات السبع ، وهي منشورة ببغداد ، ونشر له كتاب « شرح أبيات سيويه » وهى أبيات كتابه المشهور . وعلى هذا النحو أخذت مصر تنشط في الدراسات اللغوية ، ونشر بهذا النشاط واضحا حين نزلها المتنبي ، فقد انعقدت له حلقة كبيرة لسامع شعره ، وسرعان ما تكوَّنت له بطانة من علماء مصر اللغويين وأدبائها تروى شعره . مثل عبيد الله بن محمد بن أبي الجهم وفيه يقول الثعالبي : « أحد رواة المتنبي الأدباء وأصحابه العلماء ومن تمهر في لغات العرب^(٣) » ومثل صالح بن

(١) انظر في ترجمة ابن ولاد معجم الأدباء ٢٠١/٤ و ١٠١/١ ومعجم الأدباء ٢٢٤/٤ وابن خلكان ٩٩/١ .

(٢) التبعة ٣٩٥/١ .

(٣) وإنهاء الرواة ٩٩/١ وما به من مراجع .

(٤) راجع في ترجمة أبي جعفر النحاس إنباء الرواة

رُشدِين ، وفيه يقول التتالبي أيضا : « أحد أئمة الكتاب للمهرة في سائر الآداب ، صاحب المتنبي وروى شعره ^(١) » . وكانت تلور المناقشات أحيانا بين المتنبي وبعض اللغويين ، ولعل ذلك ما جعله يعقد حلقة علمية لقراءة كتاب المقصور والمملود لابن ولاد سنة ٣٤٧ وقد مضى يعلق عليه موضعا ما فيه من الغلط ، وكتب ذلك عنه أبو الحسين على ^(٢) بن أحمد المهلب اللغوي المتوفى سنة ٣٨٥ وأضاف إلى ذلك زيادات ونسب الجميع إليه ، على نحو ما بصور ذلك على بن حمزة البصري في كتابه « الرد على ما في المقصور والمملود لابن ولاد » .

ويقول ياقوت في ترجمة المهلب إنه كان إماما في النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار كما يقول إنه تلميذ إبراهيم الشجرى كاتب كافور المتوفى سنة ٣٥٥ وكان راوية كبيرا للدواوين والأشعار ، وحملها عنه أبو الحسن المهلب المذكور آنفاً ، وتلميذ ثان له يسمى جنادة ^(٣) اللغوي ، وصنى عما قليل أنه كان الطريق إلى إحدى روايات ديوان ذى الرمة ، ولعل في ذلك ما يدل على أنه شارك بقوة في رواية الدواوين القديمة ، وبالمثل تلميذه أبو الحسين المهلب ، وفي المهلب يقول الفغلي : أحد علماء الأدب واللغة والشعر ، روى عنه المصريون وأكملوا .. والرواية عنه إلى زماننا هذا (أى في القرن السابع الهجرى) ووصل للمصريين رواية كتب كثيرة من كتب الأدب . وحوالى منتصف القرن الخامس الهجرى نزل بمصر التبريزي ^(٤) تلميذ أبي العلاء وأقام بها مدة ولعله روى فيها أشعار المعرى كما روى كثيرا من معارفه اللغوية وشروحه على الدواوين والأشعار ، مثل شرحه على الحلقات والمفضليات وديوان الحماسة وديوان أبي تمام ، وقد مرّ بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة نشاطه اللغوي الجَمّ . ومن نزلاء القاهرة المغاربة اللغويين القزاز القيرواني المتوفى سنة ٤١٢ خدم للعر الفاطمي وابنه العزيز وصنف لها كتابا ، وعاد بعد خلافتها إلى بلده ، ومن تصانيفه كتاب الجامع في اللغة رتبته على حروف المعجم وهو - كما يقول ياقوت - كان يقارب معجم التهذيب للأزهري ، وله كتاب الضاد والفاء وكتاب معان في شعر المتنبي وكتاب في المآخذ عليه .

تلميذ للأزهري صاحب معجم التهذيب وروى عن أبي أحمد العسكري كنه ، ونزل مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٣٩٩ .

(٤) انظر في نزول التبريزي مصر ابن خلكان ١٩٣/٦ .

(١) البيهية ١/٣٩٩ وأخبار مصر في سنى ٤١٤ ، ٤١٥ للمبجى (نشر لجنة المصرية العامة للكتاب) ص ٩٦ .

(٢) انظر في أبي الحسين المهلب معجم الأدباء ١٢/٢٢٤ وإنباء الرواة ٧/٢٣٢ .

(٣) انظر ترجمة جنادة في معجم الأدباء ٧/٢٠٩ وكان

وأكبر لغوى بالقاهرة في أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس يوسف^(١) النجيمى المتوفى سنة ٤٢٣ وهو تلميذ أبى الحسين المهلبى وقد حمل عنه كل ما كان يرويه من كتب الأدب واللغة ودواوين الشعر ، وروى عنه المصريون عامة ما كان يرويه محتضين به لما كان يمتاز به من الدقة فى الضبط اللغوى غاية الضبط إلى أقصى حد ممكن ، وفى ذلك يقول ابن خلكان : « أكثر ما تُروى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار العربية وأيام العرب فى الديار المصرية من طريقه » . وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للدويان ويقابل بينها حتى يخرجها فى أوثق صورة ممكنة . ومن خير ما يصور هذا العمل المعقد الشاق ديوان ذى الرمة الذى نشره الدكتور عبد القدوس أبو صالح فى مجمع اللغة العربية بدمشق نشرة علمية محققة اعتمد فيها على صنته فيه ، إذ أخرجه فى صورة محكمة على أساس روايتين علميتين ، ولكل رواية طريقان . أما الرواية الأولى فمن ثعلب عالم الكوفة المشهور وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى أستاذة عن ابن ولاد ، وطريقها الثانى جعفر^(٢) بن شاذان اللغوى البصرى نزيل القاهرة عن أبى عمر الزاهد غلام ثعلب . والرواية الثانية عن إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ عن أسود بن ضُبَّان عن ذى الرمة ، وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى عن إبراهيم النجيمى . وطريقها الثانى أبو عمران بن رباح أستاذ أبى يعقوب النجيمى عن إبراهيم النجيمى . ولعل فى ذلك ما يوضح مدى عناية أبى يعقوب يوسف النجيمى بإخراج الدواوين للمصريين وإحكام صنتها إحصاء لا يكاد يفوقه إحصاء ، وكان يعمم هذا الإحكام فى كل مارواه من الدواوين وكتب اللغة .

ويعمل أصحاب يوسف النجيمى عنه كتب اللغة ودواوين الشعراء . ويخلفهم عليها تلاميذهم فى القرن الخامس ومن تعهدوهم من علماء القرن السادس ، ويعطد هذا النشاط اللغوى بمصر . ويזורها غير عالم لغوى من البلاد العربية ويستقرون بها . وفى مقدمتهم على^(٣) بن جعفر السعدى الصقل المعروف باسم ابن القطاع ، نشأ بصقلية وقرأ الأدب واللغة على علمائها وخاصة ابن البر اللغوى ، ورحل عن صقلية لما أشرف النورمان على تملكها فى حدود سنة ٥٠٠ ونزل القاهرة

٢٦٥/١

(١) راجع فى ترجمة يوسف النجيمى ابن خلكان

(٢) انظر فى ابن القطاع معجم الأدباء ١٢/ ٢٧٩ وابن

٧٥/٧ وبني الرعاة والأنساب للسماطى فى النجيمى

خلكان ٣٧٢/٣ وإنباء الرواة ٢/ ٢٣٦ وما به من مراجع .

والشعر ٢/ ٧٥ - وهو المهلبى ٢/ ٣٥٨ .

(٣) انظر فى ترجمة جعفر بن شاذان إنباء الرواة

وانتخذا دار مقام له وتصدر فيها للإفادة حتى توفي سنة ٥١٥ هـ وأكرمه المصريون غاية الإكرام وانتخذه الأفضل بن بدر الجبالى وزير الخليفة الأمر الفاطمى معلما لولده ، ومن طريقه اشتهرت فى الآفاق رواية معجم الصحاح للجوهرى ، كان قد أخذها عن أستاذه ابن البر فى صقلية ، وله عدة تصانيف لغوية ، منها كتاب الأسماء فى اللغة ، وكتاب الأفعال عني بنشره بجمع اللغة العربية فى القاهرة .

ويتكاثر اللغويون بمصر من علمائها والعلماء النازلين بها بعد ابن القطاع ، وأشهرهم غير مدافع ابن برى^(١) عبد الله المصرى المولد والمنشأ المولود سنة ٤٩٩ هـ وفيه يقول ابن خلكان : « الإمام المشهور فى علم النحو واللغة والرواية والدرابة كان علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » . ويذكر ابن خلكان أنه رأى له « حواشى على درة الغواص فى أوهام الخواص » للحريرى ، وأن له كتابا لطيفا فى أغاليط الفقهاء . وقد كتب ردًا على أبى محمد بن الحشاب ، رد فيه على كتابه الذى عدّد فيه غلط الحريرى فى المقامات ، وطبع هذا الرد ملحقا بمقامات الحريرى مع نقد ابن الحشاب بالمطبعة الحسينية بالقاهرة . ومن أهم مصنفاته حواشى على معجم الصحاح للجوهرى سماها « التنبية والإفصاح عما وقع فى كتاب الصحاح » يقول ابن خلكان : « وهى حواشى فائقة أتى فيها بالثرائب ، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة ، وهى دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه » وهى من الكتب الخمسة التى ذكر ابن منظور فى مقدمة لسان العرب أنه اعتمد عليها فى تأليف معجمه اللسان . وتوجد منه مخطوطات تعين على نشره حتى مادة وقش ، وقد نُشر هذا القسم منه فى جزءين بجمع اللغة العربية بالقاهرة ويمكن استخراج بقية من لسان العرب . ولا ينرى أيضا حواشى على كتاب العرب من الكلام الأعجمى للجوابلى ، ومن آرائه الطريقة أنه ينبغى المحافظة على نطق الكلمات الأعجمية حين تعريبها وإدخالها فى العربية بجميع حروفها وحركاتها الخاصة . وقد عاش حقبة طويلة فى زمن الدولة الأيوبية إذ توفى سنة ٥٨٢ هـ . ومن أهم تلاميذه اللغويين سلمان^(٢) بن بنين الدقيقى المتوفى سنة ٦١٤ وله مصنفات لغوية مختلفة ، منها كتاب الوضاح فى شرح آيات الإيضاح لأبى على الفارسي وكتاب إغراب العمل فى شرح آيات كتاب الجمل للزجاجى ، وأهم من هذين الكتابين كتابه : « اتفاق المباني واقتراق المعانى فى اللغة »

(٢) انظر ابن بنين فى معجم الأديباء ١١ / ٢٤٤ وفى بنية الرواة ٢٩١ .

(١) راجع فى ابن برى معجم الأديباء ٥٦/١٢ وابن خلكان ١٠٨/٣ وإنباه الرواة ١١٠/٢ وشنرات الذهب ٢٧٢/٤ وبنية الرواة ص ٢٧٨ .

ومنه مخطوطتان بدار الكتب المصرية . وله كتب عدة في العروض ، منها كتاب الروض الأريض في أوزان القريض ، والكتاب الوافي في علم القوافي .

وظل هذا النشاط اللغوي ينمو بمصر ويتسع نموه طوال القرن السابع الهجري وزمن الأيوبيين والمماليك إلى أن تَوَجَّح بكتاب لسان العرب لابن^(١) منظور المتوفى سنة ٧١١ وهو مطبوع في عشرين مجلدا ، وهو أكبر معجم لغوي عرقي ظهر في الأزمنة الماضية ، وقد أتم مؤلفه تصنيفه سنة ٦٨٩ للهجرة ، وذكر في مقدمته أنه جمع فيه بين معجم التهذيب للأزهري ومعجم الصحاح للجوهري والمعجم المعروف باسم المحكم لابن سيده وخواشي الصحاح لابن برى والنهاية في غريب الحديث النبوي لابن الأثير ، وهو معجم تنوّه به الجماعة أولو القوة ، ولابن منظور بجانبه مصنفات كثيرة من أهمها مختصر الأغاني .

ويظل لمصر نشاط لغوي غزير بعد ابن منظور ، وتظل لها مشاركة في وضع المعاجم لا المعاجم اللغوية فقد كفاها ابن منظور المثوبة في ذلك فحسبها معجمه ، بل في وضع المعاجم المتخصصة مثل المصباح المنير في غريب الشرح الفقهي الكبير للرافعي صنفه أحمد^(٢) بن محمد الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ وهو ليس في ألفاظ الإمام الرافعي الشافعي فحسب ، بل هو يتضمنها ويتضمن بصفة مختصرة ألفاظ العربية في عرض حسن ، وألحق به خاتمة كثيرة الفوائد اللغوية .

وما يزال النشاط اللغوي الخالص في مصر يزداد حتى يبلغ ذروة رفيعة عند جلال الدين عبد الرحمن^(٣) السيوطي المتوفى سنة ٩١١ للهجرة وهو أغزر العلماء المصريين زمن المماليك بعامة تأليفا وتصنيفا في جميع الميادين الإسلامية واللغوية ، ومن خير مصنفاته اللغوية بل من خير المصنفات اللغوية في جميع الحقب بمصر وغير مصر كتابه « الزهر في علوم اللغة وأنواعها » وهو مطبوع مرارا بالقاهرة ، وفيه يعرض كل ما اتصل باللغة من علوم وضعت لمعرفة الصحيح وغير الصحيح والعرب والمولد والاشتقاق والمشارك والأضداد والمترادف والقلب والنحت والإتباع والإبدال وغير ذلك من علوم اللغة ومسائلها الدقيقة . وأهم من ذلك كله أنه حاول محاولة خصبة

الكتب الحديثة (١ / ٣٣٤ .

(٣) انظر مصادر ترجمة السيوطي مع الحديث عنه ص

٤٥٥ .

(١) راجع ابن منظور في نكت المصباح ص ٢٧٥ والنبر

الكاملة ٣١ / ٥ وحسن المحاضرة ١ / ٥٣٤ والبلية ص ١٠٦

ونوات الرقيات ٢ / ٥٢٤ والواق ٥ / ٥٤ والشذرات ٦ / ٢٦٦ .

(٢) انظر الفيومي في النبر الكاملة لابن حجر (نشر دار

أن يطبق علم مصطلح الحديث وما وضع فيه لروايته من أصول على اللغة وروايتها ، ويفض في ذلك إفاضة واسعة ، ففي ألفاظ اللغة - كالحديث النبوي - متواتر وآحاد ومرسل ومنقطع وضعيف ومنكر ومتروك ومطرد وشاذ . ويتحدث عن نُقُبل روايته ومن تُرُدُّ ، وعن معرفة طرق أخذ اللغة وتحملها وعن المتحلل المصنوع في اللغة وأشهر من نحل الشعر وأفسده . والكتاب فريد في بابيه ومباحثه . ونغضى بعد السيوطي في زمن العثمانيين ، ويظل لعلماء اللغة في مصر نشاطهم ، ومن خير من يمثلهم شهاب^(١) الدين الحفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ ومن مؤلفاته الرائعة كتابه « شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل » وقد صدره بمقدمة تحدث فيها عن التعريب وشروطه ، وله شرح على درة الغواص في أوهام الخواص للحريزي . وتظل مصر مع ما أصابها زمن الاحتلال العثماني حاملة مشاعل الثقافة العربية في اللغة وغير اللغة ، ويتزلفها كثيرون من علماء الديار العربية ، ومن نزفها - كما مر بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - السيد مرتضى الزبيدي اليمني المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م إذ اتخذها دار مقام له سنة ١١٦٧ حتى لبى نداء ربه ، وأكرمه المصريون وعلاؤها ، وعكف منذ نزوله على شرح القاموس المحيط للفيروز آبادي . وما زال عاكفا على عمله حتى أتمه سنة ١١٨١ وهو مطبوع في عشر مجلدات ، وقد سماه باسم « تاج العروس » . وهو بتلو لسان العرب في كبر حجمه ، وفي الجبرتي تقاريط كثيرة للمصريين فيه . وكأنه أتيح لمصر أن تضع أكبر معجمين للعربية : اللسان في زمن الماليك وتاج العروس في زمن العثمانيين ، كما أتيح لها أن تضع أكبر دائرة معارف في المباحث اللغوية ونقص كتاب المزهر للسيوطي .

ومرُّنا في صدر هذا الحديث أنه كانت بمصر طبقة من المؤيدين أخذت تتكاثر في القرنين الثاني والثالث ، وكانت تعلم الناشئة اللغة والنحو ، ومنذ أواسط القرن الثالث يصبح لمصر نخاتها من أبنائها ونزلائها في مقدمتهم ولاد الخيمى الذى مر ذكره في اللغويين ، وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وكان يعاصره أحمد^(٢) بن جعفر الدينوري نزيل الفسطاط المتوفى سنة ٢٨٩ وقد درس على المازني بالبصرة كتاب سيبويه ولما استوطن مصر واستقر بها صنف لطلابه كتابا في النحو سماه للهدب ، وعنه حملة المصريون . ويلقانا في زمنه محمد^(٣) بن ولاد آنف الذكر المتوفى سنة ٢٩٨

(١) انظر مصادر ترجمة الحفاجي ص ٤٥٩ .

(٢) انظر الدينوري في معجم الأدباء ٢٣٩ / ٢ وإنباء

الرواة ٣٣ / ١ وما به من مراجع .

(٣) راجع محمد بن ولاد في تاريخ بغداد ٣٢٢ / ٣

ومعجم الأدباء ١٩ / ١٠٥ وإنباء الرواة ٣٢٤ / ٣ وما به

من مراجع .

وقد أخذ كل ما عند أبيه وعند أبي جعفر الدينوري ، ورحل إلى بغداد وقرأ على المبرد كتاب سيبويه وعاد إلى القسطنطينية ليدرس النحو ، وصنف لطلابه كتاباً سماه المنقح . ونزل القسطنطينية في سنة ٢٨٧ الأنخس^(١) الصغير على بن سليمان ، وظل بها حتى سنة ٣٠٠ للهجرة ، يعلم الطلاب النحو واللغة ، وله شرح على كتاب سيبويه ، له أملاء بمصر . ونفى في القرن الرابع الهجري فيلقانا أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد الماز ذكره ، وكان نحويًا كبيرًا كما كان لغويًا كبيرًا وإليه صارت نسخة أبيه من كتاب سيبويه التي قرأها على المبرد ، وله كتاب « الانتصار لسبويه من المبرد » وفيه يرد على المبرد ما نقده سيبويه في كتابه الذي سماه « مسائل الغلط » . وله آراء^(٢) نحوية طريفة . وكان يعاصره كما مر بنا أبو جعفر النحاس اللغوي والنحوي الكبير . وكان يمزج في كتبه النحوية بين آراء البصريين والكوفيين وأحياناً ينفذ إلى آراء اجتهدية جديدة مما يجعله بحق طليعة^(٣) المدرسة البغدادية في مصر كما يتضح من كتابه الصغير « التفاحة في النحو » وكتاب الكبير الرائع النفيس : « إعراب القرآن » . ويبدو أن اسمه واسم معاصره ابن ولاد طار إلى المغرب والأندلس فحل إليها كثيرون من الطلاب يأخذون عنهما ، ومرينا أن منذرين سميذ قاضي الجماعة بالأندلس حمل عن ابن ولاد كتاب العين للخليل بن أحمد ، فصره في أذاعته في الأندلس والمغرب . وحمل محمد بن يحيى الرباحي عن أبي جعفر النحاس كتاب سيبويه رواية ودراسة ودرسه^(٤) لطلابه بقرطبة ، وشاعت رواية هذه النسخة بحيث أصبحت أم الدراسات النحوية في الأندلس وما رافقها هناك من نهضة في النحو ومباحثه .

وأول نحوي كبير يلقانا في زمن الفاطميين الحثي^(٥) علي بن إبراهيم المتوفى سنة ٤٣٠ تصلث لإقرء النحو وصنف فيه كتاباً كبيراً استوفى فيه - كما قال من ترجموا له - العلل والأصول . وله مصنفات أصغر منه في النحو اشتغل بها المصريون ، وله في إعراب القرآن كتاب في عشرة مجلدات ، ويبدو مما قلناه عنه ابن هشام من آراء نحوية أنه كان بغدادياً^(٦) الترة يختار بعض آراء البصريين والكوفيين ويحاول التوفيق إلى بعض آراء جديدة . وكان يعاصره الماكر^(٧) النحوي

(٥) انظر الحرق في الأسباب للسمان الورقة ١٨١

ومعجم الأدياء ٢٢١ / ١٢ وابن علكان ٣٠٠ / ٣ وإنباء

الرواة ٢١٩ / ٢ والفتريات ٢٤٧ / ٣ .

(٦) للفراس النحوية ص ٣٣٤ .

(٧) إنباء الرواة ٨ / ٢ .

(١) انظر الأنخس الصغير في تاريخ بغداد ٤٣٣ / ١٢

وابن علكان ٣٠١ / ٣ ومعجم الأدياء ٤٦١ / ١٣ وإنباء

الرواة ٢٧٦ / ٢ .

(٢) انظر كتابا للفراس النحوية ص ٣٣٠ .

(٣) للفراس النحوية ص ٣٣٢ .

(٤) إنباء الرواة ٢٣٠ / ٣ .

المصري تلميذ ابن جني المتوفى سنة ٤٤٠ وكان يتصدر لإقراء العربية ، وأغلب الظن أنه حمل إلى المصريين كتب أستاذه ابن جني فأخذوا يدرسونها مبكرين . وأنجبت مصر حينئذ نحويا كبيرا هو ابن بابشاذ^(١) طاهر بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٩ وكان قد رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها ونحاتها وعاد فتصدر للإقراء بجامع عمرو بن العاص في الفسطاط . وكان يُسند إليه الإشراف على تحرير الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمي إلى الأطراف ، وله في النحو كتب سارت - كما يقول الفقهني - سبيل الشمس ، منها المقدمة في النحو وشرحها ، وهو منشور بالكويت نشرة جيدة . ومن مصنفات ابن بابشاذ شرح كتاب الجمل للزجاجي أحد أئمة النحو البغدادى ، وله كتاب سماه المحتسب في النحو وشرح على كتاب الأصول لابن السراج ، وكانت له تعليقة كبيرة في النحو في خمسة عشر مجلدا . وكان يتترع مترع البغداديين^(٢) في الانتخاب من آراء الكوفيين والبصريين ومحاولة الإدلاء بآراء جديدة . وخلفه على التصدر لإقراء النحو تلميذه محمد^(٣) بن بركات المتوفى سنة ٥٢٠ وكانت له في النحو تصانيف مختلفة كما كان إليه التصفح في ديوان الإنشاء الفاطمي . وأكبر نحاة مصر في أواخر زمن الفاطميين وأوائل زمن الأيوبيين ابن بَرَى الذي أسلفنا الحديث عنه بين اللغويين ، وكان يتصدر لإقراء النحو واللغة بجامع عمرو ، وطارت شهرته في الآفاق ، فقصده الطلاب من كل بلد وفي مقدمتهم عيسى الجزولي نحوي المغرب والأندلس ، وقد دُون عنه في أثناء شرحه لكتاب الجمل للزجاجي مقدمته المعروفة بالجزولية ، وكان يقول إنها من نتائج خواطر ابن بَرَى وتلاميذه ، واهتم بها النحاة وشرحوها مرارا ، وهو ببغدادى^(٤) التزعة في النحو مثل أستاذه ابن بَرَى وغيره من نحاة المصريين لزمه . وخلف ابن بَرَى في إقراء النحو تلميذه سليمان بن بَنِينَ ، ومرَّبنا بين اللغويين ، وله في النحو شرح على سيبويه سماه « باب الألباب في شرح الكتاب » . ونزل مصريجي^(٥) بن مُطْعَى المغربي الدمشقي المتوفى سنة ٦٢٨ واستقر بها وتصدر بجامع عمرو لإقراء الطلاب النحو ، وله مصنفات مختلفة في النحو منها ألفية كَأَلْفِيَةِ ابن مالك وكتاب العقود والقوانين في النحو ، وكتاب الفصول ، وحواش على أصول ابن السراج ، وشرح

وإليه الرواة ٧٨/٣ والشُّلُرات ٦٢/٤ ومِرَّة الحان

٢٢٥/٣ والبيعية ص ٢٨ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٠١ ، ٣٢٨ .

(٥) انظر ابن سطل في معجم الأدباء ٢٥/٢٠

والبيعية ٤١٦ والشُّلُرات ٢٩/٥ وتاج اللزاجم ٨٢ .

(١) انظر ابن بابشاذ في معجم الأدباء ١٧/١٢ وإليه

الرواة ٩٥/٢ وابن خلكان ٥١٥/٢ والشُّلُرات ٣٣٣/٣

ومِرَّة الحان ٩٨/٣ والبيعية ص ٢٤ .

(٢) المدارس النحوية ص ٣٣٦ .

(٣) راجع محمد بن بركات في معجم الأدباء ٣٩/١٨

على الجمل . وكان يعاصره ابن الرماح على ^(١) بن عبد الصمد المتوفى سنة ٦٣٣ تصدّر لإقراء النحو وله فيه مجموع يتردد ذكره في كتاب الأشباه والنظائر للسيوطي . وولتقى بعل ^(٢) بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ وله شرحان على كتاب الفصل للزعخشري ، واسمه يشكر في كتاب الأشباه والنظائر . وأهم النحاة المصريين حيثنذ بلا منازع ابن الحاجب ^(٣) عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ كان أبوه حاجبا لبعض الأمراء فغلبت عليه النسبة إلى وظيفته . وله كتب كثيرة في الفقه المالكي والأصول والعروض ، وله في النحو كتاب الأمالي ، وكتابه الكافية في النحو والتأنيف في الصرف طارت شهرتها في العالم الإسلامي ، وتعلق العلماء بدرسها للطلاب في كل مكان ، وكثرت عليها الحواشي والشرح كثرة مفرطة ، ومن أهم شروحها شرح الرضي الإسماعيلي . وبتتبع ابن الحاجب في كتاباته النحوية منزع المرسومة البغدادية ^(٤) ، فهو يتتبع من آراء المدرستين البصرية والكوفية ويفيغ إليهما آراء اجتهدية تدل على حسن بصره وبإلغ دقته وحدة ذكائه .

وتزدهر الدراسات النحوية في زمن الماليك ، وولتقى في أوائله بأمين الدين المحلى ^(٥) محمد بن علي المتوفى سنة ٦٧٣ تصدّر لإقراء النحو وانتفع به الناس ، وله تصانيف مختلفة في النحو والعروض . وكان يعاصره بهاء الدين ^(٦) بن النحاس الحلبي الأصل المتوفى سنة ٦٩٨ ، نزل مصر وأخذ عن شيوخها ولم يلبث أن تصدّر لإقراء العربية ، وعليه تتلمذ أبو حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ حين نزوله مصر سنة ٦٧٩ وله مصنفات مختلفة ، من أهمها شرح على المقرب لابن عصفور . وأبو حيان ^(٧) هو أهم تلاميذه ، فقد لزمه وأخذ عنه كتبه ، وتصدّر لتدريس النحو في جامع الحاكم بالقاهرة وله شروح كثيرة على أمهات الكتب النحوية مثل الكتاب لسيبويه والمقرب والممتع لابن عصفور والتسهيل لابن مالك وأيضا له شرح على ألفيته ، وبجانب ذلك له مصنفات نحوية مستقلة أهمها ارتشاف الضرب أي عمل النحو ، ويطلب عليه متابعة البصريين ^(٨) ويتصدى

(٤) المدارس النحوية ص ٣٤٣ وما بعدها .

(١) راجع ابن الرماح في البنية ص ٣٤١ .

(٥) حسن الحضرة ٥٣٣/١ .

(٢) انظر العلم السخاوي في معجم الأدباء ٦٥/١٥

(٦) بنية الرواة ص ٦ .

وابن خلكان ٣٤٠/٣ وإتياء الرواة ٣١١/٢ والبنية

(٧) انظر أباحيان في الدرر الكائنة لابن حجر

ص ٣٤٩ وطبقات القراء ٥٦٨/١ والبيكي ٢٩٧/٨ وحسن

٣٠٢/٤ وبنية ص ١٢٦ ونكت المصيان ص ٢٨٠

الحاضرة ٤١٢/١ .

وطبقات التأنيف للبيكي ٢٧٦/٩ وطبقات القراء ٢٨٥/٢

(٣) راجع ترجمة ابن الحاجب في ابن خلكان

وغيرت الوفيات ٥٥٥/٢ والشرحات ١٤٥/٦ ونفع الطيب

٢٤٨/٣ وطبقات القراء ٥٠٨/١ وطبقات الذهب ٢٠١/٢

(٨) طبعة دوزي ٨٢٣/١ .

والديباج لابن فرحون ص ٣٧٢ والشرحات ٢٣٨/٥ والبنية

(٨) المدارس النحوية ص ٣٢١ وما بعدها .

ص ٣٢٣ وير وكتاب ٣٠٨/٥ .

كثيرا في مؤلفاته لابن مالك وآرائه ، وقد تخرج به جيل من النحاة المصريين لزمته . ومن أهم تلاميذه ابن أم قاسم^(١) الحسن بن قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ وأم قاسم جدته لأبيه نُسب إليها . وله شروح على مفصل الزمخشري ونسهيل ابن مالك وألفيته . وخرجت مصر حيث أن أكبر نحاتها ابن هشام^(٢) جمال الدين عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١ وقد طارت شهرته في العربية وقصده الطلاب من كل فج ، وبلغ من إعجاب معاصريه به أن قالوا إنه أنقى من سيبويه ، وله مصنفات نحوية كثيرة من أهمها « مغنى الليب عن كتب الأعراب » وهو في جزئين : جزء خاص بالحروف والأدوات وجزء خاص بالجميل ، بث فيه كثيرا من القواعد الكلية والملاحظات الدقيقة . وله كتاب « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » وكتاب « شذور الذهب » وكتاب « قطر الندى » وكل هذه الكتب مطبوعة مرارا وتكرارا . وهو يهيج في النحو منهج المدرسة البغدادية . وكان يعاصره ابن^(٣) عقيل عبد الله بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٦٩ ومن أهم مصنفاته شرحه على الألفية . وهو مشهور . وتلقى في القرن التاسع الهجري بالدمامي^(٤) الإسكندري المتوفى بالهند سنة ٨٣٧ تصدّر لإقراء النحو بالإسكندرية ثم بالجامع الأزهر ، وله حاشية على المغنى لابن هشام . وفيها يتحمل عليه تحاملا شديدا مما جعل الشئى الإسكندري المتوفى سنة ٨٧٢ يتعقبه في حاشية له على المغنى ، والحاشيتان مطبوعتان معا . وتلقى بعدهما^(٥) بالكايي محمد بن سليمان الرومي المتوفى سنة ٨٧٩ وله مختصرات نحوية مختلفة . ومن أهم النحاة حيث الشيخ خالد^(٦) الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ تصدر لإقراء الطلاب في الأزهر فُنسب إليه ، وله مصنفات نحوية مختلفة منها « المقدمة الأزهرية في علم العربية » وشرح عليها ، وهما مطبوعان ، وله شروح على مصنفات نحوية متعددة أهمها شرحه : « التصريح على التوضيح » لابن هشام . وكان يعاصره السيوطي وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وله في كليات النحو كتاب « الأشباه والنظائر » في أربعة مجلدات . وفيه طبق

والشعرات ١٨١/٧ وألفية ص ٣٧ والبر الطالع

١٥٠/٢ .

(٥) انظر الكايي في الضوء اللامع ج ٧ رقم ٦٥٥

وألفية ص ٤٨ وشعرات الذهب ٣٢٦/٧ .

(٦) ربيع الشيخ خالد في الضوء اللامع ج ٢ رقم

٦٦١ وشعرات الذهب ٢٦/٨ والكواكب السائرة

١٨٨/١ والمخطوط الجنبية لعل مبارك ٥٣/١٠ .

(١) البنية ص ٢٢٦ .

(٢) انظر ابن هشام في الدرر الكامنة ٣٠٨/٧

والشعرات ١٩١/٦ وألفية ص ٢٩٣ والبر الطالع ٤٠١/١

وكتابتها « المدرس النحوية » ص ٣٤٦ .

(٣) راجع ابن عقيل في الدرر الكامنة ٣٧٢/٢

وألفية ص ٢٨٤ والشعرات ٢٠٤/٦ والبر الطالع ٣٨٦/١

وكتابتها « للمدرس النحوية » ص ٣٥٥ .

(٤) انظر الدماي في الضوء اللامع ج ٧ رقم ٤٤٥

على قواعد النحو الكلية منهج الفقهاء في كتاباتهم عن الأشباه والنظائر في الفقه ، وهو كتاب نفيس ، وقد طبع بجيدر آباد . وله كتاب الاقتراح وهو مختصر لطيف في أصول النحو ألفه على هدى كتاب الخصائص لابن جني كما يقول في مقدمته . وله في النحو والتصريف كتاب مهم الموامع في مجلدين ضخمين ضمَّ فيه خلافاً للنحاة وآراءهم . وهو دائرة معارف نحوية وصرفية بدیعة .

ويلقانا في أوائل زمن العثمانيين الأشموني^(١) على بن محمد المتوفى سنة ٩٢٩ للهجرة ومن أهم مصنفاته النحوية شرحه على ألفية ابن مالك . وهو يعرض فيه بدقة آراء النحاة المختلفين ، وهو مثل شرح ابن عقيل على الألفية من أشهر كتب النحو المتداولة . ويسير نشاط علماء النحو طوال أيام العثمانيين . ومن أشهرهم في القرن الحادي عشر الشنوافي المتوفى سنة ١٠١٩ والدنوشري المتوفى سنة ١٠٢٥ ، ويتزل القاهرة عبدالقادر^(٢) البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ ومن مؤلفاته : « خزنة الأدب » وهي شرح لشواهد شرح الكافية في أربعة مجلدات ، وعادة يذكر مع الشواهد شعراءها ويرجم لهم ، وبذلك أحال خزانتها إلى دائرة معارف لشعراء العربية في الجاهليّة و صدر الإسلام ، ونعني إلى القرن الثاني عشر فيلقانا الحنفي المتوفى سنة ١١٨١ ومحمد الأمير المتوفى سنة ١١٨٨ وله حاشية على المغني . وهي مطبوعة . ولانلبث أن نلتقي بالشيخ حسن الكفراوي^(٣) المتوفى سنة ١٢٠٢ صاحب شرح الأجرومية المشهور . ونلتقي بالصبان^(٤) محمد بن علي المتوفى سنة ١٢٠٦ م صاحب حاشيته المشهورة على شرح الأشموني ، وهي أشبه بدائرة معارف نحوية ، وترمز بقوة إلى استمرار النشاط النحوي بمصر حتى نهاية أيام العثمانيين .

وإذا تركنا علمي النحو واللغة إلى علوم البلاغة والنقد . رأينا مصر تأخر في أفراد العلوم البلاغية بمصنفات خاصة بها . وأول كتاب مجده يعني بمباحث البلاغة كتاب لابن وكيع التنيسي . المتوفى سنة ٣٩٣ سماء المنصف^(٥) في بيان سرقات المتنبي . وهو بذلك أدخل في مباحث النقد .

(٣) تاريخ الجليل ١٦٥/٢ .

(٤) تاريخ الجليل ٢٢٧/٢ والمخطوط التوفيقية ٣٠٧/٣

(٥) انظر في هذا الكتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب لإحسان عباس ص ٢٩٤ . وقد نشره يمشق الدكتور محمد رضوان النابغة .

(١) انظر الأشموني في الضوء اللامع ٥/٦ وشذرات الذهب ١٦٥/٨ والبرق الطالع ١/١٩٩ وفي أنه توفي سنة ٩١٨ .

(٢) انظر في عبدالقادر البغدادي خلاصة الأثر ٤٥١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

غير أنه جعل بين يديه مبحثين : مبحثاً في السرقات الشعرية عامة ، ومبحثاً في فنون البديع ، وهو فيه يذكر أولاً مصطلحاته التي دونها ابن المعتز في كتاب البديع ثم يذكر ما أضافه قدامة في نقد الشعر ، ويستمد من كتاب ثالث لا يسمى صاحبه ، وربما كان كتاب حلية المحاضرة للحاتمي . والكعب الثلاثة فعلاً أهم كتب ألفت في البديع قبله . وكان مصر إن كانت قد تأخرت في وضع المباحث البلاغية فإنها لم تقصر في الاطلاع على ما وضعت العراق منها حتى زمن ابن وكيع ، وظلت تُعنى بعده بالاطلاع على مباحث العراقيين وغير العراقيين حتى نهاية زمن الفاطميين ، تدل على ذلك كتابات علي بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وإذ نراه في كتابه : قانون ديوان الرسائل يتحدث عن البلاغة حديثاً سريعاً وعرض في بعض رسائله لفنى الجنس والتورية من فنون البديع .

ولعل أول كتاب بلاغي ألف في مصر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كتاب غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات لعل^(١) بن ظافر الأزدي المصري المتوفى سنة ٦٢٣ . وسبقته في نفس الموضوع كتب أخرى من أهمها كتاب التشبيهات لابن أبي عون وقد عرضنا له في الجزء السابق من هذه السلسلة ، وقد توفي سنة ٣٢٣ . ويذكر ابن ظافر في مقدمة كتابه أنه قلمه للملك الأفضل علي بن صلاح الدين سنة ٥٨٧ في حجة أبيه ، وهو منشور بالقاهرة . وجعله ابن ظافر في ستة أبواب : أوها في تشبيه الأجرام العلوية والثاني في تشبيه المياه والأنهار والثالث في تشبيه الأنوار والأثمار والنبات والرابع في التشبيه الواقع في الحمريات والخامس في التشبيه الواقع في الغزل والسادس في تشبيهات مختلفة . والكتاب يجمع طرف التشبيه في هذه الموضوعات المتنوعة ، وخاصة تلك التي دارت على ألسنة المحدثين من شعراء مصر والشام والعراق والمغرب والأندلس ، واستعان في ذلك بكتب الأدب العامة مثل البيضة للشعالبي والخريدة للعماد الأصبهاني . ونعجب إذ نرى شعراء العالم العربي معروضين في الكتاب مع فرائدهم في التشبيه ، غير أن العجب يزول إذا عرفنا ما أكدناه مراراً من أن العالم العربي كانت تسوده وحدة جعلت آثاره الأدبية والعلمية وكأنها آثار كل بلد من بلدانه ، مما جعل دواوين الشعراء تُداول في أوسع نطاق ، بحيث لم يكن يظهر شاعر في بلدة وينال شيئاً من الشهرة حتى تتناقل ديوانه وأشعاره البلدان العربية المختلفة . ويلقانا

(١) انظر على بن ظافر في معجم الأديباء ١٣/ ٢٦٤

وفوات الوفيات ١٠٦/٢ .

بعد ابن ظافر عبد الرحيم^(١) بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ ونراه في كتابه «معالم الكتابة ومغانم الإصابة» يعقد فصلا للبلاغة يعرض فيه للإيجاز والمساواة واختيار الألفاظ والسجع وبعض فنون البديع. ويتلوه العزيز عبد السلام الإمام الشافعي المشهور نزيل القاهرة سنة ٦٤٠ وقد ظل فيها علما كبيرا في الفقه الشافعي وغيره، وله كتاب منشور سماه الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، وهو بذلك كتاب في علم البيان، وقد قصره على إحصاء دقيق لأمثلة المجاز في الذكر الحكيم، عُنى فيه بالأمثلة أكثر مما عنى بالقواعد وتفاريحها الكثيرة المعروفة في علم البيان. وأهم من العزيز عبد السلام في ميدان التأليف بمصر في البلاغة وفنون البديع معاصران له هما أحمد بن يوسف التيفاشي المغربي الجزائري نزيل مصر المتوفى سنة ٦٥١ وابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤. أما التيفاشي فذكرنا عنه في غير هذا الموضع أنه نزل مصر في باكورة شبابه وأنها تمهيدته حتى أصبح عالما لا يُشَقُّ غباره في التاريخ الطبيعي والجغولوجيا وكان أدبيا وعُنى بالتأليف في البديع وألف فيه كتابا أحصى فيه سبعين محسنا من المحسنات البديعية، وسقط الكتاب من أيدي الزمن. أما ابن أبي الإصبع فعُدَّ أكبر بلاغي ظفرت به مصر في القرن السابع الهجري، وله كتابان: تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، وكتاب بديع القرآن. والكتابان جميعا في دراسة البديع وألوانه في الشعر والنثر وآتى القرآن الكريم، وواضح من عنوان ثانيهما أنه خاص ببديع الذكر الحكيم، والكتابان منشوران بالقاهرة. ويذكر ابن أبي الإصبع في تقديمه للكتابين مصادره ومنها نتيين أنه لم يكد يترك كتابا ألف في البلاغة وفنون البديع وإعجاز القرآن الكريم إلا رجع إليه، من ذلك نظم القرآن للجاحظ وبديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدامة وحلبة المحاضرة للحاتمي والنصف لابن وكيع للمصري والصناعتين لأبي هلال العسكري والنكت في إعجاز القرآن للرمانى وإعجاز القرآن للباقلاني والمجاز للشريف الرضى والموازنة للأمدى والوساطة لعل بن عبد العزيز الجرجاني والعمدة لابن رشيق وسرُّ الفصاحة لابن سنان الحنفاجي ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني والكشاف للزمخشري ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي والمثل السائر لابن الأثير وبديع شرف الدين التيفاشي إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة. وإنما ذكرنا الأمهات لندل على أن كتب البلاغة والبديع كانت تدرس في مصر، وكان المصريون يعكفون على قراءتها فيها وقها ودراسة واستنباطا. ويعرض ابن أبي الإصبع في كتابه

وكتابه: «معالم الكتابة» طبع ببيروت سنة ١٩١٣.

(١) انظر ترجمة ابن شيث في فوات الوفيات ١/ ٦٠٥

وشذرات الذهب ٥/ ١١٧ والمقال السعيد للإدري ١٦٠

تحرير التعبير الألوان البديعية التي اختص بها ابن المعتز ، ثم يعرض الألوان العشرة التي انفرد بها قدامة وقد بلغت جميعا ثلاثين لونا ، ويسمى هذه الألوان الأصول ، حتى إذا انتهى من عرضها أتبعها بالفروع التي ذكرها المؤلفون حتى زمه وقد بلغت ستين محسنا ، ويتلوها بثلاثة محسنات نقلها عن بديع الإجداني ، وبذلك تبلغ الألوان البديعية ثلاثة وتسعين لونا ، ويتلوها بثلاثين لونا من عمله واكتشافه ، سلم له البلاغيون منها نحو عشرين محسنا ، وقالوا إن الباقي إما مسبوق إليه أو مدخول عليه^(١) . وصنف بعد هذا الكتاب كتابه الثاني « بديع القرآن » ذكر فيه أولا - كما قلنا آنفا - أصول المحسنات البديعية عند ابن المعتز وقدامة ، ثم مضى في ذكر المحسنات الفرعية حتى بلغ بها مائة محسن وتسعة . ويلاحظ أنه أدخل في تلك المحسنات الصور البيانية وطائفة من أبواب علم المعاني كالتكرار والتضخيل والإيضاح والبسط أو الإطناب والإيجاز وبذلك وسع مدلول المحسنات البديعية وظل ذلك عند أصحاب البديع من بعده .

وتُشْتَلُّ مصر طويلا بكتابي ابن أبي الإصبع ، حتى إذا كنا في منتصف القرن الثامن الهجري وجدناها تُسهم في العناية بمباحث المشاركة في البلاغة وعلومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وكان الخطيب القزويني قد لخص القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي ، وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة ، وأحسن في هذا التلخيص إلى حد بعيد . مما جعل الشراح يعنون بتفسيره والتعليق عليه ، ويُعنى بذلك شارح مصري هو أحمد^(٢) بن علي بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ و يسمى شرحه « عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح » ونراه في فوائده يشيد بالمصريين وما طُبعوا عليه من الذوق السليم الذي أغناهم عن التعقيد في مباحث السكاكي البلاغية وشراحه الإيرانيين لاهتمامهم جميعا بالعلوم العقلية والفلسفية ، وبصور عمله في شرحه قائلا : « اعلم أي مزجت قواعد هذا العلم (علم البلاغة) بقواعد الأصول والعربية .. وضمت شيئا من القواعد المنطقية والمعاقد الكلامية والحكمة الرياضية أو الطبيعية » . وكأنما أعدته في شرحه طريقة المشرقيين أو المشاركة ، فعاد يصل في شرحه بين البلاغة وعلوم المنطق والكلام والفلسفة الطبيعية والرياضية ، مما أصاب البلاغة ومباحثها بالجناف في مصر كغيرها من بلدان المشرق . وكانت قد أخذت تظهر بديعيات مختلفة وهي مدائح نبوية تشتمل المدحة منها على محسنات البديع ، بحيث

الشافية ١٠/١٣٩ راجعه في الدرر الكاشفة ١/٢١٠

وخلرات اللهب ٦/٢٢٦ والنجم الزاهرة ١١/٢٢١

ولأنه الضرب بآباء العصر لابن حجر ١/٢١ .

(٩) فضحات الأزهار على نبات الاسمار (طبع

دمشق) ص ٣ .

(٢) انظر في ترجمة السبكي ترجمة أبيه في طبقات

يفهم كل بيت محمداً من تلك المحسنات . وصُنعت لتلك البديعيات شروح تفسرها وتعرض أمثلتها . ولم تنارع مصر إلى المشاركة في هذه البديعيات التي أخذت تظهر منذ القرن السابع الهجري ، حتى إذا كنا بأخرة من زمن المالك وجدنا السيوطي ينظم بديعة بسميها ، نظم البديع في مدح خير شفيح ، وله عليها شرح . وتليها بديعة لعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٣٠ . وتعني مصر زمن العثمانيين بتلخيص الخطيب القزويني وشروحه وخاصة شرح السبكي والسعد التفتازاني .

وإذا كانت المباحث البلاغية تأخرت في مصر لهذا العصر فإن المباحث النقدية شاركتها في هذا التأخر ، ويلقانا في أوائل العصر - كما مرّنا آنفاً - كتاب المنصف لابن وكيع في بيان سرقات المتنبي ومشكل شعره ، وقد ذكرنا أنه احتوى على مقدمة في فنون البديع ، وذهب بلاشير إلى أنه ألفه انتصاراً لابن حنّابة وزير كافور إذ ترفع المتنبي عن مدحه فأغرى ابن وكيع بنقده ^(١) . وهو يذكر في تقديمه لكتابه أن جماعة بالغوا في مديح المتنبي حتى فضلوه على جميع الشعراء بنتائج فكره وبدائع معانيه ، فأراد أن يكشف عن مدى تقليده ومحاكاته لمن تقدموه ، ويقدم لكلامه بمبحث عن السرقات يصنفها فيه عشرين صنفاً . وتحدث حديثاً بجملاً - عرضاً له - عن فنون البديع ، ثم أخذ بفيض في سرقات المتنبي متعباً لها في قصائدهم مع ترتيبها ترتيباً تاريخياً . وهو بحث قيم بالقياس إلى غيره من بحوث معاصريه ومن جاء بعدهم ممن عزا ببيان سرقات المتنبي ، إذ يدل على كثرة محفوظه وفطنته ودقته في الفهم . وقدما قلنا إن نقادنا القدماء كان ينبغي ألا يتوسعوا في بحث سرقات الشعر هذا التوسع كما كان ينبغي أن ينحروا عنه كلمة السرقة ويسموا التحوير الفنى ، ومحاولوا أن يبينوا مدى قدرة الشاعر على هذا التحوير . ونعجب أن يحاول ابن وكيع بيان الإصناف عند المتنبي وضعفه اللغوى ليت وقع عليه عفاها هنا أو هناك ، والشاعر لا يقاس ببعض عثرات له نَدَّتْ عنه ، وإنما يقاس بروائع أبياته وفرائدها البديعة . وهذا وأشباهه عند ابن وكيع جعل ابن جني يؤلف كتاباً في النقض على ابن وكيع في شعر المتنبي ونمطته ^(٢) كما جعل ابن رشيق يقول عنه : « ما أبعد الإصناف منه » ^(٣) . وربما جرّ ابن وكيع إلى ذلك كله أنه كان شاعراً من ذوق غير ذوق المتنبي فأسرف في التحامل عليه . ولم يؤدّ كتاب المنصف غايته من الهبوط في مصر بمترلة المتنبي فقد مضى كثيرون يبالغون في تشييعهم له ، كما جعل العميدى ^(٤) محمد بن أحمد كاتب

(١) انظر أبو الطيب المتنبي للإمام تاج الدين عبد الوهاب

(٢) الفصلة لابن رشيق ٢١٦/٢ .

(٣) انظر العميدى في معجم الأدباء ١٧ / ٢١٢ وإنباه

الكلاني (طبع دمشق) ص ٤٨٧ .

الرواة ٢٤٦/٣ وبقيّة الرواة للسيوطي ١٩ .

(٤) معجم الأدباء ١٧ / ١٣٣

الإنشاء في دواوين الفاطميين المتوفى سنة ٤٣٣ يكتب بحثا ثانيا في سرقاته باسم «الإبانة عن سرقات المتنبي» وهو يطيل في عرض هذه السرقات - كما تنزهى له - مع كثير من الغمز واللمز والتجريح للشاعر الكبير، ويعرض - كما عرض ابن وكيع - لبعض عيوبه اللغوية.

وماتزال مصر معنية بالبحث في السرقات ويقف عندها مرارا ابن منجب الصيرفي في رسائله، ووماتزال معنية بالمتنبي، بل إنها لقد عنايتها إلى جميع شعراء العالم العربي. ونرى أضواء من ذلك كثيرة في كتاب فصوص الفصول^(١) لابن سناء الملك شاعر صلاح الدين، إذ نراه يجمع فيه بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين القاضي الفاضل، وفيها يعرضان كثيرا لشعراء العالم العربي. ومن طريف ما ذكره ابن سناء الملك فيها أنه سأل القاضي الفاضل لماذا يدور شعر المتنبي على كل لسان، فقال لأنه يشتمل على ما يدور بخواطر الناس من أفكار، يقصد حكمه البديعة. وسأله القاضي الفاضل أن ينتخب مختارات من شعر ابن الرومي فاعتذر عن ذلك بأنه «ليس من أهل اختياره، ولا من الفواصين الذين يستخرجون الدرر من بحاره، لأن بحاره زخّارة، وأسوده زّارة، ومعدن يثّره مردوم بالحجارة، وعلى كل عقيلة ألف نقاب بل ألف ستارة، يطمع ويونس، ويوحش ويؤنس، وينير ويظلم، ويصبح ويعتم، شذرة وبذرة، ودرّة وآجره، وقبلة بجانبها لسعة»، وابن سناء الملك بذلك عبر في وضوح عن مدى التفاوت بين أشعار ابن الرومي، وهو نقد دقيق، وسأله القاضي الفاضل مرة أخرى صنّع منتخب لشعر ابن رشيق، فصنعه، وذكر له في إحدى رسائله ذلك كما ذكر له أن شعره مسروق من شعر ابن المعتز والمتنبي، بقول: «ولو لم يخلق الله ابن المعتز والمتنبي لما كان ابن رشيق يعرف الشعر فضلا عن أن ينظمه أو يعلمه، وهو ينبأ أشعار هذين الرجلين نهما قبيحا ولا سيما ابن المعتز». وينوه ابن سناء الملك مرارا في الرسائل بابن المعتز والبحترى. وقد حملت فيما حملت نظرات نقدية للقاضي الفاضل أحيانا في بعض أبيات لابن سناء الملك، وأورد القلقشندي في صبحه نموذجا^(٢) من هذه الرسائل المتبادلة بين الأدبيين الكبيرين، إذ أورد رسالة نقد فيها القاضي الفاضل يت ابن سناء الملك:

صليبي وهذا الحسنُ باقي فرما يُعزّل يثّ الحسن منه ويُكسّ

لذكره فيه كلمة «يكس» المتبدلة، وردّ عليه ابن سناء الملك بأنه إنما تابع في ذلك ابن المعتز

في قوله:

(٢) انظر ص ٢٤٩/٢ - ٢٥٢.

(١) منه مخطوطة بدار الكتب المصرية.

وَقَوَامِي مِثْلُ الْقَنَاءِ مِنَ الْخَطِّ وَخَدَّيْ مِنْ لِحْيَتِي مَكْنُوسُ
وَكأنه يريد أن يقول للفاضل إن الكلمة استعملها ابن المعتز من قبله وأصبحت بذلك كلمة
شعرية ولا بأس على شاعر من استعمالها .

وابن سناء الملك أكبر رمز مصرى فى العصر لاتصال شعراء مصر ونقادها بالأدب الأندلسى ،
فقد درس موشحات الأندلسيين ، ولم يكونوا قد وضعوا عروضها فوضعه لها ، وكأنه يحلّ من
عروض الموشحات الأندلسية عمل الحليل بن أحمد من عروض الشعر العربى ، وستحدث بشيء
من التفصيل عن ذلك فى الفصل التالى .

وقد شغل ابن سناء الملك النقاد فى زمنه وبعد زمنه . لا بما وضعه من عروض الموشحات
فحسب ، بل أيضا بشعره ، فقد كان أنه شاعر أنجبته مصر حتى أيامه ، فشغل النقاد طويلا
بأشعاره ، وفيه وضع ابن جُبارة^(١) على بن إسماعيل موطنه للتوفى سنة ٦٣٢ كآبه « نظم الدرر فى
نقد الشعر » وهو فى نقد أشعار ابن سناء الملك ، والكتاب مفقود ، غير أن الصفدى فى كتابه
« الفيت المسجّم » الذى وضعه فى شرح لامية العجم نقل عنه أطرافا من نقده لبعض أبيات ابن
سناء الملك ، ونراه فيها متحاملا عليه تحاملا شديدا أو كما قال الصفدى فى نكت المهيان « متعتا .
تعتا زائدا » . من ذلك قول ابن سناء الملك :

يَشُوكُ الْقَنَا يَحْمُونَ شَهْدَ رُضَائِهَا وَلَا يُدُّ دُونَ الشُّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ

يصف فى البيت منعة صاحبه وأن أحدا لا يستطيع أن يقترّب من حياها لبأس قومها وخشية
من رماهم أن تسفك دمه . وتوقّف ابن جبارة بإزاء البيت^(٢) وقال إنه أراد أن يمدح قوم
صاحبه فهجاهم بالمثل للمفسن آخر بيته الذى جعله كفن مئته لأله جعل طعن رماهم كابر
النحل ، يقول ابن جبارة : وإبرة النحل لا أثر لها ولا ألم يحصل منها . ويرد عليه الصفدى قائلا :
أما كونه يدعى أنه لا ألم فى إبر النحل ولا ضرر فى الزناير فهذا مما لم يسمع ، وهو تحامل أليس فى
إبر النحل والزناير سُمّ يمنع القرب منه والدنو إليه . وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه ،
وربما لسع الزنبرور بعض الناس فتورّم منه ومات . ورد عليه أيضا ما قاله من أنه شبه طعن رماح
القوم بإبر النحل فهو لم يعقد فى البيت تشبيها ، وإنما جاء بمثل ليدل على أن حلاوة ريق صاحبه

(١) انظر فى ابن جبارة نكت المهيان ص ٢٠٨ وبقيّة
(٢) الفيت المسجّم شرح لامية العجم (طبع مطبعة
الرواة ص ٣٢٩ .
بولاق) ١ / ٢٢٤ .

لا تُثَال إلا بعد مشقة . وأنكر ابن جبارة في البيت أيضا كلمة « بشوك القنا » وقال الصفدى ردا عليه إنها استعارة حسنة ، وأنشد بيتين للأرجاني وابن خفاجة شبا فيهما القنا بالشوك . وتوقف ابن جبارة بلزاء^(١) بيت نظم ابن سناء الملك قصيدته في مديح القاضي الفاضل ، إذ يقول :

يقرى الضيوف شعاع يثر أحمر فشعاع ذاك الثبر نيران القرى
وحاول في أول نقده أن يثبت سرقة ابن سناء الملك للبيت من بيت لابن عمار وآخر للمتنبي . وقال الصفدى : إن هذا تعنت زائد إذ ليس للبيت علاقة بما قاله الشاعران . ويترسل ابن جبارة في نقده للبيت فيقول : قوله : « يقرى الضيوف شعاع ثبر أحمر » . الثبر لا يكون إلا كذاك (أى أحمر) وإنما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التي توقد على البقاع ليتهدى بها الحيران . وتهتدى إلى مواضعها الضيفان ، وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الإنعام ويمنعمهم من الطعام . يقول الصفدى : وهذا تعنت لأن الثبر منه ما يكون أصفر أو أخضر ومنه ما يكون أحمر وهو المضروب وإنما سماه ابن سناء الملك ثبرا مجازا ، ولولا أن هذا لازم لما قيل في بعض المواطن الذهب الأحمر كما يقال الثلج الأبيض . وعلى هذا النحو لا يزال الصفدى يرد على ابن جبارة بعض نعمته وتحامله على ابن سناء الملك . ويفهم من كلام الصفدى أن ابن جبارة كان يستعرض بعض قصائد الشاعر . وما يزال يعلق على طائفة من أبياتها بتحامل شديد .

ولا شك في أن النقد الأدبي المصرى في هذا العصر خسر كثيرا بسقوط هذا الكتاب النقدي من يد الزمن . ومن المؤكد أننا لا نستطيع الحكم عليه بدقة من خلال ما نقله عنه الصفدى . وهو فعلا لم يتوسع في نقله . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أهم كتاب ظهر بعد كتاب ابن جبارة هو كتاب خبز الشعير لابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ وهو أهم شعراء مصر في زمن المماليك ، وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين تلميذه الصفدى بسبب بحث كُتبه عن سرقاته من الشعراء السابقين فألف هذا الكتاب موضحا فيه سرقات الصفدى لأشعاره ومعارضته لبعض قصائده . وفي مقدمته^(٢) يقول : إنه ليس للصفدى من جيد الأشعار لمعة إلا ومن لفظه يشكاتها . ومضى يذكر الأصل^(٣) من أبياته أو الأصول ، ثم الفرع أو الفروع من أبيات الصفدى . وفي صبح الأعشى دراسة^(٤) نقدية

(٢) في الحزنة جملة كبيرة من هذا الكتاب انظر

الصفحات ٢٨٥ - ٢٨٩ .

(٤) انظر صبح الأضى ١٩٢ / ٢ - ٣٣٨ .

(٢) التمثيل للمسجم ٢٦٤ / ١ وانظر ١٢٨ / ٢٤٣ .

(٢) الكتاب مفقود غير أن ابن حجة الحموى احتفظ في

خزائنه (طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة) بمقدمة الكتاب

طريقة للمعانى والألفاظ وقبحها وما بداخلها من الغرابة والابتذال والإيجاز والإطناب ، وقد امتدت عنده إلى نحو مائة وأربعين صحيفة . وولتقى في أيام العثمانيين بشهاب الدين الختاجي وكتابه « ربحانة الألبا » الذى ترجم فيه لشراء زمنه في الشام والمغرب والحجاز واليمن ومصر ، وقد بث فيه ملاحظات نقدية كثيرة .



علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المصريون يعنون بقراءات الذكر الحكيم منذ أخذ الصحابة الذين تزلوها يعلمونه لهم . وأسهم معهم في هذا الصنيع التابعون من مثل عبد^(١) الرحمن بن هرمز تلميذ أبى الأسود الدؤلى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ١١٧ للهجرة . ورحل كثير من المصريين إلى المدينة في القرن الثانى لحمل قراءة إمامها نافع الذى طبقت شهرته في القراءات العالم الإسلامى حتى وفاته سنة ١٦٩ . وأشهر تلاميذه بمصر من حملة قراءته ورش^(٢) عثمان بن سعيد المتوفى سنة ١٩٧ وكان ماهرا في العربية ، وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالديار المصرية ، وحمل عنه قراءته أهل المغرب كما مر بنا في غير هذا الموضع ، ولايزالون يقرءون بها إلى اليوم . ومن أهم تلاميذه المصريين عبد^(٣) الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم أبو الأزهر المتوفى سنة ٢٣١ ويقول السيوطى : وعنه انتشرت قراءة ورش في الأندلس فقد حملها إليه تلاميذه . ويبدو أن مصر مضت طوال القرن الثالث الهجرى تعنى بالقراءات وحملها عن كبار القراء . كما تعنى بما يؤلف فيها من مصنفات ، يدل على ذلك أقوى الدلالة أنه بمجرد أن صنف أبو بكر بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ كتابه السبعة في القراءات الذى جمع فيه قراءات نافع إمام أهل المدينة وابن كثير إمام أهل مكة وأبى عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة وعاصم وحزمة والكسائى أئمة أهل الكوفة وابن عامر إمام أهل الشام نجد عالما مصريا معاصرا له من علماء القراءات هو أبو غانم المتوفى سنة ٣٣٣ يؤلف كتابا في اختلاف السبعة^(٤)

وطبقات القراء ٣٨٩/١ .

(١) سبق مصادر ترجمته ص ١٠٨ .

(٢) حسن المحاضرة ٤٨٨/١ وانظر طبقات القراء

(٢) انظر في ورش . حسن المحاضرة ٤٨٥/١ وطبقات

٣٠١/٢ حيث يذكر تلميذه لأحد تلاميذ ابن مجاهد .

القراء ٥٠٢/١ .

(٣) انظر في عبد الصمد حسن المحاضرة ٤٨٦/١

المذكورين ، وقد أحصى السيوطي ١٣٥ قارئاً ممن تصدروا للقراءات بمصر حتى زمنه . ولا ريب في أنه كان وراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة ، ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نكتفي منهم بمن تركوا في القراءات مصنفات طارت شهرتها في العالم الإسلامي . وأول من نقف عنده عبد^(١) النعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرواشاد ثم ابنه طاهر^(٢) المتوفى سنة ٣٩٩ صاحب كتاب التذكرة في القراءات الثمان ، وعليه تخرج أبو عمرو الداني أكبر قراء الأندلس في زمنه صاحب كتاب التيسير وغيره كما تخرج عليه وعلى أبيه مكى بن أبي طالب القيرواني نزيل قرطبة صاحب كتاب التبصرة وغيره . ونغضى في القرن الخامس فلتقى بعد^(٣) الجبار الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب كتاب المجتبى ، كما تلتقى بالحسن^(٤) بن محمد البغدادي المالكي نزيل مصر للمتوفى سنة ٤٣٨ صاحب كتاب الروضة ، وتلتقى بإسماعيل^(٥) بن خلف المتوفى سنة ٤٥٥ وكتابه « العنبر » . وتلتقى بعده بموسى بن الحسين المعروف باسم المعدل المصري وكتابه الروضة في اختلاف الأئمة القراء الخمسة عشر^(٦) ، وتلتقى في القرن السادس بآبن الفحام^(٧) شيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٠ وكتابه التجريد ، كما تلتقى بآبن^(٨) بليمة القيرواني نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٤ وكتابه تلخيص العبارات .

ويلقانا أيام الأيوبيين علم كبير من أعلام القراءات هو الإمام الشاطبي^(٩) الضرير المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٩٠ وقصيدته « حُرِّز الأمانى » المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، وقد عني بشرحها كثيرون من أئمة القراء وفي مقدمتهم تلميذه العلم^(١٠) السخاوي المتوفى - كما مر بنا - سنة

(٦) انظر في المعدل للمصرى طبقات القراء ٣١٨/٢ والنشر في القراءات العشر ٦٦/١ .

(٧) راجع في ابن الفحام حسن المحاضرة ٤٩٥/١ وطبقات القراء ٣٧٤/١ والنشر ٧٥/١ .

(٨) انظر في ابن بليمة حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات القراء ٢١١/١ والنشر ٧٢/١ .

(٩) راجع في الشاطبي حسن المحاضرة ٤٩٦/١ وطبقات القراء ٢٠/٢ وطبقات الشافعية ٧٧٠/٧ ونكت الحصان ص ٢٢٨ ومعجم الأدباء ٢٩٤/١٦ والنشر ٦١/١ .

(١٠) راجع مصادر ترجمته في ص ١١٨

(١) راجع في عبد النعم بن غلبون حسن المحاضرة ٤٩٠/١ وطبقات القراء ٤٧٠/١ والنشر في القراءات العشر ٧٩/١ .

(٢) انظر في طاهر حسن المحاضرة ٤٩١/١ وطبقات القراء ٣٥٦/١ والنشر في القراءات العشر ٧٣/١ .

(٣) انظر في الطرسوسي حسن المحاضرة ٤٩٢/١ وطبقات القراء ٣٥٧/١ والنشر ٧١/١ .

(٤) راجع في الحسن بن محمد حسن المحاضرة ٤٩٣/١ وطبقات القراء ١٣٠/١ والنشر ٧٤/١ .

(٥) انظر في ابن خلف حسن المحاضرة ٤٩٤/١ وطبقات القراء ١٦٤/١ والنشر ٦٤/١ .

٦٤٣ وله في القراءات كتاب جبال القراء وكال الإقراء . وكان يعاصره عبد الرحمن ^(١) بن إسماعيل الصفراوي الإسكندري المتوفى سنة ٦٣٦ صاحب كتاب الإحلاق . ويتوالى التأليف في القراءات ونلتقى بابن الجندی المتوفى سنة ٧٦٠ وكتابه البستان ، وبشرح للسيوطي على الشاطبية . ويختم الإمام شهاب ^(٢) اللذين القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ زمن للمالك بكتابه الرائع : « لطائف الإشارات لفنون القراءات » وفيه يجمع طرق القراءات الأربع عشرة ، بإضافة قراءات أبي جعفر يزيد بن القعقاع اللدني ويعقوب بن إسحق البصري وخلف بن هشام الكوفي المكيين للعشرة ، وإضافة قراءات ابن عيصن المكي واليزيدي البصري والحسن البصري والأحمش الكوفي إلى ما ذكرناه آنفاً من قراءات السبعة الذين صنف فيهم ابن مجاهد كتبه . ويظل التأليف في القراءات لزمن العثمانيين ناشطاً ومن أهم ما ألف في زمنهم كتاب إتحاف البشر وهو يُعنى بعرض أقراءات الأربع عشرة ألفه البناء أحمد بن محمد الدمياطي المتوفى سنة ١١١٧ .

ومعروف أنه تكوّنت علوم كثيرة حول القرآن الكريم ، ونجد مصر تشاطر فيها مشاطرة واضحة منذ القرن الثالث الهجري ، ولا يلبث أبو جعفر النحاس الذي مر ذكره أن يؤلف في جوانب منها ، فقد ألف كتاباً في الناسخ والمنسوخ وكتاباً في الوقف والابتداء وألف كتاباً - كما مر بنا - في إعراب القرآن وهو أحد الأصول المهمة في هذا الموضوع . وظلت مصر تُعنى بعلوم القرآن من بعده وتصنّف فيها مصنفات مختلفة تتصل بتجويده وبناسخه ومنسوخه ولغاته وغريبه وأسباب نزوله وما فيه من الوقف والابتداء والصور البلاغية إلى غير ذلك من علومه المتنوعة . ويطول الحديث لو أننا تتبعنا ما كتبه مصر بهذا العصر من تلك العلوم ، ولكن نكتفي بالإشارة إلى كتابين هما البرهان في علوم القرآن لبدر ^(٣) الدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، وهما يعرضان مادة هذه العلوم وما ألف فيها حتى نهاية القرن التاسع إذ توفي السيوطي كما مر بنا سنة ٩١١ .

ومن أهم هذه العلوم علم التفسير . وطبيعي أن تُعنى به مصر منذ دخلت في الإسلام حتى تفهم

(١) انظر في الصفراوي حسن المحاضرة ١/ ٥٥٦ (٢) انظر في الزركشي الدرر الكامنة ١٧/ ٤ وشرحات والشرحات للجب ١٨/ ٥ .
 (٣) راجع في القسطلاني الضوء اللامع ج ٢ ولم ٣١٣ والشرحات ١٢١/ ٨ والدرر الطالع ١٠٢/ ١ .
 (٤) اللب ٣٣٥/ ٦ وحسن المحاضرة ١/ ٤٣٧ وإنباء الدرر بأبناء العصر ١/ ٤٤٦ .

آى الذكر الحكيم ، وكان حُفاظها يروون خلفاً عن سلف ما قيل فى معانى آى الذكر الحكيم ، واشتهر بها فى القرن الثانى طريق وثيق عن ابن عباس المشهور بتفسير القرآن الكريم ، هو طريق على بن أبى طلحة الهاشمى وفيه يقول أحمد بن حنبل : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة الهاشمى لورجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا » . ويذكر السيوطى أن البخارى اعتمد على هذه الرواية كثيرا فى صحيحه فيما يطلقه عن ابن عباس ^(١) . وكأنها بعض ما حملة البخارى عن مصر فى رحلته إليها لتدوين الحديث عن جُلَّة رواته فيها . وتظل مصر معبئة بالقرآن وتفسيره وأحكامه ، ويؤلف أبو جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى المتوفى سنة ٣٢١ كتابا فى أحكام القرآن . ويعنى أبو جعفر النحاس بعلوم القرآن ، ولا يلبث أحد تلاميذه ، وهو أبو بكر الإدوفى ^(٢) محمد بن على المصرى المقرئ المتوفى سنة ٣٨٨ أن يؤلف فى التفسير كتابا ضخما يقول المترجمون له إنه كان فى مائة وعشرين مجلدا ، وسماه كتاب الاستفتاء فى علوم القرآن ، وأهم تلاميذه الحوفى المار ذكره بين النحاة ، وله كتاب البرهان فى تفسير القرآن فى ثلاثين مجلدا ويقول القفطى : صُنِّف كتابا كبيرا فى إعراب القرآن فى عشرة مجلدات . وهو وأستاذه أهم المفسرين فى زمن الفاطميين ، ومن تلقى به فى زمن الأيوبيين المرسى ^(٣) السلى محمد بن عبد الله نزل مصر واستقر بها سنة ٦٢٤ وتوفى سنة ٦٥٥ وله تفسير كبير فى أكثر من عشرين جزءا سماه « رى الظلمات فى تفسير القرآن » . وكان يعاصره العزيز عبد السلام الفقيه الشافعى المشهور وله تفسير ، منه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، بناء على الوجوه البيانية والبلاغية فى آى الذكر الحكيم .

ونمضى فى زمن الماليك وتلقى بالقرطبى ^(٤) محمد بن أحمد نزيل مصر والمستقر بمدينة المنيا (منية الخصب فى الصعيد) المتوفى سنة ٦٧١ وله التفسير المشهور المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » . ويلقبنا بعده ابن ^(٥) المنير أحمد بن محمد الإسكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ وله تفسير سماه « البحر الكبير فى نُخَب التفسير » وكتاب ثان تبيح فيه

(١) فى (١) الإيضاح فى علوم القرآن للسيوطى ٢/ ٢٢٣ .

وشلوات الذهب ٥/ ٣٣٥ .

(٢) راجع ابن المنير فى الديباج الذهب ٧٨

وشلوات الذهب ٥/ ٣٨١ والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٦١

ولغات الوفيات ١/ ١٣٢ .

(٣) انظر الإدوفى فى طبقات المفسرين للسيوطى وحسن

الحاضرة ١/ ٤٩٠ وطبقات الفراء ٢/ ١٩٨ .

(٤) راجع فى المرسى السلى طبقات المفسرين ص ٣٥

ومصمم الأدباء ١٨/ ٢٠٩ وشلوات الذهب ٥/ ٢٦٩ .

(٥) انظر القرطبى فى الديباج الملعب لابن فرحون (طبع

آراء الزعخشري الاعتراضية التي بثها في تفسيره وحاول نقضها بما يتفق وآراء أهل السنة ، سماه الانتصاف من الكشاف وهو مطبوع على هوامشه . ويتلوه ابن^(١) النقيب محمد بن سليمان المتوفى سنة ٦٩٨ وله تفسير كبير الحجم سماه التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير ، وجعل له مقدمة كبيرة تحدث فيها عن الوجوه البلاغية فيه . وقد سقط الكتاب من يد الزمن ، ربما لضخامة حجمه . وكان يعاصره عبد^(٢) العزيز الديري المتوفى سنة ٦٩٤ وله المصباح النير في علم التفسير ، وأيضاً كان يعاصره العالم^(٣) العراقي المصري المتوفى سنة ٧٠٤ وسمى العراق نسبة إلى جده لأمه ، وكان هذا الجد مصرياً غير أنه دخل العراق فلقب بهذا الاسم الذي انتقل إلى حفيده ، وله كتاب في الانتصار للزعخشري من ابن النير وله مختصر في التفسير .

وأكبر المفسرين في القرن الثامن أبو حيان الأندلسي وتفسيره البحر المحيط مشهور ، وكان قد اتخذ القاهرة دار مقام له غير أن عداؤه في الأندلسيين . وأهم المفسرين بعده جلال الدين السيوطي وله تفسير كبير يسمى الدر المنثور في التفسير بالمأثور مطبوع في ستة مجلدات . وكان جلال الدين المحلى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٤ فسر نحو نصف القرآن من أول سورة الكهف إلى آخره فأكمل تفسيره جلال الدين السيوطي من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء ، وتفسيرهما مطبوع في جزئين بأسم تفسير الجلالين . ويدخل زمن العثمانيين ، وأهم المفسرين فيه شمس الدين الخطيب^(٤) الشريفي المتوفى سنة ٩٧٧ وله تفسير مطبوع يسمى السراج المنير .

وتنوع مصر بحفاظ الحديث النبوي منذ نزولها الصحابة وفي مقدمتهم أبو ذر الذي سكنها مدة وعقبة بن عامر الجهني وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وظل يتزلفا كثير من حفاظ التابعين وفي مقدمتهم نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب والأعرج عبد الرحمن بن هرمز صاحب أبي هريرة ويزيد بن أبي حبيب . وكثر حفاظ الحديث ورواته في القرن الثاني الهجري ، ومن أهمهم أبو زرعة

(١) انظر ابن النقيب في طبقات المفسرين ص ٣٢
 وشرحات الذهب ٤٤٢/٥ وفوات الوفيات ٤٣٠/٢ .
 (٢) انظر في العلم العراقي حسن الحاضرة ٤٢١/١
 ونكت الهيدان ص ١٩٥ والدرر الكاشفة ١٣/٣ .
 (٣) راجع الديري في حسن الحاضرة ٤٢١/١
 (٤) راجع في الخطيب الشريفي فترات اللعب
 ٣٨٤/٨ .

المتوفى سنة ١٥٨ وابن لمبة المتوفى سنة ١٧٤ والليث بن سعد الفقيه المشهور ، وعبد الله^(١) بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم تلميذا مالك والإمام الشافعي وتلاميذه : أبو يعلى وحرمله والمزني والربيع . ومن كبار الحفاظ حينئذ أسد السنة المتوفى سنة ٢١٢ وأحمد بن صالح المتوفى سنة ٢٤٨ والحارث بن مسكين المتوفى سنة ٢٥٠ ويونس بن عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٤ ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ . ولاشهر مصر بحفاظ الحديث نزها في طلبه من أصحاب الصحاح الستة البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائي وقد اتخذها دار مقام له حتى توفي سنة ٣٠٣ ومن مصنفاته : السنن الكبرى والصغرى وهي إحدى الصحاح الستة ، وله مسند على مسند مالك . ويلقبنا الطحاوي الفقيه الحنفى وله في الحديث كتاب السنن ومعاني الآثار ومشكل الآثار ، وابن حنابلة وزير كافور المتوفى سنة ٣٩١ وكان له مجلس لإملاء الحديث في وزارته ، وسمع الدارقطني حافظ العراق في زمنه وصاحب كتاب السنن الكبرى وغيره المتوفى سنة ٣٨٥ أنه يؤلف مسنداً فجاء مصر ليعينه ، تمول ، وكان فيها يروى الحديث ويعلمه ، ويأخذه عن حفاظه المصريين ويأخذه المصريون عنه . ومن أهم تلاميذه بمصر عبد^(٢) الغنى بن سعيد الحافظ المتوفى سنة ٤٠٩ وله في الحديث المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال وكتاب مشبه النسبة . وأشهر المحدثين بمصر في القرن الخامس تلميذه الحبال^(٣) الإمام الحافظ المتوفى سنة ٤٨٢ وله مصنفات مختلفة ، وجمع عوالي سفيان بن عيينة .

ويتزل الإسكندرية سنة ٥٢١ السلفي^(٤) أكبر الحفاظ في القرن السادس الهجري ، وقد قصده طلاب الحديث النبوي من كل فج ، على نحو ما يصور ذلك معجمه ، وهو مطبوع ، وبنى له العادل بن السلار وزير الظاهر الفاطمي مدرسة سنة ٥٤٦ . كما مربنا ، وفوض أمرها إليه ، وسمع عليه الحديث صلاح الدين الأيوبي حين صارت مصر إليه وبعض أبنائه وأهل بيته ، وظلت إليه

. ١٨٨/٢

(٣) راجع في الحبال حسن الحاضرة ١/٣٥٣ .

(٤) انظر في السلفي طبقات القسرين للسيوطي ص ٥٦

وطبقات الحفاظ له ٢/٣٩ وابن خلكان ١/١٠٥ وتذكرة

الحفاظ وأزهار الرياض ٣/١٦٧ - ٢٨٣ وتعليق ابن

حساكر ١/٤٤٩ والسيكي ٦/٣٢ والأسباب ٣٠٢

وشلوات اللهب ٤/٢٥٥ وطبقات القراء ١/١٠٢

وميزان الاعتدال ١/١٥٥ .

(١) هو من أوائل من جمعوا الحديث بمصر ، وقد عثر

على كتابه أخيراً في ورق بردى بمكتبة إدفو في جنوبي مصر

واسم الجامع في الحديث ، وهو مكتوب في القرن الثالث

الهجري ، وقد نشر هذا الكتاب في المعهد الفرنسي

بالقاهرة . وانظر في ابن وهب حسن الحاضرة ١/٣٠٢ ،

٣٤٦ والدياج للذهب ١٨٧ وتعليق التليبي ١٠/٣٧٢

وميزان الاعتدال للذهبي ٢/٨٦ وروكان ٣/١٥٥ .

(٢) انظر في عبد الغنى للمنظم ٧/٢٩٠ وابن خلكان

٢٢٣/٣ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٥٠ وشلوات اللهب

الرحلة في الحديث حتى توفي سنة ٥٧٦ هـ . ومن أهم تلاميذه أبو الحسن علي ^(١) بن المفضل المالكي المقدسي ثم السكندري المتوفى سنة ٦١١ تولى القضاء بالإسكندرية ودرّس بمدرسة ابن شكر في القاهرة ، وله كتاب الأربعين ، وهو أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً .

ونزل مصر الحافظ ابن دحية الأندلسي واستوطنها وتولى بها دار الحديث ^(٢) الكاملية حتى توفي في سنة ٦٣٣ هـ . وولى مشيخة هذه الدار بعده زكي الدين المنري الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام عبد ^(٣) العظيم بن عبد القوى المصري الشافعي المتوفى سنة ٦٥٦ يقول السيوطي إنه انقطع لمشيخة المدرسة الكاملية عشرين سنة ، وكان عديم النظير في معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه متبحراً في معرفة أحكامه ومعانيه ومشكله كيما بمعرفة غريبه ، إماما حجة بارعا في الفقه والعربية والقراءات . وله كتاب الترغيب والترهيب وهو أحاديث مرتبة حسب الموضوعات للترغيب في الخير والحق والترهيب من الشر والباطل ، طبع مرارا . وله في الفقه شرح على كتاب التنبيه . وأهم تلاميذه الديلماطي ^(٤) شرف الدين عبد المؤمن بن خلف المتوفى سنة ٧٠٥ لازم الحافظ المنري واتخذه معيدا له ، وقد ولى مشيخة الظاهرية ودرّس الحديث في المدرسة المنصورية : مدرسة المنصور قلاوون ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بكثير من مصنفاته في الحديث .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن عز الدين بن ^(٥) جماعة الشافعي المتوفى سنة ٧٦٧ ولى القضاء ، واشتهر بكثرة من سماع الحديث ودرس في المدرسة الخشابية ، صنّف تخريج أحاديث الإمام الرافعي الشافعي وغير ذلك . ويعني بشرح البخاري غير حافظ في هذا القرن ويكثر التأليف في الحديث ومصطلحه على نحو ما يلقانا عند مغلطاي ^(٦) المتوفى سنة ٧٦٢ يقول السيوطي له أكثر

وطبقات الحفاظ ٦٥/٢ والسبكي ١٠٢/١٠ وطبقات القراء ٤٧٢/١ وتذكرة الحفاظ ٢٦٨/٤ والدرر الكاشنة ٣٠/٣ وفوات الوفيات ٣٧/٢ والبدية والنهاية ٤٠/١٤ والبدور الطالع ٤٠٣/١ .

(٥) انظر في ابن جماعة حسن المحاضرة ٣٥٩/١ وشذرات الذهب ٢٠٨/٦ والسبكي ٧٩/١٠ والدرر الكاشنة ٤٨٩/٢ .

(٦) راجع في مغلطاي حسن المحاضرة ٣٥٩/١ والدرر الكاشنة ١٢٢/٥ .

(١) راجع في ابن المفضل حسن المحاضرة ٣٥٤/١ وشذرات الذهب ٤٧/٥ .

(٢) ذكر السيوطي في حسن المحاضرة ٢٦٢/٢ ثبتا بن تولاوا هذه الدار من كبار المحدثين .

(٣) انظر في عبد العظيم طبقات الحفاظ للسيوطي ٥٩/٢ والسبكي ٣٥٩/٨ وحسن المحاضرة ٣٥٥/١ وشذرات الذهب ٢٧٧/٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢٢٨/٤ وفوات الوفيات ٦١٠/١ .

(٤) راجع في الحافظ الديلماطي حسن المحاضرة ٣٥٧/١

من مائة تصنيف كشرح البخارى وشرح ابن ماجة ، وولى مشيخة الظاهرية للمحدثين . ويلقانا بعده الحافظ ^(١) العراقى المولود بالقاهرة والمتوفى بها سنة ٨٠٦ وله فى الحديث مصنفات مختلفة ، منها منظومة فى ألف بيت اشتهرت مع شرحها فى الآفاق ، ومنها تخريج أحاديث كتاب الإحياء للغزالي . وأهم تلاميذه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ يقول السيوطى عنه : « انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأسرها ، فلم يكن فى عصره حافظ سواء ، وألف كتباً كثيرة » مثل فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ، وهو مطبوع ، وله غير كتاب فى تراجم المحدثين . وأهم الحفاظ بعده السيوطى ، وله شروح على الموطأ لمالك وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وابن ماجة إلى شروح أخرى كثيرة وإلى كتب فى الحديث ومصطلحه وتخرجاته تعد بالعشرات ^(٢) . من أهمها جمع الجوامع وهو دائرة معارف كبرى فى الحديث مع رواياته وأسانيده . ومربنا فى القراء ذكر معاصره شهاب الدين القسطلانى وله إرشاد السارى إلى صحيح البخارى ، وهو مطبوع . وتلقى فى أيام العثمانيين بعبد الرؤوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله « كنوز الحفاظ فى حديث خير الخلائق » وهو معجم يشتمل على عشرة آلاف حديث اختارها من أربعة وأربعين كتاباً ، وهو مطبوع مراراً . ويعوج كتاب تاريخ الجبرى بأسماء حفاظ الحديث وتلاميذهم وما كانوا يحملون من كتبه ، ونكتفى بذكر أحد أعلامهم ، وهو الحنفى محمد بن سالم المتوفى سنة ١١٨١ فقد ذكر الجبرى أنه كان من جلة شيوخه الشيخ محمد البديرى الدمياطى ، يقول : « أخذ عنه التفسير والحديث والمستندات والمسلسلات والإحياء للإمام الغزالي وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجة وكتاب الموطأ لمالك ومستند الشافعى والمعجم الكبير للطبرانى والمعجم الأوسط والصغير له أيضاً وصحيح ابن حبان والمستدرک للنيسابورى وحلية الأولياء للحافظ أبى نعم وغير ذلك ^(٣) » . ولعل فى هذا ما يدل بوضوح على نشاط مصر فى دراسة الحديث النبوى وروايته حتى نهاية هذا العصر ، فقد ظلّ حفاظه النابهون يُعَيِّنُون بالعشرات .

وكان لمصر نشاط خصب فى الفقه ، ومعروف أن أقدم المذاهب فى النشأة المذهب الحنفى ، وتبعه المذهب المالكى فالمذهب الشافعى فالمذهب الحنبلى ، وتأخرت مصر فى التعرف على مذهب

(١) انظر فى العراقى الضياء اللامع للسخاوى ٤ رقم ٥٠٢

وحسن المحاضرة ١/ ٣٦٠ والفتاوى ٧/ ٥٥ .

(٢) انظر فى مؤلفات السيوطى فى الحديث كتابه حسن

المحاضرة ١/ ٣٤٠ .

(٣) تاريخ الجبرى ١/ ٢٨٩ .

أبي حنيفة ، إلى أن نزلها بعض قضاة بغداد الأحناف عملاً بقرار أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة ، وكان مقرَّباً لهارون الرشيد : أن يكون القضاء في الدولة العباسية أحنافاً . وأهم هؤلاء القضاة الأحناف بكار^(١) بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر لعهد المتوكل سنة ٢٤٦ وظل بها حتى وفاته سنة ٢٧٠ وله تصانيف فقهية مختلفة . ولم تلبث مصر أن أنجبت إماماً حنفياً كبيراً هو الطحاوي^(٢) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المتوفى سنة ٣٢١ وإليه انتهت رئاسة الحنفية بمصر ، وكتبه تُعدّ مراجع أساسية في المذهب الحنفي ، ومن أهمها الجامع الكبير في الشروط وكتاب اختلاف الفقهاء والمختصر في الفقه وله شروح كثيرة ورسالة في أصول الدين أو عقيدة أهل السنة والجماعة . وذكرنا آنفاً أن له في الحديث كتاب السنن ومعاني الآثار ومشكل الآثار . ومن أهم تلاميذه إسحق^(٣) بن إبراهيم الشافعي السمرقندي المتوفى سنة ٣٢٥ وقد استوطن مصر ، وتولى القضاء بها . ويذكر السيوطي من فقهاء المذهب زمن الفاطميين عبد المعطى^(٤) بن مسافر الذي فقه المذهب بموطنه في الإسكندرية على يد أبي بكر محمد بن إبراهيم الرازي ، وكان ابن مسافر من حملة الحديث النبوي ، ومنه سمع السلفي حين نزل الإسكندرية .

ويأخذ المذهب في النشاط بمصر منذ أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة السيوفية لتدريسه . وقد عين بها عبد^(٥) الله الجريري وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٤ . وخلفه فيها - على ما يبدو - عبد^(٦) الوهاب بن النحاس الحنفي المعروف بالدر بن الجمن ، وقد ظل يدرس بالسيوفية حتى توفي سنة ٥٩٩ . ومن درسوا المذهب الحنفي بها أبو الحسن^(٧) الغزنوي المتوفى سنة ٦٣٢ . ومن كبار فقهاء الأحناف في العهد الأيوبي يحيى بن معطى المغربي المتوفى سنة ٦٢٨ وأبو^(٨) القاسم القوصي المتوفى سنة ٦٤٣ . وينشط المذهب الحنفي بمصر منذ زمن الماليك إذ جعل الظاهر يدرس القضاء شركة بين أصحاب المذاهب الأربعة : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، فكان لكل مذهب

(٤) راجع في ابن مسافر حسن المحاضرة ١/ ٤٦٤ والجواهر المصنفة ١/ ٣٣٠ .

(٥) انظر في الجريري حسن المحاضرة ١/ ٤٦٤ .

(٦) راجع في ابن النحاس حسن المحاضرة ١/ ٤٦٤ وشذرات الذهب ٤/ ٣٤١ .

(٧) انظر في الغزنوي حسن المحاضرة ١/ ٤٦٥ والجواهر المصنفة ١/ ٣٥٢ .

(٨) انظر القوصي في حسن المحاضرة ١/ ٤٦٥ والجواهر المصنفة ١/ ٣٠٤ .

(١) انظر في بكار حسن المحاضرة ١/ ٤٦٣ وابن خلكان

١/ ٢٧٩ والجواهر المصنفة في طبقات الحنفية ١/ ١٦٨

وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطولونا ص ١٩ .

(٢) راجع في الطحاوي تهذيب ابن حاكم ٢/ ٥٤

وللتنظيم ٦/ ٢٥٠ وحسن المحاضرة ١/ ٣٥٠ وابن خلكان

١/ ٧١ وطبقات القراء ١/ ١١٦ والجواهر المصنفة

١/ ١٠٢ وتاج التراجم ص ٨ والشذرات ٢/ ٢٨٨ .

(٣) انظر في إسحق الجواهر المصنفة ١/ ١٣٩ والقوائد

البية ٢٢ .

قاضيه ، وأيضا فإنه جعل للحنفية نصيبا في مدرسته الظاهرية وأول حتى درّس المذهب بها لأيامه عبد الرحمن بن عمر بن العديم المتوفى سنة ٦٧٧ . ومن درس المذهب بالسيفية لؤلؤ^(١) بن أحمد وأبو بكر^(٢) بن محمد الإسوي . ومن قضاتهم النعمان^(٣) بن الحسن المتوفى سنة ٦٩٢ وعلى بن نصر المتوفى سنة ٦٩٥ وله كتاب زوائد الهداية على القدوري . ويَحْتَمُّ القرن السابع بآبن القتيب الذي مر ذكره بين المفسرين . ومن فقهاء القرن الثامن النابيهن أحمد^(٤) بن إبراهيم السروجي المدرس بالسيفية المتوفى سنة ٧١٠ وقد ولي القضاء ، وله شرح في كتاب الهداية . للمرغيناني . وابن^(٥) يلبان المتوفى سنة ٧٣١ وله شرح على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ورتب صحيح ابن حبان على الأبواب وكذلك معجم الطبراني . وكان يعاصره ابن^(٦) التركاني المتوفى سنة ٧٣١ وكان يدرس المذهب بمدرسة المنصور قلاوون ، وألقى بها شرحا له على الجامع الكبير أملاه دروسا على الطلاب . وأنجب قتيبين : أحمد^(٧) المتوفى سنة ٧٤٤ ومن تصانيفه شرح الهداية وشرح الجامع الكبير . وعلى^(٨) المتوفى سنة ٧٤٥ وله مختصر الهداية ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وتولى قضاء الديار المصرية . وكان يعاصرها فخر الدين الزيلعي^(٩) المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح على كتاب كثر الدقائق في الفروع للحافظ النسفي سماه تبين الحقائق على كثر الدقائق طبع بمصر في ستة أجزاء . ويلقبانا السراج^(١٠) الهندي قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٧٣ وله شرح الهداية والشامل في الفروع وشرح البديع ، وكان يعاصره ابن^(١١) أبي الوفا عبد القادر بن محمد المتوفى سنة ٧٧٥ وهو صاحب كتاب الجواهر المضية في طبقات الحنفية

(٧) راجع أحمد في حسن المحاضرة ١/ ٤٦٩ والجواهر المضية ١/ ٧٧ .

(٨) انظر في علي حسن المحاضرة ١/ ٤٦٩ والجواهر للمضية ١/ ٣٦٦ .

(٩) راجع في الزيلعي حسن المحاضرة ١/ ٤٧٠ والجواهر المضية ١/ ٣٤٥ والدرر الكامنة ٣/ ٦١ .

(١٠) انظر في السراج حسن المحاضرة ١/ ٤٧٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٣/ ٢٣٠ والقوائد البية ١٤٩ وإنباء الفهر ١/ ٢٧ .

(١١) راجع في ابن أبي الوفا حسن المحاضرة ١/ ٤٧١ والدرر الكامنة ٣/ ٦١ والقوائد البية ٩٩ وإنباء الفهر ١/ ٦٦ .

(١) انظر في لؤلؤ حسن المحاضرة ١/ ٤٦٦ والجواهر المضية ١/ ٤١٦ .

(٢) انظر في أبي بكر حسن المحاضرة ١/ ٤٦٧ .

(٣) راجع في النعمان حسن المحاضرة ١/ ٤٦٧ والجواهر المضية ٢/ ٢٠١ .

(٤) انظر في السروجي حسن المحاضرة ١/ ٤٦٨ والجواهر المضية ١/ ٥٣ وتاج التراجم ص ١١ .

(٥) راجع في ابن يلبان حسن المحاضرة ١/ ٤٦٨ والجواهر للمضية ١/ ٣٥٤ وتاج التراجم ص ٤٣ ،

(٦) انظر في ابن التركاني حسن المحاضرة ١/ ٤٦٩ والجواهر للمضية ١/ ٣٤٥ وتاج التراجم ص ٤٠ والدرر الكامنة ٣/ ٤٩ .

المثبت في الموامش . و نلتقى بأكمل^(١) الدين الباري المتوفى سنة ٧٨٦ وله شروح كثيرة على أمهات كتب الفقه الحنفي منها شرح الهداية وشرح البزدوى .

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يعدد فقهاء الحنفية وقضاتهم بالديار المصرية ، حتى نصل ، إلى^(٢) ابن المصام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٨٦١ وله مصنفات مختلفة في مذهبه أهمها فتح القدير ، وهو شرح على كتاب الهداية للمرغيناني ، طبع بمصر في ثمانية أجزاء . و نلتقى بالقاسم^(٣) بن قطولوبا المتوفى سنة ٨٧٩ وهو صاحب كتاب تاج التراجم في طبقات الحنفية المذكور في الموامش وله مصنفات فقهية مختلفة . ونغصى إلى زمن العثمانيين . وينشط منذ هذا التاريخ بمصر الفقه الحنفي وأصحابه ، إذ كان القضاء في الدولة العثمانية للأحناف وحدهم . ومن كبار فقهاء الأحناف في أيامهم زين العابدين^(٤) بن نجم المصري المتوفى سنة ٩٧٠ وله كتاب الأشباه والنظائر في الفقه الحنفي ، وهو مطبوع ، وكتاب البحر الرائق على كثر الدقائق وهو مطبوع أيضا في عدة أجزاء . ومنهم شمس الدين التمرناشي الغزي المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٤ وله في الفقه الحنفي تنوير الأبصار وجامع البحار . ومنهم أبو الإخلاص الشرنبلالي المتوفى سنة ١٠٦٩ وهو من علماء الأزهر ، وله مصنفات مختلفة في فقه الأحناف لا تزال مخطوطة ومحفوظة بدار الكتب المصرية . ومنهم السيد أحمد الحموي وله تصانيف عدة ، منها شرح الكتر وحاشية الدرر والغرر ، توفي سنة ١١٤٢ . ويحصى الجبتي في تاريخه أسماء كثيرين منهم إلى نهاية الأيام العثمانية .

وكان انتشار المذهب المالكي في مصر مبكراً ، وكان بعاصر مالكا فقيه مصري كبير هو الليث^(٥) بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ وفيه يقول الشافعي : « الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » يريد أن أصحابه وتلاميذه المصريين لم يحملوا عنه مذهبه . ولو أنهم حملوه

(٤) انظر في ابن نجم خلاصة الأثر للمحبي ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) راجع في الليث تاريخ بغداد ٣/ ١٣ وابن خلكان

٤/ ١٢٧ والنجوم الزاهرة ٢/ ٨٢ وصفة الصفوة ٤/ ٢٨١

وتذكرة الحفاظ ٢٢٥ وميزان الاعتصاف ٣/ ٤٢٣ وتبليغ

التبليغ ٨/ ٤٥٩ وعبر الذهبي ١/ ٢٦٦ .

(١) انظر في الباري حسن المحاضرة ١/ ٤٧١ والفوائد البلية ١٩٥ وإبواب الشعر ١/ ٢٩٨ .

(٢) انظر في ابن المصام الفصول الأربعة ٨ رقم ٣٠١

والشعرات ٧/ ٢٩٨ والبرق الطالع ٢/ ٢٠١ وحسن

المحاضرة ١/ ٤٧٤ .

(٣) راجع في ابن قطولوبا الفصول الأربعة ٦/ ٦٣٥

والشعرات ٨/ ٣٢٦ والبرق الطالع ٢/ ٤٥ .

لأصبح مذهبا مستقلاً بجانب المذاهب الأربعة ، غير أنهم آثروا عليه مذهب مالك إمام المدينة (دار الهجرة) . وكان من أهم تلاميذ مالك الذين حملوا مذهبه عنه عبد الله بن وهب أ جامع أول كتاب بمصر في الحديث كما مر بنا آنفاً ، وعبد^(١) الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وقد فرغ على أصول مذهبه فروعا كثيرة سجلها في مؤلفه المشهور باسم المدونة ، وعنه حملها سحنون القيرواني إلى تونس موطنه ، ونشر المذهب المالكي هناك ولا يزال غالبا على بلاد المغرب إلى اليوم . ومن تلمذ عليه وعلى عبد الله بن وهب يحيى بن يحيى اللبكي ناشر مذهب مالك في الأندلس ، وكان قد حضر دروس مالك في كتابه الموطأ وتفقه بهذين المصريين^(٢) ثم عاد إلى موطنه ينشر المذهب حتى غلب على أهل الأندلس كما غلب على أهل المغرب . ومن كبار تلاميذ مالك المصريين أيضا عبد^(٣) الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ وإليه أفضت رئاسة المالكية في مصر بعد ابن القاسم وابن وهب ، وخلفه على رياسته ابنه محمد^(٤) المتوفى سنة ٢٦٨ . وكان يعاصره الحارث^(٥) بن مسكين ، وقد حمله المأمون إلى بغداد في أيام محنة خلق القرآن ، وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلق الله ، ورد إليه حرته المتوكل وولاه قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وظل يتولى قضاءها ثمان سنوات ، وتوفى سنة ٢٥٠ . ويعد السيوطي في حسن المحاضرة من تلامذة ابن وهب وابن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم خمسة عشر فقها مالكيًا مشهورًا بمصر . ومن تلقى به في أوائل القرن الرابع أحمد^(٦) بن الحارث بن مسكين ، جلس مجلس أبيه بعده بجامعة عمرو بدرس للناس الفقه المالكي حتى توفى سنة ٣١١ . وكثير من الفقهاء حيث نشأ بنسبون إلى الإسكندرية والصعيد ، إذ كان المذهب متشعرا بهما . ومن فقهاء الإسكندرية أبو الحسن^(٧) المعافري قاضيا

للمذهب ٢٣١ والسبكي ٦٧/٢ والوفائي بالوفيات ٣٣٨/٣ والشلوات ١٥٤/٢ وميزان الاعتدال ٦١١/٣ .

(٥) انظر في الحارث ربيع الأبرار من قضاء مصر ١٦٧/١ والسبكي ١١٣/٢ وتذكرة الحفاظ ٥١٤ وتاريخ بغداد ٢١٦/٨ وابن خلكان ٥٦/٢ .

(٦) راجع أحمد في حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والنيح المذهب ٣٧ .

(٧) انظر في المعافري حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والتبر ٢٥٠/٧ .

(١) انظر في ابن القاسم النيج المذهب ١٤٦ وابن خلكان ١٢٩/٣ وتذكرة الحفاظ ٣٥٦ والتذهيب لابن حجر ٢٥٢/٦ والشلوات ٣٢٩/١ وحسن المحاضرة ٣٠٣/١ .

(٢) للغرب لابن سعيد (نشر دار المعارف) ١٦٣/١ .
(٣) انظر في عبد الله بن عبد الحكم حسن المحاضرة ٣٠٥/١ والنيح للمذهب ٩٨ وغيره المذهب ٣٦٦/١ وابن خلكان ٣٤/٣ وتذهيب التذهيب ٢٨٩/٥ والشلوات ٣٤/٢ .

(٤) راجع في محمد حسن المحاضرة ٣٠٩/١ والنيح

المتوفى سنة ٣٣٩ وكان يعاصره أبو الذكر^(١) الأسواني قاضي مصر المتوفى سنة ٣٤٠. ونمضى إلى زمن الفاطميين، وقد عدَّ السيوطي من الفقهاء المالكيين لعهدهم ستة عشر فقيها، منهم أبو^(٢) بكر النعالي إمام المالكية بمصر في وقته. وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر، وكانت حلفته في الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها. توفي سنة ٣٨٠. ومنهم أبو القاسم^(٣) الجوهري المتوفى سنة ٣٨١ مصنف مسند الموطأ لإمام المذهب مالك. ونزل بالقاهرة القاضي عبد^(٤) الوهاب فقيه بغداد المالكي وكان شاعراً بارعاً، ويقال إنه يوم فصل عن بلده شيعه من أكابرها وأصحاب محابرها جملة وافرة وأنه قال لهم: لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت بيلدكم بلوغ أمنية، واجتاز بمجرة النعمان بلدة أبي العلاء فأضافه، وله في الإشادة بفقهه وبشعره:

إذا تفقَّه أحبا مالكا جدلا ويشرُّ الملك الضَّليل إن شعرا

والملك الضليل: امرؤ القيس. وتوجه إلى مصر فحمل لواء المالكية بها وانتالت في يديه الرغائب. ولم يلبث أن ألم به مرض الموت سنة ٤٢٢ فكان يقول - كما مر بنا - لا إله إلا الله عندما عشنا متنا. ومن كبار فقهاء المالكية حيثنَّ أبو^(٥) بكر الطرطوشي نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ واشتهر بكتابين له في السياسة ألفها أو ألف أحدهما لوزير الفاطميين المأمون البطائني هما سراج الملوك وسراج الهدى. ومن تلاميذه سند^(٦) بن عنان الأزدي المتوفى سنة ٥٤١ خلفه في حلفته وانتفع به الناس وله شرح المدونة. وكان يعاصره أبو القاسم^(٧) بن مخلوف الإسكندري أحد الأئمة الكبار من المالكية، تفقه به أهل النثر زمانا.

ونمضى إلى زمن الدولة الأيوبية، ويلقانا صدر الإسلام أبو الطاهر^(٨) إسماعيل بن مكى تلميذ الطرطوشي المتوفى سنة ٥٨١ وقد طارت شهرته في المذهب، وقصده صلاح الدين الأيوبي وسمع

- | | |
|---|--|
| (١) راجع في أبي الذكر حسن الحاضرة ٤٤٩/١ | (٥) راجع في الطرطوشي حسن الحاضرة ٤٥٢/١ |
| والطالع السعيد للأدوني ٣٦٤. | والصلة لابن بشكوال: ٥٤٥ وللغرب ٢٤٢/٢ وابن |
| (٢) انظر في النعالي حسن الحاضرة ٤٥٠/١ والديباج | خطكان ٢٦٢/٤ والعبر ٤٨/٤ وأزهار الرياض |
| للمذهب ٢٥٨. | ١٦٢/٣. |
| (٣) راجع في الجوهري حسن الحاضرة ٤٥١/١ والعبر | (٦) انظر في سند حسن الحاضرة ٤٥٢/١ والديباج |
| ١٧/٣. | للمذهب ١٦٦. |
| (٤) انظر في عبد الوهاب حسن الحاضرة ٣١٤/١ والعبر | (٧) راجع في ابن مخلوف حسن الحاضرة ٤٥٣/١. |
| ١٤٩/٣ وابن خطكان ٢١٩/٣ والديباج للمذهب ولغات | (٨) انظر في أبي الطاهر حسن الحاضرة ٤٥٢/١ |
| الوقيات ٤٤/٢ والشرحات ٢٢٣/٣. | والديباج للمذهب ٩٥. |

منه الموطأ ، وله مصنفات ، قال فيه ابن فرحون : كان إمام عصره في المذهب وعليه مدار الفتوى . ومُرِّبنا أن صلاح الدين أنشأ مدرسة للمالكية هي المدرسة القمحية ، وتبعه ابن شكر ووزير أخيه العادل ، فأنشأ لهم مدرسة ثانية هي المدرسة الصاحبية ، وأنشأ لهم وللشافعية القاضي الفاضل مدرسة مشتركة هي المدرسة الفاضلية ، وجعل الصالح أيوب مدرسته للمذاهب الأربعة . وأتاح ذلك كله للفقه المالكي بمصر نشاطا واسعا منذ زمن الأيوبيين ، ومن كبار فقهاء حيثئذ ابن شاس^(١) عبد الله بن محمد شيخ المالكية وصاحب كتاب الجواهر المينة في المذهب ، درس بالمدرسة القمحية ، استشهد مجاهدًا القرنج بدمياط حين حاصروها سنة ٦١٦ - ٦١٨ . ومن مدرسي هذه المدرسة الحسين^(٢) بن عتيق ابن رشيق شيخ المالكية وصاحب الفتا في وقته ، توفي سنة ٦٣٢ . واشتهر بالإسكندرية من فقهاء المالكية ابن الصفراوي الذي مر ذكره بين القراء . ومن كبار فقهاء المذهب ابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة ، وله مختصر الفروع في الفقه المالكي اعتمد فيه على جواهر الفقيه ابن شاس وأضاف إليه زيادات من كتب مختلفة ، وله شروح لا تزال مخطوطة ومحفظة بدور الكتب . وكان يعاصره رفيقه عبد الكريم^(٣) بن عطاء الله الإسكندراني ، كان إماما في الفقه والأصول والعربية ، ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل . ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل .

ونمضى في زمن الماليك ، وولتق بابي حفص عمر^(٤) بن عبد الله السبكي المتوفى سنة ٦٦٩ وهو أول من ولي قضاء المالكية حين جعل الظاهر بيبرس من كل مذهب قاضيا . وولى قضاء المالكية بعده نفيس^(٥) الدين محمد بن هبة الله بن شكر المتوفى سنة ٦٨٠ . وكان يعاصره القرافي^(٦) شهاب الدين أحمد بن إدريس المتوفى سنة ٦٨٢ ولى التدريس في مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المعروفة بالصاحبية وقد صنف في الفقه المالكي وفي الأصول الكتب المفيدة مثل الذخيرة في مذهب مالك وكتاب الفروق في الفقه المالكي وهو مطبوع . وكان يعاصره هو ونفيس الدين ابن

(٤) راجع في عمر السبكي حسن المحاضرة ١/ ٤٥٧ والديباج للمذهب ١٥٩ .

(٥) انظر في نفيس الدين حسن المحاضرة ١/ ٤٥٨ .

(٦) راجع في القرافي حسن المحاضرة ١/ ٣١٦ والديباج للمذهب ٦٢ وللنبل الصافي لابن تغري بردي (طبع دار الكتب) ١/ ٢١٥ .

(١) انظر في ابن شاس البغاية والنهاية ١٣/ ٨٦ وحسن المحاضرة ١/ ٤٥٤ .

(٢) راجع في ابن عتيق حسن المحاضرة ١/ ٤٥٥ والديباج للمذهب ١٠٥ .

(٣) انظر في عبد الكريم حسن المحاضرة ١/ ٤٥٦ والديباج للمذهب ١٦٧ .

المير أحمد بن محمد قاضي الإسكندرية الذي مر ذكره بين المفسرين ، وكان إماماً فاضلاً متبحراً ، وله في الفقه مختصر التهذيب .

ويلقانا في القرن الثامن تاج^(١) الدين بن عطاء الله الإسكندري المتصوف المشهور المتوفى سنة ٧٠٩ وله في الفقه تهذيب المدونة غير كتب كثيرة في التصوف . وكان يعاصره قاضي القضاة علي^(٢) بن مخلوف النويري المتوفى سنة ٧١٣ وله قضاء الديار المصرية ثلاثاً وثلاثين سنة . ومن كبار فقهاء المالكية ابن^(٣) الحاج محمد بن محمد العبدري المتوفى سنة ٧٣٧ وله كتاب المدخل وهو كتاب نفيس في أربعة أجزاء يصف فيه أحوال البلاد الخلقية والاجتماعية وما يتصل بذلك من العادات عند العامة وغيرها ، مع نقد نزيه ومع بيان للعلاج الشرعي للمآثم . وكان يعاصره الزواوي^(٤) عيسى بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٣ وإليه انتهت رئاسة المالكية ، وله مصنفات مختلفة ، منها شرح صحيح مسلم وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه وشرح المدونة ، وتاريخ ومناقب مالك . وأكثر فقهاء المالكية في القرن الثامن شهرة خليل^(٥) بن إسحق المتوفى سنة ٧٦٧ وله كتاب المختصر في الفقه المالكي ، ويعني بتدريسه المالكية منذ ظهوره وخاصة في المغرب ويعرف هناك باسم مختصر سيدي خليل . وأهم تلاميذه^(٦) بهرام بن عبد الله المتوفى سنة ٨٠٥ وله الشامل في الفقه وشرح مختصر أستاذه خليل . وتزل مصر في زمنه عبد الرحمن بن خلدون وعداده في فقهاء المغرب . وتلقى بالبساطي^(٧) محمد بن أحمد شيخ الإسلام المتوفى سنة ٨٤٢ وله القضاء ، وكانت إليه الفتيا .

ويظل لفقهاء المالكية نشاطهم في بقية زمن المماليك وفي أيام العثمانيين . ومن أعلامهم في القرن الحادي عشر أبو الإمداد برهان الدين اللقاني المتوفى سنة ١٠٤١ وله مصنفات في علمي الكلام والفقه ، وكان يعاصره نور الدين الأجهوري ، وهو من شيوخ الأزهر المالكية

(٤) راجع في الزواوي حسن المحاضرة ١/ ٥٥٩ والدرر الكانة .

(٥) انظر في خليل حسن المحاضرة ١/ ٤٦٠ والدياج للنسب ١١٧ ونيل الأبتاج ص ٩٥ والدرر الكانة ١٢٥/٢ ونفع الطيب (طبع بولاق) ١٢٠/٢ .

(٦) راجع في بهرام حسن المحاضرة ١/ ٤٦١ والفضو اللاع ٢٠/٣ .

(٧) انظر في البساطي حسن المحاضرة ١/ ٤٦٢ والفضو اللاع ٥/٧ .

(١) انظر في ابن عطاء الله حسن المحاضرة ١/ ٤٢٤ وطبقات الشعراني ١٩/٢ والسبكي ٢٣/٩ والمخطوط الجديدة لعل مبارك ٧٠/٧ والبرق الطالع ١٠٧/١ والدياج للنسب ٧٠ وفتاوى الذهب ١٩/٦ والدرر الكانة .

(٢) راجع في ابن مخلوف النويري حسن المحاضرة ١/ ٤٥٨ والدرر الكانة .

(٣) انظر في ابن الحاج حسن المحاضرة ١/ ٤٥٩ والدياج للنسب ٣٢٧ والدرر الكانة ٣٥٥/٤ .

وله مصنفات مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية . وتلقى بكبرين من فقهاء المالكية في تاريخ الجبرقي ومن أهمهم الزرقاني^(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة ١١٢٢ خاتمة المحدثين . وشرحه على موطأ مالك مشهور ، وأيضاً من أهمهم على^(٢) بن أحمد بن مكرم العلوي الصعدي إمام المحققين وعمدة المدققين المتوفى سنة ١١٨٩ يقول الجبرقي عنه : « قبل ظهوره لم تكن المالكية تعرف الحواشي على شروح كتبهم الفقهية ، فهو أول من خدم تلك الكتب بها » ويعدّد حواشيه ومن أهمها حاشية له على شرح الزرقاني على موطأ مالك .

وعلى شاكلة ازدهار مذهب مالك الفقهي بمصر كذلك كان مذهب الشافعي^(٣) مزدهراً ، بل ربما كان أكثر ازدهاراً ، إذ نزل الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ مصر ، واكمل له فيها مذهبه الفقهي . وحمله عنه تلاميذه من أبنائها ونشروه في العالم الإسلامي ، كما مربنا في غير هذا الموضوع ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة أتباعاً . ويتميز مذهبه بإحكامه التوفيق بين المذهب الحنفي مذهب أهل الرأي ، والمذهب المالكي مذهب أهل الحديث ، وهو الذي أسس علم أصول الفقه بمبحثه الرائع الذي سماه الرسالة وفيها يبحث أدلة الأحكام الدينية وما يتصل بها من طرق الاستنباط والاجتهاد . وله في الفقه مصنفه المشهور : الأم ، وهو مطبوع في القاهرة مثل الرسالة ، وعُني به فقهاء الشافعية طوال هذا العصر فاختره وشرحه مراراً ، ومنها كتاب السنن المأثورة والمسنود . وطبع له على هامش الأم كتاب اختلاف الحديث . وأهم تلاميذه بمصر البزطي والمزني ، أما البزطي فهو يوسف^(٤) بن يحيى القرشي الإمام الجليل المتوفى سنة ٢٣١ يقول السيوطي عنه : أحد أئمة الإسلام وأركانها ، كان خليفة الشافعي في حلقة بعده ، وله في الفقه المختصر المشهور الذي اختصره من كلام الشافعي ، وحُمل إلى بغداد في منة القول بخلق القرآن ، فأصر على رأيه هناك وظل سجيناً حتى توفى . والمزني^(٥) هو إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ وقد

(٤) راجع الزرقاني في تاريخ الجبرقي ٦٩/١ .

(٥) راجع ابن مكرم في تاريخ الجبرقي ١١٤/١ .

(٣) انظر الإمام الشافعي في الجزء الأول من طبقات الشافعية للسبكي وتاريخ بغداد ٥٦/٢ ومجموع الأدباء ٢٨١/١٧ وابن خلكان ١٦٣/٤ وتذكرة الحفاظ ٣٦١

(٢) انظر في القرن السبكي ٩٣/٢ والمير ٢٨/٢

وتعليب التهذيب ٢٥/٩ وصفة الصفوة ١٤٠/٢ وحلقة الأولياء ٦٣/٩ وألف كتبون في سبته ومذهبه قدما وحديثا .

(١) انظر ابن مكرم في تاريخ الجبرقي ١١٤/١ وتعليب التهذيب ٢٥/٩ وصفة الصفوة ١٤٠/٢ وحلقة الأولياء ٦٣/٩ وألف كتبون في سبته ومذهبه قدما وحديثا .

(٢) انظر ابن مكرم في تاريخ الجبرقي ١١٤/١ وتعليب التهذيب ٢٥/٩ وصفة الصفوة ١٤٠/٢ وحلقة الأولياء ٦٣/٩ وألف كتبون في سبته ومذهبه قدما وحديثا .

أخذ عنه خلافت من علماء خراسان والعراق والشام ، ومضوا فنشروا المذهب في بلدانهم ، وله في الفقه الشافعي : الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر والمشور والمسائل المعبرة وكتاب الوثائق وكتاب العقارب ، سمي بذلك لصعوبته وفي كتاب طبقات القضاة للبيهقي غرائب منه . ومن كبار فقهاء الشافعية بمصر في القرن الثالث أبو زرعة^(١) محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ ولى قضاء مصر سنة ٢٨٤ ثمانى سنين ، ثم ولى قضاء دمشق ، فأدخل فيها مذهب الشافعي وحكم به القضاة هناك ، ولم يزل القضاء بعده للشافعية بمصر والشام إلى أن ضم الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ القضاء الثلاثة من مذاهب أبي حنيفة ومالك وابن حنبل إلى الشافعية . وكان يعاصره النسائي وقد مر ذكره بين أهل الحديث ومنصور^(٢) بن إسماعيل الفقيه المتوفى سنة ٣٠٦ وله مصنفات عدة في المذهب من أهمها كتاب الهداية والواجب والمستعمل والمسافر .

ويلقانا في القرن الرابع أبو إسحق^(٣) الروزى إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٠ نزيل القسطنطينية وكانت قد انتهت إليه رئاسة المذهب في بغداد وانتشر عنه في البلاد ، وشرح مختصر المزني ، وانتقل إلى القسطنطينية وجلس في مجلس الشافعي واجتمع الناس عليه وضرخوا إليه أكباد الإبل . وكان يعاصره أبو بكر^(٤) بن الحداد محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٤ قاضى القسطنطينية ، وله كتاب الباهر في الفقه يقال إنه كان في مائة جزء ، وله أيضا كتاب جامع الفقه وكتاب الفروع الموليدات الذى شرحه كثيرون . ونغضى إلى زمن الفاطميين ، وقد أحصى السيوطى عشرة من الفقهاء في المائة سنة الأولى من أيامهم ، أهمهم القضاعى^(٥) أبو عبد الله محمد بن سلامة المتوفى سنة ٤٥٤ مصنف كتاب الشهاب ، ولى قضاء الديار المصرية وأرسل به الخليفة المستنصر إلى الروم رسولا . وأحصى السيوطى في المائة الثانية من أيام الفاطميين تسعة من فقهاء الشافعية أهمهم الحلبي^(٦) على بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ وله في الفقه كتاب المغنى بين البسط والاختصار .

١/ ٣١٣ وتذكرة الحفاظ ١٠٨/٣ والبر ٢٦٤/٢ وابن

خلكان ٤/ ١٩٧ والوفاء ٢/ ٦٩ والشرقات ٢/ ٣١٧ .

(٥) راجع في القضاة البيهقي ٤/ ١٥٠ وابن خلكان

٤/ ٢١٢ والوفاء ٣/ ١١٦ والسيوطى ١/ ٤٠٣ والشرقات

٣/ ٢٩٣ .

(٦) انظر في الحلبي البيهقي ٥/ ٢٥٣ والبر ٣/ ٣٣٤

والسيوطى ١/ ٤٠٤ والشرقات ٣/ ٣٩٨ وابن خلكان

٣/ ٣١٧ .

(١) راجع في أبي زرعة البيهقي ٣/ ١٩٦ والسيوطى

١/ ٣٩٩ والبر ٢/ ١٢٣ والشرقات ٢/ ٢٣٩ .

(٢) انظر في منصور البيهقي ٣/ ٤٧٨ والسيوطى

١/ ٤٠٠ والمغرب في حل المغرب (قسم القسطنطينية)

ص ٢٦٢ وابن خلكان ٥/ ٢٨٩ ونكت المبيان ٢٩٧

ومعجم الأدباء ١٩/ ١٨٥ وللتلخيص ٦/ ١٥٢ .

(٣) راجع في الروزى تاريخ بغداد ١١/ ١١٦ وابن خلكان

١/ ٣١٧ والسيوطى ١/ ٣١٧ .

(٤) انظر في ابن الحداد البيهقي ٣/ ٧٩ والسيوطى

وربما كان أهم منه مجل^(١) بن جميع قاضي القضاة المتوفى سنة ٥٥٠ كان من أئمة الفقهاء وكبارهم وله في الفقه مصنفات أهمها كتابه الذخائر . وكان يعاصره الفقيه الشافعي ابن رفاعة المتوفى سنة ٥٦١ . وبمجرد أن يظل مصر لواء صلاح الدين الأيوبي يؤسس مدرسة للشافعية وثانية للمالكية وثالثة للحنفية كما أسلفنا . وفُرض القضاء بمصر للشافعية ، فانتع نشاطهم ، وقد أسند صلاح الدين مدرستهم للخبزوشاني^(٢) محمد بن الموفق المتوفى سنة ٥٨٧ وله في الفقه كتاب تحقيق المحيط . ومن كبار فقهاء الشافعية في عهد الأيوبيين إبراهيم بن منصور العراقي المصري المتوفى سنة ٥٩٦ رحل إلى العراق وأقام به مدة ثم عاد إلى موطنه فعرف باسم العراقي ، وله شرح على كتاب المذهب لأبي إسحق الشيرازي أول مدرس للمدرسة النظامية ببغداد وكان شرحا كبيرا في عشرة مجلدات . وكان يعاصره عبد^(٣) الملك بن عيسى بن درباس المتوفى سنة ٦٠٥ قاضي قضاة الشافعية في عهد صلاح الدين ، وأتاب عنه أخاه عثمان^(٤) في قضاء القاهرة وله شرح على المذهب سماه الاستقصاء ، وشرح ثان على كتاب اللمع لأبي إسحق الشيرازي ، توفي سنة ٦٢٢ . وبلغنا محمد^(٥) بن عين الدولة المتوفى سنة ٦٣٩ قاضي القضاة بالقاهرة والوجه البحري ، واشتهر لزمه بأنه رد شهادة السلطان الكامل ، وقال له : أنت تحكم ولا تشهد . وأهم الفقهاء بعده في زمن الأيوبيين العز^(٦) بن عبد السلام وقد مررنا في الفصل السابق حديث عنه مع الماليك ، ولى خطابة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط والقضاء بها وبالوجه القبلي . ولما بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية فُوض تدريس الشافعية بها إليه ، وطالت أيامه إلى زمن الماليك إذ توفي سنة ٦٦٠ وله في الفقه كتاب القواعد الكبرى ومصنفات مختلفة ومربنا أن له تفسيرا وكتابا في مجاز القرآن .

وقد أحصى السيوطي من فقهاء الشافعية زمن الماليك أكثر من مائة فقيه ، لأكثرهم مصنفات

(٤) انظر في حثان السبكي ٣٣٧/٨ والسيوطي

٤٠٨/١ والشفرات ٧/٥ وابن خلكان ٢/٢٤٢ .

(٥) راجع في ابن عين الدولة السبكي ٦٣/٨ والسيوطي

٤١٢/١ والعبر ١٦٢/٥ والشفرات ٢٠٥/٥ .

(٦) انظر في العز السبكي ٢٠٩/٨ والسيوطي ٣١٤/١

والشفرات ٣٠١/٥ والعبر ٢٦٠/٥ ورسالة الجنان

١٥٣/٤ وروايات الوفيات ٥٩٤/١ والنجوم الزاهرة

٢٠٨/٧ .

(١) راجع في مجل السبكي ٢٧٧/٧ والسيوطي

٤٠٥/١ والعبر ١٤١/٤ والشفرات ١٥٧/٤ وابن

خلكان ١٥٤/٤ .

(٢) انظر في الخبزوشاني السبكي ١٤/٧ والسيوطي

٤٠٦/١ وابن خلكان ٢٣٩/٤ والعبر ٢٦٢/٤

والشفرات ٢٨٨/٤ والنجوم الزاهرة ١١٥/٦ .

(٣) راجع في ابن درباس السيوطي ٤٠٨/١ وروى

الإصر : ٣٦٧ .

وشروح على أمهات كتب الفقه الشافعي ، ومن أهمهم ابن ^(١) دقيق العبد المتوفى سنة ٧٠٢ وهو تلميذ العزيز عبد السلام وله مصنفات كثيرة في الفقه والحديث ومصطلحه . وكان يعاصره ابن الرضة أحمد ^(٢) بن محمد المتوفى سنة ٧١٠ وهو ثالث الشيخين : الرافعي القزويني والنووي الدمشقي في الاعتماد عليه في ترجيح الآراء الفقهية في مذهب الشافعي ، درس بالمدسة المعزية وتولى الحسبة ، وصنف تصنيفين عظيمين هما الكفاية في عشرين مجلدا والمطلب في ستين مجلدا . ومن كبار الفقهاء الشافعية القمولى ^(٣) أحمد بن محمد المتوفى سنة ٧٢٧ صاحب البحر المحيط في شرح الوسيط للغزالي وكتاب جوامع البحر جمع فيه فاعوى . وكان يعاصره بدر ^(٤) الدين بن جماعة قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٣٣ وله تصنيفات في فنون كثيرة . وولتقى بالزركلى ^(٥) أبي بكر بن إسماعيل المتوفى سنة ٧٤٠ وله شرح على التنبيه لأبي إسحق الشيرازي عم النفع به وشرح ثان على المناهج للنووي . وكان يعاصره سليمان ^(٦) بن جعفر الأسنوي المتوفى سنة ٧٥٦ صنف طبقات الشافعية وهو مطبوع . وولتقى بتقى ^(٧) الدين السبكي على بن عبد الكافي المتوفى في نفس السنة المذكورة تلميذ ابن الرضة وله مصنفات كثيرة في الفقه وشروح كتبه الكبرى . ومن تلاميذه ابنه بهاء الدين السبكي الذي مر ذكره بين البلاغين ، وله في الفقه شرح على كتاب الحاوى للشيخ نجم الدين القزويني المتوفى سنة ٦٦٥ . وكان يعاصره عبد ^(٨) الرحيم بن الحسن الأسنوي المتوفى سنة ٧٧٧ صاحب التصانيف السائرة ، منها المهات والجواهر وشرح المناهج والفروع وإليه انتهت رئاسة الشافعية في زمانه .

١/٤٢٥ والدرر الكامة ٣/٣٦٧ وفوات الوفيات

٢/٣٥٣ ونكت للميان ٢٣٥ ورواة الجان ٤/٢٨٧

والنجوم الزاهرة ٩/٢٩٨ .

(٥) انظر في الزركلى السيوطي ١/٤٢٦ والشفرات

١/١٢٥ .

(٦) راجع في سليمان السيوطي ١/٤٢٩ .

(٧) السبكي ترجم له ابنه بهاء الدين في طبقات الشافعية

١٠/١٣٩ وانظر في ترجمته السيوطي ١/٣٢١ والدرر

الكامة ٣/١٣٤ .

(٨) انظر في الأسنوي السيوطي ١/٤٢٩ والدرر الكامة

٢/٤٦٣ .

(١) راجع في ابن دقيق العيد السبكي ٩/٢٠٧

والسيوطي ١/٣١٧ والشفرات ٦/٥ والدرر الطالع

٢/٢٢٩ ورواة الجان ٤/٣٣٦ والوافي ٤/١٩٣ والطالع

السيد للإمامي ٣١٧ وفوات الوفيات ٢/٤٨٤ والدرر

الكامة ٤/٣١٠ وتذكرة الحفاظ ١٤٨١ .

(٢) انظر في ابن الرضة السبكي ٩/٢٤ والسيوطي

١/٣٧٠ والشفرات ٦/٢٢ ورواة الجان ٤/٢٤٩ والدرر

الطالع ١/١١٥ والدرر الكامة ١/٣٠٣ .

(٣) راجع في القمولى السبكي ٩/٣٠ والسيوطي

١/٤٢٤ والدرر الكامة ١/٣٢٤ والشفرات ٦/٧٥

والطالع السيد ١٢٥ والنجوم الزاهرة ٨/٢٧٩ .

(٤) راجع في ابن جماعة السبكي ٩/١٣٩ والسيوطي

ويلقانا ابن^(١) الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ وهو أكثر أهل زمنه تصنيفاً ، ومن تصانيفه شرح التنبية وشرح الحاوى وشرح المنهاج وشرح كتاب الصعدة وما به من أحاديث موزعة على أبواب الفقه . وتوفى بعده بعام شيخ الإسلام البلقيني^(٢) عمر بن رسلان وله في الفقه والحديث والتفسير تصانيف مختلفة ، وحمل عنه فقهه وعلمه ابنه علم الدين صالح المتوفى سنة ٨٦٨ وهو شيخ السيوطي . وكان يعاصره فقيهان هما المحلى والمتاوى وبها ختم السيوطي حديثه عن فقهاء الشافعية . وبعد السيوطي نفسه خاتمهم الحقيقى إذ توفى سنة ٩١١ كما مر بنا في الحديث عن اللغويين وله في الفقه مصنفات كثيرة منها مختصر الروضة للنووى وحاشية عليها ومختصر لكتاب التنبية وشرح عليه وكتاب الأشباه والنظائر ، واللوامع والبارق في الجوامع والفوارق ، غير رسائل كثيرة أحصاها في ترجمته لنفسه بحسن المحاضرة . ونلقى بالشيخ زكريا^(٣) الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ وله في الفقه مختصر مشهور هو المنهج وله شروح مختلفة .

ونغضى إلى زمن العثمانيين ويظل التصنيف في الفقه الشافعى ناشطاً . ومن كبار الفقهاء في القرن العاشر ابن حجر^(٤) الميشتى المتوفى سنة ٩٧٣ وله الفتاوى الميشتية طبعت بمصر في أربعة مجلدات . وكان يعاصره شمس الدين الشربى الخطيب الذى مر ذكره بين المفسرين ، وله في الفقه شرح منهاج النووى ، وهو مطبوع ، وله شرح على متن أبى شجاع ، ولسيلان البحرى حاشية عليه . ويكتظ كتاب تاريخ الجبرى بأسماء فقهاء الشافعية وأشهر أئمتهم حيثئذ الرمل^(٥) المتوفى سنة ٩٥٧ وفتاويه تكتظ بها كتب الفقه الشافعى بعده .

وظلت مصر لا تعرف المذهب الحنبلى طويلاً ، ويعلى السيوطى ذلك بأن المذهب لم يبرز خارج العراق إلا في القرن الرابع ، وكان الفاطميون بمصر وكانوا لا يهتمون بغير عقيدتهم الشيعية الغالية ، ويقال إنهم اضطهدوا في أول أمرهم المذاهب الثلاثة التى كانت قائمة بمصر ، وهى مذاهب الشافعية والمالكية والحنفية ، فتأخر ظهور المذهب الحنبلى ، وأول إمام لهم نزل مصر الحافظ عبد الغنى^(٦) الجماعيلى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ صاحب كتاب عمدة الأحكام في معالم

(٤) راجع في ابن حجر الميشتى مقدمة فتاويه والفتاوى ٣٧٠ / ٨ والنور السافر ص ٢٨٧ والبدر الطالع ١٠٩ / ١ .

(٥) انظر في الرمل الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للزنى ١١٩ / ٢ والمخطط التوفيقية (طبعة بولاق) ١١٩ / ٤ .

(٦) انظر مصادر ترجمة عبد الغنى المقدسى في قسم الشام ص ٥٨٤ .

(١) راجع في ابن الملقن السيوطى ٤٣٨ / ١ والفضو اللاع ١٠٠ / ٦ وفتاوى الذهب ٤٤ / ٧ .

(٢) انظر في البلقينى السيوطى ٣٢٩ / ١ والفضو اللاع ٦ رقم ٢٨٦ وفتاوى الذهب ٥١ / ٧ .

(٣) انظر في الشيخ زكريا الفضو اللاع ج ٣ رقم ٨٩٢ والكواكب السائرة ١٩٦ / ١ والبدر الطالع ٢٥٢ / ١ والنور

الحلال والحرام عن خير الأنام ، وله شروح كثيرة . ولزلف العمدة كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال ، وصنع له تهذيبا لمزى جبال الدين يوسف بن الزكى وأكمل التهذيب مُقْلَطَاي الذي مر ذكره . وأخذ المذهب الحنبلى يشيع في مصر منذ أنشأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحة سنة ٦٤١ إذ جعل للمذهب الحنبلى ودرسته فيها إيوانا بجانب أوأوين المذاهب الثلاثة السابقة ، ودعم ذلك الظاهر بيبرس بضم قضاء للحنابلة والمالكية والحنفية بجانب قاضى الشافعية . وتوالى اهتمام الماليك ، في تأسيس مدارسهم ، بالفقه الحنبلى وقهائه بجانب فقهاء المذاهب الثلاثة الأخرى على نحو ما مر بنا في صدر هذا الفصل . ويترجم السيوطى في حسن المحاضرة لعشرين من فقهاء المذهب وقضاته في مصر مثل نجم ^(١) الدين أحمد بن حمدان الحرانى المتوفى سنة ٦٩٥ مؤلف الرعاية الكبيرة وعمر ^(٢) بن عبدالله المقدسى قاضى الديار المصرية المتوفى سنة ٦٩٦ وموفق ^(٣) الدين عبدالله بن عبدالله الملك المقدسى قاضى الديار المصرية لنحو ثلاثين سنة توفى سنة ٧٦٩ ، وناصر ^(٤) الدين نصر الله بن أحمد الكتانى المتوفى سنة ٧٩٥ ناب عن موفق الدين في قضاء الحنابلة ثم استقل به سثا وعشرين سنة ، وعاد ^(٥) الدين الحنبلى أبو بكر بن أبى المجد المتوفى سنة ٨٥٤ صُفَّ تجريد الأولمر والنواهى من كتب الصحاح الستة ، واختصر تهذيب الكمال للمزى . ويختم السيوطى فقهاء الحنابلة زمن الماليك بأستاذه أحمد ^(٦) بن إبراهيم الكتانى الصقلانى الأصل المصرى المولد ، وفيه يقول : ولى قضاء الحنابلة بالديار المصرية ، ودرُس للحنابلة بغالب مدارس القاهرة ، وله تعاليق وتصانيف ومسودات كثيرة في الفقه وأصوله والحديث والعربية ، ومنها مختصر كتاب المحرر للرافعى توفى سنة ٨٧٦ . وبطل الفقه الحنبلى ناشطا بمصر زمن العثمانيين ، وفى كتاب تاريخ الجبرتي أسماء كثيرين من فقهاء الحنابلة ومن أكبر أئمتهم مرعى ^(٧) بن يوسف المتوفى سنة ١٠٣٣ وله مؤلفات كثيرة في المذهب ، منها غاية المنتهى . ويبدو أن المذهب الظاهرى ظل معروفا بمصر وظل علماء يعنون به ويتدارسونه ، ونلتقى في كتب التراجم من حين إلى آخر

١/٣٤٣ والدرر الكامنة ٥/١٦٣ وإنباء القعر ١/٤٦٦ .

(٥) راجع في عماد الدين السيوطى ١/٤٨٢ والضوء

اللامع ١١/٦٦ والشرقات ٧/٤٢ .

(٦) انظر في الكتانى السيوطى ١/٤٨٤ والضوء اللامع

١/٢٠٥ والشرقات ٧/٣٢١ .

(٧) خلاصة الأثر ٤/٣٥٨ .

(١) انظر في نجم الدين السيوطى ١/٤٨٠ والشرقات

٥/٤٢٨ والنيل الصافي ١/٢٧٢ .

(٢) انظر في صهر المقدسى السيوطى ١/٤٨٠ والشرقات

٥/٤٣٦ والنجوم الزاهرة ٨/١١١ .

(٣) راجع في موفق الدين السيوطى ١/٤٨١ والشرقات

٦/٢١٥ .

(٤) انظر في ناصر الدين السيوطى ١/٤٨١ والشرقات

بأسماء من كانوا يعتقدون هذا المذهب مثل بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبشتكى المتوفى سنة ٨٣١ .

ومعروف أنه حين حكم الفاطميون مصر كانوا يولون على القضاء فقهاء من عقيدتهم ، ومربنا في الفصل الأول بيان لمبادئ عقيدتهم الأساسية وإشارة إلى بعض آرائهم الفقهية التي خالفوا فيها الجماعة ، وأول قضائهم بمصر النعمان^(١) بن منصور النقيمي الملقب بأبي حنيفة الشيعة ، كان في أول أمره مالكيا ، ثم تحول إلى مذهب الإمامية الشيعي ، ثم انتقل إلى عقيدة الإسماعيلية في خدمة المعز لدين الله بإفريقية ، وقدم معه إلى مصر فأسند إليه القضاء ، ولم يلبث أن توفي سنة ٣٦٣ . وله مصنفات فقهية شيعية مختلفة أهمها كتابه « دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله » وهو المصدر الأساسي في الفقه وعلم الكلام عند الشيعة الإسماعيلية . ونشره المرحوم الدكتور محمد كامل حسين كتاب المهمة في آداب اتباع الأئمة ، وذكر في مقدمته له كثيرا من الكتب الفقهية الإسماعيلية .

وظل القضاء الفاطمي بعده في بيته إلى نهاية القرن الرابع الهجري . ويتزل مصر سنة ٤٠٧ كبير دعاة الفاطميين وفقهائهم في الشرق حميد^(٢) الدين الكرمانى ولا يلبث أن يتوفى سنة ٤٠٨ ومن أهم مصنفاته كتاب «راحة العقل» الذى حققه ونشره المرحومان : الدكتور محمد مصطفى حلمي والدكتور محمد كامل حسين ، وهو يزخر بمسائل فلسفية وعقيدية مثابكة . ويتزل مصر بعده المؤيد^(٣) في الدين هبة الله الشيرازي أكبر دعاة الفاطميين وفقهائهم في القرن الخامس ، وقد ظل بها نحو ٣٠ عاما حتى توفي سنة ٤٧٠ وأهم مصنفاته المجالس المؤيدية ، وهي ثمانمائة مجلس في العقيدة الفاطمية وتشتمل على كثير من المسائل العقيدية والفقهية ، ونشر الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر في القاهرة ملخصا لهذه المجالس من صنعة حاتم بن إبراهيم . ونعيد هنا ما قلناه في الفصل الأول من أن هذه العقيدة وكل ما اتصل بها من فقه وغيره ، ظلت غريبة في مصر ، وظل المصريون معتقدين عنها حتى انتهت تلك الدولة الشيعية المتطرفة .

كتابه راحة العقل .

(٣) راجع في المؤيد في الدين هبة الله المؤيدية بتحقيق
د. محمد كامل حسين وكتابه في آداب مصر الفاطمية
ص ٥٩ ، ١١٦ .

(١) راجع في النعمان ابن عطكان ٤١٥/٥ ولسان الميزان
١٦٧/٦ والثقات ٤٧/٣ ورواة الجنان ٣٧٩/٢
والنجوم الزاهرة ١٠٦/٤ ومقدمة كتاب المهمة في آداب
اتباع الأئمة وكتاب دعائم الإسلام .

(٢) انظر في حميد الدين بر وكلمان ٣٥٥/٣ ومقدمة

ومرّبنا أن الشافعي هو الذي أسس علم أصول الفقه ورفع أركانه وشاد بنيانه ، فكان طبيعيا أن تظل مصر بعده عاكفة على هذا العلم وأن يلقانا كثيرون من فقهاء الشافعية متكئين عليه ، وسرى ذلك منهم إلى فقهاء الحنفية ، بل أيضا إلى فقهاء المالكية والحنابلة . ولن نستطيع أن نلم بما كتب في هذا الميدان لكثرة ، ولذلك سنكتفي بذكر بعض كتبه المهمة ، من ذلك كتاب الإحكام في أصول الأحكام لسيف^(١) الدين الآمدي نزيل مصر سنة ٥٩٢ المتوفى سنة ٦٣١ وهو من أجمع وأروع ما وضع في هذا العلم . ولابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة مختصر له شرح مرارا وتكرارا ، ولشمس^(٢) الدين الأصفهاني بعده المتوفى سنة ٦٨٨ شرح كبير لكتاب المحصول في علم الأصول لفخر الدين الرازي . ولهباء الدين السبكي المذكور في فقهاء الشافعية كتاب بديع في الأصول سماه جمع الجوامع .

ولم ينشأ في مصر مذهب مستقل في علم الكلام ، فقد كانت تعتمد دائما على ما يأتيها من الخارج ، غير أنه يلاحظ أنه منذ عهد صلاح الدين غلب مذهب الأشعري الذي يقف بين المعتزلة وأهل السنة ، يقول المقرئ في الحديث عن مذاهب أهل مصر : « وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري .. وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعي من القرافة والمدرسة التي عُرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص والمدرسة المعروفة بالقمحجة وخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضا لإدخال ابن تومرت رأى الأشعري إليها^(٣) . ولعل أكبر كتاب أشعري ألف في مصر كتاب أبكار الأفكار لسيف الدين الآمدي المذكور آنفا وفيه مباحث كبرى عن العلم والنظر وأقسام العلوم والنبوت والمعاد . ويظل التأليف في علم الكلام على مذهب الأشعري ناشطا حتى نهاية زمن العثمانيين .

٨/ ١٠٠ والسيريطي ١/ ٥٤٢ والعبير ٥/ ٣٥٩ والشرحات
٥/ ٤٠٦ وفوات القويات ٢/ ٥٢٣ ورمّة الجنان
٤/ ٢٠٨ .

(٣) مخطوط للمقرئ ٣/ ٢٧٩ .

(١) انظر في الآمدي ابن خلكان ٣/ ٢٩٣ والسبكي
٨/ ٣٠٦ والسيريطي ١/ ٥٤١ والعبير ٥/ ١٢٤ والشرحات
٥/ ١٤٤ ولسان الميزان ٣/ ١٣٤ وميزان الاعتدال
٢/ ٢٥٩ والتجويد للزاهرة ٦/ ٢٨٥ .

(٢) راجع في شمس الدين الأصفهاني السبكي

التاريخ

نشطت مصر في كتابة التاريخ منذ مطلع القرن الثالث للهجرة ، وقد كُتبت في جميع ألوانه : في التاريخ العام أو تاريخ الدول العربية ، وفي التاريخ الخاص بتاريخ دولها وحكامها المختلفين . وفي تاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية ، وتاريخ الرجال وتاريخ العلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء . ويجنب ذلك عُتبت بكتابة السيرة . ولها في كل ذلك نشاط واسع ، ولعل من الخير أن نتعقبه على مر القرون .

وأول ما يلقانا من ذلك في القرن الثالث للهجرة ، السيرة النبوية لعبد^(١) الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ وقد طبقت شهرتها العالم الإسلامي ، ولمصر فضل إهدائها إلى هذا العالم وتداولها فيه إلى اليوم ، وإنها لتعد أوثق مصدر يرجع إليه مؤرخو السيرة المحمدية . ويلقانا بعدها كتاب فتوح مصر والمغرب لعبد^(٢) الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ . ويكتب محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ سيرة لعمر بن عبد العزيز ، وهي مطبوعة بالقاهرة .

ويلقانا من المؤرخين المصريين في القرن الرابع الهجري مؤرخ قبلي هو سعيد^(٣) بن البطريق الذي تقلد منصب بطريق الإسكندرية سنة ٣٢١ وظل يشغله حتى توفي سنة ٣٢٨ وله تاريخ سماه نظم الجواهر ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه ثلاث مقالات أو ثلاثة أبواب : باب عن النصراني وصومهم وإفطارهم وتاريخهم وأعيادهم ، وباب أو مقالة عن تواريخ الخلفاء والملوك المتخلفين ، ومقالة أو باب عن تاريخ البطارقة وأحوالهم وما جرى في ولاياتهم . وكتاب سعيد

للنهي ٨٦/٣ .

(٣) انظر ابن البطريق في ابن أبي أصيبعة ص ٤٥٠ ودائرة المعارف الإسلامية وبيروكلمان (الطبعة العربية) ٧٧/٣ وما بها من مراجع وقد طبع كتاب ابن البطريق في أكسفورد ونشره اليسوعيون في بيروت ونشر فيه روزن في لتجراد في القرن الماضي .

(١) انظر عبد الملك بن هشام في ابن خلكان ١٧٧/٣ وشرح سيرة التسهيل المسى الروض الأفت : مقدسه ، وعبير النهي ٣٧٤/١ والسيروطى ٥٣١/١ وإنباء الرواة ٢١١/٢ .

(٢) راجع عبد الرحمن في ابن خلكان ٣٥/٣ والسيروطى ٤٤٦/١ ، ٥٥٤ والدياج لابن فرعون والميزان

إشارة قوية إلى تعرب القبط حينئذ واستيعابهم العربية . وذُبل على هذا الكتاب يحيى بن سعيد الأنطاكي بتكلمة أرخ فيها من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٤٢٥ وكان قد نزل أنطاكية سنة ٤٠٣ ووجد بها من الوثائق عن الدولة البيزنطية وبطارقة أنطاكية والقسطنطينية في تلك الحقبة ما ضمه إلى أخبار بطارقة الإسكندرية وأخبار الدولتين العباسية والفاطمية . وكان يعاصر سعيد بن البطريق أحمد^(١) بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب سيرة أحمد بن طولون ، وضمن ابن سعيد في كتابه المغرب - القسم الخاص بالفسطاط - أكثر هذه السيرة ، وعليه اعتمد البلوى فيما كتبه عن ابن طولون وآله . ولابن الداية أيضا كتاب في أخبار الأطباء مفقود ، وكتاب في السياسة نشر في بيروت ، وسنعرض في حديثنا عن النثر لكتابه « المكافأة » . وكان يعاصره عبد الرحمن^(٢) بن أحمد بن يونس الصدفي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد وضع في التراجم كتابين : كتابا عن علماء مصر وكتابا عن الغربة الواردين على مصر ، وهما مفقودان مثل كتاب ثالث له ذكره صاحب كشف الظنون ، وهو في تاريخ الصعيد . وثلثي بمحمد^(٣) بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٣٥٠ وله كتابان : ولاية مصر أو أمراؤها حتى سنة ٣٣٥ وكذلك قضائها ، نشرهما جيت ، وهما كتابان نفيسان . وثلثي في أوائل زمن الفاطميين بابن^(٤) زولاقي الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب سيرة محمد بن طنج الإخشيد ، احتفظ بأكثره ابن سعيد في كتاب المغرب : قسم الفسطاط ، وكانت له أيضا - وفقدت - سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وتاريخ السنين ، وتكلمة لكتاب الولاية وكتاب القضاة للكندي وطبع له كتاب أخبار سيوفه المصري . ويلقانا بعده الطحان أبو القاسم يحيى^(٥) بن علي الحضرمي المتوفى سنة ٤١٦ وله ذيل على تاريخ ابن يونس الصدفي ، كما يلقانا الروذباري أحمد^(٦) بن الحسين معاصره وله كتاب في تاريخ خلفاء مصر حتى زمن الحاكم سماء ، بلشكر الأدياء ، وينقل ابن سعيد عنه في قسم القاهرة من كتابه المغرب مرارا ،

(٤) انظر ابن زولاقي في السيوطي ٥٥٣/١ وابن خلكان ٩١/٢ ولسان الزمان ١٩١/٢ .

(٥) انظر الطحان في ابن خلكان ٢٢٣/٣ وانظر بروكلمان ٨٤/٦ .

(٦) راجع الروذباري في المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٣ .

(١) انظر مصادر ابن الداية في كتابه المكافأة في الفصل الخامس من هذا الكتاب .

(٢) راجع ابن يونس في السيوطي ٣٥١/١ ، ٥٥٣ وابن خلكان ١٣٧/٣ ووفات الوفات ٥٢٦/١ والشهوات ٣٧٥/٢ وعبر اللهي ٢٧٦/٢ .

(٣) انظر في الكندي السيوطي ٥٥٣/١ وذاكرة المعارف الإسلامية . وروكلمان ٨٢/٣ .

وعليه اعتمد فيما ذكره من أخبار الحاكم . وكان يعاصره هو والطحان المسبحي ^(١) الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله المتوفى سنة ٤٢٠ ، وقد ترجم له ابن سعيد في المغرب ترجمة ضافية ذكر فيها مصنفاته الكثيرة . وأهمها تاريخه الكبير عن مصر وولاتها وخلفائها الفاطميين ، سماه « كتاب أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطرائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار وسير من حلها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين » وقد نشرت منه هيئة الكتاب قطعة صغيرة تؤرخ سني ٤١٤ و ٤١٥ للهجرة . وتلقانا سيران إمام الفاطميين : سيرة جوذر الصقلي أحد رجال الدولة الفاطمية قبل استيلائها على مصر ، وهي منشورة ، وأهم منها السيرة المؤيدية للمؤيد الشيرازي داعي دعاة الفاطميين المار ذكره ، وفيها يتحدث عن حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ . ويذكر بعض رسائله ومناظراته العلمية .

ومن أهم المؤرخين في زمن الفاطميين على ^(٢) بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٥٠ وله كتاب في وزراء الفاطميين سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ألفه للوزير الفاطمي البطائحي . وللرشيد ^(٣) بن الزبير أحمد بن علي المتوفى سنة ٥٦٣ كتاب في شعراء مصر سماه « جنان الجنان ورياض الأفهام » ألفه سنة ٥٥٨ وهو أهم كتاب ألف عن الشعر الفاطمي وعليه اعتمد ابن سعيد في جزأى القسطاط والقاهرة من مصنفه « المغرب » في كثير من تراجمه . ويحجب ذلك نجد في أواخر زمن الفاطميين مصنفات فرعية مثل « الرسالة المصرية » لأمية بن عبد العزيز الأندلسي المعروف باسم أبي الصلت ، وعداده في الأندلسيين . ومن ذلك مصنف للقاضي المجلسي في شعراء طلائع ابن رزيك ، ورسالة لابن جبريحي بن حسن ألفها في مدائح بني أسامة سنة ٥٢٥ . وتلقى بالقرطبي محمد ^(٤) بن سعد الذي ألف لشاور وزير الخليفة العاضد (٥٥٥-٥٦٧ هـ) كتابا في تاريخ مصر ، وتاريخ وفاته غير معروف . وعنه نقل ابن سعيد مقتطفات كثيرة في قسمي القسطاط والقاهرة من كتابه للمغرب . وكان يعاصره على بن أبي السرور الرُّوحى وله نسخة الظرفاء في أخبار الأفياء والخلفاء إلى الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي المتوفى سنة ٤٢٧ ويُظن أنه ألفه بالإسكندرية

(٣) انظر في الرشيد ابن خلكان ١٦٠/١ ومعجم الأدباء ٥١/٤ والطالع السعيد ٥٢ والحريدة قسم مصر ٢٠٠/١ والشفرات ١٩٧/٤ والسيرطى ٥٤٠/١ .
(٤) انظر في القرطبي للمغرب قسم القسطاط ص ٢٦٧ .

(١) انظر في المسبحي المغرب (قسم القسطاط) ص ٢٦٤ وابن خلكان ٣٧٧/٤ والسيرطى ٥٤٤/١ والوراق للصفدي ٧/٤ والبر ١٣٩/٣ والشفرات ٢١٥/٣ والتجويد الزاهرة ٢٧١/٤ .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن منجب في ص ٤٠٥ .

سنة ٥٦٧. وطُبع في القاهرة مع تكملة إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وتكملة ثانية إلى المستنصر سنة ٦٤٠.

وفي أواخر زمن الفاطميين وأوائل عهد الأيوبيين نلتقى بأبي صالح الأرميني ، وله كتاب عن الكنائس والأديرة بمصر وما يجاورها من البلاد ابتداء تأليفه سنة ٥٦٤ نُشر الجزء الأول منه في أكسفورد سنة ١٨٩٥ . ويلقانا في زمن الأيوبيين أبو طاهر السُّلِّي المار ذكره وله معجم السفر لشيوخه ومن لقيهم . وتتكاثر هذه المعاجم فيما بعد ، إذ تكثر ترجمة العلماء لشيوخهم ، مما يُلقى أضواء كثيرة على الحركة الثقافية ليهودهم . وكان يعاصره الشريف النسابة محمد^(١) بن أسعد الجَوَانِي الحسني ، المتوفى سنة ٥٨٨ وله كتاب طبقات الطالبيين وتاج الأنساب .

وكتب إبراهيم بن وصيف شاه . قبل سنة ٦٠٦ كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية . ولعل بن ظافر الأزدي المتوفى سنة ٦٢٣ كتاب الدول المنقطعة في أربعة مجلدات وفيه يذكر تاريخ الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والعباسيين حتى سنة ٦٢٢ . ومُرر بنا ذكر الحافظ عبد الغني بين الختابة وأن له كتاب الإكمال في معرفة أسماء الرجال . وأكبر مؤرخ للرجال زمن الأيوبيين القفطي^(٢) على بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٦ وله كتاب إنباء الرواة على أنباء النحاة وكتاب المحمدين من الشعراء . وهما مطبوعان وله أيضا كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء . اختصره الزوزني محمد بن علي المعاصر له وسمى مختصره « تاريخ الحكماء » طبع في لبيز وألقاهرة ، وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء .

ونعنى إلى زمن الماليك وفي عهدهم تزدهر كتابة التاريخ العام والخاص وتاريخ التراجم والسير ، ويلقانا المكين^(٣) بن العميد ، وهو جرجيس (أوعبدالله) بن أبي اليسير أنى المكارم المولود بالقاهرة سنة ٦٠٢ والمتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وله كتاب المجموع المبارك وهو تاريخ عام للعالم في قسمين : القسم الأول من بداية الخلق إلى الرسول ﷺ والقسم الثاني من الرسول إلى سنة ٦٥٨ وقد نُقل إلى اللاتينية وطبع مع الأصل العربي في لندن سنة ١٦٢٥ للميلاد وتُرجم إلى الإنجليزية وطبع في لندن ثم إلى الفرنسية وطُبع في باريس . وكان يعاصره ابن ميسر^(٤) تاج الدين محمد بن علي بن يوسف المتوفى سنة ٦٧٧ مصنف تاريخ مصر وهو ذليل أو تكملة لكتاب المسبُحِي

(١) ١٩١/٢ والسيرى ٥٥٤/١ .

(٢) انظر في الجوائى الحريدة (قسم مصر) ١١٧/١

(٣) انظر المكين في بروكلمان ١٤٤/٦ ومائة المعارف

ولسان الميزان ٧٤/٥ .

الإسلامية .

(٤) انظر القفطي في معجم الأدباء ١٧٥/١٥ والطالع

(٤) انظر ابن ميسر في بروكلمان ٩٠/٦ .

السيد ص ٢٣٧ والشفرات ٢٣٧/٥ وفوات الوفيات

آنف الذكر . وللشاعر المعروف باسم الجزار المتوفى سنة ٦٧٩ قصيدة تاريخية سماها العقود الدرية في الأمراء المصرية حتى الملك الظاهر بيبرس احتفظ بها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة . ولا ين^(١) الراهب القبطي أبي شكر بطرس المتوفى سنة ٦٨١ كتاب في التاريخ العام يشتمل على تاريخ ملوك الروم والبطارقة والخلفاء والأمراء إلى سنة ٩٥٧ تُرجم إلى اللاتينية سنة ١٦٥١ وعُني به اليسوعيون ببيروت ونشروه سنة ١٩٠٣ . وحرى بنا أن نذكر هنا ابن^(٢) خلكان أكبر كتاب التراجم وأوثقهم المتوفى سنة ٦٨١ وحقا نشأ بالموصل ، ولكنه أقام فترات طويلة بالقاهرة وفيها بدأ تأليف كتابه النفيس : وفيات الأعيان سنة ٦٥٤ وأتمه بها سنة ٦٧٢ . ويلقانا محي^(٣) الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وله سيرة نفيسة في السلطان قلاوون ، باسم : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون وهي منشورة ، وله أيضا سيرة في السلطان الظاهر بيبرس وسيرة ثالثة في الأشرف خليل بن قلاوون ، وأيضا له خطط القاهرة .

ونلتقي في القرن الثامن بالموادار^(٤) ركن الدين بيبرس المنصوري المتوفى سنة ٧٢٥ وله زيادة الفكرة من تاريخ الهجرة ، وهو تاريخ عام للدولة الإسلامية حتى سنة ٧٢٤ مرتب على السنين في أحد عشر مجلدا ، وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورات لبعض أجزائه . وكان يعاصره التبريزي الذي تحدثنا عنه بين الجغرافيين مشيرين إلى موسوعته الكبرى نهاية الأرب . وبها سيرة نبوية مطولة وتاريخ عام للدولة الإسلامية ، وأشرنا هناك أيضا إلى ابن فضل الله العمري وموسوعته مسائل الأبصار ، وبها مجلدات ضخمة لتراجم الأطباء والفقهاء والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب لا في مصر وحدها بل في العالم العربي جميعه . ونلتقي بالحافظ ابن^(٥) سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ وسيرته النبوية : « عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير » . وبها إضافة مهمة إذ لا تكتفي بما في كتب السيرة كسيرة ابن هشام ، بل تضيف إلى ذلك المراجعة على كتب الحديث مثل صحيح البخاري . ويلقانا الإدقوي^(٦) جعفر بن ثعلب المتوفى سنة ٧٤٨ مصنف الطالع

(٥) راجع في ابن سيد الناس السيوطي ٣٥٨/١ .

٤٢٥ والبلد الطالع ٢٤٩/٢ والتجويد ٣٥٦/٧ وطبقات القراء ٢٨٦/١ والدرر الكائنة ٣٣٠/٤ والبكي ٤٦٨/٩ .

(٦) راجع في الإدقوي السيوطي ٥٥٦/١ والشرحات

١٥٣/٦ والدرر الكائنة ٧٢/٢ والبلد الطالع ١٨٧/١

(١) انظر ابن الراهب في بروكلمان ١٤٦/٦ .

(٢) انظر مصادر ترجمة ابن خلكان وأخباره في الجزء الخامس من هذه السلسلة بضم العراق .

(٣) راجع مصادر ترجمة محي الدين بن عبد الظاهر في ص ٤١٥ .

(٤) انظر في الموادار الدرر الكائنة ٤٣/٢ والشرحات

٦٦/٦ ودائرة المعارف الإسلامية .

السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد . وكان يعاصره المفضل بن أبي الفضائل القبطي وله ذيل على تاريخ المكين بن العميد باسم « النهج السديد والدر الفريد فيما يعد تاريخ ابن العميد » ويشمل تاريخ سلاطين المماليك من الظاهر بيبرس إلى الناصر بن قلاوون وتاريخ بطاركة الإسكندرية والمسلمين في اليمن والمهند وتاريخ التتار ، نُشر منه القسم الخاص بسلاطين^(١) المماليك . وولتقى بالحافظ مُططاي المار ذكره بين المحدثين ، وله سيرة نبوية باسم « الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم » ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية .

ويلقانا بهاء الدين السبكي الذي ذكرناه بين فقهاء الشافعية ، وله كتابه النفيس « طبقات الشافعية » . ونراه يصل التاريخ بالمجتمع في كتابه « معيد النعم » وهو يلتقى بكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ، والكاتبان إنما يعرضان للحياة السياسية والاجتماعية في المدينة عرضا مثاليا ، والسبكي يتجه في « معيد النعم » نفس الوجهة في المجتمع المصري ، فيصور المثالية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يعتمد إلى تصوير الواقع مقابلا بينه وبين المثال ، ولكي يصل إلى ذلك استعرض عناصر المجتمع ، وهي تبلغ عنده مائة واثنى عشر عنصرا : من السلطان ونوابه وموظفي الدولة وقواد الجيش والقائمين على الضرائب والأسواق والقضاة والعلماء والوعاظ والصوفية وخزنة الكتب ومعلمي الكتاتيب والوراقين وأصحاب الصيد والزراعة والصناعة والتجارة وأصحاب الحرف المختلفة ، وحتى البوابين والقائمين على إصطبلات الخيول والشحاذين . كل هؤلاء يستعرض حياتهم بواقعها وما ينبغي أن تكون عليه من صورة مثالية . وبذلك رسم المجتمع المصري بكل معانيه وما ينبغي أن يكون عليه من هيئة فاضلة .

ويلقانا في مطالع القرن التاسع ابن^(٢) الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٨٠٧ وله كتاب « تاريخ الدول والملوك » بلغ فيه نهاية سنة ٨٠٣ وكان في عشرين مجلدا . وكان يعاصره ابن دقاق^(٣) صارم الدين إبراهيم بن محمد المذكور بين الجغرافيين والمتوفى سنة ٨٠٩ وله كتاب الانتصار لواسطات عقد الأمصار ، خص كل جزء منه بمدينة ، وقد نشر فولر من الجزء من الحاصين بالقاهرة والإسكندرية ، وله كتاب في تراجم الصوفية ، وله في تاريخ مصر كتاب نزهة الأنام في اثني عشر مجلدا وتاريخ لحكام مصر حتى سنة ٨٠٥ صنفه للسلطان برفوق وله فيه سيرة

(١) يروكلمان ١٤٩/٦ . (٢) انظر ابن الفرات في السيرى ٥٥٦/١ والثغرات

٨٠/٧ والقصص اللامع ١٤٥/١ .

(٣) انظر ابن الفرات في السيرى ٥٥٦/١ والقصص

اللامع ٥١/٨ .

سماها « عقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر برفوق » ، وتكثر في هذا العصر كتابة سير السلاطين . وقد ذكرنا بين الجغرافيين القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ وكتابه « صبح الأعشى » ، وهو سجل تاريخي حافل بمعلومات نفيسة عن مكائبات الحكام في العالم العربي على مر العصور بجانب أنه معلمة جغرافية رائعة . وله مصنفات مختلفة .

ونلق بالمقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ وقد مر ذكره بين الجغرافيين مع الإشارة إلى كتابه « الخطط » ، وفيه يتحدث عن البيئة الطبيعية - كما أسلفنا - لمصر ، ويفيض في الحديث عن القاهرة وآثارها وأحيائها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ومارساتها ومصانعها وخزائن كتبها وما كان بها من حركة علمية ، ويتحدث عن الدول التي أظلمت ، وبذلك يلقى في الكتاب تاريخ مصر الفكرى بتاريخها السياسى والاجتماعى والروحى والحضارى ، إذ حوّل المقريزي التاريخ إلى دراسة اجتماعية وعقلية وميائية مع تصوير عادات السكان وتقاليدهم ومستوى معيشتهم ونزعتهم الصوفية وكل ما يختلف على أهل مصر والقاهرة من صور الحياة . وله سيرة نبوية في ستة مجلدات باسم « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع » ، وله انعاظ الحنقا بأخبار الفاطميين الخلفاء في تاريخ الدولة الفاطمية وهو مطبوع وكتاب الملقى في تراجم أمراء مصر وأعيانها رتبته على الحروف الأبعدية ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك في تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ - ٨٤٤ وكتاب درر العصور الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، وكتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب إلى غير ذلك من كتب تاريخية نفيسة . وكان يعاصره ابن حجر^(١) الذى مر ذكره بين المحدثين ، وعنى بالتأليف في التراجم . وله كتاب الإصابة في تراجم الصحابة وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر وكتاب تهذيب التهذيب في اثني عشر مجلدا وكتاب لسان الميزان وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، وكل هذه الكتب مطبوعة . وله أنباء الغمر بأبناء العمر ، وعنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بطبعه .

وبلقنا أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تقي^(٢) برّدى المتوفى سنة ٨٧٤ ، وله كتابه النفيس « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » يؤرخ فيه لمصر منذ دخلها عمرو بن العاص وأضاءت فيها

(٢) انظر ابن تقي برّدى في الضمعة اللاع ج ١٠ رقم ١٧٨ والشمرات ٣١٧/٧ والبدر الطالع ٣٥١/٢ ومقدمة كتابه النجوم الزاهرة طبع دار الكتب المصرية ودائرة المعارف الإسلامية في أبي المحاسن ، وزيادة ص ٢٦ .

(١) انظر ابن حجر في السيلوى ٣١٣/١ والشمرات ٢٧٠/٧ والضوء اللاع ج ٢ رقم ١٠٤ والقوائد البية للكنزى ص ١٠٠ والبدر الطالع ٨٧/١ والمؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر للإلادى محمد مصطفى زيادة

أنوار الدين الحنيف حتى سنة ٨٧٢ وهو تاريخ على السنوات . وعادة يقدم لسنوات كل وال أو خليفة أو حاكم أو سلطان بكلمة عامة عن حكمه وما وقع فيه من أحداث مهمة وما بداخل زمنه من بعض الشئون الاجتماعية مع الاهتمام بالنواحي العلمية . وهو فيه لا يدرج لمصر وحدها ، بل يذكر مع سنواتها دائما تاريخ الدول العربية ، ومع كل سنة وفيات الأمراء والعلماء والأدباء في العالم العربي ، وأيضا مع تصوير الحياة العربية في جميع مناحيها . وكانت له عقلية فذة استطاع بها أن يبرز الأحداث السياسية في وطنه والأوطان العربية مع سؤق كثير من الطوائف الأدبية والاجتماعية . والكتاب مطبوع في سنة عشر مجلدا . وله مصنفات تاريخية مختلفة بجانب أهمها كتابه المنهل الصافي وهو معجم نفيس لمشاهير الرجال الذين توفوا من سنة ٦٤٨ حتى أيامه ، ويشمل نحو ثلاثة آلاف ترجمة لمن عاشوا في مصر والشام في تلك المدة ومن عاصروهم من أهل العراق والحجاز واليمن والتار وبلاد المغرب والأندلس من الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء والقواد والعلماء والكتاب والشعراء والمؤرخين والأطباء والمهندسين والتجار وأرباب المهن وغيرهم ، وصنع له مختصرا باسم الدليل الشافي على المنهل الصافي وهو منشور في مجلدين .

وكان يعاصره ابن قطلوبغا الذي مر ذكره بين الأحناف ، وقد أشرنا هناك إلى أن له كتابا في تراجم الحنفية سماه « تاج التراجم » وهو ميثوث في هوامش هذا الجزء . وتلقى بشمس^(١) الدين السخاوى محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢ وله كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وهو معجم بديع لتراجم هذا القرن ، وقد عدنا إليه مرارا فيما أسلفنا من حديث ، وله ذيل على كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذة المقرئى ، وذيل آخر لكتاب أستاذة الثانى ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، وقد خصه بترجمة حياته .

وينوج السخاوى هذا النشاط التاريخى العظيم بكتابه : « الإعلان بالتوبخ لمن ذم التاريخ » وهو محاولة رائعة لوضع علم التاريخ الإسلامى العربى . واسم الكتاب يوحى بأنه دفاع عن التاريخ ، وقد بدأ ببيان معنى كلمة التاريخ لغة واصطلاحا وبيان موضوعه وأنه الزمان والإنسان ، وأخذ يصور فوائده في التربية الدينية والحلقية والشئون الاقتصادية وأيضا الشئون السياسية بما يدفع إليه الحكام من العدل في الرعية والقواد من تدبير شئون الجيش ، وبالمثل الشئون الاجتماعية وما يتصل بها من الكالات والنواقص في المجتمعات . ويعرض بالتفصيل لما ينبغى أن يتوفر في

والشعرات ١٥ / ٨ والبدر الطالع ١٨٤ / ٢ والنور السافر
للعبروسى ص ١٦ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣٩ .

(١) انظر في السخاوى مقدمة كتابه الضوء اللامع
وكذلك ج ٨ رقم ١ والكواكب المائرة للنزى ٥٣ / ١

المؤرخ من شروط العدالة والتحرى والتدقيق في الأخبار مما ينبغي معه رفض الإسرائيليات والأساطير. ويطلق في بيان أنه ينبغي على المؤرخ أن لا يستشر عداوة من يعاديهم لأسباب عقيدية أو مذهبية أو شخصية ، ويصور الاختلاف العنيف بين المتصوفة وأهل السنة وكذلك بين الشيعة وعصرهم . ويُنبِهي باللائمة على الذهبي في تراجمه لاستطالته على المتصوفة وكثيرين من أئمة الشافعية والحنفية والأشاعرة لمخالفتهم له في العقيدة الحنبلية . وينقل عن السبكي أنه ينبغي أن لا يؤخذ بكلامه في ذم أشعري والثناء على حنبلي . ويفض في بيان التحرى في الروايات والرواة ويسط الحديث في نقد المؤرخين وكتاباتهم التاريخية . والكتاب بالغ الروعة والنفاة .

وكان يعاصره السبوطي الذي مر ذكره بين اللغويين والنحاة والمحدثين وقهاء الشافعية ، وله طبقات الحفاظ وهو مختصر من طبقات الحفاظ للذهبي ، وطبقات المفسرين وبغية الرواة في طبقات اللغويين والنحاة ، وحسن المحاضرة وهو ميثوث في الهوامش ، وتاريخ الخلفاء والسلاطين من عهد أبي بكر الصديق إلى زمن السلطان قايتباي ، وممالك الحفا في والدي المصطفى ، ولب اللباب هذب فيه اللباب لابن الأثير ويشتمل على نحو تسعة آلاف اسم وكل هذه الكتب منشورة . وله وراءها مصنفات أخرى منها سيرة للإمام مالك وسيرة للنووي . ويُحْتَمُّ زمن الماليك بآبَن إِيَّاس عَمَد بن أَحْمَد الذي عَرَضْنَا لَهُ بَيْنَ الجُغْرَافِيَّين ، وله تاريخ مفصل عن مصر سماه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، وهو يتناول فيه باختصار تاريخ مصر ، حتى إذا وصل إلى زمن قايتباي . (٨٧٤ - ٩٠٣ هـ) أَفَاضَ في التاريخ إِفَاضَةً واسعة ، حتى لِيَذْكُرَ وفيات كل شهر ، ومن أَهم ما كَتَبَهُ وَصَفَهُ لاحتلال العثمانيين مصر مِيبَا مَا أَحَقُّوه بِهَا مِنْ دِمَارٍ وَنَهَبٍ لِكُنُوزِهَا وَصَنَاعَاتِهَا وَعِلْمَاتِهَا وَصَنَاعَاتِهَا الْمَهْرَةِ ، حتى لِيَقُولَ إِنَّهُمْ أَبْطَلُوا مِنْ مِصْرَ خَمْسِينَ صِنْعَةً .

وتظل للتاريخ بقية من النشاط في زمن العثمانيين ، وأول مؤرخ نلتقي به في عهدهم ابن زنبيل الرمال أحمد بن علي المتوفى سنة ٩٦٠ وقد مر ذكره بين الجغرافيين وكان موظفا في ديوان الجيش العثماني ، وله كتاب فتح مصر أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم . ويصف معاركه مع الجراكسة في شمالي الشام وفي القاهرة وعودته إلى عاصمته إستانبول . ويلقانا عبد الوهاب الشمراني المتوفى سنة ٩٧٣ وقد أُلْمِنَا بِهِ في حديثنا عن المتصوفة في الفصل الماضي ، وله طبقاته الكبرى في تراجم الصوفية على مر السنين حتى زمنه ، وهي مطبوعة مرارا . ويلقانا في القرن الحادي عشر الهجري زين الدين بن أبي السرور البكري محمد الصديق وابنه شمس الدين محمد ولها كتب

مختلفة في العثمانيين ، وأهم منها عبد^(١) الرؤف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله الكواكب البرية في تراجم السادة الصوفية ، وصنف كتابا في الأحكام السلطانية وكتابا في معجم الحديث سماه كنوز الحقائق. وكان يعاصره الإسحاق محمد بن عبد المعطى المتوفى سنة ١٠٣٢ وله لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، وهو مطبوع . وثلث بنور^(٢) الدين الحلبي على بن إبراهيم المولود بمصر المتوفى سنة ١٠٤٤ وله السيرة النبوية الحلبيه المشهورة ، وهى مطبوعة مراراً. ويلقانا شهاب^(٣) الدين الخفاجى أحمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٦٩ وله رحمة الألبا تترجم فيها لشعراء الشام والمغرب والحجاز ومصر أيام العثمانيين وهو مطبوع مرارا . وألفت كتب كثيرة في السيرة النبوية ، منها سيرة خير البرية للصبان المذكور بين النحاة والمتوفى بأخرة من زمن العثمانيين سنة ١٢٠٦ . وظلت مصر موئلا للعلماء - مؤرخين وغير مؤرخين - في زمنهم كما كانت في الأزمنة السابقة . ومن كبار المؤرخين الذين نزلوها حينئذ المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١ مؤلف كتابي نفع الطبيب وأزهار الرياض الموسوعتين الأندلسيتين المشهورتين .

١٢٢/٣ .

(١) راجع المناوى في خلاصة الأثر ٤١٢/٢ واليدر

(٣) انظر مصادر ترجمة الخفاجى في ص ٤٥٩

الطالع ٣٥٧/١ .

(٢) راجع نود الدين الحلبي في خلاصة الأثر

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

عرب مصر

كان بمصر قبل الفتح العربى الإسلامى لغات وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها إغريق منذ عهد البطلمة ، وكانت اللغة الإغريقية - منذ زمانهم وفى عهد الرومان - اللغة الرسمية للدولة . وكان بها بعض السريان فى الإسكندرية وبعض الأديرة ، وكانوا يهتمون بالطب ، ونُقل من لغتهم السريانية فيما بعد لمعمر بن عبد العزيز كتاب فى الطب لأهرون القس . وكان بها رومان ، وكثرتهم كانت من جنود الاحتلال الرومانى . وطبيعى أن يتكلموا لغتهم اللاتينية . وكان بها بعض اليهود وخاصة فى الإسكندرية وكانوا يتكلمون العبرية . وأهم من تلك العناصر جميعا جواهر مصر من القبط ، وهم عامة الشعب وسواده ، وكانوا يتكلمون القبطية ، وكانت لها لهجات تتفاوت بتفاوت الأقاليم والبلدان المصرية البحرية والقبلية .

وبمجرد أن نزل العرب مصر لم يعد للاتينية أى شأن ، فقد طردت بقايا الرومان مع الجيش البيزنطى الذى غادر البلاد مدحورا مهزوما . وانحازت السريانية إلى الأديرة وأخذت فى الزوال . واضمحلت العبرية . أما اللغة الإغريقية فظلت حية فى الدواوين على ألسنة الموظفين بها وفى كتاباتهم حتى سنة ٨٧ للهجرة إذ أمر الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله والى مصر بنقل الدواوين من اليونانية إلى العربية^(١) . وسرعان ما هُجرت وبُذت الإكلمات قليلة سقطت فى العربية إما من الإغريقية مباشرة وإما منها عن طريق القبطية .

أما اللغة القبطية فظلت بعد اللغة الإغريقية متشرة على كل لسان فى البلاد ، إذ كانت لغة

باللغتين اليونانية والعربية ، وانظر أدب مصر الإسلامية
(مصر الولاة - نشر دار الفكر العربى) للدكتور محمد كامل
حسين ص ٣٠ .

(١) خطط المقرئى ١٨١ / ١ وفيه أن نقل الدواوين
بمصر كان من القبطية إلى العربية وهو خطأ فقد كان من
الإغريقية إلى العربية ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التى
نشرها جرومان فى مواضع متفرقة وهى صادرة عن الولى

الخطاطب اليومي ، غير أنها كانت متخلفة ، إذ لم تحتفظ لنفسها بشيء من التراث الأدبي الفرعوني عند أمثال حوتب الكاتب ويتامور الشاعر ، واستحالت لغة فقيرة مجدبة في معجمها اللغوي وفي أساليبها البيانية ، وكل ما كانت تحمله حين الفتح كتابات دينية جافة^(١) ، ليس فيها شيء من روعة اليان ، كُتبت في العهد الروماني أو قبل الفتح وبعده . وحق من كان لديه حيثنذ ملكة شعرية خضبة من القبط أثر أن ينظم شعره باليونانية محاكياً لحوميروس أولغيره من شعراء اليونان^(٢) . ومعنى ذلك أنه لم يكن للقبطية تراث أدبي تستطيع أن تثبت به أمام العربية وتراثها الأدبي البديع . فأخذت تكسحها وتظفر بألسنة القبط عاما بعد عام .

وعاملان قويان أخذتا يعملان بسرعة على تعرب مصر . أما أولهما فدخل كثيرين من القبط في الإسلام لما رأوا من تعاليمه السامية ، ولما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق العربي الفاتح فله مالمسلمين وعليه ماعليهم . يقول بتر : « كان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الإسلام لاسيما وقد طحن المقوقس الحاكم الروماني أو البيزنطي عقيدتهم (الأرثوذكسية) طحنا »^(٣) . ومعروف أن الرومان أو قبل البيزنطيين ساموا القبط خسفا لا يطاق ، وكانوا يهجون طيات مصر نهباً ، ويعتصرون خيراتها اعتصاراً ، فكان الإسلام للقبط ملاذا وملجأ . وعُدُّوا العرب مخلصين لهم من ظلم لا يطاق ، وأخذوا يدخلون في دين الله الخفيف ، ويمضون بتر قائلاً : « وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم بعضهم من الجنود وبعضهم ممن حلَّ منهم في مصر » . وكلما قطعنا شوطاً زمنياً بعد الفتح ترايد عدد الداخلين من القبط في الإسلام ، يدل على ذلك تناقص ضريبة الدفاع المسماة بالجزية التي كانت تؤخذ من القبط ، وكانت لا تؤخذ إلا من القادرين على حمل السلاح ، فلا تؤخذ من شيخ ولاصبي ولا امرأة ولا راهب ، وقبلما كانت تزيد على دينار ، وربما أصبحت نصف دينار ، وكان مقدارها زمن عمر بن الخطاب اثني عشر ألف ألف دينار ، فنقصت في عهد معاوية إلى خمسة آلاف ألف^(٤) ، مما يدل بوضوح على دخول كثيرين من القبط في الإسلام في الفترة الأولى من الفتح العربي ، بحيث لو قلنا إنه دخل نحو نصف السكان في الإسلام لم نكن مغالين . وظل عدد من

(٢) راجع أدب مصر الإسلامية ص ٤

(٣) بطرس ص ٢٤٢ .

(٤) بتر ص ٤٠٣ وانظر البلدان للبهرقي ص ٣٣٩ .

(١) انظر فتح العرب لمصر لبتر ترجمة محمد فريد

أي حديد ص ٨٥ وموجز تاريخ القبط للمحقق برسالة

مارسنة الرابعة (مراجعة مراد كامل) ص ١٥٥ وأدب مصر

الإسلامية ص ٦ .

يسلمون في ازدياد مع السنين حتى إذا ولي حبان بن شريح لعمر بن عبد العزيز بعد نحو ثمانين عاما من الفتح رأيتاه يكتب إلى عمر : إن الإسلام قد أضرَّ بالجزيرة ، حتى اضطرت إلى اقراض عشرين ألف دينار أئمتُّ بها عطاء أهل الديوان ، وكأنه كان يريد أن يبق الجزيرة على من يسلمون من القبط ، فكتب إليه عمر كتابا شديد اللهجة قائلا : « أما بعد فقد بلغني كتابك ، وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسول بضر بك عشرين سوطا على رأسك . فضع الجزيرة عن أسلم قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعث جاليا يجمع الأموال ^(١) . » وكان كل هؤلاء المسلمين من القبط منذ عهد عمر بن الخطاب يُقبلون على حفظ بعض آيات القرآن الكريم واستظهار بعض الحديث النبوي وتعلم العربية مما عمل بوضوح على تعرب مصر .

وعامل ثان لا يقل عن هذا العامل خطرا في تعرب مصر ، هو هجرات القبائل العربية إليها بعد الفتح حين سمعت بنحسبها وزروعها وثمارها . وعادة يقف المؤرخون عند هجرات كبيرة لتلك القبائل مثل هجرة القبائل القيسية في عهد هشام بن عبد الملك ومثل هجرة بني سليم والقبائل المالكية في عهد الدولة الفاطمية . غير أنه كان وراء هذه الهجرات سيل متدفق من هجرة القبائل وعشائرها إلى مصر . وكان كل وال في العهد الأموي يصحبه كثير من الجند . وكانت مصر قرية من الجزيرة العربية فترها كثيرون من قبائل الشمال وقبائل الجنوب والغرب والشرق . وتُغنى كتبُ بيان هذه القبائل المهاجرة وتنازلها بمصر مثل كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقرئ . وطبيعي أن تختلط هذه القبائل بسكان مصر لاق مدتهم فحسب . بل أيضا في ريفهم . فقد سنَّ لهم عمرو بن العاص أو قل سنَّ لجنده أن يرتبوا أو يقضوا الربيع في ريف مصر ثم يعودوا إلى القسطنطينية . ونشأ عن هذا الاختلاط سريعا ضروب من المصاهرة بين بعض العرب والقبط عقب الفتح إذ يسمى ابن عبد الحكم طائفة من أبناء السلطانيات القبطيات ^(٢) . من بينهم عون بن خارجة القرشي وعبد الرحمن بن معاوية بن حذَّيج . وخارجة ومعاوية جميعا ممن حضروا الفتح . ولا بد أن اتسع ذلك فيما بعد . مع كثرة هجرة العرب . ومع اختلاطهم بالقبط . مما جعلهم يتعلمون لسانهم لكي يحسنوا التفاهم معهم . وكانت حاجتهم من وجهات كثيرة تدعو إلى ذلك ، فقد كان منهم من يقوم على جمع خراج الأرض للعرب وجمع الجزيرة . وكانت

تصلهم رسائل من الدواوين ويُضطرون للرد عليها ، فاضطروا لعلم العربية ، واضطروهم إلى ذلك أيضا النظام القضائي ، فكان القبطي المدعى في قضية أو المتهم في حجة إلى معرفة شيء من العربية . وكل ذلك عمل على ذبول القبطية ، ولكن غير صحيح أنها أخذت في الزوال من لسان القبط بعد نحو قرن من الفتح العربي كما زعم رونودوميسر الباحثين فقد ظلت حية ، يدل على ذلك أكبر الدلالة مارواه المؤرخون من أن المأمون حين زار مصر لسنة ٢١٧ بعد الفتح بنحو قرنين كان يتزل في قرى مصر وضياعاها ويستمع إلى القبط وماقد يكون لديهم من شكوى ، والتراجمة بين يديه يترجمون له مايقولونه بالقبطية^(١) . ويدور العام ويتولى الخلافة أخوه المعتصم ، فيأمر كيدر واليه على مصر أن يقطع عطاء العرب من الديوان^(٢) . وكان ذلك بدءا حقيقيا لعرب مصر ، فإن كل من كان بها من العرب حتى جند الدولة اضطروا إلى أن يزاولوا مع القبط حياتهم ابتغاء الكسب ، فأخلوا يشاركونهم في الزراعة ، وهي مشاركة أقدم من ذلك منذ هجرة القبائل العربية الكبيرة إلى الحواف الشرقى في أواخر العصر الأموي ، غير أنهم جميعا الآن لم يعد لهم بُدٌ من هذه المشاركة لا في الزراعة وحدها بل أيضا في التجارة والصناعة . وبذلك أصبح العرب في مصر جميعا مصريين ، يشاركون القبط في حياتهم المصرية وألوان الكسب فيها مشاركة تامة ، وكان ذلك إلهانا بأن يتم تعرب مصر نهائيا ، وأن تأخذ القبطية في الزوال والامحاء من السنة القبط في الريف والقرى وتُحل محلها العربية في جميع الألسنة .

والحق أن موجة التعرب كانت حادة وقوية منذ زمن الفتح بسبب كثرة من اعتنقوا الإسلام من القبط حتى ليقول بتر : « إن التاريخ لم يذكر في حوادثه أمر أعجب من أن القبط انقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام ، والقسم الآخر يبق على دينه »^(٣) . وهو يريد بامتزاج القسم الأول بالإسلام اعتناقه له ويعجب من ذلك ، ولا عجب ، لأنه يعرف السبب ، كما مر بنا ، وهو سماحة الإسلام والمساواة في الحقوق بين من يسلم وبين الفاتحين وما يفرضه الدين الحنيف بين الطرفين من أخوة وثيقة . والمهم أن هذه الآلاف ممن أسلموا بل ربما الملايين ، كما يدل على ذلك نقص ضريبة الجزية مما أشرنا إليه ، أقبلوا على تعلم العربية ، حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون يُترجمُ لهم كتبُ التاريخ في الفقه والشريعة من مثل

(١) خطط الميرزى ١٤١/١ .

والميرزى ١٧٣/١ .

(٢) الولاة والقضاة الكندي (طبعة جيت) ص ١٩٣ .

(٣) بتر ص ٤٢٥ .

يزيد بن أبي حبيب الذى أقامه عمير بن عبد العزيز بأخرة من القرن الأول الهجرى للفُتيا بين الناس ، وقد ذكرناه فى الفصل الماضى . كما ذكرنا من كبار القراء بمصر ورثا . وهو أيضا من سلالة القبط ، وتقرأ البلاد المغربية إلى اليوم بقراءته . ولانث أن تلقى بعد ورش بنى النون المصرى الإخيمى وله فضل تأسيس التصوف فى العالم الإسلامى . وهذه الأسماء المنحدرة من سلالة من أسلم من القبط إنما هى رموز فقط . ووراءهم من لا يكاد يحصى من أفذاذ العلماء فى كل فن .

وهذه الموجة الحادة من التعرب لم تقف عند من دخلوا فى الإسلام من القبط . فقد أخذت العربية تشيع على ألسنة كثيرين من القبط أنفسهم ، ويبدو أن كثيرين من الرهبان غنوا بتعلمها إذ نجد شماسا يسمى بنيامين كان يلزم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان فى أثناء ولاية أبيه على مصر يترجم له فصولا من الإنجيل ويشرحها^(١) . وحتى علماء الإسكندرية نراهم يقبلون على تعلم العربية ، حتى ليرسل خالد بن يزيد بن معاوية - كما مر بنا فى الفصل الماضى - بطلب جماعة منهم لينقلوا له بعض كتب الكيمياء والطب ، وذكرنا هناك أن عمر بن عبد العزيز استقدم من الإسكندرية الطبيب ابن أبجر ، وأسلم على يده . وربما ألف أو نقل له بعض رسائل طيبة . ومر بنا أيضا أن الدوميلي ذكر كتابين فى الكيمياء ألفها عالم مصرى أو علماء لأوائل القرن الثالث الهجرى ، وكان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون يتقن العربية ، كما تدل على ذلك ترجمته^(٢) فى طبقات ابن أبى أصيبعة . ونلقى بعده بسعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية (٣٢١ - ٣٢٨ هـ) وقد ذكرنا فى الفصل الماضى له كتابا بالعربية فى تاريخ البطارقة والخلفاء . وذكر له ابن أبى أصيبعة كتابا فى الطب بالعربية . وكل تلك شواهد تؤكد أن مصر بقبطها ورهبانها وبطاركتها تعربت أو كادت فى القرن الثالث الهجرى ، يدل على ذلك أننا نجد ساويرس ابن اللقع أسقف الأسمنين المتوفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى يشكو شكوى مرة من ندرة اللسانين القبطى واليونانى فى مصر . وليس معنى ذلك أن القبطية طردت نهائيا من مصر ومن كنائسها وأنه لم يعد بين القبط ورهبانهم من يعرفها . بل معناه أنها أخذت فى الزوال وحلت محلها فى ألسنة القبط العربية وخاصة فى لغة التخاطب اليومى ، أما هى فاعازت إلى الأدب والصوامع البعيدة فى الصحراء والصعيد . من ذلك ما يذكره المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ للهجرة عن نصارى

(١) انظر سيرة الآباء البطارقة لأسقف الأسمنين ساويرس (٢) راجع عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٤١ .
ابن اللقع (بعض أجزاء منه طبع بباريس) ص ٢٤ .

أديرة درنكة^(١) بالقرب من أنسيوط من أنهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية ، وأن لهم معرفة تامة بالرومية يريد اليونانية . على كل حال هذه أسراب قليلة حافظ عليها نصارى الأديرة النائية ، أما الكتلة القبطية فإنها تعربت - كما قلنا - مبكرة منذ القرن الثالث الهجرى .

٢

كثرة الشعراء

كان نشاط الشعر بمصر محدودا زمن الأمويين . وقد يرجع ذلك إلى أن أكثر الفاتحين لمصر كانوا يمنية ، والشعر لا ينشط على ألسنة اليمنيين نشاطه على ألسنة المصريين والقيسين . على أن القبائل القيسية والمضربة أخذت جموعها تنزل في مصر طوال الحقب الأموية . ولذلك ربما كان أولى من هذا التحليل لضعف الشعر بمصر حينئذ أن ما نُنظم منه لم يسجله الرواة ولا اهتم أصحابه بتسجيله ، ولولا ما سجله منه الكندي في كتاب الولاة والقضاة وابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر والمقريزى في الحطط لظل مجهولا لنا تماما . على أن ما سجلوه قليل ، وأكثره يتصل ببعض الأحداث التاريخية . وهو شعر في جملة متوسط ، وربما كان خير شعرائه أيام الأمويين ابن أبى زمره ، والشعر المنسوب إليه قليل ولا يوضح شخصيته . وحقا نشط الشعر بمصر زمن ولاية عبد العزيز بن مروان عليها (٦٥ - ٨٦ هـ) فقد كان جوادا ممدحا فانتجعه وقدم إليه مدائحه شعراء كثيرون حجازيون ونجديون وعراقيون ، منهم جميل صاحب بشية وكثير صاحب عزة وعبد الله بن الحجاج التغلبى وأمين بن خريم . ومن جذبته جوده ابن قيس الرقيات وله فيه مدائح بديعة^(٢) ويصف في إحدى مدائحه لعبد العزيز رحلة نبيلة من القسطنطينية إلى حلوان وأهم شاعر حجازى امتدحه ولزمه نصيب وكان مستترقا لكثانى ، وحين وفد عليه واستمع إلى مديحه أعجب به إعجابا شديدا ، ورد إليه حريته مما أثر في نفسه أثارا عميقة ، وأخذ يوالى نائله القفر عليه ، وهو يوالى مديحه مديحا رائعا ، وله ترجمة في كتابنا العصر^(٣) الإسلامى . وفي كتاب الأغاني تفصيل كثيرة بتراجم هؤلاء الشعراء الوافدين على عبد العزيز ، وما أضفى عليهم من النوال وأضفوا عليه من المديح .

كتابنا العصر الإسلامى (الطبعة التامة) ص ٢٩٩ .

(٣) العصر الإسلامى ص ٢٢٢ .

(١) الحطط ٣ / ٥٦١ .

(٢) انظر ترجمته في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة

لمصر بنى أبيه (طبع دار الحارف) ص ٢٧٥ وكذلك في

ونعنى إلى زمن العباسيين وولاتهم وقضائهم المتعاقبين على مصر . وتلقانا في كتاب الولاية والقضاء أثمار كثيرة تتصل بالأحداث أو بهجاء بعض القضاة أو بمدحهم ، ويصور ذلك إسحاق بن معاذ في مدحيه للمفضل بن فضالة الذى ولّى قضاء مصر سنة ١٦٨ للهجرة ، وعاد فهجاء^(١) . كما يصوره يحيى الخولاني في هجائه لعبد الرحمن العمري الذى ولّى قضاء مصر في أيام هرون الرشيد سنة ١٨٥ لكثرة ما اتخذ من الشهود ورضاء بانتساب بعض المصريين من سلالة الأقباط في العرب ، وهجاء أيضا بشغفه بالفناء وقبوله - فيما زعم - للرشوة^(٢) . وفي هذه الأثناء نزل مصر أبو نواس الشاعر البغدادي المعروف قاصداً الخصب بن عبد الحميد متولّي الحراج^(٣) بها حوالي سنة ١٨٠ وأخذ ينثر عليه مدائح رائحة ، ومدحته الرائية له : (أجارة بيتنا أبوك غيور) مشهورة . وأهم شعراء مصر حين زارها أبو نواس سعيد بن عُمَيْر والمعلّى الطالبي ، ولسعيد أشعار في الولاية والقضاء للكندى تتصل بالأحداث والأشخاص بين سنتي ١٦٨ و ٢٠٩ . والمعلّى الطالبي - بدون ريب - أشعر منه ، وأشعاره عند الكندى تردّد بين سنتي ١٩٠ و ٢١٤ وروى له ابن سعيد في قسم الفسقاط من كتاب المغرب أبحاثاً في هجاء القاضي العمري يصفه فيها بالظلم وأنه يتردد إلى المغنيات لسباع الفناء ، وله مرثية رائحة لجارية له اختطفها منه القدر كانت تسمى « وَصْفاً » وفيها يقول^(٤) :

ياموت كيف سلبني وَصْفاً قدُمَتَها وتركتني خَلْفاً

وأخذت شِقْ النفس من بدني فقَبَرَتُهُ وتركت لي النُصْفاً

ونراه يتصل بالولاية ومدحهم واحداً تلو الآخر ، ومن اتصل بهم ومدحهم عبد الله بن طاهر حين ولّى مصر سنة ٢١١ وله يقول من مدحة طويلة^(٥)

يا أعظم الناس عَفْواً عند مقدرة وأظلمَ الناس عند الجود للالو

لو أصبح النيلُ يجرى ماؤُه ذهاباً لا أشرتَ إلى خَزْنٍ بمثالي

ونزل مصر أبو تمام في بواكير حياته ، ويبدو أنه نزها مرتين : مرة قاصداً عباس بن لميعة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج لواليتها للطلب الخراجي بأخرة من القرن الثاني ، ومرة ثانية

الصدر العباسي الأول (الطبعة الثامنة) ص ٢٢٤ ، ٢٢٨

(١) الولاية والقضاء للكندى ص ٣٧٩ - ٣٨٦ .

(٢) البغد القريد (طبعة لجنة التأليف) ٢٧٩/٣ .

(٣) الكندى ص ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ - ٤٠٣ .

(٤) الأغاني (طبع دار الكتب) ١٠٦/١٢ .

٤١٤ ، ٤١٣ .

(٥) خطط للقرن ١ / ٣٨٥ وانظر ترجمته في كتابنا

حين وليها عبد الله بن طاهر قاصداً له بالمدح ، وظل بها حتى سنة ٢١٤ كما تدل على ذلك أشعاره التي أنشدها الكندي في مديح عبد الله بن طاهر وكذلك أشعاره في رثاء عمير بن الوليد الوالي بعده . ويبدو أن صداقة انعقدت بينه وبين المولى الطائي وابنه جيطان . إذ نجدته بنشد في ديوان الحامسة قطعة بديعة لجيطان يصور فيها عاطفة الأميرة الرحيمة الشفيقة إزاء البنات والأولاد بمثل قوله ^(١) :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

وهو بجانب من التعاطف الحميم في الأسرة المصرية سنتلقى به مرارا عند الشعراء المصريين . وأهم شاعرين مصريين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ذو النون المصري الإحيى مؤسس التصوف الإسلامي المتوفى سنة ٢٤٥ وهو ينحدر من سلالة مصرية خالصة ، والشاعر الثاني الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام المتوفى سنة ٢٥٨ للهجرة ، وفيه يقول يا قوت : « كان شاعراً مفلحاً مدح الخلفاء والأمراء » ولحق أحمد بن طولون ولكن القدر لم يمهله .

ومرّبنا أن أحمد بن طولون ولي إمارة مصر سنة ٢٥٤ وأسس بها الدولة الطولونية ، وقد أخذ ينهض بعمرانها فأنشأ قصراً ضخماً . كما مرّبنا في غير هذا الموضع ، وألحق به ميداناً فسيحاً للعب الكرة . وأنشأ خازويه ابنه بعده بستاناً كان من عجائب الدنيا لما فيه من الزهر من كل لون وشكل . ومرّبنا حديث مفصل عن كل هذه المنشآت . وعنى أحمد بن طولون ومثله ابنه خازويه بالشعر والشعراء فأسبغ عليهم العطايا وأسبغ عليها الشعراء مدائح كثيرة . ولعل ذلك ما جعل كثيرين من الشعراء يتدبّون دولتهم حين أزالها العباسيون سنة ٢٩٢ للهجرة ، ويذكر ابن نغرى بردى منهم إسماعيل بن أبي هاشم وسعيد القاضي الملقب بقاضي البقر ومحمد بن طشوبه وأحمد بن إسحق ^(٢) ، ويقول المقرئى : رأيت كتاباً قدر اثني عشرة كراسة مضمّنة فهرساً بأسماء الشعراء الذين بكوا الدولة الطولونية ، ويطلق على ذلك بقوله : « فإذا كانت أسماء الشعراء في اثني عشرة كراسة فكيف يكون شعرهم ؟ مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد » ^(٣) . وفي هذا ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء بمصر حينئذ ، وما يدل على ذلك أيضاً أن نرى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ يؤلف كتاباً في أخبار شعراء مصر ^(٤) . فالشعراء تكاثروا بمصر منذ زمن الدولة الطولونية ، ومنذ

(١) الحامسة لأبي تمام بشرح الرزوقي (طبع لجنة
(٢) معجم الأدباء ١٤٥/٢

(٣) التأليف ٢٨٥/١ .
(٤) التاج الزاهر ١٤٠/٣ وما بعدهما

أخذ تعريب مصر يتكامل كما أسلفنا . ومن أهم شعراء هذه الدولة القاسم بن يحيى المزمي شاعر خوارويه ، وله مدائح فيه وأشعار في وصف السفن والخيول والصيد . وللبحتري مدائح مختلفة في خوارويه وأبيه أحمد بن طولون ، ويذكر ابن تغري بردي أنه زار مصر للمديح خوارويه ^(١) وأغلب الظن أن مديحه له ولأبيه إنما كان حين لقبها في الشام ، فقد كانت تتبعها ، وكانا يتزلان بها كثيرا ، ومر بنا في الفصل الماضي أن خوارويه قُتل بدمشق على يد غلانه . ونزل مصر لعهد تلك الدولة الناشئ الأكبر أبو العباس المعروف بابن شرشير المتوفى بها سنة ٢٩٣ وكان من الشعراء المجيدين ، ويقول ابن خلكان إنه بُعِدَ في طبقة ابن الرومي والبحري ونظرائها ^(٢) ، وقد ترجمنا له في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأنشدنا له بعض أشعاره في جوارح الصيد وآلاته ، وله فيها أشعار بديعة كثيرة ، وأنشدنا أيضا أشعارا له رائحة في الغزل تملأ النفس إعجابا . وكانت له قصيدة من الشعر التعليمي تتناول فنونا من العلم في نحو أربعة آلاف بيت ، وقصيدة تاريخية في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ نحو ألف بيت وكان له كتاب نقدي في الشعر وفضله . وبدون شك التفت حوله كثير من المصريين وأفادوا من شعره وعلمه ونقده بدليل أنه أثر المقام بينهم إلى مماته . ونزل مصر مثله منصور ^(٣) بن إسماعيل الفقيه المشهور بمقطعاته في الزهد . ويدور بنا الزمن دورة ونُظِّلَ مصر الدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ويُظَلَّ الشعر ناشطا في أيامها ، ويرجم الثعالب في كتابه البتيمة لطائفة كبيرة من شعرائها مثل صالح بن مؤنس ومحمد بن هرون الأكمسي وعبد الله بن أبي الجوع والحسن بن محمد الشهواجي وصالح بن رشدين وابن أبي العصام وابن طباطبا الحسني الرُسي ^(٤) . ونزل مصر في عهد كافور المتنبئ ، كما مر بنا في الفصل الماضي ، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة ، وكان ابن رشدين وابن أبي الجوع من كبار المعجبين به فُتِنَا برواية شعره ، وظلا يدرسانه للطلاب بعد مبارحته مصر . ومن نزلا زمن كافور كشاجم شاعر الشام المتوفى سنة ٣٦٠ وله في أبيرتها شعر كثير . ونزلا أيضا في زمنه الناشئ الأصغر وامتدحه وامتدح وزيره ابن جِزْرَابَة ^(٥) .

ويؤسس الفاطميون دولتهم بمصر وتظل نحو قرنين من الزمان ، تتحول فيها مصر إلى ما يشبه إمبراطورية ضخمة ، إذ يمتد سلطانها من شواطئ إفريقيا الشمالية إلى الفرات شرقا واليمن جنوبا ،

وقد جاءها المزم أول خلفائها الفاطميين وبرفته شاعره المؤمن بعقيدته الإسماعيلية ابن هانيّ الأندلسي ، ومعه ابنه نجم الشاعر الشاب الفذ ، وكان المزم نفسه شاعراً ، روى ابن تقي بردي بعض شعره ^(١) ، وكان ابنه العزيز نزار الذي ول الحلافة الفاطمية بعده أيضاً شاعراً ^(٢) وكذلك كان الحاكم ^(٣) والمستنصر ^(٤) ، فليجي أن يبعثوا نهضة شعرية في البلاد ، خاصة أنهم كانوا يعنون بالدعاية لعقيدتهم الإسماعيلية ، وقصدهم الشعراء فأغدقوا عليهم الأموال والعلطاء . وكان يصنع صنيعهم وزير المزم والعزيز : يعقوب بن كلّس ، وكان يهودياً وأسلم . ودبر دولتها تديراً جيداً ومهد لها قواعد الدولة ، وكان الشعراء يترددون عليه يشدون المدايح . ولعل مما يدل على كثرتهم حيث أننا نجد الذهب وغيره من المؤرخين يقولون إنه لما توفي سنة ٣٨٠ رثاه مائة شاعر ^(٥) . ولا بد أن من رثوا المزم وابنه العزيز كانوا أيضاً كثيرين ، فضلاً عن كانوا ينثرون عليها أشعار المديح . غير أنه ينبغي أن نعود فنقيد هذا الكلام بعض التقيد لأن أهل مصر لم يكونوا راضين عن الفاطميين لعقيدتهم الإسماعيلية المفرطة في التشيع المنحرف ، كما مر بنا في غير هذا الموضع . فلا يصح أن نتخذ من مديح الخلفاء الفاطميين مقياساً لمدى نشاط الشعر في مصر ، فقد كان أوسع من ذلك وأكثر .

وإذا مضينا بعد المستنصر إلى عهد الخليفة الفاطمي الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) وجدنا شعراً منها يسوقه المقرئ عنه إذ يذكر أنه بنى ببركة الحبش منظرة بها طاقات صور فيها جميع الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده ، وعلى جانب كل طاقعة قطعة قماش كُتب عليها عند رأس كل شاعر قطعة من مدحه ، وبجانب صورة كل شاعر رتبة مذهب . فلما دخل المنظرة وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رتبة صرة ممتومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده ^(٦) وكان وزيره الأفضل بن بدر الجمالي شاعراً ، وروى ابن مسير في أخبار مصر بعض شعره ، وكان يجزل العطاء للشعراء . فلحقه كثيرون منهم . ويعرض أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية أسماء طائفة من مدائحه وبعض مدائحهم ولم يبعث من هجوه وهجائهم . ويسمى الهاد الأصباني في القسم المصري من كتابه الحريدة أسماء طائفة من شعرائه . وكان الوزير طلائع بن رزّيك بأخرة من العصر الفاطمي شاعراً ، والتف حوله كثير من الشعراء ، وخصّهم شاعره الجليل بن الجباب بمصنف

(٤) المصدر نفسه ٨١/٥

(٥) النجم الزاهرة ١٥٨/٤

(٦) المخطوط ٢٦٨/٢

(١) النجم الزاهرة ٧٩/٤

(٢) النجم الزاهرة ١١٣/٤

(٣) النجم الزاهرة ١٩٦/٤

نقل منه العمد الأصماني تراجم طائفة منهم ، ومن أهم شعرائه الرشيد بن الزبير وله كتاب في شعراء مصر في العهد الفاطمي سماه «جَنَانُ الْجَنَانِ وَرِياضُ الْأَفْهَامِ» وهو مفقود ، غير أن العمد الأصماني انتفع بتراجمه ، وبالمثل ابن سعيد في كتاب المغرب . ووفد على مصر زمان الفاطميين كثيرون من الشعراء النابيين في البلاد العربية أمثال أبي الرقمقي الأعطاسي وصرريح الدلاء البغدادي والتهامي المكي وابن حتيوس الدمشقي وأمية بن أبي الصلت الأندلسي المار ذكره آنفا .

وبظلال نشاط الشعر المصري في زمن الأيوبيين بل يزداد نشاطا على نحو ما يصور ذلك كتاب بدائع اليدان لعل بن ظافر الأزدي ، وهو يسجلُ الأشعار التي كان ينظمها الشعراء في مجالسهم على البديهة . وتلقى هذه المجالس في كل مكان إذ يجتمع الشعراء ويتخذون موضوعا طريفا لتنظم أشعار على البديهة دون بَطء ودون أناة كأن ينظموا في بعض الأزهار إذا كان مجلسهم في حديقة أو ينظموا في فانوس السحور برمضان إذا كان مجلسهم في ليلة من لياليه ، ونحس في هذا الكتاب كأن الشعراء على لسان . ومن الأدلة على ازدهار الشعر في أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد العمد في خريدته ينحصر مصر بمجلدين ترجم فيها لمائة وأربعين شاعرا . وكان القاضي الفاضل في الدولة الأيوبية مثل طلائع بن رزّيك والأفضل بن بدر الجبالي في الدولة الفاطمية ممثلا ، والتف حوله عشرات من الشعراء ، وكان بدوره شاعرا كبيرا . وأطلقت فتوح صلاح الدين وانتصاراته المدوية على الصليبيين ألسنة الشعراء في مصر وجميع البلدان العربية حتى لم يكذب شاعر نابي إلا قصده مادحا كما يقول ابن خلكان^(١) . ونرى فاضل بن راجي الله العطار المصري يقدم لابنه سلطان مصر بعده العزيز (٥٨٩ - ٥٩٥ هـ) كتابا في شعراء مصر لزمته سماه «الشعراء المعصرية بالديار المصرية»^(٢) . ويفد على مصر بأخرة من زمن الأيوبيين على بن سعيد الأندلسي كما يفد عليها ابن العديم علم حلب لزمته ويصحبه معه إلى بلدته ، وفيها يكتب له بين سنة ٦٤٤ و ٦٤٧ نسخة من كتابه المغرب ، وفيه قسم كبير خاص بمصر وبلداتها في الوجهين البحري والقبلي . وقد اشتركت في نشر القسم الخاص منه بالفسطاط وبه طائفة كبيرة من شعرائها ، ونشر القسم الخاص بالقاهرة وبه أيضا شعراء أيوبيون كثيرون .

وتنقى كتب التاريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفيات الوفيات لابن شاكر الكشي والوفاء بالوفيات للصفدي وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر . وكتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع

للسخاوى وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتاى السلوك والخطوط للمقرئى وكتاب بدائع الزهور لابن إياس . ولا يكاد يوجد شاعر نابه زمن الأيوبيين والمماليك إلا وله ديوان مطبوع فقد طبعت دواوين القاضي الفاضل وابن سناء الملك وابن التيه والبهاء زهير وابن مطروح وابن الفارض والبوصيرى والقيراطى وابن نيابة وغيرهم ، بل طبعت دواوين لبعض الشعراء الفاطميين مثل نعيم بن المعز وابن وكيع والشريف العقيل والمؤيد الشبراوى وظافر الحداد وطلانغ بن رزيك وابن قلاقس .

ويظل لمصر نشاطها الشعرى زمن العثمانيين . ويؤلف شهاب الدين الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ كتابا فى شعراء زمنه سماه «ريحانة الألباء» ، خص مصر بالقسم الثالث منه ويذيل على الريحانة المسمى المتوفى سنة ١١١١ بكتاب سماه «نفحة الريحانة» جعل لشعراء مصر قصما كبيرا منه ، وبالمثل يذيل على نفحة الريحانة ابن معصوم المسمى المتوفى سنة ١١١٧ بكتاب سماه «سلافة العصر» ترجم فيه لطائفة من شعراء مصر زمنه . وتلقانا تراجم مختلفة للشعراء المصريين فى شذرات الذهب للعقاد وهو لا يتجاوز بتراجمه القرن العاشر . وتلقى بطاقة منهم عند المسمى فى كتابه خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وكذلك عند المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ فى كتابه «سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر» وأهم منه ومن العقاد تاريخ الجبرى ، وهو يعنى فى الجزءين الأولين بتراجم شعراء مصر حتى نهاية القرن الثانى عشر أى حتى نهاية أيام العثمانيين .

٣

شعر دورى ورباعيات وموشحات وبلديات

(١) الشعر الدورى

ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نفذ إليه الشعراء العباسيون من تجديد فى الأوزان ، وأهم من ذلك ما نفذوا إليه من تجديد فى القوافى أتاح لهم أن يستحدثوا اللون الشعرى المعروف باسم المزدوج . وقد خصّوا به منظومات الشعر التعليمى . وفيه تتحد القافية فى كل شطرين متقابلين وتتغير من بيت إلى بيت ، وكأن الوحدة فيه لم تعد البيت ، وإنما أصبحت الشطر . ويكثر بمصر كما يكثر بغيرها من الأقاليم العربية نظم المزدوجات التعليمية ، وكادوا لا يتركون علما دون أن ينظموا فيه الأراجيز المزدوجة ، وأكثروا من ذلك فى النحو واللغة والقراءات ، حتى الطب تلقانا فيه مزدوجات كثيرة . ومن أوائل ما يلقانا بمصر مزدوجة لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣

للهجرة في وصف فصول السنة ، وأهم من ذلك أن له مزدوجة مربعة بناها من أدوار ، كل دور يتان تتحد شطورها في القافية افتتحها بهذا الدور^(١) :

رسالة من كَلِفُو عَمِيد حَيَاتُهُ فِي قَبْضَةِ الصَّلَوْدِ
بُلَغَةِ الشَّوْقِ مَدَى الْمَجْهُودِ مَا فَوْقَ مَا يَلْقَاهُ مِنْ مَزِيدِ

وتلاه بأربعة وأربعين دورًا . وقد كثر هذا النظام الدورى المكون من بيتين بيتين ، ولطاع خاصة في العصر الحديث إلى اليوم .

ونظام دورى ثان هو المسمطات شاع مبكرًا وعرضنا له في كتاب العصر العباسى الاول واستشهدنا له بمسطين لأبى نواس ، أحدهما من أربعة شطور والثانى من خمسة . والمسط مشتق من السَطَ وهو قلادة تلتقى فيها عدة سلوك عند جوهرة كبيرة ، وكل دور في المسط كأنه سلك يلتقى مع الأدوار أو الأسلاك الأخرى في قافية الشطر الأخير من الدور ، وكأنها الجوهرة التى تتجمع عندها الأسلاك . وتتحد الشطور السابقة للشطر الأخير في قافيتها وتتغير من دور إلى دور . ومن كان يشغف من المصريين بصنع المسمطات تميم ابن الخليفة للمز الفاطمى وكان شاعرًا مجيدًا . ومن مسمطاته مخمس مدح به أخاه العزيز استلّه على هذا النمط^(٢) :

دُمُ الْعُشَاقِ مَطْلُولُ وَدَيْنُ الصَّبِّ مَحْمُولُ^(٣)
وَسَيْفُ اللَّحْظِ مَسْلُولُ وَمُبْدَى الْحَبِّ مَعْدُولُ

وإن لم يُصنع للأنثى

ويتوالى بعد هذا الدور ثلاثون دورًا على هذه الشاكلة ، فالشطور الأربعة الأولى تتحد قافيتها ، وقافية الشطر الخامس دائمًا ميمية ، وهى عمود المسط وقطبه الذى يدور عليه . وقد تدور المسمطات على شطر رابع أو على شطر سادس أو سابع ، وتسمى مربعات وسداسيات وسباعيات . وأشدّ الهامد الأصمباني مسمطًا سباعيًا^(٤) لشاعر إسكندرى يسمى موسى بن على وأخذ الشعراء المصريون في العصور المتأخرة يكتفون من هذه المسمطات وأولعوا بتبسيط بعض القصائد المشهورة مثل بردة البوصيرى وهزيتة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم . ونعصى بروكلمان من تخميسات البردة وتسبعياتها وتسبعياتها عشرات أكثرها لمصريين^(٥) .

(٣) مطلول : مهنر ولامية له .

(١) البيضة ٣٥٩/١

(٤) الحريدة (قسم شعراء مصر) ١١٣/٢

(٢) ديوان تميم بن المز لثمن الله الفاطمى (طبع ونشر

(٥) بروكلمان (طبع دار المعارف) ٩١/٥

دار الكتب المصرية) ص ٣٦٨

وتظل المسطحات وخاصة الخمسات تلقانا أيام العُمانيين في كتب الزاجم من مثل ربحانة الألبا ونفحة الربحانة وتاريخ الحيرى . ولأبى السعود الشمرانى المتوفى سنة ١٠٨٨ من مَحْسُ نَبْوِي^(١) :

يا حادى العيس إن حَفَّتْ بك الكَرْبُ الْحَقْ - هُدَيْتْ - بركب سافه الطَرْبُ
وَقُلْ لَصَبْ غدا بالشوق يَتَّحِبُ لمهبط الوَحْيِ حَقًا تَرْحَلُ الثَّجْبُ
وعند هذا المرجى ينتهى الطلبُ

وتستمر فى الخمس قافية الشطر الخامس فى الشطور الخامسة من الأدوار التالية بآنية على نحو ما قدمنا فى قاعدة نظمه .

(ب) الرباعيات

مرُّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول كثرة الرباعيات عند أبى نواس وأبى العتاهية . والرباعية أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين ، متحد شطورهما الأولى والثانية والرابعة فى القافية ، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور فى قافيته وقد لا يتحد . ولم يكن شعراء العصرين : العباسى الأول والثانى يقصرون الرباعية على وزن معين . حتى إذا مضى فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يكتفون من استخدامها مع تسميتها باسم دوبيت ، أى بيتين . ويشركهم شعراء العرب فى ذلك ، واستحدثوا جميعا لها وزنين هما : « فَعْلَن فَعْلَن مُسْتَعْلَن مستَعْلَن » و « فَعْلَن مَتَعْلَن فَعْلُون فَعْلَن » على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عن الرباعيات فى قسم العراق بالجزء الخامس من هذه السلسلة ، وما نخصى فى زمن الدولة الأيوبية حتى نجد الشعراء يكتفون من الرباعيات ، من مثل قول ابن مَمَّانِ^(٢) :

يا غَضْنُ أراك حاملا عود أراك حاشاك إلى السَّوَاك يحتاج سِوَاكُ
قُلْ لى أناك عن مجيئك نُهاك لو تَمَّ وَفاك بُسْتُ خَدَّيك وقالك

ومن نظموا فيها ابن النيه وابن مطروح وابن قَزَل وغيرهم ، ويقول ابن سعيد الأندلسى الذى زار القاهرة بأخرة من تلك الدولة كما مر بنا : « كثير من أهل القاهرة من يقول التَّوَيْت »

(١) نفحة الربحانة للسجى (طبعة الحلبي - تحقيق
عبد الفتاح الحلو) ٥٣٨/٤
قامتا . والنهى : العقل .

(٢) مجمع الأدباء ١٢٤/٦ والأوَّلُ شعر يتخذ من

أو الرباعيات . . ولم أسمع بها من شعرائها أحسن مما أنشدني لنفسه ابن أبي الأصبع :

قُبِلْتُ ثَنَاءًا كُجْهَانِ الْعَقْدِ مِنْهُ وَعَدَلْتُ عَنْ نُصَارِ الْخَدِّ
نَادَى مَاذَا ؟ قُلْتُ : طَبَّعُ عَرَى بِشَتَا قِ آقَاحِ الرُّوْضِ دُونَ الْوُدِّ (١)

ويُتَّهَمُ في نظم الرباعيات أصحاب الشعر الصرف وفي مقدمتهم ابن الفارض ، وله رباعيات تفوح بوجود مبرِّح من مثل قوله :

رَوْحِي لَكَ يَا زَائِرُ فِي اللَّيْلِ فِدَا يَا مُؤَنِّسَ وَخَشْيَ إِذَا اللَّيْلِ هَدَا
إِنْ كَانَ فِرَاقُنَا مَعَ الصَّبْحِ بَدَا لَا أَسْفَرُ بَعْدَ ذَلِكَ صُبْحُ أَبَدَا

فهو يبذل روحه لهويته الرباني مخلصاً صادقاً ، ويتمنى أن يظل نوره يضيء دُجاء وأن لا يسفر عليه صباح ولا تفتت أضواؤه من الأعتى إن كانت لحظات التجلي تنقطع مع النهار وأنواره . وتظل الرباعيات حية في أيام العنانيين ، وكانت تستخدم أحياناً في المديح النبوية كقول الشهاب الخفاجي صاحب ربحانة الألبا (٢) :

مَا جَرَّ لَظْلُ أَحْمَدٍ أَذْيَالُ فِي الْأَرْضِ كَرَامَةً كَمَا قَدْ قَالُوا
هَذَا عَجَبٌ وَيَا لَهُ مِنْ عَجَبٍ وَالنَّاسُ بِظُلْمِهِ جَمِيعًا قَالُوا

وهو يشير في الرباعية إلى ما قبل من أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يقع ظله على الأرض لأنه نور روحاني ، والنور لا ظل له . وفي البيتين تورية واضحة في كلمة قالوا ، فالأولى في البيتين من القول والثانية من القبلولة بمعنى استظلوا ونعموا .

(ج) الموشحات

في أثناء ظهور الرباعيات والمسمطات أخذ يظهر شكل جديد من أشكال المنظومات الشعرية الدورية هو الموشحات ، ويذهب بعض الباحثين وخاصة من المشرقين الإسبان إلى أنها فن أندلسي خالص نشأ من أغان إسبانية أعجمية . ويذهب باحثون آخرون من المشرقين غير

(١) للفرب لابن سجد (قسم القاهرة) ص ٣٧١ وبه : (٢) ربحانة الألبا (نشر مكتبة الحلبي - تحقيق عبد الفتاح الحلبي) ٥١/١ .

الإسبان إلى أنها فن تطور عن الشعر العربي المشرق^(١) وفي رأي أنها فعلا تطورت عن شعرنا المشرق وبالذات عن المسططات والمخمسات ، أليست تتكون من أدوار مثلها وغاية ما في الأمر أن الشطر الأخير في دور المسط يتعدد مع اتحاده في جميع الأدوار ، فقد يصبح شطرين متقابلين أو عدة شطور ، ويسمى قفلا . ويشهد لذلك نفوذ ذلك الجنب المتوفى سنة ٢٣٥ إلى صنع منظومة موشحة^(٢) ، وكأنما اطلع عليها بعده بعض شعراء الأندلس ، وأخذوا في محاكاتها واتسعوا في هذه المحاكاة ، بحيث أخذت الموشحة عندهم صوراً كثيرة ، حتى لقد ينظمونها من أوزان مهملة ، بل حتى أصبحت كأنها محتكرة لهم ، وكأنهم هم الذين صاغوها وأهلوها إلى الشعر العربي وشعرائه في أقاليمه المختلفة . ومعروف أن الموشحة تتكون من أدوار أو أغصان كما أشرنا إلى ذلك ، ومن شطور تسمى قُفْلًا ، ومن خُرْجَة وتطلق على القفل الأخير . وتتحد شطور الأفعال دائماً في قوافيها المتقابلة في الموشح كله ، بينما تختلف قوافي الشطور في الأغصان من غصن إلى غصن مثلها في ذلك مثل أدوار المسططات .

وقد أخذ شعراء المشرق العربي في محاكاة نماذجها الأندلسية منذ القرن السادس الهجري على الأقل ، ومن أقدم صور هذه المحاكاة بمصر موشحة تقف بين النمط الأندلسي وبين المسط المشرق المشرق ، وهي لعل بن عياد الإسكندري المتوفى سنة ٥٢٦ ، فقد روى له العباد موشحة على هذا النمط^(٣) :

يا مَنْ أَلُوذُ بِظِلِّهِ فِي كُلِّ خَطْبٍ مَعْضِلٍ
لَاؤَلْتُ مِنْ أَصْحَابِهِ مَتَمَسِّكًا يَدَ السَّلَامِ
أَمَّا مِنْ كُلِّ بَاسٍ فِي الْحَوَادِثِ وَالصَّرُوفِ

وتتردد قافية الشطرين الأخيرين مع كل شطرين يعقبان الأدوار التالية ، وبذلك اتخذ منها ابن عياد قفلا لموشحة على شاكلة الأندلسيين إذ يوحّدون قوافي الشطور في الأفعال ، بينما ينوعون في قوافي الأدوار كما ينوع أصحاب المسططات . وعادة يتدبى الوشاح الأندلسي بالقفل ويتلوه بالدور ، وقد يتدبى بالدور ويتلوه بالقفل كما في هذه الموشحة . ولظافر الحداد مواطن ابن عياد

الأول ص ١٩٩ وقسم الثامن من هذا الكتاب ص ٦١٤ .

(٣) الحريدة للعباد (قسم شعراء مصر - طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ٤٤/٧

(١) فن التوشيح للدكتور مصطفى حروس الكريم (طبع

ونشر دار الثقافة - بيروت) ص ١٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر في هذه الموشحة للبكرة كتابنا العصر العباسي

الموتى سنة ٥٢٩ موشحة طريفة يحتفظ بها ديوانه^(١).

وكان طبعياً أن يتعرف المشاركة على الموشحات الأندلسية لكثرة الوافدين عليهم في الإسكندرية والقاهرة من الأندلس، إما للحج وإما لطلب العلم فكانوا يشدونهم موشحات عتقة، ومن لا نشك في أنه كان يكثر من إنشادها للمصريين: إسكندريين وقاهريين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وفيه يقول ابن سعيد: «كان منشأ للمثور والمنظوم» وأقام بمصر عشرين سنة، وصنف في السلطان وعنه أخذها أهل إفريقية^(٢)، ولابد أنها كانت مصحوبة بموشحات أنشدها لهم، وقد توفي سنة ٥٢٩ م. ونزل مصر اليسع بن عيسى بن اليسع بعده في عهد صلاح الدين وألف باسمه كتابه المغرب في أخبار محاسن المغرب^(٣)، ولابد أن يكون قد ضمنه بعض الموشحات. ونزلها أيضاً حكيم الزمان عبد المنعم الجلباني الأندلسي^(٤)، ومدح صلاح الدين الأيوبي مدائح كثيرة، وكان له عشرة دواوين ثمانية يشتمل على موشحاته. ومثربنا ذكر معجم السلفي محدث الإسكندرية وقد سجل فيه لبعض من تلمذوا عليه من الأندلسيين بعض ما أنشده من الموشحات الأندلسية.

وهذه كلها إنما هي إشارات قاصرة إلى ما حدث في القرن السادس الهجري بمصر من انتشار الموشحات بها انتشاراً هياً لظهور وشاح كبير فيها هو ابن سناء الملك المولود سنة ٥٥٠ م ومحدثنا العهد الأصبهاني عن لقائه به سنة ٥٧١ ويشيد بشاعريته وينشد موشحة مبكرة له^(٥). وكأنما اختارت المقادير ابن سناء الملك لا ليكون وشاحاً مصرياً ممتازاً، بل لما هو أبعد من ذلك: ليضع عروض الموشحات ونظامها كما وضع الخليل بن أحمد عروض الشعر العربي ونظامه، على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس: «دار الطراز» الذي ألفه في عهد السلطان الأفضل^(٦) بن صلاح الدين (٥٩٥-٥٩٦ هـ) وقد استهله بمبحث واسع في الموشحات وأفضالها وعدد شطورها وأنها ترد في الموشح ست مرات في التام وخمس مرات في الأفرع^(٧) وقد تصل الأقفال إلى أحد عشر جزءاً^(٨). ويقول عن الخرجة، وهي القفل الأخير في الموشحة، هي «أبراز الموشح وملحه وسكره

(١) ديوان ظافر الحداد ابن الإسكندرية (طبع مكتبة

مصر) ص ٣٣٧.

(٢) المغرب (القسم الأندلسي - طبع دار المعارف)

٢٦١/١ وما بعدها.

(٣) نفى المصنف ٨٨/٢.

(٤) فوات الوفيات ٣٥/٢ وطبقات الأطباء لابن

أبي أصيبعة ص ٦٣٠.

(٥) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٧/١ وما بعدها.

(٦) راجع مجلة الثقافة العدد ٦٢٨ سنة ١٩٥١.

(٧) دار الطراز في أصل الموشحات لابن سناء الملك

تحقيق الدكتور جريدة الركابي (طبع دمشق) ص ٢٦.

(٨) انظر دار الطراز ص ٩٧.

ومسكه وعنبره» ويقول إنه ينبغي أن يسبق إليها خاطر الوشاح قبل أن يتقيد بوزن وقافية معينة^(١)، ويقول أيضًا إن اللحن يستحسن فيها كما يستحسن أن تكون ماجة. ويلاحظ أن الموشحات من حيث الوزن قسبان: قسم يجرى على أوزان العرب وأشعارهم، وقسم لا وزن له^(٢)، إنما يزنه الإيقاع. والقسم الأول هو الأكثر وهو الذي دار على ألسنة العلماء والشعراء واختار ابن سناء الملك في كتابه للأندلسيين أربعًا وثلاثين موشحة، واختار لنفسه خمسًا وثلاثين، وله وراءها موشحات كثيرة إذ أنشد له أحمد السخاوي في كتابه: «سجع الوزق المنتجة في جمع الموشحات المنتخبة» أربعًا وثلاثين موشحة سوى ما أنشده النواجمي في كتابه: «عقود اللآل في الموشحات والأزجال».

ومعروف مدى ما وفره الوشاحون الأندلسيون لموشحاتهم من جمال الجرس والإيقاع متخذين لذلك وسيلتين مهمتين هما صفاء الألفاظ وعذوبتها ورشاققتها، وقصر الشطور، حتى تصبح نغمًا خالصًا يلذ الأسجاع والقلوب، وعرف ابن سناء الملك كيف يمتلك هاتين الوسيلتين، فإذا موشحاته لا تنقل روعة موسيقية عن موشحات الأندلسيين من مثل قوله في مطلع موشحة رواها ابن سعيد^(٣):

البَندَرُ يَحْكِيكَ	لولا تَشْنِيكَ
وأنت جُنَّةُ ^(٤) الصديق	لولا تَجْنِيكَ
	لم يلقُ نَعْمِي ونعيم
	حملتي كلَّ عظيم
	وإن لي ذنبًا قديم
بالضَّمِّ أجنيبك	للهِندَرُ أذنيك
لأن لي قلبًا رقيق ^(٥)	عساه يُعْديك
	مَنْ لَمْ يَلَايِكَ
	يوم فراقِكَ
	على عِناقِكَ

والكلمات تطير بخفة عن الفم لحلاوة جرسها وعذوبتها في النطق والسمع وجمال وقعها في النفوس والأفئدة، وموشحاته في دار الطراز أنغام حلوة وصور بدعية، على غط هذا الدور أو الفصن في إحدى موشحاته:

وَجْهُكَ يا أَحْسَنَ الْبَرِيَّةِ قد جمع البِلَحَ والمَلَاةَ

(١) جُنَّة: وقاية

(٥) في الأصل رقيقا

(١) دار الطراز ص ٢٢

(٢) دار الطراز ص ٢٢

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٩

نرجسةً فيه منحيه ووردةً نحتها أفاعه
والخال في الوجنة المنيبه في الماء لا يُخس الباحة

وقد جمع في الدور أروع صورة للسلاحه ، فالعين ملأى بالخمر والحياه ، والوجنة ورد ناضر ، نحتها أقحوان الثغر المتلألئ والخال في الوجنة غارق في ماء النضارة والحنن لا يرم . وبذلك أعاد ابن سناء الملك المصريين بعده لكي يبرعوا براعة فائقة في نظم الموشحات ، وبتوفى سنة ٦٠٨ وكان يعاصره مظفر ^(١) الأحمى العجلاني المتوفى سنة ٦٢٣ صاحب الموشحة المشهورة :

كَلَّلَ بِسَاحِبُ نِيجَانِ الرَّئِى بِالْحُلَى
وَأَجْمَلَى سِوَارَهَا مُنْعَطَفَ الْجَدُولِ

والموشحة تفيض بكتوس الفرحة بالخمر والحديث عن ليلة الوصل والبهجة بالمحبيب، بهجة ما بعدها بهجة. وكان يعاصره ابن التنبه المتوفى سنة ٦١٩ وفي ديوانه موشحة بديعة يقول فيها ^(٢) :

قُلْ لِمَنْ يَلُومُ فِي مُهَفِّهِمْ أَسْرَ
ثَغْرِهِ النُّظِيمُ مُسْكِرٌ وَسُكْرُ

آوِ لَوْ سَقَانِي أَطْفَاتُ نِيرَانِي دُرَّةُ نَيْمَةٍ فِي الْبَاقُوتِ مَكُونَةٍ

وواضح تعبيره عن رضاب الثغر بأنه بطنى نيران قلبه وأن باقوت الشفتين يحمل درة بل درراً نيمته وهى كناية بديعة. ونمضى إلى زمن الممالك فتلتقى بكثير من الوشاحين، وفى مقدمتهم العزازى وابن الوكيل. وظلت الموشحات مزدهرة فى أيام الممالك على لسان ابن نباتة وغيره ^(٣) وشاع استخدامها على لسان المتصوفة فى أذكاءهم، ولعلى بن محمد بن وفا شيخ الطريقة الوفاية فى زمنه المتوفى سنة ٨٠٧ ديوان موشحات صوفية لا يزال مخطوطاً، وأُنشد منه السخاوى فى سبع الورق المذكور آنفاً خمساً وخمسين موشحة ونخص كلاً من العزازى وابن الوكيل بكلمة.

العزازى ^(٤)

هو شهاب الدين العزازى أحمد بن عبد الملك وكان تاجراً بقيسارية جهار كس فى القاهرة

والأزجال للتواجي بتحقيق عبد اللطيف الشهاى ولاين نباتة فيه تسع موشحات وللمجد الدين بن مكانس أربع موشحات.

(٤) انظر فى العزازى المثل الصافي ٣٤٠/١ وما بعدها والنجم الزاهرة ٢١٤/٩ وفوات الوفيات لابن شاكركبرى

٨٨/١ والواق ١٥٢/٧ والدرر لابن حجر ٢٠٥/١ .

(١) انظر فى مظفر وموشحه المغرب (قسم القاهرة) ص

٣٧٠ ، ٣٤٨ وراجع فيه معجم الادباء ١٤٨/١٩٨ وفوات

الوفيات ١١١/٢ ونكت المهان ٢٩٠ والشعرات ١١٠/٥

(٢) ديوان ابن التنبه (طبعة عبد الله فكرى) ص ٥٤ .

(٣) انظر فهرس كتاب عقود اللآل فى الموشحات

قرب حى الغردية الحالى ويقول ابن نغرى بردى : كان أديباً مطبوعاً ظريفاً له النظم الرائق الفائق ولا سيما نظمه للموشحات فإنه غاية فى ذلك . ويقول ابن حجر : له فى الموشحات يد طولى توفى سنة ٧١٠ وله ثلاث وثمانون سنة . وفى دار الكتب المصرية نسختان من ديوانه غير تامتين ، والديوان فى خمسة أقسام : فى مدائح الرسول وأهل بيته وفى مدائح الأمراء والوزراء والكتاب والقضاة ، وفى النكت والملح والألفاظ والأساطير ، وفى الغزل والتهانى والتعازى ، وفيها وقع بين أدباء عصره وشعراء زمانه ، وفى غرائب الأوزان من الخمسات والموشحات . وفى مكتبة جامعة القاهرة مصورة متخبة من ديوانه بخط الصفدى . ويذكر ابن نغرى بردى بعض موشحاته ، وبالمثل يذكر طائفة منها ابن شاعر فى فوات الوفيات والتواجى فى عقود اللآل فى الموشحات والأزجال ، ومن أطرفها موشحة موزعة بين النشوة بالخمر وبالحب وبجمال الطبيعة استهلها بقوله :

باليلة الوصل وكأس العُقَارِ دون استارٍ علّمتانى كيف خلّعُ العِلْدَارُ^(١)

اغنم اللذات قبل الذهاب
وجرّ أذبال العُبا والشباب
واشرب فقد طابت كثرسُ الشراب

واختتمها بقوله :

باليلة أنعم فيها وزار شمسُ النهار حَيَّتِ من بين الليالى القِصار
وله فى مطلع موشحة بديعة :

ماسلتِ الأصبينُ الفوانيرُ من غمْدِ أجفانها الصَّفاح^(٢)
إلا أسالتِ دِما المحاجرُ من غيرِ حربٍ ولا كِفاح^(٣)

ومن طريف موشحاته موشحة بناها من رباعيات ، كما يقول ابن شاعر ، وهى فى الحقيقة خمس رباعى ، وهو يدل كما تدل موشحاته على غزارة ينبوع الشعر عنده ، وأنه كان يتدفق على لسانه تدفقاً ، مع الحلاوة وحسن الألفاظ وجمال النظم والإيقاع .

(٣) المحاجر : ما استثار حول العيون وأراد بها العيون نفسها .

(١) خلّع العِلْدَار : كتابة عن الانهالك فى المعون
(٢) الصَّفاح : السيوف

ابن الوكيل^(١)

هو محمد بن عمر بن المرحل المعروف بابن الوكيل الديماطي ، ولد بدمياط سنة ٦٦٥ وانتقل مع أبيه إلى دمشق ، ونشأ بها ، وتولى التدريس في غير مدرسة هناك ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وأُسند إليه التدريس بها في زاوية الشافعي والشهد الحسيني والمدرسة الناصرية إلى أن توفى سنة ٧١٦ . ويقول السبكي : كان إماما كبيرا بارعا في مشهد الشافعي يضرب به المثل في البحث نظاراً مفرط الذكاء عجيب المحافظة . ويجانب ما كان يحفظ من كتب الفقه والحديث النبوي كان يحفظ مقامات الحريري وديوان المتنبي ، ويشيد مترجموه بما كان له من شعر ورباعيات وموشحات . وكانت له مشاركة في الشعر الشعبي : الزجل والبلايق التي تلور في الهزل . ومن قوله في إحدى موشحاته :

ما أنجَلَ قَدَهُ غصونَ البانِ بين الورقِ
إلا وسبَّا المها مع اليزلاني حُسْنُ الحَدَقِ
الصحة والسقام في مقلتي
والجثة والجحيمُ في وجَّتي
ما أبدع معنى لآخ في صورته
كالورد حواه ناعم الزينانِ بالطلُّ سُنِّي
والقدُّ يميل ميلةً الأخصان للشمعتني
أحبا وأموت في هواه كمدًا
من مات جوى في حبه قد سَعِدَا
بإعاذلُ لا أترك وَجْدِي أبدا

وقد استخدم ابن الوكيل في هذه الموشحة وزن الرباعيات ، لبدل على قدرته في ضبط النظم واللحن ، وأنه لا يقل عن المحارر الحلبي معاصره الذي حاكاه فيها وفي وزنها إبداعاً واقتنائاً .

الهاضرة ٤١٩/١ والبداية والنهاية ٨٠/١٤ وطبقات الناضبة
للسبكي ٢٥٣/٩ والبدر الطالع ٢٣٣/٢ وعقود اللآل في
الموشحات والأزجال للنواحي (انظر الفهرس) .

(١) راجع ترجمة ابن الوكيل في الفوات ٥٠٠/٢ والوفاء
بالوفيات ٢٦٤/٤ والنجم الزاهرة ٢٣٣/٩ وشرحات
الذهب ٤٠/٦ والدرر الكاسية لابن حجر ٢٣٤/٤ وحسن

وله موشحة جعل الشطور الثانية من نونية ابن زيدون المشهورة مضمنة في مطلعها وأخفاها كقوله في المطلع :

غدا مُتَادِينَا مُحْكَمَا فِينَا يَفْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
ويسرى التكلف إلى الموشحات بعد ابن الوكيل والعزازی ، غير أنها تظل حية وناشطة حتى أيام العثمانيين على نحو ما يلاحظ في كتب التراجم عند الشهاب الخفاجي وغيره ، وتلقانا عند المحبي موشحة بدبعة لزين العابدين البكري المتوفى سنة ١١٠٧ للهجرة عارض بها موشحة لابن سناء الملك ، ومن قوله فيها ^(١) :

اعجبوا من حُسن تلوين الميرون ثلُكمُ حَانَةً وهاتيكُم كِنَانَهُ
بِأَنِي مَرَّ الْجَفَا بِالذَّرِّ حَالِي
قَدَرُهُ قَدْ حَطَّ مِنْ قَدْرِ الْعَوَالِي
مَطْلَبِي مِنْ نَفَرِهِ كَثُرَ اللَّالِي

والموشح يسيل غدوبة ، وأنشد الجبرقي لقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ موشحاً ^(٢) عارض به موشحاً مشهوراً للسان الدين بن الخطيب .

البديعيات

إذا تركنا الموشحات إلى البديعيات وجدناها قديمة في الشعر المصري ، على الأقل منذ زار مصر أبو نواس وأبو تمام ، واستمع شعراؤها إلى ما في أشعارهما من طرائف البديع ومحسناته ، ولم يكن الشعراء المصريون يكتفون من استخدام تلك المحسنات والطرائف ، إذ كانوا يستخدمونها من حين إلى حين دون إفراط ، وظل ذلك دأبهم في الحقب الأولى من زمن الدولة الفاطمية على نحو ما يلاحظ في شعر ابن وكيع التنيسي المتوفى سنة ٣٩٢ . وإذا مضينا إلى القرن الخامس لقينا أهم شعرائه الشريف العقيلي شاعر الخمر والطبيعة ، وشعره زاهر بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق والمشاكلة ، ويتصنع في قلة لاستظهار بعض للمصطلحات العلمية ، ولكن

(١) نسخة الرخامة ٥١٩/٤ والكثانة : جبة السهام أشار بها إلى سهام الميرون . والعوال : الرماح وتشبه بها غلود النساء في الاستواء والاحتيال .
(٢) تاريخ الجبلي ١٩٨/١

ذلك كله لا يتقل عنه ولا نحس فيه بتكلف ، ونجد عنده التورية التي اشتهر بها المصريون في مثل قوله ^(١) :

وشاعرٍ شعره فنونٌ لكل يتَّ له طنينٌ
تُسنن عین العدو من قصائدٍ كلها عيونٌ

فقد ورى في كلمة عيون المقابلة لعين العدو وهو إنما يقصد بها آيات الشاعر النفيسة .
والتورية أمثلة أخرى في شعره ذكرناها في كتابنا ه الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ، ونجدها كثيرة عند الشعراء بعده ، مما يدل على أن ظهورها بمصر لم يتأخر حتى زمن القاضي الفاضل وأيام الدولة الأيوبية كما ظن ذلك صاحب الخزانة ^(٢) . ومن يرجع إلى القسم المصري من كتاب الخريدة للعماد الأصبهاني وما ترجم فيه من شعراء مصر في القرن السادس الهجري يلاحظ شيوع محسنات البديع على ألسنة شعراء القاهرة والإسكندرية ، كقول ابن فلاقس في وصف مغن ^(٣) :

لا أنربُ الرِّاحَ إلا مساين شادٍ وشادنٌ
فُسُمانديمى فأنصت والليل داجٍ لداجين
طاوِغ على القصفِ والمزَّ في كلِّ حاسرٍ مُحامين

والقطعة جميعها على هذا النمط من الجناس بين القافية والكلمة السابقة لها ، فشادٍ أى مغن تسبق كلمة شادن أى غزال ، وكلمة داج أى مظلم تسبق كلمة داجن أى مغن ، وكلمة حاسرٍ أى للشراب تسبق كلمة محاسن . وهو بذلك يصعب المرور إلى جناسه . وكانوا يكثرون في أشعارهم من الطباق ولهم فيه صور كثيرة طريفة كقول ابن هانئ الصغير في وصف سيف ^(٤) :

ومهاذٍ سَحَّ الفِرْدُ يَصْفَحُ وَطَفًا كَيْحَسَبُ مُعَمَّدًا مَلُولًا

والفرند ما يرى في صفحة السيف مما يشبه ديب الخمل أو الغبار . ومن حين إلى حين نرى عندهم الاقتباس من الذكر الحكيم وتقسيم بعض الشطور للجاهليين والإسلاميين والعباسيين كما

١٦١/١

(٤) الخريدة ٢٧٨/١

(١) للفرد (قسم القسط) ص ٢١١

(٢) الخريدة للصدي (طبعة بولاق) ص ٣٣٧ وما بعدها

(٣) الخريدة للعماد الأصبهاني (قسم شعره مصر)

نرى التورية معانقة لجناس تام في قول ابن قادوس^(١) :

لام الحواذل مخرمًا في حب مُلْهِبَةٍ وَقِيَّةٍ
ولو أَنَّهُ رَأَيْنَا نِيرَ الغرام به وَقِيَّةٍ

والتورية والجناس واضحان في كلمة « وقينه » المكررة في نهاية البيتين ، والواو في الأولى عاطفة وفي الثانية من أصل الفعل : « وقى » وهى موضع التورية . وبجانب ذلك نجد عند الشعراء لعهد الفاطميين عناية بمراجعة النظر في الصور والكلمات ، واستخدموا في قلة شديدة مصطلحات العلوم وتسمى باسم التوجيه ، وحتى الألفاظ نجد بها مبثوثة في أشعارهم . ويذكر العماد شاعرا من بينهم تسمى ابن مجهر كان يعنى بصنع الألفاظ فيما يبدو عناية شديدة^(٢) .

ويحمل لواء هذه البديعيات في زمن الدولة الأيوبية القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الذى نشأ وترعى في الدواوين الفاطمية على أمثال ابن قادوس وغيره من الشعراء والكتاب الفاطميين . ويحمل ابن حجة الحموى والصفدى إمام الشعراء في زمنه وبعد زمنه^(٣) في استخدام المحسنات البديعية من تورية وغير تورية ، ويقولان إنه سار في دربه على منواله ونهجه ابن سناء الملك ومن خلفوه من شعراء الدولتين الأيوبية والملوكية أمثال الجزار المتوفى سنة ٦٧٢ وناصر الدين ابن النقيب المتوفى سنة ٦٨٧ وعيسى الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ والوراق المتوفى سنة ٦٩٥ وابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ ونصير الدين الحامى المتوفى سنة ٧١٢ . ونستطيع أن نضم إلى من سبقناهم من شعراء القرن السابع من جاءوا بعدهم طوال هذا العصر من أمثال ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ والقيراطى المتوفى سنة ٧٨١ وابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ . وحتى شعراء الصوفية من أمثال ابن الفارض نجدهم يستخدمون هذه المحسنات بكثرة . وجعلها النقاد القطب الذى تدور عليه كتاباتهم في فن الشعر ، يتقدمهم في ذلك ابن أبى الإصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ على نحو ما هو معروف عنه في كتابه « تحرير التجبير » .

وتصبح البديعيات المقياس أو المقاييس الدقيقة لإبداع الشعراء . وتتضمنها قصائد في مديح الرسول ﷺ تسمى البديعيات وتشرح شروحا مطولة ، ومن أهم هذه القصائد قصيدة للسيوطى أو بديعية سماها « نظم البديع في مدح خير شفع » وله عليها شرح ، وكانت تعاصره عائشة

(٣) انظر خزنة الأدب للمصوى (طبع مطبعة بولاق)
ص ٢٩٨ و ٢٩٩

(١) الخريدة ٢٣١/١

(٢) الخريدة ٢٣٠/٢

الباغونية للتوفاة سنة ٩٢٢ وقد جعلت بديعيتها في مائة وثلاثين بيتا . ويلاحظ أن استخدام الشعراء المصريين طوال هذا العصر للمحسسات لم يسمح ولم يثقل ولم يتحول إلى صور من التكلف المقيت حتى أيام العثمانيين ، وكأنما حالت العذوبة التي تنطوى عليها نفوسهم وأمزجتهم والتي تجري بها مياه النيل في أرضهم ، بين كل ذلك وبين ما استخدموه من محسسات البديع وتلاوينه . وقد يما لاحظ ذلك ابن سعيد صاحب كتاب المغرب حين نزل الفسطاط والقاهرة واختلط بشعرائها ، إذ لم يلبث أن أنشد^(١) :

أيا ساكني مصر عَدَا الثُّبُلُ جَارَكُمْ فَأَكْسِبُكُمْ تِلْكَ الْحَلَاوَةَ فِي الشَّعْرِ
وَكَانَ بِتِلْكَ الْأَرْضِ سَحَرٌ وَمَا بَقِيَ سِوَى أَثَرٍ يَدُو عَلَى النِّظَمِ وَالنَّثَرِ

وسنذكر نفثات من آثار هذا السحر وما طوى فيه من حلاوة وعذوبة في تراجم الشعراء لتلك الأزمنة

٤

شعراء المديح

يكثف الشعر العربي في مصر بالمديح منذ زمن الولاة للبكر أيام الدولة الأموية ، وخاصة في ولاية عبد العزيز بن مروان إذ كان جوادا ممدحا ، فانتجعه شعراء الحجاز ونجد والعراق ، وبظلل شعر المديح يجري على ألسنة الشعراء أيام الدولة العباسية ، ويזור أبو نواس مصر لمدمح وإلى الخراج بها : الخصب ، ويضئ عليه مدائح رائعة ، ولا يلبث أن يزورها أبو تمام ، ويمدح عباس بن هبة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج كما مر بنا ، كما يمدح واليا عبد الله بن طاهر . ومن أهم شعراء مصر حينئذ المعلّى الطائي ، وأنشدنا في غير هذا الموضع بعض مديحه في عبد الله بن طاهر وإلى مصر للمأمون . ويُظَلِّها عهد الدولة الطولونية ويتبارى شعراؤها في مديح أحمد بن طولون . وأهمهم في بواكير حكمه لمصر الحسن^(٢) بن عبد السلام المشهور بلقبه الجمل الأكبر المتوفى سنة ٢٥٨ ، وله من قصيدة في مديحه :

والنجوم الزاهرة ٣٠/٢ وله في كتاب الولاة والفضاء للكتدي
أشعار مفرقة .

(١) نوات الرقيات ٢٣٦/١
(٢) تنظر في ترجمة الجمل الكبير مجسم الأدياء لياقوت
١٢١/١٠ والمغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠

له يَدُكُمْ خَلَّلْتُ مِنْ يَدِ سَحَابَةٍ عَمَّتْ بَاتُونَهَا
انظُرْ إِلَى مِصْرَ بِلْطَانِهِ تَرَى الْهُدَى فَاضٍ بِأَرْجَاتِهَا

ومن شعراء الطولونيين المرمي^(١) القاسم بن يحيى المنسوب إلى جده أبي مريم السلولى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو شاعر أبي الجيش خازنويه اختص به وأصبح عليه كثيرًا من نواله ، وفيه يقول :

يقولون لى ما بال رَحْلِكَ دالما بمِصْرٍ وَأَنَا لَسْتُ عَنْ غَيْرِهَا أَرْضَى
وكيف رحيلى عن بلادٍ غدا بها أبو الجِيشِ والثَّيْلُ الذى مَلَأَ الْأَرْضَا

وتوفى المرمي سنة ٣١٦ .

وكان الشعراء قد أخذوا يتكاثرون بالفسطاط منذ الدولة الطولونية كما مر بنا . وأطرد تكاثرهم في عهد الدولة الإخشيدية ، وفي أيامها بدأ عصر الدول والإمارات الذى تؤرخ له في هذا الجزء وكان الإخشيد قد ملك مصر والشام ونزح الروم وخطب له بالحجاز واليمن . ولذلك يقول شاعره سعيد^(٢) بن فاجر من قصيدة يمدحه بها :

باملكَ الشامِ ومِصرَ إلى أَقصى نِغورِ الرومِ والشامِ
واليمنِ الأبعدِ لأوالِ [مُدَّ كُكُكُمْ] رَفِيعًا قَادِرًا حَامِي

ويتوفى الإخشيد سنة ٣٣٤ بعد أن أوصى لمولاه أبي المسك كافور الجبشى بتدبير الدولة لابنيه : أو نوحور وعلى ، ويتوفى أولها سنة ٣٤٩ ويخلفه أخوه على ويتوفى سنة ٣٥٤ وقبل سنة ٣٥٥ . ويستقل كافور بالملك حتى وفاته سنة ٣٥٧ وكان ساعده الأيمن في حكمه وزيره جعفر بن الفرات المعروف باسم ابن حنابلة . وكان كافور مملوحا ، فقصده الشعراء من كل فَجٍّ وفي مقاديرهم كشاحم شاعر الشام ، والتنبى إمام الشعراء لزمته وبعد زمة وكان أول ما أنشدته يائته ، وفيها يقول :

(٢) انظر سعيد (الغنى البكر) في اللقب (قسم الفسطاط) ص ١٩٧ و ٢٧٢ ولعله هو نفسه سعيد القاسم المذكور في التبرج المزاهرة ١٨١ / ٣ بين من رثوا الدولة الطولونية

(١) راجع في المرمي للغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٧١، ١٣٦ وانظر أقطرًا مفرقة له في الولاية والقضاء لكندى في أشعار عمارويه وفي مقالاته من مجلة الحجة : العدد ١٨٢ ومجلة الكتب العراقية سنة ١٩٧٤ في مدى آب وتشرين الثاني

قواصد كافر توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
وغير كثير أن يزودك راجل فخرج ملكا للبراقين واليا

وظل المتنبي نحو أربع سنوات يتظر أن يؤيه كافر على بعض بلدان الشام التابعة لمصر . حتى
إذا نفذ صبره ارتحل إلى العراق بليل وهجاء هجاء مرا .

وتستقبل مصر سرى عهده الدولة الفاطمية ، إذ يتزها جوهر الصقل ويؤسس بها القاهرة
ومسجدها العظيم الأزهر ويتبعه المعز الخليفة الفاطمي ، وتصبح القاهرة حاضرة لملكه الضخمة
ودولة أبنائه وأحفاده من بعده ولا يلبث المعز أن يتوفى سنة ٣٦٥ ويخلفه ابنه العزيز (٣٦٥ -
٣٨٦ هـ) ويتخذ يعقوب بن كلس وزيرا له ، وكانا يميزان العطاء للشراء ، مما جعل ألسنتهم
تلجج بمدحها ، على شاكلة قول عبيد الله بن أبي الجرج في إحدى مدائحه (١) :

لولا العزيز وآراء الوزير معا تحيئتنا خطوب تفتب الأما

ولم يمدح المعز في أيه وأخيه العزيز مدائح طائفة ، ونزل القاهرة في عهد المعز أبو الرقيم
الأفطكي : أحمد بن محمد ، وأقام بها زمانا طويلا حتى توفى سنة ٣٩٩ ويقول ابن خلكان :
« معظم شعره في ملوك مصر ورواسيها : مدح بها المعز وولده العزيز والحاكم بن العزيز والقائد
جوهرا والوزير يعقوب بن كلس وغيرهم من أعيانها » (٢) وينشد له قصيدة في مديح ابن كلس .
وكان محمد بن القاسم بن عاصم الملقب بصنّاعة الدوح شاعر الحاكم ، وأنشده في زلزلة حدثت
بمصر من قصيدة في مديحه (٣) :

بالحاكم العدل أضحى الدين معتبلا نجل الملا وسليل السادة الصلحا
مازُزلت مصر من كيد يُراد بها لكنها رقصت من عدله قرحا

ويل الحاكم ابنه الظاهر ، ويتزل مصر في أول عهده صريع (٤) الدلاء البغدادى ، ويمدحه

١٥٥/٣ .

(٣) للمرب (لم القاهرة) ص ٣٢٨ وانظر في صنّاعة
الدوح حسن الماهرة ٥٦٢/١

(٤) انظر صريح الدلاء في تمة النتيجة ١٤/١ وفي ابن
خلكان ٣٨٢/٣ والعبر ١١٠/٣ والفتريات ١٩٧/٣

(١) راجع خطط القريزي ٢٩٦/٢ وانظر في ابن
أبي الجرج النتيجة ٣٩٥/١ ومر بها حديثه . تشب :
عرق وعسد .

(٢) ابن خلكان ١٣١/١ وما بعدها وانظر في
أبي الرقيم النتيجة ٣٢٦/١ والعبر ٧٠/٣ والفتريات

ويخلفه المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧). ويعتلى الوزارة بدر الحمال سنة ٤٦٨ ويصبح الأمر والسلطان منذ هذا التاريخ بيد الوزراء. ويخلفه على الوزارة ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥ هـ). وكان شاعرا كما كان مدحا، فبعث نهضة قوية في الشعر، وصفها - كما مر بنا - أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية، معددا فيها أسماء الشعراء في زمنه ممن مدحوه وهجوه جميعا. ومن كبار مدّاحه ظافر الحداد وسترجم له بين شعراء التشيع، وحسن بن زيد الأنصارى وسترجم له بين الكتاب، وله فيه مدائح رائعة من مثل قوله^(١).

أَيُّمُكَ الثُّرُ مصقُولٌ عوارضُها كَانَ آصالها من رِقَّةٍ بُكَّرْ
أَحْمَلْتُ ذَكَرَ ملوكٍ كنت خاتمهم وَأَنْجَمُ الليل في الإصباح تُسَيِّرُ
بعضُ الورى أَنْتَ لكنْ فُتِّمْتُمْ شرقاً إن الحجارة منها الدرُّ والندرُ
نحال راحته والمشرقى بها سحابةٌ ظلُّ فيها التبرقُّ يستمرُ

ولفظه جزل متين وصوره بديعة، مما يدل على شاعرية خصبة. ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية الوزير طلائع بن زُرَيْك، وكان مثل الأفضل الجمالي راعيا لكثير من الشعراء مثل ابن قادوس والقاضي الجليس والمهذب بن الزبير وأخيه الرشيد. وترتحر الحريدة وكعب الأدب بمدائحهم لطلائع..

وكانت هناك مواسم كثيرة في زمن الدولة الفاطمية يقدم فيها الشعراء مدائحهم للخلفاء. في مقدمتها الأعياد وموالات الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين والخليفة الذي بيده صولجان الحكم وعيد الغدير ويوم عاشوراء وليالي رمضان وأول رجب وأول شعبان وأول السنة وأعياد النصارى وليلة الغطاس وليلة الثيروز ووفاء النبل وما يقترن به من فتح الخليج. وفي كل هذه الأعياد وما يماثلها كانت تقام احتفالات ضخمة، وكان الشعراء يهتدون بها الخلفاء، وكل يحاول أن يكون له نصيب السبق على أقرانه. ويصور لنا ذلك المقرئ من بعض الوجوه في إحتفال بوفاء النبل سنة ٥١٧ لمهد الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ). إذ يذكر بعض الأشعار التي أنشئت وما كان يصحبها من نقد يديه بعض المستمعين، من ذلك^(٢) أن ابن جبر أنشد في هذا الاحتفال مدحة استهلها بقوله:

(١) الحريدة للمعاد الأصمالي (قسم شعراء مصر) (٢) غلط للمقرئ ٧٥٣/٢. ٧١/٢.

فَجَحَّ الخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ الْمَاءُ وَعَلَتْ عَلَيْهِ الرَّابِئَةُ الْبَيْضَاءُ
فَصَفَّتْ مَوَارِدُهُ لَنَا فَكَانَ كَفُّ الْإِغَامِ فَعَرَفَهَا الْإِصْطَاءُ

فانتقد عليه الناس قوله : « فسال منه الماء » قالوا أى شيء يخرج من النهر غير الماء . وبذلك ضيقوا عليه ما قاله بعد هذا المطلع . وأنشد شاعر مدحة افتتحها بقوله :

لَمَنْ اجْتَمَعَ الخَلِجُ فِي ذَا الْمَشْهَدِ لِلثَّبَلِ أَمْ لَكَ يَا بَنِي بَنِي مُحَمَّدٍ

فهلل الناس لمطلعه ، فأمر له الخليفة الأمر على الفور بخمسين ديناراً وتخلع عليه وزيد في جاريه . ومروا بنا حديث المنطرة التي بناها الأمر للشراء ببركة الحبش ورفوفها وما كان عليها من صُررٍ للشراء وفي كل صُرَّة خمسون ديناراً جزاءً وفاقاً للمدبحهم ، وكان ذلك كان مكافأة معلومة لهم . ويخلفه الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ويبدو أن الشراء كانوا يتأدون أيامه في تطويل مدائحهم ، فأمرهم أن يختصروها مما جعل أبا العباس أحمد بن مفرج ينشده في إحدى مدائحه (١) :

أَمَرْتَا أَنْ نَصَوِّغَ الْمَدْحَ عَتَصْرًا لِمَنْ لَا أَمَرْتَ نَذَى كَتَبْتُكَ يُخْتَصَرُ
وَأَقَّةً لَا بُدَّ أَنْ نُجَرِّي سَوَاقِنَا حَتَّى يَبِينَ لَهَا فِي مَدْحِكَ الْأَكْرُ

فأمر الأمر بالعود إلى ما كانوا عليه .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس منذ أواخر القرن الخامس ، وأسوا به مملكة وأضافوا إليها مملكة في طرابلس وثالثة في أنطاكية ورابعة في الرها ، وبلغت مصر حيث من الضعف مبلغاً بعيداً لم تستطع خلاله أن تقاومهم إلا بعض تجريدات عسكرية وخاصة في عهد وزيرها طلائع بن رزيك ، تجريدات لم تُغن عنها شيئاً . وبينما اليأس يجيم على الناس إذا جهاد الدين زنكى يخلص الرها من أيديهم ، ويقضى على مملكتهم فيها قضاء مبرماً ، ويتابع جهاده ابنه نور الدين ، ويستغث به شاور في مصر ضد ضرغام فيرسل إليه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعاً ، فينهي صلاح الدين حكم الفاطميين لمصر ، ويقبض على صولجان الحكم . ويتوفى نور الدين ، فيضم الشام تحت لوائه ، ويأخذ في الانقضاض على الصليبيين ، وكلما اتق بهم دثر جموعهم تدميراً ، حتى كانت الموقعة الفاصلة : موقعة حطين التي

استولى فيها للسلمون على الصليب الأعظم : صليب الصُّلبوت ، وأسروا قواد الصليبيين وزعماءهم ومزقوا جموعهم شرمزق . ويقول للزُّرخون إنهم أكثروا منهم في القتل والأمصر حتى كان من يشاهد القتل يظن أنه ليس وراءهم أسرى وكان من يشاهد الأمصر يظن أنه ليس وراءهم قتل ، ويقولون إنه بلغ من كثرة الأمصر أن كان الأمير منهم يباع في أسواق الرقيق بثلاثة دنانير ، وفي هذا النصر العظيم أنشد العباد الأصباقي صلاح الدين مدحة رائمة يقول فيها ^(١) :

حططت على جطينَ قدرَ ملوكهم ولم يُثني من أجناس كفرهم جُنا
بطونُ ذئاب الأوض صارت قبورهم ولم ترضَ أرضٌ أن تكون لهم رُما ^(٢)
سيايا بلادُ الله مملوءةٌ بها وقد شربتَ بحسك وقد عُرِضتْ نَحسك ^(٣)
يُطافُ بها الأسواقُ لا راعِبُ لها لكثرتها كم كثرة توجب الوُكسا ^(٤)
وفُتحت لصلاح الدين بعد هذه المعركة أبواب مدن كثيرة في فلسطين ولبنان مثل نابلس وبيت
جبريل (بير سبع) وقيسارية وحيفا وصَبيدء وبيروت . وتفتح الشراء في مصر والشام والعراق بهذا
النصر المبين . وسرعان ما تلاه صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، وعمُّ الفرح بهذا الفتح جميع
البقاع الإسلامية ، وتغنى به الشعراء طويلا من مثل قول محمد بن أسعد نقيب الأشراف
بمصر ^(٥) :

أُكْرِيَ منامًا ما يَحْيَى أُبْعِرُ الْقُدْسُ يُفْتَحُ وَالْفَرَنْجَةُ تُكْسَرُ
قد جاء نصرُ الله والفتحُ الذي وعدَ الرسولَ فَبِحُوا واستغفروا
فُتِحَ الشَّامُ وطُهرَ الْقُدْسُ الذي هو في القيامة للأنام المحتر

وكان هذا تحولا واسعا في قصيدة المديح المصرية ، فلما لم تعد - كما كانت أيام الفاطميين -
قصيدة تُنشد في الأعياد والاحتفالات الرسمية : قصيدة مناسبات ، بل أصبحت قصيدة أبحاد
حرية مظفرة . وتنبه لذلك أبو شامة في الروضتين فأنتج المواقع الحربية بما نُظم فيها من مدائح
نصور البطولة العربية تصويرًا يملأ نفس كل عربي بالفتوة والقوة والمَصَّاء ويدفعه دفعا إلى أن
يَكْبِل لأهداء العروبة والإسلام ضريات قاصمة .

(١) الوكس : البيع بالحسرة .

(١) الروضتين لأبي شامة ٨٣/٢ .

(٥) الروضتين ١٠٥/٢ .

(٢) رسا : قبرا .

(٣) نحسا : من النخاسة وهي بيع الرقيق .

ولا يكفر المديح الحماسي لصلاح الدين فحسب ، بل يكفر أيضا لقواده من إخوته ، وخاصة أخاه العادل ، وفيه يقول القاضي الفاضل من قصيدة بدعية^(١) :

أَهْدَى كَفَّهُ أَمْ خَبْتُ غَوْتِ وَلَا بَلَغَ السَّحَابُ وَلَا كَرَامَةً
وَهَذَا بَشْرُهُ أَمْ لَنَعُ بَرِّقِ وَمَنْ لِلْبَرِّ فَبِنَا بِالْإِقَامَةِ
وَهَذَا الْجَيْشُ أَمْ صَرَفُ اللَّيَالِ وَلَا سَبَقَتْ حَوَادِثُهَا زَحَامَةً
وَهَذَا الدَّهْرُ أَمْ حَبْدٌ لَدِيهِ بِصَرْفٍ عَنْ عَزَمَتِهِ رِزَامَةً
وَهَذَا الثَّرْبُ أَمْ خَدٌّ لَكُنَّا فَاتْلُ الشَّاهِ عَلَيْهِ شَامَةً

ويعرف هذا الأسلوب في البديع باسم تجاهل العارف مبالغة في المديح ، فالقاضي الفاضل لا يدري أكرم ما يصيبه هو وأمثاله من العادل أم غيث سحاب منهر ، بل إن السحاب دون كرمه الفياض . ولا يدري أبشر وجهه الذي يتلألأ أم البرق ؟ غير أن البرق يعرض ويزلز أما هو لمقيم لا يريم . وأيضا لا يدري ما يقوده إلى النصر جيش أم هو صرف الليالي ، بل إن الدهر عبد لديه يصدع بأمره ومشيئته ، ويعجب لما يسير عليه وكأنه يسير على خلود يرى عليها آثار الشفاء التي تقبل الأرض من دونه ، لكثرة الحشود المزدهمة على تقيلها ، وكأنها نفس الشامة التي نراها على الخلدود .

ويظل جهاد الصليبيين الموضوع الأهم في مدائح السلاطين الأيوبيين حتى إذا كانت سنة ٦١٥ غزا حَمَلَةُ الصليب دمياط لعهد السلطان الكامل ، وظلوا بها نحو ثلاث سنوات ، وحلَّتْهم أنفسهم أن يتقدموا إلى الجنوب نحو المنصورة واستنفر السلطان الكامل أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والشام والأشرف موسى صاحب الولايات الشرقية حتى الفرات . وتجمعت جيوشهم وأنزلت بحملة الصليب هزائم ساحقة ولوا على إثرها قارين إلى البحر المتوسط وما وراءه . وتغنى البهاء زهير بهذا النصر المجيد في مدحة أنشدها السلطان الكامل وفيها يقول^(٢) :

يَكْ اهْتَزَّ عِطْفُ الدِّينِ فِي حَلَّلِ الثَّوْبِ وَرُدَّتْ عَلَى أَهْقَابِهَا بِلَّةُ الْكُفْرِ
وَمَا فِرَحَتْ مَعْبَرٌ بِذَلِكَ وَحْدَهَا لَقَدْ فَرَحَتْ بِقُدَّادٍ أَكْثَرَ مِنْ يَضُرِّ
فَن مِبلغُ هَذَا الْمَنَاءِ لِمَكَّةَ وَيُثْرِبَ بُنْيَمِهِ إِلَى صَاحِبِ الْقَبْرِ

(٢) البهاء زهير للشخ مصطلح عبد الرزاق (طبعة سنة ١٣٥٤ هـ) ص ٦٥

(١) خزائن الأدب للحصري (طبع مطبعة بولاق) ص

والبهاء زهير يصور تهلل الدين الحنيف باندحار الصليبين وأن الفرحة بالنصر الباهر لم تم مصر وحدها بل عمت أيضا بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وأنه لحري أن تنهأ به منازل الوحي في مكة والمدينة وأن يهتأ به الرسول في جدته الطاهر. وكأنما كان هذا النصر درسا ظل حملة الصليب يذكرونه نحو ثلاثين عاما، حتى كانت سنة ٦٤٧ إذ تجمّعوا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ونزلوا ديباط واتجهوا نحو المنصورة، غير أن المصريين بقيادة توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين عصفوا بهم سنة ٦٤٨ وسحقوهم سحقا ذريعا، وأخذ لويس التاسع أسيرا وسُجن بدار ابن لقان كاتب الإنشاء وكان يحرمه الطواشي صبيح. وأذعن لشروط الصلح التي فرضها توران شاه وخرج من مصر مع فلول حملته خاسئا مدحورا. وتتطور الظروف سريرا، فيقتل توران شاه وتحمله شجرة الدر فالسلطان أيك. ولعل التابع السريع لهذه الأحداث هو الذي عقد السنة الشعراء فلم يتغنوا ببطولة توران شاه وجيشه الباسل وما أذاق حَمَلَة الصليب من نكال شديد.

وتظل مصر وشعراءها دولة المالبك، وما توافى سنة ٦٥٧ حتى تكسح سيول التار الشام وتبسط إلى الجنوب في فلسطين ويلتقي بها جيش المالبك فيكبح جماحها في عين جالوت، ويردها قُطر والظاهر بيبرس إلى غير مأب. ويصبح بيبرس سريرا سلطان مصر سنة ٦٥٨ وكان على المهمة بعد النظر، فأعاد الخلافة العباسية في القاهرة، وبذلك أصبحت مصر حامية الخلافة والإسلام. وعصره يُعد العصر الذهبي في زمن المالبك، وقد صورناه من بعض الوجوه وصورنا فتوحاته وحروبه المستمرة مع الصليبين والتار، وكيف قُوض للأولين مملكتهم في أنطاكية، وما كان من تعقبه الدائم للتار في الموصل. وسمع يوما يجمع لهم على الشاطئ الشرق للفرات، فخاضه إليهم وخاضه الجيش معه فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم ينج منهم إلا القليل، وفي ذلك يقول ناصر الدين حسن بن النقيب الكتاني - وكان حاضر الواقعة - من قصيدة طويلة^(١):

ولما تزامينا الفراتَ بِحَبْلِنَا سَكْرَنَاهُ مِنَّا بِالْقُوَى وَالْقَوَائِمِ^(٢)
فَأَوْقَفَتِ النَّبَارَ عَنْ جَرَيَانِهِ إِلَى حَيْثُ عُذْنَا بِالْإِنْفَى وَالضَّامِ

وكان الشعراء ينثون على بيبرس قصائدهم في كل معركة وكل نصر مظفر على التار والصليبين وفي أرمينية وآسية الصغرى، وبالمثل حين كان ينشئ المدارس والمساجد، وفي مدرسة الظاهرية

يقول السَّراج الورَّاق من مدحة بديعة^(١) :

وشبَّدها للعلم مدرسةً غداً عراقاً إليها شَبَّوْ وشاماً
ولا تذكرون يوماً نظاميَّةً لها فليس يُضاهي ذا النظامِ نظاماً

فهو في رأى الورَّاق تفوق المدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك في بغداد .
ولا يلبث أن يتولى مقاليد الحكم بعد بيبرس السلطان قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) . ومُرَّبنا
بناؤه لمارستان ضخيم وإلحاقه به مدرسته المنصورية ، وفي ذلك يقول معين الدين عثمان بن
سعيد بن تولو التنيسي المصري مستهلاً قصيدة في مديحه بقوله^(٢) :

أنشأت مدرسةً ومارستاناً لتصحيح الأدبان والأبدان

ونازل قلاوون الصليبيين مراراً ، واستولى منهم على بعض الحصون . وخطفه ابنه السلطان
خليل (٦٨٩ - ٦٩٣) وكان بطلاً مبرحاً فافتتح أيامه بجهاد حملة الصليب واستطاع في أقل من
ثلاث سنوات أن يستخلص منهم عكا وصور وصَيْداً وبيروت وجميع سواحل الشام ، فلم يبقَ لهم
بلد ولا قلعة ، ومن بقى منهم ولَّى على وجهه إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان الشراء ما يتون
يهتئون السلطان خليل بفتوحه ، ولبدر الدين النجفي التاجر بالقاهرة قصيدة طويلة في تهنته
بانتصاراته المجيدة أولها :

بلغت في الملك أقصى غاية الأمل وفُتْ شأؤْ ملوكِ الأحصِرِ الأولِ

ونظم كثيرون من معاصريه قصائد وأشعاراً مماثلة من ذلك قول البوصيري شاعر المدائح النبوية
الشهور^(٣) :

قد أخذ المسلمون عكاً وأشجوا الكافرين صكاً
وساق سلطاننا إليهم خيلاً تدكُّ الجبال دكاً

وحقاً أشجعهم صكاً وقتلاً ودفعاً إلى البحر المتوسط في غير رجعة ولا مآب ، فقد سقطت
عكا آخر حصونهم ، بل لقد دمرتها مجانيق المصريين وحرقتها نيرانهم ، وفي ذلك يقول أحمد

(٣) ديوان البوصيري (طبع مطبعة مصطفى الحلبي) ص
٢٣١ .

(١) المخطوط المنقوَّى ٣٤١/٣
(٢) النجوم الزاهرة ٣٢٧/٧ .

ابن عبد الدائم الشارمَسَاحِي (١) :

لا تمنعوا للمجانين التي رشقت عكا بنارٍ وهذتها بأحجارٍ
بل اعجبوا للسان النارِ قاتلةً هذى منازلُ أهل النارِ في النارِ

وتتوقف حركة الفنون ، فلم يعد في الشام صليبيون ، ويتحول شعر المديح إلى شعر مناسبات في الأعياد ، وحين يستول سلطان على مقاليد الحكم ، وخاصة إذا قرب من نفوس الشعب مثل السلطان الأشرف شعبان (٧٦٥ - ٧٧٨ هـ) . وكان قد استول على صولجان السلطنة في ربيع الثاني فقال ابن نباتة :

طلعتُ سلطاننا نبئتُ بكامل السُّعد في الطلوع
فأعجبُ لما نبتك كيف أبدتُ هلالَ شعبانٍ في ربيع

وكانت أيام حكمه أيام أمن ورخاء وازدهار للآداب والفنون ، وفيه يقول شهاب الدين أحمد بن العطار (٢) :

للملك الأشرف المصور سيدنا مناقبُ بعضها يبدو به العجبُ
له خلائقُ ييضُّ لا يغيرُها صرْفُ الزمان كما لا يصدأ الذهب

وللعطار أشعار كثيرة في أحداث زمنه أنشد منها ابن تغري بردي طائفة في الجزء الحادى عشر من كتابه النجوم الزاهرة . ولما تولى مقاليد السلطنة الظاهر برقوق يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ ملحه بقوله من قصيدة :

ظهورُ يومِ الأربعاء ابتدا بالظاهر المعتزُّ بالقاهر
والبشرُّ قد تمَّ وكل امرئٍ منشرحُ الباطل بالظاهر

وربما كان أهم حدث بلغنا بعد ذلك فتح السلطان الأشرف برسباى لجزيرة قبرص إذ كانت موئلا لكثير من القراصنة اللذين كانوا يعيشون فسادا في البحر المتوسط وما يحمل من سفن تجارة للمصريين ، كما كانوا يعيشون فسادا في شواطئ مصر والشام ، وأرسل إليها برسباى حملات ثلاثا انتهت بالاستيلاء عليها سنة ٨٢٩ وتغنى الشعراء بهذا النصر المجيد في عدة قصائد ، من ذلك

(١) فوات الخفيات ٨٦/١ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨٣/١١ .

قصيدة زين الدين عبد الرحمن بن الحُرَاط أحد كتاب الثُّغَت ، وفيها يقول ^(١) :

بُتْرَاكَ بِأَثْلَكَ المَلِكُ الأَهْرَفُ يَفْتَحُ قَبْرَ الحَسَامِ المَشْرِقِ ^(٢)
كَحْ تَفْتَحُ السَّمَوَاتِ العُلَا مِنْ أَجْلِ بَالِثُصِرِ واللُّطْفِ الحَيِّ

ولا نعود نسمع عن انتصارات حرية مجيدة أيام المالك ، ويصبح المديح مديح مناسبات
للسلاطين في توليهم مقاليد الأمور وفي الأعياد .

ويُظَلُّ مصر عهد العثمانيين وفيه يقدم الشعراء مدائحهم للولاة ونوابهم وكبار الموظفين في زمنهم
ويكسب تاريخ الجبرتي وغيره بأشعارهم على نحو ما بلغنا في مديح الوالي العثماني رضوان كتنخلنا
المتوفى سنة ١١٦٨ وكان قد بنى لنفسه عدة قصور وعاش للهناء ، وقصده الشعراء ومدحوه
بالقصائد والأواجيز والموشحات والمقامات وأعطاهم الجوائز السنية . واتخذ له جلساء وندماء منهم
عبد الله الإدكاري ، وقد صنف في مدائحه كتابا سماه « الفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية » ومن
كبار مداحيه مصطفى اللقيبي الدبائلي ، وله مقامة طويلة ضمنها أشعار كثيرة في مديحه ، وله فيه
مزدوجة فريدة ، يقول فيها ^(٣) :

مَلِكٌ سَعِدَ قَدْ سَمَا فِي عَصْرِ مُؤَيَّدٌ مَعْظَمٌ فِي مِصْرٍ
مَعْرُزٌ كِيُوسُفِي فِي قَصْرِو عَلَيْهِ مَنشُورٌ لَوَاءُ نَصْرِو

ومن مداح رضوان قاسم ^(٤) بن عطاء الله ، وله فيه مزدوجة بدعية ومدائح كثيرة ، وله أيضا
فيه توشيح عارض به الموشح المشهور للسان الدين الخطيب ، وفيه يقول :

كَمُ النِّبْتُ عَلَى النَّاسِ هَمًا فَأَعَادَ الخِصْبَ بَعْدَ اليَاسِ
أَصْبَحَ الدَّهْرُ بِهِ مَبْتَسِمًا وَهُوَ فِي فِيهِ عِلُّ اللِّقْسِ

ويُكْتَزُّ مدح الشعراء لعطاء الأهر الأبله ، وبلغنا ابن الصلاحى ^(٥) السيوطى كلفا بأستاذه
الشمس الحنفى ، وله فيه مدائح كثيرة على شاكلة قوله :

(٤) الجبرتي ١/١٩٣ وما بعدها وانظر ترجمة قاسم في

١٨٤/٢ .

(٥) الجبرتي ١/٢٦٥ وما بعدها

(١) النجم الزاهرة ١٤/٢٩٩ .

(٢) للمشرق : نسبة إلى مشارف الشام أو اليمن ،

والسيف للمشرية : سيف حادة لاطمة .

(٣) الجبرتي ١/٢٣٢ .

إمام الهدى الرافى إلى ذروة العلا إلى رتبة عنها الثوابت تقعد
وماشتت قل فيه فانت مصدق مزياه تقضى والحاسن تشهد

وأكتوا حيث من التأريخ بالشعر يورخون به قدوم والو أو مناسبة من المناسبات في آخر شعر
بالقصيدة إذ تحب حروف الكلمات فيه بحساب الجمل فتكون سنة الولاية أو سنة المناسبة ،
ويحسن أن نستعرض شعراء المديح التابعين على مر الحقب .

المهلب^(١) بن الزبير

هو الحسن بن علي الفسافي ، ولد بأسوان في أوائل القرن السادس الهجري ، وبها تنف علوم
العربية ، وأولى ملكة شعرية خصبة ، فلم يلبث أن لهج بالشعر ، وما اتصل معه إلى سنة ٥٢٦ حتى
نراه يتصل بيني المكثر سراً ببلدته ، ويمدح كبيرهم بقصيدة بديدة يقول فيها :

لئن جهل المذائح طرقت مديحكم ظنى بها من سائر الناس أعلم
وهل لى حمد فى الذى قلت فيكم وتعاكم عندى القى تكلم

ونال على قصيدته جائرة كبيرة : ألف دينار . ودفعه طموحه الأدنى إلى التزوج عن بلدته إلى
القاهرة : حاضرة الفاطميين وموطن الشعراء الكبار . ونراه يمدح رضوان بن ولحشى وزير الخليفة
الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ولعله هو الذى أنفذه في مهمة إلى اليمن ، فأكتب على كتب
النسب ، وألف فيه دائرة معارف ضخمة قال ياقوت إنها تقع في أكثر من عشرين مجلدا . ولم
تصرفه عنايته بهذه الدائرة عن الشعر والمديح . وأهم وزير اتصل به بعد ابن ولحشى طلائع بن
رزك (٥٤٩ - ٥٥٦ هـ) . وكان بعد أكبر شاعر في زمنه ، وقد ترجم له الهاد الأصبهاني ترجمة
ضافية استلها بقوله : « المهلب بن الزبير يحكم الشعر كالبناء المشيد ، لم يكن في زمانه أحد أشعر
منه ، وله شعر كثير وعمل في الفضل أثيرة . والغالب على شعر المهلب المديح .

ومن يدرس الشعر العربي يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ، فهي تقوى

الصعيد ص ١٣ ، ١٠٠ وابن خلكان ١/١٦١ في ترجمة
أنبه الرشيد وروايات الوفيات ٢٤٣/١ والتجريد الزاهرة
٣١٣/٥ وحسن المحاضرة للسيوطي ١/٥٦٣ .

(١) انظر في ترجمة المهلب وأشعاره غريدة القصر (قسم
شعراء مصر - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٠٤/١
ومجموع الأدباء ٤٧/٩ والنكت المصرية لعمارة اليمن ص
٣٥ والطالع السعيد الجناح لاشتقاء الفضلاء والرواة بأطل

حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديدة بأن يسجلها الشعراء وينثروها ، وهي تضعف حين تعبر عن زُلْفَى وما يتصل بالزُلْفَى من رياء . ومعنى ذلك أنه توجد للمديح في الشعر العربي قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع واضح ، وقصيدة ليس لها موضوع واضح ، ومن الضرب الأول مدائح أبي تمام في قواد الدولة العباسية وحروهم في خراسان وفي آسية الصغرى ، ومنه أيضا مدائح المتنبى في سيف الدولة وانتصاراته الجيدة ضد البيزنطيين . ومن الضرب الثاني مدائح مهيار وغيره من الشعراء للخلفاء والوزراء والحكام في المناسبات والأعياد المختلفة . وفرق بعيد بين الضربين ، ففي الضرب الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم في صورة رائحة من الفناء والشعر ، أما في الضرب الثاني فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم حريا أو غير حري ، إنما يقرءون ملقا وترقا ورياء .

ويمكن أن ندخل مدائح المهذب بن الزبير للوزير طلائع بن رزّيك في الضرب الأول ، لأنه ملاً أيامه ببطولة محققة في حرب الصليبيين وردّهم عن بعض حصون فلسطين ، وفي كتاب الروضتين في أخبار الدولتين للمقدسي ما يصور ذلك . فقد كانت الجيوش المصرية في أيام وزارته ماثق تنازل الصليبيين في العريش وغزّة وعسقلان ، وكان الأسطول المصري يقوم بدور مهم فهو يُفَرِّغهم في صور ، وه عكا ، وهو يقطع على بعض سفنهم في البحر المتوسط طريقها إلى الموانئ الشامية والفلسطينية . وكان طلائع يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، ويتصر على الصليبيين في عسقلان وغير عسقلان ، والمهذب شاعره يتغنى بانتصاراته مبهجا بمثل قوله :

لا أبوا ما في الجفان قرّنتهم	بصوارم سلّت من الأبطان ^(١)
وثلّت في يوم العريش عروشهم	بشبا خرابر صادق وطلعان ^(٢)
ألبأتهم للبحر لا أن جرى	منه ومن دمهم ممّا بخران
ولأت كحبيب كلّ بحر زاجر	ممنّ تحارب بالنجع القاني ^(٣)
حتى ترى دمهم وغضرة مائه	كشقاتي نُثرت على الرمان
وكان بحر الروم خلّق وجهه	وطفت عليه منابت المرجان ^(٤)

(٣) النجيع : الدم . القاني : شديد الحرارة .

(٤) خلّق وجهه : طُلب بالخلوق وهو الزعفران .

(١) الجفان : جمع جفة وهي قصعة الطعام

والأبطان : جمع بطن وهو غند السيف .

(٢) شبا : جمع شياة ، وهي حد السيف .

والمهذب بن الزبير فرح مبنهج بما آفاه الله من نصر على ابن رزبك في العريش ، فقد دق أعناق الصليين هناك ، وتكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منزهة . ولا ريب في أن تصوير المهذب لدم الأعداء على صفحة البحر المتوسط بأنه خضاب أو هو شقائق أو ورد أحمر نثر على الرمان ، وكان المتوسط قد خلّق وجهه وجلبب بالزعفران وطفّت عليه منابت المرجان ، لا ريب في أن ذلك كله تصوير بديع . ويذكر المهذب أن الأسطول المصري لقي فلول الصليين المنهزمين إلى البحر يقتل فيهم ويأسر ، يقول في سفنه وصنيعها بهم :

شَبَّهْنَ بِالرَّيَّانِ فِي أَلْوَانِهَا وَفَعَلْنَ فَعْلَ كَوَاسِرِ الْيَقْبَانِ
وَلَتَنَّ مُوقِرَةً بِسَبْرِ يَنِيهِ أَسْرَاهُمُ مَغْلُولَةً الْأَذْقَانِ^(١)

وهو يصف الأسرى وقد غلّت أعناقهم إلى أذقانهم فلا يستطيعون لره وسهم عطقا ولا حركة ، وينوّه بقتل أحد أمرائهم ، قائلا :

قَتَلَ الْبَرْنَسَ وَمَنْ عِساهُ أَعَانَهُ لَمَّا عَاثَ فِي الْبَقِي وَالْعِدْوَانِ
وَأَرَى الْبَرِيَّةَ حِينَ عَادَ بِرَأْسِهِ مَرَّ الْجَبَّتَا يَدُو عَلَى الْمَرَانِ^(٢)

وتصادف في أثناء ذلك أن وقعت زلازل شديدة في الشام دكّت بعض حصون الصليين فذكر ذلك ابن الزبير ملتصقا له تعليلا طريفا إذ يقول لابن رزبك :

مَا زُلْزَلَتْ أَرْضُ الْعِدَا بَلْ ذَاكَ مَا بِقُلُوبِهِ أَهْلِيهَا مِنَ الْخَفَقَانِ

وله في ابن رزبك مدائح كثيرة وراء هذه التورية . وكان يتغن فنون الشعر المختلفة من استعطاف وغير استعطاف ، وله في استعطاف أحد دعاة الفاطميين باليمن ميمية مشهورة ، كان أخوه الرشيد قد ذهب إليه في مهمة للدولة ، فهمم بقتله ، وسجنه ، فأرسل إليه بثلث القصيدة يستعطفه لأخيه ، فعفا عنه وردّ إليه حريته . واشتهرت القصيدة بغزلها وما يرمز فيه من لفة على أخيه ، إذ يقول :

يَارَيْحُ أَيْنَ تَرَى الْأَسْبَةَ يَمْشُوا هَلْ أَتَجِدُوا مِنْ بَعْدِنَا أَوْ أَتَهْمُوا^(٣)
تَزَلُّوا مِنَ الْعَيْنِ السَّوَادِ وَإِنْ نَأَوْا وَمِنَ الْفَوَادِ مَكَانَ مَا أَنَا أَكْمُ

(١) موقرة : محشلة . (٢) أجدوا : دخلوا بها . أتهموا : دخلوا تهامة .

(٣) موقرة : محشلة . (٢) الجنا : الشعر . المران : الرماح .

رحلوا وفي القلب المعنى بعدهم وَجَدْتُ عَلَى مَرِّ الزَّمانِ عَيْمُ
وتَوَضَّعتْ بِالْأَنْسَرِ رُوحِي وَحُشَّةٌ لَا أَوْحِشُ اللهَ الْمَنازِلَ مِنْهُمْ
إِنِّي لَأَذْكُرْكُمْ إِذَا مَا أَشْرَقَتْ شَمْسُ الضُّحَى مِنْ نَحْوِكُمْ فَأَسْلَمُ
لَا تَبْعَثُوا لِي فِي النِّسَمِ نَحْبَةً إِلَى أَغَارٍ مِنَ النِّسَمِ عَلَيْكُمْ

والآيات تعبر عن عاطفة الحب المتأناة وأنه لن ينسى أحباؤه أبداً نزلوا بجداً أو نزلوا تامة ، فهم في سويداء قواده والوجد يبرح به ، والوحشة منهم تلذع روحه ، وهو يستقبل شمس الضحى المشرقة من ديارهم بالسلام الحار . وما يلبث أن يعبر في البيت الأخير عن رقة ورهافة حسن بالغة ، وله من جملة قصيدة يتيه للشهور :

وما لي إلى ماء سوى التَّيْلُ حَلَّةٌ وَلَوْ أَنَّهُ - أَسْتَغْفِرُ اللهَ - زَمْرُ

وهو يصور أدق تصوير محبة لوطه ، وهي محبة تملك دائماً على المصريين شغاف قلوبهم . وكان المهذب وأخوه الرشيد - وكان شاعراً مثله - وثقاً صلتها بشركوه وصلاح الدين حين قنما مصر لنجدة الوذير شاور ضد خصمه وضد الصليبيين ، ولم يلبث شاور أن قلب ظهر الجهن لصلاح الدين وعنه شركوه ، واضطرا إلى مبارحة مصر فترة . وحيتذ بقتل شاور الرشيد ويسجن للمهذب فينظم شعراً كثيراً في استعطافه ، ويرد إليه حريته ، وسرعان ما يتوفى سنة ٥٦١ للهجرة .

ابن فلافس^(١)

هو نصر الله بن عبد الله بن فلافس الإسكندري ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ونشأ بها وسمع من شيوخها ، ولزم حلقة أبي طاهر السُّلُقى أكبر المحدثين في عصره ، وفتحت موهبته الشعرية مبكرة فلدح بعض أولى الأمر المشرفين على الإسكندرية . وكان في أثناء ذلك يلزم صحبة شيخه سُلُقى وله فيه مدائح بديعة مثبتة في ديوانه من مثل قوله :

تَقْبِضُ بِحَارُ الْعِلْمِ مِنْ كَلَامِيهَ فَإِنِ كُنْتَ طَعَامًا فَرِذْ خَيْرَ مَثَلِ
فَيَأْتِيهَا الْمَحْمُودُ مِنْ كُلِّ نَاطِقِي عَلَى كُلِّ مَعْنَى فِي قِتَا كُلِّ مَثَلِ

الجان ٣/٣٨٢ . وفيه طبع قديماً بمطبعة الخواص وراجعه
وضبطه خليل مطران .

(١) انظر في ترجمة ابن فلافس الحريفة (قسم شعراء مصر) ١٤٥/١ ومجموع الأدياء ٢٣٦/١٩ وابن خلكان ٣٨٥/٥ وحسن المحاضرة ٢٤٧/١ والفتوحات ٢٧٤/٤ ومراة

تَحَادَثَ الْأَيَّامُ فِيكَ ظَمَ تَرَل مَسَى الْقَادِمُ الْجَذَلَانُ وَالتَّرَحُّلُ

وهو يشير إلى عَلم أستاذه وأنه كان مقصداً للراجلين في طلب الحديث من كل بَئاع العالم الإسلامي . وليس في ديوانه مديح لوزير مصرى قبل شاور وزير العاصد (٥٥٧ - ٥٦٤ هـ) .
واتصل بكتاب الديوان لعهد ومدهم ، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل ، وله فيه غرر المادح ،
ومن قوله في إحداها متخلصاً من الغزل إلى مديحه :

يَا رَبُّ خَمِرُ قَمَّةُ كَأْسُهَا لَمْ أَفْتَحْ مِنْ شَرِبِهَا بِالشِّمِيمِ
أَتَبَعْتُ رَشَقًا قُبْلًا عِنْدَهَا وَقُلْتُ : هَذَا زَمَزَمٌ وَالْحَطِيمِ
فَأَفْتَرُ إِمَّا عَنْ أَقَاخِي الرُّبَى تَضَحَكْ أَوْ ذُرِّ الْعُقُودِ الثَّقِيمِ
أَوْ كَانَ قَدْ قُبِلَ مُسْتَحَنًا مَا حَبَّرَ الْفَاضِلُ عَبْدُ الرَّحِيمِ
مَنْ لَفْظُهُ رَاحٌ وَأَخْلَاقُهُ رَوْحٌ وَتِلْكَ الدَّارُ دَارُ النِّعَمِ

والآيات تصور قدرة رائعة على تكوين الصور الشعرية البديعة ، فقم صاحبت كأس خمر ،
وهو يرشفها وكأنه يرشف من ماء زمزم ويقلها وكأنه يقلب الحطيم المقدس . وضحكت فخال
أقاحى الرى تضحك ، بل عقد در نظم ، بل درر القاضي الفاضل عبد الرحيم ، مَنْ لفظه خمر
وأخلاقه قرح وداره جنة الخلد ، ولعله يريد قصر الخلافة الذى كان يعمل به الفاضل كاتباً .

وليس في شعره أى شائبة تدل أو تشير إلى أنه اعتنق التشيع ، وكان عهد وزارة شاور عهداً
مضطرباً أشد الاضطراب ، فسدت فيه أداة الحكم فساداً شديداً ، مما جعل شاور يصطرح مع
ضرغام على الوزارة ، ويستعين بنور الدين أمير حلب ويرسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح
الدين ، فيعيدانه إلى كرمى الوزارة ، وما يلبث أن يستعين ضدّهما بالصليبيين . ولعل هذا
الاضطراب الشديد الذى عانته البلاد حينئذ هو الذى جعل ابن قلاص يفكر في مبارحة مصر إلى
صقلية ، ويبدو أنه كان يسمع في أثناء مقامه بالإسكندرية من مسلميها الذاهبين إلى الحج تنويها
كثيراً بها وبرجالاتها ، وكانت قد سقطت في أيدي النورماندين ولكن أمراءهم منذ روجار كانوا
لا يزالون يعاملون المسلمين بها معاملة حسنة ، وأعانوهم على استمرار نشاطهم العلمى والأدبى .
على كل حال تفاجأ برحيل ابن قلاص إلى صقلية في شعبان سنة ٥٦٣ ولم يكده يتزل بها حتى
أرسل بقصيدة يصف فيها رحلته البحرية إلى الجزيرة وصفاً بديعاً ، وكانت قد أعجبت مشاهدتها
الطبيعة فأنشد :

بَلَدُ أَعَارَتْهُ الْحَمَامَةُ طَوَّقَهَا وَكَمَاهُ حَلَّةٌ رِيشُهُ الطَّاوُوسُ
فَكَانَ الْأَزْهَارُ مِنْهُ سُلَاقَةً وَكَانَ سَاحَاتُ الدِّبَارِ كَثُوسُ

وتنقل في بلدانها ، وكانت لاتزال عامرة بالمسلمين ، ونزل حاضرتها يَزِيم ، وتعرف على أكبر شخصية عربية بها : أبي القاسم بن الحجر ، ويبدو أنه كان رئيس ديوان المسلمين وصاحب الأمر والنهي فيهم ، وفيه دُيِّع مدائح كثيرة ، مشيدا ببيانه وبلاغته ، وبحسن تدبيره ، بمثل قوله :

وَيَمِينُكَ طَيْرٌ يُعْنِي وَسَعْدِي أَصْفَرُ الظَّهْرِ أَسْوَدُ الْمُتَقَارِ
قَلَمٌ دُبِّرَ الْأَقَالِيمَ فَالْكُتُبُ بِهُ مِنْ كِتَابِ الْأَقْدَارِ

والبيت الثاني يشير بوضوح إلى أن أبا القاسم كان يصرف أمور المسلمين في صقلية ، ولعله لذلك تسميه بعض المصادر العربية صاحب صقلية ، وفيه كتب ابن فلاقس كتابا سماه « الزهر الباسم من أوصاف أبي القاسم » وصف فيه رحلته إلى صقلية ومقامه بها نحو عامين ومدائمه فيه ، واحتفظ العماد الأصمباني في ترجمته بقطعة كبيرة من هذا الكتاب . وفي ديوانه مدائح كثيرة لشخصية ثابتة بصقلية ، هي شخصية القاضي علي بن أبي الفتح بن خلف الأموي ، ويقول العماد إنه نوه به في كتابه الزهر الباسم وقال عنه « حَذَقَ الْعِلْمَ النَّاطِرَةَ وَحَدِيقَةَ الْأَدَبِ النَّاضِرَةَ » وفيه يقول :

وَكَمْ لَكَ فِي الْفَصَاحَةِ مِنْ أَبَايَ مَلَكْتَ بِهَا الْفَخَّارَ عَلَى الْإِرَادِي^(١)
تَخَذْتُكَ مِنْ صَقْتِي خَيْلًا فَكُنْتَ الْوَرْدَ يُقَطِّفُ مِنْ قَتَادِ
وَشَيْئُكَ بَيْنَ أَهْلِهَا صَفِيًّا فَكُنْتَ الْجَمْرَ يُقَبِّسُ مِنْ زَنَادِ

وابن فلاقس لا يريد أن يهجو أهل صقلية بأنهم قتاد وشوك وابن خلف وحده هو الورد ، ولا أنهم زنَاد صُلْد وهو وحده الجمر ، وكل ما في الأمر أنه يريد أن يمدحه ، وبالع في مديحه ، أما بعد ذلك فكان هناك أبو القاسم بن الحجر مملوحوه وراعيه فيها . وقد مدح بها آخرين ، منهم جرُّدنا وزير صاحب صقلية ، وفيه يقول :

وَجَرُّدُنَا الْمَدَائِحَ فَاسْتَقَرَّتْ عَلَى أَوْصَافِ جَرُّدُنَا الْوَزِيرِ

وهو يشير مرارا إلى مجالس الشراب في صقلية ، وأنه قضى بها أياما وليالي هنية ، كان يستمتع

(١) هوس بن ساعدة اليربوعي الحطبي المشهور .

فيا بالاستماع إلى الغناء والموسيقى ورؤية الراقصات وهن يشَّين في نسقٍ بديعٍ من الحركات يقول :
 وَمُتَمَّنٌ تَنَاولْتُ يَدَهُ الْعَوْدَ فَعَادَتْ بِنَا إِلَى الْأَفْرَاحِ
 بَيْنَ رِيحٍ مِنَ الْمَزَامِيرِ أُسْرَى بَيْنَ أَجْسَامِنَا مِنَ الْأَرْوَاحِ
 وَجِبَابِهِ قَدْ عَقَدُوا طُرُقَ اللَّبِّ لَوْ جَمَالًا عَلَى الْوُجُوهِ الْعُصَابِ
 يَبِثُّ الرُّوحُ مِنْهُمْ حَرَكَاتٍ سَرَقَتْ بَعْضَهَا طَوَالُ الرُّوحَانِ
 وعاد ابن قلاؤس إلى مصر ، فوجد لها تزال مضطربة قبل تحول مقابلد السلطان إلى صلاح الدين ، ففكر في الارتحال عنها ، وولى وجهه نحو عدن سنة ٥٦٥ هـ استقبله استقبالًا حسنًا ياسر بن بلال وزير محمد وأبى السعود ابن عمران حفيد الداعي سبأ صاحبها ، فأغلق عليه نائلاً غمرًا ، وركب البحر الأحمر عائداً إلى مصر ، فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه بالقرب من جزيرة دَهْلُك ، فعاد إلى ياسر ، وأنشده قصيدة دالية استهلها بقوله :

صَدَرْنَا وَقَدْ نَادَى السَّمَاحُ بِنَا رِدْوَا فَعُدْنَا إِلَى مَفْئَاكِ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
 وَجَادَبْنَا لِلْأَهْلِ شَوْقُ يَقِينَا وَشَوْقُ لَمُعْنِنَا عَنْ الْأَهْلِ يَقَعْدُ
 وَمَا فَاحَ فِينَا غَيْرَ ذِكْرِكَ رَوْضَةً وَلَا سَاحَ فِينَا غَيْرَ نَعَاكَ مَوْدُ
 فَيَا يَاسِرًا نِلْنَا بِهَ الْفَضْلَ يَاسِرًا وَيَاسِنَ وَجَدْنَا مِنْهُ مَا لَيْسَ يُوجَدُ
 دَعَوْتَ بِصَوْتِ الْجُودِ حَتَّى عَلَى الثَّدْيِ لَأَنَّكَ تَرَوِي عَنْ بِلَالٍ وَتُسَيِّدُ
 والقصيدة كلها من هذا الخط البديع ، وما أروع بيتها الأخير ، وقد تصور ياسر يؤذن بصوت الجود داعياً الناس إليه ، ويعلل ذلك تعليلًا طريفاً ، إذ يقرن اسم أبيه بلال إلى بلال مؤذن الرسول وهو يروى عنه ويفتدى به قلوة حسنة . وكان يحسن التعليل كما يحسن التصوير ، ومن طريف صوره وتعليلاته قوله في جارية سوداء :

رُبُّ سَوْدَاءَ وَهِيَ يَبْضَاءُ مَعْنَى نَافَسَ الْمَسْكَ عِنْدَهَا الْكَافُورُ
 مِثْلَ حَبِّ الْعَيُونِ بِحَبِّهَا النَّاسُ مِنْ سَوَادَا وَإِنَّمَا هُوَ نَوْدُ
 وهى صورة بدیعة غريبة . ويكثر مثلها عنده ، كقوله يصف الشَّعْرَ وَأَنْ مِنْهُ مَا يَذْبُلُ سَرِيعًا
 وَمِنْهُ مَا يَخْلُدُ عَلَى الدَّهْرِ ، وَمِنْهُ الْقَبِيحُ وَمِنْهُ الْجَمِيلُ ، يقول :
 الشَّعْرُ مِنْهُ قَصِيرٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ يَذْوَى وَمِنْهُ طَوِيلٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ^(١)

أو كالمجون فهذه حطها حول يُقص منها وهذه حطها حول

وكان قد ظل عند يأس نحو ستين وعاد في شوال سنة سبع وستين ، وركب البحر إلى عيذاب
نغر قوص على بحر القُزم ، وكان الموت كان في انتظاره ، فلم يكد يتزلها حتى لبى نداء ربه وهو في
الحامسة والثلاثين من عمره .

ابن سناء ^(١) الملك

هو القاضي السيد هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن القاضي المتحد سناء الملك
السمدي ولد سنة ٥٥٠ بالقاهرة في بيت يأس ونعمة ، إذ كان أبوه وجده من كتّاب الإنشاء في
الدولة الفاطمية ، كما يدل على ذلك تلقيبها بلقب القاضي الذي كان يمنح لكبار الكتّاب ،
وكانت قد انمقدت صلة وثيقة بين جده وأبيه وبين القاضي الفاضل حين كان يعمل معها في
الدواوين الفاطمية . ولما تطورت الظروف وأصبحت مقاليد الحكم في مصر بيد صلاح الدين
واتخذ القاضي الفاضل وزيراً له ومستشاراً قُرب الفاضل منه جعفر بن سناء الملك وتوثقت الصلة
بينها حتى كان ينييه عنه في غيبته مع صلاح الدين بالشام . وعُني جعفر بترية ابنه هبة الله منذ
نعومة أظفاره ، فعهد إلى بعض القراء بتحفيظه القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه اختلف إلى
حلقات العلماء وخاصة حلقة ابن بَرِّي أكبر أئمة اللغة والنحو المصريين حينئذ . وأكبَّ يقرأ كتب
الفقه وعلم الكلام والمنطق على نحو ما يشهد بذلك استظهاره في أشعاره لبعض مصطلحات هذه
العلوم في الحين بعد الحين . ودفعه طموحه العلمي إلى الارتحال إلى الإسكندرية لسماع الحديث
على السني الكبير الحافظ السلفي أحمد بن محمد ، وفيه يقول :

وجئتُ إلى الإسكندرية قاصداً إلى كعبة الإسلام أو عَمَّ العلم
إلى أحمد المحي شريعة أحمد فلا علمتُ منه أباً أمة الأمي

للمحوى في مواضع متفرقة ومقالا : ه الروح المصرية في
شعر ابن سناء الملك ه يكتابا : ه فصول في الشعر ونقد
واين سناء الملك : حياته وشعره محمد إبراهيم نصره ومقدمة
محمد عبدالحق لنشره للديوان في المنة ، ونشره وحققه في
القاهرة محمد إبراهيم نصره .

(١) انظر في ترجمة ابن سناء الملك وأشعاره الحريدة
(قسم شعراء مصر) ٦٤/١ ومجمع الأدباء ٢٦٥/١٩
والغرب لابن سعاد (قسم القاهرة) ص ٢٧٣ وابن خلكان
٦١/٦ وصبر الذهبي ٢٩/٥ والثلوات ٣٥/٥ وحسن
الحاضرة ٢٤٣/١ وديع الهداة لعل بن ظافر وخزانة الأدب

وقد أكتبُ على دواوين الشعراء يلتهمها كما أكتبُ على الموشحات الأندلسية في طليعة عمره كما يقول في مقدمة كتابه النفيس « دار الطراز » الذي سبق أن تحدثنا عنه وقلنا إنه وضع فيه عروض الموشحات ، وإنه يقوم في ذلك مقام الخليل بن أحمد في وضعه عروض الشعر العربي ، ونراه يختم بعض موشحاته بأقوال أعجبية مما يدل على معرفته بالفارسية . وبشهادة وضعه لعروض الموشحات وضماً نهائياً بذكاء خارق .

وقد تفتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكراً فتفتحاً راع القاضى الفاضل كبير أدباء زمنه ، فاستأذن أباه في أن يتخذ كتاباً بين يديه ، وأذن له ، وأضنى عليه من إعجابه بشعره وودّه ما أصبح به أباً روحياً له ولفنه . ومن خير ما يصور هذه الأبوة الروحية كتابُ ابن سناء الملك المسمى « فصوص الفصول » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، والكتاب في جمهوره مراسلات بين ابن سناء الملك وأبيه جعفر من جهة وبين القاضى الفاضل من جهة ثانية حين كان يذهب إلى الشام في رفقة صلاح الدين ، فيكتب الشاعر وأباه ، وخاصة حين يرسل إليه ببعض مدائحه فيه أو في صلاح الدين . وهي ليست مكاتبات إخوانية فحسب ، بل هي أيضاً ملاحظات نقدية على الشعراء السالفين والمعاصرين وخاصة ابن سناء الملك نفسه وأشعاره . وتخرج رسائل الفاضل فيها بناءً غنقي عليه من مثل قوله عن بعض قصائده : « مايرينا من آية إلا هي أكبر من أنحتها ، وما يجلو علينا هروساً إلا وقد جمع بين حسناتها وبخنها ، وقلنا يُجمعُ بين الحسن والبُحْتِ » ويفضّلها على المعلقات . ويمدحه مرة ثانية فيقول : لله درُّ تلك الأنفاس التي تستخف عقول الرجال ، بل عقود الجبال . . . ولقد أبقي للأباء ذكراً ، وللأبناء فخراً ، وأرسلها مقلّداً ، فأرهقها مجرّداً ، وأثارها أوابد ، فنظمها قلائد . . . وبشيد الفاضل بموشحاته كما يشيد بأشعاره رافعا منزله فيها على منزلة الأندلسيين درجات . وبهنا ما يسجله كتاب فصوص الفصول من أنه كان ناقداً كما كان شاعراً .

واختصر ابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ ، باسم روح الحيوان ، ويقول ابن خلكان إنها تسمية لطيفة ، ويذكر له كتاباً ثانياً باسم مصايد الشوارد . وكان ناثراً بارعاً كما كان شاعراً مبدعاً ، يقول ابن خلكان : « ومن نثره في وصف النيل في سنة كان ناقصاً ، ولم يوف الزيادة ، التي جرت بها العادة : « وأما أمر الماء فإنه نضبت مشارعه ، وتقطعت أصابعه ، ويتمم العمود (عمود المقياس) لصلاة الاستسقاء ، وهم المقياس من الضعف بالاستسقاء » . يقول ابن خلكان : « وهذا من أحسن ما يوصف به نقصان النيل » . وزعم ابن سعيد في كتابه المغرب أنه

كان غالباً في التشيع ، وربما دفعه إلى ذلك أنه وجد ممدوح القاضي الفاضل في يوم عاشوراء ذاكرًا
مقتل الحسين الشهيد فيه يقول :

يَوْمُ بَسَاءٍ بِهِ وَفِيهِ كُلُّ شَيْعِيٍّ وَسُئِيٍّ
ولم يكن القاضي الفاضل شيعياً ، بل كان سنيًا ومثله ابن سناء الملك ، وهو لملك يقول إن
ذكرى هذا اليوم تحزن السنين والشيعه معاً . وقد أشار في رثائه لبعض العلويين من أسفاره إلى نوم
الحلق عن ثأر الحسين . وفي رأينا أنه ليس في ذلك ما يعارض سنته ، فإن مصرع الحسين يأمر له
الطرفان المتعارضان من أهل السنة والشيعه جميعاً ، وقد صرح في مدحه للقاضي بأنه سني رغم
حبه وتشيعه له يقول :

وَعَدْتُ فِي حَيٍّ لَهْ مَشْبُوعًا مِنْ ذَا رَأْيٍ مَشْبُوعًا مَشْتًا
وليس من المعقول أن ينال حُظوة القاضي الفاضل وصلاح الدين شاعرٌ شيعيٌّ غالٍ في تشيعه .
ويبدو أن الصفدي قرأ هذه التهمة عند ابن سعيد ، وأكدها عنده أنه قرأ في ديوان ابن الساعاتي
هجاء له في ابن سناء الملك حين سقط عن جواد له كان يسمى الجمل ، فزعم أنه إنما سقط عنه
لبغضه أم المؤمنين السيدة عائشة وأباها الصليبي أبا بكر ، يقول :

أَبْغَضْتُ بِالطَّبِيعِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تُحِبِّ أَبَاها فُجَاءَتْ وَقَفَةُ الْجَمَلِ

وهو هجاء لابن الساعاتي جرّه إليه أن اسم الجواد الجمل ، وله فيه أهاج مختلفة كما يشهد
ديوانه ، وكأنه ذكر ذلك كيّداً له . وقد أشار في مقدمته لفصوص الفصول بالصحابة جميعاً ، ولم
يخص على بن أبي طالب بتوبيه . ومر بنا أنه تتلمذ على الحافظ السلفي أكبر سنيٍّ في عصره .
وكان ابن سناء الملك يعيش في رغد من العيش ، لثراء أبيه ، وفي الديوان أنه أهداه مرة
بستاناً ومرة فندقاً . وظل موظفاً في ديوان الإنشاء منذ بواكير حياته ، وبعد وفاة صلاح الدين
واستعفاء القاضي الفاضل من عمله ظل يعمل في الديوان مع السلطان العزيز ثم أخيه السلطان
الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل ، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الكامل
بتدبير ديوان الجيش ، غير أنه استعفاء فأعفاه . ولم يلبث أن توفي سنة ٦٠٨ . ولم يكن يعمل مع
كل أولئك السلاطين فحسب ، بل كان يقدم إليهم مدائحهم وكانوا يميزون له في العطاء ، وبالمثل
كان يميز له في العطاء أمراء البيت الأيوبي حين كان يمدحهم ، وفي ديوانه مدائح كثيرة لهم
ولصفي الدين بن شكر وزير السلطان العادل . فالأموال كانت تُقدِّقُ عليه بالإضافة إلى راتبه

وما ورثه عن أبيه مما يؤكد أنه عاش مترقا منها . وفي ديوانه أشعار كثيرة يصف فيها داره التي كانت تطلُّ على النيل وحديقته وما كان بها من نافورات ، وكانت متدى للشراء من أصدقائه وكانت تجرى بينهم فيها محاورات ومفاكهات طريفة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن سناء الملك ، أكبر شاعر ظهر بمصر قبل العصر الحديث ، وقد أوضحنا في مقال عنه بكتابنا فصول في الشعر ونقده تمثله في أشعاره للروح المصرية ، من ذلك ما يجرى في أساليبه من السهولة التي تعد انعكاساً لما يشعُّ منها في روح المصريين أبناء النيل وأوديته وسهوله وما أسبغ على ساكني ضفافه من حياة سهلة ، مما دفعه إلى استخدام بعض الكلمات العامية المألوفة في السنة المصريين مثل « باما بمعنى كبير جدا ، ومثل « ودينى هو على أكثره ومثل « على عيني » . ومن ذلك الرقة في ألفاظه ومعانيه وما يتصل بها من اللين والدمائة ، مما جعله يكثر من النزول بمن فقدن أبصارهن من الفتيات والنساء كقوله في إحداهن :

شمسُ بغير الليل لم تُحجِّبِ وفي سوى العينِ لم تُكسِفِ
مُحَمَّدَةُ المُرَقَّصِ لكنها تفتِكُ باليَمْدِ بلا مُرَقَّصٍ^(١)

فهى شمس منيرة تحجبها غلالة من الليل ، شمس أصابها في عينيها كسوف ، ونورها بغير كل ما حولها وإن جفونها تطبق على عينيها إطباق الغمد على سيفه ، ومع ذلك تفتكان بمن يبصرهما كما يفتك السيف القاطع . ويتجسد تمثل ابن سناء الملك للروح المصرية في تعلقه الشديد - مثل المصريين جميعا - بوطنه ونفوره من الغربة حين يذهب إلى القاضى الفاضل بالشام في إحدى القضايا المهمة ، حتى يقول :

ووالله ما أُشْرِى الشَّامَ ومُلْكُهُ وغُوطَتِ الحَضْرَا بِشَرِينِ من شَبْرَا

فنوطة دمشق بمشاهدها الساحرة بل الشام وملكه وصولجانه ، كل ذلك لا يشغره بشبرين من شبرا : إحدى ضواحي القاهرة . وصفة مصرية رابعة ماثلة بالقوة في شعره هى حبه لأبويه وأسرته حياً يملك عليه كل شيء من أمره ، مما نراه ماثلا في مرثيته لأمه وأبيه ووجه وزوجه وأخته وإخوته . وله في أبيه مدائح بدبعة من مثل قوله وكأنه يمدح بعض السلاطين :

يا سائلا عن مَعَالِيهِ لِيَشْهَرَهَا البَدْرُ في الأفقِ يستغنى بشهرته

ذلك الذى يَسِمُ الدهرُ العَبُوسُ بِوَيْبِهَا وَتَبَجُّعِ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِ
وَنَحْسُ فِي مَدِيحِهِ لَأَيِّهِ بِسَعَادَتِهِ سَعَادَةٌ غَامِرَةٌ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ مِثْرَتِهِ وَأَدْبِهِ وَعِلْمِهِ وَشَيْبِهِ فِي
إِجْلَالٍ وَإِكْبَارٍ يَقُولَانِ الْوَسْفُ . وَأَيْضًا مَا تَنَازَرَهُ مَعْرَمٌ تَعْلُقُ بِالْأَيْنِ نَجْمَهُ مَصُورًا فِي أَطْعَامِهِ .

وَأَهَمُّ مِنْ اسْتِنْفَادِ مَدَائِحِهِ صَلَاحُ الدِّينِ وَالْقَاضِي الْفَاضِلُ ، وَمَعْرُوفٌ أَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ قَضَى
عَلَى أَسْطُورَةِ الصَّلِيبِيِّينَ وَمَا كَانَ يُقَالُ عَنْ بَأْسِهِمْ وَمَا أَسْوَاهُ فِي الشَّامِ مِنْ مَمَالِكِهِمْ فَقَدْ مَزَقَ
جَمُوعَهُمْ تَمْزِيقًا ، وَرَدَّ قُلُوبَهُمْ إِلَى الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ وَمَا وَرَاءَهُ . وَقَدْ مَضَى ابْنُ سَنَاءِ الْمَلِكِ بِمَدِيحِهِ
مَدَائِحَ رَاقِعَةٍ مِنْذُ إِعْدَادِهِ لِحَرْبِ الصَّلِيبِيِّينَ وَمَدُّ سُلْطَانِهِ عَلَى حَلْبٍ وَغَيْرِهَا مِنْ دِيَارِ الشَّامِ ، وَجَمْعِهِ
لِلْعَرَبِ تَحْتَ لَوَائِهِ ، حَتَّى يَنْقَضَ بِهِمْ عَلَى حِمْلَةِ الصَّلِيبِ ، وَلَهُ يَقُولُ :

بِدَوْلَةِ الْتُرْكِ عَزَّتْ مَلَّةُ الْعَرَبِ وَبَابِنِ أَيُّوبَ ذَلَّتْ شِيعَةُ الصُّلْبِ
وَفِي زَمَانِ ابْنِ أَيُّوبَ غَدَتْ حَلْبُ مِنْ أَرْضِ مِصْرٍ وَعَادَتْ مِصْرُ مِنْ حَلْبِ

وَكَأَنَّهُ كَانَ يَسْتَشْعِرُ فِي عَمَقِ أُمْنِيَةِ تَوْحِيدِ الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ . وَلَهُ فِي صَلَاحِ الدِّينِ مَدَائِحُ كَثِيرَةٌ بِصُورٍ
فِيهَا بَطُولَتُهُ وَبَطُولَةُ جُيُوشِهِ وَسَحْقُهُمُ لِلصَّلِيبِيِّينَ . وَمَا زَالَ صَلَاحُ الدِّينِ يَتَرَلَّى بِهِمُ الدَّمَارُ وَيَأْخُذُ
مِنْهُمْ الْحَصُونُ وَالْبِلَادُ حَتَّى كَانَتْ هَزْمَتُهُمُ الْكُبْرَى فِي مَوْقِعَةِ جَيْطِينَ ، وَفِيهَا جَرَتْ دِمَاؤُهُمْ أَنْهَارًا
وَتَعَمَّ الْفَرَحُ الدِّيَارَ الْعَرَبِيَّةَ ، وَبَنَى ابْنُ سَنَاءِ الْمَلِكِ صَلَاحَ الدِّينِ بِهَذَا النِّصْرِ الْمُبِينِ قَائِلًا :

لَسْتُ أَدْرِي بِأَيِّ قَحَرٍ نَهْنَأُ	يَا مُنِيلَ الْإِسْلَامِ مَا قَدْ تَمَنَّى
أَنْهَيْكَ إِذْ تَمَلَّكَتْ شَامَا	أَمْ تُهْنِيكَ إِذْ تَمَلَّكَتْ عَدْنَا
قَدْ مَلَكَتِ الْجِنَانُ قُصْرًا فَقُصْرَا	إِذْ فَتَحْتَ الشَّامَ حِصْنًا فَحِصْنَا
لَكَ مَدْحٌ فَوْقَ السَّمَوَاتِ بِنَشَا	وَعَمَلٌ فَوْقَ الْأَسْنَةِ يُبَيِّنِي
حَمَلُوا كَالْجِبَالِ عُظْمًا وَلَكِنْ	جَعَلَتْهَا حَمَلَاتُ خَيْلِكَ عَيْنَا ^(١)
لَمْ تَلَقِ الْجُيُوشَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ	لَكَ لَأَقِيَّتُهُمْ بِلَادَا وَمُدْنَا
وَتَصَيَّدَتْهُمْ بِحُلْفَةِ صَيْدٍ	بِجَمْعِ الْبَلْبَنِّ وَالْغَزَالِ الْأَغْنَا ^(٢)

(١) يشير إلى الآية الكرمية : (وتكون الجبال كالعهن) (٢) الغزال الأخضر : الذى يخرج صوته من غياشبهه .
المفروش) . والمهن : الصوف .

والقصيدة مديح رائع وتحمل كثيرا من الصور المبتكرة ، وقد مضى فيها بصور أخذ صلاح الدين لصليب الصليبيات الذي يزعم المسيحيون أن المسيح صُلب عليه ، ويغريه بإحراقه ، كما يصور أخذه لطبرية وعكا ونابلس وبيت جبريل وتينين وغيرها من مدن الشام وحصونه ، وذكر فتكه بأرناط صاحب الكرك بيده جزاء وفاقا لسوء فعله وقوله لتعرضه القبيح للحجاج المصريين ولإعداده أسطولا - كما مر بنا - لغزو مكة والمدينة ، ولما نُقل إليه عنه من استخفافه بالرسول عليه السلام .

ومدائحه في القاضي الفاضل كثيرة حتى لثَعَدَ بالعثرات ، إذ كاد لا يترك مناسبة دون أن يهديه من أشعاره ، فهو يهديها له في الأعياد وفي القدوم من الشام ومن الحج وفي انتصارات صلاح الدين ، إذ كثيرا ما يتوهم بها في مدائحه له ، وهو فيها يبالغ مبالغات كثيرة من مثل قوله :

صَوَّرَ اللهُ ذَلِكَ الشَّخْصَ نَوْرًا وَجَمِيعُ الْأَنَامِ مَاءٌ وَطِينُ

وقوله :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا خَادِمٌ أَنْتَ رَبُّهُ وَمَا الْخَلْقُ إِلَّا عَالَمٌ أَنْتَ فَاضِلُهُ

وقوله :

الدَّهْرُ مَدٌّ إِلَيْهِ كَفُّ مَفْتَرٍ لَدُّ الدَّهْرِ مِنْهُ لِحْظٌ مُحْتَرٍ
فِي كَفِّهِ قَلَمٌ إِنْ شَتَّ أَوْ قَلَرُ بِصَرْفِ الْخَلْقِ بَيْنَ النِّعِ وَالضَّرِّ

وهو يكرر معنى البيت الثاني ويطيل فيه ، وله يقول :

بِمُيُونِ رَبِّكَ كَانَ الْفَتْحُ وَمَنْصُورِ عَزْمِكَ كَانَ الْقَلْبُ
وكثيرا ما يردد هذا المعنى وكأنه يشير إلى قوله صلاح الدين المشهورة : لم أنتصر على الأعداء بسبي وإنما انتصرت بقلم القاضي الفاضل ، وفيه يقول واصفا كرمه الفياض :

لَا يَسْتَفْرِ الْمَالُ فَوْقَ بَنَانِهِ حَتَّى كَانَ بَنَانُهُ مَخْرُوقُ
بِاطَالَيْنِ ذُرَى عَلَاهُ تَوْقُفُوا وَمُؤْمَلَيْنِ نَدَى يَدِيهِ أَفْقُوا

وهما بيتان رائعتان في وصف الجود ، ويحق كان القاضي الفاضل يستحق منه كل ثناء وكل تكريم فقد رعاه أعظم رعاية ، ونوه بأشعاره تنوينا ليس وراءه غاية ويحق ، يقول له :
شكركم لثَمَاكِ شَكَرَ الْأَرْضَ لِلْمَطَرِ أَوَّلَا فَشَكَرَ سَوَادَ الْعَيْنِ لِلنَّظَرِ

فهو يشكره شكر الأرض المجدبة للفيث المدرار الذى يحبى موانها ، بل شكر سواد العين لنور
البصر الذى يصلها بالوجود ومشاهده . وله فيه صور كثيرة مبتكرة مثل قوله فى جوده المنهر على
الناس :

وقصر البحرُ عنه فهو مكشِبُ أما تراه بكفىَ مَوجِو التَطْما
وولتِ السحبُ - إذ جارته - باكيةً أما نرى الدمعَ من أجفانها انسِجا

فالبحر يشعر إزاء كرمه بقصوره حتى ليندب حظه ويلطم وجهه بكفى موجه ، وإن الفيث
ليبكى بدموع غزار لاتزال تنهمل . ونحسُ بفرحة تسرى فى كثير من مدائحهِ للفاضل كما نحس خفة
الظل الذى يشتر بها المصريون وخاصة فى تخلصاته من الغزل إلى المديح كقوله :

صَنتَ بطرفِ ظلٍ يُغْدِى سَقْمَهُ أَرَأَيْتُمْ مَنْ صَنَ حَتَّى بِالضُّنا
إِنى رَأَيْتُ الشمسَ ثُمَّ رَأَيْتُهَا ماذا عَلَى إِذَا هَوَيْتُ الأحسنا
وسألتُ مِنْ أَىِّ المادِنِ نَقَرَهَا فوجدتُ مِنْ عبدِ الرحيمِ المعدنا
أَبْصَرْتُ جوهرَ نَقَرِها وكلامَهُ فعلمتُ حَقًّا أَنَّ هذا مِنْ هنا

وَصَنَ صاحِبته بالطرف وعدواهُ وَصَنَها حَتَّى بالسقمِ أو بالضُّنا غريب ، وتلطف فى التخلص
من الغزل إلى مديح القاضى الفاضل عبد الرحيم ما شاء له التلطف والرشاقة وخفة الروح وعذوبة
الكلم . وله فى غزله كثير من هذه التصاویر المبتكرة ، كقوله :

أَقمتِ عَلَى عاشِقِكِ القِيَامَةَ بورِو لحدُّ وَغُصْنِ لِقَامَةِ
فَمِنْ وَرْدٍ خَدُّكَ كَيْفَ النَّجاةُ ؟ وَمِنْ غُصْنِ قَدُّكَ كَيْفَ السَّلامَةِ

وقوله :

وأشكو إلى ليلِ القَدَائِرِ غَدَرَهَا وأملِ عليه وهو فى الأرضِ يكتب

وقوله :

أَلْقَى حَبَائِلَ صَبِيٍّ مِنْ ذَوَائِبِ فصَادَ قَلْبِي بِأَشْرَاكِ مِنْ الشَّرِ

وقوله :

لَا تَحْشَ مَنْى فَرَانِ كالنسيمِ ضَنَا وما التَّيْسُ بِمَخْنُ عَلَى الغُصْنِ

وقوله :

يُعَانِقُهَا مِنْ دُونِي الْعِقْدُ وَحَدَهُ فَيَا عَجَبًا يَأْقُومُ هَلْ بَقَلْنُ الْعِقْدُ

وقوله :

سَأَتْنِي مَا حَالُ قَلْبِكَ بَعْدِي رُبَّةَ الْيَتِ أَنْتِ بِالْيَتِ أَخْبِرِ

وهو باب واسع عند ابن سناء الملك ويدل على شاعرية خصبة وأنه كان ما يزال يغمص وراء التصاوير حتى يأتي منها بقرائد عجيبة ، مع حلاوة الأسلوب وعذوبته ، مما يدل على أنه كان شاعرا مبدعا إلى أبعد حدود الإبداع . وسنعود إليه مرارا في عرض موضوعات الشعر الأخرى سوى المديح .

ابن نباتة^(١)

هو جمال الدين محمد بن محمد بن شرف الدين محمد ، من سلالة عبد الرحيم ابن نباتة خطيب سيف الدولة المشهور ، وقد غلبت عليه نسبة إليه . كان أبوه وجده من شيوخ الحديث ، وقد ولد لأبيه بزقاق القناديل في القاهرة ، واختلف من ترجموا له في سنة ولادته هل كانت سنة ٦٧٦ أو سنة ٦٨٦ وجمهورهم يؤكد أنه ولد في السنة الأخيرة ، غير أن هناك نصا عنه يذكر فيه أساتذته أو شيوخه في الأدب ، ويذكر من بينهم محي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وليس من المعقول أن يتلمذ له ويأخذ عنه الأدب وهو في الخامسة أو السادسة من عمره ولذلك كنا نرجح أنه ولد في سنة ٦٧٦ على الأقل إن لم يكن قبيل ذلك . ويذكر مترجموه كثرة من شيوخه في الحديث من بينهم أبوه وجده . وتنقل في حلقات شيوخ الأدب وتفتحت موهبته الأدبية في الشعر والنثر مبكرة . وكان كثير من العلماء في مصر يرحلونها إلى دمشق والشام في تلك المحجب . وبالمثل كان كثير من علماء الشام يرحلونها إلى مصر والقاهرة ، ويروح أبوه مصر إلى الشام

مواضع مغرقة وكتاب ابن نباتة للمصري لعمر موسى (طبع دار المعارف) والأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام (طبع دار المعارف) ٢٢١/٢ وطبع ديوانه قديما في مصر وهو في حاجة إلى طبعة محققة ، ومنه غلطوات كثيرة في مكيات العالم العربي والغربي

(١) انظر في ابن نباتة وشعره الدرر الكامنة ٣٣٩/٤ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وطبقات الناصية للبكي ٢٧٣/٩ والوافي بالولايات للصفدي ٣١١/١ والبيان والنهاية لابن كثير ٣٢٢/١٤ والتعظيم للزاهرة ٩٥/١١ وشرحات الذهب ٢١٢/٦ والبرق الطالع ١٥٢/٢ وخزانة الأدب للحموي في

حوالى سنة ٧١٠ ويتزل دمشق ، وبأخذ الطلاب عنه الحديث^(١) ، ويستقر بها ويتولى فيما بعد مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية هناك . ولعل ارنحال أبيه عن مصر هو الذى حُبب إليه الرحلة وراه إلى دمشق واتخاذها منذ سنة ٧١٦ دار مقام له ، وظل بها مدة تقارب نصف قرن أو بعبارة أدق نحو خمسة وأربعين عاما ، وقد ظل يحن إلى مصر حينما متصلا بمثل قوله :

آو لمصرَ وأرضَ مصرَ وكيف لي بديار مصرَ مراتما وملاعبا
حيث الشيعةُ والحبيبةُ والوفا في الأقرين مشاربًا وأصحابا
والدهرُ سلمٌ كيفما حاولته لا مثلُ دهري في دمشق عماربا

وقواده يهفو إلى مصروتراب مصر ونيل مصر ورياض مصر ومرانع صباه بها وملاعبه ، ويقول إنها ديار شبابه وحبه وديار الوفاء في الأقرباء وغير الأقرباء وديار الأمن والسلام ونعيمه . وفى أثناء مقامه بدمشق كان يتردد على حلب ، وبالأخص على حماة وصاحبها المؤيد أبى الفداء الذى استقبله أروع استقبال ، وقرر له راتباً سنوياً : ستمائة درهم غير ما كان يسبغه عليه من المعطاء كلما قدم عليه بمدحه من مدائحهم ، وظل يفد عليه حتى توفى سنة ٧٣٢ فوفد على ابنه الأفضل من بعده .

وفى دمشق والشام تفجر ينبوع الأشعار عند ابن نباتة حتى أصبح - كما يقول ابن كثير والسبكي - حامل لواء الشعر فى زمانه ، غير منازع ولا مدافع . وأروع أيامه حيثئذ أيام اتصاله بالسلطان المؤيد ، ونراه لا يكتفى بما يقدم إليه من مدائح ، بل يؤلف الكتب باسمه ويهديها له مثل كتابه « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » وهى الرسالة الهزلية ، ومثل كتابه « مجمع الفوائد » . وكان قد قرظه كثيرون من فضلاء دمشق وعلمائها وأدبائها ، مما جعله يؤلف فيهم كتابه « سجع المطوق » مترجماً لهم ، وهو كتاب نفيس لا يزال معطوطاً . ونراه فى هذه الفترة : فترة اتصاله بالسلطان المؤيد وثيق الصلة بشيوخ دمشق وأعلامها ، من مثل ابن الرُّملكانى وابن صَصْرَى القاضى والشهاب محمود شاعر الشام ونقى الدين السبكي وابنه تاج الدين وابن فضل الله العمري ، وله فيهم جميعاً مدائح بديعة . وكان ابن فضل الله يتولى كتابة السرى فى دمشق ، فكان

(١) انظر ترجمته فى الرائق بالوفيات ٢٧٠/١ واللمرد

طليعاً أن يقرب ابن نباتة ويعهد إليه بكتابة التوقيع . وكان أحياناً يُنزل عنها وأحياناً يعود إليها حتى سنة ٧٦٦ . وفي هذه السنة استدعاه الناصر حسن سلطان مصر والشام إلى القاهرة في ربيع الأول وأمر أن يُصَرَّفَ له ما يتجهَّز به وأن يرد عليه ما انقطع عنه من الراتب ، وعينه موقعاً للدُّسْتُ وكانت قد تقدمت منه ، فلم يستطع القيام بتوقيع الدُّسْتُ ، فأعفاه السلطان حسن من الحضور وأمر بإجراء راتبه عليه ، كما أمر بنسخ ديوانه وحفظ نُسخٍ منه في المكاتب السلطانية . وبذلك أمره على الشعراء ، مما جعله يلهج بمدحه والثناء عليه . ولم يلبث السلطان حسن أن توفي ، وكان راتبه ربما صُرف له وربما لم يصرف حتى توفي بمارستان قلاوون سنة ٧٦٨ للهجرة .

وكان نَجُّ الشعر عند ابن نباتة فياضاً ، فله بجانب ديوانه الكبير ديوان سماه « الفطر النباتي » وهو خاص بمقطوعاته الشعرية ، والقطر السكر والتورية في اسم الديوان واضحة ، يريد السكر النبات . وله ديوان خاص بغزلياته سماه « سوق الرقيق » . وديوانه الكبير يكتظ بالمدايح ، وعُني كثيرون من معاصريه بمعارضته في بعض قصائده ، واشتهر الصفدي بكثرة إغاراته على معانيه ، وخاصة على تورياته البديعة وكان مغرماً بصنعها ، وألف في سرقات الصفدي منه كتاباً سماه « خبز الشعير » يريد أن سرقاته كخبز الشعير المأكول المنوم ، واستهل خطبة هذا الكتاب بالآية الكريمة : (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا) ويورد دائماً أبياته موضع السرقة ، ثم يورد سرقة الصفدي مثل قوله في الغزل مورياً .

ومولع بفسخاخر يمدُّها وشبَّالهُ
قالت لي العين ماذا يصيدُ قلت كراكي

ويقول الصفدي :

أغار على سرح الكرى عند ما رمى الـ مكراكى غزالٌ للبدور يحاكى
فقلت ارجعي يا عين عن وِرد حسو ألم تنظريه كيف صادَ كراكي
والكرى: النوم ، والمكراكى طير مفردة كركى . والتورية واضحة عند ابن نباتة وخفيفة رشيقة وقد أحالها الصفدي ثقبلة بما أضاف إليها من شرح وتطويل ، ومن ذلك قول ابن نباتة متزلاً :

فديتُك أيها الرامي بقوسي ولَحِظْ يا ضناً قلبي عليه
لقوسك نحو حاجبك المجذابُ وشيئةُ الشيء منجذبٌ إليه

ويقول الصفدي :

تَشْرُطُ مَنْ أَحَبُّ فَذُبْتُ وَجَدًا فَقَالَ وَقَدْ رَأَى جَزَعِي عَلَيْهِ
عَقِيقُ دُمِي جَرَى فَأَصَابَ خَدِّي وَشَيْئُهُ الشَّيْءُ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ
وَتَشْبِيهِ الْحَاجِبِ بِالْقَوْمِ وَانْجِدَابِهِ إِلَيْهِ طَبِيعِي ، أَمَا انْجَذَابُ الدَّمِ إِلَى الْخَدِّ وَتَشْبِيهِهِ بِهِ فَافْرَمْتَهُ
بَعِيدٌ .

وابن نباتة في شعره يمثل بحق ما تمتاز به الروح المصرية من الحفة والإشافة . وبذكر السبكي في كتابه طبقات الشافعية أنه مدح ابن الزمِّلَكَاني نباتية رائعة بدأها بالقرن ووصف الخمر ، وأنشدها ثم قال : « حاول أدياء عصره معارضته فيها فلم يحسنوا إحسانه ، بل قصَّروا وتأخَّروا ولم يلحقوا شأوه »^(١) . وأروع مدائحه ما نظمته في المؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ثم بعد ذلك في السلطان حسن ، وقد ذُيِّع في المؤيد نحو أربعين قصيدة ومقطوعة من مثل قوله :

لَوْ أَنَّ لِلْبَحْرِ جَنَدَاءَ لِفَاضَ عَلَى وَجْهِ الثُّرَى بِنَفِيسِ الدَّرِّ مَنْصُودِ
وَلَوْ أَمَرْتُ عَلَى صَلْدِ الصُّفَا يَدَهُ لِأَنْبَتِ الْعُشْبُ مِنْهَا كُلُّ جُلُودِ
بَاحِجًا الْمَلِكُ السَّارَى عَلَى شَيْمٍ تُرَوَّى وَتُنْقَلُ عَنْ آبَائِهِ الصَّيْدِ
أَغْنَى الْعَفَا فُلُولًا نَاهِيَاتُ نَفَى - أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ - سَمَوَهُ بِمَعْبُودِ

وهو دائم الإشادة بمجوده الفياض على العفا والسائلين ، ويكثر من مديح أسرته الأيوبية وآبائه الصيد الشجعان وما شادوا لأنفسهم من بيت فخار مثوه في أعلى السموات ولا يزال بتألق وبضياء بين الكواكب . وكان المؤيد مؤرخا كبيرا ، وعالما في العربية والفقه والأصول والطب والفلك والمنطق والفلسفة ، وبنوه ابن نباتة مرارا بعلمه من مثل قوله مشبرا إلى تصانيفه الكثيرة :
العالمُ الملكُ السَّيَّارُ سُوِّدُهُ فِي الْأَرْضِ سَيَّرَ الدَّرَارِي بَيْنَ أَفْلَاقِ

وقوله :

وللعلوم تصانيفٌ بَدَتْ فَتَدَّتْ نَمِ السَّوَارُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالسُّورُ
وكان مولما بالتورية كما أسلفنا ، وكان يدخلها في مدائحه للمؤيد ، وورى كثيرا باسم مدينته حماة عن الحماة الحقيقية ، ومن تورياته الطريفة في مديحه قوله :

أَقَسْتُ مَا الْمَلِكُ الْمَزِيدُ فِي الْوَرَى إِلَّا الْحَقِيقَةُ وَالْكَرَامُ بِجَازٍ
هُوَ كَعْبَةُ لِلْفَضْلِ ، مَا بَيْنَ الثَّدْيِ مِنْهَا وَبَيْنَ الطَّالِبِينَ حِجَازُ

وواضح أنه ورى في كلمة ه حجاز ، فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للحقيقة ، وإنما أراد بها المعنى البعيد وهو المَعْبَرُ ، وورى في كلمة ه حجاز ، فلم يرد بها المعنى القريب الذي تشير إليه كلمة الكعبة وهو الحجاز إقليم الكعبة المعروف ، وإنما أراد المعنى البعيد وهو الحجاز ، ومن ذلك قوله في مديح المريد :

بَذَرْنَا أَخْبَارَ مَعْرِ بِجُودِهِ وَنَشَى لَهُ لَفْظًا فُبْنَى لَنَا مَعَنَا

ومعنى بن أوس المرنى مشهور بجوده في مفتح العصر العباسى شهرة حاتم في الجاهلية ، وقد ورى آخر البيت في مدلول كلمة معنى ، فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للفظ وإنما أراد بها معناه المرنى .

ومملوحه الثاني في الديوان بعد المريد ابنه السلطان الأفضل ، وقد أنشده حين تولى إمارة حماة بعد أبيه تهته بسلطته وتعزية له عن أبيه ، تُعَدُّ من فرائد الشعر العرقي ، وفيها يقول :

هَذَا بِمَا ذَاكَ الْعَزَاءُ الْمُقْلَمَا لَمَّا حَسَرَ الْحَزُونُ حَقَّ تَبَسُّمًا
تَغَوَّرُ ابْتِسَامٍ فِي تَغَوَّرِ مَدَامِعِ شِيْهَانٍ لَا يَمْتَازُ ذُو السَّبْقِ مِنْهَا
مَلِيكَانَ هَذَا قَدْ هَوَى لِضَرْبِهِ بَرِغْمِي وَهَذَا لِلْأُسْرَةِ قَدْ سَا
كَأَنَّ دِيَارَ الْمَلِكِ غَابَ إِذَا انْقَضَى بِهِ ضَبْعُ أَتَشَا بِهِ الدَّهْرُ ضَبْعًا
فَإِنْ يَلُوكُ مِنْ أَبْوَابِ نَجْمٍ قَدْ انْقَضَى قَدْ أَطْلَعَتْ أَوْصَالُكَ الْفَرْ أَنْجَمًا
وَأِنْ تَكُ أَبَاكَ الْمُرِيدُ قَدْ مَضَتْ قَدْ جَدَّدَتْ عِلَّابَكَ وَقَتًا وَمَوْسِمًا
هُوَ الْغَيْثُ وَلَى بِأَثْنَاءِ مَشْبَعًا وَأَبْقَاكَ بِحَرًّا بِالْمَوَاهِبِ مَتَمًّا

وعلى هذا النحو تمضى تهته الأفضل جامعة بين التقيضين في كل بيت : بين المدح والثناء ، وفي ذلك ما يصور براعة ابن نباتة وحدة ذهنه وذكاؤه وخصب شاعريته وسهولة أسلوبه ، وهى سهولة تسم سهولة أشعار ابن سناء الملك ، بل سهولة أشعار المصريين عامة ، سهولة تغنن بعذوبة ، وكأنها نفس عذوبة مياه النيل ، وكان يحس ذلك معاصروه إزاء أشعاره وما تغنن به من حلاوة ، فقالوا إن أشعاره سكر نبات أو قَطْرُ نبات . وله في مديح الأفضل وآبائه الأيوبيين :

قَوْمٌ لَذِكْرَاهُمْ عَلَى صُحُفِ الْعُلَا
الْمَلِكُ بَعْضُ دِيَارِهِمْ فَلْيَتَرَلَوْا
إِنْ يَبْقَى مَا ضِيَعَهُمْ عَلَى سَنَنِ الْوَقَا
مَلَأَتْ مُوَاهِبُهُ الْقُلُوبَ مَهَابَةً
وَكُنَّا نَأْمَا أَفْلَامُهُ بِسَوَادِهَا
لَا عَيْبَ فِيهِ سَرَى الْعِزَامُ فَصُرَتْ
أَصْلُ الْفَخَارِ وَكُلُّ ذِكْرِ مُلْحَقٌ
وَالنَّجْمُ بَعْضُ جَدُودِهِمْ فَلْيَتَرَقُوا
فَلَانِهِمْ بَقَاءُ أَفْضَلِهِمْ بَقَا
فَالْقَلْبُ قَبْلَ الطَّرْفِ فِيهَا مُطْرَقٌ
غُرْبَانُ يَبْنِي فِي الْخِزَانِ تَنْقَى
عَنِ الْكُوكَبِ وَفِي بَعْدُ مَحْلَقٌ

وواضح أنه مع سهولة الأسلوب في القصيدة نحس كأن الألفاظ يستدعي بعضها بعضا مع جمال التصاوير فالقلب مطرق قبل العين هية ، والأفلام كأنها غربان فراق لخزائن الأمير مارتل تنق في أموالها بالبين والبعد إلى غير مأب ، وعزائم الأفضل ماتي محقة في السموات البعيدة ، حتى لتطو الكواكب في تحليقها التخلخل في الفضاء ، وإن قومه لأصل الفخار وكل فخر لغبرهم إنما هو ملحق بغبرهم . وكان قد خرج مع الأفضل في رحلة صيد ، فوصفها في أرجوزة طويلة نفت على مائة وستين بيتا ، وصف فيها رياض حسانة ثم أظن في وصف القنص بالشواهد والصقور والكلاب والبنق بمثل قوله :

وَكُلُّ شَاهِدِي شَهِي الْمُرْتَمَى
يَنَا تَرَاهُ ذَاهِبًا لَصِيدِ
حَتَّى تَرَاهُ عَائِدًا مِنْ أَقْبَى
وَكُلُّ صَغِيرٍ مُسْبِلٍ الْجَنَاحِ
ذُو مَقْلَقٍ لَهَا ضَرَامٌ وَاقِدُ
كَأَنَّمَا الْخَطْبُ مِنْهُ يَنْجَلُ
وَكُلُّ مَنْسُوبٍ إِلَى سَلَوِي
طَاوِي الْفَزَادِ نَاشِرِ الْأَطَاوِي
بَعْضُ بِالْبَيْضِ وَيَطْلُو بِالْقَا
كِبَارِي طَارٍ وَصَوْبٍ قَدْ هَمَّا^(١)
مَحْتَصِمًا بِأَيْدِيهِمْ وَكَبِيدُ^(٢)
مَلْتَزِمًا طَائِرُهُ فِي عُنْقِهِ
مَوَاصِلُ الْغَدُوِّ وَالرُّوَاخِ^(٣)
يَكَادُ يَشْوِي مَا يَصِيدُ الْعَصَائِدِ
لَحْصَدِ أَعْمَارِ الطَّيْرِ مَرْسِلِ
أَهْرَتِ وَثَابِ الْخُطَا مَحْشُوقِ^(٤)
يَا عَجَبًا مِنْهُ لَطَاوٍ نَاشِرِ
وَيَسْبِقُ الْوَهْمَ لِإِدْرَاكِ الْمَنَى

(١) الصوب : للطير . هـ : سال
(٢) الأبد : القوة
(٣) سبل : مرسل

(٤) سلق تسب إليها كلاب الصيد السلوية . أهرت :

واسع الشفق .

وأما نمثلنا بهذه الأبيات جميعها من الأرجوزة لدل على أن أرجوزة الطرد والصيد الملية بالألفاظ الغريبة عند أبي نواس ومن جاءوا بعده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة بفضل مهارته الأسلوبية ، والأبيات محمله بصور بديعة ، فقلة الصقر كأنها شعلة نار وعلمه كمنجل يحصد من الطير الأعمار ، وكل كلب سلوق بعض بأنتانه الحاذئة ويخطر بسبقان كأنها القنا أو الرماح القاتلة . ونغم الأرجوزة بمدح الأفضل ويحق سماها : « نظم السلوك في مصايد الملوك » .

ومدحه الثالث السلطان الناصر حسن ، مدحه بأخرة من حياته حين ألقى عصاه بالقاهرة ، وليس في مدحه له الحرارة التي ألقاها في مدح الأفضل وأبيه المؤيد ، وقد يكون ذلك لتقدم سنه ، وله بقول :

يَنَاصِرُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَقَدْ نَفَذْتُ أَقْلَامُ مَدَحِكَ فِي الدُّنْيَا بِسُلْطَانٍ
دَانَتْ لَكَ الْخُلُقُ مِنْ بَدِيٍّ وَمِنْ حَضَرٍ وَقَاضٍ جُودُكَ فِي قَاصِرٍ وَفِي دَانِي
هَذِي الْمَدَائِنُ مِنْ أَقْصَى مَشَارِقِهَا لَنْتَهَى الْغَرْبُ فِي طَوْعٍ وَإِذْعَانِ

وله وراء مدح السلاطين والأمراء والعلماء والكتاب مدح نبوى رائع . وبينه وبين صلاح الدين الصفدى محاورات ومراسلات ومعانيات ، وأرسل إليه الصفدى قصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجاز معلقة امرئ القيس ، مفتحالها بقوله :

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ عَتَبٌ يَسُوهُ كَجَلْمُودٍ صَحَّرَ حَطُّهُ السَّيْلُ مِنْ عُلَى

« ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقاته منه في كتابه « خبز الشعير » الدالف . وصنع ابن نباتة صنيعة فرد عليه بقصيدة من نفس الطراز شطورها الثانية مقتبسة من نفس الشطور في معلقة امرئ القيس استلها بقوله :

فَطَمْتُ وَلَالِي ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَاتِبَا أَقَاطُمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدْلِيلِ
وَابْنُ نِبَاتَةَ كَثِيرُ الشُّكْرِ فِي شِعْرِهِ مِنْ بَوْسِهِ وَرَقَةِ حَالِهِ ، وربما صدق ذلك على أيامه قبل لقاء السلطان المؤيد الذي غمره بتواله ، وربما كان لكثرة عياله أثر في ذلك ، بل إنه يعلن هذه الكثرة في مثل قوله :

لَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا عُنُرٍ عَجِيبٍ أَقْصَى فِيهِ بِالْأُنْكَادِ وَفَقِ
مِنْ الْأَوْلَادِ خَمْسُ حَوْلِ أُمِّ فَوَاحِرَبَاهُ مِنْ خَمْسِ رَيْثِ

وكلمة ست لا يريد بها العدد كما يتبادر ، وإنما يريد أم عياله ، ويسمى بها أمه أو مبدته . وكان مرزاً ، حتى ليقول ابن تغرى بردى فى ترجمته بالمثل الصافى إن كثيرين من أولاده توفوا فى سن الخامسة والسادسة والسابعة ، فكان يألم لهم ويرثيهم مرثى كريمة ، وله رثاء حار فى السلطان المؤيد وابنه الأفضل . ويقول الشوكانى : هو أشهر المتأخرين ولاسيما فى الغزليات .

عبد الله^(١) الشبراوى

من بيت علم وجلالة ، كما يقول الجبرى ، ولد فى سنة ١٠٩٢ ومضى فى نعمة أظفاره يحفظ القرآن الكريم ، ثم اختلف إلى الشيوخ بالأزهر يأخذ عنهم الفقه الشافعى ، وسرعان ما ظهرت براعته ، فأمل وحاضر الطلاب . واعترف له الجميع بالفصل والتمقن فى الشريعة والعلوم الدينية ، مما أتاح له أن يتولى مشيخة الأزهر فى سنة ١١٣٧ . وكان له جاه رفيع ومترلة عظمى عند الأمراء ورجال الدولة ، وكانت كلمته لديهم نافذة وشفاعته مقبولة . وصار لأهل العلم فى مدة مشيخته للأزهر مقام على^٢ وهىة ونجدة عند الخاص والعام ، ومن مؤلفاته عنوان البيان وبستان الأذهان فى الأدب والسلوك والأخلاق وشرح الصدور بغزوة بدر والإنحاف بحب الأشراف وديوان منائح الألفاف فى مدائح الأشراف ، وكلها مطبوعة بالقاهرة من قديم . يقول الجبرى : « وله ديوان يمتوى على غزليات وأشعار ومقاطع مشهور بأيدى الناس » . ومازال يتولى مشيخة الأزهر حتى وفاته سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة .

وللشبراوى مدائح فى ولاية مصر العثمانين ، وأهم وال دُيِّع فيه مدائحه عبد الله الكبورى أو الكبورى لأوائل العقد الخامس من القرن ، وكان جديراً حقاً بمدحه له ، إذ يقول الجبرى عنه : « كان خيراً صالحاً متقاداً إلى الشريعة أبطل الخارات والمنكرات » ويقول : « إنه كان من أرباب الفضائل وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب » . ويذكر أن للشبراوى فيه مدائح طنانة ، وفيه يقول :

سليُّ المكرمات ابنُ الكبورى كريمُ الطبع والأصل الشهير
أقام العدلَ فى مصرٍ وأحيا معالِمَها بها بعدَ الدُّثورِ

وإن لمت صوارمه بأرضي تسارعت العصاة إلى القبور
وإن حادثته في العلم تلقى بحورا موجها در الشجر
وإن سامته شعرا فحدثت عن ابن أبي ربيعة أو جرير
وإن نسمع تلاوته تجده حكى داود بلهج بالزبير
أدام الله دولته بمصر ومثنا به دهر الدهور
وأقننا به من كل كزبر وكف بعزمه أهل الفجور

ونسج القصيدة جيد ، والشراوى بمدح الكبيرى بقضائه على أهل الفجور وإشاعة للعدل الذى لا تصلح حياة الأمة بكونه ، ويؤده بعلمه وحسن تلاوته للذكر الحكيم كما ينوه بشعره ونثره . وقد مضى في القصيدة بمدحه بيلاغته ونفوقه على نوايغ الشعراء من أمثال ابن هانئ الأندلسى ونوايغ الكتاب من أمثال الحريرى . وكثرت منذ زمن المالك تقاريط الكب والمصنعات الأدبية والبلاغة ، وللشراوى من تقريظ لبدبعة وشرحها لعل بن تاج الدين :

أذاك نمر نبم أم ذاك لطف تجم
أم روضة قد تفتى شخرورها ونرم
أم الصبا حين هبت أزالك الهم والقم
قد كنت أعتب دهرى وأحب الدهر أعقم
حتى رأيت عجيبا من فضلك الباهر الجم
فكل لفظك لطف وكل معنك محكم

والتقريظ طويل إذ نحول به الشراوى إلى مدحة بشيد فيها بعلم على بن تاج الدين وحفظه وفهمه كما يشيد بنثره وشعره ودكانه وبراعته . وكان من عادة الشعراء حين ينول أمير أو يتوقى هو أو بعض العلماء أو الأدباء أن ينظموا أبياتا في تلك المناسبة ، إذا حُبت حروف الكلمات في شطرها الأخير بحساب الجمل أرخت لسة الوفاة أو الولاية ونحو ذلك . وكان الشراوى يشارك في هذا الصنيع ، من ذلك تأريخه لوفاة الشيخ أحمد الدلنجاوى شاعر وقته المتوفى سنة ١١٢٣ للهجرة :

سألت الشعر هل لك من صديق وقد سكن الدلنجاوى لخذة
فصاح ونثر مغشيا عليه وأصبح ساكنا في القبر عنده
فقلت لمن أراد الشعر أقصر فقد أرخت : مات الشعر بعده

وللشيخ الشبراوى بعض غزليات رقيقة ، كان يفرد لها أحيانا مقطوعات قصيرة ، وأحيانا يجعلها فى مقدمات مدائمه على عادة الشعراء السابقين ، ومن قوله فى مقدمة إحدى مدائمه لعبد الله الكبورى :

أَعِذْ خَيْرَ الْعَذِيبِ وَسَاكِنِيهِ وَكَرَّرْ طِيبَ ذِكْرِهِمْ عَلَيَّ
فَلَنَهُمْ - وَإِنْ هَجَرُوا وَصَدُّوا أَحَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَيَّ

وواضح أن صياغة الشبراوى جيدة ، وفى شعره وشعر أمثاله من معاصريه ما يدل على أن الشعر كانت لاتزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياة .

٥

شعراء المراتى والشكوى

نشط الرثاء فى مصر من قديم ، ونلتقى به زمن الولاة فى العهد الأموى ، ولعل أهم وال رثاء الشعراء حين موته عبد العزيز بن مروان ، وكان - كما مر بنا - ممدحا ، وتصادف أن توفى بعد وفاة ابنه الأصغر بنحو شهر ، فبكاهما الشعراء ، وسجل الكندى بكاءهم لهما فى كتاب الولاة والقضاة كما سجل بكاءهم لدارهما المذهبة حين أمر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بحرقها وهو قار بمصر وجيش العباسيين بطارده ، وكان عبد العزيز قد تأنق فيها ، وكانما عز على مروان أن تصير للعباسيين .

ونغصى فى زمن الولاة وتلقانا فى كتاب الولاة والقضاة مراثى مختلفة لغير منهم ولبعض الشخصيات العربية ، وفى رأينا أن أهم مراثية خلفتها تلك الحقبة مراثية المعلى الطالى لجاربه ، وقد أشرنا إليها أسلفنا من حديث . ونظّل الدولة الطولونية مصر ، ومر بنا ما كفت لمصر من استقلال عن بغداد ومن نهضة عمرانية وعلمية وأدبية وما أقامته من آثار عظيمة فى مقدمتها قصر ابن طولون وميدانه الذى حوله خماسويه إلى بستان رائع واتخذ فيه بركة من الزئبق ، واتخذ لنفسه فى قصره مجلسا سماه مجلس الذهب نُقش على جدرانته صور بارزة له ولخطاياه وعلى رموسهن أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر . وأعدت الدولة على الشعراء إغداقا واسما ، فلما قضى عليها جيش الخلافة العباسية بقيادة محمد بن سليمان - كما أسلفنا - وهُدمت آثارها بكأها الشعراء وبكرو آثارها

بلموع غزار من مثل قول إسماعيل بن أبي هاشم ^(١) :

قِفْ وَفَقَّهْ بَفَاءَ بَابِ السَّاجِ وَالْقَصْرِ ذِي الشُّرَفَاتِ وَالْأَبْرَاجِ ^(٢)

وربوع قوم أزعجوا عن دارهم بعد الإقامة أيسا ازعاج

فانظروا إلى آثارهم تلقى لهم علما بكل نبيذ وفجاج ^(٣)

ولسعيد القاصر مربية طويلة للدولة وآثارها احتفظ بها الكندي ^(٤) في كتابه الولاية والقضاء ، واقتطف بعض أبياتها ابن تغري بردي وأشهدا مع ما أنشد من مرأى الشعراء للدولة وما كانت أقامت من قصور ومبان وآثار فخمة ضخمة ، ومن قول ابن أبي هاشم مخاطبا القصر وقد خلا من سكانه :

بِاللهِ عِنْدَكَ عِلْمٌ مِنْ أَحْبَبْنَا أَمْ هَلْ سَمِعْتَ لَهُمْ مِنْ بَعْدُنَا خَبْرًا

ونكائر الشعراء - كما مر بنا في غير هذا الموضع - لعهد الدولة الإخشيدية ، غير أنهم لم يذكروا حين دخل جوهر الصقلي مصر واستولى عليها باسم إمامه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ وقد يرجع ذلك إلى أن مدة الإخشيد لم تطل ، وخلفه ابنه أنوجور حتى سنة ٣٤٩ فأخوه على حتى سنة ٣٥٥ وكان كافور مدبر مملكتها ، ولم يكن لها من السلطان شيء . وخلف عليا كافور حتى سنة ٣٥٧ وتوفي فخلفه أحمد بن علي بن الإخشيد وعمره إحدى عشرة سنة ، واضطربت أمور مصر اضطرابا شديدا ، ولم يتداركها الخليفة العباسي يتقدا ، وسرعان ما دخلت رايات المعز الفاطمي بقيادة جوهر ، واستولى على البلاد دون مقاومة تذكر ، وكأنما تنفست مصر الصعداء بزوال هذه الدولة فلم ييكها أحد من شعرائها على نحو ما بكوا الدولة الطولونية .

وتلقانا في أوائل الدولة الفاطمية مراراً مختلفة لعلم بن المعز أول خلفائها بمصر ، وكان أكبر أولاده ، وكان المظنون أن يتخذه ولي عهده ، غير أن سيرته السيئة جعلت أباه يصرّف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله ، حتى إذا توفي مبكراً سنة ٣٦٤ حولها إلى أخيه نزار الذي تلقب بلقب العزيز ، ولعلم مربية في أخيه عبد الله مطلعها ^(٥) :

كُلَّ حَيٍّ إِلَى الْفَنَاءِ بِصِيرُ وَاللَّيَالِ تَمِلُّهُ وَغُرُورُ

وكان ابن طولون قد بنى مدينة القطائع فوق قلعة الجبل .

(٤) الولاية والقضاء ص ٢٥٣ .

(٥) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي (طبع دار

الكتاب المصرية) ص ١٤٧ .

(١) النجوم الزاهرة ١٤٠/٣ وانظر الولاية والقضاء ص

٢٥٢

(٢) باب الساج : أحد أبواب القصر .

(٣) التنية : الطريق في الجبل ، والفجاج : الطرق .

ويكى شابه بدموع غزار ، وما يلبث القدر أن يلم بأبيه المزعزعة ٣٦٥ ويرثيه بمقطوعة قصيرة تخلو من اللوعة على فقدته ، وهو شئ طبيعي لتحميته له عن العهد . ويتوفى أخوه عقيل عن ثلاثين عاما ، ويكى فيه الحسين الشهيد وآبائه الفاطميين . ويكى جارية له بكاء فيه غير قليل من اللهفة والحسرة على ما ضاع منه فيها من الجمال وحسن الصوت والغناء وطيب المدام كما يقول ، ويكى بالمثل قينة سغية . وله في الحسين مرثية رائعة ، وهو ييكى بكاء مؤثرا قائلا^(١) .

نَحَرُوهُ غَيْرَ مَنْتَمِرٍ نَحَرَ الْهَدَايا لِلضَّجِيَّةِ

ويصور موقعة كربلاء وما سفلك فيها من دماء البيت العلوى ، ويصف موكب النساء اللاتي كن مع الحسين وهن مشهورات على ظهور الإبل إلى يزيد بالشام ولا من يرحمهن أو يشفق عليهن ، ويتوعد الأمويين بالويل والثبور والدمار ، والمرثية تكتظ بالأناث واللوعات المنصبة . وتلقى بالمسبح مؤرخ دولتهم المتوفى سنة ٤٢٠ ويذكر له ابن خلكان في ترجمته مرثية لأبيه ومرثية أخرى لأم ولده ، وفيها يقول^(٢) .

وباليتنى للموت قُتِمْتُ قبلها وإلا فليت الموت أذْهَبَنَا معا

وتكرر مرثى الشعراء خلفاء تلك الدولة ، ومن ذلك مرثية أبى المناقب عبد الباقي بن حلى التنوخى للمستنصر ، إذ يقول^(٣) :

وليس رَدَى المستنصر اليوم كالرَدَى ولا أمرُهُ أَمْرٌ يَقَاسُ به أَمْرُ
وقد بكت الحنساء صخرًا وإنه لييكى من قَرَط المصاب به الصُّخْرُ

وقلما مات وزير في العصر إلا بكاه الشعراء وبالمثل القضاة وكبار الكتاب وأصحاب الوظائف العليا في الدولة ، وتلقانا من ذلك طرائف كقول ابن قادوس الديماطى في مرثية^(٤) :

يا فجعته هى في الجنان مسرةً لقدمي نَحْال في غُرُفَاتِها
إن كان في الدنيا عليه مَأْتَمٌ فَأَرَاه عَرَّسَ الجُورِ في جَنَّتِها

وحين قضى صلاح الدين الأيوبي على هذه الدولة لم ييكها المصريون ولا ودعوها ، لأنهم لم يكونوا راضين عن عقيدتها الإسماعيلية المفرطة في الغلو ، وكان حكمها قد فسد فسادا شديدا على

(٣) النجم الزاهرة ٢٣/٥

(١) اللؤلؤ من ٤٥٥ وما بعدها .

(٤) الحريدة (قم شعراء مصر) ٢٣١/١ .

(٢) ابن خلكان ٣٧٨/٤

نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وتكفل بذلك شاعر من شيعتها هو عماره الجني الذي ترجمنا له في الجزء السابق من هذا التاريخ للأدب العربي . ولعل بطلا لم يبكه الشعراء كما بكوا صلاح الدين عظم الصليبيين حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وقد أقيمت عليه المآتم في غير بلد من البلدان العربية ، وراثه كثير من الشعراء ، من ذلك قول العباد الأصبهاني في رثائه ^(١) :

لأنحموه مات شخصاً واحداً قد عمّ كلّ العالمين مماتهُ
لو كان في عصر النبي لأُزِلَتْ في ذُكُورٍ من ذُكُورِ آبائِهِ
ياراعيا للدين حين تمكنت من كل قلب مؤمن روعائِهِ
فعل صلاح الدين يوسف دائماً رضوان ربّ العرش بل صلواتِهِ

وهي مرثية طويلة في مائتين وثلاثين بيتاً ، صوّر فيها جهاده في الدين واستبساله في حروب الصليبيين حتى استخلص منهم بيت المقدس وأكثر بلدانهم وحصونهم في الشام ما حقاً لهم عقاباً ذريعاً . ويتوفى صلاح الدين ويخلفه ابنه العزيز سنة ٥٨٩ كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ويتوفى سنة ٥٩٥ ويخلفه أخوه الأفضل وما يلبث عمّه العادل أن يستولى منه على عرش مصر ، ويعمل على نفعه آثار العزيز ويكي القاضى الفاضل قصره وقصر أبيه بمثل قوله مخاطباً القصر ^(٢) .
وكم قد حَجَجْنَا فَيْكَ للمجدِ كعبةً وكم قد أَلْمَأْنَا فَيْكَ للحجِّ مؤسماً
وكم قد وجدنا فَيْكَ رَافِقَةً راحيةً نَقْبُلُ إذ تُعْطَى حَظِيماً وَزَمَزَما
ولابن سناء الملك مرثيات مختلفة في أصدقائه وأقربائه وأهله ، وله نذب رائع في أبيه ، تنهمر فيه دموعه ، وتنسكب ، وهو يذكر تقواه ونسكه ذكرى عمصة ، وما يزال يندبه ويبيكه قائلاً ^(٣) :

ويا أرضه إن ينكشف بكِ بَدْرُهُ لما برحتِ في الأرض تُكْشِفُ أَلْأَارُ

وبنفس اللوعة والحرقه لموت الأب يلعن لموت الأم وتظلم الدنيا في عينه ، ويحس كأنما كان في فردوس معها من فراديس الجنان وأُخرج منه إلى غير أوبة يقول ^(٤) :

لَهَفَ نَفْسِي عَلَيْكَ يَا مَا بَقَلِي مِنْكَ يَا طُولَ حَسْرَتِي وَعَنَانِي
كُنْتُ فِي جَنَّةٍ فَأُخْرِجْتُ مِنْهَا وَاسْتَعَاذَ الْعِطَاءُ رَبُّ الْعِطَاءِ

(٣) ديوان ابن سناء الملك (طبعة جليل آهباد) ص ٣٢٣ .

(٤) الديوان ص ٣ وما بعدها .

(١) النجوم الزاهرة ٦/٦٠ وانظر خاتمة كتابه البقي الثام .

(٢) ديوان القاضى الفاضل (نشر بلوى) ص ٣٤ .

وكلمة « ياما » في الشطر الأول من كلمات العامية المصرية ومعناها كثير . ويلقانا بنفس اللفظة والحسرة والإحساس الحاد بالألم والحزن والضييق والوحشة في رثائه لجارية شابة ، اختطفها من الموت دون شفقة أو رحمة ، ويظل يئنّ ويسكب دموعه إلى أن يقول ^(١) :

وآنسى من بعدها طولُ وحشَى وضاجنى في مضجى بعدها كَرْى
أيا تُربُّ ما أنصفتَ نَصْرَةَ غُصْنِها أهذا صَنِيعُ التَّربِّبِ بِالْفُصْنِ الرُّطْبِ

ويشتهر ابن النيه بجرئية دالية رائعة رثى بها ابنا للخليفة الناصر سنة ٦١٣ وهى من بدائع المراثى ، إذ يمزى الناصر عن ابنه في أسى ولوعة ودعوة حارة إلى الصبر على المصاب بمثل قوله ^(٢) :

الموتُ نَقَادُ على كَفِّهِ جواهرُ يختار منها الجِياذُ
ولمَرَّةٍ كالظِّلِّ ولا بُدَّ أن يزول ذاك الظِّلُّ بعد امتداد

ولا يموت سلطان أبوى بمصر حتى يندبه الشعراء ، ومن ندبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ وهو يستعد لمنازلة لويس التاسع ، وخلفه ابنه توران شاه قتل بالصلبيين فتكا ذريماً ، وأخذ لويس التاسع قائد الحملة الصليبية أسيراً ، غير أن مماليكه لم يبلثوا أن فتكوا بالبطل : بطل موقعة المنصورة وبكاء غير شاعر مصرى من مثل قول ابن مطروح ^(٣) :

بابِغِيَّةَ اللَّيْلِ من سَحَرَةٍ دائماً يبكى على قَمَرَةٍ
خَلَّ ذَا واندب معى ملكاً ولَّتِ الدنيا على أثره

وحقاً ولَّتِ الدنيا الدولة الأيوبية على أثره وغربت شمسها للمضيئة ، إذ استولى المماليك على صولجان الحكم بمصر . وأول سلاطينهم العظام الظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التى سحق فيها التتار ، ودفع سيولهم إلى الوراء حتى حلب فالعراق . وله بعد ذلك بلاء رائع في حرب بقايا الصليبيين والاستيلاء على كثير من حصونهم بالشام . حتى إذا توفى سنة ٦٧٨ بكاء شعراء مصر بمثل قول محبى الدين ^(٤) بن عبد الظاهر :

(٤) انظر نشره في الأيام والصور في سيرة الملك للنصير

للاون لمحبى الدين بن عبد الظاهر (نشر وزارة الثقافة والإرشاد بمصر) ص ٢٥ .

(١) الديوان ص ٦٢ .

(٢) ديوان ابن النيه (تحقيق صبر الأسد) ص ١٠٤ وما بعدها .

(٣) فوات الزيات ١٨٥/١ .

هذا الذى هزَمَ التَّارَ فأصبحوا تتألم عند الكرى الأحلامُ
هذا الذى قهر الفرنج فكلهم تُرديهم من رُعبِ الأوام

وقلما يتوفى سلطان بعد الظاهر فى زمن المالك إلا ويكيه الشعراء .

ومرنا الحديث عن ابن نانة ومملوحيه السلطان المؤيد الذى دُيِّع فيه غرر المدائح ، حتى إذا مات رثاه بمرث طنانة وفيها يكيه بكاء حارا من مثل قوله فى إحدى مرثيه :

نعى المؤيد ناعيه فوا أسفا للغيث كيف غدت عنا غواديه
واروعتا لصباح من رزيتو أنظر أن صباح الحشر ثابته
ليت الحمام حبا الأيام موهبة فكان يُغنى بنى الدنيا ويقيه
ليت الأصغر يُغذى الأكبرين بها فكانت الشهبُ فى الآفاق تُغديه

وهو تأبين مزوج بنذب وأنين ، وحسرة ما بعدها حسرة ، حتى ليتنقى لومات الناس جميعا فداء للمؤيد بل يتمنى لو كانت الشهب تستطيع أن تغديه .

ويستولى العثمانيون على مصر ويتعاقب عليها ولأنهم ولشعرائنا فيهم وفى كبار الموظفين حيث يتوفون مرث كثيرة ، من ذلك قول الشيخ محمد الغمري فى رثاء الأمير إسماعيل بن إيواظ التوفى سنة ١١٣٦ للهجرة^(١) :

أفى أمانو وسيف الأمن قد غمدا وبدر أفق سماء العدل قد فُقد
وشمس نصر عباد الله قد كُفّت ودولة العز ماتت بالذى لُجدا
كم قد أغاث فقيرا من ظلماته وأبدل الجور عدلا والقسوق هدى
وتكثر مرثى العلماء الأعلام وتكتظ بمرثيهم كتب التراجم ، وخاصة منذ عصر المماليك ، من ذلك قول^(٢) عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فى رثاء جلال الدين عبد الرحمن السيوطى حين توفى سنة ٩١١ :

مات جلال الدين غوث الزرى مجتهد العصر إمام الوجود
فباعيون انهمل بعده ويا قلوب أنفطرى بالوقود

ويروى الجبىرى أنه لما مات الشيخ محمد العشماوى سنة ١١٦٧ قال بعض شعراء الوقت وه

(٢) بدائع الزمرد لابن رياس ٦٣/٢ .

(١) الجبىرى ١٢١/١ .

السيد حين الإدكاوى قصيدة أنشدت وقت الصلاة عليه مظلماً^(١) :

ما بين حرقة أدمى وتولّى نارٌ يوججها لبيبٌ تولّى
يا أرضُ ميلدى باسماء تشقى ياشمسُ نوحى بالمجوم تأوى

والمبالغة واضحة في البيت الثاني

وكان وتر الشكوى من الزمن وأحواله وتقلباته ونوائبه ورزاياه ومن نكد الحفظ وبؤس الحياة مشدوداً دائماً إلى قيئارات الشراء يتغنون عليه آلامهم وأحزانهم وما يصيبهم من شر الحياة ونكرها ومن ضعة الحفظ التي كبت عليهم فيها ، وبين نزول المصائب التي تعصف بهم ، من مثل قول نعيم بن المعز^(٢) :

أما والذي لا يملك الأمر غيرةً ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً لإعلانها حدى أشد وألم
صبرتُ عن الشكوى غباءً وحقاً وهل يشتكى لدغ الأرقام أرقم^(٣)
وفي كل ما يئسى العيون أقله وإن كنت منه دائماً أنبسم

وكان نعيم يعيش في نعيم لأنه ابن للمعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، غير أنه كان أكبر أبنائه وصرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله حتى إذا توفى صرفها إلى أخيه نزار الملقب بالعزيز الفاطمي . وعاش نعيم يتجرع مرارة هذه القصة دون أن يستطيع التفوه بكلمة ، إلا مثل هذه الأبيات التي كان بنفسها عما يجثم في دخائله من ألم مرير . ويردد شعراء الدولة الفاطمية بعده شكاوهم من الحياة وكوارثها والحظ وبؤسه وقصوره عن أمانهم كقول ظافر الحداد^(٤) :

ولى همة تبني النجوم وحالة تصحف ماتبغيه فهور لنا ضيد
إذا رفعتني تلك تخفض هذه فكل تناو في إرادته الحد^(٥)
لما حال شخصو بين هاو وصاعدي وليس له عن واحد منها بد
تولتني الأرزاء حتى كأنما قوادى لكفى كل لاطمة خد

فهتمة ماتزال تصعد به حتى يضافح النجوم وحظه مايزال يهبط به حتى يهوى إلى الدرك

(١) تاريخ الجيقي ١٨٩/١ .

(٤) الخريدة (لم شعراء مصر) ٣/٢ .

(٢) الديوان ص ٣٩٨ .

(٥) الحد : للحد .

(٣) الأرقم : الأفران .

الأسفل من البؤس والشقاء وكأنه في أرجوحة ما يزال صاعدا هابطا وماتزال الأرزاء والكوارث تنزل به بل تلطم فؤاده لطما عنيفا .

ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية داود بن مقدم من أهل المحلة شمال طنطا ويقول العباد :
كان منحوس الحظ غير مبخوث ، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت ، وينشد له ^(١) :
لقد بكرت تلوم على خمول كأن الرزق يجلبه احتبالي
وكم أدليت من دلو ولكن بلا بلل يرُد على قدالي ^(٢)
وكم علفت أطاعي رجاء بجلب بارق ووميض آل
ولا أنا بالكفاف التزير راغبي ولا أنا عن طلاب الكثير سال

فصاحته تلومه على خموله وأنه يقعد عن طلب الرزق ، ومفتاحه ليس في يده ، وطالما أدل بدلوه مع طلابه فعادت دلائهم ملاء ، وارتد عليه دلوه فارغا ، وكأنما يتعلق ببرق كاذب وسراب يحسه الظلماء ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ، وهو مع ذلك لا يزال يطمع في الكثير وكان حريئا به أن يرضى بالتر القليل .

ونحن الشكوى على ألسنة الشعراء في زمن الدولة الأيوبية وانتصاراتها المدوية ، إلا في بعض لحظات نعمة قد تمر بالشاعر فيشكو شكوى عارضة كقول ابن سناء الملك ^(٣) .

يا غَيْبَةَ الحر الذي لم يلق فوق الأرض حرا
وإذا اشتكى فقرا أسا ل الدمع من عينيه نيرا
والخلق تُنْزِي الدمع ما وهو يُذْرى الدمع جَمرا
وإذا غَلَسَتِ اللسان م فإن موت الحر أحرى

ولا أظن أن ابن سناء الملك اشتكى الفقر والبؤس يوما ، فقد كان يعيش في مجبوحة من الترف والنعيم ، ولذلك نظن أنه قال قصيدة هذه الأبيات في لحظة من لحظات غضبه ، وهي فعلا أبيات عارضة في ديوانه الضخم .

ويعود الشعراء إلى الشكوى في أيام المالك والحديث عن بؤسهم ، وكانوا يمزجون هذا الحديث بنخبة الظل التي عُرف بها المصريون ، حتى لتصبح الشكوى ضريبا من الفكاهة أحيانا على

نحو ما هو معروف عن الجزار والوراق وابن دانيال ، وستترجم لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .
وبأخذ هذا الحديث صورة عابسة جادة عند نفر من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن نباتة الذي أكثر - كما أسلفنا - عن الحديث عن كثرة عياله كقول له لأحد ممدوحيه :

يأسدي دعوة ذي حائلٍ أحالها الدهرُ وعدوانه
تفليسُ في الشام بعد الغنى يقضى بأن القلب حرّانة
فارق أولادًا وأهلا وما تحمّلت للبين أنعامه

فهو يستعطف ممدوحه لما أصابه الدهر به من البؤس والفسك وضيق العيش ، وقد فارق أولاده وأهله يئس أن يجد لهم ما يقوتهم وأن يعود لهم غنيا ثريا أوفى بسطة من الرزق . ويردد ابن نباتة ذلك كثيرا في أشعاره . ووراءه كثيرون في زمن المالك كانوا يشكون مما يتجرعون من مرارة الحياة وعيشها البائس المضى . وساعد على ذلك أن المالك لم يرعوا الشعراء في زمنهم رعاية الحكام من قبلهم ، وأنهم قلما كانوا يسبقون عليها عطاياهم ، وحتى ما كانوا يعطونه لهم أحيانا كان نزرا قليلا ، فكان طبعيا أن يستشعروا الحرمان والبؤس وأن يندبوا حظهم العاثر ، وأن يعبّروا نقمتهم على الدهر والزمان . ثم حلت الحقبة العثمانية ، فزادتهم إغفالا في البؤس واليأس والشكوى المريرة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند بعض شعراء الرثاء والشكوى في المراحل المختلفة لهذا العصر .

على بن الثغر^(١)

من أهل الصعيد كان نحويا أديبا روى عنه ابن برّي وغيره ويقال إنه كان يحفظ كتاب سيبويه ، وكان متصرفا في علوم كثيرة ، وهو أحد قضاة الصعيد التائبين ، تولى قضاء الصعيد وإخميم في زمن الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . ويدل أن موهبته الشعرية استيقظت مبكرة ، مما جعله يقبل على شعر المديح محاكيا شعراء عصره . فلدح كثيرين من أعيان الصعيد وفي مقدمتهم بنو الكثر أعيان أسوان . ثم قصد بمديحه الأفضل فرفع منزله وعينه قاضيا للصعيد ، وفيه يقول أبو الصلت في رسالته المصرية التي كتبها عن شعراء مصر وأدبائها ، وقد

(مصر) للمعاد الأصفيان ٩٠/٢ واطالع السيد ص ٢٢٠
والنية للسيوطي ص ٣٥٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن الثغر وأشعاره رسالة أبي الصلت
أنية في نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون (المجموعة
الأولى) ص ٤٠ وما بعدها وغريدة القصر (قسم شعراء

اقتحها بذكره قائلا : « من الأفاضل الأعيان ، المملودين من حسان الزمان ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ، والفضل الباهر والنثر الرائع ، والنظم البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى » ويبدو أنه كان واسع الثقافة . ويقول الأذوقى صاحب الطالع السعيد : « أكثر شعره في تشكي الزمان والإخوان » . وكان قد قصد الأفضل في أول الأمر راجيا خدمة عنده أو ولاية فخاب أمله فيه وضاع رجاءه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ويشكو الحية والحرمان :

بين التمزُّز والتذلل مسلِكُ بادي النَّارِ لِيَمِينِ كلِّ مَوْقٍ
فاسلكه في كلِّ للواطن واجتنبْ كِبَرُ الأَبَى وذِلَّةُ المُتسلِّقِ
ولقد جلبتُ من البضائع غيرَها لأجلِ مَخْطَرِ وأَكْرَمِ مَتَنِ
ودرجوتُ خَفَضَ العِيشِ تحت رِوَاقه لا بدَّ إنْ نفقتُ وإنْ لم تَنفَقِ
ظَنَّا شيئا باليقين ولم أَخْلُ أنْ الزمان بما سقاني مُشْرِقٌ^(١)
لأفارعنَّ الدهرَ دون مروهى وجُرمتُ عُرَّ النَّصْرِ إنْ لم أَصْدُقِ

وهو ينصح غيره من الشعراء أن لا يصغروا خدعهم كبرا ، وأهم من ذلك أن لا يُسيما أنفسهم ذل الملق والمهوان ، وليتخذوا منه وما صنع به الأفضل عبرة وعظة ، إذ قدم له بين يدي ما أمَّله منه قصيدة بديعة من قصائده ، فكان جزاؤه خيبة ما بعدها خيبة ، ومع ذلك فهو يمسك نفسه ، إذ هي أكبر من أن تنكسر ، بل إنه ليهدد بمقارعة الدهر ونزاله دون مروهة وعزة نفسه . وفرغ إلى غير قليل من الزهد والقناعة بمحض عليهما ويلم الضراعة ، متأسفا على امتنان نفسه وإراقة ماء وجهه للأفضل دون طائل بمثل قوله :

لَقَدْ لَمَسْتُ لِمَلِكٍ قَنَاعَةً لو أَنَّى مَتَّعْتُ فِيهِ بِعِزِّهِ المُتسلِّقِ
وَلَكِنِّي بِأَسْرِ كُنْتُ قد أَحْرَزْتُهُ لو لم تَمِثْ فِيهِ الخَطُوبُ وتَفْتَلِكِ
أَكْبَتْ أَجْعَلُ ماءَ وَجْهِهِ بَعْدَهُ كَدَمُ يُولُ بِه الحُجِيجِ بِشَيْكِ
لا أَنشَأَنِي الحَادِثَاتُ لَمِثْلِهَا وَرُمِيتُ قَبْلَ وَقْعِهَا بِالْمَهْلِكِ

لقد أضعاف ملك قناعة كان هنيئا به متمتعا فيه بعز سلطانه ، وأضعاف معه كثر بأس من الوزراء والحكام أمثال الأفضل كان مقتبضا به سعيدا ، ويقسم أن لا يريق ماء وجهه لأحد بعد الأفضل

(١) مشرق : جاعلني أحسن بما سقاني .

وما صنعه ، ويدعو على نفسه بالموت إن هو فكر أن يعود إلى المديح وهوان الاستجداء وذله ،
ويتجه إلى ربه داعيا ضارعا بمثل قوله :

يَاسْتَجِيبْ دَعَاہِ الْمَسْجِرِ بِوَیْ وَیَا مُفْرِجَ لَیْلِ الْکَرْبِ الدَّاعِیِ
قَدْ أُرْتِجَتْ دُونَا الْأَبْوَابُ وَامْتَنَعَتْ وَجَلَّ بِأَبْكَ عَنْ مَتَعٍ وَارْتَاخِ
نَحَافُ عَذْلُکَ أَنْ یَجْرِی الْقَضَاءُ بِوَیْ وَنَرْجِیْکَ فَکُنْ لِلْخَائِفِ الرَّاجِیِ

فقد أغلقت أبواب الرجاء من دونه ، وأظلمت الدنيا من حوله ، وغرق في كرب وغم ،
وأخذته اليأس من كل جانب ، فلا أمل ، بل قنوط مقيم ، حتى ليخشى على نفسه من أن يفلق الله
عنه بابه ، وإنه يمتلئ خوفا ورجاء . ويعزى نفسه ويدعوها إلى الصبر الجميل :

يَانْفُسُ صَبْرًا وَاحْتِسَابًا إِنَّمَا غَمَرَاتُ أَيَّامٍ تَمُرُّ وَتَجَلُّ
لَا تَيَاسُ مِنْ رُوحٍ رَبِّكَ وَاحْتَرَى أَنْ تَسْتَعْرِی بِالْقَنُوطِ فَتَحْتَلُّ

إنه يتمنى لنفسه أن تخلص من محنة اليأس الذي يملؤها شقاء وعناء ومسرة ولوعة ، فيخفف
عنها ذلك كله أو يحاول أن يخففه بما يدعوها إليه من الصبر على البلاء وأن لا تياس من روح ربا
فإنه لا يياس من روحه إلا الظالمون لأنفسهم المستسلمون للقنوط وأهواله .

وكان علي بن النضر يحميد الرثاء كما يحميد الشكوى من الزمان وأهله ، وله مثنوية بدعية في إبراهيم
ابن الزبير حاكم قوص لسنة ٤٧٢ للهجرة وهو جد المهذب بن الزبير الشاعر المار ذكره ، استهلها
بقوله :

يَا مَرْؤَ ذَا جَدَّتْ الرُّشِيدُ قِفْ مَعِيَ نَسْفَحْ بِسَاحَةِ مِرَادِ الْأَدْمَعِ (١)
وَامْسَحْ بِأَرْدَانِ الصَّبَا أَرْكَانَهُ كَيْ لَا يُلْمَ بِهِ شُحُوبُ الْبَلْعِ
وَبُودُ نَفْسِي لَوْ سَقَبْتُ نَرَابَهُ دَمَ مُهْجَتِي وَوَقْتَهُ بِالْأَضْلَعِ

وهو يتجه إلى المزن أو السحاب المطر محاولا أن يستوقفه لیسفح أمطاره معه على قبر صاحبه ،
بل لیسفح معا عليه قربانا من الدموع ، ويتوصل إليه أن يمسخ بأكام الصبا أركانه ، حتى يظل
ناضرا لا يلم به شيء من شحوب البلع أو القفر من حول جدته ، وكان بود نفسه لو فداه بروحه
وسقى نرابه دم مهجته ووقاه بأضلعه ، ويخاطب قبره ملئناها بقوله :

لَتَنْفُتَ فِيكَ الصَّبَا مَفْقُودَةً بِسِيمِ مِسْكٍ رِيَاضُهَا الْمَتَفُوعِ
أَوْ مَا عَجَبْتَ لِطُورٍ عَزُ بِأَذْغِرَ مُسْتَوْدِعٍ فِي ذِي الثَّلَاثِ الْأَذْرَعِ
وَلَحْدُ مَنْ وَطِئَ الْكُوكَبَ رَاقِيًا كَيْفَ ارْتَضَى مِنْ بَعْدِهَا بِالْإِرْتَمَعِ
وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى رِبْعِكَ شَاكِيًا وَبِهَا الَّذِي لِي مِنْ أَسَى وَتَوَجُّعِ

وهو يدعو للقبر أن تهب عليه ريح الصبا المعطرة بمسك الرياض ذكي الرائحة وأن يظل ذلك دائما أبدا ، ويعجب لهذا الجبل الشامخ عزا أن تطويه ثلاث أذرع ومن وطئ الكواكب بقدمه راقيا أن يرتضى التزول تحت اليرمع أو الحجارة الرخوة ، وإنه - مثل كل ما حوله من الربوع - يلمتلي حسرة وأسى وتوجعا ما بعده توجع . ولعل في ذلك كله ما يصور ملكة ابن النضر الشعرية الخنصبة .

على بن عَرَام^(١)

شاعر أسوان مسقط رأسه وموطنه ، بل شاعر الصعيد قاطبة ، دفعه طموحه في شبابه إلى أن ينزل الفسطاط ويأخذ عن علماء اللغويين من أمثال ابن بركات وغير اللغويين . وكان فيه ذكاء وحسب للعلم وفنونه ، فبرع في غير فن ، وصنف تصانيف كثيرة . ويبدو أنه أثر المقام ببلدته أسوان ، وله في أعيانها غير مدحة ، وكان كثير الوفود على حكام الصعيد من الأيوبيين في قوص وغير قوص ، من مثل مبارك بن متقذ وتوران شاه . ويقول العماد الأصمباني إنه سأل عنه سنة ٥٧٣ فقالوا له إنه حتى في أسوان ، وكان لا يزال يذكرها حين يبرحها فترة في حين بالغ ، حتى يقول في إحدى رحلاته وقد ذكرها ، فكأنما نكأ جرحا في قواده إذ يقول متلهفا في العودة إليها حين نفاه بنو الكثر أعيانها إلى إسنا :

وَلَا بَارَكَ الرَّحْمَنُ فِيمَنْ أَزَاخَنِي عَنِ الظِّلِّ وَالْمَاءِ الزُّلَالِ الَّذِي يَجْرِي
مَقِيلٌ وَلَكِنْ أَبِينِ مَتَى ظِلُّهُ وَسُقْيَا وَلَكِنِّي بَعِيدٌ عَنِ الْقَطْرِ

فهو يتمنى وقت قبولة بأسوان وشربة من مائها السلسيل ، إنها نعيمه وفردوسه الذي لا يمثاله فردوس ، وسرعان ما عاد إليها وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٠ . ويقول صاحب الطالع السعيد :

« لم يكن في أرض مصر من يدانيه في فضله ويضاهيه في نبهه . ويشيد به ويشعره العباد الأصهباني إشادة رائحة ، ويذكر أن بعض أصدقائه أحضر له ديوانه فوجده من طبقة عالية ، مما جعله يعرض منه ألوانا ، ويقول : « قد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائق ، ولفظه الرائع الشائق ، ما إذا حُصِرَ ^(١) اسحر . . ولا بن عَرَام في ميدان النظم عَرَام ^(٢) ، وبابتكار المعاني الحسان غرام ، ولرويته في إذكاء ^(٣) نار الذكاء ضرام . . وكل سحر وخمر سوى منسوج فدائه ^(٤) وممزوج مدامه حرام ، اعجب : بحر في الصعيد ^(٥) يُقصدُ بالتيسم لائه ، ولجم في صعود السعد لا يترقى إلى سمائه . ويتلو العباد ذلك بطائفة من أشعاره مرتبة على حروف الهجاء ، ويذكر له من قصيدة في رثاء بعض العلويين ، وربما كانت من أشعاره في زمن الفاطميين ، وفيها يقول :

إنما هذه الحياة غرورٌ كسرابٍ بدا لنا في فجاج
تبع الحلو من جنى عيشها الحلو جر يمر من الرزايا أجاج ^(٦)
نحن فيها كمثل ركبي أناخوا ساعة ثم أرهقوا بانزعاج

وتلك سنة الحياة : غرور كلها وسراب سرعان ما يزول ، وحلو سرعان ما يحول مرا وملحا أجاجا ، وما أشبه الناس فيها بركب أناخوا قليلا وجميعهم وقوف ، كل منهم ينتظر دوره في الرحيل ، فالكل راحلون إلى أجدانهم وقبورهم فهي قرارهم ومترهم ولا مآب لهم منه ولا خلاص . وله مراثية في ابن عمه هبة الله بن عَرَام ، وكان شاعرا محتا وفيه يقول :

من لسود الخطوب غمرك يجلب لها وقد غاب منك بدر منير
من يحوك القريض مثلك يسدي على خبرق به وينير ^(٧)
ليس في العيش بعد فذلِكَ خير حبذا وافد الردى لو يزور
كان ظنى إذا المنايا انتحتا أننى أول وأنت أخير ^(٨)

(٦) أجاج : شلبد اللوحة .

(٧) يسدي : من السدى وهو ما يد طولاً في النسيج .

ينير : يلحم أو يحيل له لحمه وهي ما يد عرضاً في النسيج

يريد أنه يحكم الشر إحصاها دقيقا

(٨) انتحتا : قصدتا .

(١) حصر : انكشف .

(٢) عرام : قوة وشدة

(٣) إذكاء : إيقاد .

(٤) المدام : ما يوضع على فم الدن لتصفية ما فيه .

(٥) الصعيد : الوجه القبلي وهي أيضا وجه الأرض

كيف لي بالسُّوء عنه وطئُ الـ قلب من ففده جوى منشورُ
فسقى قبره نداءً ففیه لكره غنى وري غزيرُ

وهو شديد اللوعة على ابن عمه وصديقه ، ولذلك يخلط نذبه بتأنيته ، إذ فقد البدر الذى كان ينير في دجى خطوط الدهر وكوارثه ، وإنه ليندب للشعر شاعره المبدع الذى كان ينسج خيوطه نسجاً محكما ، وكأنما فقد كل نعيم في دنياه وكل خير ، حتى لينتفى الموت ، إذ لم يعد له بقاء بعده ، ولا عاد يعرف كيف السلوان عنه ، وقلبه منظر على نار من الجوى لا تحب ولا تهدأ ، وإنه ليذكر نداء وكرمه الذى طالما أغدقه على من حوله ، ويدعو الله أن ينزله على جدته شايب رحمة .

ويروى العماد لابن عرام قصيدة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم باكين ، استلها بقوله :

الرّدى للأنام بالمرصاد كل حى منه على ميعاد
كيف يربحى ثباتُ أمر زمان هو جارٍ طبعاً على الأضداد
فإذا سرّ ساء حتماً ويقضى بوجود إلى بلى ونفاد

فالمرتبة غاية كل حى ، والناس جميعاً يسقطون في قراره العميق ، لكل منهم موعده لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وبالحال من سخرية للزمان ، فإنه لا يبق للإنسان على شيء ، وحتى لو سرّه يوماً لساء يوماً أو أبداً ، وإنه ليس له كل ما أعطاه حتى وجوده وحياته . ويمضى في نفس القصيدة أو المرتبة قائلاً :

نحن في هذه الحياة كسفر
عرسوا ساعة بها ثم نادى
كم أبى والد بئس
يدعى المرء إرث أرض ودار
وهو مودونها إذا كان يتي
وقصاره أن يشيع محمو
ربما أضحكوا عن الأزواج^(١)
بالرحيل الهدى فيهم مناد^(٢)
كم يتيم فينا من الأولاد
سقاها غير لائق بالسداد
وفى تبقى على مدى الآباد
لا بأكتفاه على الأعواد

وما أبأس الحياة من رحلة ، وما أبأس ركب هذه الرحلة ، فليس لهم فيها حق في الريث والأناة ، ولا في العهل والوقوف ، إنها لا تريد عن ساعة تنزلها قافلة ، وسرعان ما يصبح في ركبها مناد بالرحيل السريع ، وكل من في الركب يركى وينوح وبين أنبأ لا ينقطع ، أب بن وينرف الدموع مدراراً على أنبائه ، وأبناء أيتام يتنون ودعوعهم لا تجف ولا ترقأ على آباتهم وأمهااتهم ، وكأنما يقطعون جميعاً وادياً كله غصص وآلام ، إنه وادى الموت يحوسون خلاله ، وهم لا يدرون . وأعجب العجب أن يحرس الإنسان على إرث الأرض وملكها ، وهو موزونها وملوكها الذي سرعان ما يزول ويفنى ، بينما هي باقية على كُر الدهور ، وما أعظمها عبة ، فكل إنسان مها بلغ من الثراء أو المجد يخرج من دنياه كغبرة محمولا على أعواد ، وسرعان ما يُلْقَى عليه رداء التراب الثقيل . ويقول ابن عَرَام

وَإِذَا الْأَهْلُ وَالْأَقَارِبُ وَالْأَحْدُ جَابُ رَاخُوا فَأَنْتَ فِي الْإِثْرِ غَادِ
فَالْقُبُورِ الْيُوتُ مَضْجَعُنَا فِيهِ مَا وَما إِنَّ سَيِّئَ الثَّرَى مِنْ وَسَادِ
كَمْ أَحَالِ الْبَلَى إِلَيْهِ قَدِيمًا جَسَدًا نَاعِمًا مِنَ الْأَجْسَادِ
شَاهِدُ الْمَوْتِ لَانْعُ فِي جَبِينِ الْ حَيُّ مَتَا فِي سَاعَةِ الْمِلَادِ

فالكل ميت ، وكل ما هناك سابق ومسبق ورائع وغادٍ إلى القبور : البيوت الدائمة التي نضطجع فيها على وسائل الثرى ، لا فرق بين إنسان وإنسان ، فنحن جميعاً بنو الموت ، ونحن جميعاً سكان القبور ومنذ يولد الإنسان يلوح على جبينه ساعة ميلاده شاهد موته وأنه ملق به - طال أجله أو قصر - وراء تراب وأحجار .

ابن القتيب^(١) : الحسن بن شاذل الكناي

ولد بالقسطاط سنة ٦٠٨ وتوفي سنة ٦٨٧ وهو بذلك من شعراء الدولتين : الأيوية والمملوكية ، وكانت له عناية بالحديث النبوي . روى عنه الحافظ النماطي وغيره ، واتصل بالأيوبيين ، فميتوه في دواوينهم ، وقد لقيه ابن سعيد الأندلسي مؤلف كتاب المغرب حين زار

وحسن المحاضرة للسيرطى ٥٦٩/١ وشرحات اللعب لابن
العماد ٤٠٠/٥ .

(١) انظر في ابن القتيب : الحسن بن شاذل للمغرب في
حل للمغرب لابن سعيد (قسم القسطاط) ص ٢٥٨ وفوت
الوفيات لابن شاذل ٢٣٢/١ والتجوم الزمرة ٣٧٦/٧

مصر في أوائل العقد الرابع من القرن السابع ، يقول : « اجتمعت به وهو يتولى لسلطان مصر معدن الزمرد ، فأبصرت شخصا مجسداً من الفضائل معنوا عن بيته - إذ يُنسَبُ إلى شاور وزير العاضد الخليفة الفاطمي - بما يبدو عليه من كرم الشئائل ، وصنف كتاباً سماه « منازل الأحباب ومنازه الألباب » . وفي شعره ومترلته الشعرية يقول ابن سعيد : « هو عندي من أفراد شعراء العصر المتخلفين في النوص على المعاني الحاترين من غايات الإحسان ما يقصر في إطرابه عنه الثالث والثاني » ويقول ابن شاعر : « شعره جيد عذب منسجم فيه التورية الرائعة اللاتفة المتكئة . وهو أحد فرسان تلك الحلقة الذين كانوا من شعراء مصر في ذلك العصر ، ومقاطيعه جيدة إلى الغاية » . وابن شاعر يقصد بالحلقة السراج الوراق والجزار والحمامي الذين كانت أسماؤهم على كل لسان لحفة وروحهم وكثرة ما كانوا ينظمونه من التوريات ، وكان ابن النقيب على شاكلتهم يكثر منها ومن طريف تورياته :

أنا المُتَرِّى فاعلُزنى وسامعٌ وجِرَّ على بالإحسان ذَيْلاً
ولما حِزْتُ كالهِنون عِشْقاً كمتُ زيارتي وأتيت ليلاً

وكلمة « ليلاً » في نهاية البيت الثاني لا يريد بها الليل الحقيقي إذ جاء بها تورية عن صاحبة « ليل » . وهي تورية تدل على ما وراءها من سرعة بديته ، ورقة حسه ، وله غزل بديع مستند منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل . وله محاورات كثيرة مع من سبناهم من الشعراء ، وكتب إليه ابن سعيد بيتيه اللذين أنشدناهما في غير هذا الموضع ، وهما :

أيا ساكني مصر غدا النيلُ جاركم فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعر
وكان بلك الأرض سحرٌ وما بقى سوى أثرٍ يبدو على النظم والأثر

وأجابه ابن النقيب من قطعة كتب بها إليه متواضعا :

ولا تطلبن سحرَ البيان بأرضنا فكم فيه موسى مبطلُ آيةِ السحر
ولا رقةَ الشعر الذي كان أولا وكيف رقيق الشعر مع قسوة الدهر

وإنما ذكرنا هذه الإجابة لما فيها من شكوى الدهر وقسوته ، منذ الثلاثينيات من عمره ، ولا ندرى هل ظل موظفا بالدواوين في عهد المالك أو أنه أثار العزلة مكتفيا بما ورثه عن آبائه ؟ . وأكبر الظن أنه ظل متصلا بالمالك ودواوين الدولة ، يدل على ذلك ما رواه ابن نغرى بردى ،

لما مرّ بنا في غير هذا الموضع من أنه كان حاضرا وقعة الظاهر يبرس مع التار على شطّ الفرات سنة ٦٧١ وكيف أنه صوّر انتصاره تصويرا ارائعا .

وحانت منه التفاتة فيما يبدو إلى جندي قبل المعركة كان في الساقة وعرف أن له نظرا لا يوضعون في مقدمة الجيش وإنما يوضعون في مؤخرته ، أو لعله إنما التفت قبل كل شيء إلى نفسه ، فتأثر وبلغ به التأثير حدا بعيدا من الإحساس بالظلم ، وإذا هو ينشد في ألم بالغ :

نحن إلا قطاعةُ الأجنادِ وبرّياتُ غرِّ هذا النادى^(١)
 نحن إلا حكايةُ وخيالٍ وحديثُ لحاضرٍ ولبادى
 نحن إلا غُسالَةُ لمرّاقٍ لفسدورِ تفرّغتِ وزبادى
 نحن إلا زبالَةُ ضَمَمها الرّب مالُ فوقِ الأكوامِ للوقادِ
 جرّدونا فلا قطعنا فردو نا - وقد أحسنوا - إلى الأغادِ
 وعرضنا على براذينِ جيشٍ ما استعملتُ لحملَةٍ وطرادِ^(٢)
 ورماحٍ لم نعتقل لطمعانٍ وسيوفٍ ما جرّدتُ لجلادِ
 فهى لا فرق في يد الفارس الكش حانوا منا أو في يد الحدادِ

ويبدو أنها شكوى لسان فريق من الفرسان ، نحن وضعوا في مؤخرة الجيش الذى يقوده الظاهر يبرس لحرب التار يريدون أن يكونوا في أول الصفوف لمنازلة العدو التارى ودحره دحرا لا تقوم له قائمة بعده ، ويسوق ابن النقيب الشكوى في مرارة ، إذ يقول على لسان هؤلاء الفرسان منهكما : ما نحن إلا نُحاةُ الأجناد بل نحن حكاية وخيال وحديث مردد ، بل غُسالَة لمرّاق بل زبالَة ، ولعله يبالغ في تصوير ما أصاب هؤلاء الفرسان من ظلم ويبدو أنهم كانوا مثله بلغوا من العمر عتيا فوضعوا في المؤخرة . على أن في شكوى ابن النقيب ما يدل على أن فرسان المقسمة إنما كانوا يختارون من أصلب الجنود وأعتاهم ، إذ كانوا هم وغيرهم يعرضون ، ويختارون في أثناء العرض وبعد الاختبار ، وهو لذلك يقول إنهم جرّدوهم لينظروا إلى أى حد هم سيوف قاطعة فلا لم يقطعوا رءوسهم إلى الأغاد أو إلى المؤخرة ، ويلقى النبعة على البغال التى ركبوها ، فإنها

(٢) براذن جمع يردون : بطل ضخم .

(١) القطاعة : النحاة كالتبراة .

لم تكن ممرنة على العدو الشديد والغارة السريعة ، وأيضاً ظن السيوف والرماح كانت قد علاها الصدا ولم تعد صالحة للترال ، فبيان هي في يد الفارس البطل منا أوفى يد الحداد كي يشحذها ويزيل عنها الصدا . وتلقانا عند ابن النقيب شكوى مرددة من البؤس والفقر ، في مثل قوله :

يَا قُفْلَ بَابِ الرِّزْقِ إِذَا الَّذِي مَازَالَ عِنْدَ الْفَتْحِ قُفْلًا عَصِرُ
أَفْرَطْتَ فِي الصَّرِّ وَلَا بُدَّ أَنْ تَنْفَسَ أَوْ تَنْدُقَ أَوْ تَنْكِرَ

وهو يشعر كأن باب الرزق أغلق من دونه ، وهو يعالج فتحه ، ولا يفتح ، ويشكو ما يلقاه من عسرو ضيق وضك ، ويأس من فتح هذا القفل بأي مفتاح من مفاتيح طلب الرزق فيأمل في أن ينفس ويفتح أغلقة أو يندق أو يدكر . ولجتمع عليه الشيوخة والعوز والإملاق ، فنشد :

وَجَرَّدْتُ مَعَ قَفَرِي وَشَيْخُونَتِي الْتَى تَرَاهَا قَنُومِي عَنْ جُفُونِي مَشْرُدُ
فَلَا يَدْعِي غَيْرِي ثِيَابِي فَظَنِّي أَنَا ذَلِكَ الشَّيْخُ الْفَقِيرُ الْمَجْرُدُ

وحق ثيابه نزعها البؤس عنه ، فهو شيخ فقير عريان مسهّد لا ينام . ولعل في ذلك كله مبالغة ، وهي على كل حال تدل على مدى إحساسه بلوعة البؤس واستطالته عليه في شيوخته . ويبدو أن محته بالحياة لم تقف عند ضيق ذات اليد ، فقد اتسعت لتشمل الأصدقاء والأصفياء ، حتى يقول :

لَا تَتَّقُ مِنْ آدَمِيٍّ فِي وَدَادٍ بِصَفَاءِ
كَيْفَ تَرْجُو مِنْهُ صَفَا وَهُوَ مِنْ طِينِ وَمَاءِ

فطيمي - في رأيه - أن لا يُصنّف إنسان لصديقه إخاء . لأنه لا يعرف الصفاء ، بل هو دائماً كدر وكذلك كل ما يتصل به إذ هو مركب من طين وماء .

عبد الله^(١) الإدكاري

ولد بإدكو بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ وألحقه أبوه بكتاب بها حفظ فيه القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه ذهب في طلب العلم إلى القاهرة ، فحضر دروس العلماء بها في زمنه ، واشتهر بأدبه

(١) انظر في ترجمة الإدكاري وأصله تاريخ الجبل ٣٥٢/١ وناصح ٢١٠/١ ، ٢١٦ ، ٢٦٣ ، ٣٤١ .

وشعره ، ولزم السيد على برهان زاده نقيب الأشراف ، وظل يسبح عليه من عطاياه ، وحجَّ معه بيت الله الحرام سنة ١١٤٧ وزار قبر الرسول ﷺ وعاد إلى القاهرة ، وأقبل - كما يقول الجبرتي - على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر ، ومهر وسهر ، وهو في أثناء ذلك يكثر من رحلاته إلى رشيد والإسكندرية ويطرح أدباءهما . وتزوج حيث وأصبح صاحب عيال ، وتوفى النقيب المذكور ، فظلم الشيخ عبد الله الشبراوي المترجم له بين شعراء المديح ومدحه بقصائد كثيرة ، حتى إذا توفى سنة ١١٧١ لزم الشيخ الشمس الحضي ، وأنشد الجبرتي بعض مديحه فيه ، وله يخاطبه من قصيدة :

بابهجة العصر بامهاج كلِّ علَّا بِأَمْحَى اللَّيْنِ بِالْآثَارِ وَالشَّرِّ

وظل يلازمه إلى أن توفى سنة ١١٧٨ وصوِّح روض عزَّه بعده إلى أن توفى سنة ١١٨٤ . وله تصانيف كثيرة منها اللذة الفريدة في شرح مدحة نبوية ، وهداية المتوهمين في كلب المنجمين ، ومختصر شرح بانث سعاد للسيوطي ومنظومة في علم العروض والمقامة التصحيفية ضمنها ألفاظا تغير معانيها بالتصحييف ومقامة أخرى مجنونة ، ونضاعة الأريب في شعر الغريب ، وهي مجموعة من أشعاره . وله أيضا خميس بانث سعاد والدر المستظم في الشعر الملتزم والفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية جمع فيها أشعار المادحين للأمير رضوان كتحفها ، ثم أورد في خاتمتها ماله من الأمداح فيه نظما ونثرا ، وفيه يقول :

رضوانُ أوحِدُ من تفرَّدَ بالعطا فنانحُ الأجواد بعضُ هباتِهِ
الفارسُ المقدامُ في يومِ الوغَى وللمرهَبُ الآسادُ في وثباتِهِ

ومن تصانيفه « الدر اللين في محاسن التضمين » . وبجانب ذلك كله ديوانه وهو مرتب على الحروف الهجائية .

ويورد الجبرتي قطعة من شعر الإدكاوي تدل على براعته وقدرته على استخدام فنون البديع من تضمين وغير تضمين ، ونراه يستعيد قدرة الحريري في بناء الأبيات من كلمات منقوطة وأخرى عاطلة أو كلها منقوطة أو كلها عاطلة أو الكلمات تتكون من حرف عاطل فحرف منقوط ، وكذلك في صنع أبيات تُقرأ شطوهرها طردا وعكسا ، فهي تقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين ، وهو ما كانوا يسمونه « ما لا يستحيل بالانعكاس » مثل قوله :

ارْعَ لِحِلُّ إِنْ أَسَا وَائْسَ لِحِلُّ إِنْ عَرَا

وكان يكثر من تشطير بعض القصائد المشهورة ، وكذلك من تخميس بعض الأبيات ، وتصنع لاستظهار مصطلحات بعض العلوم ، ولكن في خفة ودون أن نصطدم عنده بتكلف شديد ، كقوله مستظها لمصطلحات المنطق ، إذ يذكر المناطق كثيرا المقدمات والبراهين والنتائج :

وشقائقو قالت لنا بين الربا بمقدمات ما بها إيهام^(١)
برهان سعدى الآن أنتج قائلا دَع وَجَنَّةَ المَحبوب فهى خِرام

وله مرث مخلفة فيمن سميناهم من الشيوخ رعانه وفي غيرهم من علماء عصره ، ومن رثاهم وتضع عليهم طويلا الشيخ حسن المدائني المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة ، وله فيه مرثتان مطلع أولاهما :

مَضَى عَالَمُ العصرِ الإمامُ لرؤي حَميدَ المساعي فاندَبْتُهُ وبالغِ

وفي خاتمتها ينشد :

ولما مَضَى ذاك المَهذبُ نَحَبَهُ وَأَبَ برضوانو من الله سائِغِ
دَعوتُ أَحِبَّائِي وقلت لهم قفوا معي عند ذا التاريخ نبكي المدائني

ومطلع الثانية :

صبرا فذا الدهر من عاداته المَحنُ وفي تلُونه قد حارتِ الفِطَنُ

ويختتمها بقوله :

والحورُ جاءَ نَكَّ بالبشرى مؤرُخةً حُلِيَتْ من حُلُلِ الأبرارِ يا حَسَنُ

ولم ينشد له الجعفي شيئا من مرثيه الأخرى ، وكأنه اكتفى بالإشارة إلى مرثيته في المدائني ، ومع ذلك فقد أنشد له مقطوعة في رثاء نفسه وبكائها قبل موته ، وفيها يقول :

ليت شعري إذا دَنَا بِأَرْقَانِي أَجَلٌ ثُمَّ مَيَّثُوا لِي تُرَابِي
واغْتَنَدُوا بِي إِلَى مَحَلٍّ بِهِ صَحْبُ جِي جَعَوْنِي وَلَيْسَ يَرْجَى إِيَابِي
هل إذا غَرَبُوا القَرَابَ أَبْلَقُوا ذَرَّةً مِنْ عَطْفِي فَيَا لِمَصَابِي
وَنَحَ هَذِي الدُّنْيَا الَّتِي تَحْرَقُ الْأَكْمَ بَادَ قَدْ مَرَقَتْ يَلْحَدِي إِهَابِي
وَيْذَاكَ القَفْرِ اغْتَدَيْتُ رَهِيْنَا لَيْسَ لِي مِنْ زَادٍ وَلَا مِنْ رِكَابِي

وهو يذكر ساعة الموت وقد حُفر لحده والمشيون يحملون نعشه إلى مثواه ، وما يلبثون أن ينصرفوا عنه إلى غير رجعة أو مآب ، وقد بل جسده في التراب ولم تبق من عظامه باقية . ويتساءل هل إذا فُتشتوا عن ذرة من عظامه أيجدونها أم لا يجدون إلا عدما ، فقد مزقت الدنيا إهابه وعظامه في لحده . وكأنما لا يكفيها ما تصنعه بالإنسان في حياته من إحراق كبده . وإنه ليندب نفسه ويكبها وقد غدا وحيدا غريبا في قفر موحش ، بل غدا جيسا لازاد ولا ركاب إلى يوم الحشر ، وفي الحق أنه كان شاعرا مجيدا وهو يعد أنبه الشعراء المصريين في زمنه .

٦

شعراء الدعوة الإسماعيلية

مرُّ بنا - في غير هذا الموضع - أن الدولة الفاطمية قامت على أساس العقيدة الإسماعيلية الشيعية وأنه كان لهذه العقيدة طائفة من المبادئ جعلتها منطرفة غاية التطرف ، بل جعلتها تنفصل عن نظرية أهل السنة انفصالا تاما . وقد عملت بقوة على نشر هذه المبادئ منذ أول الأمر متخفة دعاة لها في أقطار العالم الإسلامي ، ودفعت معهم الشعراء إلى تقريرها والعمل على إذاعتها وفي مقدمتهم ابن هانيّ وستخصه بكلمة . وتميم بن المزرّ أول خلفائها بمصر يرددها في أشعاره لأخيه الخليفة العزيز ، ولا نكاد نتقدم في ديوانه حتى نجدده يخاطبه بقوله في إحدى مدائحه ^(١) :

إنما أنت حُجَّةُ الله لاحت في البرايا ووارثُ الأنبياء

والحُجَّةُ عند الإسماعيلية مصدر الحكم ولا يراجع في حكمه لأن حكمه الحق ، ويقول عنه وارث الأنبياء مشيرا بذلك إلى نظرية الدور التي تزعم أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار حتى إذا ختم الأئمة من الأنبياء بالرسول ﷺ بدأت أئمة آل البيت ، وبذلك يصبح العزيز وغيره من الأئمة الفاطميين ورثة للأنبياء ، هل نحو ما يزعم تميم . ونمضي في الديوان وفي قراءة مدائحه للعزيز ، وسرعان ما نلتقي بقوله فيه ^(٢) :

وهو لسان التقي ومقلته	وهو يمينُ الملا ويُسرّاهَا
صُورَ من جوهر النبوة إذ	كان الوريّ طينته وأموها
فن يبطئه يَفْرُ بطاعته	ومن عصاه فقد عصى الله

وواضح في البيت الثاني ما كان يردده شعراء الفاطميين من أن الأئمة منهم ومن الأنبياء خلُقوا من جوهر لطيف مصفى وأن أجسادهم ليست كأجساد البشر المادية الغليظة ، بل هي أجساد نورانية شفاقة . والبيت الثالث بصور بوضوح مبدأ طاعة الإمام في مذهب الإسماعيلية وأنها واجبة بحيث يفرض إليه أتباعه أمورهم دون أى مناقشة أو سؤال ، إذ هي فريضة توجب طاعة الإمام ، وجزء لا يتجزأ من إيمانهم بالدعوة الإسماعيلية . وكانوا يزعمون أن كل إمام من الفاطميين له مرتبة قائم القيامة أو كما يسمونه المهدي المنتظر ، وبذلك يخاطب تميم أخاه قائلاً^(١) :

أنت المسمى المرجئ قبل مولدو والخامس القائم المذكور في الكبير

وهو يشير في أول البيت إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون في الإمامة من فكرة الوصية الشرعية وأن كل إمام تالو وصى لسلفه كما فطر الله وقضى ولا راد لقضائه ، ويقول إنه القائم أو المهدي المنتظر وأنه خامس الخلفاء الفاطميين منذ جهرهم بالدعوة في المغرب ، وهم المهدي والقائم والمنصور والمعز ثم العزيز الخامس ، أما من كانوا قبلهم فلم يجهروا بالدعوة بل كانوا مستترين يدعون لها سرا . ويقول تميم أيضا في العزيز^(٢) :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تاهى فيك جوهره تاهيا جاز حد الشمس والقمر
ممنى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمدبر

والبيت الأول يشير فيه تميم بصراحة إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون من أن للإمام نسبتين : نسبة بروحه إلى عالم القدس ، ونسبة بجسده إلى عالم الطبيعة ، أما نسبه إلى عالم القدس فهي الجانب النوراني فيه ، وهو جانب صاف لطيف ، يحمل عقله فوق عقول البشر ، عقلا ممثلا للعقل الكلي الفعّال المتصل بالله ، وقد سماه بالعلة الأولى ، وجعله معنى من معانيه . وأوغل الإسماعيليون في هذا التصور حين قالوا إن الإمام مدبر الكون ، وما يقولون إلا زورا وهتانا . وتمام يقول إن هذا العقل الأول أو العلة الأولى أول ما خلق الله ، فهو سابق لخلق الهيولى أو المادة وخلق الأرض وما عليها . ونغض في قراءة ديوان تميم فنجدته يقول في إحدى مدائحه للعزيز^(٣) :

وإن جميع النيب لله وحده تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علمت منه الأئمة إنما رووه عن المختار جدتهم الطهير

(٣) الديوان ص ٢٠٧ . والوتر : الفرد .

(١) الديوان ص ٦٩ .

(٢) الديوان ص ٢٢٤ .

ونعم يجعل الغيب في البيت الأول لله وحده ، وأشرك الرسول ﷺ معه في علمه ، وكأنه يصدر في ذلك عن قوله جلّ شأنه : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) ولو أنه سكّت عند بيان ذلك لما كان في كلامه غلو ، ولكنه لم يسكّت بل أضاف أن الأئمة يعلمونه عن طريق الرسول مشيراً إلى ما يزهّمه الإسماعيلية من نوارث أئمتهم لعلم الغيب عن الرسول وهو تماد في الغلو والبهتان .

وسنرى ابن هاني يتأدى مثل نعيم في الغلو ، بل لعله يزيد عنه درجة أو درجات ، ونرجع إلى كتب التاريخ والشعر والشراء فلا نجد أصداً واضحة لها فضلاً عن أن تكون قوية في أشعار من خلفوها في القرنين الرابع والخامس للهجرة إلا ما كان من المؤيد داعي الدعاة لعهد المستنصر ولم يكن مصرياً ، بل كان ليرانيا ، وسنخصه بكلمة بعد ابن هاني ، والشاعر المصري الوحيد الذي ردّد هذا النعم الإسماعيلي العالي هو ظافر الحداد المتوفى سنة ٢٩٠ هـ وسنترجم له بعدها ، وكان يعاصره علي بن محمد الأخفش وهو مغربي ولبس مصرياً ، ونرى الهاد الأصبهاني ينشد له في الخريدة بيتاً في الخليفة الأمر قاتلاً^(١) :

إلى ذرّوة النور العلّائي^٢ إنه إلى ذرّوة النور الإلهي^٣ ينسب

وهو ينسب الأمر إلى نور الأنوار ، إلى النور الإلهي الذي بعم الأكوان . ويذكر له الهاد قصيدة في الخليفة الحافظ ملاحظاً أن الغلو أفضى به إلى الكفر المريع ، إذ يقول فيه مستطرداً من وصف الخمر إلى مديحه^(٤) :

صرفت جزيالو يرى تحريمها	من يرى الحافظ قرّداً صمّداً
بشر في العين إلا أنه	من طريق العقل نورٌ وهدي
جلّ أن تُذكره أعبتنا	وتعالى أن نراه جسداً
فهو في التسيح زلّني راحي	سمع الله به من حمداً
تُذكر الأفكار فيه نبأ	كاد من إجلاله أن يُعبداً

وهو يسبغ على الحافظ صفات الله من الفردية والصلدية ، وكان دعائهم يزعمون أن الله

ينبغي أن يثَّره عن الصفات والأسماء ، وأن ما في القرآن الكريم من أسمائه وصفاته إنما هي صفات العقل الكلل الأول وأمازه . ومُرُّ بنا آتفا أنهم كانوا يزعمون أنه مَمْنول الأئمة ، ومن هنا أصفوا عليهم أسماء وصفاته ، وبالفرا فجعلوهم مجسدا للذات العلية ، بل إن ابن الأَخشى يحل الحافظ من كل مجسد ومادة ، فهو نور خالص لا تدركه الأعين . ويتأدى في هذا الغلو والبهتان الآثم ، حتى ليكاد يجعله معبود الإسماعيلي في ركوعه وقيامه . ويلقانا نفس الغلو المقيت عند الشريف ابن أنس الدولة داعي دعايتها ، إذ يَروى أن الخليفة الحافظ صعد المنبر يوم عيد ، فوقف بإزائه ، وقال مخاطب المصلين^(١) :

خشوعًا فإن الله هذا مقامه وهَمَسًا فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذي في كل وقتٍ بروزه تحيَّاته من ربنا وسلامه

وهو غلو ما بعده غلو ، بل هو انحراف عن جادة الدين ما بعده انحراف ، وكأنما الحافظ مجسد للذات الإلهية على نحو ما جسد المسيحيون الرب في المسيح .

ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية يحيى بن حسن بن جبر ، وله مجموع^(٢) في مدائح بني أبي أسامة كُتَّاب الإنشاء في عهد الحافظ والأمر من قبله ، ألفه سنة ٥٢٥ . وجعله الشيخ الأُمَين في الغدير من شعراء المستنصر في سنة ٤٨٧ وهو متأخر عنه بشهادة ترجمة العباد الأصبهاني في الخريدة إذ أنشد له شعرا في ابن^(٣) رُزَيْك الوزير الفاطمي من سنة ٥٤٩ حتى سنة ٥٥٦ وله قصيدة في فضائل علي بن أبي طالب وبكاء الحسين أنشدتها صاحب «الغدير» وفيها يقول^(٤) :

يا آل أحمد كم يكابد فيكمُ كبدى خطوبًا للقلوب بواكى
كبدى بكم مقروحةً ومدامى مسفوحةً وجوى فؤادى ذاكى
وإذا ذكرتُ مصابكم قال الأسى لجفونى اجتنى لذيتُ كراكى^(٥)
وابكى قبلا بالطفوف لأجله بكى السماء دما فحق بُكالو

وهو يغلو في مديح علي بن أبي طالب ، وينسب له كثيرا من معجزات غير ثابتة ، كرد الشمس إليه ببابل لقضاء فرض كان سيفوته وقته ، ويزعم أن الريح سَحَرَتْ له رُخاء ، ويقول إنه

(١) عبط القريزى ٢١٤/٢ .

(٢) شعراء الغدير ٣١٣/٤ وانظر أدب الطغ ٣٢٨/٧ .

(٣) كراكى : نزلت .

(٤) الخريدة ١٠٥/٢ .

(٥) الخريدة ٢٣١/٢ وما بعدها

أحيا الموتى إلى غير ذلك من مزاعم غير صحيحة . ونقف عند ثلاثة من أعلام الدعوة الإسماعيلية هم ابن هانيء والمؤيد في الدين وظافر الحداد .

ابن هانيء

هو محمد بن هانيء المهلبى الأندلسى ، ينتمى إلى المهلب بن أبى صفرة الأزدي القائد المشهور في زمن بنى أمية ووالدهم فترة على خراسان ، ويقال إنه من سلالة حفيده يزيد وإلى المنصور العباسى على إفريقية ، وقيل : بل من سلالة أخيه رَوْحَ واليه بعده . ويبدو أن أبناءهما ظلوا بعد وفاتها بإفريقية ، وكان من سلالتها أبو الشاعر هانيء ، إذ يقال أنه كان من قرية من قرى المهديّة بتونس وكان شاعرا أدبيا ترح إلى الأندلس داعيا - فيما يبدو - للمذهب الإسماعيلى هناك ونزل إشبيلية وفيها ولد له الشاعر سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١ على اختلاف الروايات ، وبها نشأ وعكف على الأدب ، وفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فأنصل بصاحب إشبيلية وحظي عنده ، غير أنه كان كبير الانهباك في اللذات ، واتهم بأنه يعتنق مذهب الفلاسفة ، أولع له انهم باعتناقه المذهب الإسماعيلى متابعا في ذلك أباه ، وكانتا تعدان تهمتين خطيرتين هناك فنصحه بمحوه بالغبية عن البلدة مدة فإرحاها إلى إفريقية في السابعة والعشرين من عمره ونزل بجعفر بن على الأندلسى أمير الزاب وأخيه يحيى فأكرمها ومدحها الشاعر مدائح بدعية بمثل قوله في جعفر :

المشرقات النيراتُ ثلاثةُ الشمسُ والقمرُ النيرُ وجعفرُ

وسمع به المزعوم فطلبه من جعفر وأخيه فلما وصل إليه بالغ في الإنعام عليه وخاصة حين رآه يعتنق المذهب الإسماعيلى ويلجج في مديحه بمبادئ المذهب التى أسلفنا الكلام عنها ، بل لكأنما اتخذ أشعاره أداة لتسجيلها في صور مغالية غلوا شديدا . وكان شاعرا مبدعا فأبدع في مدائحه ، كما أبدع في مديح قواده وخاصة في جوهر الصقلى فاتح مصر ، وله فيه حين يتم بحمسه مصر من القيروان عينية رائعة استهلها بقوله :

اللسان الدين ٢١٢/٢ والمغرب لابن سبيد (طبع دار المعارف) ٩٧/٢ ومعجم الأدباء ٩٢/١٩ وابن خلكان ٤٢١/٤ وهر الذهب ٣٢٨/٢ والنفوس ٤١/٣ وديوانه طبع قديما بالهند .

(١) انظر في ابن هانيء وترجمته وشعره كتاب النكتة لابن الأبار ص ١٠٣ وللطبع للفتح بن خالكان ص ٧٤ والمطرب لابن دحية (القهرس) والحنوة للحبيدي : ٨٩ وبغية للشمس رقم ٣٠١ ونضج الطبيب (القهرس) والإسطة

رَأَيْتُ بَعِيَّ فَوْقَ مَا كُنْتُ أَسْمَعُ وَقَدْ رَاغَى يَوْمٌ مِنَ الْحَشْرِ أَرْوَعُ
غَدَاةً كَانَ الْأَقْنَى سُدًّا بِمِثْلِهِ فَعَادَ غُرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيْثُ تَطْلُعُ

وَنَوَّهَ بِالْجَيْشِ وَعِظَّمَهُ وَرَحَلَهُ جَوْهَرَ الْمُظْفَرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَلَمْ يَلْبِثْ جَوْهَرَ أَنْ أُرْسَلَ إِلَى الْمَرْزُوقِيَّةِ فَبَتَحَ مِصْرَ سَنَةِ ٣٥٨ فَهَتَفَ ابْنَ هَانِيٍّ فَرَحًا مُسْتَبْشِرًا :

يَقُولُ بَنُو الْعَبَّاسِ هَلْ فُتِحَتْ مِصْرُ قَتَلَ لَبِيَّ الْعَبَّاسِ قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ
وَمَدُّ جَاوَزَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ جَوْهَرُ نَصَاحَةِ الْبُشْرَى وَيَقْلُمُهُ النَّصْرُ

وَجَمَعَ الْمَرْزُوقِيَّةَ وَتَوَجَّهَ إِلَى مِصْرَ سَنَةِ ٣٦٢ وَشَبَّهَ ابْنَ هَانِيٍّ وَرَجَعَ إِلَى أَسْرَتِهِ بِالْمَغْرِبِ لِأَخْذِهَا مَعَهُ وَالْحَاقِ بِهَ ، وَجَهَّزَ وَتَبَّعَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ اغْتِيلَ فِي بَرْقَةِ شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ ٣٦٢ وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَشْجِعِ الْمَرْزُوقِيَّ كَانَ فِي صَحْبَتِهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ مِصْرَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَخْذِ عِيَالِهِ ، وَاغْتِيلَ بِبَرْقَةِ كَمَا ذَكَرْنَا . وَلَمَّا بَلَغَتْ الْمَرْزُوقِيَّةُ حَزْنَ عَلَيْهِ وَتَأَسَّفَ قَاتِلًا : هَذَا الرَّجُلُ كُنَّا نَرْجُو أَنْ نَفَاضَ بِهِ شِعْرَاءَ الْمَشْرِقِ فَلَمْ يَقْدِرْ لَنَا ذَلِكَ . وَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ يَفَاضَ بِهِ مِنْ حَيْثُ رَوْعَةُ شِعْرِهِ فَحَسَبَ ، بَلْ كَانَ أَيْضًا يَرِيدُ أَنْ يَفَاضَ بِهِ مِنْ حَيْثُ اسْتَظْهَارُهُ لِلْعَقِيدَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَمِبَادِئِهَا الْمَفْرُطَةِ فِي الْغُلُوفِ افْرَاطًا بَعِيدًا حَقًّا لَتَنْحَرِفَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَجَادَّتْهُ .

وَبِمَجْرَدِ أَنْ تَقْرَأَ فِي دِيْوَانِ ابْنِ هَانِيٍّ نَرَاهُ يَرُدُّ أَنَّ إِمَامَةَ الْفَاطِمِيِّينَ رِبَايَةٌ وَأَنَّهَا فَرِيضَةٌ مَكْتُوبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَأَنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ بِتَرْتِيبٍ إِلَهِيٍّ وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ كُلِّ زَلَالٍ وَأَنَّ طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ مِنْ أَطَاعَتِهِمْ اسْتَحَقَّ رِضْوَانُ اللَّهِ وَمِنْ عَصَاؤِهِمْ كَانَ مَالُهُ الْخُسْرَانُ الْمَبِينُ ، يَقُولُ فِي الْمَرْزُوقِيَّةِ :

إِمَامٌ رَأَيْتُ الدِّينَ مُرْتَبِطًا بِهِ نِطَاعَتُهُ فَوْزٌ وَعَصْيَانُهُ خُسْرٌ

وَهُمْ دَائِمًا مُبْرَأُونَ مِنَ الذُّنُوبِ مُطَهَّرُونَ مِنَ الْآثَامِ ، بَلْ هُمْ نُورُ اللَّهِ وَمَشْكَاةُ فِي الْعِبَادِ ، يَضِيئُونَ لِلنَّاسِ حَيَاتِهِمْ ، وَيَكْشِفُونَ عَنْهُمْ ظِلْمَاتِ الضَّلَالِ ، وَكَأَنَّهُمْ يُشْتَوْنَ نُورَ اللَّهِ أَوْ كَأَنَّهُمْ يَشَارِكُونَ فِيهِ ، يَقُولُ فِي الْمَرْزُوقِيَّةِ :

وَمَا كُنْتُ هَذَا النَّوْرِ نَوْرُ جَبِينِي وَلَكِنْ نُورَ اللَّهِ فِيهِ مُشَارِكُ

وَيُكَرِّرُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ كَثِيرًا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ مَا دَحَا لِلْمَرْزُوقِيَّةِ :

تَسْمَى بَنُو اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ لِنُضَىءِ بَرَهَانًا لَهُمْ وَتَلَوْحًا
وَجَدَّ الْيَأْنُ سَنَّاكَ تَحْقِيقًا وَلَمْ تُحِطِ الْظُلُونُ بِكُنْهِهِ نَصْرِيحًا

وقد انتقل ابن هانيّ نقلة واسعة فقد جعل المعز نوراً خالصاً ، وكأنما ليس فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية ، ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحس إنما يشهدان سناه وضياهه فحسب ، أما هو فكأنه الذات العلية لا تحيط الظنون بكنهه وحقيقته ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويعود إلى مثل هذا الغلو الشائن في مدحه للمعز قائلًا :

أَتَبِعْتُهُ بِكَرَى حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ غَايَاتَهَا بَيْنَ تَصَوُّبٍ وَتَصْغِيرٍ
رَأَيْتُ مَوْضُوعَ بَرَاهِنِهِ يُلُوحُ وَمَا رَأَيْتُ مَوْضُوعَ نَكِيْفِهِ وَمُجَلِّدِ

وقد خطا ابن هانيّ في الغلو هنا خطوة أبعد من سابقتها إذ جعل المعز يخلو من كل صورة للمادة ، بل كأنما جعله الخالق نفسه ، إذ نفى عنه ما ينفيه المترلة عن الله من كل تشبيه ومجسّد ، فلا حد له ولا كيف ولا هيئة بأي شكل من الأشكال . وقد بدأوا كما بدأ المسيحيون في مسيحهم بأن في الإنسان لا هوأ وناسوتاً أو روحاً وجسماً . وبالتالي فخلصوا - مثل ابن هانيّ - أنفسهم من كل أثر للمادة ، وجعلوهم روحاً أو نوراً خالصاً ، بل جعلوهم نفس الله بأسمائه وصفاته ، حتى لنرى ابن هانيّ يقول في المعز :

مَا شِئْتُ لَأَمَّا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
وَيَقُولُ فِيهِ أَيْضًا :

نَدَعُوهُ مُسْتَقِمًا عَزِيزًا قَادِرًا غَفَّارًا مُؤَيِّدًا الذُّنُوبِ صَفُوحًا

فالمعز الواحد القهّار المستقيم العزيز القادر الغفار . وعلى هذا النحو زين لهم دعائهم وشياطينهم أن يترهوا الله عن أسمائه وصفاته في القرآن الكريم ويسبقوها على أنفسهم ، ضلال ما بعده ضلال ومروق لا يداينيه مروق . ومن هذا الباب ما يزعمه ابن هانيّ في المعز من أنه مقسّم الأرزاق بين العباد :

رَأَيْتُكَ مَنْ تَرَزَّقَهُ يُرَزِّقُ مِنَ الْوَدَى دِرَاكًا وَمَنْ تَحَرَّمَ مِنَ النَّاسِ يُحَرِّمُ

لمن شاء رَزَقَهُ ووسّع رزقه ومن شاء حرّمه وضيق عليه وجعل حياته ضنكا ، وكل شيء في الأرض بل في الكون بمشيئته حتى ليقول ابن هانيّ فيه :

أَدَارَ - كَمَا شَاءَ - الْوَدَى وَتَحَبَّرَتْ عَلَى السَّبْعَةِ الْأَفْلَاقُ أَتَمَلُّهُ الْعَشَرُ

فهو لا يمين على شئون الناس وأحوالهم فحسب ، بل هو أيضا يمين ويسيطر على الأفلاك التي تصدر عنها الحركة في الكون . وكل ذلك لما لجأوا فيه من أن الإمام بمنول العقل الفعال المسيطر على الوجود ، فجعلوه نفس هذا العقل الذي آمن به الفلاسفة ، وجعلوه لذلك العلة الأولى أو علة العلل التي ينشئ عنها الكون ، مما جعل ابن هاني يقول عن المعز :

هو عِلَّةُ الدُّنْيَا وَمَنْ خُلِقَتْ لَهُ وَلَعَلَّ مَا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ

وماذا بقى لخالق الكون ؟ وحتى الحياة والموت ملكها ابن هاني للمعز يوزعها على الناس كيف يشاء إذ يقول مخاطبا للمعز :

لَكَ الدَّهْرُ وَالْأَيَّامُ تَجْرِي صُرُوفُهَا بِمَا شِئْتَ مِنْ خُفْوٍ وَرُزْقٍ مَقْسَمٍ

فهو الذي يمحي ويميت وهو الذي يدبر الدنيا ويصرفها ، وهو الذي يمين على الكون وينسقه ، وهو الرازق ومانع الرزق وهو المنتقم العزيز الغفار وهو الواحد القادر للقهار . ولا تعجب بعد ذلك كله لابن هاني إذ يقول :

أَرَى مَذْحَهُ كَالْمَدْحِ لَهْ إِنَّهُ قُنُوتٌ وَتَسْبِيحٌ يُحِطُّ بِهِ الْوِزْرُ

ويستضيء ابن هاني بفكرة الدور عند الإسماعيلية مرارا وما يذهبون إليه من أن الأئمة الفاطميين خلفاء الأنبياء وأنهم يتظنون معهم منذ آدم في أدوار سبعة ، كل دور يُخْتَمُ بإمام سابع نبي أو من الخلفاء الفاطميين ويسمونه الناطق وهو يمثل عندهم العقل الأول الفعال الذي تحولت إليه قدرة الله وأسماءه وصفاته ، ومن هنا كانت تطلق على ممثله من الأئمة ، وهو الإمام السابع الحامل للنور الرباني الذي يتمثل في كل إمام سابع منذ آدم . ولما كان للمعز نهاية السبعة الثانية من الأئمة الفاطميين فإنه كما يتمثل فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء يتمثل فيه نور نوح :

لَوْ كُنْتُ نَوْحًا مَنَدْرًا فِي قَوْمِهِ مَازَادَهُمْ بَدْعَائِهِ تَضَلِيلًا

ويتمثل فيه قبس موسى وشعلته وهدهد :

مِنْ شُعْلَةِ الْقَبَسِ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَى مُوسَى وَقَدْ حَارَتْ بِهِ الظُّلُمَاءُ

ويتمثل فيه نور المسيح الذي كان يهين الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله :

أَقْسَمْتُ لَوْلَا أَنْ دُعِيتَ خَلِيفَةً لِلدُّعِيَّةِ مِنْ بَعْدِ الْمَسِيحِ مَسِيحًا

ويمثل فيه نور الرسول ﷺ المشاهد في كل نور بملكوته السموات : في الشمس والقمر والكواكب والنجوم :

وَكَاثِمًا أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ وَكَاثِمًا أَنْصَارُكَ الْأَنْصَارُ

ويبلغ به الإلحاد في الدين أن لا يكفى بحلول أرواح الأنبياء في المعز ، بل يجعل الله يحل فيه ، بل لكأنه الله ، جلّ جلاله عن أن يتعلق بذاته العلية شيء من ترهاته إذ يقول في غير استحياء للمعز حين حلّ بقرية رَقَادَةَ بِحِوَارِ الْقَبِيْرَانِ :

حَلَّ بِرَقَادَةَ الْمَسِيحُ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وكان ابن هاني شاعرا فذا بارعا ، وإنا لنأسى له حين سخر ملكاته الشعرية الخصب التي منحها له ربه في الدعوة للعقيدة الإسماعيلية الفضالة . وهو في رأينا يعدّ مسئولا إلى حد كبير عن اندفاع الشعراء بعده في هذه الدعوة الخاطئة المنحرفة ، وهو أيضا إلى حد ما يعد مسئولا عن ضلال الخليفة الحاكم الفاطمي حين قال بعد جده المعز : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ، وتبعه في ضلاله ومروقه من تبعه . وكان ابن هاني يكثر من التشبهات والاستعارات أحيانا في أشعاره ، ونفذ إلى صور كثيرة مبتكرة كقوله في مطلع قصيدة مدح بها جعفر بن علي الأندلسي :

فَتَقَتْ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بِعَتِيرٍ وَأَمْدُكُمْ قَلَقُ الصَّبَاحِ الْمُسْفِرِ
وَجَنِيئُهُمْ نَمَرَ الْوَقَائِعِ بَانِمًا بِالنَّصْرِ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ

وهو يتصور الجلاد أو القتال رحا عاصفا يفوح منه شذى العنبر والطيب وهو يهب في الصباح المشرق الجليل . ونفذ إلى صورة بديعة إذ تخيل السيوف شجرا مورقا مشريا وهم يحنون منه النصر المأمول ، والقصيدة تكتظ بأبيات رائعة .

المؤيد^(١) في الدين الشيرازي

هو هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود ، ولد بشيراز في العقد الأخير من القرن الرابع

إبراهيم نشر د . محمد عبد القادر عبد الناصر ، وانظر محمد الأدياء ١٧٥/٣ وما بعدها في ترجمة أبي العلاء .

(١) انظر في المؤيد ديوانه ومقدماته بتحقيق الدكتور محمد كامل حسن وكاتبه : في أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ ونشره للسيرة المؤيدة وراجع مختصر المجالس المؤيدة لحاتم بن

المجهرى لأبيه موسى ، وكان من دعاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وتقدم في الدعوة ، حتى استحق لقب حُجَّة إقليم فارس ، ونشأ ابنه على مثاله في الإخلاص لتلك الدعوة ومازال يسمى له عند الحاكم الخليفة الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١ هـ) حتى جعله خليفة له في فارس ، ومنحه نفس اللقب الفاطمي : الحجة ، وهو لقب رفيع من ألقابهم . وكان سيوسا ، فتقرب من نفوس أتباعه وأخلصوا له ، وحاول أن يدخل أباكاليجار الحاكم الجرجسي في عقيدته ، ويقال إنه عقد له مجلسا كان يلقى فيه كتاب دعائم الإسلام للقاظمي النعمان بن محمد الكتامي داعي الدعاة لعهد المعز ، وأيضا فإنه بنى مسجدا بالأهواز ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين ، وطلب من أتباعه أن يؤذّنوا فيه بأذان الإسماعيليين : «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» . ومن أهم أتباعه حينئذ ناصر محسرو . وتنبه له الخليفة العباسي ببغداد ، فأرسل إليه من يتعبه ، وخشى على نفسه ، ففرّ موليا وجهه نحو مصر والقاهرة : مركز دعوته ، ووصل إليها سنة ٤٣٧ لمعهد الخليفة الفاطمي المستنصر ، واستقر بها ، وحضر مجالس الدعوة فيها ، وعيّنهُ الوزير البازوري رئيسا لديوان الإنشاء ، وظل في هذا العمل حتى سنة ٤٥٠ وهو يتصل سرا بدعاة الدولة في إيران والعراق ، وأحسّ خطر طغربك السلجوقي حين تستقيم له العراق ، فرما فكر في الاستيلاء على الشام ومصر ، وكانت العلاقة ساءت بين طُغْرُبُك وأخيه إبراهيم ، وكان قد ولاء على الموصل ، فأعلن العصيان لأخيه ورحل إلى بلاد الجبل فتبعه بجميحه ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، ورأى المؤيد في الدين الفرصة سانحة فكاتب البساسيري مقدم الأتراك ببغداد . وذهب إليه بنفسه محمّلا بالأموال من المستنصر ، ومعدّنا في سيرته كيف أخذ يستميل أمراء العرب في طريقه إلى بغداد وكيف نفروا معه ، يؤازرهم أهل الكوفة وواسط وحلب ، وكيف وصل إلى بغداد ، حيث وجد البساسيري قد أبعد الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى «عانة» سنة ٤٥٠ ودعا على المنابر باسم المستنصر باقه ، وظل ذلك نحو عام ، حتى إذا قضى طغربك على عصيان أخيه وثورته قدم إلى بغداد وقضى على البساسيري ودعوته وأعاد الخليفة العباسي إلى مبرسه . ولمر في هذه الأثناء المؤيد إلى القاهرة ، وتولى بها مرتبة داعي الدعاة جزاء لجهوده وإن كانت قد أخفقت إخفاقا ذريعا ، غير أنه حقق للفاطميين حلما طالما رجوا تحقيقه وهو أن يُدعى على منابر بغداد باسمهم ولو إلى حين قصير . وكتابه «السيرة المؤيدية» يصور فيه حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ وما اضطرب فيه من أحداث ، وهو لذلك يعد وثيقة تاريخية مهمة .

وأخذ المؤيد في أثناء اضطلاحه بمرتبة داعي الدعاة يلقى دروسه بالجامع الأزهر ، وقد جمعهما

في كتابه « المجالس المؤيدية » وهي تضم ثمانمائة مجلس له ، وقد اختصرها حاتم بن إبراهيم الداعي الجني ، وعُني بنشر مختصره وتحقيقه الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر وهو موسوعة كبيرة في العقيدة الفاطمية والتأويل الباطني وما يتصل به من الحكمة التأويلية ، ويشتمل على مناظرات مع مخالفيه وردود عليهم ، لعل من أهمها ردوده على ابن الراوندي ودحض آرائه الإلحادية^(١) . وله رسائل متبادلة مع أبي العلاء الممرى ناظره فيها طويلا في تحريره على نفسه أكل الحيوان وكل ما يتجذع من اللبن والبيض وعسل النحل ، وقد احتفظ بها ياقوت في معجمه . وكان شاعرا كما كان كاتباً ناثراً ، وحقق الدكتور محمد كامل حسين ديوانه ونشره بالقاهرة ، وهو في مديح المستنصر الفاطمي وآبائه والدعوة إلى العقيدة الفاطمية وكل ما يتصل بها من التأويل الباطني الموقوف على الأئمة الفاطميين وآبائهم من البيت العلوي ، فهم وحدهم الذين يعرفون أسرار التأويل في القرآن على نحو ما خصّ الله الخضره الرجل الصالح بأسرار لم يعرفها موسى عليه السلام ، وبالمثل الأئمة يعرفون من الأسرار في تأويل الذكر الحكيم ما لا تعرفه العامة ، وفي ذلك يقول في أولى قصائده بديوانه محتجا بقصة الخضر على جهل العامة بسر الملوكوت أو أسرارهم ووقفها على الأئمة :

ياقومُ سِرُّ الملوكوت هذا يجعلُ أصنامكمُ جُذاذا
سُرُّ له صاحبُ موسى الخضرُ قال معي لن نستطيعَ صبرا
تدبروا القصة ماذا يما من قصها إن لم تكونوا نوما

وكان كل إمام خضر زمنه ، وهو وحده الذي يعرف أسرار الكون وبواطن الآيات القرآنية ، وهي معرفة اختص الله بها الوصي الأول على بن أبي طالب وأبناءه الأئمة . والمؤيد في الدين بذلك يرفع الأئمة درجات على سائر الخلق ، بل هي العقيدة الفاطمية التي تجعلهم نورا خالصا . لا تعلق بهم مادة ولا ما يشبه المادة على نحو ما رأينا عند ابن هاني ، وقد مضى المؤيد وراءه ردّد تقديسه للأئمة وأنهم فوق الطبيعة البشرية ، ومضى يسبح عليهم كثيرا من الصفات الربانية ، حتى يجعلهم القائمين على الجنة والنار فيدخلون الجنة بأتباعهم ويزجرون بأعداءهم في الجحيم ، يقول :

يقيمون الجنان والنار فيهم فلكل نصيبه الموجب

كبرت كلمة بل كلماتٍ تخرج من له ، ويتأدى في هذا الضلال فيجعل زيارة الإمام أداء

(١) انظر في ذلك كتاب تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد

الرحمن بدوي (نشر مكتبة النهضة) ص ٧٥-٨٨ .

لفريضة الحج يقطع إليها أصحابه الفلوات للتبرك به ، فهو القبلة والغاية التي ليس بعدها غاية ، يقول :

هَلَمْ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي بِسَاحَتِهَا مَسْكَنُهَا أُيُنُوا الْمَوْتَ
إِلَى عِلْمِ الْإِيمَانِ وَالْقَبِيلَةِ الَّتِي عَلَيْهَا بِلَامِسْكَ دُلَّتْ وَوُجْهَتَا
وَمِيزَانِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي بِهِ تُؤْتَى الثَّوَابَ الْجَزَلَ إِنْ أَنْتِ وَفِيَّتَا
فَالْمُسْتَصْرَ وَأَمثالُه مِيزَانُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، بِطَاعَتِهِمْ وَمَقْدَارُهَا يَكُونُ الثَّوَابُ وَبِعَصْيَانِهِمْ
وَمَقْدَارُهُ يَكُونُ الْعَذَابُ ، وَمَا يَزَالُ الْمُؤَيَّدُ يَرُدُّ مِثْلَ هَذَا الْفَضَالِ وَالْيَتَانِ فِي دِيْوَانِهِ .

ومما رددته المؤيد طويلا نظرية الدور التي تصور إيمان الإسماعيلية في أمتهم وأنهم مثل العقل
الفعال الأول في عالم الطبيعة ، وهم لذلك يعدون مدبرين للكون ، وأيضا فإن أسماء الله الحسنى
تُسَبِّحُ عَلَيْهِمْ ، وقد رَتَّبُوا في أدوار تشترك معهم فيها الأنبياء والرسل منذ آدم ، وكل منهم يمثل من
سبقوه في هذه الأدوار من الأئمة والرسل ، وفي ذلك يقول في المستصر وآله :

سَلَامٌ عَلَى الْعِزَّةِ الطَّاهِرَةِ	وَأَهْلِهَا بِأَنْوَارِهَا الزَّاهِرَةِ
سَلَامٌ بِدَيْءٍ عَلَى آدَمَ	أَبِي الْخَلْقِ بِأَدْبِهِ وَالْحَاضِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ بَطَوَافِيهِ	أُذِيرَتْ عَلَى مَنْ بَعَى الدَّائِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ أَنَاهُ السَّلَامُ	غَدَاةً أَحْفَتْ بِهِ النَّائِرَةِ ^(١)
سَلَامٌ عَلَى قَاهِرٍ بِالْعَصَا	عَصَاةً فَرَاعَنَةً جَائِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى الرُّوحِ عَجَبِي الَّذِي	بِمَعْنَاهُ شَرَّفَتْ نَاصِرَةِ ^(٢)
سَلَامٌ عَلَى الْمُصْطَفَى أَحْمَدَ	وَلِيُّ الشَّفَاعَةِ فِي الْآخِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى الْمُرْتَضَى حَيْدَرِ	وَأُبْنَانِهِ الْأَنْجَمِ الزَّاهِرَةِ
سَلَامٌ عَلَيْكَ لِمَحْصُولِهِمْ	لَدَيْكَ أَيَا صَاحِبِ الْقَاهِرَةِ
بِنَفْسِي مُسْتَنْصَرَا بِالْإِلَهِ	جُنُودُ السَّمَاءِ لَهُ نَاصِرَةِ
شَهِدْتُ بِأَنَّكَ وَجْهُ الْإِلَهِ	وَجْوهُ الْمَوَالِي بِهِ نَاصِرَةِ

وواضح أن المؤيد بدأ سلامه بآل البيت ، ثم تلاهم بآدم ونوح صاحب الطوفان وإبراهيم
الذي ألقاه الخمرود في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما ومومى صاحب العصا التي استحالت

(١) النَّائِرَةُ : نَائِرَةُ الْحَرْبِ : شَرَاهَا

(٢) نَاصِرَةُ : بِلْدَةِ الْحِجْزِ .

نعبانا في مجلس فرعون فلذا هي تلقف كل ما جاء به سحرته من سحر رهيب ، وعيسى الروح الأمين الذي شرفت به مدينته الناصرة ، ومحمد المصطفى الشفيح المشفع في الآخرة ، وعلى أو حيدر المرتضى وأبنائه الأئمة الأنجم الزاهرة . ويقول إن المستنصر لديه محصول كل هؤلاء الرسل وكل الأئمة فهو الرسول وهو عيسى وهو موسى وهو إبراهيم الخليل وهو نوح وهو آدم وهو على والأئمة جميعا قبله إماما إماما . وهو بذلك وارث الأئمة والرسل ، وارث علومهم ومعجزاتهم وخوارقهم . ولا يكتفى المؤيد بكل ذلك ، إذ يقول إن الملائكة جنده الذي ينصره في معاركه ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يتقدم خطوة بل خطوات إذ لا يُسبغ عليه صفات الله وحدها ، بل يجعل ذاته نفس ذات الله إذ يقول إنه وجه الإله ، وكأنه اتحد معه في ذاته تعالى الله عن هذا الهتان الآثم علوا كبيرا ، وهو ليس بهتانا فحسب ، بل هو ضلال مبین .

ظافر^(١) الحماد

هو ظافر بن القاسم الإسكندري ، من سلالة قبيلة جُدَام البجينة ، كان أبوه حمادا بالإسكندرية ، ولد له في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، ويبدو أنه أرسله في صباه إلى الكتاب ، ورأى من ذكائه ما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء ، وهو مع ذلك يعاونه في حرفته . وأكب الصبي على حفظ الشعر وكانت له ملكة خصبة ، سَوَتْ منه شاعرا كان يلفت أقرانه ، كما لفت كثيرين من شعراء الإسكندرية ، وكانت بها آنذاك نهضة شعرية واسعة ، جعلت شعراءها يتكاثرون ، كما جعلت العماد الأصماني في الخريدة يترجم لكثيرين منهم . ولعل شيئا من العجب بداخلنا إذ نجد بين الشعراء هناك شاعرا حمادا ، ولكن إذا عرفنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت طوال الحقب السالفة ثقافة شعبية عامة إذ كانت تُلقى بالمساجد ، ولكل شخص الحق في أن يجلس إلى حلقة الشيخ الذي يريد الاستماع إليه ، وكانت للشعراء في المساجد حلقات ، مما أتاح لشباب العامة المشاركة في الشعر وفي العلوم العربية والإسلامية ، وتكثر هذه الظاهرة بين شعراء الدولة المملوكية ، إذ نجد بينهم جزارا وحمّانياً ووراثاً ونخباطا وكحالا . وقد

والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ ود في أدب مصر الفاطمية ،
للكثير محمد كامل حين ص ١٩٠ وظافر الحماد الحسين
نصار وديوانه بتحقيقه (نشر مكتبة مصر) .

(١) انظر في ترجمة ظافر وشعره الخريدة (قسم شعراء
مصر) ١/٢ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٧/١٢ ووفيات
الأميان لابن خلكان ٥٤٠/٧ والرسالة المصرية لأبي الصلت
أمية في الجزء الأول من نوازل المخطوطات لعبد السلام هرون

فتفتحت موهبة الشعر عند ظافر مبكرة وتبينت له فرصة أن يتألق اسمه بين شعراء مدينته ، فإن ابن ظفر والبا من قبل الخليفة الفاطمي تصادف أن ورم خنصره وبه خاتم ، فخشى عاقبة الأمر وطلب حداذاً كي يكسر حلقتة ، فجاءه به ظافر ، فلما كسر الحلقة أنشده بديا :

قَصَّرَ في أوصافك العالمُ واعترف النائرُ والناظمُ
من يكنو البحرُ له راحةً بضيق عن خنصره الخاتمُ

فاستحسن ذلك منه ابن ظفر ووجه الحلقة وكانت من ذهب . وكان بين يديه غزال مستأنس قد ربض أو طوى قوائمه ، وجعل رأسه في حجره ، فقال له أحد الحاضرين : إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح البصر في هذا الغزال للسناس ، فقال تروا :

عجبتُ لجرأة هذا الغزال وأمرُ تخطي له واعتَمَدَ
وأعجبُ به إذ بَلَكَ جائئاً فكيف اطمانُ وأنت الأسدُ

فزاد ابن ظفر وجلساؤه في الاستحسان . وكانت هناك شبكة مسدولة على باب المجلس تمنع الدباب من دخوله ، فتأملها ظافر وقال بديا :

رأيتُ ببابك هذا المنيفو شيباكما فأدركني بعضُ شكُ
وفكُرتُ فيما رأى خاطري فقلتُ البحارُ مكانُ الشبكُ

وكانت هذه الحادثة سببا في اشتراك ظافر بمدينته ، ونهاداه أعيانها وقضاها مثل ابن أبي حديد قاضيا وله فيه مدائح طريفة .

وطمح ظافر إلى لقاء الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين ، وكان قد حجر على الخليفة الأمر وأصبح له الملك والسلطان كله ، فاتخذ الأسباب إلى لقائه ، ولم يكده يستمع منه إلى مديحه حتى أكبره وقلّعه على أقرانه ، وسكن ظافر ببحراره في القسطنطين ، وأعد يدبج فيه مدائح طائفة ، وهو يصدق عليه من نواله مع راتب قدره له ، وإلى ذلك يشير قائلا :

وهذا الجَنابُ الأفضلى يُكِنُّ ذُرَى ظِلِّهِ إني إذنُ لسعيدُ

وقدّر لهذه السعادة أن ينحسر ظلها عن ظافر إذ دبر الخليفة الأمر للأفضل من قتله غيلة سنة ١٠٥٥ للهجرة ، وولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطاحي ، ولظافر فيه مدحتان يشكروفيهما من عوزه وضيق ذات يده ، ومع ذلك يشكره على ما أولاه من نعم . ويبدو أن ما نم به في زمن الأفضل

من أمواله اقتطع بعده إلا قليلا ، وكان أبواب المأمون لم تكن مفتوحة له إلا من حين بعيد إلى حين ، ولا يلبث الخليفة الأمر في سنة ٥١٩ هـ أن يصادر المأمون ثم يقتله . حيث وجد ظافرا يفكر في تقديم مدامه للخليفة ، ولم يكن شيئا فضلا عن أن يكون إسماعيليا طوال أيامه الماضية ، فقد رأيناه حين نزل القسطنطينية يقصر مدامه على الوزير الأفضل بن بدر الجبال ، وكان سببا ، وكان المأمون البطاغمي من رجاله ، ولعله لذلك لم يكن شيئا أو بعبارة أدق لم يكن غالبا في تشييعه . على كل حال ليس في مديح ظافر له وللأفضل ما يبدل على صلكه بالتشييع الإسماعيلي حتى هذا التاريخ . ولكن المأمون قُتل ، وكانما دُفع دفعا لكي يمدح الخليفة الأمر ، فأكتبُ على ديوان ابن هاني الأندلسي يدرسه ليتمثل معاني العقيدة الإسماعيلية ، ويرى نهجه في عرضها بمدحها ليحذبه ، يقول في إحدى مدامه للأمر مصرحا بذلك دون أى مواربة :

أَجَادَ ابْنُ هَانِي فِي الْمَرْءِ مَدَانِحًا هَدَاهُ إِلَيْهَا ذَلِكَ الْفَضْلُ وَالسَّجْدُ
وَقَدْ جَادَ مَدْحِي فَيْكَ لَمَّا رَأَيْتُ مَا رَأَى قَاسْتَوِي الْمَدْحَانِ وَالْإِيْنُ وَالْجِدُّ

ونراه في نفس هذه القصيدة يردد ما رده ابن هاني من أن طاعة الخليفة أو الإمام الفاطمي فريضة واجبة ، على كل إسماعيلي أن يعنتها وأن يؤدي واجباتها ، يقول :

فَمَنْ عَاشَرَ أَخْيَاهُ نَدَاهُ وَمَنْ يَمَتُّ عَلَى حَبْوٍ طَوْعًا لَسَكُنُهُ الْخُلْدُ
أَطَاعَتُهُ أَسْرَارُ الْقُلُوبِ دَبَانَةٌ لَمَّا لَامَرْنِي لَمْ يَعْتَقِدْ حَبَّهُ رُشْدُ
فَطَاعَتُهُ فَرَضٌ وَخَدَمَتُهُ نَقْيٌ وَنُصْرَتُهُ دِينٌ وَمَرْضَاتُهُ جَدُّ

فطاعة الأمر وأمثاله من الأئمة فرض مكتوب ، فمن أطاعه فاز بالرضوان ومن عصاه كانت عاقبته الخسران ، وإن مرضاته لجدة أو حظ أكبر ، ولا إسلام إلا بطاعته ومولاته ومحبه . والأمر مثله مثل الأئمة قبله ، يرتفع فوق حدود الطبيعة البشرية ، إذ هو مثل العقل الفعال الأول الرابط بين الله والوجود ، وهو بذلك النور الإلهي ، نور السموات والأرض . ولن يفهم ظافر كل هذه الفلسفة الإسماعيلية المنحرفة التي نحللناها عنها في غير هذا الموضع ، وهو لذلك سبيلتقط دون تعمق من ابن هاني فكرة النور التي يرددها في مديحه للمعز قاتلا في الأمر :

إِمَامٌ تَبْدَى لِلْوَدَى مِنْ جَبِينِهِ ضِيَاءٌ بِهِ تُشْفَى بَصَائِرُهَا الرُّشْدُ
وَنُورُكَ مَا يُهْدِي الصَّبَاحُ لِنَظِيرٍ وَلَوْلَاهُ ضَلُّ النَّاسِ وَامْتِنَعُ الْقَصْدُ

- وكان ظافرا ينقل ذلك عن ابن هانيء دون أن يدرك مقصده تماما وأن مملوحه نور السموات والأرض ، وبالمثل نقل عنه نظرية الأدوار التي تزعم أن الأنبياء والأئمة الفاطميين إنما هم مظاهر دورية للعقل الفعال وحلقاته البادئة بآدم والتي يتنظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم على وأبناؤه وأحفاده من الأئمة الطاهرين ، وبلم ظافر بظاهر من ذلك كله قائلا في مدحة أخرى للآمر :

أنت الذي بعثَ الإلهَ لنا بوِ آباءَهُ فَنَسَلُوا بِمُسُوْلِهِ
هذا ضياءُ اللهِ والمعنى الذي تتفاضلُ العلماءُ في تَعْلِيلِهِ
ما زال يَشْقُلُهُ الإلهُ مُطَهَّرًا عن ظَهَرٍ مثلِ ذَبِيحِهِ وخَلِيلِهِ
وتوارثته الأنبياءُ وسادةُ الـ خلفاءِ حقِ حان وقتُ حُلُولِهِ

فآباء الأمر من الأئمة والأنبياء قد تمتلوا فيه بميراثهم الرباني من النور الذي يعم أطباق السموات والأرض ، وما زال الله ينقل هذا النور من نبي إلى نبي ومن إمام إلى إمام من مثل إبراهيم وإسماعيل وذبيحه ومثل علي وجعفر الصادق إلى أن حل في الأمر المطهر المحضوف بالعبادة الإلهية والثفحة النورية ، ومن ثم كان ابن هانيء يقول في الميزان جواهر الملكوت وإنه العقل المدبر للكون . ولم يكن ظافر يتغلغل في العقيدة الإسماعيلية هذا التغلغل ، بل كان يقف كما رأينا عند ظاهر من أقوال ابن هانيء في الميز ويرددها في الأمر . وهو معنى ما قلناه في غير هذا الموضع من أن المصريين انصرفوا عن العقيدة الإسماعيلية ولم يحاول أحد منهم أن يكون داعية لهم على شاكلة المؤيد وابن هانيء . ولعل مما يؤكد ذلك عند ظافر أننا نجده يضيف إلى قبارة مديحه للآمر وترين لا نجدها عند ابن هانيء ، وهما ميراث الأمر وآبائه للرسول ﷺ ، مما جعله يتغنى بمعجزاته الخارقة من المعراج وغير المعراج ، ثم الاتساع بخياله في بيان سحق جيوش الأمر للصليبيين ، وكانوا قد استولوا في عهده على بيت المقدس وكثير من ثغور الشام وبلدانه ، والخليفة ووزيره الأفضل والمأمون يغطون في غفلة لا تدانيها غفلة ، وكان ظافرا يحاول إيقاظ الأمر ودفعه للذب عن حرُمات الإسلام ودياره أمام حملة الصليب ، وهو في ذلك إنما كان لسانا للمصريين يعبر عن فزعهم للغزو الصليبي وما يأملون من القضاء على حملة الصليب قضاء امريما . وهذا الوتر في مدائح ظافر للآمر ووتر الميراث النبوي إنما حله له أن لا تنف عند المبادئ الإسماعيلية في مدح الأئمة الفاطميين إلا لاما وإلا عند هذا الظاهر السطحي . منها الذي صَوَّرَناه .

ودليل ثان على أن هذه المبادئ لم تتعمق نفس ظافر أنه حين قُتل الأمر سنة ٥٢٤ • وتولى ابن عمه الخليفة الحافظ واتخذ أبا علي بن الأفضل الجمالي السني وزيراً له ، حيث نجد ظافراً يمدحه مدحا يخلو خلواً تاماً من هذا الغلو الإسماعيلي الذي رأيناه في مدائح الأمر . وكان من المبادئ الإسماعيلية أن يتولى الخلافة ابن الخليفة وتصادف أن الأمر لم يترك ابناً ، وقيل بل ترك طفلاً رضيعاً اسمه الطيب ، وتمصبت له جماعة سميت الطيبة وتمصبت جماعة أخرى سريعا للحافظ عبد المجيد ابن عم الأمر ، وأخذت له البيعة واستولى على مقاليد الخلافة . وظل من ذلك جَمْرٌ مخنف وراء الرماد ، مما جعل ظافراً يدافع في بعض مديحه للحافظ عنه وعن حقه في الخلافة قائلا :

ورثَ ابنُ عمِّ محمدٍ من بعده حقَّ الخلافةِ مُنصفاً في نَقْلِها
وورثتَ أنتَ عن ابنِ عمِّك حقَّها فجرى قياسُ خلافةٍ في شكلها

فالحافظ ورث الخلافة عن الأمر كما ورثها عن الرسول ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب رأس الأئمة . ولا يلح ظافر فيما كان يعتقد الإسماعيليون في أنتمهم من معان قلمية ومن رفعهم عن حدود الطبيعة البشرية المادية ، فهو إنما يمدح الحافظ بميراثه للرسول مما يجعله يطيل في بيان معجزاته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن كل ما استبقاه من العقيدة الفاطمية في مديحه قوله .

بِاحْجَةِ الله التي أبدت لنا بِكَلَامِهَا الآياتِ والبُرْهَانَا

وكأنما حدث انقلاب في مديح ظافر للحافظ بالقياس إلى مديحه للأمر ، وليس له في الحافظ إلا قصيدتان مع أنه عاش في مدة خلافته خمس سنوات ، إذ توفي سنة ٥٢٩ • وأكبر الظن أن فيما قلمت ما يدل على أن ظافراً لم يكن إسماعيلياً بالمعنى الدقيق ، وإنما هي فترة محدودة نحو أربع سنوات اضطر فيها للمديح الأمر على طريقة القوم ، مما جعله يعود إلى ديوان ابن هانئ يستظهر ما فيه أو بعضاً مما فيه ، ولم يمتدُ استظهاره قشوراً ، ردّها حيناً في مديح الأمر ثم كفّ عنها في مديح الحافظ إلا ما سقط عفواً .

ويدون ربّ كان ظافر شاعراً بارعاً وفيه يقول العماد الأصهباني في ترجمته له بكتابه الخريدة :
ه ظافر ، يحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة
سافر .. حدّاد لو أنصفُ لسميَ جوهرياً ، وكان باعتزائه إلى نظم الآلئ حريباً ، أهْدَى بِرُؤْيٍ شعره

الرؤى للقلوب الصادبة^(١) ربياً ، فياله ناظماً فصيحاً مقلداً جريباً^(٢) . وحقا شعره غاية في السلاسة والعموية ، وهي ظاهرة عامة تلاحظ دائماً في شعر المصريين ، كما يلاحظ عندهم على الأقل حتى زمن ظافر أنهم لا يتصنعون للبدع ومختراته المقلدة ، قد تأق عندهم وقد يستخدمونها أحياناً ولكن في خفة ووشاقة . ودائماً تلقانا عند ظافر العذوبة والرقّة على نحو ما نرى في مثل قوله متغزلاً :

باساكني مصرٍ أما مِنْ رَحْمَةٍ فبكم لمن ذهب الغرامُ بِلَبِّهِ
أمن المروءة أن يزورَ بلادكم مثل ويرجعَ مُقْدِماً من قلبهِ

وهما بيتان في منتهى السهولة ، وكان ينفذ كثيراً إلى صور طريقة مبتكرة ، وقد يبعد فيها حتى لتصبح كأنها رؤى حائلة على شاذلة قوله :

لن أنكرتُ مقتلها دَمَهُ فنهْ على وَجَسَتِهَا بِمَةِ
وها في أناملها بَعْضُهُ دَعَتْهُ خِضاباً لَكِي تُوهِمَهُ

وواضح أنه كان عند ظافر حظ من الخيال المرقق في الوهم إغراقاً يروع قارئه ، ويستند له قطعة من غزله في الفصل التالي ، ونكتفي بصورة واحدة من صورته الحائلة العجيبة لدل على هذه المقدرة البارعة ، وهي صورة وصف فيها الهرمين وأبا الهول وصفا لم يقع لشاعر من قبله ولا من بعده ، يقول :

تأملُ بَنِيَّ الهرمين وأنظرُ وبينهما أبو الهول العجيبُ
كعَمَّارَيْنِ على رحلي لمحبيين بينهما رقيبُ
وماءُ النبل تحنهما دموعُ وصوتُ الريح عندهما نجيبُ

وهي صورة مركزة لمشهد واسع كبير استحال إلى هذه الرؤيا الحائلة ، فالهرمان كأنهما عاريتان أو هودجان هرميا الشكل لمحبيين بينهما أبو الهول وكأنه رقيب ، يشهدهما ساعة الوداع ، وهما يلترقان الدمع مدرارا ، وهى تحت أقدامهما نهرا فياضا كبيرا هو نهر النيل ، والريح من حولهما تتحجب وتتن أنيباً لا ينقطع . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ظافرا كان أبرع شاعر عرفته مصر زمن الدولة الفاطمية .

الفصل الرابع طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعل موضوعا لم يشغل شعراء مصر طوال هذا العصر كما شغلهم الغزل ، الذى يصور عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، والذى ظلنا نثقى به الشعراء مصورين حبيم للمرأة وهيامهم بها ، وما شعروا به من سعادة حين أقبلت عليهم ولو بعض الإقبال وما شعروا به من شقاء حين كانت تعرض عنهم ولو بعض الإعراض . أما حين كانت تقبل فكأنها تناولهم شرابا هنيئا بل رحيقا صافيا لا بدانيه رحيق ، وأما حين كانت تعرض فكأنها تلقى عليهم شواظا من نار يلذع قلوبهم وأقدنهم ، ويصور الشاعر كيف يتصل ذلك كله بقلبه وبنفسه وبأحاسيسه ومشاعره ، يصور ما يجد فى حبه من لذة أو ألم ومن نعيم أو جحيم . ولا يكاد يوجد حب إلا وهو يخشى القطيعة والفراق إلى غير مآب ، فإن حدث الفراق فإنه يشكو ويضرب ويستعطف . لقد حُرِّم حق من الإشارة واللمحة من بعيد ، ولكن الأمل فى اللقاء يظل يراوده مها تجرُّع من الآلام واحتمل من ألوان العذاب ، ويبدى ويبعد فى تصوير عذابه وآلامه لعل صاحبه تعطف عليه وتعيد ما كان بينها وبينه من وصال . وحقا قد تلقانا فى تضاعيف ذلك صور من الحب الجسدى الذى تمليه الغرائز ، وهو خليق بالازدراء ، إنما الذى يملأنا إعجابا هو الحب العذرى العفيف الطاهر الذى يشغف قلوب أصحابه ويملأهم بوجد ليس بعده وجد ، وجد لا ينجلون منه ولا يستخزون ، لأنه لا يتعلق بمأرب مادى ، فحسبهم الوصال واللقاء ، وهنىء لهم عذابهم بهذا الحب الذى ليس بعده عذاب ، إنه حب قوى حار ، حب نقي صاف ، حب يمتلئ إحسانا . وسواء استحال هذا الحب نارا من اليأس أو نورا من الأمل فإن تعبه عند الشعراء المصريين وعرضه فيه كبير مما يلدِّ النفس ويمتصها ، وخاصة ما نفلوا إليه من غزل وجداني صادق فى وصف حبيم وما انطوت عليه قلوبهم من مشاعر الصباية ، مما ستره واضحا عند ابن النبية والبهاء زهير .

ونجبل إلى الإنسان كأنما أوقد الحب جذوة من النار لا تنطفئ أبدا في قلوب الشعراء ، فهم دائما يَصْلَوْنَهَا وَيَصْلَوْنَ معها البعد والفراق ، وحق مع القرب يَصْلَوْنَ عذاب الحب ، دون إشفاق أو عطف أو رحمة ، على نحو ما يقول ابن هاني^(١) .

فَكَاتُ طَرَفَ أُم سَيْفُ أَيْلُو وَكُوسُ خَمِيرِ أُم مَرَّاشُ فَيْكُو
أَجْلَادُ مُرْهَفَةِ وَفَتْكُ مَحَاجِيرِ مَا أَنْتِ رَاحَةٌ وَلَا أَهْلُوكِ
يَابَنْتَ ذِي السَّيْفِ الطَّوِيلِ نِجَادُهُ أَكْثَرُ بِمُحُزِّ الْحَكْمِ فِي نَادِيكَ
عَيْنَاكَ أُم مَقَالِكُ مَوْعِدُنَا وَفِي وَادِي الْكَرَى أَفْكَالُكَ أُم وَادِيكَ
قَدْ كَانَ يَدْعُونِي خِيَاؤُهُ طَارِقًا حَقِّ خِغَانِي بِالْقَنَا دَاعِيكَ
مَنْعُوكِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى وَسَرَّوَا ظُلُو عَثَرُوا بِطَيْفِي طَارِقِي ظَنُّوكِ

وهو لا يدرى كيف يتق فتكات طرف صاحبه التي تشبه أُم الشبه فتكات سيف أبيها ، وإنها جميعا لتصيه في الصميم دون أي رافة ، وإنه لبائس يأسا شديدا من رافة أبيها وأهلها ، فلا يأمل في رؤية لها أول لقاء ، ويتعلل بلقائها ورويتها في الكرى والأحلام ، ويألم ألما شديدا ، فقد منعوا طيفها من الإلام بعينه في الحلم ، وإنه لبييت خائفا منهم حضرا ، أن تسفر له عن وجهها الباسم حتى في النوم ، لما أشقاء وما أشد عذابه ، إذ لا ينجى من حبه لها سوى الألم والحمران واللوعة . ولم يكن تميم بن المعز الفاطمي أقل منه لوعة وأسى حين صور وداعه لصاحبه ، وهي لا تقل عنه أسمى والياعا ، يقول^(٢) :

مَازَالَ فِي الْحَبِّ شَوْقٌ مَوْجِعٌ وَأَسَى مَبْرَحٌ يَقْطَعُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَقِّ رَمَى الْبَيْنُ بِالْتَرِيْقِ أَفْكَتَا وَحَلَّ مِنْ وَصْلَهَا مَا كَانَ قَدْ حَقِيدَا
فَاوْ مِنْ لَوْعَةٍ مَشْبُوبَةٍ وَجَوَى فِي الصَّدْرِ لَمْ يَتَّقِ لِي صَبْرًا وَلَا حَلْدَا
قَالَتْ وَعَبَّرْتُهَا مَخْلُوطَةً بِدَمٍ تَجْرِي وَأَنْفَاسُهَا مَرْفُوعَةٌ صُمْدَا
لَا تَطْلُبِ النُّظَرَ مَنَى بِالسَّلَامِ لَهَا أَبْقَى فَرَأَقْتُ لِي رَوْحًا وَلَا جَسَدَا

وهو يصور أساه في حبه وكيف يفتت منه الأحشاء والكبد ، وإذا البين ينبع بالفراق ، فيلتاع لوعة تستمر بين جوانحه ، وبتهالك ويفقد الصبر والجلد ، بينا هي تنزف الدمع مدرارا مرسة

١ . ديوان ابن هاني (طبعة : زاهد ط) ص ٥٣١ . ٢ . ديوان تميم ص ١٣١ .

أنفاسا حارة ملتبية ، وتتلطف له قائلة لا تطلب منى التلق بالسلام ، فلم أعد أستطيع الكلام ، وتشركأن الفراق يكلفها من الجهد فوق ما يطيق جسدها وروحها ، بل لكأنما لم يعد لها جسد ولا روح . ويعود إلى تصوير لوحة هذا الفراق لهجوياته في الديوان مرارا بمثل قوله (١) :

قالتْ وقد نالها للبين أوجعُ والبينُ صعبُ على الأحباب موقِعُ
اجعلْ يديك على قلبي فقد ضُمَّتْ قُواه عن حَمَلِ ما فيه وأضلَعُه
كأنقَى يوم ولتْ - حسرةً وأسى - غريقُ بَحْرِ يرى الشاطئ ويُمَتِّعُه

فقد ارتفع نبضها وعلت ضرباته ، ونحس كأنما لم يعد في قلبها فضلٌ من قوة تستطيع به أن تحتمل صلصة الفراق المروعة ، وتحم يادها نفس الشاعر ونفس الآلام والأوجاع ، وإنه لينوب حسرة وأسى لفراقها ، ولا يستطيع أن يتقنها ويتخذ نفسه من هذه الهمة ، وكأنه غريق تلب به الأمواج وهو يرى الشاطئ ولا يستطيع وصولا إليه . وعلى الرغم من أنه كان أميراً وكان ابن الخليفة المعز تلقانا عنده مشاعر الحب الحقيقية التي ترتفع عن أدراج الحس ، ومن طريف قوله في بعض غزله (٢) :

قلتُ استحي لي بتقيل أعيش به قالت : وأى عِبْ قُبْل القمرا
ومرُبتا في ترجمة ظافر الحداد أن له غزلا رقيقا يطير عن الفم بحفة وأنشدنا له قطعتين ، واشتهر بقصيدة له ذالية أو اختار أن تكون ذالية ليدل على قدرته في النظم على هذه القافية التي يظن أنها تستصعب على الشعراء ، وهي قصيدة غزلية ، تجري على هذا النمط (٣) :

لو كان بالصبر الجميل ملأه ماسحُ وابلُ دمه وردأده
من كان يرغبُ في السلامة فليكن أبداً من الحنقِ المراض عياده
لا تخدعنك بالفطور فإنه نَظَرُ يضرُ بِقَلْبِكَ استِلْذاده
يا أيها الرُشَا الذي مِنْ طَرَفِهِ سهمٌ إلى حَبِّ القلوب نفاذه
دُرٌّ يلوح بِفَيْكِ مَنْ نَظَامُهُ خمرٌ يحولُ عليه مَنْ نَبَّاهُ (٤)
وقناةُ ذاك القَدُّ كيف تَقُومُ وسنانُ ذاك اللَّحْظِ ما فُلاذه
رِفْقاً بِجِسْمِكَ لا يَذُوبُ وإننى أخشى بَأْنَ يَجْفُو عليه لادُهُ (٥)

(١) النباذ : صانع التنيذ

(٢) اللاذ : ثوب من حرير

(١) الديوان ص ٢٦٠ .

(٢) الديوان ص ١٥٢ .

(٣) ابن خلكان ٥٤٠/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٥ .

والقصيدة على هذه الشاكلة نسيلا (رقعة وعنوبة) ، حتى مع قوافيا الذالبة ، وتغلا صوره النفس بهجة ، فهذا الرشا أو الظبي الجميل الغرير يرسل سهامه وهى سهام حقيقية تنفذ إلى حُبِّ القلوب وسويدائها ، ويحال ذرأ ملء فيها ويتساءل من نظمه في هبته البديعة ، أما ما حوله من رُضاب أوريق فخرم حقيقية ويتساءل من النباذ الذى صنع هذه الخمر العجيبة ، ويشند به العجب وهو ينظر إلى قامة صاحبه واستوائها الرائع ، ويتساءل أى فولاذ صلب اتَّخذ منه ستان لحظها المرهف القاطع النافذ إلى الأقدسة . وإن جسد صاحبه لينوب رقعة ما بعدها رقعة ونعومة ما تماثلها نعومة ، حتى ليظن كأن اللاذ أو الحرير الذى تلبسه ينبو عليه لشدة لطفه ورهافته . وله ينزل موجهاً الخطاب إلى معانيه في حبه ونهالكه فيه ^(١) :

عَتَّ وَلَكِنِّي لَمْ أَعِ وَأَبْنِ مَلَأُكَ مِنْ مَسْمَى
وَمَاقِدْرُ عَنَيْكَ حَتَّى يَزِيلَ غَرَامًا تَمَكَّنَ مِنْ أَضْلَمَى
وَمَسَادَامَ لَوْمُكَ إِلَّا وَاتَّ بَت تَقْدِرُ أَنْ جَنَانِي مَعَى
مَضَى كَمَى يَوَدُّعُ سَكَّانَهُ غَدَاةَ الْفِرَاقِ فَلَمْ يَرْجِعْ
قَوَادِي فِي غَيْرِ مَا أَنْتَ فِيهِ فَخُذْ فِي مَلَامَةِ أَوْدَعِ

والقطعة نموج برقة الحسن ولطفه إلى أبعد حدود الرقة واللطف اللذين يشتهر بها أهل القاهرة من قديم ، وليس فيها لقطة غريبة بل كأنه تعمد أن يختار ألفاظها أقرب ما تكون إلى لغة الحياة القاهرية اليومية . ولا نبعد إذا قلنا إنها تعد هى ونظيراتها عند ظافر مقدمة للنزل الوجداني الصافي الذى سنعرضه عند ابن النثية ومعاصريه . وهو يقول لصاحبه فى القطعة بمنتهى الرقة والتلطف كفى عتابا فقد سلبت مجربى عقل وسمى ، وملك حبيا جنانى ، بل لقد مضى وراءها منذ الفراق ولم بعد . فأننا لا أعقل ولا أسمع شيئا مما تقول ، وبتلطف إليه غاية اللطف حين يترك له الخبرة فى أن يستمر فى لومه أويكف عنه ، وعادة المحين أن يعفوا بلائيمهم فى الحب ، وظافر لا يعنف بل يتلطف فى ود أريق .

وربما كان من تسمية الرقة فى غزل الشعراء المعاصرين لظافر أن نجد ابن قادوس الدمياطى ينزل بحماسة سوداء ، محاولا بكل ما استطاع أن يرد عنها ما يُعَلَّن من قبح السواد ، يقول ^(٢) :

وعاذل مَخْنَفِل مجتهد في عَزَل
 يلومني في ظَنَبِي مخلوقة من كُحَل
 إن السَّوَادَ عَلَّةٌ من نورِ هذى المُقَل
 والحَجَرُ الأسود لم يُخْلَقْ لغير القُبَل
 والقَارُ - مذ كان - وعَا السُّبُل السُّبُل

فقد دافع عن تلك الجارية دفاعا بديعا . إذ جعلها مخلوقة من الكحل الذي تردان به الحسان في عيونها ، بل جعلها مخلوقة من سواد العيون الذي تبصر به من حولها النور المنبثق في الكون ، وإنه ليذكر الحجر الأسود واكباب الحجاج على تقيله ، كما يذكر القار أو القطران وانغذاه في دعم الجدر لآنية الماء العذب . وهو ظرف بالغ من ابن قادوس ، ظرف نعرفه دائما للشراء المصريين . وكانوا يستلون هذا الظرف بكثير من الصور الخيالية المتكررة ، وقد يبالغون في وصف هيامهم بمالفة بعيدة على نحو ما نقرأ للمهذب بن الزبير^(١) :

إذا أحرقت في القلب موضع سَكَنَاهَا فمن ذا الذي من بعد يُكرم مَتَوَاهَا
 وما الدَّمْعُ يوم اليَّن إلا لآلِيْ على الرُّسْم في رسم الديارِ نَزَنَاهَا^(٢)
 وما أطلعَ الزَّهَرُ الرِّيحَ وإنما رأى الدَّمْعُ أجيَادَ الفُصُونِ فحلَّاهَا
 ولما وقفنا للسوداع وترجمتُ لعبى عَا في الضمائر عَيَّاهَا
 بدتُ صورةً في هيكل فلو أننا ندينُ بأديان النَّصَارَى عبدانَاهَا
 وهو يشكر من النار التي دلعتها صاحبه في قواده ، ويقول لها إنه مسكنك فإذا لم تبق عليه فأين يكون مثواك ، استعطاف واسترحام ، فقلبه ملئ بها فتونا بل نارا موقدة ، وقد أزمعت البين والفراق وهو ينثر دموعه نثرا . ويمتد به الخيال فيظن أن الندى العالق بفصوص الأشجار دموعه ، ويعلم سحرها له وشغفه بها ، وكيف يبعث جالها بفؤاده ، حتى تبدوله وكأنها صورة في هيكل تقدم لها القرابين والقراتيل ، وبوشك أن يعيدها كما يعبد النصارى المسيح . ونحس عند المهذب نقلة لشعر الغزل المصرى ، إذ يستحيل وجئا وصباية ورقة وخفة من مثل قوله^(٣) :

هُمْ نُصَب عَيْنِ أَنْجَلُوا أَوْ غَارُوا وَمَتَّى قَوَادِي أَنْصَفُوا أَوْ جَارُوا^(١)
فَارَقْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ فِي نَاطِرِي مِمَّا تَغْتَلِبُهُمْ لِي الْأَفْكَارُ
تَرَكُوا الْمَنَازِلَ وَالْدِيَارَ فَاهُم إِلَّا الْقُلُوبَ مَنَازِلُ وَدِيَارُ
وَأَسْتَطَلُّوا يَدَ الْقِفَارِ فَأَصْبَحَتْ مِنْهُمْ دِيَارُ الْإِنْسِ وَفِي قِفَارِ
فَلَنْ غَدَتْ مَصْرُ فَلَائِ بَعْدَهُمْ فَلَهُمْ بِأَجَازِ الْفَلَا أَمْصَارُ^(٢)
أَوْ جَاوَرُوا نَجْدًا فَلِي مِنْ بَعْدِهِمْ جَارَانُ : فَيُضِ الدَّمْعُ وَالتَّذْكَارُ
وَالدَّهْرُ لَيْلٌ مَذْ تَنَاءَتْ دَارُهُمْ عَنِّي وَهَلْ بَعْدَ النَّهَارِ نَهَارُ

إنه لن ينسأهم أبدا مهما أنجلوا أو غاروا ومهما شرفوا أو غربوا ، ومهما أنصفوه أو ظلّموه ، لقد
فارقوه وصورهم ماثلة في خياله لا تبرحه ، وحقا تركوا المنازل والديار ، ولكنهم تركوا وراهم
مترا عظيما ، لا تزياله صورهم ، إنه قلبه المتاع المطوى على حبيهم . وينظر إلى الديار والمنازل
حوله بمصر فيظنها فلولات ومغازات ، فقد غادروها قفرا ييايا خرابا إلى ديار كانت خالية موحشة
فأصبحت بهم أمصارا ، وليس من جار له في قفره الحرب إلا جاران : تذكّارهم ودموعه المنهلة
التي لا ترقأ أبدا ، وقد أظلمت الدنيا في عييه . حتى غدا النهار مظلا داجيا ، فقد أخذوا معهم
كل شيء حتى النهار وضيائه . وله أبيات غزلية خفيفة من مثل قوله^(٣) :

لَمْ يَهْنُ قَطُّ عَلَيْنَا بُعْدُكُمْ مِثْلًا هَانَ عَلَيْكُمْ بُعْدُنَا
لَمْ تَبَالُوا إِذْ رَحَلْتُمْ غُدْوَةً أَيُّ شَيْءٍ صَنَعَ الدَّهْرُ بِنَا
وقوله^(٤) :

أَحْبَابُنَا مِابَالِكُمْ فَبِنَا مِنَ الْأَعْدَاءِ أَغْدَى
وَحَيَاةُ وَدُّكُمْ وَتُرْبَةُ وَصْلِكُمْ مَاخِذُ عَهْدِنَا

والرقة واضحة في الأبيات ، وواضح في البيت الأخير الظرف المصري ، فالوصل مات وقبر
والمهذب يحلف - كما يحلف المصريون حتى اليوم بأعزائهم وتربهم أو قبورهم - بتربة الوصل العزيز
وما سكب عليه من الدموع الحارة .

(٣) الحريدة ٢١٩/١ .

(٤) الحريدة ٢١٤/١ .

(١) أنجلوا : دخلوا النجدا . غاروا : دخلوا الغد أي

تامة .

(٢) أجواز : جمع جزد : وسط

وبلقانا في أوائل أيام صلاح الدين الأيوبي على بن الدباغ الإسكندري ، ومن بديع ماله في الغزل آياته المشهورة ^(١) :

يأربُ إن قَدَرْتُهُ لِمُقْبَلٍ غَيْرِي فَلِلْمَسَاكِ أَوْلَاكُمُوسِ
وَلَنْ قَضَيْتَ لَنَا بِصَحْبَةِ ثَالِثٍ يَأْرَبُ فَلَيْكُ شَمْعَةٌ فِي الْمَجْلِسِ
وَإِذَا قَضَيْتَ لَنَا بَعِينَ مَرَاقِبٍ فِي السَّرِّ فَلَتَكُ مِنْ عَيُونِ التَّرْجِسِ

وابن الدباغ يصور في آياته أنانية الحب وكأنه يحب نفسه كما يحب محبوبته ، بل هو يرى فيها ظلال نفسه ، ولذلك يتخفى لها ما يتخفى لنفسه من أن لا يقبل شفتيها سوى المسواك للوضوء والأكوس أو الأكواب للشراب ، وأن لا يصحبها ثالث إلا أن يكون شمعة تضيء المجلس ، وإذا كان لابد من عين لرقيب فلتكن من عيون الترجس .

وكان القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يمتنع إلى استخدام المحسنات البدعية وإلى صور مختلفة من التكلف ، وكان قد نشأ بمصر وتنفس في حياتها الأدبية ولعله لذلك يؤثر من حين إلى حين السهولة في غزله وأن يمتنع من الممين المصري العذب كقوله ^(٢) :

يَا طَرَفُ مَالِكٍ سَاهِدًا فِي رَاقِدٍ يَاقُظُ مَالِكٍ رَاغِبًا فِي زَاهِدٍ
مِنْ بَشَرِي عَمَرِي الرَّخِصَ جَمِيعَةً مِنْ وَصْلِكَ الْغَالِي يَوْمٍ وَاحِدٍ
عَاتِبُهُ فَتَوَرَّدَتْ وَجَنَانُهُ وَالْقَلْبُ صَخْرٌ لَا يَلِينُ لِقَاصِدٍ

والقطعة مكتظة بالطباق ولكن لا نكاد نحسه ، لأن الألفاظ متداخلة متواصلة ، وهو يصور فيها انصراف المحبوبة عنه ، بينما هو واليه بها واجد ، وعاتها فتصرجت وجناتها بالخجل ، غير أنها ظلت منصرفة عنه لا تلتفت له ولا تعطف عليه ، ومن غزله البديع قوله ^(٣) :

تَرَى لِحْبَبِي أَوْ حَبِينِ الْحَمَامِ جَرَتْ - فَحَكَّتْ دَمْعِي - دَمْعُ الْغَائِمِ
وَهَلْ مِنْ ضُلُوعٍ أَوْ رُبُوعٍ تَرَحَّلُوا فَكَلَّ أَرَاهَا دَارَسَاتِ الْمَعَالِمِ
لَقَدْ ضَعُفَتْ رِيحُ الْعُصَا فَوَصَلَتْهَا فَنَيْيَ لَأَمْنَاهَا هُبُوبُ السَّائِمِ

وهو ترداد طريف ، فهو لا يدري أينما كى السحاب في قطره المنهل حينه الملتاع أو هو يلي

(٢) الحُرَّة من ٢٥٧ .

(٣) الحُرَّة من ٢٤٦ .

(١) الحُرَّة ١٣٣/٢ وعزارة الأدب للحصري (طبع)
مطبعة بولاق من ٢٤٦ .

الحاتم وما ترسل من حنين شجي ، وهو لا يدري أيضا أى منازل رحل عنها أحبابه أمى الربوع أو الضلوع . فكلاهما أطلال دارسة ، ويبلغ به الخيال أن يظن أنفاسه الحارة امتزجت بنسيم الصبا ، فأحاطته سمائم لافعة .

ونلتقى بخِذْنِ القاضى الفاضل ورفيقه : ابن سناء الملك أكبر شعراء مصر فى العصر ، وشعره يمجج بوجود لا حدود له ولا ضفاف ، وجد يشق به تارة وينم به تارة ، إذ يذوق لذة الحب المؤلمة والحلوة ، حتى إذا اختلس قبلة أو ضمة كاد يطير من الفرح طيارا ، مها تأبّت عليه محبوبته ومها صدت عنه ونفرت منه ، بل إنه ليلقى ذلك كله بحنان لا يماثله حنان ، يقول (١) :

لا أنجازى حبيبَ قلبى بجرّمة أنا أحنى عليه من قلب أمة
صنّ عنى بريقه فتحيّلتُ إلى أن سرقته عند لثيّه
والى اليوم من ثلاثين يوما لم تزل من فنى حلاوة طعمه
إن قلبى لصدده ورقادى ملك أجفانه وروحى لجسه
يكسّر الجفنَ بالفتورِ ومالى عملٌ عند كمرو غير ضمه
والآيات تمجج بالعدوبة والظرف ، فكله حنان لصاحبه ، حتى ليفوق حنوه عليها حنو الأم .
ومازال بها حتى اقتطف منها خلسة قبلة ، ومرت الأيام ولا تزال حلاوتها فى له ، ويشعر كأن كل شىء فيه لها : قلبه وروحه ، وملك أجفانها رقاده ومهدده . وتصنع فى البيت الأخير لاستخدام مصطلحى الكسر والضم عند النحاة ، ومع ذلك أوقعها فى موضعها ، فلا نحس فيها تصنعا ولا ما يشبه التصنع ، ومن قوله (٢) :

نعمَ المشوقُ وأنعمَ للمشوقُ فالعشرُ كالخضرِ الرقيقِ رقيقُ
خضرٍ أديرُ عليه مغمصمٌ قبلةً فكانَ تقبيلَ له تغنيقُ
ونعمَ لقد طرق الحبيب وماله إلا حدودُ العاشقين طريقُ
فرشوا الحدودَ طريقه فكأنما زفراتهم لقسومه تطريقُ (٣)
واقى وصُبِحُ جبينه منفسٌ وأنى وجيدُ رقيبِ ملنوقُ

(١) الطريق : تهجيل الطريق للحارة .

(١) الديوان ص ٦٦٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠٢ .

وهي لحظة من لحظات الحب الحلوة صورها ابن سناء الملك تصويراً بديعاً ، فقد سعد العاشق الوطنان بما أنعم عليه العشوق من لقاء ، وأحس باحتياج ما بعده احتياج ، فقد زارته الهجوية الفتانة التي شغفت قلوب كثيرين ، وإنهم ليفرشون طريقها بخدودهم لتطأ عليها ، مرسلين زفرانهم ، وكأنما يمهّدون بها الطريق لها ، وقد وافت يمينها المشرق إشراق الصباح ، وغصن الرقيب بريقه حتى كأنه مخنوق . ومن طرائف غزله قوله ^(١) :

سَعِدْتُ بِدِرْ خَدُّهُ بُرْجُ عَقْرِبِ فَكُذِّبَ عِنْدِي قَوْلَ كُلِّ مَنْجَمٍ
وَأَتَمُّ مَا وَجَّهَ الصَّبَاحَ إِذَا بَدَأَ بِأَوْضَحَ مِنِّي حُجَّةً عِنْدَ لُؤْمِي
وَلَا سَمًا لَمَّا مَرَرْتُ بِمَنْزِلِهِ كَفَضْلِهِ صَبْرٌ فِي قَوَادِ مَتِيمٍ
وَمَا بَانَ لِي إِلَّا بَعْدُ أَرَاكِي تَعْلُقُ فِي أَطْرَافِهِ ضَوْءُ مَتِيمٍ ^(٢)
وَقَفْتُ بِهِ أَعْتَاضُ عَنْ لَتَمِ مَبْسَمٍ شَهِيٍّ لِقَابِي لَتَمَ آثَارِ مَتِيمٍ ^(٣)
بَكَيْتُ بِكَلَّتِي مُقَلَّتِي كَأَنِّي مَتَمُّ مَا قَدَ فَاتَ عَيْتِي مَتَمِّ

وهو يقول إنه سعد برؤية هذا البدر وما سال على خده من عقرب الشعر ، مما جعله يكتئب قول المنجمين أن برج العقرب في السماء إذ رآه على خد صاحبه الفتانة . وإن فتنتها وما تدلج في قلبه لأنصح برهان له عند لائمه ، أنصح من الصباح في وضوحه وضياه . وقد مرّ بمترها الذي لا يكاد يبين ، كما لا يكاد يبين الصبر في قواد العاشق الوطنان ، وبأن له بفضل عود أراك كانت تستاك به صاحبه قبل الوضوء ، إذ تعلق بأطرافه ضوء من مبسمها ، واهتدى إليها وإلى مترها على لأناته فوقف مبهوتا مشموها ولا أمل له في قلة يقتطفها أو ما يشبه القبلية ، وأقبل يلتم آثار منسمها أو طريقها باكيا بدموع غزار ، باكيا بمقلته وكأنه يتم بكاء متسم بنيرة على أخيه مالك وقد اشتهر بكثرة بكائه عليه ، وكان أعور لما زال ييكبه حتى دمت عينه العوراء . وعلى هذا النحو لا يزال ابن سناء الملك يتقلب بين لحظات حب مؤلمة مبكية وأخرى مفرحة مبهجة . وكان يلوب لطفاً ورقة مما جعله يتنزل - كما أشرنا في ترجمته ، ببعض من فقدان بصره ، وهو يحتال في غزله بين على إيراد ألوان من حسن التعليل ترفع عنهن هذا الضم الذي نزل بين ، من مثل قوله ^(٤) :

فَتَنَّتْنِي مَكْفُوفَةٌ نَظَرَاهَا كَتَبَا لِي مِنَ الْجِرَاحِ أَمَانَا

(٣) النسم : طرف خف البحر ويريد راحلة الجبيرة .

(٤) الدهنون ص ٨٤٦ .

(١) الدهنون ص ٦٩٨ .

(٢) بسم : نقر

فَقِي لَمْ تَسْلُ الْفُتُورَ حُسَامًا لَا وَلَمْ تَحْمِلِ اللَّحَاطَ سِنَانًا^(١)
وَهِيَ بِكَرِّ الْعَيْنَيْنِ مُحْصَنَةٌ الْأَجْدُ غَان مَا افْتَضَّ مِيلُهَا^(٢) الْأَجْفَانَا
قَصَرَتْ عَشَقَهَا عَلَى فَلَمْ تَعِدْ شَقَّ فَلَانًا لِذَلَمْ تُعَايِنِ فَلَانَا
لَا وَلَمْ تَبْصُرِ الرِّجَالَ فَتَحْتَا رَ عَلَى مُلْتَحِبِهِمُ الْمُرْدَانَا
عَبِثَتْ مِنْ هَوَايَ وَارْتَحَلَ الْإِنْدُ سَانُ مِنْ عَيْنِهَا وَأَعْلَى الْمَكَانَا
عَلِمَتْ غَيْرِي عَلَيْهَا فَخَافَتْ أَنْ تَسْمَى غَيْرِي لَهَا إِنْسَانَا

وهو يعلن إليها فتنه بحسنا ، وهي فتنة ممزوجة بغير قليل من الرضا والغبطة ، إذ آمن عندها أن تصبى سهام عينيها قلبه ، أو يصحبه حسام الفتور وسنان اللحاط ، ويصفها ببيكاره العينين وطهارة الأجفان ، إنها عنراء البصر ، لم يمس ميل الكحل عينيها ، وإنا لتفردة بالحب إذ لم نر ولم تبصر سواه ، فهو دنياها غير مفكرة في شيب وشبان ، إذ لا تعرف الفرق بين أصحاب اللحى والمردان . وتبلغ به الرحمة والإشفاق والعطف عليها أن يقول إنها فقدت بصرها بسبب حبه ، وبذلك خلا مكان إنسان العين منها ، وكأنما عرفت غيرته عليها حق من إنسان عينا ، فنحتة عنها ، حتى لا يكون لها إنسان سواه . وكل ذلك لطف من ابن سناء الملك ورقة ورحمة وعطف وحنان ما بعده حنان . وهو بحق يعد في الذروة من شعراء العرب النابيين الذين يمتازون بدقة الحس ورهافة الشعور وروعة المعاني والتساوير .

ويتفجر هذا الغزل الوجداني البديع على كل لسان بعد ابن سناء الملك ، وكان من أهم الأسباب في ازدهاره الشعر الصوفي الذي ذاع وشاع منذ زمن النولة الأيوبية ، فإن الصوفية من أمثال ابن الكياني وابن الفارض أذاعوا فيه وجدا ملتاعا وكان لذلك أصداؤه الواسعة في غزل الشعراء ، فانضكوا من أصداف البديع ومن الأخيلة الجامدة المتحجرة ، وأغلخوا يصورون حبيب وما ينوون فيه من الوجد والصبابة وما يثير في قلوبهم من المشاعر والعواطف وما يصطلون فيه من العذاب والآلام : آلام الفراق وعذاب الإعراض ، من ذلك قول الحسن بن شاور في بعض غزله^(٣) :

قُلْتُ يَوْمَ الْيَمِّ جِيدٌ مَوْعِي دُرَّرًا نَظَمْتُ عَقُودَهَا مِنْ أَدْمَعِي

(١) مالحاط : مؤخر العين مائل الصدغ .

(٢) غليل : للكحل أو المردود وهو ما يوضع به الكحل في

العين .

(٣) فوات الوفيات ٢٣٦/١ .

وحدا بهم حادى المطى فلم أجد
 يانفس قد فارقت يوم فراقهم
 هيات يرجع شملنا بالأجرع
 بجمياتكم جودوا على نكرما
 فلفد عدت العير يوم فراقكم .
 يانازحين فهل لكم من عودة
 لو لم تعودوا للديار وترجعوا
 قلبى ولا جلدى ولا صبرى معى
 طيب الحياة فى البقا لا نطمع
 ويعود أحباب الألى كانوا معى^(١)
 فمضى خيالكم بلم بمضجى
 وتضرمت نار الأسى فى أضلى
 نزع التفريق ما بقى من مدمى
 هلكت من شوق وقرط نوجى

وابن شاور فى أول الأبيات يبكى يوم البين والفراق شاعرا بأنه يعجز عن احتمال هذه المحنة التى
 خانته فيها صبره ومجملده ، بل التى توشك أن تقضى عليه ، لقد تفرق شملهم ، ولم يعد هناك أمل
 فى لقاء بالأجرع : لقاء أحبابه ومهوى قواده . ويستحلفهم وقد حرموه طلعة وجوهمهم فى البقطة
 أن لا يجرموه طيفهم فى المنام ، لعله يخفف من نار الحب المضطربة فى صدره . ويتنحى عودة لهم
 أو رجعة ترد إليه روحه وترد عنه أوجاعه من الحب الملتب وأوصابه .

ونلتقى بنى الدين^(٢) السروجى المولود سنة ٦٢٧ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٣ ويقول عنه
 أبو حيان : كان مع زهده وعفته مغرما بحب الجمال وكان يفتى بشعره الغرامى المغنون لركة انسجامه
 وعذوبة ألفاظه ، ومن غزله :

أنعم بوصلك لى فهذا وقته
 يا من شغلت بحبه عن غيره
 بالله إن سألك عنى قل لهم
 أوقيل مشتاق إليك فقل لهم
 يا حسن طبع من خيالك زارنى
 فضى وفى قلبى عليه حسرة
 يكفى من المجران ما قد دقت
 وسلوت كل الناس حين عشقت
 عبدي وملك بدي وما أعتت
 أدرى بلا وأنا الذى شوقته
 من عظم وجدي فيه ما حقت
 لو كان يمكنى الرقاد لحقت

وهو يتضرع لمحبوبه أن ينم عليه بالوصل بعد طول المجران والعذاب فى حبه وانشغاله الدائب
 بعشقه ، ويقول متذللأ له إنه عبده وملك يده ولن ترد إليه حريته ، ويشكو لواضع الشوق ،

(١) الأجرع : الأرض ذات المزنة للشاقة لليل .
 (٢) انظر فى ترجمة السروجى وشعره لغات الولايات .

ويأبى لنفسه إذ رأى طيفه في المنام ولم يكذب بحقه أو يتحقق منه حتى قرّ النوم من عينه ، وهو لا يتمتع لقاء كمادة المحبين ، لبأسه منه ، وإنما يتمنى لو عادت له رؤيته في منامه ، أو لو طال حلمه وطال رقاؤه قليلا حتى يشق منه غلة حبه . ويعلق ابن حجة الحموى في خزائنه على هذه الأبيات بقوله : « ما نفتات السحر إذا صدقت عزائمها بأوصل إلى القلوب من هذه الفتات ولا لسلاف ثغر الحجاب مع حلاوة التقييل علوبة هذه الرشقات » . ومن غزله :

قصدَ الحَيِّ وأناه يَجهدُ في السرى حتى بدتْ أعلامُه وقبأه
ورأى لليلِ العاصريةَ منزلا بالجود يُعرفُ والندى أصحابه
قد أشرعتْ يضرُ الصَّوَّامِ والقنا من حوله فهو المنيعُ حجابُه
وعلى جماءه جلالةٌ من أهله فلذلك طارقةُ العيون نهابُه
كم قُلبتْ فيه القلوبُ على الثرى شوقا إليه وقُبلتْ أعتابه

وهو يرمز لصاحبه بليلي العامرية وكأنه مجنونها وعاشقها قيس الذي ملأ اليد بأغاني حبه ، ويقول إنه ما زال يدأب في السرى أو السير الليالي المتصلة حتى بدت أعلام حبه وقبائه أو خيامه ، وباللهول لقد وجد من دون رؤيتها السيوف والرماح مشرعة وشعر بجلال وهيبة لا يماثلها هيبة وجلال ، وهناك رأى كثرة من العشاق يفسون الثرى إلى صدورهم مقبلين الأعتاب آملين أملا يائسا في أن يرفع الحجاب . وكان يعاصر السروجي فخر الدين بن لقمان كاتب يبرس وقلاوون ، وله غزليات رقيقة مثل قوله (١) :

كُنْ كيف شئتَ فأنقِ بك مغرمُ راضٍ بما فعل الهوى المتحكمُ
ولئن كتمتُ عن الوشاة صبابي بك فالجوانحُ بالهوى تتكلمُ
أشتاقُ من أهوى وأعلمُ أنني أشتاقُ مَنْ هو في الفؤاد مخيمُ
يأمنُ بصدِّ عن الحب تدلُّا وإذا بكى وجدا غدا ينسمُ
أسكتك القلبَ الذي أحرقتَ فحذارٍ من نارٍ به تنصرمُ

وهو راض من صاحبه بكل ما تنصع من إقبال وإعراض ، وإنه ليخفي حبه عن الوشاة بل

(١) للنيل الصافي لابن تغري بردي (طبع دار الكتب المصرية) ١١٩/١ .

يكلمه بينما جوارحه تنطق به وتعلمه ، ويعجب أن يشاق صاحبه ويود لقاءها ، بينما هي مخفية في قواده لا يبرحه . وإنما ليعلم في التدلil ، وحتى إن بكى وجدا سرعان ما يبتسم . ويحضرها من هذا الدلال وما يطوى فيه من اللعاب . فقد أسكنها قلبه الذي أحرقت ، ولا تزال نار الحب فيه مضطربة مدلعة . ولابن نباتة غزل وجداني كبير من مثل قوله ^(١) :

أهلاً بطيفي على الجراء مُحْتَلِمِي والفجر في سحر كالنفر في لَمَسِ
والنجم في الأفق الغربي مُحَلِيرُ كَشَعْلٍ سَقَطَ من كَفْ مُقْتَسِ
ياحبذا زمنُ الجراء من زمنِ كلُّ الليالي فيه ليلَةُ العرسِ
وحبذا العيشُ معَ هيفاء لوبرزتْ للبدر لم يَزْهْ أو للغصنِ لم يَمِسْ
محروسةً بشماع البيض ملتصعاً ونورُ ذاك الحيا آيةُ الحرسِ
بَسَمَى وَرَا لَحَظْهَا قَلْبِي ومن عجبِ سَقَى الطريدو في آثارِ مَقْرَسِ
ليت العلولُ على مرأى عاينها لو كان ثَنَى عَمَى عَيْنِهِ بِالْعَرَسِ

وهو يصور فرحته بالطف الذي رآه في حلمه اختلاسا لآواخر الليل والفجر يتلجج في الآفاق المظلمة تلجج النفر في لَمَسِ الشفاء ، والنجم يسقط في الأفق الغربي متحدرا سقوط شلعة من كف مقتبس . وتعاوده ذكرى ليالي الجراء المفرحة فرح ليالي العرس ، وهو يمش رانيا إلى حبيته التي لو رآها البدر لغص من زهوه ولو رآها الغصن لغص من ميسانه وخيالاته . ويقول إنها ممعة محروسة بسيوف بانرة ، وآية حراسها هذا النور الذي يُشِعه وجهها في الآفاق ، ويعجب أن يسمي قلبه وراء لحظة سمي طريدة الصيد وراء مقرسها ، ويقول إن ضيائها أحال عيني العلول عشواءين ، فهو لا يصمرها ، ويتمنى لو ثنى ذلك بخرسه وانعقاد لسانه ، فلا يتحدث عنها أي حديث من قريب أو من بعيد .

ومن كانوا يكتفون من الغزل النواجي ^(٢) شمس الدين محمد بن حسن صاحب كتاب حلبة الكبت في الحمر والتدما وآدابهم ، وبعد أكبر شعراء القرن التاسع الهجري ، توفي سنة ٨٥٩

٢٢٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٧٧/١٦ والبدر الطالع للشوكاني

١٥٦/١ وصفحات لم تشر من بطلع الزهر (طبع دار المعارف) ص ٢٧ . ودار الكتب للصرية مطبوعة من ديوانه . ومن كتبه « عقود الألف في الموشحات والأزجال » .

(١) النجوم الزاهرة ٩٩/١١ .

(٢) الجراء : الأجر أو الحزن . اللص : سواد الشفة .

(٣) انظر في النواجي وشعره الفصحى للامام السخاوي

للهجرة ، ومن غزله قوله :

خَلِيلِيْ هَذَا رَيِّعُ عَرَّةٍ فَاصْبَا إِلَيْهِ وَإِنْ سَأَلْتُ بِهِ أَدْعَى طَوْقَانُ
فَجَفَنِيْ جَفَا طَيْبِ الْمَنَامِ وَجَفَنَهَا جَفَانِيْ ، فَيَا لَهِ مِنْ شَرِّكَ الْأَجْفَانِ

ونغص في قراءة مثل هذا الغزل الوجداني المتنازع حتى إذا أظلم لواء العثمانيين البلاد أخذ يفيض
معينه في القلوب والنفوس وخاصة عند نور الدين علي المصلي ، ومنحصره بكلمة ، ومثله نثرجه
وتلميذه يحيى^(١) الأصيل ، الذي يقول في بعض غزله :

بَدَا بِوُجُوِّ جَمِيلِ الوَصْفِ وَالشَّائِئِ يَقُولُ : سَبْحَانَ مَنْ بِالْحَسَنِ وَشَائِي^(٢)
كَأَنَّهُ رَوْضَةُ غَنَاءٍ مَزْهَرَةٌ مِنْ دَمْعٍ عَاشَقَهَا تُنْفَى بِقُدْرَانِ
أَشْبَهْتُ فِي حُبِّهِ وَرَقَ الْحَمِيِّ فَقَدْ كَلَّ يَيْتُ الْجَوَى شَجَوًا عَلَى الْبَانِ

فأله جل شأنه زين وجهها بالجمال حتى كأنها روضة ، أليس يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ،
والخند بالورد والشقيين والعين بالترجس ، لذلك جعل وجهها كأنه روضة تنقى من دموع العشاق
بقتلوان ، ومضى يستكمل خياله فوق الحمى وحامه ييت جواه شجوا على أغصان البان وهو يشبه
على مَنْ قَامَتْهَا نَحَاكِي قَامَةِ الْبَانِ . ونحرج على يد الأصيل يوسف^(٣) المغربي ، وغزله كقول أستاذه
يسيل عنوبة من مثل قوله :

جَعَلُوا الصَّبَاحَ مَبَاسًا ثُمَّ الظَّلَا مَ صَفَاثِرًا ثُمَّ الرَّمَاحَ قُدُودًا
وَالْوَرْدَ خَدًّا وَالْغُصُونَ مَعَاطِفًا وَالْبَدْرَ قَرْنًا وَالْغَزَالَ جِدَا
وَرَأَتْ غُصُونُ الْبَانِ أَنْ قُدُودَهُمْ قَاقَتِ فَاضْطَحَتْ رُكْمًا وَسَجُودًا

وتشبيه قدود الحسان بالرماح وغصون البان لغصونهم واستقامتها مشهور . وكان المغربي
والأصيل والمصلي يكوّنون في الغزل زمن العثمانيين مدرسة متائلة في رشاقة الموسيقى وجمال
الصياغة ، وإن كان التكلف قد أخذ يعم في الغزل بعدهم وفي أيامهم . ولعبد الله الإدكاوي :

(٣) راجع في يوسف المغربي وجماعة الألبا ٣٢/٢ وما
يملها وخلاصة الأثر ٥٠١/٤ .

(١) راجع في يحيى الأصيل وجماعة الألبا ٣٨/٢ وسلافة
العصر لابن مكرم ص ٤١٥ وخلاصة الأثر ٤٨٠/٤ .
(٢) وشائي : زيتي .

حَقِيقُ دُمِي غَدًا فِي الْجَزَعِ كَاللَّيْمِ . مَذَّ بَانَ سَكَانَ بَانِ الْحَيِّ وَالْعَلَمِ .
 وَانْهَلُ مُتَسَجِمًا مِنْ نَارِ مَضْطَرَمِ . مَلَّانَ وَجَدًا إِلَى خِشْفٍ بَلَدِي سَلَمِ .
 ظَلَبِي نَفُورَ أَنْبَسِي نَاعَسِي يَقْطِ . بِاللَّيْلِ مُشْتَحٍ بِالصَّبْحِ مُلْتَمِ .
 إِنْ أَرْضَ يَغْضَبُ وَإِنْ أَقْرَبَ نَأَى صَلَفًا . وَإِنْ أَذَلُّ يَتَنَّى بِالْعَزِّ وَالشَّمِ .
 مُهْفَهَفُ مَا بَدَتْ لِلْفَضَنِ قَامَتُهُ . إِلَّا ائْتَنَى ذَابِلَ الْأَوْرَاقِ ذَا خَرَمِ .
 وَإِنْ نَبَسُمُ مَا بَرَقَ بِكَاطَمَةٍ . لَهُ وَمِیْضُ يَجْلَى دَاجِي الظَّلَمِ .
 مَا فِيهِ عَيْبٌ سِوَى تَغْيِيرِ مُقَلَّتِهِ . وَتَحْكُمَا فِي قِرَادِ الْمُتَدَنِّ السَّقَمِ .

والحقيق : خرز أحمر ، يقول الإدكاوي إنه مازال يكي حتى اختلط دمه بالدم القاني وتناثر في الجزع أو جانب الوادي وكأنه ديم مسكوبة مذ بَمَذَّ سكان الوادي والعلم أو الجبل وما بها من شجر البان ، وإنه ليكي وأحشاؤه تضطرم بوجد مبرح إلى خشف أو ظلي من ظباء ذي سَلَمِ بنجد ، وإنه لظلي نفور أنيس ناعس يشع بوشاح أسود من شعره ، ويلثم بِلَثم منبر من وجهه . وإن لقيه راضيا غضب وازورَّ عنه وإن قرب منه نَأَى ينجابه ، وحتى إن ذل له تاه عليه صلفا وشما أو تكبرا . وهو مهفف ضامر دقيق الحصر ، وما يرى الغصن قامت حتى تذبل أوراقه خجلا ويلتاع لوحة ملتبة . وإن ابتسامته لتضيء الكون من حوله ضياء لعله أكثر من ضياء البرق الناعا في الليالي الداجية . ويجعل عيه الوحيد خور عينه الذي طالما تَنَمَّى الشعراء به وما يرسل من سهامه التي تعصى أقدرة المرضى بالحب ، وتفتك بهم فتكا . وواضح ما يداخل هذا التصوير من مبالغة وتكلف شديد . وحري بنا أن نقف عند نفر من شعراء الغزل الوجلداني الذين صوروا ما اختلج في خبايا قلوبهم وصلوهم من وجد مبرح ولوحات ممضة .

ابن النيه (١)

هو الكمال أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النيه ، ولد بمصر حوالي سنة ٥٦٠ واطتلف إلى كتاب حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الأشعار على عادة لداته ، ثم أخذ يختلف

تحقيقا بينهما وطبع طبع حجر في القرن الماضي . وطبع الديوان حديثا بتحقيق عمر محمد الأسعد (نشر دار الفكر) بيروت .

(١) انظر في ابن النيه وترجمته وشعره ابن خلكان ٣٣٦/٥ وفوات الوفيات ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٦ وحسن الخاتمة ٥٦٦/١ وشذرات الذهب ٨٥/٥ ومقدمة عبد الله فكري للديوان إذ جمعه ورثته وحققه

إلى حلقات العلماء والأدباء ، وتفتحت ملكته الشعرية ، وورنا إلى الالتحاق بدواوين صلاح الدين ووزيره الكاتب البليغ القاضي الفاضل راعي الأدباء في عصره ، وفي ديوانه مدائح مختلفة له ، ولبضع أمامه الدليل الواضح على قدرته البيانية ضَمَّن جميع أبيات إحدى مدائحه له كلمات من سورة المزمل مقتبسا لها في قوافيه بقوله في مطلعها :

قَتُّ لَيْلٍ الصُّلُودِ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ رُسُلْتُ ذَكَرَكُم نَرْثِيلا
ووصلتُ السَّهَادَ أَفْجَحَ وَصَلُّرُ وَهَجَرْتُ الرِّقَادَ هَجْرًا جَمِيلًا

ويدو أن القاضي الفاضل لم يُعْجَبْ بالقصيدة ، فلم يَعيِّن في دواوين صلاح الدين وأيضا لم يَعيِّن في دواوين ابنه العزيز ، حتى إذا ولي شئون مصر السلطان العادل سنة ٥٩٦ رأبناه بِقَدُّم مدائحه إليه وإلى وزيره الصفي بن شُكْر . ويدو أن صداقة انعقدت حيثذ بينه وبين الأشرف موسى بن السلطان العادل ، حتى إذا ولاه أبوه على الرُّها سنة ٥٩٨ اصطحبه معه واتخذهُ كاتبه . وأخذت إمارته أو مملكته تسع ، فشملت غِلَاط ومِثْلَاقَيْن ونَصِيبَيْن ومعظم بلاد الجزيرة . وكان ينتقل الأشرف موسى في بلدان إمارته وكانت أكثر إقامته بالرُّقة لموقعها على الفُرات وابن النيه معه يلازمه ، ولا يترك مناسبة من انتصار في حرب أو عيد إلا ويقدِّم له مدائحه . ومن أهم هذه المناسبات - كما مربنا في غير هذا الموضع - قدومه إلى مصر بجيش جرار ساعد به سلطانها أخاه الكامل في سحق الصليبيين بموقعة دمياط ورد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد نغى ابن النيه بذلك طويلا بمثل قوله :

دمياطُ طُورُ ونارُ الحرب موقِدةٌ وأنت موسى وهذا اليومُ مِيقَاتُ
أُتْلِجَتْ صدرُ رسول الله وانكشفتُ عن سَرَحَةِ الدِّينِ والدنيا غَمامَاتُ
اللهُ أَكْرَمُ أَنْ تُسَمَّى مزاميرهم تَتَلَّى وتُنشَى من القرآن آيَاتُ

وهو يستغلُّ اسمه في مديحه ، فيقرنه إلى موسى الرسول ومعجزته في الطور ، ويذكر في القصيدة أن عصاه تلقفت كل ما أفكوا ، ويصور كيف اندسر الصليبيون وتوزعهم المسلمون قتلا وأسرًا وسيًّا ، ومن بق منهم عاد إلى البحر المتوسط وما وراءه بجري لا يماثله خزي .

وبدل ديوان ابن النيه على أنه كان يعيش لدى الأشرف موسى معيشة مبهجة يتمتع فيها بالرياض ومحالِّس الأنس والطرب حتى وفاته بتعيين سنة ٦١٩ . ومع ما كان فيه من هتاء لم

ينس وطنه ، بل ظل يحزن له ، وظل حنينه يترقب في تضاعيف أشعاره كأقوى ما يكون الشعور الصادق لدى المحبين الوالحين ، كقوله مكنياً عن مصر بالعقيق أحد ديان الأراضي المقدسة في المدينة المنورة الذي طالما تغنى به شعراء الصباة والحب المتنازع :

بَابَارِقَا أَذْكَرَ الْحَشَا شَجْتَهُ مَنْزَلْنَا بِالْعَقِيقِ مَنْ سَبَكْتَهُ
وَمَرِيعُ اللّهُوْ بَانِعُ خَفِصْلُ أَمْ غَيْرُ الدَّهْرِ بَعْدَنَا وَجَعْتَهُ (١)
يَا بَرِّقُ هَذَا جَسْمِي بِنُوبِ ضَنَى وَمَسْجَنِي بِالْعَقِيقِ مُرْتَهَنَتَهُ
بَلَّغْ حَدِيثَ الْحَمَى وَسَاكِنَهُ لِمُغْرِمِ أَنْحَلِ الْهَوَى بَلَنَتَهُ
أَشَقَى الْمُحِبِّينَ عَادِمٌ وَطَرَا فَكَيْفَ إِنْ كَانَ عَادِمًا وَطَنَتَهُ
سَقْبًا لِأَيَّامِنَا الْقَى سَلَفَتْ كَانَتْ بِطَبِيبِ الْوَصَالِ مَقَرَّتَهُ
لَوْ بَيَّعَ يَوْمٌ مِنْهَا وَكَيْفَ بِهِ كُنْتُ بِعُمُرِي مُسْتَرَحْصًا ثَمَنَتَهُ

وابن النيه في أول الأبيات يخاطب برقاً أذكره ما يطلع في أحشائه من الشجن أو الأشجان على بعده عن موطنه بوادي النيل ، ويتساءل عن السكان والأجباب وهل لا يزال مريع اللهور والشباب كعهده به يوم فارقه من النضرة والجمال أم غير الدهر بعده الديار وتبدل الحال . ويشكو للبرق ارتهاق مهجته وراحه وتحلفها بمصر وكيف أنه بنوب ضناً وسقياً ونحولاً متمنيا لو يسمع شيئاً بطمته عن الحمى وساكنته . ويقول إن أشق المحبين من عدم الوصال بمحبوبه فكيف بالمحب المفتون الذي عدم الوصال بوطنه ، ويدعو بالسقيا لأيام وصاله الهنيئة الماضية له ، ويتمنى لو حج إلى هذا الوطن المقدس تقديس العقيق أو عاد إليه ، ويقول إنه يقدم حياته كلها راضياً بيوم واحد يقضيه بين ربوعه . وابن النيه بذلك يصور تصويراً رائعا تعلق المصريين في غربتهم بوطنهم وشغفهم به ومدى حنينهم إليه وطمعهم إلى جرعة من نيله في ظلاله وبين رياضه .

وإذا أخذنا نقرأ في ديوان ابن النيه أحسنًا بوضوح أنه يمثل في غزله الروح القاهرية المصرية بكل ما حُرِفَ عنها من العمائة والرقه وخفة الظل لا في موسيقاه وجمال أنغامه فحسب ، بل أيضاً في تصوير مشاعره ووجداناته وعواطفه ، دون أى حجاب من أهداف المحسنات البدئية ، فهو قلماً يستخدمها بل يترك نفسه على طبيعتها ، مما جعل غزله يرتفع إلى مستوى وجداني سام ، دون

(١) غزل : مبتل ندى . اللحن : جمع دنة : آواز

ترداد الأوصاف المادية الحسية للمرأة ، فحسبه أن يصور عاطفته إزاءها في رقة متناهية . وهياً ذلك قدما لئله أن يكثر التغنى به في ديار الجزيرة والموصل وفي الشام ومصر واليمن ^(١) لرقته وورشاته وصفاء موسيقاه ، ومازال المغنون والمغنيات يتغنون بأشعاره ، وتتغنى بها السيدة أم كلثوم وغيرها ، ومن ذلك قوله :

أَفْدِيوْ إِن حَفِظَ الْهَرَى أَوْ ضَيَّعَا مَلَكَ الْفَوَادِ فَمَا عَسَى أَنْ أُضْمَعَ
مَنْ لَمْ يَذُقْ ظَلَمَ الْحَبِيبَ كَظَلَمِي حُلُومًا فَقَدْ جَهِلَ الْحُبَّ وَادْعَى ^(٢)
يَا أَيُّهَا الْوَجْهُ الْجَمِيلُ تَدَارَكَ الْعُشْبُ السَّحِيلُ فَقَدْ وَهَى وَتَضَمَّضَا
هَلْ فِي قَوَادِكُ رَحْمَةٌ لِحَبِيبِي صَمْتُتُ جَوَانِحَهُ فَوَادًا مَوْجَمًا
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ أَنْ أَبْتُ صَبَابَتِي أَوْ أَشْكِي بَلَوَائِي أَوْ أَنْضَرُعَا

وهو يفدى محبوبه بروحه سواء حفظ العهد أو ضيعه فهو لا يملك إزاءه في الحالين إلا أن يزداد تعلقا بحبه وشغفا ، بل إنه ليتقبل ظلمه ويحمده شرابا سائغا ، وإلا حق عليه أنه دعى حب . ويتضرع إليه أن يتداركه ، فإن كل شيء فيه حق بدنه وهن ولم يعد يستطيع احتمالا ، ويسترحه لو هن جسده وأوجاع روحه ، لعله يستطيع أن يشه شيئا من حبه أو من محبته فيه . ولا تقل جلالا وروعة عن هذه الأغنية في أيامنا الأغنية التالية :

أَمَانًا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُطْلُ فَمَنْ جَفَّتْكَ أَسْيَافُ نُسَلِّ
يَزِيدُ جَمَالَ وَجْهِكَ كُلُّ يَوْمٍ وَلِي جَسَدٌ يَذُوبُ وَيَضْمَحِلُ
وَمَا عَرَفَ السَّقَامُ طَرِيقَ جَسِي وَلَكِنْ دَلُّ مِنْ أَهْوَى يَدُلُّ
إِذَا نُشِرَتْ دَوَائِبُهُ عَلَيْهِ تَرَى مَاءَ يَرْفُ عَلَيْهِ ظِلُّ ^(٣)
وَقَدْ يَهْدِي صَبَاحُ الْخَدِّ قَوْمًا بَلْبِلُ الشَّرِّ قَدْ تَاهُوا وَضَلُّوا

وابن النبية يتوسل إلى صاحبه أن لا تسل عليه أسياف جفنيها وأن تبقي عليه فلا تفتك به ، حتى يتمتع بجمال وجهها الذي يزداد ويتضاعف كل يوم ، بينما يذوب بدنه اضمحلالا وتضاؤلا ونحولا . وما عرف السقم يوما طريقا إليه إلا عن طريق حبه لها وهيامه بها ، بينما هي تدل عليه

(٢) العظم يفتح الفاء : ريق الخمر وريقه .

(٣) اللواتب : غفائر الشعر .

(١) انظر كتاب شعر الفناء الصنعالي للدكتور محمد عبيد

خانم (طبع دار الكتاب العربي بيروت) ص ١٧٧ .

وترداد كل يوم دلالة وإعراضا . وماذا يصير؟ إنه لا يصير إلا جهلا فانتا وجسدا ساحرا رقيقا رقة الماء يهتر عليه من الشَّمَر ظل ناضر باهر . ويقول :

يَاسَاكْفِي السَّفْعَ كَمْ عَجَزَ بِكُمْ سَفَعَتْ نَزَحْتُمْ فَهِيَ بَعْدَ الثُّبُدِ قَدْ نَزَحَتْ
لَهْفِي لَطِيفِي أَنْسُو مِنْكُمْ نَفَرْتُ لَا بَلْ هِيَ الشَّمْسُ زَالَتْ بَعْدَ مَا جَتَعَتْ
يَبِضَاءُ حَبِيبُهَا الْوَاشُونَ جِينَ وَشَوَا عَنَى وَلَوْ لَحَتَ صَنِيعَ اللَّجَى لَمَحَتْ
يَقْتَصُّ مِنْ وَجَّتَيْهَا لَحْظُ عَاشِقِهَا إِنْ ضَرَجَتْ قَلْبَهُ بِاللَّحْظِ أَوْ جَرَحَتْ
مَنْ لِي بِسَلْمَى وَفِي أَجْفَانِ مُقْلَتَا لِلْحَرْبِ يَبِضُّ حَدَادُ قَطْ مَا صَفَحَتْ
وَأَسْوَدُ الْحَالِ فِي عَمْرٍ وَجَّتَيْهَا كَمِ سَكَنَةِ نَفَعَتْ فِي جَمْرَةٍ لَفَعَتْ

وفي القطعة جناس بين « السفع وسفحت » بمعنى صبَّ العين الدمع ، وكذلك بين « نزحتم » بمعنى بعدتم و« نزحت » العين بمعنى نفدت دمعها ، وأيضا بين « الواشون » و« وشوا » في البيت الثالث وبين « لمحت » من لمح البصر واختلاسه و« عمت » في آخر البيت من الهو والإزالة ، والبيت الأخير به جناس ناقص بين « نفعت ولفعت » . والجناسات جميعها جناسات خفيفة على اللسان والآذان ، لأن صانعها موسيقى ماهر في قياس الأنغام ، وهو في أول القطعة يشكو لساكفي السفع من كثرة ما سفحت دموعه وسكبت حتى لقد جفت عيناه ، ويقول كأن محبوبته سلمى ظلية نافرة بل لكأنها الشمس مالت إلى الغروب ولو أنها أطلت بطلعتها المضيئة على الليل لمحت ظلته محوا ، ويتخيل كأنما يقتصر بالنظر إلى وجتها من جرحها لقلبه جرحا لا ينمل أبدا . وهي مبالغة مسرفة . ويتمنى لقاء سلمى مع ما قد يصيبه من فتك عينيها الساحرتين ، ويتصور الحال في خدعها الوردى كجثة من المسك تعلقت بجمرة لافحة ، فانتشر منها أربع عطر . ومن غزله الذي يقطر حنا ورقة قوله :

تَعَالَى اللَّهُ مَا أَحْسَنَ شَقِيقًا حَفَّ بِالسُّوسَنِ
خُلُودُ لَنَسْمُهَا يُبْرِى مِنَ الْأَسْقَامِ لَوْ أَمَكْنَ
لَا تُجَنِّسَنِي وَحَارِسُهَا يَقْفُلُ الصَّدْعُ قَدْ زَوَّقَنُ^(١)

(١) زوقن الصلغ : جبل الشمر للصل على المحمود كالخلفة .

أَبْتُ هَوَاهُ مِنْ حَرِّ نَجْمِ اللَّيْلِ لَمَّا جَنُّ
وَكَمْ أَسْكَنْتُهُ قَلْبِي فَسَارَ وَأَحْرَقَ الْمَسْكَنَ

وهو يعلن افتتانه بجمال صاحبه واحمرار خلودها المشبه لورد الشقيق المحفوفة بخصل السوسن من شعرها الذهبي ، ويقول إن لم خلودها يرى السقم ، ولكن من يستطيع أن يصل إليها ؟ إن أحدا لا يمكنه أن يقتطف من خلودها شيئا من زهرات الحب ، فإن وراءها حارس أمين من شعرها لوى على خلودها قتلا كالحلقة ، فلا يستطيع أحد إليها وصولا . وإنه ليبت هواه وما يلوقه من حرارته اللافتة للنجم حين جَنُّ الليل ودجت ظلماته ، معلنا إليه هذا الموى الذى لم يعد يستطيع اكتفائه . ويأسى لنفسه ومصيره ، فكَمْ أَسْكَنَ محبوبته قلبه فعبثت به بل أحرقت وأتت عليه . ومن غزله الرائع :

أَمَّا وَبِأَضْرَ مَبْجُولِ النَّحْيِ	وَصَرَوُ مِسْكَةِ اللَّعْسِ الشَّهْيِ ^(١)
لَقَدْ أَسْقَمْتُ بِالْمَجْرَانِ جِئْنِي	وَأَعْطَشْنِي وَصَالِكُ بَعْدَ رِيٍّ
إِلَى كَمْ أَكْتُمُ الْبَلَوَى وَدَمْعِي	يَبُوحُ بِمُفَسِّرِ السَّرِّ الْحَقِيٍّ
وَكَمْ أَشْكُو لِلْأَهِيَةِ غَرَامِي	فَوَيْلُ لِلشَّجِيِّ مِنَ الْحَلِيِّ
تَفَارِزِي وَتَزَوِي حَاجِبِيَا	كَمَا انْبَرَتْ السَّهَامُ عَنِ الْقَيْسِ
وَتَخْتَفِ الصَّفُوفَ بَرِيْقِي فِيهَا	وَهَلْ يَخْفَى شَدَى الْمَلِكِ الشَّدِيِّ
يَذُودُ شَبَا الْقَنَا عَنْ وَجَّتَيْهَا	كَمَنْعِ الشُّوْلُو لِلْوَرْدِ الْجَنِيِّ ^(٢)
إِذَا مَا رُمْتُ أَقْطَعُهُ بِعَيْنِي	تَقُولُ حَذَارٍ مِنْ مَرْعَى وَيَسِيٍّ ^(٣)

وابن النيه يُقَسِّمُ لهويته بمسما الفانز وسمة شفاهاها اللعس أنها أسقمت جسمه بهجرانها بعد الوصال وبما أصابته به من ظمأ بعد ريٍّ ، ويقول إلى كَمْ أَكْتُمُ محق في الحب ودمعى يوبح بسرِّى وإلى كَمْ أَشْكُو للآهية عني ، وصدق المثل القديم : ويل للشجي من الحلى . ويُعْجَبُ أنها تغارله أو تمدله أسباب الغزل ، بينما تقطَّبُ حاجبيها وتزوى ما بينها ، ويلتمس لها عذرا ، فكأن حاجبيها قوسان يرسلان السهام ، ولا بد لها كالقوس ووترها من الشد والجذب في أثناء الرمي

(١) اللعس : سواد النخلة .

(٢) الشوْلُو : حد الراح .

(٣) مَرْعَى : حد الراح .

بالسهام والنبال ، ويقول إن شذاريقها كشفا المسك وأريجها يعلن عنها من بعيد . ويتحدث الشعراء كثيرا عن السيوف والرماح المسلولة من الميرون على الناظرين للجمال المصون ، ويرسم ابن النيه من ذلك صورة رائعة ، فميرون صاحبها بما يحجبها من الرماح تنود عن وجبتها الفاتنتين كما ينود الشوك عن الورد حين تمتد يد لاجتائنه أو اقتطافه ، ويقول إنه حتى حين يريد أن يقتطف بعينه لا يشفتيه شيئا من ورد وجبتها تقول له حذار من مرعى ونخم العواقب .

وكل هذا غزل وجداني يموج باللهفة والظلمة واللوعة الملتبة التي لا سبيل إلى إطفائها في قلب الحب الولهان ، وهو دائما يستعطف ويتوسل ويتضرع ، ولا يجب حتى بنظرة أوكا يقول باقتطاف نظرة إلى الوجه الفاتن . وقد تراءت لنا صور من هذا الغزل الوجداني الصافي المتنازع عند ظافر الحداد والمهذب بن الزبير وابن سناء الملك غير أنه تكامل عند ابن النيه في هذه الصورة الرائعة التي تلحظ من المتاع الحسى والتي يسيل فيها الشرقة وعذوبة وسلاسة . وما أشك في أن الحاجري شاعر الموصل استلهم في غزله الوجداني الذي تحدثت عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة لتاريخ الأدب العربي هذا الغزل الوجداني لابن النيه نزيل دياره حين كان الحاجري لا يزال شابا في نحو الخامسة عشرة من عمره ، وتلاه التلعفري الموصل الذي تحدثنا عن غزله الوجداني المتنازع يستضيء فيه بابن النيه أيضا ، ولاحظ ذلك صاحب فوات الوفيات ، فقال في ترجمته إن قصيدة التلعفري التي أنشد منها قطعة في ترجمته بالكتاب المشار إليه والتي يستلها بقوله :
أَيَّ دَمْعٍ مِنَ الْجَفُونِ أَسْأَلُ إِذْ أَتَتْهُ مَعَ النَّسِيمِ رِسَالَةٌ
إنما نظمها معارضة ومحاكاة لقصيدة ابن النيه :

بَدْرٌ تَمُّ لَه مِنْ الشَّرِّ هَالَةٌ مِنْ رَأَى مِنْ الْهَبِينِ هَالَةٌ^(١)

فهى من نفس الوزن والروى ، بل المحاكاة عند التلعفري لابن النيه أوسع من هذا ، إذ هى محاكاة لغزله الوجداني الرابع لافى أساليه السلسة السائغة فحسب ، بل أيضا في مضمونه المليء بالأسى المبرح والوجد الملتب ، مع الرقة والدعائية واللفظ وخفة الروح . وسقطت القيثارة من يد ابن النيه بوفاته وكانت مصر قد أنجبت البهاء زهير ، وإذا هو يستخرج من قيثارته نغما رائعا لهذا الغزل الوجداني على نحو ما سنرى عما قليل ، وهو نغم يبلغ به اللروة التي كانت مأمولة لهذه الصبابة

(١) حالة الأول : دارة القمر . وحاله الثانية : من هاله

الهي . إذا أصبه وروحه .

الوجدانية ، وإذا كان شر هذا النعم قد تطاير عن طريق ابن النيه إلى الموصل فإنه تطاير عن طريقه وطريق البهاء زهير إلى الشام وإلى بيتات عربية مختلفة .

البهاء^(١) زهير

هو بهاء الدين زهير بن محمد ، انتهى نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة القائد المشهور في العراق وإيران زمن بنى أمية ، ولد لأبويه المصريين في وادي نخلة بالقرب من مكة في أثناء حَجَّهَا خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ . وكان أبوه رجلا صالحا يشهد بذلك وصفه على نسخة خطية من الديوان بدار الكتب المصرية بأنه : « العارف محمد قدس الله روحه »^(٢) وقد تؤذن كلمة العارف بأنه كان صوفيا أو على صلة بالصوفية والتصوف ، ويبدو أنه أقام مع ابنه وزوجه في مكة ناسكا بضع سنوات ، إذ يشير البهاء في بعض أشعاره إلى ذكريات له فيها أيام طفولته ، بمثل قوله :

تذكرتُ عهدًا بالمُحْصَبِ من مَنَى ومادونه من أَبْطَحِ وَحَجُونِ^(٣)
منازلُ كانتُ لي بين منازلُ وكان الصَّبَا إلى بها وقرى

وعاد العارف محمد بزوجه وابنه إلى بلدته بالصعيد : قوص ، وكانت حينئذ عاصمة الصعيد وياب المسافرين من مصر والمغرب والأندلس في البحر الأحمر من سواكن وعيذاب إلى الحجاز ، وكانت بها حركة تجارية واسعة ونهضة علمية وأدبية ناشطة ، وهي منشأ البهاء ومرباه ، فيها تلقن العلم والأدب والشعر . وتعرف في أثناء ذلك على خِذْنِه ورفيقه ابن مطروح ، وانعقدت بينهما صداقة حتى المات . وفي ديوانه قصيدة قصيرة مدح بها الملك المنصور حفيد صلاح الدين وكان قد ولي شئون مصر بعد أبيه العزيز فترة قصيرة سنة ٥٩٥ وأغلب الظن أنه أرسل بها إليه من قوص وهو لا يزال في الرابعة عشرة مما يدل على أن ملكة الشعرية تفتحت في سن مبكرة .

وينشد ابن خلكان له أبياتا من قصيدة مدح بها جَلْدُك التَّقْوَى وإلى دمياط سنة ٦٠٥ وأكبر الظن أنه أرسل أيضا بها إليه من قوص . ونراه في سنة ٦٠٧ يقدم مدحه لوالى بلدته قوص : مجد

(١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان

٣٣٢/٢ والنجوم الزاهرة ٦٢/٧ وحسن المفاخرة ٥٦٧/١ ،

٢٣٣/٢ وشفرات الذهب ٢٧٦/٥ . والبهاء زهير :

بحث بقلم الشيخ مصطفى عبدالرازق . وقد طبع ديوانه بكمبريدج سنة ١٨٧٦ بتحقيق يلرم مع مقالة وتعليقات ،

وطبع في القاهرة مرارا وفي بيروت .

(٢) انظر في ذلك البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرزاق

ص ٥ .

(٣) المحصب : موضع رمى الجمار بمنى . والأبطح :

أبطح مكة وهو واديا . والحجون : جبل بها .

الدين إسماعيل النمطي بيته فيها بولايته على أعمالها ، وأعجب به اللطفي فاتخذته كاتباً له ، وظل يعمل معه نحو عشر سنوات ، ثم أخذت العلاقة تفرق بينهما ، ويبدو من استعطافاته له في بعض أشعاره أنه عزله من منصبه فهاجر من بلدته إلى القاهرة . ويظن بعض الباحثين أن هذه الهجرة حدثت في سنة ٦١٩ وفي رأينا أنها تسبق هذا التاريخ بسنة أو أكثر إذ نراه يهني السلطان الكامل الأيوبي في انتصاره العظيم سنة ٦١٨ على الصليبيين وطردهم من دمياط أو طرد ظوهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . ويأخذ في دعم صلته بأبناء السلطان الكامل منذ هذا التاريخ ، وبمحاول الاتصال بابنه الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم إلى القاهرة سنة ٦٢١ ويقدم له مدحتين ، ويغض على قلب أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ويلحقه بخدمته ، ويلييه مثلاً فيه قصيدة بديعة يقول فيها :

لَبِّكَ يَا مَنْ لَا مَرَدَّ لِأَمْرِهِ وَإِذَا دَعَا الْعَبْدُ لَا يَتَعَوَّقُ^(١)
الصَّالِحُ الْمَلِكُ الَّذِي لَزَمَانِهِ حَسُنَ يَنْتَهُ بِهِ الزَّمَانُ وَرَوَّقُ
سَجَدْتُ لَهُ حَتَّى الْعَبْدُ مَهَابَةً أَوْ مَا تَرَاهَا حِينَ يُقْبَلُ تَطَرَّقُ

ويصحبه معه حين أصبح في سنة ٦٢٩ نائباً عن أبيه في حكم بعض البلدان الشرقية في نواحي القرات . وعاش البهاء مع الملك الصالح في رغد ، بنم بالحياة وسناً بها . ويتنقل معه في بلدان إمارته ، غير أنه لم ينس موطنه ، فقد ظل يذكره وظل لا ينسى أباه فيه وأصدقائه ، ولا ينسى - نيله الغنى ورياضه ومراكبه المصعدات المنحدرات ، ويتلهف على العودة إلى واديه والجلجلى بجباله واكتحال عينيه بحسنه وبساكنيه وكل ما فيه ، بمثل قوله :

سَقَى وَادِيًا بَيْنَ الْغَرِيشِ وَرَقَّةٍ مِنْ الْقَيْثِ هَطَالُ الشَّائِبِ هَتَانُ^(٢)
بِلَادُ إِذَا مَا جَسَّتْهَا جَسَتْ جَنَّةٌ لَعِينِكَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ رِضْوَانُ
تَمَثَّلَ لِي الْأَشَوَاقُ أَنَّ تُرَابَهَا وَحَصْبَاهَا مَيْلُكَ يَفْجُحُ وَعِجْبَانُ^(٣)
فِيَا سَاكِنِي مِصْرَ تُرَاكِمِ عَلَمُكُمْ بَأْنَى مَا لِي عَنْكُمْ الدَّهْرُ سُلُوكُ
عِسى اللَّهُ يَطْوِي شَفَقَةَ الْبَعْدِ يَتَنَا فَتَهْدَأُ أَحْشَاءُ وَتَرْقَأُ أَجْفَانُ

كثير للطر .

(١) العبد : نجم في طرف الهجرة بطو القرى .

(٢) الشَّائِب : حساناً . الضَّيَان : النصب الخالص .

(٣) الشَّائِب : جمع شُرُوب وهو دعة للطر ، وهتان :

فهو يدعو للوادی من شرقه إلى غربه أن يظل يسقيه من الفيث هطال مدرار ، ويتصور الوادی جميعه فردوسا لا يشبه فردوس وثرابه وحصابه مسكا وذها خالصا . وهو لا يسلو أهله ولا ينسأهم أبدا ويتنحى لو قصرت المسافة وعاد إلى موطنه ينظر ما شاهده ، حتى تحف دموعه المنهله ، وتهدأ أحشأؤه الموجعة .

ويستولى الملك الصالح في سنة ٦٣٦ على دمشق فيتحول معه إليها ويتملى بغوطتها ورياضها ، ولا يلبث الملك الصالح أن يفكر في الاستيلاء على أملاك داود ابن عمه صاحب الكرك في جنوى الأردن ويترل نابلس ، غير أن مؤامرت تحاك له ، ويُعتَقَلُ بسببها عند ابن عمه داود في الكرك ، ويظل البهاء زهير بنابلس حافظا لعهد . وترد إليه حريته ، وينتجه إلى مصر فيستولى من أخيه الصغير العادل على مقاليد الحكم بها سنة ٦٣٧ ويولى البهاء زهير ديوان الإنشاء ، والبهاء بكاد يطير فرحا برجوعه إلى موطنه وتعظم منزلته عند الملك الصالح ويصبح مستشاره الأعلى وأمين سره ، وكان خيرا نبیلا ففنع - كما يقول ابن خلکان - خلقا كثيرا بحسن وساطته عنده وجميل سفارته . ومن حين إلى حين كان يرحل مع الملك الصالح إلى دمشق ، وفي آخر رحلة لها هناك جاءها خبر الحملة الصليبية على ديباط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وتصادف أن كان الملك الصالح مريضا ، فصمم على منازلة لويس وجيشه في أقرب فرصة ، وحمل من هناك في محفة حتى نزل بطناح بالقرب من المنصورة في شهر المحرم سنة ٦٤٧ ومضى يستعد للقاء الصليبيين وهو يحاهد المرض جهادا عنيفا حتى شهر شعبان إذ لبى نداء ربه . وقيل وفاته بقليل عزل البهاء زهير من منصبه ، ويذكر المؤرخون أن ذلك كان بسبب تقصيره في الالتفات إلى إشارة كان قد كتبها الملك الصالح على كتاب كان مرسل لابن عمه داود صاحب الكرك ، مما أغضب الملك الصالح . ونظن أنه رجع ذلك السهو إلى تقدمه في السن ، فأعفاه من منصبه وأسنده إلى نائبه فخر الدين ابن لقان . ويقال إنه حاول بعد وفاة الملك الصالح إعادته إلى منصبه ، وكأنما عز ذلك على البهاء فلم يقبل تقلده ، وقبل : قَبْلَهُ فترة ثم استغنى منه . وفي ديوانه مداخل مختلفة أرسل بها إلى الناصر الأيوبي حين استولى على دمشق ، وأكبر الظن أنه أرسل بها إليه انتظارا لبعض رفقته ، ولزم يته نحو ثمان سنوات حرف فيها شظف العيش بعد رَغَدِهِ ومَرَهُ بعد حُلُوهِ إلى أن فارق دنياه سنة ٦٥٦ في وباء حدث بالفسطاط والقاهرة .

ويدل شعر البهاء على أنه كان صاحب نفس كريمة كبيرة ، ويقول ابن خلکان في ترجمته :
و كنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمع عنه فلما اجتمعت به رأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم

الأخلاق ودمانة السجابا . وما مر من حديثنا عنه يدل على أن حياته ظلت ، حتى أعفاه الملك الصالح من منعبه وهو في نحو السابعة والستين من عمره ، حياة سهلة ليس فيها حرمان ولا شيء من يؤس ، بل فيها غير قليل من النعم ، وفي شعره وصف كثير لجالس أنس مع الرفاق والأصدقاء ، وفيه ما يدل أيضا على شغفه بالطبيعة ومجالها الفاتنة . وله مراسلات شعرية رقيقة مع ابن مطروح خلدن صباه وشبابه في قومس . وشعره يكتظ بالمرح والتفاؤل والدعوة إلى الفرحة بمنح الحياة وطرح الموم عن عائق الإنسان ، يقول :

أيها الحاملُ هَما إن هذا لا يدمُ
مثل ما تَفنى المسرا ت كذا تَفنى المومُ

والغزل هو الموضوع الأساسي في ديوانه ، وهو غزل وجداني من نفس المعين الذي كان يستمد منه ابن النبية ، بل ربما كان يتقدم خطوة أو خطوات نحو السهولة ، مما جعل ابن خلكان يقول : « شعره كله لطيف ، وهو - كما يقال - السهل الممتنع » . وليس كل ما يلاحظ عليه السهولة فحسب ، فهو يتميز فيه حتى من ابن النبية بالأوزان القصيرة والمجزوءة . وهو مثله يتغنى بالحب وتباريمه في تلتق وانطلاق ، وقلما نجد عندهما معا رواصب تصويرية من تقليد القدماء ، وما يجيء من ذلك يُقرض عرضا جديدا ، وأيضا ما يجيء أحيانا من جناس وغير جناس من المحسنات البديعية يجيء في خفة ورشاقة . فالشعر - وخاصة الغزل - ليس محسنات ولا تصاوير محفوظة مما يتردد على الألسنة ، وإنما هو مشاعر وانفعالات وعواطف . وقد يكون ذلك غريبا على أذواق الباحثين الذين ظلوا يرددوا أنه لم يبق عند الشعراء منذ أيام الدولة الأيوبية سوى الأخيلة والتصاوير المتجمدة ، وسوى المحسنات البديعية التي استحالَت إلى أصداف ينقصها البريق واللمعان .

وينبغي أن لا يجعل ذلك خاصة فريدة من خصائص البهاء زهير وحده ، فهذا الغزل الوجداني لم يكن خاصا بالبهاء زهير ، فقد كان يُشركه فيه - كما أسلفنا - ابن النبية وأيضا ابن سناء الملك ، وله مقدمات قديمة مجدها عند المهذب بن الزبير وظافر الحداد . ولا ريب في أنه لطبيعة مصر السهلة وطبيعة نبلها العذب السُّس أثر كبير في ذلك ، فعل نحو ما يجتد الوادي في مصر سهلا لا تنوء فيه ، كذلك شعره وشعر أصحابه تمتد لغته سهلة دون أي صعوبات ، وعلى نحو ما يجري النيل مترقا متدقا كذلك شعره وشعر أصحابه يسيل عذبا سائغا شرابا . وكما أن الوادي ينطوى على السهولة كذلك النفس المصرية نفس سهلة لطيفة لا تخشونة فيها ، نفسُ

طُبعت على اللين والرقّة والدماثة ، مما انعكست آثاره عند ابن سناء الملك وابن النيه . ومن الحق أن البهاء زهير كأنما خُلِق ليبلغ بتصوير هذه النفس كل ما يسمها من عنوبة وخفة ظل ورشاقة .

ورعما كان من أسباب اندلاع هذا الغزل الوجداني على لسان البهاء زهير ما أشرنا إليه في صدر حديثنا عنه من أن أباه كان صوفياً أو على صلة بالتصوف والصوفية مما جعله يحفظ مبكراً - وتطور على لسانه - أشعارهم المليئة بالوجد الإلهي وتبارحه ، وانطبع هذا الوجد في نفسه وبثّه في حبه . وجعل اختلاطه بهذه البيئة يُعمّق هذا الوجد وأشواقه بأكثر مما عمقه في نفوس الشعراء من حوله ، وإن كنا نستقي بصفة عامة أثر هذا الوجد الصوفي في غزلهم جميعاً ، مما دفع بقوة لظهور هذا الغزل الوجداني الصادق . ومعروف أن صوفية مصر من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض ممن استحدث عنهم في غير هذا الموضع بثوا في أشعارهم وجدلاً لا ضفاف له ، وكأن البهاء زهير استمد جنوة من هذا الوجد المبرّح نشر شررها في غزله . وكثيراً ما نعرّ عنه على أبيات تصور تأثيره بالصوفية كقوله في بعض غزله :

أنا في الحقيقة أنتم هذا اعتقادي فيكم

ولو أننا لم نعرف أن البيت له وسُئلنا لمن هذا البيت لقلنا إنه لأحد الصوفية يعبر فيه عن مبدأ الاتحاد المعروف عندهم : اتحاد الحب بالحبوب . ومن ذلك قوله :

يا مَنْ إليك المشتكى أنت المعلم بحالبي

وكانه متصوف يخاطب الذات العلية ضارعا مستعطفاً ، وهو إنما يخاطب صاحبه التي دلت نار الحب في قوّاده . وهذا الجانب من غزل البهاء زهير جعل بعض قصائده تلتبس عند الأسلاف بقصائد ابن الفارض ، من ذلك رائيته المشهورة التي يقول فيها :

غبري على السلوان قدير	وسوائى في العشاق غابر
أشكو وأشكر فعله	فأعجب لثاؤك منه شاكِر
لا تنكروا خَفَقان قلْد	حي والحبيب لدى حاضِر
ما القلب إلا داره	خُربت له فيها البائِز
باليل طُلّ ياشوق دُم	إني على الحالين صابر
لي فيك أجر مجاهد	إن صبح أن الليل كافر

والقصيدة في ديوان البهاء زهير، وهي أيضا في ديوان معاصره ابن الفارض المتصوف المشهور، وفي رأئي أن الالتباس الذي جعل الرواة يظنون أن القصيدة لابن الفارض جاءهم من أنها تحمل فكرة الغيبة والحضور التي يرددها كثيرا ابن الفارض في غزله الرباني، على نحو ما يلاحظ في البيت الثالث، وإن اختلف المترعان في الفكرة، وبالمثل البيت الرابع فقد يشير من طرف خفي كسابقه إلى فكرة الاتحاد بالمحبوب. وفي البيتين: الأول والثاني جناسات ناقصة وفي البيت الأخير تورية بالكفر بمعنى الشرك بالله والمراد السر. على كل حال يلفتنا الالتباس بين شعر البهاء زهير وابن الفارض إلى ما قلناه من أن أصداؤه من الوجد الصوفي انعكست في شعر البهاء زهير. ويبدو أن انعكاسها بدأ مبكرا، إذ نراها واضحة في غزل قصيدة يمدح بها مجد الدين اللطفي إذ يقول:

لما خَفَّرَ يَوْمَ اللِّقَاءِ خَضِيرُهَا لَمَّا بِالْهِيَائِ صَنَّتْ بِمَا لَا يَضِيرُهَا^(١)
أَعَادَتْهَا أَنْ لَا يُعَادَ مَرِيضُهَا وَسِيرَتُهَا أَنْ لَا يُفَكُّ أَسِيرُهَا
وَمَا أَنَذَا كَالطَّيْفِ فِيهَا صَابَةً لَعَلَّ إِذَا نَامَتْ بَلِيلُ أَزُورُهَا
مِنَ الْغَيْدِ لَمْ تَوَقَدْ مَعَ اللَّيْلِ نَارُهَا وَلَكِنَّهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ تُشِيرُهَا
بِقَاضِي غَرِيمِ الشُّوقِ مَنَى حُشَاةً مَرْوَعَةً لَمْ يَسْقَ إِلَّا يَسِيرُهَا

والصور في القطعة دقيقة فَخَّرَ صاحبه أو خجلها وحياؤها بحرستها يوم لقائه، فلماذا تبخل عليه بما لا يضيرها؟ وهل من عاداتها أن لا تعود مريضها ومن سيرتها أن لا تفك قيود أسيرها؟. وهو تضرع وتوسل لطيف. ويقول إنه أصبح كالطيف شبحا متضائلا انجبالا. ويتسع به الخيال فيتمنى لو أصبح طيفا حقا وزارها في المنام وتضاعف الأحلام. وهي صورة طريفة من مبتكرات خياله. ويقول إنها لم توقد نارها ليلاكامة الناس اكتفاء بإيقادها بين ضلوعه وجوانحه. ويقول إنه لم يبق منه إلا بقية روح مروعة من حبا مفرعة. وفي القطعة جناسات وتساوير لا نحس فيها بتكلف، بل نحس كأنها جوهر الأبيات ومعانيها. ووراء هذه القطعة قطع وقصائد كثيرة تسيل رقة وخفة وعلوبة، مع مسها للقلب بما يودعها من كلمات تشيع حق أيامنا في اللغة البومبة الدارجة من مثل قوله:

تَعْمِيْنُ أَنْتَ وَتَبْقَى أَنَا الَّذِي مَتَّ عِشْقَا
حَاشَاكَ يَا نُوْرَ عَيْنِي تَلَقَى الَّذِي أَنَا أَلْقَى
وَلَمْ أَجِدْ بَيْنَ مَوْنِي وَبَيْنَ هَجْرِكَ فَرَقَا
بِأَنْتُمْ النَّاسُ بِالْأَمْرِ إِلَى مَنِي فَبِكَ أَشَقُ
لَمْ يَبْقَ مَنِي إِلَّا بِقِيَّةٍ لَيْسَ تَبْقَى
قَدْ كَانَ مَا كَانَ مَنِي (وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْقَى)

والقطعة تنبض بالسهولة والبساطة والرقّة واللفظ مع جمال الجرس واتساق الكلمات ، ومع ما بداخلها من ألفاظ اللغة اليومية مثل : « مت عشقا » و « يا نور عيني » و « قد كان ما كان مني » وأيضا مع ما بداخلها من الاقتباس القرآني في الشطر الأخير .

وكان الشعراء المصريون في زمنه وقبل زمنه يستظهرون بعض كلمات الحياة العاملة أو اليومية ، ولكنه توسع فيها وأكثر منها كثرة مفرطة ، وهي كثرة تجعل غزله يمس أوتار القلوب والأفئدة ، ومن طريف غزله :

مَنْ الْيَوْمَ تَعَارَفْنَا وَنَطْوِي مَا جَرَى مَنَا
وَلَا كَانَ وَلَا صَارَ وَلَا قُلُتُمْ وَلَا قُلْنَا
وَأَنْ كَانَ وَلَا بُدَّ مِنْ الْعَتَبِ فَبِالْحَقِ
فَقَدْ قِيلَ لَنَا عَنْكُمْ كَمَا قِيلَ لَكُمْ عَنَّا
وَمَا أَحْسَنَ أَنْ نَرْجِعَ لِلْمَوْضَلِ كَمَا كُنَّا

والقطعة كلها من اللغة الدارجة ، وقد عرف كيف يلتقط منها هذه الكلمات والعبارات الفصيحة ، وكأنها لا تفصل من لغتنا اليومية ، بل تفصل من القلوب والأفئدة . والقطعة عتاب ولكنه عتاب مملوء لطفا وظرفا وتسامحا ورقّة ودعائه ، ودالما تجرّى في غزله هذه الرقّة الحلوة التي تشبه ماء النيل العذب الصافي والتي تجعل القلوب تتعلق بغزله من مثل قوله :

قَصِّرُوا مَدَّةَ الْجَفَا طَوَّلَ اللَّهُ عُمْرَكُمْ
شَسْرَفُونِي بِزُورَةٍ شَرَفَ اللَّهُ قُدْرَكُمْ
قَدْ صَبَرْتُمْ وَلَيْتَنِي كُنْتُ أُعْطِيتُ صَبْرَكُمْ

لو رأيتم عملكم من فزادى لسكرم
لو وصلتكم عبكم ما الذى كان ضرركم

والقطعة خفيفة خفة شديدة ، والدعاة ان فى البيت : الأول والثانى من الأدعية المتداولة على ألسنة المصريين فى لغتهم اليومية ، وإنه ليتفرع لصاحبه مظهرًا لها ما يحتمله من الصبر وجهده .
لعلها تتفق عليه وتخلصه من عذاب المجر والحرام . وهو لا يتخرج من إعلان تذلل فى الحب .
بل من إعلان عبادته لمحبوبته ، يقول :

سأشكر حبًا زان فيك عبادى وإن كان فيه ذلة ونشوع
أصلى وعندى للعبادة رقة فكل صلاتى فى هوالك خشوع

فغزله فيها ليس شعرا فحسب ، بل هو أيضا صلاة وترايل يقدمها لمن شغفت قلبه حبًا ، بل عبادة ونشوع ودين ، يتعب لها كما يتعب الوثنيون للوثن ، ويأسى لنفسه ولهذا الحب الذى فتن به ، بل الذى عبث به حتى جعله يعبد محبوبته ، يقول :

ل حبيب عبدته ونع من يعبد الوثن

وكانه يريد أن يسترجع نفسه من عراب هذا الحب ، ولكنه لم يسترجعها أبدا ، فقد ظل يشتد ترايل غزله الوجدانى البديع .

وكان البهاء زهير يعرف فى وضوح ما ينشئ من هذا الغزل الرائع ، يدل على ذلك ما رواه الحموى فى خزانته من حوار^(١) له مع ابن سعيد الأندلسى حين أطلعته على كتاب المغرب ورأى الأندلسيين يكتفون فى الغزل من أهداف التشبهات والاستعارات فإنه قال له إن لنا فى الغزل طريقا آخر سماه الطريق الغرامى يقصد هذا الغزل الوجدانى . ثم لقيه مرة أخرى وأنشده : « يا بان وادى الأجرع » وقال له : أنشئنى أن تكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلا وأنشد : « سقيت غيث الأدمع ، فقال البهاء : والله حسن لكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول : « هل ملئت من طربى معى » . وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على إحكام البهاء للغة الغزل الوجدانى ومعانيه فى عصره ، وهو ما جعل معاصريه فى الديار الشرقية على شواطئ الفرات وفى دمشق والشام وفى القاهرة ومصر يشغفون بديوانه ويروونه ، ويشهد بذلك ابن خلكان إذ يقول عنه :

« أجازني رواية ديوانه وهو كبير الوجود بأيدي الناس ». وما يدل على ذلك من بعض الوجوه ما جاء في طبعة المستشرق پلمر لديوان البهاء من أنه اعتمد في تحقيقه للديوان على مخطوطة بمكتبة أكسفورد كتبها شرف الدين بن الحلوى الشاعر الموصل الأصل الدمشقي الدار والمولد . ونص ابن خلكان في ترجمة البهاء زهير على أن هذا الشاعر لقيه ومدحه بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان ، وطبعا طلب إليه أن يميزه رواية الديوان فأجازه له . وأنشد ابن تغري بردي لابن الحلوى قصيدة^(١) في نهاية الرقة ، ينضح فيها تأثره بالبهاء وفيها يقول :

هَلَالٌ وَلَكِنْ أَفْقُ قَلْبِي مَحَلُّهُ غَزَالٌ وَلَكِنْ سَفْحُ عَيْنِي عَقِيقُهُ^(٢)
عَلَى خَدِّهِ جَرٌّ مِنَ الْحَسَنِ مُضَرَّمٌ يُشَبُّ وَلَكِنْ فِي قَوَادِي حَرِيقُهُ

وشاع هذا النزل الوجداني في الشام وغير الشام ، وبدون ريب لمصر وشعرائها ابن سناء الملك وابن النيه والبهاء زهير فضل شيوخه وذيوخه بعدهم في مصر والبلدان العربية .

ابن^(٣) مطروح

هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح ، ولد بأسبوط سنة ٥٩٢ هـ ونشأ وأقام بقوص دار العلم والأدب والشعر حينذاك ، واختلف إلى ما بها من حلقات العلماء والأدباء ، وفيها تعرّف على البهاء زهير وكان يكبره بنحو عشر سنوات . وأعجب به البهاء ، فاتخذة رفيقا وصديقا ، واستمع إلى أشعاره وملكته الشعرية تتفتح فكان يشجعه . ويبدو أنه حين عُيِّن حاكم قوص مجد الدين اللمطي الياء كاتباله ، كما مرّ بنا في ترجمته ، سعى لديه لبسند عملا إلى صديقه ابن مطروح ، يدل على ذلك ما في ديوانه من مدائح موجهة لمجد الدين ، وأكبر الظن أنه حين سخط مجد الدين على البهاء وأعفاه من منصبه سخط بالمثل على ابن مطروح وأعفاه من عمله . وحاول أن يستل من نفسه سخطه عليه ، كما تشهد بذلك قصيدة يستعطفه بها استلها بقوله :

لَكَ اللَّهُ إِنَّ الْعَفْوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَمِثْلُكَ أَوْلَى مِثْلِي الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ

(١) النجوم الزاهرة ٦٠/٧ .

٢٨٥/٦ ومرآة الجنان ١١٩/٤ وشذرات الذهب ٢٤٧/٥

والنجوم الزاهرة ٣٧٠/٦ ، ٢٧/٧ وحسن الحاضرة

٥٦٧/١ . وديوانه طبع قديما في القسطنطينية سنة

١٢٩٨ هـ وهو في حاجة إلى نشرة محققة .

(٢) الطيق : اسم ودان ومواضع متصلة في اللدنية

ومجد .

(٣) انظر في ترجمة ابن مطروح وأشعاره ابن خلكان

ولم يجد الصديقان بدءاً من ترك قوص والاتجاه إلى القاهرة ، ومُرت بنا مدحة رائدة للبهاء مدح بها السلطان الكامل عقب انتصاره الحاسم على الصليبيين سنة ٦١٨ وبالمثل نجد ابن مطروح بمدح الكامل منوها بهذا الانتصار بمثل قوله :

بَانَاصِرَ الدِّينِ الْحَنِيفِ بِسَيْفِهِ وَمِثْلُ أَهْلِ الشُّرْكِ وَالطُّغْيَانِ

وقد يدل ذلك على هجرة الصديقين معا إلى القاهرة في تلك السنة إن لم يكن قبلها ، وكما اتجه البهاء إلى أبناء الملك الكامل بمدحهم وفي مقدمتهم الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم منها إلى القاهرة سنة ٦٢١ كذلك مدحه ابن مطروح ، ومدح أيضا عمه الأشرف موسى بمدح ابن النبيه ، وله مدائح مختلفة في أمراء بني أيوب . ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه تنقلت به الأحوال في الخدم والولايات ، ولا تعرف بالقبض ما هي هذه الخدم والولايات التي عمل بها . ومُرُّنا أن البهاء زهير وثق صلته بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، ونرى ابن مطروح يلتحق بخدمته ، ولا ندرى أي الصديقين قدم صاحبه إليه ، ويذكر ابن خلكان أن ابن مطروح كان في خدمة الملك الصالح حين أصبح نائباً لأبيه للملك الكامل على البلاد الشرقية : الزُّهَّا والرُّقَّة وغيرها في سنة ٦٢٩ وظل معه هناك حتى إذا استولى الملك الصالح على مقاليد الأمور بالقاهرة سنة ٦٣٧ استبقاه في دمشق فترة ثم استقله إليه سنة ٦٣٩ وعينه ناظراً في الخزانة ، ولم يزل ينم بقربه وحفظونه منه حتى سنة ٦٤٣ إذ عُيِّنَ وزيراً له في دمشق بدير شئونها ، فارتفعت منزلته . وقدم عليه الملك الصالح في سنة ٦٤٦ ولم تعجبه بعض تصرفاته فعزله من منصبه وسُيِّرَ مع جيش للاستيلاء على حمص . وسمع بمحلة لويس التاسع ومن انضموا إليه من حملة الصليب وأنهم اجتمعوا بجزيرة قبرس لقصد مصر ، فسحب جيشه المحاصر لحمص وعاد به إلى مصر في شهر المحرم سنة ٦٤٧ ونُجِّمَ به على المنصورة وابن مطروح في خدمته وهو متغير عليه متكره إلى أن توفي في شعبان سنة ٦٤٧ وقاد ابنه توران شاه المعركة ، ودمر الحملة الصليبية ، وأسر لويس التاسع وسُجِّنَ بدار ابن لقمان بالمنصورة والطواشي صيحب يحرسه إلى أن فدى نفسه بأربعائة ألف دينار وعاد مهزوماً مدحوراً مع ظول جيشه الصليبي إلى البحر المتوسط وما وراءه . وأغلب الظن أن ابن مطروح لم يحضر المعركة فقد عاد بعد وفاة الملك الصالح إلى داره بالفسطاط وانقطع إليها ، وشاع أن لويس التاسع بعد حملة ثانية لمصر فكذب إليه قصيدته البديعة :

قُلْ لِلْعَزِيزِ إِذَا جِئْتُهُ مَقَالَ صَبْرٍ مِنْ قَوْلٍ نَعِيجٍ

آجَرَكَ اللهُ عَلَى مَا جَرَى مِنْ قَتْلِ عِبَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
 أَنْبَتَ مَصْرًا تَبْنَعِي مُلْكَهَا مُحِبُّ أَنْ الزُّمَرِ - بِاطْلَلْ - رِيحُ
 فَسَاقَكَ الْحَيْنُ إِلَى أَذْقَمِ ضَاقَ بِهِ عَنْ نَظَرِكَ الْفَسِيحِ^(١)
 وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ بِحَسَنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنُ الْفُصْرِيحِ
 خَمْسُونَ أَلْفًا لَا تَرَى مِنْهُمْ إِلَّا قَتِيلًا أَوْ أَسِيرًا جَرِيحُ
 وَقَفَقَكَ اللهُ لَأَمْنًا لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحُ
 وَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَنْصَرُوا عَوْدَةً لِأَخَذِ نَارٍ أَوْ لِقَصْدِ صَحِيحِ
 دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا وَالْقَبْدُ بَاقٍ وَالْعَوَاشِي صَيِّحُ

ويعلق ابن نفري بردى على القصيدة بقوله : هـ لله ذرّه ! فيها أجاب عن المسلمين مع اللطف
 والبالغة وحسن التركيب هـ. والقصيدة تمتلئ بالسخرية والتهكم ، فقد ظن لويس ظنا كاذبا أن
 مصر قريية المثال فإذا من دونها حرّ رقاب الكثرة من جيشه وأسر البقية في الأغلال . ويسخر منه
 سخرية قاتلة حين يطلب إليه أن يعيد أمثال تلك الغزوة المشؤمة حتى يستريح منهم عيسى وتحرّر
 رقابهم جميعا . ويسخر من البابا ودعوته لهم أن ينجهوا بحملاتهم الصليبية الحاسرة إلى الشرق ،
 ويقول له ساخرا منهكما : لا تزال دار ابن لقمان التي سُجنت فيها على حالها ، ولا يزال القيد أو الغل
 باقيا ولا يزال حارسك صبيح في انتظارك . كلمات مسمومة وكأنها سقود يشويه عليه ، مع لطف
 التعبير ودقته ورهافته ومع الوخز الأليم .

وظل ابن مطروح ملازما داره إلى أن لبى نداء ربه في مستهل شعبان سنة ٦٥٠ ونزاه في
 الستين الآخرين من حياته طوال مقامه بمنزله يكثر من الابتهال لربه أن يغفر له ، حتى إذا توفى
 وُجد البيتان التاليان في رقعة تحت رأسه :

أَتَجَرَّعُ لِلْمَوْتِ هَذَا الْجَزَعُ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ فِيهَا الطَّمَعُ
 وَلَوْ بِنُوبِ الْوَرَى جِئْتَهُ فَرَحْمَتُهُ كُلُّ شَيْءٍ تَسَعُ

ويقول ابن خلكان : « كانت خلاله حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية ،
 وكانت يني وبينه مودة أكيدة . وله ديوان أنشدني أكثره » . ويبدو أن ديوانه المطبوع لا يحفظ

بجميع أشعاره ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أننا لا نجد فيه شيئا من مدائح في الملك الصالح إلا مقطوعة ذُكر فيها عرضا مع أنه ظل في خلعت نحو عشرين سنة ، بينما نجد في الديوان غير ملك أو أمير أبوي ، وربما كان حذف مدائحه من الديوان من صنيع الشاعر نفسه ، وكأنما عزَّ عليه أن يُعزَّل من منصبه ، فانتقم لنفسه بحذف تلك المدائح .

ومر بنا آنفا أنه نشأت بينه وبين البهاء زهير مودة صافية منذ أيام صباه وشبابه في قوص ، حتى كانا كالأخوين ، وامتدت بينهما هذه المودة الحلوة طوال حياتهما ، وجبَّ منها واقتطفا أزهارا أو ثمارا هنية ، كما يوضح ذلك ديوانهما وما فيها من مراسلات شعرية بينهما . وهو مثل صديقه بكتر من شعر الغزل الوجداني غير أنه كان يميل أكثر منه إلى الرمز عن وجده بالتحاذه غالبا البدويات رمزا لهجوياته ، وكأنه يريد أن يقرن وجده بوجد مجنون ليل وأضرابه من شعراء نجد ، حيث يثَّ في وجده وجهه شذا الحنان والشوق الذي يكتظ به من قديم الغزل العنبري وما يُطوى فيه من حرارة ولوعة ، على شاكلة قوله :

هي رامةٌ فخذوا بيمينِ الوادي	وذروا السيوف تفرُّ في الأعادي ^(١)
وحذارٍ من لحظاتٍ أعينَ عينا	ظلمكم صرَّعن بها من الآسادي ^(٢)
مَنْ كان منكم واثقا بفؤادو	فهناك ماأنا واثقُ بفؤادي
يا صاحبي ولي يجرعاء الحمي	قلبُ أسيرٍ ماله من فادي ^(٣)
سلبته مني يوم بانوا مقلَّة	مكحولَةٌ أجفانُها بسواد
ويحى من أنا في هواه ميثُ	عينٍ على العشاق بالمرصاد
كيف السبيلُ إلى وصالٍ محجبٍ	ما بين يفيض ظلُّا وسرَّ صياد ^(٤)
حرسوا مُهتَفَفَ قَدْوٍ بمثْقنو	فتشابهَ اللباس باليَّاد ^(٥)

وواضح أنه رمز لحبه والتياحه فيه برامة في نجد وظلماتها ساحرات الأعين اللاتي يصرعن بين الأسد ، وقد خلف قلبه أسيرا هناك ولا من يهديه سلبته منه عين فاتنة مكحولَة أجفانها بسواد

(١) رامة : موضع بالبادية .

(٢) العين : بقر الوحش .

(٣) جرعاء الحمي : أرضه ذات الحزونة

(٤) الظبي : جمع ظبي : حليبي . الصياد : جمع

صعدة : الفتاة أو الرمح .

(٥) اللباس : الصخر . اليَّاد : التلألؤ ، والصف :

الرمح .

آسر، وأحد لا يستطيع أن يصل أوليَمَ بَنَك الديار : ديار رامة والحبيبة ، فن دونها سيف ورماح مسلولة مشرعة ، ويعجب أن يُحَرَسَ قَدُّها الرشيقي المتبختر المختال برمح مشبه لها مباد أوامبال . ويقول :

سَكَرَتْ وجاءتْ في الغَلَّالِ تَنَتْنَى فَارْتَكِ حِطَّ الجَبَلِ والمِجْنَى
وَرَنْتْ لما تُغْنَى الغَنَامُ والرَّقَى وَأَيِّكَ عن لَحَظَاتِ تلك الأَعْيُنِ
بدويَّةُ كم دونها من ضاربٍ بالسيف مرهوبٍ السَّطَا لم يؤمِّنْ
لا يَحْدِثُكَ لَحْظَ طَرْفٍ فَاتِرٍ أَبَدًا ولا تَأْمَنُ لِعَظْفِ كَبِينِ
أَلْبَسْنِي باهاجرى ثوبَ الغُنا وأَخَذَتْنِي با تاركى من مَأْمَنِي

لقد رفعت عن وجهها نقابها فشغفت قلبه حبا واقتانا ، ومدت بصرها إليه فوق في حائل أعينها مسحورا ولم تعد تغنيه الغنم والرقي ، وإنها لدوية أعرابية تحمبها السيوف المرفهة . وينصح صاحبه أن لا تحذعه العيون الناعسة ولا القدود اللينة عما يسيان له من آلام وأوصاب دون أن ينوق شيئا من وصال ، ويشكو لصاحته البدوية ضناه وتباريح حبه ، يقول :

خَذُوا جَنَرَكُمْ من طَرْفِهَا فَهَوَّ سَاهِرُ وليس بَنَاجِرْ من دَهْتَهُ المَاجِرُ
فَإِنَّ العِيونَ السَّوْدَ وهى قَوَائِرُ تَقْدُ السِيوفَ اليَافِضَ وهى بَوَائِرُ
وَلَا تُحْدَعُوا من رَقَّةٍ في كَلَامِهَا فَإِنَّ الحَمِيَّا لِلْعُقُولِ تُخَايِرُ
من القاصراتِ الطُّرْفَ غَارَتْ لِحْسَهَا ضَرَّائِرُهَا والسَّيِّراتُ الضَّرَّائِرُ
إِذَا مَا اشْتَهَى الخَلْخَالُ أَخْبَارَ قُرْطِهَا فَيَاطِبُ مَا تُمْلَى عَلَيْهِ الضَّفَائِرُ

وهو يحذر من طَرْفِ صاحبه ، فالسهم دالمة مصوبة منه ، ومن تصبه معاجرها تصبى قلبه ، وبالعجب فإن العيون الفائرة الناعسة تقد السيوف البائرة القاطعة ، ويحذر من رقة كلامها المعسول فهو كالخمر يذهب بالعقول . ويقول إنها عفيفة مصونة ، تغار من حسنها الفاتن فريثاتها الحسناوات والكواكب النيرات . والصورة في البيت الأخير رائعة ، فضفائر شعرها تطول حتى تلمس خلخالها وكأنما تحذنه بأخبار قرطها ، ومن غزله في بواكير حياته :

خَذْ تَوَقَّدْ إِذْ تَرَقَّرَ مَاؤُهُ لَهْفِي عَلَى التَّوَقُّدِ المَرْتَقِرِ
حَتَّى الحَلْيُ لَعْنَهَا مَتَوَسَّسُ فاعجبُ لِحْسِ الجَادِ مَنْطَنِ

ياشمسُ قلبى فى هوالك عطاردُ لولا نعره لما لم يُحرقِ
لم انس ما قالتْ وقد لمتْ يدى ماذا لقينا منه أو ماذا لقي
وأقول يا أختَ الزالِ ملاحه فتقول لا عاش الزالُ ولا بقى

يقول إن خد صاحبه المتوهج حمرة كأنه نار موقدة ، وما جماله ونصرته بتلألأ فيه وبترقرق ،
كما يملؤه فتنة به ولغة عليه . ويقول إن حسنا يُطلق حتى الجهاد ، وما وسوسة حليها إلا إعجاب منه
بها ، وما هو قلبه قد احترق من نعره لشمس حسنها كما احترق عطارد أقرب الكواكب السيارة
للشمس من تعرضه لنورها الحار المشتعل ، ويذكر رقة قلب صاحبه وأنها حين لقيه وسلمتْ
أظهرت له عطفًا وشفقة ، حتى إذا شَبَّهها بالزغال حسنا وملاحه قالت له مدلة : لا عاش الزغال
ولابقى ، فهي أكثر منه فتنة وسحرًا وجمالًا . ويقول :

هزوا القدودَ وأرهفوا سُرَّ القنا واستبدلوا بدلَ السيوفِ الأعبا
وتفلسموا للمعاشقين فكلهم أخذ الأمانَ لنفسه إلا أنا
لاخيرَ فى جَفَنٍ إذا لم يكحلْ أرقًا ولا جسمٍ بجافاهُ الفنا
لما انتفى فى حِلَّةٍ من سندسٍ قالتْ غصونُ البانُ ما أبقي لنا
شبهتهُ بالبدر قال : ظلمنى - يا عاشقِ والله - ظلمنا بيِّنا

وهو يتصور هؤلاء الفاتنات كأنهن يقدن معركة رماحها قلدودهن وسيوفها عيونهن وكل من
حوله يطلب منهن الأمان إلا هو ، فقد تعلق بإحداهن ، وهو لا يرى للحياة قيمة بدون الحب
والسهاد فيه وضنا الجسم والنحول . ويرى صاحبه فى حلة سندسية خضراء ، فيتصور كأن غصون
شجر البان الذى ظلمنا تنفى به المحبون تقول : ما أبقت لنا من الحسن والنضرة والجمال ، ويشبها
بالبدر فتقول له مدلة كصاحبه السابقة : ظلمنى ظلمنا بيِّنا فهي أكثر منه جمالًا وحسنًا وروعة . ومن
آياته البديعة التى تتداولها كتب الأدب قوله فى بعض غزله .

لبنا ثيابَ العناقِ مزدرةً بالقُبَلِ

ولعل فى كل ما قدمت ما يصور غزل ابن مطروح الوجدانى وما أشاع فيه من الرقة واللفظ
والدماعة والظرف وعفوية الروح وخفة الظل .

برهان^(١) الدين القبراطى

هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر ، ولد لأبيه سنة ٧٢٦ . والقبراطى نسبة إلى قبراط بلدة بمحافظة الشرقية سميت فيها بعد باسم كفر النحال وُضعت إلى مساكن مدينة الزقازيق ، كان أبوه شيخا جليلا ولى القضاء بالمنوفية ودمياط وأسيوط ، ودرس في مدرسة كانت تجاور الإمام الشافعى وعمشهد السيدة نفيسة والجامع الأزهر توفى سنة ٧٤٠ . ونشأ برهان الدين بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات العلماء إلى أن برع في الفقه وعلمى الأصول والعربية وأكسب على كتب الحديث وأخذها عن أمته ، ودرس وحديث بالقاهرة . واستيقظت فيه مبكرة موجهة الشعرية ، فكان ينظم المدائح ويدبجها في السلطان حسن وغيره ، وسلك في شعره طريقة ابن نباتة ، وتلمذ له وراسله . وله في وصف شعره ونثره تقييد بديع احتفظ بفقرات منه الحموى في باب الاقتباس بجزائره . ويقول ابن تغرى بردى في ترجمته بالمنهل الصافي : « هو شاعر عصره بعد الشيخ جمال الدين بن نباتة وأقرب الناس إليه من دون تلامذته ومعاصريه من شعراء عصره ، مع علمى بمن عاصره من الشعراء ولا حاجة لنا إلى ذكرهم فإنه أرق وأحل وأرشق » . ويقول ابن حجر : « كان له اختصاص بالشيخ السبكي وأولاده وله فيهم مدائح ومراتى وبينهم مراسلات » ويقول ابن العماد في الشذرات : « له في تاج الدين السبكي غرر المدائح » واحتفظ تاج الدين في كتابه « طبقات الشافعية » بمراسلات بينه وبين القبراطى استغرقت نحو ثمانين صحيفة ، وأنشد مرثية له في أبيه مظلما :

أسمى ضربك موطنَ الخفرانِ وعلمُ وفدٍ ملأكُ الرحمنِ

ورأى أن يجاور بمكة مثل كثيرين من علماء عصره وقبل عصره ، فرحل إليها ، وأخذ عنه جماعة من علمائها والقادمين عليها ورووا عنه ديوانه . ويذكر ابن حجر بعض تلاميذه من جلة المحدثين في القاهرة أمثال شيخ الحفاظ أبى الفضل العراقى والشيخ بدر الدين البشكى ، وفى مكة أمثال جمال الدين بن ظهيرة وتقى الدين الفاسى المذكور في مصادره ، وقد كتب عنه بعض شعره

٣٢/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧٠/٦ والخد الذين في تاريخ البلد الأمين لتقى الدين القاسم (طبع القاهرة) ٢١٧/٣ . وله ديوان أسماء مطلع اليمين طبع بمصر سنة ١٢٩٦هـ ومنه عدة غزليات بدار الكعب المصرية .

(١) انظر في ترجمة برهان الدين وأشعاره المنهل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ٧٠/١ والنجوم الزاهرة ١٩٦/١١ وطبقات الشافعية للسبكي ٣١٤/٩ - ٣٩٨ - ٣٣١/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر

وأجاز له روايته ، ومازال طلاب علمه وشعره يمحكون على حلقة بمكة حتى توفي بها سنة ٧٨١ .
ولبرهان الدين غزل وجداني كثير ، أوكا يسميه البهاء زهير غزل على الطريقة الغرامية ، غزل
يقلمه صاحبه لهجته مؤملا في الوصال ، ودالما لا وصال بل دموع وأشواق ووصف للصباية
والغرام والوجد الذي لا تنطفئ ناره في قلوب أصحاب هذا الغزل ، مع مشاعر غامرة من اللطف
والرقة ، ومع الألفاظ والأساليب الرشيقة من مثل قوله :

بأنى لحظ غزالو قائلو في الفلوات^(١)
أخذت بابلُ عنه بعضَ تلك الأنفثاتِ
حسناتُ الخلدُ منه قد أطالتِ حشراتُ
أعشقُ الشاماتِ منه وهى أسبابُ ممانِ
إنَّ للمسوتِ بأقدا ح جفوني سكراتِ
قلت قد يت غراما قال لي مُتْ بجاني

والآيات تتطاير عن القم بخفة ، وهو يشكو من لحظ غزال بدوى يقضى أوقات قيلولته في
الفلوات ، غزال ينث في كل ما حوله السحر ، بفتته وجمال وخلوده التي ملأت قلب الشيخ
حشرات ، لأنه يتنقى الدنو منها ليتكلى بحسنا وما فيها من شامات تريدنا حسنا وجمالا ، وإنه
ليلوب - أوكا يقول - ليموت وجدا والتباعا ، وتلك سكرات الموت تملأ أفتاح جفونها ،
ويتضرع إليها قائلا إنه مات غراما ، فتضحك في خبث مدلة عليه قائلة له : « مت بجاني » ومن
نفس هذا المعين المتدفق السلس يقول :

غرامى فيك ياقرى غربى وذكركِ في دُجى لى ندبى
وملئى الحميمُ وحدُ عنى ومالى غير دمعى من حميمِ
وكم سأل العواذل عن حديثى فقلت لهم على العهد القديمِ
وعمُ يسألون ولى دموعُ تحذئهم عن التبا العظيمِ
بدتُ فى خدّها شاماتُ مسكٍ كحظى أوكبلى أو هوسى
إذا نيرانُ خدّيهما تبتتُ رأيتُ بين جئاتِ التعمِ
ومن شغفى بعضن القدّ منها أغارُ على المُصون من النيمِ

(١) قائل : من القيلولة وهي وسط النهار ، وطلعه قال

وكأنى بصاحبته في الأبيات هي نفس صاحبته الأولى، ويقول إن غرامها غريمه وذكرها نديمه طوال الليل، والتورية في البيت الثاني بديعة فقد ملأ الحميم والصدقين في حب صاحبه، ولم يبق له إلا مدحه الحميم الحاريرافقه. ويسيل البيت الثالث صفاء وعذوبة تقع ما فيه من الجناس وكذلك البيت الرابع وما به من اقتباس عن سورة «النبأ» وتعجب أن يتساءلوا ودموعه تجري على خدودها، ويقول إن شامت خدودها الضاريات إلى السواد كأنها نقط مسك أو كأنها مقتطعة من حظه معها أو من ليله أو من هموم حبا المشتغل في حنايا صدره. ويعجب أن يجمع خداهما يجمرتها المتوهجة بين نيران الحميم حرارة وجئات النعم وورودها الفاتنة. ويعلن غيرته عليها حتى ليغار من النسيم إن هب على ما يشبه غصنها من غصون الرياض الأناصرة. ويقول:

يا مَنْ هجرتُ على هواهم عاذل أبجلُّ في شَرِّعِ الهوى أنْ أهْجَرَ
طلعتْ بدورِ القمِّ من أزراركم فعدا اصطبارُ الصَّبِّ مُتَقَصِّمُ الرَّا
من كلِّ مَيْفَاءِ القَوامِ كأنها غُصْنٌ يحرُّكُه النسيمُ إذا سَرَى
دُكِرَتْ فصرَّها العَدُولُ جهالةً حتى بدتْ للناظرين فكبرا
وجهلْتُ معنى الحسنِ حتى أقبَلْتُ فرأيتُه فيها بلوحُ مصورا
لما درتُ أني الكلمُ من الهوى جعلتْ جواي في الهبة لن ترى^(١)
يأمنُ إذا ما مرَّ حلَّو حديثها أغناك عن مرِّ العتيقِ وأسكرا^(٢)
أرخصتْ يومَ اللينِ سِمرَ مدامي وتركتْ قلبي بالغرامِ مسفرا^(٣)

وهو يتضرع إلى صاحبه أن لا تنبيهه ألم الهجران وأن تنقذه منه، فقد نقد صبره إذ رآها مع صواحبها الفاتنات وهن يمسن مبس الفصون حين يداعبها النسيم، ويقول إن العذول كان يحاول الغض من جمالها تسرية عن نفسه فلما رآها بهت وصاح. الله أكبر: أما هو فيرى فيها كل معاني الفتنة مصورة مغربة. ولما علمت مقدار وجدده المبرح بها لم يأخذها عليه إشفاق أو رحمة، بل مضت تدل عليه، وتقول له: لن تراني. ويعود إلى ندائها والتضرع إليها مصورا روعة حديثها وحلاوته المسكرة، ويقول لها: لقد أرخصت مدامي وأسمرت قلبي أو أشعلته نارا موقدة. وفي البيتين الأخيرين طباق وجناس متدبجان في هذا الأسلوب السهل السائق، ويقول:

(١) في سمر تورية لأنها إما من السمر وهو اللقي المتبادر
غير المراد، وإما من السمر أى الحميم وهو اللقي المراد.

(١) الكلم: المبرح. لن ترى: لن تراني.

(٢) يريد بالعتيق الحمر اللطيفة.

علموا بأنى لا أحول فمذبوا وَدَرُوا بِأَنى عاشقُ قَتَفَصْبُوا^(١)
 قتلوا المتيّم فى الموى ونظلموا وَجَتُوا عَلَيْهِ بِصَدْمٍ وَتَعَبُوا
 ومهفهب لولا حلاوة وجهه مَا كَانَ مَرَّ عَذَابِهِ يُسْتَعَذَّبُ
 إن كان يرضى أن أموت صباة فَجَمِيعُ مَا يَرْضَاهُ عِنْدَى طَيِّبُ
 يا باخلا وله أجود بمهجتي رِقَقًا عَلَى صَبٍّ عَلَيْكَ يَعْذِبُ
 إن ملت فالأغصان يُفْهَدُ مَبْلَهَا أَوْ غِيَتْ قَالَالَارُ قَدْ تَغَيَّبُ

وهو يقول إن صاحبه عرفت أنه لا يستطيع حولا عنها فتأدت في تعذيبه ، ولم ينفعه عندها عشقه . فقد أظهرت له سخطا وغضبا ، ومع أنها فككت بمحبها تشكى منه ظلما وجورا . وماتزال تتجنى عليه ، ويقول إن جمال وجهها هو الذى جلب له هذا العذاب المرير ، وإنه ليستعذبه إرضاء لها . حتى ليطلب له الموت في سبيلها . ويقارن بينه وبينها ، فهو يهود لها بروحه ، وهى شحيحة شحا شديدا ، لا تجود له حتى بنظرة ، ويملل نفسه قائلا : إن مالت عنه فذلك طبعى ، لأنها غصن رشيق ، وطبيعة الأغصان أن تميل مع الرياح ، وكذلك إن وعدته وغابت فطبيعة الألار أن تغيب عن الآفاق .

وكان القيراطى يكثر من التوريات ، واختار له ابن حجة الحموى منها فصلا^(٢) طريفا أودعه خزانته ، من مثل قوله :

تنفس الصبح فجاءت لنا من نحوه الأنفاسُ يسكبُه
 وأطربت في العود قُمرَبَةٌ وكيف لا تُطْرِبُ هُودُونَةُ

وعودبة لها معبران : القمرية التى تطرب على عود الشجر ، والمغنية الفاربة على العود . والتورية واضحة . ولعل فيما سبق ما يوضح الغزل الوجدانى أو الغرامى عند القيراطى ، وكان - كما أسلفنا - شيخا من شيوخ الحديث النبوى فى عصره ، وكان طلابه يختلفون إليه فى أخذه عنه بالقاهرة ومكة . ولا ريب فى أن إسهام مثله فى هذا الغزل يدل دلالة قاطعة على أن موجته بمصر فى هذا العصر كانت حادة وأنها عمت حتى شيوخ الحديث وحفاظه من أمثال القيراطى . ووراءه كثيرون من الشيوخ الفقهاء والمحدثين المصريين خلفوا دواوين تحمل سيولا من هذا الغزل الوجدانى الرقيق أمثال ابن دقيق العيد وابن الصائغ الحنفى وابن حجر

نور الدين^(١) على الصبلي

من علماء مصر وفصلاتها وشعرائها في القرن العاشر الهجري توفي سنة ٩٩٤ للهجرة وكان فقيها شافعيا تلمذ لشيوخ الأزهر ، وأظهر براعة في فنه ، وعكف على التأليف والتدريس ، وفيه يقول الشهاب الحفاجي : « نور حذقة الزمان ونور (زهر) حذيفة الحسن والإحسان وكحل عيون الفضلاء والأعيان ، وعاش طويلا ، وتعلق بأخرة بالسادة البكرية ، فقابلته الدهر - كما يقول الشهاب الحفاجي - بوجه طليق . ويبدو أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فقد غطى اشتهاره بشعره على شهرته بالعلم والفقه والفضل ، وغلب عليه الغزل من مثل قوله :

سَقَى الْحَمَى وَلِيَالِيهِ الَّتِي سَلَفَتْ مِنْ أَدْمَى وَمِنْ الْوَسْمَى هَتَانُ^(٢)
لِي فِي الدِّيارِ سَقَاها الْمَزْنُ صَيِّهُ غَزَالُ حُسْنٍ بِدَيْعِ الْخَلْقِ ثَانُ^(٣)
بَارِئِ الْحَسَنِ قَدْ بَالَفَتْ فِي ثَلَاثِي أَمَا لَهْجُكِ بِأَلْبَاءِ هَجْرَانُ^(٤)
هَلَا نَظَرْتُ إِلَى مُضَانِكِ رَاحِمَةً فَكَانَ يَشْفَعُ مِنْكَ الْحَسَنُ إِحْسَانُ

وهو لا يجل الدعاء بأن يُسَقَى الحمى وليالي حبه فيه أمطار الربيع ودموعه الماطلة أبداً في الديار غزال سقاها المزن صييه . ويتفت برب الحسن أن يلتفت إليه وبصاحته لمياء أن تصله بعد طول الهجر والمذاب ، حتى ولو بنظرة عطف وإشفاق على مضناها الذي طال عتاؤه وشقاؤه وحرمانه . ويقول :

كَأَنَّ الَّذِي أَهْوَى عَلَى نَفْسِهِ جَنَى قَالَ عَلَى تِلْكَ الْمَاسَنِ بِالْفَتْكَ
فَأَغْرَقَ خَدَيْهِ بِمَاءِ جِوَالِهِ وَأَوْقَعَ فِي الظُّلُمَاءِ نَازِلَهُ الْتَرَكِي
وَهَاجَمَتْهُ يَبْكِي عَلَيْهِ مِنَ الصَّنَا وَهِيَ خَصْرُهُ مِنْ ثِقَلِ أُرْدَاغِهِ يُشْكِي

وهو يحمل المبوب التركي جانباً على نفسه ، فقد أغرق خديه في ماء جواله أو بعبارة أخرى في رونق حسنه ، وكأنما كحل ناظره الأسود بالظلام الداجي فلمع بريقه ، ويتخيل كأنما جفنه يبكي

(١) انظر في نور الدين الصبلي وترجمته ورياسة الألبا
(تحقيق عبد الفتاح الحظر) ١٩٧/٢ وما بعدها وشرحات
الكتاب ١٣٤٨/٨
(٢) المزن : السحاب . صييه : مطره .
(٣) الريب : القطيع من الظباء أو البقر الوحشية .
والاستارة واضحة .

(٤) الرسمى : مطر الربيع . جنان : حطال .

حل ضناه وكأنما خصره يشكو من ثقل أردافه ، وقد استعمل يشكى مثل العامية بدلا من يشكو الفصيحة ، ويقول في إحدى الجوارى .

دَبْتُ لَهُ ذُوَابُهُ كَحَيْفَةٍ مِنْ خَلْفِهِ
نَحْمَى ضَعِيفَ خَصْرِهِ مِنْ خَارِجِي رِدْفِهِ

وهو يشبه الضفيرة بحية وكأنها نحمت خصره من ثقل ردفه ، وقد عبر عنه بأنه من الخوارج مبالغة ، ويقول :

كُلُّ فِعَالِ الْحَبِّ عَمُودَةٌ وَإِنْ تَجَاوَى وَتَجَنَّى وَتَسَاءَ
فَوَضْلُهُ قَطْعٌ لِدَاءِ الْأَمْسَى وَهَجْرُهُ قَطْعٌ لِقَوْلِ الْوَشَاءِ

فهو يرتقى من محبوبته حتى هجرها ليقطع ألسنة الوشاة ، وهو جانب فيه من التظرف والرقه ورهافة الشعور ما يمتاز به أهل القاهرة ، وله قصيدة بديعة في دولا ب (ساقية) روض صورده فيها يتوح ويئن دائما لفراقه روضه إذ كان شجرة ضخمة في إحدى الرياض قطع أوصالها غي ودق عظمها في ضلوعها ، فهي مائتي تيكى على عهدا بالرياض ، ومائتي عيونها جارية بالدموع . وفي الحق أنه كان شاعرا بارعا ، ومربا أنه يكون مع تلميذه يحيى الأصيل وتلميذ يحيى الشاعر يوسف المغربي مدرسة في الغزل زمن العثمانيين كانت تمتاز بدقة الحس ورهافة الشعور .

٢

شعراء الفخر والمجاء

الفخر والمجاء غرضان قديمان من أغراض الشعر العربي ، لنذ الجاهلية يتفنن الشعراء بمفاخرهم الذاتية ومفاخر قبائلهم وأقوامهم ، ويلتئل يتفنن بأهـاج فردية تتصل بفرد بيته ، وأخرى جماعية تتصل بالقبائل والأقوام ومثالهم . ولا ريب في أن وتر الفخر الذي شد الشعراء إلى قيتاراتهم كان ويرا خصبا ، إذ وقّع الشعراء عليه كثيرا من الألحان الخلفية الرفيعة ، مما يتصل بالبرودة والكرم والوفاء والكرامة وغير ذلك من الفضائل الحميدة ، كما وقعوا عليه كثيرا من الألحان الحماسية التي تصور بسالـتهم الحرية وما أذاقوه أعدامهم من المزامم الساقطة . وظلت هاتان المجموعتان من الألحان طوال الحقب التالية ، وظل العرب في كل مكان يرددوننا صحائف تربية

مثالية وأناشيد حرية حماسية . وشعراء مصر منذ نشط فيها الشعر يشاركون في المجموعتين ، يشارك فيها الأمراء وأبناء الشعب ، من ذلك قول العباس بن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية ^(١) :

قَدْ دَرَى إِذْ أَعْدُو عَلَى فَرْسِي إِلَى الْهَيَاجِ وَنَارُ الْحَرْبِ تَسْتَمِرُّ
وَفِي يَدِي صَارُمُ الْفَرَى الرَّهْوسَ بِي فِي حَدِّهِ الْمَوْتُ لَا يَتَّقِي وَلَا يَنْدَرُ

والبيان من قصيدة حماسية ملتبة ، ومعروف أنه أخطأ في هذه الحماسة وما اقترن بها من شجاعة ، إذ وجهها إلى أبيه تأثرا عليه . وأخفقت ثورته . وبتزل مصر في أيام كافور الإخشيدي المتنبئ ، وتستدير حوله ندوة كبيرة تروى شعره وتندارسه وكل ما فيه من فخر مضطرم وحماسة ملتبة . وتستقبل مصر الدولة الفاطمية ويدخلها المعز الفاطمي ، ومعه ابنه الشاعر النابغ نجم ، وله فخر كبير ، وسفرده له ترجمة عما قليل ، وثلثي بعده بولي الدولة بن خيران صاحب ديوان الإنشاء بمصر في عهد الظاهر والمستنصر المتوفى سنة ٤٣١ ونراه يبدئ ويعيد في الفخر بشعره وكتاباته من مثل قوله ^(٢) :

أَكْ وَلَقَدْ صَمَوْتُ عَلَى الْأَنَامِ بِخَاطِرٍ ۖ إِنَّهُ أَجْرَى مِنْهُ بَحْرًا زَاخِرًا الْبُحْرَا
فَإِذَا نَظَّمْتُ نَظَّمْتُ رَوْضًا حَالِيًا ۖ وَإِذَا نَثَرْتُ نَثَرْتُ دُرًّا فَاحْرًا ۖ

فهو يفتخر بخواطره الغزيرة التي تنسكب من ذهنه كأنه بحر زاخر ، وهو يهدي منها إلى الناس والآفاق أشعارا رائعة ورسائل بديعة . وثلثي بغير شاعر فاطمي يفخر بنفسه فخرا حماسيا ملتبا على شاكلة قول الحسن بن زيد الأنصاري ^(٣) :

مَتَالُ الثَّرِيَا دُونَ مَا أَنَا طَالِبُ فَلَا لَوْمَ إِنْ عَاصَتْ عَلَى الْمَطَالِبُ
وَإِنِّي وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ الدَّهْرُ بِالْمُنَى غَلِي فِي كَهْمَالَاتِ الرَّمَاحِ مَارِبُ
تُقَرَّبُ لِي مُسْتَعِدَاتٍ مَطَالِي جِيَادِي وَعَزْمِي وَالْقَنَا وَالْقَوَاضِبُ

فما يطلبه ويتمناه فوق الثريا في أعلى عليين من السموات ، وطبيعي أن لا تتاله يده أحيانا ، ومع ذلك هو لا يئأس أن ينال من الدهر مطالبه ومآربه بفضل رمحه وجياده وسيوفه القواضب

(٣) الحميدة (لحم شعراء مصر) ٦٩/٢ .

(١) التاجم الزاهرة ٢١٣/٣ .

(٢) معجم الأدباء ٨/٤ .

القاطعة وعزمه الذى لا يُقَلَّ ، إنه مملوء فتوة وقوة صلبة ينيلانه كل ما ينشئ . وكان يعاصره الرشيد بن الزبير أخو المذهب الذى ترجمتا له فى الفصل الماضى وقلنا هناك إنه وقعت لأخيه الرشيد عنة باليمن إذ ذهب رسولا عن الدولة الفاطمية إلى أحد دعايتها فجنه وهم بقتله مما جعل المذهب يستعطفه لأخيه بقصيدة رائعة ، ردَّ عليها بمجرد سماعها حرثته ، إذ عفا عنه وأطلقه ، ونرى الرشيد يعلن فى قوة أن نفسه لم تنكسر ولم يصبها أى وهن بسبب هذا الحادث ، يقول ^(١) :

جَلَّتْ لَدَى الرِّزَايَا بِلْ جَلَّتْ هِمَّتِي وهل يَصُرُّ جَلَاءُ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
لو كانت النَّارُ لِلْيَاقُوتِ مَحْرَقَةً لكان يَشْتَبِهُ الْيَاقُوتُ بِالْحَجَرِ
لا تُقَرَّرَنَّ بِأَطَارِي وَبَيْنَتَا فإنما هِيَ أَصْدَافُ عَلَى دُرِّ
ولا نَظُنُّ خِفاءَ النَجْمِ مِنْ صِفَرٍ فالذَّنْبُ فِي ذَاكَ عَمَلٌ عَلَى الْبَصَرِ

وهو يقول إنه تحمّل الرزاييا والمصائب التى نزلت به جَلَدًا شجاعا ، بل لقد جَلَّتْ همته جلاء السيف الباتر ، ويضرب مثلا بالياقوت فالنار منها اضطربت لا تحرقه ، وإلا كان حجرا لا غناء فيه . وينظر إلى أطواره وثيابه البالية فيقول لصاحبه : لا تفرنك هذه الأطوار الخلقية فإنها أصدااف وقشور وأغطية للآلئ ثاقبة ، ويضرب مثلا بالنجم فى السماء تستصغر الأبصار رؤيته ، والذنب فى الصخر البصر لا للنجم .

ونغصى إلى زمن صلاح الدين وما حققت مصر فى أيامه من مجد حرى عظيم بسحقها الصليبيين فى ديار الشام واستخلاص بيت المقدس وغيره من أيديهم وعصفهم محقا لا يكاد يبق منهم ولا يلبس . وكان لابد لمصر من شاعر يتغنى لها بهذا الجهد البطولى الذى تؤججها به صلاح الدين ، وتثنى ابن سناء الملك أكبر شعرائها حيثنذ ببطولة صلاح الدين وجنده المصريين فى قصائد حاسية مضطربة ، كما مر بنا فى ترجمته ، وليس ذلك فقط ، فقد مضى يفتخر فى أشعاره فخرا عارما ، وكان كل ما يجمع فى صدر صلاح الدين وأبطال جيشه من أحاسيس يجمع فى صدر ابن سناء الملك وقلبه ، فإذا هو يتغنى بمثل هذا النشيد الرائع ^(٢) :

سِوَايَ يَخَافُ الدَّهْرَ أَوْ يَرْهَبُ الرَّدَى وَغَيْرَى يَهْوَى أَنْ يَكُونَ عَمَلْدَا
وَلَكِنِّى لَا أَرْهَبُ الدَّهْرَ إِنْ سَطَا وَلَا أَحْزَنُ الْمَوْتَ الرُّؤْمَ إِذَا حَدَا ^(٣)

(٣) الرُّؤْم : السرج .

(١) ابن خلكان ١٦٢/١ .

(٢) الديوان ص ١٦٥ .

ولو مدَّ نحوى حادثُ الدهرِ طَرَفَهُ
لحدثتُ نفسى أن أمدُّ له يَدًا
توقدُ عَزْزى يترك الماءَ جمرَةً
وجِلَّةٌ جِلْبى تترك السيفَ مبردا
وأظماً إن أبدى لى الماءَ مِثْنَةً
ولو كان إدراكُ الهدى بتدليلٍ
وإنك عَبدى يازمانُ وإِنِّى
ولو علمتُ زُهرَ النجومِ مكانى
لخرتُ جميعاً نحو وجهى سَجْدًا

وكانه لم يعبّر في هذه الأَشْوَدة الفريدة عن شعور كل مصرى لزمه حَمْل السلاح وسفك به دماء الصليبيين المتدينين الآتمين فحسب ، بل لقد عبّر بها عن شعور كل مصرى على مر الزمن بأجماد أمت الحرية والحضارية . وإنه ليشمخ بنفسه في أعلى الأفلاك والسموات ، فإذا هولاً يهرب الدهر ولا يهرب الموت الزؤام ، ولو مد الدهر طرفه إليه لتأزله بهزم صادق يُشعل الماء جمرًا ملتهبًا ويردّ السيف كليلاً صَليلاً لا يقطع . ويمتلئ صدره بإحساس الكرامة ، حتى إنه ليطمأ إن أبدى له الماء مِثْنَةً ، بل إنه ليموت ظمأً حتى لو كان نهر المجرّة مورده وحقق له وروده كل ما أمّله ، وحتى الهدى لو كان إدراكه بشيء من الهوان لرفضه . ويبلغ من استصغاره للدهر وأحداثه أن يشعر في قوة سيطرته عليه حتى كأنما ذلّ له ودان ، بل حتى كأنما أصبح له عبداً مسترقاً ، وهو مع ذلك يشعر في كبرياء يتعاطم شديد عليه ، حتى ليقول إن النجوم الساطعة لو رأت وجهه لخرت ساجدة تقدم له الترابيل ، وكأنما تجسدت في روحه مصر الحالدة الجديرة بكل تقديس .

ومن طريف ما يلقانا من الفخر بعده فخر ابن نباتة الكثير بشعره وكان حاملَ لواء الشعر في زمنه ، ومن قوله :

من مبلغُ العُرب عن شعرى ودوليه أن ابن عبادَ باقى وابنُ زيدونا
إذا رأيت قوافيها وطلعتَها فقد رأيتُ مقلتك البحرَ والثونا
كأن ألقاظها في سمع حُصدها كواكبُ الرّجم يَحرقن الشباطينا

وهو يقول إن من سمع شعره عرف أن الأندلس لم تُنْسَ ، فلا تزال حية نضرة ولا يزال شعراؤها العظام من أمثال المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وشاعره الوجداني ابن زيدون . وقد وُرى في البحر والنون يريد بها بحر الشعر ونون القافية في القصيدة لا الحوت ، ويسمى حساده باسم

الشياطين تسقط عليهم آيات قصيده كشهد الرجم فيحترقون ويستحبون رمادا تذروه الرياح .
وقلنا نلتقي في الحقبة العمانية بفخر إلا ما يتصل بالشائل والأخلاق الكريمة .

ومنذ سال الشعر على ألسنة المصريين سال معه هجاء كثير ، وكان الشعراء يقذفون بسهامه -
كما مر بنا في غير هذا الموضع - الولاة والقضاة كلما انحرفوا عن الصراط السوي على نحو ما يصور
ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى . ومعروف أن أحمد بن طولون استقل بمصر وأسس بها
الدولة الطولونية ، وضم إلى لوائه الشام ، وله أعمال مجيدة كثيرة ، ولم يكن يخلو منه ظلم وعسف
وسفك للدماء كما يقول ابن تغرى بردى وفي كتاب الولاة والقضاة شاعريسى محمد بن أبى داود
كان كثيرا ما يهجو مزربا على ماشاده من المارستان وغير المارستان ، وفيه يقول من أشعار مقذعة
كثيرة حتى بعد وفاته :

وكم ضَجَّةٌ للناس من خَلْفُو سَيْبِهِ نَضَجُ إلى قلبه عن الله مُنْقَلِبُ
قلبه غافل عن ذكر ربه وعن حوائج الناس وهم يضجون خلف حجابيه وحرسه . ولا نشك
في أن ابن أبى داود ظلم ابن طولون ، فقد كان يعنى بالرعية وببنى جامعه المشهور وعهد إلى بعض
العلماء بالتدريس فيه . وأهاجى التنبى في كافر الإخشيدى مشهورة ، وقد ظلمه بدوره ظلما يبيانا .
وكان المصريون قد احتضوا به حين نزوله في القسطنطينية وعقدوا له ندوة كبيرة ظلت طوال مقامه بين
ظهورانهم ، ومن لزمه فيها وروى عنه شعره صالح بن رشد بن ، وعبيد الله بن أبى الجوع وله
نقائض وأهاج مع صالح بن مؤنس ، وله يقول صالح^(١) :

هاجيك فيها قاله مادحُ فأنت في صَفْتِكَ الرابعُ
بأبها الصُّوْرِ الذى لم يزل يرقص حتى دَقَّ الجارح^(٢)

وهو يسمى هجاءه له مدحا لأن فيه ذكرا له ، ومثله ليس شيئا حتى يذكر ، ويقول له إنك
عصفور صغير لا يزال يرقص على الأغصان من غصن إلى غصن حتى يذق عقه صقر أو نسر
جارح . ونمضى إلى زمن الدولة الفاطمية وما أخذت تنشره من عقيدتها الشيعة الغالبة الراضية .
وما زعمته للأئمة من نسبة إلى عالم القدس وأنهم من جوهر روحى مصفى وأنهم يعلمون الغيب

مما عرضنا له في غير هذا الموضع . ويروى أن الخليفة العزيز بن المعز صعد المنبر في يوم الجمعة ، فرأى ورقة كتب فيها شاعر مصري هذين البيتين ^(١) :

بالظلم والجور قد رَضِينَا وليس بالكُفْر والحماقة
إن كنتَ أعطيتَ عِلْمَ غَيْبٍ فَقُلْ لَنَا كاتبُ البطاقة

فتناولها العزيز وقرأها ولم ينس بيت شفة .

وظل شعراء مصر طويلا مفاضين لهذه الدولة معرضين عنها ، كما أسلفنا ، وكان مما أثار حفيظتهم بالإضافة إلى تحملها المنحرفة اتخاذها وزراء لها من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم ، وكان كثير من المصريين يشك في صحة إسلامهم وأنهم يتخللون ذلك ذريعة للاستيلاء على الوزارة والمناصب الكبرى في الدولة ، وكان منهم صدقة بن يوسف الفلاحى وزير الخليفة المستنصر واتخذ أبا سعد التستري اليهودى مديرا للدولة معه فصاح أحد الشعراء المصريين بالخليفة ساخرا غاضبا ^(٢) :

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزَّ فيهم والمالَ عندهم ومنهمُ المستشارُ والملكُ

وهى سخرية من المستنصر قاتلة ، مما اضطره إلى النزول على إرادة الشاعر والشعب ، فاعتقل الوزير الفلاحى ولقى حتفه على يده . وعلى نحو ما كان المصريون يتعرضون للفاطميين بالهجاء كانوا كذلك يتعرضون لوزرائهم هاجين هجاء مرًا على نحو ما هجا الشاعر جاسوس الفلك الجرجاني وزير المستنصر وكان أقطع الدين لحبابة ظهرت عليه في أيام الحاكم ، فلما ولي الوزارة استعمل الأمانة الزائدة والاحتراز الشديد فخطبه جاسوس الفلك قائلا ^(٣) :

يا أحمقًا إسمعْ وقُلْ ودّعْ السرقةَ والنحامقُ
أمنُ الأمانةِ والثقى قُطِعتْ بذاك من المرافق

ولم يكن الوزير مصرى الأصل بل كان من جرجاريا من أرض العراق . واشتهر الناجى المصرى بمقطعاته المجهاتية الكثيرة في الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الأمر ، وفيه يقول ^(٤) :

(٣) ابن علكان ٢/٣٠٨

(٤) الحريدة ٢/١٠٣ .

(١) النجوم الزاهرة ٤/١١٦

(٢) حسن المحاضرة ٢/٢٠١

قُلْ لَابِن بَنِي مَقَالَ مِنْ صَدَقَةٍ لَا تَفْرَحُنْ بِالْوِزَارَةِ الْخَلْفَةُ
إِنْ كُنْتَ قَدْ نَلَقَهَا مُرَاعَةً فَهِيَ عَلَى الْكَلْبِ بِعَدَمِ صَدَقَةٍ

وهو هجاء مقذع إقذاعا شديدا . ونرى داود بن مقدم المولى الملقب برضى الدولة المار ذكره
يهجو بعض أصحاب الدواوين وماكانوا عليه من فساد في جمعهم للضرائب ، يقول (١) :
وَكُثَابٌ لَهُمْ أَبَدًا حُمَاتٌ مُعَدُّ لَهَا الرُّقَى مِثْلَ الصَّلَالِ (٢)
بَأْيِدِ تَبْتَدِيرُنْ إِلَى الرُّشَاوَى كَأَيْدَى الْخَيْلِ أَبْصَرْتَ الْخَالِ

فكانهم يشبهون الزنابير والعقارب والأفاعى ، إن لم يقدم لهم الرشاوى لسوا من يجمعون منهم
الضرائب كما يلسع الزنبر والعقرب بمحتما أو إيهتها وكما يلسع الصل أو الأنهى بسمه القاتل .
ونلتقى في أثناء ذلك بدعابات ساخرة كقول ابن قادوس يتكلم على الرشيد بن الزبير وكان شديدا
السواد (٣) :

إِنْ قُلْتَ مِنْ نَارٍ خِلْفٌ تَ وَقُتَ كُلُّ النَّاسِ فَهَمَّا
قُلْنَا صَدَقْتَ فَا الَّذِي أَطْفَاكَ حَتَّى صِيرْتَ فَحْمًا

وهى دعاية قد يقبلها الرشيد لما فيها من فكاهة خفيفة ، ولابن قادوس أحيانا هجاء ملىء
بالسوم وخاصة ممن يضيق بهم كقوله في مناقب مايزال يتلون لكل شخص باللون الذى يعجبه ،
يقول (٤) :

حَوْلَهُ السُّيُومُ أَنْاسُ كُلِّهِمْ يُسْرِقُ بَرَائَةَ
وَهُوَ مِثْلُ الْمَاءِ فِيهِمْ لَوْنُهُ لَوْنُ إِنَائِهِ

ونغصى إلى زمن الأيوبيين ، ويلقانا ابن سناء الملك ساخطا على بعض معاصريه ، يكوهم
بسياط هجائه وخاصة من يسمى ابن عثمان ، حتى ليد أن يُصَفَّعَ بالنعال على حد قوله (٥) :

وَكَمْ لَهُ مِنْ وَقْعَةٍ لَمْ تُبْقِ مِنْهُ بَاقِيَةٌ
وَمَا عَلَيْهِ قَطُّ مِنْ صَفْعٍ الشُّعَالِ وَاقِيَةٌ

(٣) الحريدة ١/٢٢٩ .

(١) الحريدة ٢/٤٧ .

(٤) الحريدة ١/٢٣٢ .

(٢) حاتم : جمع حنة وهى إبرة الزنبر والعقرب .

(٥) الديوان ص ٨٧٦ .

والصلال : الأفاعى .

فهو يتصوره يُصْنَعُ بالعمال ولا منبث له ولا مجر ، وللبهاء زهير بعض مقطوعات في الهجاء ، وهو لا يقذع فيه ، بل يفسح للدعابة والوخز الخفيف الذي لا يبدى ، وقد لا يتعدى وصفه بالثقل كقوله ^(١) :

ربُّ ثَقِيلٍ لِبُغْضٍ طَلَعَتْهُ أَخْشَاءُ حَتَّى كَانَهُ أَجَلٍ
وَكَلِمًا قَلْتُ لَا أَشَاهِدُهُ أَلْقَاءَ حَتَّى كَانَهُ عَمَلٍ

وكان الشعراء يتعرضون أحيانا للوزراء يهجونهم كقول ابن مطروح يهجو هبة الله بن صاعد الفاترى مستغلا اسم أبيه في هجائه ^(٢) :

لَعَنَ اللَّهُ صَاعِدًا وَأَبَاهُ فَصَاعِدًا
وَبَنِيهِ فَنَازِلًا وَاحِدًا ثُمَّ وَاحِدًا

وهو كصاحبه البهاء زهير لا يتسع في هجائه ولا يقذع فيه ولا يفحش .
ويظل الشعراء طوال عصر المالك يريشون سهام الهجاء ، ويلقانا في أوائله الجزار والوراق ولها أهاج فكهة كثيرة سنعرض لها في غير هذا الموضع ، وكان يعاصرها البوصري شاعر المديح النبوي الرائع ، وكان يعمل موظفا في دواوين الأقاليم ، وله هجاء عنيف في طوائف الموظفين جميعا أوكما يسميهم المستخدمين من كتاب خراج وقضاة وغير قضاة ، ومن قوله فيهم ^(٣) :

نَكَلْتُ طَوَائِفَ الْمُتَحَدِّثِينَ فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا
أَقَامُوا فِي الْبِلَادِ لَهُمْ جُبَّةٌ لِقَبْضٍ مُثْلُهَا كَالْمُقْطَعِينَا
تَحْبَلَتْ الْقَضَاءُ فَخَانَ كُلُّ أَمَانَتِهِ وَسَمُوهُ الْأَمِينَا
وَكَمْ جَعَلَ الْفَقِيهُ الْمَدْلَى ظُلْمًا وَصَبَّرَ بَاطِلًا حَقًّا مُبِينَا

فهو يشكو من فساد جميع الموظفين ، فعال الخراج كأنهم من أصحاب الإقطاع وهم يجمعون ما نغله إقطاعاتهم ، والقضاة ينجون الأمانة والفقهاء يحملون بنتاؤهم المضلة الظلم عدلا والباطل حقا ، ويردد ذلك في أشعار كثيرة تصور فسادهم جميعا وكيف كانوا يجمعون ثروات طائلة بطرق غير مشروعة . وسرى لابن دانيال أهاجى فكهة كثيرة في حديثنا عن شعراء الفكاهة . وما يلاحظ

(١) البهاء زهير للشيع مصطلح عبدالرازق ص ٢٢ . (٢) الديوان ص ٢١٨ .

(٣) النجم الزاهرة ٥٨/٧ .

أن المصريين قلما يفحشون في هجائهم ، وكثيرا ما يتحول إلى ما يشبه عتابا رقيقا كقول ابن مكناس المتوفى سنة ٧٩٤ هـ جابيا^(١) :

نَعَمْ نَعَمْ مَحَضُّهُمْ صِدْقَ الْوَلَا نَطُولَا^(٢)
وما رَعُوا عهدا ولا مودَّةَ ولا ولا

وفي كلمة « ولا » الأخيرة تورية واضحة إذ يريد بها مقصور ولاء . ونراه حين يصادر أمواله وبغاله وغيله السلطان الظاهر برقوق لا يشتم ولا يهجو بل يكتفى بقوله^(٣) :

رَبِّ خُذْ بِالْعَدْلِ قَوْمًا أَهْلَ ظُلْمٍ مِثْوَالِي
كَلِّفُونِي بَيْعَ غَيْلٍ بِسِرْخِيهِ وَيَفَالِي

والتورية في كلمة بغال مع كلمة برخيص - وهو يريد بغاله الحقيقية - واضحة ، وهو يعمد إليها في هذا الطرف المخرج من محته .

ونظلم ثلثي بالمهزاء في أيام الثمانيين ، من ذلك قول الشهاب الخفاجي من قصيدة جميعها على الخط الثالث^(٤) :

يَا ضَيْعَةَ الْهَيْبَانِ مِنْ عَائِلٍ قَبِيلُ عَيْدٍ أَعَزَّ الْفُطْرَةِ^(٥)
وَيَأْقِفَا الْمَهْزُومَ مِنْ فَارِصٍ أَدْرَكَهُ فِي سَاحَةِ قَفْرَةِ
وَبَهْتَةَ السُّكْرَانِ مِنْ هَاجِمٍ فِي لَيْلٍ مَظْلَمَةٍ قَرَّةٍ^(٦)
وَيَسَانِجِيًا جَاءَ عَنْ وَاحِدٍ إِلَى عَجُوزٍ مَالَهَا أَسْرَةٍ

وتغنى القصيدة على هذا النحو الساخر اللاذع المُضْهِى نكيل للذم لمهجوه كيلا ونزأ به وتسخر منه سخرة قاتلة .

ونلقانا مطارحة^(٧) طريفة بين الشاعر المعروف باسم شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ للهجرة والشاعر قاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ ، فقد نظم شبانة - يداهب قاسما - قصيدة هجائية طويلة يقول فيها :

-
- (١) رعاية الألبا للخفاجي (طبعة الحلبي) ص ٤١ .
(٢) نطولا : فضلا .
(٣) النجم الزاهرة ١٢/١٢٩ .
(٤) نسخة الرعاية للمسبي ٩١٢/٤ .
(٥) الفطرة : العقل في لغة المصريين العامة . السليمان : كيسي التورود .
(٦) قرأ : باردة .
(٧) تاريخ الجبل ١٢٨/٢ .

سبحان من قسم التحو من لقاسم وأذل هامة
وكساه ثوباً جنابة يحزى بها يوم القيامة
ومضى يتمه بأنه يعين لصوص البيوت ويسرق الحرير ويسل الكحل من العيون ، ورد عليه
قاسم حاجبا مداعبا ، من نفس الوزن والقافية ، وكأنها يعيدان لنا نقائض جرير والفرزدق يقول
قاسم :

جَلَّ الذي . قسم الشقا لشبانة وله أدانة
بمامة لوخالها ال قلاً نوهمها برامة
موروثة عن جدّه من قبل أن تُتّى القيامة
لو كان يصلح للصلاة لحقّ للفرزدق الإمامة

والقلاً مقصور القلاء وهو من يقل اللحوم والأطعمة ، والبرام : القدر الذي يُقلى فيه . بشير
بذلك إلى ضخم رأسه وقنارة عامته . ولعله يريد بالقامة كنيسة القيامة بالقدس ، وقد بنيت
حوالي سنة ٣٢١ للميلاد . والدعابة واضحة في الأبيات . ونقف قليلا عند بعض شعراء الفخر
والهجاء :

نعم بن المعز

هو نعم بن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، ولد لأبيه سنة ٣٣٧ بمدينة المهديّة التي بناها
جده عبيد الله المهدي بتونس ، وقد تحول عنها ابنه الخليفة المنصور في نفس السنة التي ولد فيها نعم
حفيدة إلى مدينة أسسها هناك سماها المنصورية ، وولد لأبيه بعده على التوالي عبد الله ونزار
وعقيل ، وكان المعز قد بويج بولاية العهد في حياة أبيه المنصور ، وجُدِّدت له البيعة حين توفي سنة
٣٤١ . وكان في الثانية والعشرين من عمره ، وكان حصيفاً سيّوساً ، دانت له إفريقية من تونس
إلى المحيط ماعدا سبّة فإنها ظلت - كما مر بنا في غير هذا الموضع - مع عبد الرحمن الناصر الأموي
صاحب الأندلس ، وسير جوهراً قائده إلى مصر فافتتحها سنة ٣٥٨ - كما مر بنا في غير هذا
الموضع - ودخلها المعز في سنة ٣٦٢ وكان على الهمة يحكم تدبير الأمور حازماً منتهى الحزم ،

الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٧٠ ومقدمة
ديوانه (طبعة دار الكتب المصرية) .

(١) انظر في نعم وترجمته وألفاظه البيهقي ٤٣٦/١ وابن
خلكان ٣٠١/١ والخطبة السبابة (طبعة د . حسين مؤنس)
٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٥٦٠/١ وكاتب في أدب مصر

واتضح حزمه إلى أقصى حد في صرفه ولاية العهد عن ابنه الأكبر نجم ، وكان لا يزال في المنصورة بتونس ، حين تأكد أنه سير سيرة معوجة منحرفة ، مما جعل واليه على صقلية أحمد بن الحسن الكلاي يستأذنه في قتل أحد أبنائه لمشاركته نجيما في مجونه^(١) .

ويبدو أن المزح حاول - دون جدوى - أن يرد ابنه إلى الطريق السوي حتى إذا فشلت محاولته صرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله^(٢) ، ولم يلبث عبد الله أن توفي حين نزل مع أبيه في مصر فجعل المزح ولاية العهد لأخيه نزار الذي خلف أباه حين وفاته بالقاهرة سنة ٣٦٥ متسليا باسم العزيز .

وليس من ريب في أن المزح حتى بتربية ابنه نجم الذي كان يعدّه لولاية العهد منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له المعلمين المذنبين واللغويين وعهد إلى بعض دعاة الحلة الفاطمية بتلقينها له ، وكانت للغلام موهبة شعر فذة ، فأكب على الشعر العربي في أزمتته المختلفة يتزود منه ، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته ، فعكف على اللهو والمجون لا يردعه رادع . وانتقل مع أبيه إلى مصر ، ففضى في سيرته ، ينجيا للهو والمجون . ويموت أخوه وأبوه فيربهما رثاء فائرا ، وهورتاه يدل على مكنون ضميره وأنه كان يشعر في أعماقه بأن أباه سلبه حقه . وهو في ديوانه يكثر من مديح أخيه العزيز ، ونحس صدقه في هذا المديح وإخلاصه له ، ومع ذلك كان لا يسلم من الوشاة بينه وبين أخيه ، مما جعله يبعده مرة إلى عين شمس بيجوار القاهرة ومرة ثانية إلى الرملة بفلسطين ، ويألم ألما شديدا لغرته وبعده عن ملاعب مجونه ، وسرعان ما يردّ العزيز إليه حريته . وهما فترتان صغيرتان في حياته المثيرة بالقاهرة حتى وفاته سنة ٣٧٤ .

وكان العزيز يقدق عليه إغداقًا عظيما ، فقد جعل القصور على بركة الحبش - بمصر القديمة الآن - خالصة له ، وكانت تطل على النيل ومن حولها حدائق بديعة ، وذهب له بستانا عظيمًا يعرف باسم المشوق ، غير ما كان يفضى عليه من الأموال الضخمة . وكل ذلك أتاح له أن يجامح حياة ترف ولهو في قصوره وبساتينه ورياضه وفي الأدب . وكان ينتهز فرصة الأعياد الكثيرة : الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية ، فيشارك الشعب في مرحه وقصفه ، سواء فيما كان يقم من

الذي ذكرناه فقد كان لا يزال في سقاطع شابه ، ولقد عاد فصرها عنه مرة ثانية بعد وفاة أخيه عبد الله . وربما كانت كتابة نجم بأي حل لاطعة في أنه ألجب فعلا .

(١) سيرة جوفد (محقق د : كامل حسين) ص ١٢٠ .
(٢) ذكر ابن الأثير في الحلة السيرة أن السبب في صرف المزح لولاية العهد عن نجم أنه لم يتجب ولدا . غير أن صريحها عنه وهو لا يزال في نحو العشرين من عمره يؤكد السبب

مضارب وسراقات وقباب ببركة الحبش أو لما كان يتخذ من قوارب نضاه بالشموع لئلا في النيل ، والمضنون والمغنيات بطربون الناس . وهو يمر بزوارقه على قواربهم ، ويستمع إلى من معهم ويُسمعهم بعض قيامه . وفي ديوانه ما يصور كتوس اللهو والمجون التي كان يحب منها عباً ، ومربنا مديحه لأخيه العزيز وما أذاعه ونشره فيه من مبادئ الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وعقيدتها في الإمام وأرضاعه عن البشر بمجهره الروحاني اللطيف وجسده النوراني الشفاف وعقله الكلي الفعال وإسباغ الصفات الربانية عليه . ويتبادى نجم في ذلك ومثله حتى لكأنه داعية من دعاة الدولة ودعاة أخيه العزيز خاصة وحسبنا ما صورناه عنه في حديثنا عن المديح . وهو في الديوان بضيف إلى هذا المديح فخرا يمتزج أحياناً بعقيدته في الأئمة ، وكأنه الإمام المنتظر ، إذ يقول :

أنا الصبحُ	أنا الشمسُ	أنا البدرُ	الذي بَرى
أنا المرجوُ	في المُنبرِ	أنا المرجوُ	في البُنى
أنا السُّبُلُ	للنعمى	أنا الكاشفُ	لِضرِّ
أنا الرائقُ	للفتى	أنا القاصمُ	للظُهر

وكانما تجسدت فيه شخصية أحد الأئمة ، فهو نور الصبح ونور الشمس ونور القمر ونور الأنوار الذي يستمد منه كل نور ، وهو مدبر الكون ومقسم الرزق المرجو في العمر واليسر والمسيح للنعمى والكاشف للضر الرائق لفتى القاصم للظهر . ويستمر فيقول إنه هو الحاطم للعظم والجابر للكسر والعالم بالذكر ، يريد أنه العارف لبواطن الذكر الحكيم ، كما يزعم الإسماعيليون لأئمتهم . ولا يبعد أن يكون مثل هذا الفخر هو الذي كان يتخذه الوشاة أداتهم للوقعة بينه وبين أخيه العزيز ، مما جعله يبعده ، كما ذكرنا ، مرة إلى عين شمس ومرة إلى الرملة . وتتردد أصداؤه من هذه المعاني في أشعاره في صوت عال تارة ، وتارة ثانية في صوت خفيض ، ومن قوله في ذلك :

أبني على إن نكنزُ نُنتى	إلى حَسْبِ أَنافَ بنا وَجَدُ أَرْوَعاً ^(١)
فلقد علمتُ أنتى أغشى الوغى	وأنوبُ في الجبلى قَوَولا مُشِيعاً ^(٢)
ولقد علمتُ أنتى رُضْتُ العلا	يَقَمَّا وحاولتُ المكارمَ مَرَضُعا ^(٣)

(١) أنف : أشرق وأرضع .

القول يشير إلى بلائه في شعره .

(٢) الجبلى : الأمر العظيم . قولا : صيغة مبالغة من

(٣) اليغ : اتقى في لسان شاعر .

فدعوا لي الشرف الذي شديته إذ هيضتموه فانكفأ وتقصصاً^(١)
 لي في المشرق والمغرب جولة يقدرو بها قلب الزمان مصدعاً
 فادفع بحد السيف كل ظلامة إن لم يجد يوماً سواء منقذاً
 فإليك أوصاني الوصي ورخطه وعلى فرض أن أطيع وأسمعا

وهو يخاطب أسرته العلوية ذات الحسب العال والخط العظيم واضعاً بين يديها شجاعته ونفوذه
 في الأمور العظيمة برأيه المحكم وشره البلخ ، ويزعم أنه راض العلاء وساسها في مطلع شبابه وأنه
 حاول المكارم منذ كان في المهد مرضعاً . وإذن فليطوه حقه والشرف الذي يمنونه منه ، وكأنه
 ينلهم ويهدمهم ويتوعدهم إن لم يردوا عنه ظلمهم ويردوا إليه الحق الملوب ، ويزعم أن تلك
 وصية جده أبي الأوصياء علي بن أبي طالب وأبائنه من الأئمة وأن فرضاً عليه أن يسمع ويطيع .
 ولا ريب في أن هذه المعزوة التي كان يوقعها كثيراً على قيثارته كان يضيق بها العزيز ، غير أن غمتها
 سرعان ما كانت تتكشف عن صدره حين يستمع إلى مدائح تميم فيه وترديد قلميته ووجوب
 طاعته .

ومعزوة ثانية كان كثيراً ما يعزفها تميم ويلحنها على وتر القفر في قيثارته ، ونقص ردوده
 العنيفة على فخر عبد الله بن المعتز العباسي بأسرته العباسية الهاشمية . وله إزاهه موقنان : موقف
 يختار فيه قصيدة من قصائد ابن المعتز في فخره بأسرته وينقصها نقضاً بما يصور من مفاخر أسرته
 الفاطمية . وموقف ثان لا يتقيد فيه بقصيدة معينة يرثي عليها . وهو في الموقف الثاني حر يختار أي
 وزن ينظم فيه وأي قافية ، أما في الموقف الأول فيتقيد بوزن القصيدة التي يرد عليها وقافيتها على
 شاكلة ما كان يحدث بين جرير والفردق في نقائضها ، ومن قصائد الموقف الأول رائية لابن المعتز
 استلها بقوله : ه أي ربيع لآل هند وداره عند تميم إلى نقضها بقصيدة تماثلها في الوزن
 والروي ، وفيها يقول ، راداً على ابن المعتز والعباسيين جميعاً :

ليس عَبَّاسُكُمْ كمثل عليٍّ هل نقاسُ النجومُ بالآلِ
 مَنْ له الصُّهْرُ والمولداةُ والثَّفْرةُ ، والحربُ ترعى بالشرارِ
 مَنْ دَعَاهُ اليَبِيُّ خُتَنًا وسًا ه أنما في الخفاء والإظهارِ

(١) حضتموه : من حاض الحظ إذا حطمه وكان على
 وشك أن يتحير .

مَنْ لَهُ قَالَ أَنْتَ مِنْهُمْ كَهَارُو نَ وَمَوْسَى أَكْرَمَ بِهِ مِنْ نِجَارٍ
 ثُمَّ يَوْمَ الْقَدِيرِ مَا قَدْ عَلِمْتُ خَصَّهُ دُونَ سَائِرِ الْحُقُوفِ
 مَنْ لَهُ قَالَ : لَا تَقَى كَعَلَى لَا وَلَا مُنْصَلُّ سَوَى ذِي الْفَقَارِ
 مَنْ نَوَطًا الْفِرَاشَ يَحْلُفُ فِيهِ أَحْمَدًا وَهُوَ نَحْوُ يَثْرَبَ سَارِ
 وَلَنَا حُرْمَةُ الْوِلَادَةِ وَالْأَخْ هَامَ وَالسُّنْبُ وَالْهَدَى وَالنَّارِ
 نَحْنُ أَهْلُ الْكِسَاءِ سَادَتُنَا الرُّوحُ أَمِينُ الْمُهَيْمِنِ الْجُبَارِ
 حُجَجٌ كَلِمًا تَأْتِلُهَا الْعَا لِمُ بَانَتْ لَهُ يَأْنَ النَّارِ

ونعم يوازن بين جده علي بن أبي طالب وعمه العباس بن عبد المطلب ، ويفاخر بأنه صهر
 الرسول ﷺ وساعده الأيمن في الحرب ، ويشير إلى حديث نبوي ترويه الشيعة : أن النبي عليه
 السلام قال : « علي مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » . وهم يستدلون بهذا
 الحديث على أن عليا ليس أحق بالخلافة من العباس فحسب ، بل هو أيضا - في اعتقادهم -
 أحق من الشيخين : أبي بكر وعمر بالخلافة . ويذكر يوم غدير خم وهو موضع بين مكة والمدينة
 أنه في الرسول ﷺ على ابن عمه علي ، وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، وتذهب الشيعة
 إلى أن الرسول عليه السلام أوصى في هذا اليوم بالخلافة لعلي . ومنذ أواسط القرن الرابع الهجري
 يتخذ الشيعة هذا اليوم الموافق للثامن عشر من ذي الحجة عيداً لهم . ويشير نعيم إلى ما يرويه الشيعة
 من أن الرسول قال : لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار : سيفه . ويذكر أنه هو الذي اصطفاه
 الرسول ليناك في فراشه ليلة خرج مع أبي بكر مهاجراً إلى المدينة ، مخترقاً حصاراً مسلحاً ضربه
 فريش حول بيته ، حتى لا تنبّه إلى خروجه ، وكانت قد نُسيت القضاء عليه (يريدون أن يُطْفئوا
 نور الله وبأبي الله إلا أن يتم نوره) . ويقول إنهم يشتركون مع العباسيين في أنهم من سلالة
 أعمام رسول الله ويرتفعون فوقهم درجات بأنهم أبناء بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء . ويشير
 إلى ما تقصّر الشيعة من أن الرسول ألقى كساءه عليه وعلى السيدة فاطمة وعلى زوجها وابنيها الحسن
 والحسين وكان سادسهم - كما يقول نعيم - جبريل وقال : نحن أهل البيت في خير برددونه . ويذكر
 جهاد علي المبرور في غزوات الرسول وخاصة في بدر وأحد وخيبر وكيف أبلى فيها جميعاً بلاء عظيماً .
 ويقول هذه كلها براهين ساطعة كالشمس بأفضلية علي وارتقاء منزلته على عمه ، ويهدد العباسيين

بحرب مبيدة تعصف بهم عصفا شديدا .

ونعم في الموقف الثاني الذي لا ينقص فيه قصيدة بعينا لابن المعتز يلح على هذه المعاني نفسها في رده على العباسيين وفخره عليهم فخرا مضطرا بشرر كثير ، يريد به أن يثبت أن العلويين أحق بالخلافة من أبناء عمومته سواء من جهة إرثهم لها عن طريق جدهم على وجدتهم فاطمة بنت الرسول عليه السلام أو عن طريق وصاية الرسول بها لعل أو عن طريق خدماته الجليلة للدين الحنيف ونصره . ويمد طرفا من هذا الجدل إلى بني أمية وهو يقصد أصحاب الأندلس في أيامه ، وكان أخوه العزيز كتب إلى صاحبها الأموي - ولعله المستنصرين عبد الرحمن الناصر - كتابا يثبه فيه ويهجوهم ، فكتب إليه : « أما بعد فلأنك قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبتك والسلام » فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب ^(١) . ولعل ذلك ما جعل تبما يتصدى للأمويين ويفخر عليهم بمثل قوله :

إِنْ قُرَيْشًا بِعَلَا هَاشِمٍ تَفْخَرُ فِي عَقْوَةِ عَرَبِيَّهَا ^(٢)
 إِنْ يَكُ مِنْ يَاقُونَا هَاشِمٌ فَعَبْدُ شَمْسٍ مِنْ ضَغَايِهَا ^(٣)
 اسْمٌ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ أَهْلُ مَعَالِيهَا وَتَقْدِيرِهَا
 دَعَا عَبْدَ شَمْسٍ وَأَبَاطِيلَهَا فَقَدْ بَدَا اللَّهُ بِتَنْكِيْهَا
 قَبِيلُهُ مَا طَهَّرَ اللَّهُ مِنْ شَابِعِهَا مِنْ إِثْمِ تَنْجِيْهَا

فهاشم جد الرسول والعلويين فخر قريش في ساحة غيلها الملتف ، وهو وبنيه باقوت قريش ومعدنها النفيس أما بنو أمية فحجارة صلده ، وللهاشميين بفضل الرسول علاهم وقديسيتهم ، أما عبد شمس وبنيه فأصحاب أباطيل مزورة ، وقد هدم الله دولتهم في المشرق ، وإنها لقبيلة آتمة إنما فظيما ، وإنها لتعصم كل من شابعها وصمة شنيعة . ويستمر فيذكر سفكهم لدم الحسين وسبيهم لمن كن معه من النساء ، مسجلا بذلك عارا عليهم لا يماثله عار .

(١) الضائيس : جمع ضيوس : الضمير الملم.

(١) ابن خلكان ٣٧٢/٥

(٢) عقوة : ساحة . عريس : غيل الأسد .

طلّاح^(١) بن رزّيك

أرمنى الأصل قدّم إلى زيارة مشهد الإمام علي بن أبي طالب بالنجف ، وكان لا يزال شاباً واعتنق مذهب الشيعة الإمامية ، وتعرّف في أثناء زيارته له على شخص يسمى ابن معصوم يدّعي أنه كان من دعاة الفاطميين ، فحبّب إليه زيارة القاهرة والانتظام في خدمة القوم ، ولقيت دعوة الرجل من نفسه قبولاً حسناً ، فصار إلى مصر ، وترقى في خدمة الفاطميين حتى وُفّده حاكماً لمنية الحصب بالصعيد (النيا الآن) وحدث أن تأمر عباس الصنهاجى وزير الخليفة الظافر مع ابنه نصر على قتل الخليفة سنة ٥٤٩ هـ وتمت المؤامرة ، فاستغاث بيت الفاطميين بطلّاح ضد عباس ، فأقبل يريد محاربته حتى إذا قرب من القاهرة فرعبس بما نهب من أموال القصر الفاطمى إلى الشام ، وقتله الصليبيون في الطريق . ودخل طلّاح القاهرة فخلعت عليه الخلع الخاصة بالوزارة وتُعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين . وكان قد ولى الخلافة الفاطمية ابن للظافر تلقب بالفاتر (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وكان صبيّاً لا يعلم خمس سنوات ، فدبّر البولة طلّاح وأحسن تديرهما ، حتى إذا نوى الفاتر بعد نحو ست سنوات اختار للخلافة بعده طفلاً لم يبلغ الحلم من الأسرة هو عبد الله بن محمد الملقب بالعاقد ، وزوّجه ابنته ، وأصبح صاحب الأمر كله في الدولة . وأخطأ إذ قطع رواتب الخاصة ، فلم يدرك عام في خلافة العاقد حتى دبّرت له مؤامرة لقطه ، فقتل سنة ٥٥٦ هـ ويقال إن العاقد نفسه هو الذى أعمل الحيلة في قتله لاستبداده بالأمر من دونه ، وخاصة أنه كان شيعياً لا على مذهب الفاطميين الإسماعيليين ولكن على مذهب الإمامية . ويقول المقرئى : « كان رجل وقتة فضلاً وحققاً وسياسة وتدبيراً » . ولم يكن يستر عقيدته الإمامية بل كان يعلنها ويجادل فيها الفقهاء الإسماعيليين ، وصنف في ذلك كتاباً سماه « الاعتاد في الرد على أهل المعتاد » ويقول المقرئى إنه جمع له الفقهاء وناظرهم عليه . وكان يجادل أيضاً بقوة عن مذهب المعتزلة في القدر وأن الإنسان حر الإرادة لا مجبر كما يقول القدرية ، وله في ذلك قصيدة سماها : « الجهورية في الرد على القدرية » ومن قوله في الرد عليهم :

النكت المصرية عليه وعمل حياته وأجاده ومدائمه ومدائح
غيره فيه ، ونشر محمد هادى الأمينى ديوانه في النجف ،
ولمؤدع في شتمته ثباً مفصلاً بمصادر ترجمته .

(١) انظر في طلّاح وزوجته وأشباهه الحريدة ١٧٣/١
والغرب (قسم القاهرة) ص ٢١٧ وابن خلكان ٥٢٩/٢
والجزء الخامس من النجوم الزاهرة في مراضع عنققة (انظر
القهرس) وخطط للمقرئى ١٩٢/٣ ونفى عارة اليمنى كاه

بِأَمَةٍ سَلَكَ ضَلَالًا بَيِّنًا حَقَّ اسْتَوَى إِقْرَارُهَا وَجُودُهَا
يَقْتُمُ إِلَى أَنَّ الْمَعَاصِيَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِسْتَقْدِيرِ الْإِلَهِ وَجُودُهَا
لَوْ صَحُّ ذَا كَانَ الْإِلَهِ يَرْعِيكُمْ مَنَعَ الشَّرِيعَةُ أَنْ تُقَامَ حُدُودُهَا

وقد فتح أبوابه للشراء ، وكثير منهم كانوا يختطفون إلى مجلسه في منزله وخاصة المجلس بن
الحباب والمهذب بن الزبير وابن قادوس ، وأصبحت القاهرة لعمده كعبة للقصاد من شراء البلاد
الرية أمثال ابن الدهان الموصلي وعارة اليمنى ، ولكل هؤلاء الشعراء فيه قصائد طائفة ، وفيه
يقول العاد : « نفق في زمانه النظم والنثر واسترق بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ،
والتخلع لنفسه طماء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاصي بالمطاء » . وقد
أدار العاد كثيرا من تراجمه في القسم للمصرى من كتابه الخريدة عليه وعلى مدائحه . وألف في أبياته
الرشيد بن الزبير كتابه « جنان الجنان ورياض الأذهان » في معاصريه من الشعراء ومادحه
وافتحه بترجمته ، كما ألف شاعره المجلس بن الحباب كتابا قصره على مدائح الشعراء فيه .

وقد حقق محمد هادي الأميني ديوانه ونشره بالنجف في نحو مائة وخمسين وعشرين صحيفة ،
ويقول ابن خلكان إنه رأى ديوانه وأنه كان يقع في جزئين ، وكان ديوانه المنشور وإنما هو
مقتطفات من ديوانه الأصل ، واتمه بعض معاصريه بأن كثيرا من أشعاره ليس له وإنما هو من
صنع شاعريه : المجلس بن الحباب والمهذب بن الزبير ، ويبدو أنها تهمة غير صحيحة ، وأنه ربما
كان يرجع إليها لتصحيح بعض أشعاره إن صح ما قيل من أنها كانتا يصلحان له شعره . وأكثر
الديوان المنشور في مديح آل البيت وراثتهم ورثاء الحسين خاصة ، ولعل هذا هو سبب النهم
الحزين الكثير في شعره ، إذ الشيعة دائما يحزنون منذ مقتل الحسين وقد اتخلوا يوما بتدبونه فيه هو
يوم عاشوراء ، وجعلوا شاعرهم السواد ، وهو سواد بطبع كثيرا من أشعار طلائع بالتشاؤم والتفكير
الكثير في الموت ، حتى في يومه البيج يوم جلوسه في الوزارة إذ نرى الدنيا تتحول بهجتها أمام
عينه حزنا وشؤما وموتا ، وإذا هو ينشد حين ترجمه في دَسَّت الوزارة :

انظُرْ إِلَى ذِي الدَّارِ كَمْ قَدْ حُلَّ سَاحَتِهَا وَزِيرُ
وَلَكُمْ نَبْخَرُ آمَنَّا وَسَطَ الصَّفُوفِ بِهَا أَمِيرُ
ذَهَبُوا فَلَا وَاقَ مَا بَقِيَ الصَّغِيرُ وَلَا الْكَبِيرُ
وَلشَلِّ مَا صَارُوا إِلَيَّ مِنْ الْفَنَاءِ غَدًا نَصِيرُ

وكان طلائع شجاعا بل مثالا عاليا من الشجاعة والبطولة ، قضى بعدُ الجيش المصرى لحرب الصليبيين ونازلهم مرارا بَرًّا وبحرا ، وظل ينازلهم ويقاثلهم طوال أيامه ، حتى لقيه معاصروه بأبى الغارات ، فقد كان جيشه لا ينى آيبا ذاهبا إلى مواجهة الصليبيين وسحق جموعهم فى جنوى فلسطين ودق أعناقهم وسفك دمائهم فى حزونها وسهولها وعلى سفوح جبالها ، وله فى تصوير ذلك قصائد كثيرة من مثل قوله :

تَوَالَتْ عَلَيْنَا فِي الْكَتَائِبِ وَالْكَبِ بِشَائِرُ مِنْ شَرْقِ الْبِلَادِ وَمِنْ غَرْبِ
جَعَلْنَا جِبَالَ الْقُدْسِ فِيهَا وَقَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا عَنَاقُ الْخَيْلِ كَالْتَقَتِ السُّهُبُ^(١)
وَقَدْ أَصْبَحَتْ أَوْعَارُهَا وَحَزُونُهَا سَهْلًا تَوَطَّأَ لِلْفُؤَارِ وَالرُّكْبِ
وَلَا غَدَتْ لَامَاءَ فِي جَبَّتَانِهَا صَيَّتْنَا عَلَيْهَا وَابِلًا مِنْ دَمِ سَكْبِ^(٢)

وهو فرح مبهج بنصر جيشه على حملة الصليب وما أذاقهم من التقتيل ونثر دمائهم على جنبات فلسطين حتى سالت هناك أنهارا . وكثيرا ما كان يرسل بيشائر انتصاراته على الصليبيين إلى صديقه أسامة بن منقذ الشَّيْزُرِيِّ وكان قد زار مصر وأقام فيها مدة أيام عباس الصهاجى وانعقدت بينه وبين طلائع صداقة فكان يخبره بانتصاراته حتى يستثير نور الدين صاحب حلب لتضييق الحناق على حملة الصليب ، وكانت فرحته بالغة حين انتصر الجيش المصرى بقيادة ضرغام عليهم فى سنة ٥٥٣ هـ نصرًا عظيما ، وصور ذلك لأسامة فى ميمية استلها بقوله :

أَلَا هَكَذَا فِي الْقَوِّ تَغْصِي الْعِزَائِمُ وَتَغْصِي لَدَى الْحَرْبِ السُّيُوفُ الصُّوَارِمُ^(٣)
وَتُعْزَى جِيُوشُ الْكَفَرِ فِي عُقْرِ دَارِهَا وَيُوطَّأُ حِجَاهَا وَالْأَنْفُ رَوَاغِمُ^(٤)
خَيْوَلٌ إِذَا مَا غَارَتْ مِصْرَ تَبْنَى عِدَا فُلْهَا الثُّصْرُ الْمَبِينُ مِلَازِمُ
يَسِيرُ بِهَا ضِرْغَامٌ فِي كُلِّ مَازِقٍ وَمَا يَصْحَبُ الضَّرْغَامُ إِلَّا الضَّرَاغِمُ^(٥)
فَقُولُوا لِنُورِ الدِّينِ لَا قُلَّ حَدُّهُ وَلَا حَكَمْتُ فِيهِ اللَّيَالِي الْقَوَاشِمُ^(٦)
تَجَهَّزْ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ وَلَا تَهِنْ وَتُظْهَرْ فَتُورَا أَنْ مَضَتْ مِنْكَ حَارِمُ

(١) عقر : وسط .

(٢) الضراغم : جمع ضرغام وهو الأسد .

(٣) القواشم : الشميدة الظلم .

(٤) عناق الخيل : كرهلها . الثفت : القلاة . السهب :

السموى .

(٥) وابلا : مطرا شديدا . المكب : الماطل السائل .

(٦) الصوارم : جمع صارم وهو السيف القاطع .

وهو يشيد بجيش مصر الباسل وانتصاره للمصر للصليبيين : انتصار أسده الهادرة ، ويدعو أسامة إلى إبلاغ نور الدين هذا الانتصار ، وكان حملة الصليب قد استولوا منه على حصن حارم تجاه أنطاكية وعقدوا معه هدنة ، ويدعوه إلى نقض ما أبرم معهم والاستعداد لحربهم حتى يضيّق عليهم في الأطراف الشمالية كما يضيّق الجيش المصرى في الأطراف الجنوبية .

وكان الأسطول المصرى لا يزال يحجب سواحل الشام ويفتك بسفن الصليبيين وأغار على عكا وثغر بالقرب من حمص يسمى أنطّرطوس ونكّل في الثغرين بحملة الصليب وسفنه فكتب طلائع إلى أسامة قصيدة يسأله فيها أن يشر الملك العادل نور الدين بذلك ويستنهضه لفتح القدس يقول :

إن بعض الأسطول نال من الإفـ رنجـ مالا يناله التأميلُ
فحوى من عكا وأنطّرطوس عِدَّةٌ لم يُحِطْ بها التحصيلُ
أُتِلِّقْ قولنا إلى الملك العا دل فهو المرجو والمأمول
قُلْ له كم تُأطل الدين في الكفـ ار فاحذر أن يفضب المظلومُ
سير إلى القدس واحتبب ذاك في الدـ ـ فبالسير منك يُشقى الغليل

وواضح أن جيوش مصر وأساطيلها لعهد طلائع كانت ماتزال تغدو وتروح إلى حملة الصليب منزلة بهم المزامم تلو المزامم . وداعما يستحث طلائع في حماساته إلى أسامة صاحب نور الدين أن يزحف إلى حملة الصليب شمالا ، بينما يزحف هو إليهم جنوبا ، حتى يقفوا بين شقي الرحا فتدور عليهم الدوائر . ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن مصر لم تقصر في واجبا إزاء حملة الصليب لعهد طلائع ، وكانت تُعدُّ حتى أيامه مقصرة في القيام بهذا الواجب ، قصرت أيام الأفضل بن بدر الجمالي ومن جاء في إثره من الوزراء ، فلما أقيمت مقاليد الأمور إلى طلائع وضع نصب عينيه أن تنهض بواجبها ، فجهّز الجيوش والأساطيل وأمدّها بالرجال والعتاد . وداعما يبيب في كثير من حماساته بنور الدين أن يهجم عليهم شمالا بينما يهجم هو عليهم جنوبا ، حتى يمزقوا كل ممزق ، غير أن بدا آتمة امتدت إليه ، فحالت دون أمانيه في الانتصار الحاسم على حملة الصليب إذ قضت عليه ، وراثه عماره وغيره من الشعراء مرثى حارة .

ابن (١) النُزوي

هو الوجه على بن يحيى النُزوي أصله أو أصل آبائه من ذروة بلدة باليمن ، وفي ترجماته ما يدل على أنه نشأ بمصر إن لم يكن ولد بها ، وهو من شعراء الدولتين الفاطمية والأيوبيية ، ويقول ابن سعيد : إنه رأى ديوانه وقرأ فيه مدائح في الخليفة العاضد في صباه وأخرى في صلاح الدين وأخيه العادل والفاضل والفاضل وابن شكر وزير العادل . ويذكر بعض المعاصرين أنه توفي سنة ٥٧٧ وقد ذكره العماد في الحريرة التي ألفها في أوائل العقد الثامن من القرن السادس ، فقال إنه شاب نشأ في هذا الزمان ، وفي كلام ابن سعيد للمار أنه مدح الخليفة الفاطمي العاضد في صباه ، وذكر أنه مدح ابن شكر وزير العادل منذ سنة ٥٩٥ . ولم يذكر السيوطي في حسن المحاضرة تاريخ وفاته ، غير أنه ذكره بعد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ وكل ذلك يؤكد أنه لحق القرن السابع وعاش فيه فترة من الزمن .

وكان ابن النُزوي شاعرا مجيدا توه به معاصروه في المديح ، وأنشد له ابن شاعر في القوات مقطعات غزلية بديعة ، ويبدو أن ابن سعيد لم يكن يعجب به ، إذ قال إنه اطلع على ديوانه فوجده دون ما كان يظن ، ومن غزلياته قوله :

يَابَانُ إِنْ كَانَ سُكَّانُ الْحِمْيِ بَانُوا قَبِيضُ شَأْنِي لَهُ فِي إِنْزِهِمْ شَأْنُ
مَنْ لِي بِأَقَارِ أَنْسٍ فِي دُجَى طَرَرٍ أَفْلَاكُهَا الْعِيسُ وَالْأَبْرَاجُ أَظْطَاعُ (٢)
مِنْ كُلِّ قَانِيَةِ الْحَدِيدِ نَاهِدَةٌ لَوْ كَانَ لِلضَّمِّ أَوْ لِلثَّمِّ إِمْكَانُ

وفي البيت الأول توريثان فكلمة بأن الأولى نوع من الشجر طالما ذكره المهيون ، وبانوا بعدها بمعنى بعدوا ، ولفظ شأن الأول : واحد الشئون وهي مجارى الدمع و ه شأنه في آخر البيت بمعنى خبر . والصورة في البيت الثاني تامة وبديعة ، فهو يمتنى لو يلقى أقاربا مضية في ليال شديدة من الطرر ، ويقول إنهن ركنين العيس فكأنما تحولت بهن أفلاكا وتحولت الأظعان أبراجا . ولعل

(١) انظر في ابن النُزوي وترجمته وأشعاره الحريرة

١٨٧/١ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٣٣٣ و ٣٤١ والقوات

١٨٨/٢ وحسن المحاضرة ٥٩٥/١ ٤١٦/٢ والروضتين

٢٧/٢ وفي مواضع متفرقة والحرانة ص ١٢٣ وابن خلكان

في مواضع من تراجمه (انظر الفهرس) .

(٢) الطرر : جمع طرة وهي مقطعات شعر المرأة الذي

تصفه على جبهتها . العيس : الإبل .

موهبة الشعرية لم تبرز في فن كما برزت في فن الهجاء ، وقد اشتهرت له قصيدة فيه نظمها في شاعر معاصر له أحذب هو ابن أبي حُصَيْنَة وفيها يقول :

لَا تَنْظُرُنَّ حَدَبَةَ الظُّهْرِ عِيَا فَهِيَ لِلْحَسَنِ مِنْ صِفَاتِ الْهَلَالِ
وَكَذَلِكَ الْقَيْسِيُّ مُحَدِّثَاتٍ وَهِيَ أَتَىكَ مِنَ الْقَلْبِ وَالْعَوَالِ^(١)
وَإِذَا مَا عَلَا السَّامُ فَفِيهِ لِقُرُومِ الْجِبَالِ أَيْ جِبَالِ^(٢)
وَأَرَى الْإِنْخَاءَ فِي مَسِيرِ الْكَأِ سِرٌّ يُلْفَى وَيَحْلُبُ الرُّبَالِ^(٣)
قَدْ تَحَلَّيْتَ بِأَنْحَاءِ فَأَنْتِ أَلِ رَأَيْتِ الْمُسْتَرْ فِي كُلِّ حَالِ
وَتَعَجَّلْتَ حَمْلَ زَرْكِ فِي الظُّهْرِ بِرَ فَأَمَّا فِي مَوْقِفِ الْأَهْوَالِ
كُونَ اللَّهُ حَدَبَةً فَيْكَ إِنْ شِئْتَ مِنْ الْفَضْلِ أَوْ مِنْ الْإِفْضَالِ
فَأَنْتِ رَبُوءٌ عَلَى طُودٍ جِلْمٍ مِنْكَ أَوْ مَوْجَةٌ بِبَحْرِ نَوَالِ
مَارَأَتْهَا النِّسَاءُ إِلَّا تَمَتَّتْ لَوْ غَدَتِ حِلْبَةً لِكُلِّ الرُّجَالِ
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَجَرِّ بُدٌّ فَغَسَى أَنْ تَرُورِي فِي الْحَبَالِ

وهو هجاء مؤلم أشد الإيلام ، إذ يعرض فيه حدبة ابن أبي حُصَيْنَة على أنها ميسم جمال وصفة من صفات الحسن في الهلال ، ويأخذ في بيان حسنها وفضائلها ، فالقسي أشد فحشا من أسنة السيوف والرماح ، وهي مصدر جمال كالسنام للجمال ، وما كان الانحناء عيبا في منقار النور وغلب الأسد المصور . ويتصوره راكما مدى حياته ، ويعود فينبئ عنه تقواه وصلاته ، ويقول إن حدبته وزركبير مجسد تعجل جملة في دنياه . ويعود إلى السخرية والنهم فيقول إنها ربوة تعلو طود حلمه أو موجة تعلو مياهه ، ويبلغ من السخرية به مبلغا بعيدا حين يزعم له أن النساء تعدها حلية وتسمى لو تغملى بها كل الرجال . ويتأدى في سخريته ، فيقول إنه مفتون برؤية جماله ، ولكنه هاجر له أبدا فيتحنن لو رآه . خيالا في منامه وأحلامه . ويخزقها متأدبا وخز الإبر فيقول فيه :

هُوَ فِي الْفَقْهِ مَاهِرٌ لَا يُبَارَى وَأَدِيبٌ فِي جُمْلَةِ الشُّعْرَاءِ
لَا إِلَى هَوْلَاءَ - إِنْ طَلَبُوهُ - وَجَدُوهُ وَلَا إِلَى هَوْلَاءَ

(٣) منير الكاسر: منقار الطير الجارح. الرجال: الأسد.

(١) القبا: جمع ظبه وهي حد الحيف. والعوال: الرماح.

(٢) قروم الجمال: عقابها

فهو يدعى الفقه وإذا طلبه الناس بين الفقهاء لم يجدوه وهو يدعى الأدب وإن طلبه الناس بين الأدباء افتقدوه ، وهو يشير إلى الآية الكريمة في سورة النساء : (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) . وكان بعاصره في شبابه شاعر يسمى هبة الله بن وزير دخل معه حماما فقال ابن وزير :

فَهْ يَوْمٌ بِحَمَامٍ نَعَمْتُ بِهِ وَالْمَاءُ مَا بَيْنَنَا مِنْ حَوَظِهِ جَارِي
كَأَنَّهُ فَوْقَ شَفَافِ الرُّخَامِ ضُحَى مَاءٌ يَسِيلُ عَلَى أَثْوَابِ قَصَارِ
والقصار : مبيض الثياب وغاسلها ، وكأن الشاعر غفل ، فشبه الماء بالماء . وانتبه الصديق ابن الذرؤى الفرصة ، فقال على البديهة :

وَشَاعِرٌ أَوْقَدَ الطَّبِيعُ الذِّكَاةَ لَهُ فَكَادَ بِخَرْفِهِ مِنْ قَرَطٍ إِذْكَاهُ
أَقَامَ يُجَاهِدُ أَبَا قَرْمِصَتَهُ وَشَبَّهَ الْمَاءَ بَعْدَ الْجُهْدِ بِالْمَاءِ

وشاع الشعر الأخير على ألسنة المصريين إلى اليوم لكل من يصيبه مثل هذا المي في الكلام عمدا أو غفلة . وكان أحدا لم يكن يسلم من لسان ابن الذرؤى حتى الأصدقاء ، بل أيضا حتى الطبيعة ، إذ نجده يهجو النيلوفر ، وهو ما يسمى في الريف المصري باسم البشنين وهو زهر متفاوت الزرقة والحمرة بديع المنظر ، ولم يشفع له حسنه عند ابن الذرؤى فعمد إلى هجائه بقوله :

وَنَيْلُوفَرٍ أَبْدَى لَنَا بَاطِنًا لَهُ مَعَ الظَّاهِرِ الْخَفِيرِ حُمَرَاءُ عَتَدِمَ^(١)
فَشَبَّهَتْهُ لَنَا قَصْدَتْ هَجَاةَ بِكَاسَاتِ حِمَامٍ بِهَا لَوْنَةُ الدَّمِ^(٢)

وكانه يريد أن يقول إنه يستطيع أن يتضح كل حسن منها يكن حسنه حتى زهر النيلوفر الذي طالما تنقن به الشعراء المصريون من قبله ومن حوله ، وقد تنقنا به طويلا من بعده .

(١) العتدم : خشب أحمر يتخذ للصباغة .

(٢) الحجام : معروف أنه لعم باللهم .

أحمد^(١) بن عبد الدائم

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشرمساحي نسبة إلى شرمساح : بلدة قريبة من المنصورة في شمال الدلتا ، ولد في أوائل زمن المالك سنة ٦٦٣ وأقبل مثل لداته على الدراسات الدينية واللغوية ، وأكب على الشعر حتى مهر فيه غير أنه لم ينتج به إلى زهد وتصوف ولا إلى غزل ومديح ، وإنما اتجه به إلى الهجاء يسلق الناس بلسانه ويخافون شره فيأدرون إلى إعطائه بعض النوال . ولم يقف بهجائه عند أهل مصر فقد كان يرحل إلى دمشق ويتخذ هناك نفس الوسيلة ، ويقال إنه دخل على قاضيه شهاب الدين الحويي وقدم إليه قصيدة هجو فردّها إليه وقال له : كأنك ذاهل ، فقال له : لست بذاهل ، بل صنعت ذلك عمدا لأشتهر فإنك إذا أدبني قال الناس : ما هذا ؟ فيجيبهم المؤدبون : هذا غريم القاضي ، فأشتهر ، فوصله وعفا عنه . وكان لا يقف في الهجاء عند حد ، إذ كان يستخدمه كما رأينا في هجو القضاة كذبا وبهتاناً ، وبالمثل كان يستخدمه في هجو علماء الدين غير متورع ، من ذلك أن المظفر يبرس الجاشنكير كان يقرب منه في سلطته بعد خلع الناصر بن قلاوون لنفسه سنة ٧٠٨ كلا من الفقيه ابن عدلان وزميله الفقيه ابن المرحل الدمياطي ، حتى إذا دار العام عزل نفسه وعاد الناصر بن قلاوون ، ولم يضع ابن عبد الدائم الفرصة ، فقد مدح الناصر بقصيدة بيته فيها يعودته إلى عرشه وهجو المظفر يبرس ويعرض بصحبته لشمس الدين محمد بن عدلان وصدور الدين محمد بن زين الدين الملقب بابن المرحل وبابن الوكيل ، ومن قوله فيها :

ولّي المظفّر لما فاته الظفّر وناصر الحق وافي وهو مُتَصَيّر
فقلّ ليبرس إن الدهر ألبسه أنواب عارية في طولها قصّر
لما تولى تولى الخير عن أمر لم يحمدا أمرهم فيها ولا شكروا^(٢)
وكيف تمشي به الأحوال في زمن لا النبل وافي ولا وإفاهم مطر
ومن يقوم ابن عدلان بتصرّيه وابن المرحل قل لي كيف يتصر؟

(٢) تولى الأول بمعنى تقلد الحكم . وتولى الثانية بمعنى أدير وأعرض .

(١) انظر في أحمد بن عبد الدائم وتاريخه ونشأته الفتاوى ٨٦/١ والدرر الكامنة لابن حجر ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٩/٩ ، ٢٤٩ .

وكان قد تصادف أن المطر لم يسقط في سنة ٧٠٩ بأرض مصر وقصّر النيل في فيضانه أجديت بعض البلاد وارتفع السعر . وعفا الناصر عن الشيخين في انضمامهما ضده إلى بيبرس الجاشنكير ، وكان ابن عدلان يتولى نيابة الحكم فأعفاه منها ، ومُرّ به ابن عبد الدائم فأنشده :

والله ما سرتني عزلُ ابنِ عدلانِ

فقال له : جزيته خيرا . فأكمل البيت قائلا :

من غير صَفْعٍ ولا والله أرضاني

وشاعت القصيدة . وكان آخر شيخ رماه بسهام هجائه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وكان يشرف على الأوقاف ، وكأنه أراد أن يبيّنه ، وكانت فيه صرامة فازدراء فانتقم لنفسه بهجائه وهجاء ابنه سنة ٧١٣ وكان فقيها ورعا مثل أبيه ، وتغصى القصيدة على هذا النمط .

متى يسمعُ السلطانُ شكوى المدارسِ ، وأوقافها ما بين عافٍ ودارسٍ^(١)
يموت عديمُ القوتِ بالجوعِ حَسْرَةً وَيَشْعُجُ بالأوقافِ أهلُ العُلباسِ^(٢)

وأخذ يتهم القاضي وابنه بعظامهما منها براء ، وكلها كذب وهتان واقتراء ، وكاد القاضي ينزل به عقابا صارما لولا أن تدخل بعض الأمراء واستغفاه فعفا عنه . وازدراء الناس بعد هذه الحادثة ازدراء شديدا ، وساءت حاله ، فإن لحوم العلماء مسمومة . وأخذ ينتقل في البلاد لا ينحصر طريق الرشاد إلى أن عاجلته منيته حوالي سنة ٧٢٠ وكأنما كان غمة زالت عن صدور الناس والشيوخ في زمنه .

حسن^(٣) البدرى المجازى الأزهرى

يقول الجبerty في ترجمته : « كان عالما فصيحاً مفوها متكلماً متقدماً على أهل عصره وأبناء عصره » ويقول كان أبوه ملازماً لقراءة كتاب الصحاح الستة : صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن ابن ماجه وسنن أبى داود وسنن النسائى وجامع الترمذى . وقد تفتحت موهبة الابن في سن

(٣) انظر في حسن البدرى المجازى الأزهرى تاريخ

الجبerty ٧٥/١ وما بعدها .

(١) عاف ودارس : محو زائل .

(٢) العلباس : جمع طيلسان وهو كساء كان خاصا بطباء الدين تميزا لهم .

مبكرة وعُني بنظم كثير من المتن الطمبة مثل رسالة الوضع للعلامة المضد ، والدرة السنية في الأشكال النطقية ورموز الجامع الصغير ، وكانت وفاته سنة ١١٣١ للهجرة . وكان قد أصبح شاعراً كبيراً ويصف الجبرتي شعره فيقول : له في الشعر طريقة بديعة وسليقة منجدة ، على غيره رفيعة ، وقفاً تجدد في نظمه حشواً أو تكللة ، وله أربعمائة في التصوف في نحو ١٥٠٠ بيت على طريقة الصادق والباقم ضمنها أمثالا ونوادير وحكايات ، وديوانه على حروف المعجم سماه باسمين : « تبييه الأفكار للتألف الفاضل وإسجاع الإيأس من الوثوق بالناس شرح فيه حقيقة شرار الخلق من الناس ، المنحرفة طباعهم عن طريقة قوم القياس » . وواضح من تسميته لديوانه أن شعره أو لجمهوره على الأقل لم يكن مديحاً وهجاءً وغزلاً وعتاباً وما إلى ذلك من موضوعات الشعر المعروفة إنما كان نقداً للمجتمع ، وهو نقد يشوبه كثير من الذم لسلوك الناس حتى يبدو إلى احتزلهم لما يتصفون به من الطمع والجشع والأنانية ، والعامل من اجتنابهم وفُرْ منهم فرار السليم من الأجرب لا من الأباهد فحسب بل أيضاً من الأقارب ، يقول :

أَنْتَى قَطَعْتُ كُنْ واحذر النَّاسَ جَمَلَةً وَلَا تَكُ مَفْرُورَ الظُّنُونِ الْكُؤَادِبِ
وَلَا سَمًا نَوْعُ الْأَقْرَابِ إِنَّهُمْ عِقَابُكَ فِي الدُّنْيَا وَعُقُورُ الْعُقَارِبِ (١)

ويستمر في هجو الأقارب وأنهم يشتمون الموت لك ، إن كنت ثرياً ليرثوك ، وإن كنت فقيراً كنت لديهم غيباً أحسن من الكلاب . وهو على هذا التحريص على الظن بالناس حتى بالأقرباء من ذوى الرحم ، وكاد لا يعلم من سباط ذمه وهجائه أحد حتى المتصوفة ، يقول فيهم من قصيدة طويلة :

احذَرْ أَوَّلِي التَّشْيِيعِ وَالسَّبِيحَةِ	وَالصُّوفِ وَالْمُكَاذِبِ وَالشُّمْلَةِ (٢)
قَدْ صَارَ إِبْلِيسُ لَهُمْ تَابَعًا	يَقُولُ يَا لَلْعُنُونِ وَالسُّجْدَةِ
مِمَّا حَوَّنِيهِمْ عَلَمُونَ فَا	لِي عَنْكُمْ فِي الْمَكْرِ مِنْ غِيَةِ
لَكُمْ قِيَادِي وَانْقِيَادِي وَمَا	مِنْكُمْ فِي النَّادِ وَالثُّقَةِ (٣)
وَأَنْتُمْ تَأْجَى عَلَى هَامِي	مَاهِيَتِ إِلَّا كَنْتُمْ هَيْئِي (٤)

(١) مرق: بيت أو منزل .

(٢) مرق: بيت أو منزل .

(٣) مرق: بيت أو منزل .

(٤) مرق: بيت أو منزل .

وهو طبعاً يقصد نفراً من المتصوفة حادوا عن طريق التصوف وانحرفوا عن واجباته ومسئوليته ، وتورطوا - كما يقول في القصيدة - في بعض الآثام ، وكان يؤذيه منهم من يدعون الجنون وتظنهم العامة أقطاباً وأولياء ، حتى إذا ماتوا شادوا لهم أضرحة وجعلوها مزاراً ، يقول :

لَيْتَنَا لَمْ نَعِشْ إِلَى أَنْ رَأَيْنَا كُلَّ ذِي جِنَّةٍ لَدَى النَّاسِ . قُطِبَا
عَلَمًا هُمْ بِهِ يَلْوِذُونَ بَلْ قَدْ تَخَذُوهُ مِنْ دُونِ ذِي الْعَرْشِ رَبًّا
إِذْ نَسُوا اللَّهَ قَاتِلِينَ فَلَانَ عَنْ جَمِيعِ الْأَنَامِ يُفْرِجُ كَرْثًا
وَإِذَا مَاتَ يَحْمِلُوهُ مَزَارًا وَلَهُ يُهْرَعُونَ عُجْمًا وَعَرْنًا

وكأننا يلازم داعٍ مصرى يدعو ضد الصوفية ومن كانت تسميهم العامة بالجنوبيين وتقيم لهم الأضرحة والمزارات وتطلب منهم الدعاء أحياء وتقدم لهم النذور أمواتاً . ومع كثرة أشعاره في هذا الجانب لم تترك ورامها في مصر أثرًا . على أننا نجد به وجه ذمّه وهجاءه - ظلماً وعدواناً - لبعض رجال الدين كما وجهه إلى المتصوفة ، وهو في ذلك كله يسرف في هجائه وذمه ، فلا رجال الدين انصرفوا عن التقوى ولا المصريون اتخذوا أقطاب الصوفية أرباباً .

٣

شعراء الطبيعة وبجالتس اللهو

عاش شعراء مصر على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه ، ينعمون بمباهج الطبيعة العذبة وبما ينشئ من غروس وزروع وثمار وأزهار ، وهو يجري نافعاً لعبه من حوض إلى حوض ، بأثاء الحياة والجمال في كل ما يسه ، مما جعل العرب يلقبون مصر حين فتحوها بأنها فردوس الدنيا . وقد وصفها القرآن الكريم بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم . وفي كل مكان نهم الشعراء بهذه الجنات يسرّحون الطرف فيها والخيال ، فتكون لديهم حاسة الجمال ، ويتمتعهم الشعور بما خصّ الله ديارهم من هذا النعيم الذي يقصر أرى وصف عن تصويره . وطبعى أن يتردد ذكر النيل على ألسنة الشعراء وذكر مشاهد رياضه الفاتنة وقواربه وسفنه الشراعية . ومحدثنا ابن قيس الرقيات حين زار مصر لمهد واليا عبد العزيز بن مروان في العصر الأموى عن رحلة نيلية له من القسطنطينة إلى حلوان . وعنى شعراء مصر بمدح بوصف مثل هذه الرحلة ووصف النيل وزوارقه وسفنه ، غير أن الشعر المصرى في عصر الولاة لم يبق منه القليل ولا بقية تتصل بالأحداث والولاة والقضاة

احفظ بها الكندي . وتبدو العناية بتدوين أشعار الشعراء منذ عهد الدولة الطولونية ، ونجد المرمى القاسم بن يحيى شاعر خمارويه ينحصر النيل بقصيدة بديعة بصور فيها مراكبه بمثل قوله^(١)

وَمَطَابَا لَا يَفْتَنِدِينَ وَلَا يَسْ
أَصْلُهَا الْبَرُّ وَمَنْ سَاكِنَةٌ فِي الْ
وَإِذَا أُورِقَتْ فَذَاتُ وَقَارٍ وَإِذَا أُخْلِيَتْ فَذَاتُ مِرَاحٍ^(٢)
جَارِيَاتٌ مَعَ الرِّيحِ وَطُورًا كَاسِرَاتٌ بِالْبَحْرِ جِدُّ الرِّيحِ
سَارِيَاتٌ لَا يَشْتَكِيَنَّ سُرَى اللَّيْلِ لَمْ وَلَا يَرْتَقِبَنَّ ضَوْءَ الصَّبَاحِ
لَا يَخْضَنَ النَّهَارَ يُقَدِّزَنَّ فِيهَا وَيَخْضَنَ الْمُرُودَ بِالْفُضْحَاحِ^(٣)

ويظن في تصوير المراكب ، فهي في الماء وهي خالية تماما من الماء ، وهي ذات أجنحة بيضاء وإن لم يكن لها جناح حقيقي ، وهي من البيض وبطل شطرها الأسفل بالقار ، فهي بيضاء سوداء من ذوات الألواح لا الأرواح ، وتقرّ على الشاطئ فتسكن دون ذلة في السكون ، وتسير على صفحة النيل وتجد في سيرها دون احترام جاح ، وكأنها على الماء قصور متحركة ، وتنساب في النيل خفيفة خفة الأفاعي ، وتتجمع أحيانا فتظنها كباشا سودا تقابلت للنجاح . ومع ضؤولة ملاحها يحسن تدبير جريها مع الرياح مكافحا في ذلك أشد الكفاح ، وله مساعدون يكتفون من الصباح حتى كأن السفن تجري خوفا من صياحهم . وهو تصوير بديع للسفن السابحة في النيل من شاطئ إلى شاطئ ومن مكان إلى مكان . ويوجز نغم بن المعز القول في وصف النيل وصفه فيقول^(٤) :

يَوْمَ لَنَا بِالنَّيْلِ مُحْتَصِرٌ وَلِكُلِّ يَوْمٍ مَسْرَةٌ فَهَسَرُ
وَالْقُنْ تَجْرِي كَالْحَبُولِ بِنَا صُعْدًا وَجَيْشُ الْمَاءِ مُتَحِيلُ
فَكَأَنَّمَا أَمَاجُهُ عَكَنُ وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سَرَرُ^(٥)

(١) الغار : جمع غمر وهو لواء الكثير المصيق
الفضاح : لواء القليل لا يهتم له .

(٢) ديوان نغم ص ٢٤١ .

(٣) المعن : جمع عكة وهي ماشي من ظاهر البطن
وطياتها .

(١) انظر مقالا من المرمى لخلال ناجي بمجلة الكتاب
العراقية في العدد الثامن من السنة الثالثة

(٢) الرواح : الرجوع في المعنى .

(٣) أورقت : حلت حملا قهلا . للراح : للرح
والنشاط .

والصورة الأخيرة للنيل بديعة ، فكان أواجه حُكَنَ أو تثبيات أمامية لأجساد عارية وكأنما قراراته أو داراته في فيضانه السرُّ أو النقر الصغيرة أو الثكت في بطون من كن يدين إلى النيل من عرائسه . ولعم أشعار كثيرة في وصف الحدائق والأزهار والغار . ومن أوصافه الطريفة قوله في الناهورة ^(١) :

نَشْنٌ وَلَيْسَتْ بِمَحْزُونَةٍ أَنْيْنَ الْمَهَبِ الْكَبِيرِ الْحَزِينِ
تَنْطَلِقُ بِالصَوْتِ لَا مِنْ قَمَرٍ وَتَقْدِفُ بِاللَّمْعِ لَا مِنْ جُفُونِ
كَأَنَّهَا مَيِّتَةٌ فِي الْبَرِّي فَأَدْمَعُهَا هُمُوعُ كُلِّ حِينٍ ^(٢)
إِذَا زَمَرْتُ أَطْرَبْتُ نَفْسَهَا فَكُنْتُ بِمَخْتَلِفَاتِ اللَّحُونِ
غَنَاءَ بِرَقْصِ كِبَرَانِهَا وَيُظْهِرُ فَبَيْنَ وَتَبَّ الْجَوْنِ
فَتَهْوِي فَوَارِغٌ فِي بَرِّهَا وَتَضَعُدُ مِنْهَا يَلَاءَ الْعَبُونِ

والناهورة تن أنين المهب اليأس الحزين وتشكو لا بغم وتبكي لا من عين ، وتلحن عتلف اللحن وكيزانها ترقص هاوية فارغة وصاعدة ممثلة ، لا تنطق أبدا . ولظافر الحداد أشعار كثيرة في الرياض والغار والأزهار ، ومن قوله في النخل ويُسرّه أو بلحه ^(٣) :

التَّحْلُ كَالْهَيْفِ الْحَسَنِ تَرْتَنُّ فَلَيْسَنَ مِنْ أُنْجَاهِنُ قَلَالِدَا

وكانها في خياله قاتنات تترن حول جبلها بعقود البسر الزمردية والياقوتية ، وشبه طلوعها الأخضر وهو لا يزال مطلقا على سنابل البلح البيضاء في أول تكونها بسلاسل من فضة يضمها حق من خشب الصندل طيب الرائحة . أما حين يتفتح الطلع ويظهر بلحه الأخضر المتصل بسنابله الصفراء فكأحل من زبرجد رموسها منها الذهب . وأما الخوص الأخضر ونحوه البلح الأحمر فزبرجد يشر عبقاؤه . وكأنما الطيعة جميعها من حول الشاعر جواهر نفيسة .

ويتفنن ظافر ببركة الحبش في مصر القديمة وكانت تشرف عليها قصور نجم ، كما يتفنن بجزيرة الروضة التي يفترق النيل عندها أمام القاهرة وسرعان ما يجتمع ، ويجعلها منه هي وأنتها لها بحوارها بمجلة السراويل ، ويعجب ابن قلاص بغروب الشمس وراء النيل فيقول ^(٤) :

(٣) حن المغنسة ٤٣٥/٢ .

(٤) الميزان ص ٧٥ .

(١) الميزان ص ٤٢٤ .

(٢) مع : سرائل .

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربةً واعجب لما بعدها من حمرة الشفق غابت وأبدت شعاعاً فيه يخلقها كأنما احترقت بالماء في الرق ولللهال فهل واني ليقتلها في إثرها زورق قد صيغ من ورق^(١)

وهي صورة خيالية بدیعة ، فقد غابت الشمس بل احترقت في النيل وخلفت فيه شعاعاً ، كما خلفت على صفحة الأفق حمرة الشفق ، ويتسع به الخيال فيتصور الملأل زورقاً من فضة جاء لإقناظها من الفرق . وموج يصدر البهاء زهير الحنين إلى مصر وهو مع الملك الصالح في الديار الشرقية نواحي الفرات ، فينشوق إلى النيل ورحلاته النيلية فيه ، وينشد^(٢) :

حبذا النيلُ والمراكبُ فيه مُضمَعاتُ بنا ومنحدراتِ
ولسالي بالجزيرة والجد حيرة فما اشقيتُ من لذاتي
بين روضي حكي ظهور الطواوي سوي وجو حكي بطون البزاة^(٣)
حيث مَجْرى الخليج كالحيّة الرق حطاه بين الرياض والجنات
هاتِ زفنى من الحبث عن التبي لم ودغنى من دجلة والفرات

إنه يذكر ذكرى عطرة رحلاته النيلية وامواج النيل تصعد بقاربه وغيره من القوارب وتنحدر ، ومانق صاعدة منحدره ، كما يذكر ذكرى عطرة يجالس أنسه في الجزيرة وجزيرة الروضة والطبيعة متبرجة بأزهارها وورودها من حوله وهي عتقة الألوان البيجة كأنها ألوان الطواويس في جو صاف صفاء بطون البزاة الطائرة ، والنيل يجري في خلجانه وبين رياضه كأنه حيات تسمى ، حيات لا تنفث السم بل تنفث الحياة في الوديان والسهول الخضراء الجميلة ، ويخفق قلب المياه مراراً بهذا الحنين في أشعاره . ويظل مصر أبام المالك ويظل الشراء يتفنون بالطبيعة المصرية ومفاتها الرائعة من النيل وقواربه ونزهاته وأشجاره وأزهاره ، ولابن مكانس للتوفى سنة ٧٩٤ وُصف لشجرة سرّو باسقة قصد موضعها مع بعض رفاقه ، ووُصف معها القارب المعلق بالقار الذي ركبه ، يقول^(٤)

مالت على الثمر إذ جاش الخريء به كأنها أذن مالت لإصغاء

طويلة الساق والغلب .

(١) ورق : قصة .

(٢) غزاة الأدب للمصطفى ص ٤٢٤ .

(٣) البهاء زهير ص ٦ .

(٤) البزاة : جمع بازى وهي جنس من العقود الصلبة

كَانَ صَمْعَتَهَا الْحُمْرَا بِقَشْرَتِهَا الْـ حُمْرَا قُرْصُ عَلَى أَعْكَانٍ سَمَاءَ
نَسَمَى إِلَيْهَا عَلَى جَرْدَاءَ جَارِيَةٍ مِنْ أَلْفِ كَهْلَالِ الْأَفْقِ حَدْبَاءَ
سَوْدَاءَ تَحْكِي عَلَى الْمَاءِ الْمُصْنَدَلِ شَا مَةً عَلَى شَفَةِ كَالشَّهْدِ لَعْنَاءَ

والتصوير في الآيات بديع ، فشجرة السرو المائلة على النيل كأنها أذن مالت لتصفى إلى
خَرِيرِهِ ، ويتخيلها بلونها الأحمر الداكن وهي منحنية على أمواج النيل في فيضانه كأنها قرص
ملتصق بطيات بطن لسراء عارية . ويقول ابن مكناس إنهم سَعَا إليها في سفينة حدباء كهلال
الأفق سوداء ، ويتخيلها على ماء النيل الداكن المعطر عطر خشب الصندل شامة مطبوعة لا على
خَدٍّ ، وإنما على شفة ضاربة إلى السواد تقطر شَهْدًا وعِلا مصفى .

وبجانب شعر الطبيعة المصرية ومفاتها الجميلة نجد شعراء يتفنون بمجالس الأسى والشراب ،
وقد زار مصر - كما مر بنا - أبو نواس أكبر من تغنوا بالخمير وكوسها وسقائها وندماها ، ولكن
يبدو أنه لم يخلف من مجونه أثرًا أو آثارًا واضحة ، لأن الشعب المصرى بطبيعته معتدل ولا يجرئ
على ما حرّمه الدين ، وفي رأى أن المصريين إنما كانوا يحاكون شعراء العصر النباسى في المديح وغير
المديح ودفعتهم هذه المحاكاة أو قل دفعت نفرا منهم نلتقى به منذ أيام الطولونيين إلى التغنى بالخمير ،
إما إيمانًا عليها وإما محاكاة وتقليدًا لأبى نواس وأضرابه . وكان أول ما ساعد على ظهور هذا النفر
أن أحمد بن طولون مع تمسكه بالدين كان لا يتحرج من معاقرة الخمر ومثله ابنه خوارويه ، ويقال
إنه كان يشرب أربعين رطلا من النبيذ^(١) . فحاكهما بعض الشعراء في احتساء الخمر ، وأخذوا
يقصدون لها الأديرة ، واشتهرت منذ هذا الحين أربعة أديرة ذكرها الشافعى في كتابه الديارات ،
وهي دير القَصِير على قمة الجبل الشرقى ويشرف على طرة والنيل ، وكان خوارويه كثيرا ما يزوره ،
ودير مَرَحَاتٍ بمصر القديمة على شاطئ بركة الحبش ، ودير نَهِيا بالجيزة ، ودير طُمويه بجوار حلوان .
ويلقانا في أيام الإخشيديين غير شاعر يعكف على كتوس الخمر حتى القالة ، يتقدمهم أحمد بن
محمد بن طباطبا تقيب الأشراف العلويين بمصر ، وفيها يقول :^(٢)

أَتَرَكَ الشَّرْبَ وَالْأَمْطَارَ دَائِمَةً وَالطَّلُّ مِنْهَا عَلَى الْأَشْجَارِ مَشْرُودٌ
وَالْمُضْنُ يَهْتَرُ كَالشَّوْانِ مِنْ طَرِبِ وَالْوَرْدُ فِي الْعُودِ مَطْوًى وَمَنْشُورٌ

وإذا كان نقيب الأشراف يشرها حتى المالة فقد حاكاه غير شاعر من مثل سعيد النبوز باسم قاضي البقر وصالح بن مؤنس ومحمد بن عاصم وابن أبي العصام ، وكان الأخيران يلمان بالأديرة ، وكان ثانيها خاصة ينتك في شربها ويمتري على الدين في غير استحياء حتى ليقول في وصف مجلس آثم من مجالسه ^(١) :

مجلسٌ لا يرى الإلهُ به غَيْدَ رَ مُصَلٍّ بلا وضوءٍ وطهرٍ
سُجْدٌ للكُتوس من دون نُسَيْبٍ حَرٍ سوى نَعْمَةٍ لعودٍ وزَرٍ

فهو يعيش معيشة مزرية ماجنة أشد ما يكون المحزون مستهتره أسوأ ما يكون الاستهتار . وتلقى بشيم بن العز ، وربما أن أباه حرمه من ولاية العهد لانحرافه وسوء سلوكه وما سمعه عن مجونه ، وله في الخمر أشعار كثيرة ، وقد يسوق الحديث فيها منفردة ، وقد يجمع بينها وبين جمال الطبيعة أويينها وبين بعض صواحبه ، ومن قوله فيها وفي الورد ^(٢) :

ورِدٌ أَعَارَتْهُ الْغَوَايُ خُدُودَهَا وَأَهْدَى إِلَيْهِ الْمَسْكُ أَنْفَاسَ مَقْتَرَفَةٍ
كَأَنَّ التَّدَى فِيهِ مَدَامُ عَاشِقٍ أَرِيقَتْ غَدَاةَ اللَّيْلِ فِي خَدِّ مَعشوقَةٍ
أَذْرَنَا كُوسَ الرِّاحِ فِي جَنَابَتِهِ عَلَى حُسْنِ مَرَاةٍ وَرُقَّةٍ تَوْرِيقَةٍ

وواضح أنه يحسن التصوير ، فالورد خلدود الغواي وهو عبق بشذا المسك ، وكأن التدى فيه دموع عاشقٍ تانثرت على خد معشوقه يوم الفراق ، وهو يشرب على حسنة ورقة أوراقه . ومن طريف ماله في المزج بين الخمر وصاحبه قوله ^(٣) :

تَاوَلْتُهَا مِثْلَ خَدِّيْهَا مُشْفَعَةً صِرَافًا كَأَنَّ سَنَاهَا ضَوْءُ يَقْبَاسٍ ^(٤)
فَقَبَّلْتُهَا وَقَالَتْ وَهِيَ ضَاحِكَةٌ وَكَيْفَ تَسْقِي خُدُودَ النَّاسِ النَّاسِ لِلنَّاسِ
إِذَا تَنَاوَلْتُ خَدِّي كُنْتُ نَائِلَةً نَفْسِي وَهَذَا لِعَمْرَى غَيْرُ مُنْقَاسٍ

والفكرة بديعة ، فالخمر تشبه خديها بلونها ووهجها ، وتناولت كأسها منه وقبلته مازحة قائلة له : كيف تسقي خدود الناس للناس ؟ وكأنه قدم لها خدودها لشربها ، بل كأنه قدم لها نفسها ،

(٣) الديوان ص ٢٤٩ .

(١) المغرب (لم القسطنط) ص ٢٧٣ .

(٤) المقياس : شطة النار .

(٢) الديوان ص ٢٩٨ .

وهل من أحد يشرب نفسه ، وإنه لقياس غريب ، بل لا ينقاس . وقبس منه الفكرة ابن هاني الصغير المتوفى لأواخر العهد الفاطمي ، إذ يقول في خمرية له ^(١) :

ومنهضو أبدى الشبابُ بخدّه صُدْغاً فرَّقَ وَرَدَه في آسِه ^(٢)
تَلْهَبُ الصُّبْهَاءُ في وجَّاتِه قصير من عَيْنِه في جُلَّاسِه
حتى إذا ملأَ الزجاجةَ خدّه نوراً وقاحَ الحمرِ من أنفاسِه
حالَ الزجاجةِ أَفْعَمَتْ بِمدامِه فذلّا ليشرب نُورَه من كأسِه

وهو يقول إن صدغ الشعر أو خصلته تخرج بخدّه كما يخرج الآس الأبيض بالورد ، وينسج به الخيال فيقول إن الحمر تلهب في خدّه فتلهب السحرة في عينه فيسير منها إلى جلاسه ، حتى إذا ملأ خدّه الكأس نورا ظنها ملكت عمرا ، واستحال ظنه يقينا ودنا من الكأس يريد أن يحسبها . ولابن سناء الملك خمریات مرحة في لغة سهلة سلسة من مثل قوله ^(٣) :

أين كثوسى وأين أكوأى فَهَيَّ وَحَقَّ المَجُونِ أَوَّلَى بِسِ
يلو عليها الحَبَابُ إن مُزِجَتْ مثلَ عَيُونِ بِغِيرِ أَهْدَابِ
تَأْتِي وَيَأْتِي السُرُودُ يتبعها كأنه واقفٌ على البابِ
أَسْجُدُ شُكْرًا لها إذا طَلَعَتْ كَأَن كَأْسِي لَدَى مِخْرَافِ

وهو يصور في خمرياته مرحاً وابتهاجا ، ومربنا أنه كان يعيش في بُلْهَيْتِه ونعيم ، وقلبا كان يعترضه في حياته شوك يؤذيهِ ، فهي ورد عطر ، وهي ترف ، وكل وسائل الترف مهيأة له ، لذلك لا تعجب إذا رأيناه مرحا في خمرياته .

وكانت حياة ابن النيه هنيئة لينة ناعمة مثله ، مما جعل خمرياته تطفح بالمرح والابتهاج والشعور بأن كل ما في الكون والطبيعة رائق شائق ، ومن طريف خمرياته قوله ^(٤) :

بَاكِرْ صَبُوحَكَ أَهْنا العيشِ بِاكَرْ فقد نَزَمَ فوقَ الأَيْكِ طَائِرُهُ ^(٥)
وَاللَّيْلُ تَجْرِي الدَّرَارِي في بَجْرَتِه كَأَرْوَضِ تَطْفُو على نَهرِ أَزَاهِرُهُ ^(٦)

(٥) الأيك : الشجر الملتصق .

(٦) الدراري : الكواكب للتلألؤ . الهرة : جموعة من

النجوم تبدو ككوشاح أبيض .

(١) الخريدة (قسم مصر) ٢٧٠/١ .

(٢) رائق : مزج .

(٣) الديوان ص ٢٤

(٤) الديوان ص ٩١

فَانْهَضْ إِلَى ذَوْبٍ ياقوتٍ لما حَبَّبُ
تَوْبُ عَنْ كَفْرِ مَنْ نَهَوَى جَواهُرُهُ
حَمراءُ فِي وَجْنةِ السَّاقِ لما شَبَّ
فَهَلْ جَنَّاها مَعَ العَفْوَودِ حاصِرُهُ
ساقٍ تَكُونُ مِنْ صُبْعٍ وَمِنْ غَسَقٍ
فَإَيُّسُ خَدَّاهُ واسودَّتْ غَدَائِرُهُ^(١)
تَعْلَمْتُ بَانَةَ الْوَادِي شامِلَةً
وَزُورْتُ سَحَرَ عَيْنِهِ جَائِزَةً^(٢)
فَلَوْ رَأَتْ مُقَلَّتَا هَارُوتَ آيَتَهُ الـ
كَبِيرَى لَأَمِنَ بَعْدَ الْكُفْرِ ساجِرُهُ

والقرحة تسرى في الحمرة ، وتلف كل شيء فيها ، فالطير ينفي فرحا حل الفصون ، والسماء منورة بكواكبها الساطعة ، وحجاب الكأس كأنه ثغر الحبيبة ، والحمراء حمراء كخدها وكأنما الجاني اقتطف خمرته مع عبقودها وما أجمل يياض خديها للشرقيين وسواد صفاتها البيجة ، وكأنما قبست بانه الوادي رشاقها ، وزورت جاذبه سحر عينها الخلابتين ، ولو رآه هاروت لأمن بربه وكف عن سحره .

ويكثر من الحمريات شعراء اللهو والحمير في أوائل عصر الماليك مثل الجزار والوراق وابن دانيال وستحدث عنهم بين شعراء الفكاهة . ولعل مما يشهد بأن كثيرين ممن كانوا ينظمون الحمريات إنما كانوا ينظمونها محاكاة وتقليدا ولم يكونوا يتعاطون الحمير ولا تورطوا في إنعماها أن نجد فقيها كبيرا من فقهاء زمن الماليك هو صدر الدين محمد بن عمر المشهور باسم ابن المرحل وابن الوكيل المتوفى سنة ٧١٦ ينظم فيها خمرية تداولها الرواة في عصره وبعد عصره استلها على هذا النمط^(٣) .

لِيَنْهَبُوا فِي مَلَامِي آيَةَ ذَهَبًا فِي الْخَمْرِ لَا فِضَّةً تَبْقَى وَلَا ذَهَبًا
لَا تَأْسُفُنَّ عَلَى مَالٍ تَمَزُّقُهُ أَبَدَى سُقَاةِ الطُّلَا وَالْخُرْدُ الرَّبُّ^(١)
فَا كَسُوا رَاحَتِي مِنْ رَاحِيهَا حُلَلًا إِلَّا وَعَرَّوْا قَرَادِي الْمُمْ وَاسْتَلَبُوا

وقد مضى يجب فيها وبغرى بها على عادة الجاهل ، مما جعل بعض الناس يتهمه بمعاقرتها ، وقدّم للقضاء وثبتت براءته من وزرها الآثم ، وعاد إلى دروسه وعاد إليه طلابه . وللشيخ برهان الدين القميراطي الذي مرت ترجمته بين شعراء الغزل خمريات بدوره ، وكان فقيها ومحدثا ، وكأنه

(٣) الفوات ٥٠٢/٢ .

(١) الفسق : الضلال . الدنار : الصغار

(٢) الجاند : جمع جند وهو ولد البقرة الوحشية
(٤) الطلا : الحمير . المراد : جمع عريضة وهي البكر الحية .

(٢) الجاند : جمع جند وهو ولد البقرة الوحشية
المروقة . بحال حنينا .

ينطق بلسان شاعر ما جن كبير ، إذ يقول ^(١) :

كم ليلة ندمتُ بدرَ سمانها والشمسُ تُشرقُ في أكفِ سَمانها
والبدرُ يُستَرُّ بالغيومِ ويَتَجَلَّلُ كتنفُّسِ الحساءِ في مرآتها
خالفتُ في الصُّبَّاءِ كلَّ مقلِّدٍ وسعتُ مجتهداً إلى حانئها
أعركَ الأوتارُ إن نفوسنا سكناؤها وَقَفُ على حركاتها
ومليحةٍ أرغمتُ فيها عاذل قامتُ إلى وصلى برغم وُشائها
باعتجَلَةِ الأغصانِ من خَطَرَاتِها وفضيحةِ الغزلانِ من لَفَاتِها

والقمرطلى إنما يستخدم مهارته الفنية التي صورناها في غير هذا الموضع ، ليدل على براعته في محاكاة الجنان لزمته ، بل لعل أحدا من معاصريه لا يستطيع اللحاق به في مثل هذه الآيات ، وهو يجمع فيها بين جمال الطبيعة في اللبالي القمرية وبين الصبياء أو الخمر وصاحبته أو الغزل ، وهي طويلة ، وقد نوه بها الأسلاف طويلا لروعيتها الموسيقية والتصويرية .

وأخذ يراحم الخمر في عصر الماليك تعاطى الحشيش ، وحين أمر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ . بإغلاق حانات الخمر وحطَّم دنانها أمر بحرق الحشيش ، وأشار إلى ذلك ابن دانيال في بعض شعره ويقول حين أبطلت المنكرات في أيام السلطان لاجين سنة ٦٩٦ وفي مقلمتها الخمر والحشيشة ^(٢) :

احنرُ ندبى أن تذوق المُسْكَرا أو أن تحاولَ قَطُّ أمرا مُتُكَرا
ذى دولةَ المنصورِ لاجينَ الذى قهر الملوك وكان سلطان الورى
إياك تأكلُ أخضرًا في عصره ياذا الفقيرُ يصيرُ جِسْمُكَ أحمرًا

والأخضر : الحشيش . ويشير إلى العقاب الشديد الذى سبَّرتل بمتعاطيه ، ونهى ابن دانيال بالمثل عن تعاطى الخمر . وسرعان ما يذهب عصر لاجين كما ذهب عصر الظاهر بيبرس ، ويعود نفر من الناس إلى الحشيشة والخمر ، ومن تعلق بها ابن الصائغ ، وله فيها عدة ^(٣) مقطوعات من مثل قوله :

عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسن ص ١٠٧ وما
يلحقه .

(١) للنبل الصال ٧٢/١

(٢) نوات الويلات ٢٨٨/٢

(٣) انظر في هذه المقطوعات كتاب دراسات في الشعر في

قم عاطفي خضراء كافورية قامت مقام سلافة الصهايا
يغدو الفقير إذا تناول درهما منها له تبة على الأمراء

ووصفها بأنها كافورية لأنه كان يزعم منها كثير بيستان كافور في القاهرة ، ويلقانا كثيرون
يفضلون عليها الخمر لمجالسها وكثرتها ودانها وقبائها .

وتظل الحشيشة والخمر على ألسنة الشعراء في الحقبة العثمانية ، وما نقرأ لهم قول أبي
المواهب ^(١) البكري المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة :

وقهوة تَنْصَحُ مِنْكَ ولا يَدْعُ فِي الْفِنْجَانِ شَكْلُ الْقَزَالِ ^(٢)
تدبرها هيفاء ممشوقة خَوْدُ ثُنْتُ فِي بُرُودِ الدُّكُلِ ^(٣)
بُسْرُفُ أَوْطَرُفُ وَزَعْتُ أَفْكَارُنَا بَيْنَ الْهَدَى وَالضَّلَالِ
تقول للشمس وقد أَقْبَلْتُ نَلْسِي مَا أَنْتِ إِلَّا خِيَالُ

وربما كان من أسباب شيوع الخمريات على ألسنة بعض الشيوخ أيام المماليك والعثمانيين أنها
كانت قد شاعت على ألسنة الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عربي متخفين من نشوئنا رمزاً
لنشوة الحب الإلهي ، فلم يجد كثيرون حرجاً في نظمها ومحاولة التفنن فيه . ونقف عند نفر من
شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ، وكلهم من الشعراء أيام الفاطميين ، أما من جاءوا بعدهم فقد
مزجوا بين الجون والفكاهة الشعبية وسنخضهم ببعض الحديث .

ابن ^(١) وكيع التنيسي

يسوق ابن خلكان لابن وكيع نسباً طويلاً ، فيقول هو الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن
خلف القصبى ، ووكيع لقب جده محمد بن خلف ، ويذكر أنه كان من أهل القرآن والفقه والنحو
والسير وأيام الناس وأخبارهم ، وله مصنفات كثيرة ، ويقول إنه كان نائباً في الحكم بالأهواز في
إيران لعبدان الجوالقي وإنه توفي سنة ٣٠٦ ببغداد ، ويذكر عن الشاعر أنه ببغدادى ومولده

وتمة البهية ٢٩/١ ورحلة الكبت في حواض عطفة

والعمدة لابن ريش (طبعة أمين مكتبة) ٢١٦/٢ وابن

خلكان ١٠٤/٢ .

(١) ربحانة الألبا ٢٢٦/٢

(٢) قهوة : خمر .

(٣) خود : الثابة الحسنة .

(٤) انظر في ابن وكيع وترجمته وأنشاده البهية ٣٥٦/١

بشَّيس، وهى مدينة كانت بقرب بور سعيد الحالية، وتمتد في بحيرة المنزلة، واشتهر أهلها^(١) بصناعة النسيج والتفوق في صنع الثياب الشفافة والملونة، ويذكر المؤرخون والجغرافيون أنها كانت تكتظ بالجنان والكروم والفواكه والأشجار والأزهار والطيور من كل لون، وأكثر أغذية أهلها السمك، وهم مياسير أصحاب ثراء، وأكثرهم حاكمة، وهم يحبون النظافة واللبانة والغناء واللذة وأكثرهم بيتون سكارى. ويبلغ الأسلاف في وصف ما كان بهذه المدينة أو الجزيرة التي اندثرت من مشاهد طبيعية ومن جئات ورياض. وفيها ولد ابن وكيع كما يقول ابن خلكان ولا نعرف تاريخ مولده، أما وفاته فعرف تاريخها وهو سنة ٣٩٣ وكذلك مكانها وهو مسقط رأسه تيس. ولا نعرف الأسباب التي دفعت أباه إلى اتخاذ تيس دار مقام له ولأسرته، وقد نشأ فيها الشاعر وتثقف. ويبدو أنه طلب المزيد من الثقافة والتعرف على أدباء القاهرة فرحل إليها، وكانت شاعريته تمتدحت فلفت إليه الأنظار، ولا ندرى متى كان ذلك تماماً، غير أن من المؤكد وجوده في القاهرة حين نزلها انتهى سنة ٣٤٦ ويبدو أن صلة انقطعت بينه وبين ابن جرّابة وزير كافور، وكانت العلاقات قد سامت بينه وبين انتهى، حيث رأينا ابن وكيع يؤلف كتاباً في سرقات انتهى سماه النصف إرضاء للوزير، ويقول ابن رشيق في العمدية: «سماه كتاب النصف، مثل ما سُمي اللديغ سلباً، وما أبعد عن الإنصاف». ولم يكن انتهى من ذوق ابن وكيع، ويون بعيد بين ذوقيهما، فالنهي شاعر جاد منتهى الجد، لا يعرف اللهو ولا الخمر ولا الجون، وابن وكيع شاعر ماجن منتهى الجون، فاندفع يريد أن يسقط النهي من عليائه وأثني له ذلك؟ ويبدو أنه كان ثرياً، فأعانه ثراه على انغماسه في الجون، وبدل على هذا الثراء أننا لا نجد رواية شعره يذكرون له قصائد في ابن جرّابة ولا في الخلفاء الفاطميين وقد عاصر منهم المعز والعزیز والحاكم، فحسبه دائماً كأكس وطاس، حتى ليؤثرهما على تولى منصب الخلافة الرفيع يقول:

وإن أتوك فقالوا كُنْ خليفتنا فقلْ لهم إني عن ذاك مشغول
وإرضَ الحمولَ فلا يحطَى بلذته إلا امرؤ خاملٌ في الناس مجهول
واسيفك دم القهورة الصَّهَاء تُحْمِي به روحى فإن دم الصَّهَاء مطلوب^(٢)
فهو يؤثر حياة الحمول والجون على حياة العزة حتى لو كانت الخلافة، ويبدو أنه تمثل كل

(١) انظر لهم قول القرطبي عنهم في كتابه المحلل (٢) مطلوب: ممدد لأجلب ثاره.

ما في ديوان أبي نواس من مجون حتى الجانب السيء عنده جانب الغلمان ، إذ نراه يلدأب غلاما نصرانيا في مربعة مزدوجة طويلة أشرنا إليها في الفصل الماضي ، شكا له فيها من حبه وعذابه فيه ، ومضى يتوعدده نظرا إن لجُ في هجره أن يشكوه إلى القساوسة والرهبان والأسقف والمطران والبطرك ، ويقول له كيف تحمل قتل الروح وهو ما لم يأت به المسيح ولا أعبر به يوحنا ومثي ولوقا ومرقص .

وكل ذلك على سبيل الدعاية ، ونظن ظنا أنه لم يكن متورطا في هذا الإثم ، وكل ما في الأمر أنه هو ومن نظموا فيه بعده على مر السنين . إنما كانوا يحاكون فيه مجان بغداد نظرا ودعاية على نحو ما يتضح في مربعة ابن وكيع المزدوجة . وربما كان من أسباب ذلك كثرة النصارى في تيسس كما يقول المقرئ وكثرة حاناتهم فيها ومن بها من السقا والغلمان . ومن المؤكد أنه كان لا يظلم مكته في القاهرة فهو دائم الرجوع إلى بلدته ناعما بثرائه فيها ومشاهدها الطيبة . وله بجانب هذه المزدوجة المربعة مزدوجة ثانية في وصف فصول السنة يندلها بوصف فصل الصيف وحره وغباره وما يجلب لشارب الخمر من الصداق ، ويتلوه بفصل الخريف وأهويته واختلاف برده وحره ، ويتبعه بفصل الشتاء وما فيه من برد وأمطار وزكام وحاجة مدمنى الخمر فيه إلى الدفء وإيقاد النار ثم يفيض في بيان محاسن الربيع المنتشرة في كل عناصر الطبيعة من شمس ولر وطيور ورياض وأزهار وغار ، مما ينم به شارب الخمر ويمجد فيه هناءه . ونقطف الأبيات التالية من خمرية له جمع فيها بين وصف الخمر ووصف الطبيعة في الربيع ووصف مشغوف بها مفتون ، يقول ز

أبدي لنا فصل الربيع منظرا	بمثله تُفَتَّنُ أَلَابُ البَشَرِ
فالأرض في زى عروس فوقها	من أذمِعِ القطر نثار من دُرٍّ ^(١)
أما ترى الوردة كخدئ كاهب	راودها ، فامتنت منه بشر
كأنما الخمر عليه نَفَقَتْ	صباغها أو هي منه تُنَمَّصَرُ ^(٢)
أنجبله الشرجس إذ جدأله	فاحمر من . قرط حياو ونخر
وانظر إلى الأطيار في أرجائه	إذا دحا الكاكل فيها وصفر ^(٣)
كانها - تصغير في رياضها -	يرب قبانو فوق بسط من حير ^(٤)

(١) الكاكل : من قلت بك ما .

(٢) حير : جمع حبة ، وهي القطعة من نسج الحرير .

(٣) الشر : ما يثر على العروس ليلة الزفاف من الترامم

القشبة

(٤) صباغها : لونها .

والتُّسْكُ في عصر الصَّبَا كأنه من قبحه خُلِعَ عِذَارُ في الكِبَرِ^(١)
فاشرب عُقَارًا لو أصابت حَجَرًا لَطَارَ من خَفَتَ ذاك المَكْجَرُ
كأنما الأوطَارُ فيها جُمِعَتْ فليس في العيش لجافها وَطَرُ^(٢)

وإنما أطلنا في التقاطف هذه الأبيات لندل على براعة ابن وكيع في تصوير الطبيعة تصوير
الصب المفتون بها ، فهي عروس جميلة موشاة بألوان زاهية ، ورأى السماء فمشتها وأخذت
تبكي بأجضان المطر ، وما أروع الورد ، إنه كوجنتي فتاة راودها ولحان بها ، فانتشت حياة
وتفرجت وجتها خفرا . ويعجب ابن وكيع أشد العجب هل الحمر نفست لونها القاني على
الورد أو هي معصورة منه ومستخرجة ، أو لعل الزرجس جادلها فحمر لقوة حجته خجلا . وفي
أرجاء هذا الروض البديع ينفى الطير غناء شجيا مؤثرا ، وكأنه أسراب قبان ثننى فوق بسط من
سندس وحرير . ويدعو إلى اللهو واللذة في زمن الصبا والشباب ، ويزعم أن التسك وهجران
المتاع في بواكير الحياة فميم مثل خلع العذار والمجون في الكبر . وكأنه نظم هذه الخمرية في شبابه .
ويزعم ما زعمه أبو نواس قبله من أن الخمر لومست حجرا لمسه السرور ، وأنها تجمع الأوطار
والنقى . ودانما يقول إنه عاكف على شرب الخمر وسط مباحج الطبيعة ، غير مُرْعَوٍ ولا مزدجر على
شاكلة قوله :

جانبُ بعدك عَفَى وَوَقَارَى وخلعتُ في طرق الهون عِذَارَى
خوفتني بالنار جُهْدَكَ دَائِبًا ولججتُ في الإرهاب والإنذار
خوى كخوفك غيرَ أنى واثقُ بمجمل عَفْوِ الواحد القهارِ
أنظرُ إلى زهر الربيع وما جَلَّتْ فيه عليك طرائفُ الأنوارِ
تاحتُ لنا الأبطارُ فيه فَأَرْهَجَتْ عَرَسَ السرورِ وماتَمَ الأبطارُ^(٣)
فاشرب معشقةً كأن نسيما مسكُ تَضَوُّعه بِدُ العطارِ^(٤)
مع مُسَمِّعٍ حَلَفَتْ له أوتارُه أن لا تناسرَ رَنَّةَ المزمارِ
فطنَ بِمَرَكٍ كُلِّ عضوٍ ساكنٍ تحريكه لسواكن الأوتارِ

وهو يعلن لصاحبه أنه انغمس في الهون غير مصغ لتخريفه له من عذاب النار ، إذ يأمل في

(٣) أُرجمت : أثار .

(٤) تَضَوُّعه : تذكى رائحته وتشرها .

(١) خلع العذار : كناية عن التهلك والإغراق في

المجون .

(٢) الوطر : الأمانة .

عفو الله وغفرانه ، وهو يكرر هذه النعمة كثيرا في خمرياته ، ويقول له : انظر الى ما حولك من جمال الطبيعة الساحر وما فيها من بدائع النور والزهر وما يشتريها من نواح الطير الذى يشتير حزنه كما يشتير فيه السرور والفرح . ويدعو له إلى شرب الخمر ذكية الرائحة وسط مباحج الطبيعة على ألحان مغن حاذق يجيد المزج حتى ليحرك فى السامع كل عضو ساكن منه تحريكه لسواكن أوتاره . وفى كتاب البيئمة قطعة كبيرة من شعر ابن وكيع . وكان له ديوان رآه ابن خلكان سقط من يد الزمن ، ولو وصلنا لعرفنا بوضوح مدى تأثيره فى الشعراء المصريين بعده وفيما نظموه من شعر الخمر والطبيعة ، ومع ذلك ففى رأينا أن هذه القطعة كافية فى بيان أثره فىمن خلفوه . وهذه هى أول مرة نلتقى فيها بشاعر فى إقليم عربى يعيش للخمر والطبيعة ولا يعنى أى عناية بالمديح .

الشريف^(١) العقيلي

هو على بن الحسين بن حبلرة ينتهى نسبه إلى عقيل بن أبى طالب ، وتاريخ مولده غير معروف وكذلك تاريخ وفاته ، غير أن الثعالبي ترجم له فى البيئمة باسم أبى الحسن العقيلي وأردف الاسم بكلمة رحمه الله والثعالبي ترجم لشعراء أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، وقد يفهم من قوله رحمه الله ، أن العقيل لا بد أن يكون قد توفى قبل وفاته ومعروف أن الثعالبي توفى سنة ٤٢٩ ، ويقول ابن سعيد فى المغرب : « سألت عن العقيلي جماعة من أهل مصر فلم أرفقهم من يتحقق أمره ، وقال لى أحد الشرفاء للثنين بأنساب الشرف : كان فى المائة الرابعة » . وقد يشهد لذلك أننا نجد فى ديوانه أبياتا يتوه فيها بالحسين بن جوهري وزير الحاكم ، وكان من بين من قتلهم سنة ٤٠١ . ويبدو أن كلمة « رحمه الله » فى البيئمة وضعها الثعالبي - إن كان هو الذى وضعها - خطأ أو سهوا فقد جاء فى خطط المقرئى ما يشير إلى أن العقيل امتدت حياته حتى سنة ٤٤٨ إذ ذكر أنه أشد المستنصر الفاطمى صبيحة يوم عرفة فى هذه السنة :

قُمْ فَانْتَحِرِ الرَّاحَ يَوْمَ النَّحْرِ بِالْمَاءِ وَلَا تُضْغَعْ ضُحًى إِلَّا بِصَهْبَاءِ^(٢)
أَذْرِكُ حَبِيبَ الثَّدَامَى قَبْلَ تَفْرِيمِ إِلَى مَنَى قَصْفِهِمْ مَعَ كُلِّ هِفَاءِ

(١) الخليل . بتحقيق د . زكى المحاسنى .

(٢) الحر : اذبح . يوم النحر : يوم الأضحية . قضى : طلىح الأضحية . الصهباء : الحمر .

(١) انظر فى الشريف العقيل وترجمته وأشعاره البيئمة ١١٥/١ وللغريب (قسم القضاة) ص ٢٠٥ وقد أنشد ابن سعيد قطعة كبيرة من شعره وراجع الفتاوى ٩٩/٢ والفن ومذاهب فى الشعر العربى ص ٤٨٣ ومقدمة ديوانه (طبع

فخرج المستنصر في ساعته يروا يا الخمر تُزجى بنفحات حُداة الملاحى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس (بحوار القاهرة) في كبكبة من الفساق فأقام بها سوق الفسوق على ساق ، يقول : « وفى ذلك العام أخذته الله وأخذ أهل مصر بالسنة ^(١) » وكان ذلك كان فى أول عام من أعوام المجاعة المشهورة لعهد المستنصر التى بدأت سنة ٤٤٢ وظلت سبع سنوات ، حتى هلك الحرث والنسل . والخبر يدل على أن الشريف العقيل عاش على الأقل حتى هذه السنة ، ويستدرك صاحب المغرب على من ذكر له أنه كان فى المائة الرابعة قائلا : « وقفت فى الحريدة (للمعاد الأصهبى) على ترجمته فدل على أنه متأخر العصر عن المائة الرابعة » . ولعل فى ذلك كله ما يشهد بأنه عاش مطلع شبابه فى القرن الرابع ، وامتدت به الحياة فعاش دهرًا فى القرن الخامس .

وهو من أهل الفسطاط ، وكان ثريا ثراء مفرطا حتى قال ابن سعيد : كان له بها متترهات ، وهو فى ذلك مثل تميم بن المز ، فها جميعا من سكانها وأصحاب البساتين والقصور بها ، غير أن تيمما شغل فى ديوانه بمديح أبيه وأخيه العزيز ، أما العقيل فكما يقول ابن سعيد « لم يكن يشتغل بجليلة سلطان ولا مدح أحد » ويشهد بذلك ديوانه فليس فيه مديح خليفة من الخلفاء الأماطيين ، فيه فقط بعض إخترايات قليلة ، وكذلك بعض فخر وهجاء ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه استغرقه شعر الطبيعة والخمر والحب وكأنه امتداد لابن وكيع التنيسى . . ينظم أشعاره لنفسه ويهتفى لها بالطبيعة ومفاتها مازجا بينها وبين الخمر فى نشوة وفرح ومصرة . ونشر كأنما يتفنى أمامها انتاضا يعم كيانه كله ، وهو يشاهد جداولها ومياهها ورياضها وأشجارها وأزهارها وبركها ، حتى لتحول أمامه مبعدا ما يزال يقدم إليه تراتيله مصحوبة ببخور الخمر وشذاها ، وكان حياته وعبادته إنما تأتلف من الطبيعة والخمر وكثوسها المترعة ، وهو يدعو دائما إلى احتساء هذه الكئوس ، وكأنه يعب من الطبيعة ما يعب من فنها ، ثم يعب من الخمر ما يعب من دنانها ، مع القدرة الباهرة على التصوير والتحول بالمناظر الواسعة فى الطبيعة إلى مناظر مركزة ، كالكرة تتجمع فيها الأشعة فتتحول إلى ما يشبه قوس قزح رائع بديع ، يقول داعيا إلى المتاع بجمال الطبيعة وشرب الخمر العتيقة :

السَّيِّمُ ممدودُ السَّرادقُ والزَّهْرُ مفروشُ النَّارِقِ ^(٢)
والقَاشُ قد نُقِشَتْ لنا منه المِجالسُ والمرافقُ

أشجساره وثماره مثلُ التراب والمخائق^(١)
 قد غُتِ الأطيارُ في طرقاته كلُّ الطرائق
 فاحتقن فؤادك فيه من ريقِ الموم بشرِ عاتق^(٢)
 فالأفحوان غصونُه بيفضُ النواصي والمفارق
 ومراودُ الأمطار قد كُجِلَتْ بها حدقُ الحدائق

والطبيعة من حوله قد تجمعت في حفل برادق بهيج وسائده من الزهر الملون ، وكذلك
 بجاله ومنكاته كأنما قد قُطعت وقُصت من القاش أو من نسيج حريري متعدد الأصباغ ، بينما
 تطلّ عليه من الأشجار والثمار التراب والقلائد . والطير تشدو وتغنى ، منظر قاتن ومغنى ساحر ،
 جدير بالشراب الزيل للموم ، والأفحوان يتأيل على أغصانه وكل ما في الحدائق أخذ زيته
 وزخرفه ، حتى الميون لم تنس كحلها ، عيون الأزهار البديعة ، فقد ناولتها الأمطار مراود تسم بها
 زيتنها وحسبها القاتن . ومن قوله في مطلع الربيع .

قد بُيِّضَتْ قُبَّةُ السماء وزُوِّقَتْ قاعةُ الفضاء
 فالسما بسحبها البيضاء الممتدة على الأفق من كل جانب كأنها قُبَّةٌ بُيِّضَتْ ، والرياح بأزهاره
 وأنواره كأنه قاعة متألقة نُقِشت ونُصِّتْ بمنمات الربيع وزخارفه البديعة . وعلى نحو ما تجد
 الطبيعة في مناظر يمتثل فيها التجميع والحشد والتكيز يكثر عنده التشخيص وبث الحياة في عناصر
 الطبيعة من مثل قوله :

قد حبا طفلُ الصباح بين دايساتِ الرياح

وقوله :

الشَّجْبُ تَرُضِعُ من بنات الأرض ما جعلَ الربيعُ لها النصوصَ مهودا

وقوله :

لَمَهاثُ الثَّمارِ بين الرِّواي تائباتُ بلبسِ خُضرِ الثَّيابِ
 وبناتُ الكروم تُجلى بما قد صاغه للام من عقودِ الحَبَابِ

فطفل الصباح يحبو بين دابات الرياح والسحب ترضع أزهار الأرض على مهود الغصون ،
وأمهات النار من الأشجار يملؤها النيه والدلال بشبابها الخضراء ، والماء يجلو الحصور من بنات
الكروم بما يصوغ لها من عقود الحجاب . وعلى هذا النحو ما تزال نحس عند الشريف العقيل
باندماجه في الطبيعة وتملئ عينيه وقلبه بمشاهد الساحة ، فهو مسحور بها سحراً لا حدود له ،
سحراً كان يحس إزاده بنشوة كشوة الخمر ، وكان لا ينسى النشوتين جميعاً حتى في غزله كقوله :

قامتُ قِيامَةً رَوْحِيَا لِرَوْاحِي إِنْ الشَّوَى لِقِيَامَةُ الأَرْوَاحِ
وَبَكَتْ فَصَارَ الدَّمْعُ فِي وَجَنَاتِهَا مِثْلَ الحَبَابِ عَلَى كَتُوسِ الرَّاحِ
وَكُنْتُ صَفْحَةً وَجْهَهَا لَمَّا بَكَتْ رَوْضُ بَرَصِيعٍ وَزُدَّهُ بِأَقَاحِي

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصمه من أنوار وأزهار وهو القرار العام لشعره ، فهو شاعر
الرياض ومباهجها ، وهي أنشودته أو أناشيدته التي ظل يتغنّى طوال حياته بها وبما كانت تلقى في
وهمه وخياله من رؤى وأحلام وأشباح لا تكاد تحصى ، مما جعل الاستعارة المكنية القائمة على
التشخيص تكثر في أشعاره كثرة مفرطة ، مع التفوق فيها والبراعة ، ولاحظ ذلك الصغدي من
قديم فقال : « مارأيت أحداً من شعراء المتقدمين أجاد الاستعارة مثله ولا أكثر من استعاراته
اللائقة الصحيحة التخيل » .

ابن^(١) قادوس

هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل الدمياطي المشتهر باسم ابن قادوس ، من شعراء النصف الأول
من القرن السادس الهجري ، ذكره أبو الصلت الشاعر الأندلسي نزير مصر في رسالته التي
ألفها عن الشعراء المصريين حوالي سنة ٥١٠ هـ مما يدل على أن نجمه أخذ يلمع ويتألق في المحافل
الأدبية بالقاهرة منذ هذا التاريخ . وله مدائح مختلفة في الأفضل بن بدر الجمالي المقتول . كما مربنا
سنة ٥١٥ هـ . ويبدو أن نجمه ظل يصعد في الأدب حتى عمل في الدواوين الفاطمية ، ومازال
يترقى بها حتى أسندت إليه - مع الموفق بن الحلال - رياسة ديوان الإنشاء ، واستمر يتقلدها حتى

الماضرة للسيوطي ٥٦٣/١ ومقالة له عنه في مجلة الثقافة
العدد ٦٨٩ .

(١) انظر في ابن قادوس ورجسته وأشعاره الحريدة
(قسم شعراء مصر) ٢٢٦/١ والرسالة المصرية في المجموعة
الأولى من نوادر المخطوطات نشر عبد السلام هرون وحسن

نزل به القضاء سنة ٥٥١ للهجرة . ورياسته لهذا الديوان تجعلنا مهئين لأن يكون شعره - مثل النثر المصرى الكئيب في تلك الحقبة - مرصعا بالبديع ، كقوله في الأفضل :

مَلِكُ نَذْلُ الحَادِثَاتُ لِمَرْوِ يُعِيدُ وَيُيَدِي وَاللَّيَالِي رَوَاعِمُ
وَكَمْ كَرِيهِ يَوْمَ التَّرَالِ نَكْشَفَتْ بِحِمْلَاتِهِ وَهَى الْغَوَاشِي الْغَوَاشِمُ^(١)
تَشِيدُ بِنَاءَ الْحَمْدِ وَالْمَجْدِ يَضُهُ . وَهْنُ لَأَسَاسِ الْهُوَادَى هُوَادِمُ^(٢)

وواضح أن في البيت الأول طباقا بين « يعيد وييدي » وأن في البيتين الثاني والثالث جناسا ناقصا بين « الغواشى والغواشم » وكذلك بين « الهوادى وهوام » . وكان بارعا في صنع ما يسمى في البديع بحسن التعليل ، إذ كان يعرف كيف ينفذ إلى تعليلات طريفة إن هو رضى عن شيء ، فإنه يلتبس له ما يحسنه كقوله الذى أنشكدها بفواتح الفصل في جارية سوداء :

يَلْمُؤْنِي فِي ظَلْبِيَّةٍ مَخْلُوقَةٍ مِنْ كُحْلٍ
وَالْحَجَرُ الْأَسْوَدُ لَمْ يُخْلَقْ لِغَيْرِ الْقُبْلِ

فهو يرد عن السواد في الجارية قبحه ، إذ يجعلها مخلوقة من كحل العيون الذى تترين به النساء ، وقد مضى بقول - كما مر بنا - إن السواد هو الذى يمنح العين السوداء بصرها ونورها ، وما يبلغ حجر كرم ما يبلغ الحجر الأسود من القدسية ، حتى لينال عليه الحجاج بالقبل . وفي أشعاره توريات يصنعها نظرفا . وكل شيء يؤكد أنه كان شاعرا بارعا ، غير أن ديوانه سقط من يد الزمن ، وهو في شعره يتغنى بالخمر وينفذ في وصفه لما إلى تصاوير بدیعة ، ويبدو أنه كثيرا ما كان يشرها مع صحبه في الأديرة ، يقول :

قُمْ قَبْلَ تَأْذِينِ التَّرَاقِيسِ وَاجْلُ عَلَيْنَا بِنْتُ قَيْسِ
عَرُوسَ دَنْ لَمْ يَدْعُ عِشْقُهَا إِلَّا شُعَاعَا غَيْرَ مَلُومِ
تُجَلِّى عَلَيْنَا بَاسًا نَقْرَهَا فَلَا تَقَابِلْنَهَا بِتَمْغِيسِ
مُذْهَبَةُ اللَّوْنِ إِذَا صُفِّتْ مُذْهَبَةُ لَلْهَمِّ وَالْبُوسِ

نَارٌ إِلَى النَّارِ دَعَا شُرْبُهَا وَشَرَّدَتْ بِالْعَقْلِ وَالْكَيْسِ
فِي رَوْضَةٍ كَانَتْ أَزَاهِيرُهَا كَأَنَّهَا رِيشُ الطُّرُودِ

وهو يحتسبها مع رفاقه في بستان دير ، وهو يعب منها متعلبا بجمال الطبيعة ، وهي تجل عليهم
عروسا رشيقة معتقة ، كأنما لم يبق منها عبقها إلا شعاعا بفرج الموم حين يمس الخلق ، وإنها
لذات ثغر باسم بما يطفو عليها من حجاب ، وابن قادوس يشربها وهو غير ناس أنها محرمة وأنه
يتناولها من يد إبليس ، وكأنه أمل في غفوريه . وعلى نحو ما كان يمزج بين الحمر والطبيعة ، يحتسب
ككوس النشوة منها جميعها ، كذلك كان يمزج بينها وبين الغزل في مثل قوله :

وَلَيْلَةٌ كَأَنَّهَا فِي الطَّرْفِ قَصْرُهَا وَصَلُّ الْحَبِيبِ وَلَمْ تَقْصُرْ عَنِ الْأَمَلِ
بَنَاتُ نَجَازِبِ أَهْدَابِ الظَّلَامِ بِهَا كَفُّ لِلَّامِ وَذَكَرَ الصَّدِّ وَالْمَلَلِ
وَكَلِمَاتُ رَامٍ نَطَقًا فِي مَعَاتِقِ وَالتَّمَسُّ فِي قَلْبِ الْكَاسَاتِ لَمْ تَيْلِ^(١)
فَبَتْ مِنْهَا أَرَى النَّارَ الَّتِي سَجَدَتْ لَهَا الْجُحُوسُ مِنَ الْإِبْرِيْقِ تَسْجُدُ لِي
رَاحُ إِذَا سَفَكَ التُّنْعَامُ مِنْ دَعَا ظَلَّتْ تُقَهِّقُهُ فِي الْكَاسَاتِ مِنْ جَدَلِ^(٢)
فَقُلْ لِمَنْ لَامَ فِيهَا إِنِّي كَلَفْتُ مَقَرِّي بِهَا مِثْلُ مَا أُغْرِيتُ بِالْعَدَلِ^(٣)

والخميرية يديعه يصور فيها ابن قادوس ليلة من أروع ليل ليصاله ، يعاتب فيها صاحبه
مصرحا بما اقتطفها فيها من أزهار الوجد والوله والصبابة ، بينما شمس الحمر تطلت أشعتها من
أفلاكها في الككوس مشرقة غير غاربة ، ويشعر كأنها نفس النار التي طالما سجد لها الجحوس تسجد
له حين نصب من إبريقها في كأسه ، ويعجب أن يسفك دمها الشارب فتسيل من الدن إلى كأسه
غير محزونة ، بل مستبشرة ، بل ضاحكة مقهقهة لشدة فرحها وسرورها . ويقول لعاذله في شربها
كفى عذلا ، لأنني مولع بها ولوعك باللوم والعذل . وحسبنا هذه الخميرية وسابقتها لتدل على تفوق
ابن قادوس في تصوير الشغف بالخمير إما حقيقة وإما محاكاة لشعراء بغداد من أمثال أبي نواس
ومعاصريه .

عبد (١) الباقى الاسحاقى المتوفى

من شعراء القرن الحادى عشر المجرى أيام العثمانيين ، ولد بمنوف وبها نشأ ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم نزل القاهرة وأكب على حلقات علمائها ينهل منها ، حتى أصبح من علمائها ، وعنى بالتاريخ ، وكان شاعرا بارعا ، ويصفه الهى بأنه يجاوز فى الرقة الحد وأنه يمتاز بجلادة معانيه وعذوبة مبادئه ، ومازال ينظم الشعر حتى توفى بمسقط رأسه سنة ألف ونيّف وستين ، وقد أنشد له طائفة من أشعاره ، استلهمها بخمرة ممزوجة بالقرنل على هذا النمط .

نَمُتْ لَنا نُحْمِلُ الكوكبا فناديتُها مَرَحَبًا مَرَحَبًا
أدارتُ بمضمرنا قهوة وطافتُ بكأس الطلّا مُدْهِبًا (٢)
رَمْتُ ورميتُ بالأحاطها وقد أدكرتني عَهْدَ العبا
وغنّتُ لنا فطربنا لها وباحسنَ ذاك الذى أطربا

وهو يتنزل بساقية مغنية أصرت لُبه ، وقد دارت عليه بكوس الخمر ، وهو ينتشى بها ويمجال المغنية كما يقول ، مصرّحا بذلك مجازا فى غير مداراة . وفى قصيدة ثانية يذكر مجلسا للهو والغناء نعم به بين مشاهد الطبيعة فى عفاف لا يدانيه عفاف . ومن قوله فى خمرة راقصة :

رقص المجلسُ أنسا فاجعل الجيرة كأسا
واسقى بالزقّ والطا سرّ فإني طيْتُ نفسا
وأقسم لِسُهر والدّ لذات فى حانى عرسا
كيف لا وهى ترينى فى دجّا الظلماء شمسا
ونقيم المَبِتَّ حَبّا بعد ما جاور رَمَسا

وهو لغزاه بالخمرة وشغفه بها يريد أن يحتسبها جوارا وزقا وطاسا لا كأسا فحسب ، وتصور نفسه كأنما يعيش فى حان يجالها فيه شمس ، ترد إلى اللون الحىاة ، تعبيرا بذلك عن شدة تعلقه بها ، ويقول :

القرن الحادى عشر ٢٨٩/٢
(٢) الطلّا : الخمر .

(١) انظر الى عبد الباقى الاسحاقى وترجمته قصة الرمان
للسجى ٥٨٩/٤ وكذلك كتابه : علامة الأثر فى أمان

امْلَ لِي الكاسَ تماماً واسقني جَامًا فجَامًا^(١)
 اسقني بالكوب والكاس سِرْ فُرَادَى وتَوَامًا^(٢)
 ثُمَّ بِالسَّجَرَةِ فالج رُةً حَتَّى أَتُـرَامِي
 اسقني حينئذٍ بال رِزْقٍ حَتَّى لَا كَلَامَا
 ثُمَّ أَزْهِى مَوْضِعَ فِي ال رَوْضِ فَاخْشَرَهُ مَقَامَا

وهو صَبَّ بالخمر يريد أن يحتسبها حتى الثالثة ، بل يريد أن يشربها أوطالا جاما فجاما وكثوسا وأكوابا وَجَرَّتْ متوالية حتى يفقد الكلام ويغيب عن حسه ، وهو يشربها في أزهى موضع بالروضة قد عبت فيه الأزهار بأريجها العطر . وكأنما يعيد الإِسْحَاقُ في أيام العُثَمَانِيين ذكرى أبي نواس وأمثاله من الماجنين العباسيين .

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

مَرُّ بِنَا أن مصر عرفت الزهد والنسك الديني من قديم ، ويكنى أنها هي التي أنشأت في المسيحية نظام الرهبنة الذي شاع منها وانتشر في العالم المسيحي . وقد أقبلت على الإسلام بمجرد اعتناقها له ونزول العرب المسلمين فيها تنهل منه ، ورأيناها تسهم منذ زمن الولاة في نشر مذهبي مالك والشافعي ، كما أسهمت في القراءات عن طريق مقرئها المشهور : ورش . وأكبت على الحديث النبوي وتفسير الذكر الحكيم وأخذت تدرسها كما تدرس القراءات والفقه ، وتكونت لها طبقات من علماء الدين ومن الوعاظ والقصاص ، وكان كل من شدا منهم شعرا نظم في الزهد والوعظ أبياتا كان يتداولها الناس على نحو ما كانوا يتداولون أشعار الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ وظلوا يتداولون بعده أشعار منصور بن إسماعيل الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٣٠٦ من مثل قوله^(٣) :

كُنْ بِمَا أَوْتِيَتْهُ مُقْتَبِطًا تَسْتَدِمُ عَمَرَ الْقَنْعِ المكنى
 إِنْ فِي نَيْلِ الْمَنَى وَشَكَّ الرَّدَى وقياسُ الْقَصْدِ عِنْدَ السَّرَفِ
 كَسْرَاجٍ دُمُؤُسِهِ قُوْنُسُهُ فَلِذَا عَمَّرَتْهُ فَبِهِ طُفْيِ

(٣) نكت المنيان ص ٢٩٨

(١) الجام : إياه من فضاء .

(٢) توأم : توأم : من الاثنين إلى مازاد .

وهو يدعو إلى القناعة والاكتفاء بالقليل وعدم التطلع إلى متى عريضة يكون فيها حتف صاحبها ، ويقول لابد من القصد والاعتدال لتظل للإنسان مثته وقوته ، أما إذا لفرط ونجاوز الاعتدال والقصد فإنه لاشك صائر إلى الهلاك . وإذا تركنا الفقهاء إلى الشعراء وجدناهم يرددون بعض أشعار زاهدة وبعض مواظ ، واتخذوا - كما أسلفنا - من زوال الدولة الطولونية عبرة كبرى للدهر ونكباته ، وأخذت العظة وما يتصل بها من شعر الزهد تتكاثر على ألسنة الشعراء ، ولتميم بن المزعز صيدة في القرافة ومقابرها وما يبعث في النفس من خشية الله ، وفيها يتجه إلى ربه قائلا أو مناجيا^(١) :

رجوئك يا ربُّ لا أننى أطمعك طوعاً أولى الانتهاء
ولكننى مؤمنٌ موقنٌ بأنك ربُّ الورى والسَّاءِ
وأنتَ أهلُّ لحسنِ الظنونِ وأنتَ أهلُّ لحسنِ الرجاءِ

فهو يرجو الله ويعبده لا خشية عقابه ولا خوف ناره ، ولكنه يعبده لأنه أهل لعبادته ، فهو رب الكون ، رب الأرض والسماء ، وهو يرجوه للرجاء لا لشيء وراءه من مآرب الحياة أو مآرب الآخرة . فشئ من ذلك لا يعلق بنفسه ، وإنما يعلق بها اليقين والإيمان بأنه الرب الأعلى الخلق بكل عبادة وكل رجاء .

ومن يتصفح ديوان الشريف العقيلي شاعر الطبيعة والخمر يمجده بنظم كل قافية من قوافيه المرتبة على الحروف الهجائية بأبيات واعظة ، كأنما بكفر بها عما نظمه من مجون في نفس القافية ، كقوله في قافية الباء^(٢)

أيها السَّاءِ الذى ضلُّ عما يَبراد به
إنَّ للمَرَضِ وقفةً أمرها غيرُ مُتنبه
فانتبه قبل أن ترى مذنبا غير منتبه

ووعظيات الشريف ليس فيها روح ، لسبب طبعه وهو أنه لم يكن شاعر وعظ وزهد ، وإنما كان شاعر خمر وطبيعة ، ومع ذلك فأغلب الظن أنه هو الذى أوحى لشعراء الموشحات الأندلسية في الحقب المتأخرة بفكرة الموشحات المكفرة لموشحاتهم الماجنة .

ونلتق بغافر الحداد بعد نعيم ، وهو يذكر دائما بالموت كقوله ^(١) :

كُنْ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى وَجَلٍ وَتَوَقَّعْ سُرْعَةَ الْأَجَلِ
تَحْدُغُ الْإِنْسَانَ لَذَّتُهَا فَهِيَ مِثْلُ السُّمِّ فِي الْعَمَلِ
أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ فِي عَمَلٍ وَاللَّيَالِ فِيكَ فِي عَمَلٍ

فالسعيد في رأى ظاهر من وضع الموت نصب عينيه ، ولم يغتر بمتاع الحياة ولذتها فهي كالسم في العمل ، لاتزال تسرى في الجسم ، لاتزال الأيام والليالي تعمل عملها فيه ، حتى يفتى فجأة وعلى غير أهبة أو انتظار . ولا ين الثَّغر يدعو دعوة حارة إلى الزهد والقناعة ^(٢) :

جِهَادُ النَّفْسِ مَفْرُضٌ فَخُذْهَا بِآدَابِ الْقِنَاعَةِ وَالزُّهَادَةِ
إِنْ جَنَحَتْ لَذَلِكَ وَاسْتَجَابَتْ وَخَالَفَتْ الْهَوَى فَهُوَ الْإِرَادَةُ
وَإِنْ جَمَحَتْ بِهَا الشَّهَوَاتُ فَاكْبَحْ شَكِيمَتَهَا بِمِقْمَعِ الْعِبَادَةِ
عَسَاكَ تُحِلُّهَا دَرَجَ الْمَعَالِ وَتَرْفَعُهَا إِلَى رَبِّ السَّعَادَةِ

وهو يحض على جهاد النفس وترويضها على الزهد في طيات الحياة ، فإن خالفت هواها وأصفت لك فهي الأمانة المبتغاة ، وإن استعبدتها الشهوات فاكبح جاحها بالنسك والعبادة ، فهي خير مؤدب ومروض مذلل لها حتى ترقى إلى درج المعالي وتصل إلى رب السعادة . ومن تبتلته إلى ربه ^(٣) :

يَا مُسْتَجِيبَ دَعَاهِ الْمُسْتَجِيرِ بِوَ . وَيَا مُفَرِّجَ لَبْلِ الْكَرْبَةِ الدَّاجِرِ
قَدْ أُرْتَجَتْ دُونَا الْأَبْوَابُ وَامْتَنَتْ وَجَلَّ بِأَبْكَ عَنْ مَتْنٍ وَإِرْتَاكِ
نَخَافُ عَذْلَكَ أَنْ يَجْرَى الْقَضَاءُ بِوَ . وَتَرْجِيحِكَ فَكُنْ لِلْمَخَافِ الرَّاجِي

وهو تبتل وتضرب رقيق إلى الذات العلية ، إذ يدعو الله المفرج لظلمات الكربة ، الكاشف لليلها الداجي ، أن يفتح له الأبواب بعد أن أخلق دونه كل باب ، وإنه ليعلق بالأمل في رحمته

رحمة تمنع العدل أن يجرى القضاء به متوسلاً بخوفه ودرجائه في رحمة الله الواسعة ، ولا ين سناء الملك^(١) :

أقولُ دارى وجيرانى مغالطةً والقبرُ دارى والأمواتُ جيرانى
فى وَحْشة القبر والدود المقيم به شغلٌ لنفسى عن دارى وبُستانى
سأوسع القبر بالأعمال أصلحها جهدى وألبسُ زهدى قبل أكفانى

فليت داره هى الدار الحقيقية له وليس جيرانه هم جيرانه الحقيقيون ، فداره الحقيقية القبر وجيرانه الأموات حول قبره ، وإنها لدار مفزعة ، دار وحشة وديدان تنظره ، دار ضيقة وسبحاول أن يمد أطايبها بالأعمال الصالحة ، ويسرع إلى ثياب الزهد فى الحياة الدنيا يلبسها قبل أن يلبس أكفانه ويتزل رمله وحفرته المظلمة .

ويكثر ابن مطروح من مناجياته لربه كقوله^(٢) :

يَا مَنْ عَلا فى مُلكِهِ فَأَقْتَرَبُ وَمَنْ بَدَأَ فى نُورِهِ فَأَحْتَجِبُ
وَمَنْ هو الْقَصْدُ لأهلِ الثَّغَى والمَطْلَبُ للأسَى وكلُّ الأَرْبِ
عَوْدَتى الأَنْسَ فلا تُنْزِلْنى وَهَبْنِى الرُّحْمَةَ فِىهَا تُهَبُ

وهو يتضرع إلى ربه الذى علا فى ملكوته وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، والذى يملأ الدنيا نورا وضياء من حوله ، وهو محتجب لا يراه أحد ، والذى هو المقصد والمطلب الأسى وكل الأرب عودتى الأانس ، والذى عوده الأانس به ، أن لا ينساه وأن يهبه من خزائنه العلية ورحمته الواسعة .

ويظل شعر الزهد والتبتل إلى الله مزدحماً زمن المالك ، من ذلك قول عبد الملك الأرمنى القوصى للتوفى سنة ٧٢٢ متعلقاً بغفوربه^(٣) :

قالت لى النفسُ وقد شاهدتْ حالى لا تصلحُ أو تستقيمُ
بأئى وَجْهِ نَلْتَقِ رَبَّنَا والحاكمُ العَدْلُ هناك الغريمُ
قلْتُ حَسْبى حُسْنُ ظَنى بِى يُنبِئُنِى من النعيمِ المقيمِ

(١) الديوان ص ٧٨٧ .

ص ٢١٢

(٢) طبقات الثامنة للسبكي ٩٨/١٠

(٣) ديوان ابن مطروح مع ديوان العباس بن الأحنف

قالت وقد جازت حتى لقد حقَّ له يُصْلِكَ نارَ الجحيمِ
قلت معاذَ الله أن يَتَّيَلَّ بِسَارِهِ وهو بحالٍ عليمِ

والمراجعة بين عبد الملك ونفسه طريفة ، فهي تلومه على حاله المعوجة وسلوكه غير الصالح وتقول بأى وجه تلقى غريمك وهو ربك ، فيرد عليها بأنه حسن الظن بالله وعفوه ، وأنه سيدخله جنات النعيم ، فتسأله متعجبة أنجهز بذلك ولا تحفبه ، لقد حقت عليك النار - فيقول معاذ الله أن يصلبه ربه الجحيم وهو العالم بحاله وصحة نيته في إيمانه .

ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبو المعالي ابن الفلاح المتوفى سنة ٧٤١ للهجرة^(١) :

اضْبِرْ عَلَى حُلُوِّ الْقَضَاءِ وَمُرُوْءٍ وَعَلِمَ بِأَنَّ اللَّهَ بِالْغُ أَمْرُو
وَأَثَبَتْ فَكَمْ أَمْرٍ أَمْضُكَ عُرُوْءُ لَيْلَا فَبَشِّرْكَ الصَّبَاحُ بِبُشْرُو
وَأَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ الْكَرِيمِ وَلَا تَسَلْ بِشَرًّا فَلَيْسَ سِوَاهُ كَاشَفَ ضُرُوْ

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتي به القضاء من حل ووفر ، فتلك إرادة الله ولا راد لأمره ، وينصح بالثبات حتى تنكشف ظلمة الغمة وتسفر عن بشرى مضيئة ضوء الصباح وأن يلجأ الإنسان إلى ربه ويضرع إليه ، فهو وحده كاشف الغم ومفرج المحن .

وتلقى ببينات وأدعية كثيرة عند الشيوخ ، من ذلك قول قاضي القضاة ابن التتسي المالكي المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة^(٢) :

إِلَهَ الْخَلْقِ قَدْ عَظُمَتْ ذُنُوْبِي فَسَامِعْ مَا لِعَفْوِكَ مِنْ مَشَارِكِ
أَغْنِ بِأَسَدِي عَبْدًا فَقِيرًا أَنَاخَ بِيَابِكَ الْعَالِي وَدَارِكِ

فهو يتضرع لربه أن يعفو عن ذنوبه ، ويستغث به ، فهو عبد فقير من عبادته ، ألقى عصاه بيباه ، آملاً في قبول تضرعه ، ويورث توربة واضحة في قوله : « دارك » فعناه القريب الدار الحقيقية بدلالة كلمة الباب قبلها ، والمعنى البعيد المقصود أن يدركه قبل أن يئأس من عفوه ورحمته .

ويلقانا زهد كثير في الحقبة الثمانية من مثل قول محمد بن أحمد الخطاى في الدعوة إلى القناعة

وَأَنْ لَا يَفْكَرَ الْإِنْسَانُ فِي رِزْقِ الْغَدِ^(١) :

نَأْنُ وَلَا نَجْزُغْ لِأَمْرِ نَحَاوُلُهُ فَخَيْرُ اخْتِيَارِ الْمَرَّةِ مَا اللَّهُ فَاعَلُهُ
نَفْعِيًا بَظْلُ اللَّهِ مِنْ رَوْضِ قَوْلِهِ أَلَسْتُ بِكَافٍ تَلَحُّقُكَ فَوَاضِلُهُ^(٢)
وَعِزُّ تُهْنٍ دُنْيَاكَ وَاغْنَى بَتْرَكْهَا وَلَا تَحْفَلَنْ بِالرِّزْقِ فَاللهُ كَافِلُهُ

فهو يدعو إلى الصبر في طلب الرزق وأن لا ييأس الإنسان ، بل يدع شأنه لربه فإنه ضامن رزقه ولن ينساه ، وحرى بالإنسان أن يستظل بمثل قوله : (أليس الله بكاف عبده) مؤمنا بأنه يتكفل بعباده ولا يترك ظامئا إلا سقاه ولا عاريا إلا كساه ، وما الغز الحقيق إلا رضى الدنيا وما الغنى الحقيق إلا تركها وعدم التعلق بها وأن لا يشغل الإنسان نفسه برزق الغد ، فالله كافله وضامنه .

وقد تحدثنا في الفصل الأول عن نشأة التصوف بمصر وأنه أخذ طريقه فيها إلى الظهور منذ سنة ٢٠٠ للهجرة ولم يلبث ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ للهجرة أن رفع صرحه سامقا ، إذ يعد المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامي وترتيب أحواله ومقاماته ، وقد ذكرنا أطرافا من آرائه الصوفية وبعض تلاميذه من أعلام الصوفية بعده في الشام والعراق وإيران ، وكان مصر التي يرجع إليها الفضل في قيام نظام الرهبنة في المسيحية يرجع الفضل إليها أيضا في قيام التصوف في أركان العالم الإسلامي ، أو قل عبارة أدق يرجع الفضل في قيامه إلى أحدائنها وهو ذو النون المصري ، ومر بنا تصوير ذلك من بعض الوجوه وكيف أنه كان أول من وضع تعريفا للوجد الصوفي وأول من ذكر كأس المحبة الربانية التي هي جوهر التصوف وقوامه ، ومن ضيائها استمد في قوله مخاطبا ربه^(٣) :

لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانُ الْمَصُونُ كُلُّ لَوْمٍ عَلَى فَيْكَ يَهُونُ
لَكَ عِزُّمُ بَأَنْ أَكُونَ قَتِيلًا فَيْكَ وَالصَّبْرُ عَنْكَ مَا لَا يَكُونُ

وكانه أول قتيل بل أول شهيد في الحب الإلهي ، فقد سبح في بحاره وغرق بين أمواجه ، غرق في مياه عميقة ، مادًا بصره إلى القاع وأعماق الأعماق ، يريد أن يرتوى وأن يحظى بأمانيه من الوصال ، محتلا في ذلك جهودا مضنية ، وفي ذلك يقول^(٤) :

(١) سلافة الصرايين بمصر (طبع القاهرة) ص ١١٨

(٣) ابن خلكان ٣١٦/١

(٤) طبقات الصوفية للسلي ص ٢٧ .

(٢) نفيًا : استظل .

أُمُوتْ وَمَا مَاتَ إِلَيْكَ صَبَابِي وَلَا قُفَيْتَ مِنْ صَدَقِ حَبِّكَ أَوْطَارِي
تَحْمَلُ قَلْبِي فَيْكَ مَالَا أَبْجُ وَإِنْ طَالَ سُقْمِي فَيْكَ أَوْطَالَ إِضْرَارِي

فصباياته بالحُب الإلهي لا تنقضى ، إنه لا يزال يريد أن يكون حبه لربه لا يبدانيه حب ، ولا يزال يجد فيه نصبا وشقاء ، ولذته التي لا تحد إنما هي في هذا الشقاء والنصب الذي لا يشبه نصب . وتناول كأس هذه الهبة منه كثيرون في العالم الإسلامي . ويدور الزمن بمصر دورات وتدخل في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وسرعان ما تنشأ بمصر الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وكانت تعارض التصوف حتى لا يطفئ على عقيدتها التي صورناها في غير هذا الموضع وبصرف المصريين عنها ، ومن هنا تراجعت موجه في عهدها ، ومع ذلك فينبغي أن لا ننظر أنه تلاشي ، فقد ظل حبله ممدودا بعد ذى النون . ومربنا من منصقتها بعده أبو بكر الدقاق الكبير المتوفى سنة ٢٩٠ وبنان الحال المتوفى سنة ٣١٦ وأبو علي الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ وبعد السيوطي بعض أسماء لم تصوف ظهروا في عهد الدولة الفاطمية^(١) مثل ابن الترجان المتوفى سنة ٤٤٨ ويقول عنه : كان شيخ الصوفية بديار مصر . وولتقى بأخيرة من أيام الفاطميين بصوفى كبير هو ابن الكيزاني وسترجم له عما قليل . ومربنا أنه أخذ بتفصح في التصوف منذ قيام الدولة الأيوبية انجماها ، انجاء فردى فلسفى وانجاء جماعى سنى ، ومثل الانجاء الأول ابن الفارض وسنخسه بترجمة ، ومن تلاميذه ابن الحليمي محمد بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٨٥ ولم يتجه بتصوفه انجاء ابن الفارض الفلسفى ، بل وقف به عند الوجد والحديث عن الشوق وأكثر من ذكر معاهد الحب على طريقة العذريين ، واشتهر بأنه تنازع مع محمد بن إسرائيل صوفى الشام في قصيدة صوفية واحتكا إلى ابن الفارض ، فشهد لابن الحليمي أنها من نظمه ، وفي فوات الوفيات قطعة من شعره ، ومن قوله في الذات الإلهية^(٢) :

وَحَجَّبَ عَنَّا حُشَّةَ نَوْرٍ حَسَنٍ فَمِنْ ذَلِكَ الْحَسَنِ الْفَلَائِلُ وَالْهُدَى
فَيَانَارَ قَلْبِي حَيْدَا أَنْتِ مُصْطَلَى وَبَادِمَعَ عَيْنِي حَيْدَا أَنْتِ مُؤَرِّدَا

وشعره الصوفى يهبط عن شعر ابن الفارض كثيرا . وكان يعاصره كناكث المصرى الواعظ

المقرئ المتوفى سنة ٦٨٤ ونحس عنده قبا من ابن الفارض في مثل قوله ^(١) :

تَحْصَرُوا فَمَنْظُورًا جَمَّالَكَ غَابُوا وَالْكُلُّ مَذْهَبًا سَمِعُوا خَطَابَكَ طَابُوا
فَكَأَنَّهُمْ فِي جَنَّةٍ وَعَلَيْهِمْ مِنْ خَمَرٍ حَبِّكَ طَافَتْ أَكْوَابُ الْأَكْوَابِ
أَنْتَ الَّذِي نَاولَتْكَ كَأْسُ الْهَوَى إِذَا سَكَرْتُ لَهَا عَلَى عِتَابِ

ويقول ابن تيمزي يردى إنها قصيدة مشهورة عند الفقراء يريد الصوفية ، وواضح أنه يصور في هذه الأبيات الغيبة التي طالما صورها ابن الفارض والتي تعنى عنده السكر وفقدان الوعي ، فقد غاب عن وعيه حين أحس بمشاهدته للجمال الرباني وكأنما طافت أكوام الخمر الإلهية ، وتناول منها كوبا ، جعله يغيب عن الوجود شاعرا بوجود لا يشبه وجد ، وجد بالجمال الإلهي المطلق الذي يسرى في كل كائن جميل مستمدا منه حسنه وجهاله ، يقول ^(٢) .

مَنْ أَنْتَ عَيْبُوبُهُ مَاذَا يَغْيَرُهُ وَمِنْ صَفَوَاتِ لَهْ مَاذَا يُكْدِّرُهُ
هِيَاثَ عَنْكَ يَلَاخُ الْكُونُ تَشْغَلِي وَالْكُلُّ أَعْرَاضُ حَسَنِ أَنْتَ جَوْهَرُهُ

وكان الله يشاهد في كل جميل بالكون ، أو قل كان كل جميل يستمد منه جهاله ، أو يشاهد فيه جهاله ، وفكرة الشهود ستعرض لها عند ابن الفارض عرضا أكثر سعة . وبدون ريب أثر ابن الفارض في صوفية مصر وغير مصر بعده آثارا نضيق وتسع حسب مواجد الصوف .

ويلقانا صوفي من أتباع ابن عربي ، مربنا ذكره في الفصل الأول ، وهو عبد العزيز بن عبد الغني الحسني المتوفى سنة ٧٠٣ وفي شعره ما يدل على تلمذته لابن عربي إذ يقول ^(٣) :

وَجَدْتُ بَقَائِي عِنْدَ فَقْدِ وَجُودِي فَلَمْ يَبْقَ حَدٌّ جَامِعٌ لِحُدُودِي
وَأَلْقَيْتُ سِرِّي عَنْ ضَمِيرِي مَلُوحًا بِرَمَزٍ إِيْشَارَاتِي وَقَلْتُ قُبُودِي
فَأَصْبَحْتُ مِنْ دَانِيَا بِمَعَارِفِي وَقَدْ كُنْتُ عَنِّي نَانِيَا بِمَعْمُودِي

ويقول ابن حجر معلقا على الأبيات : « وهذا نفس الاتحادية لا شك فيه » . يريد أن الأبيات تنصير عن فكرة الاتحاد بالذات العلية التي كان يؤمن بها ابن عربي ، وكان له ديوان

(١) انظر ترجمة ككاكت في اللغات ١٠٨/١ والنجم

(٢) النجم الزاهرة ٣٦٥/٧

(٣) النجم لابن حجر ٨٤٤/٢

الزاهرة ٣٦٤/٧ .

كبير ، ويذكر له قصيدة نونية طويلة اسمها المصوب وهي ملكة النحل .

ومن المؤكد أن النزعة الفلسفية في التصوف بمصر كادت تنحسر بعده إلا قليلا ، إذ مضت مصر تؤثر التصوف السني وما أشاعه من الطرق الصوفية الكثيرة ، وقد أفضنا في بيان ذلك بالتفصيل الأول ، وكان من أهم الطرق التي تأسست بها الطريقة الشاذلية ، ومن أهم أصحابها ابن عطاء الله السكندري الصوفي الواعظ تلميذ مؤسسها أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسى ، ومن شعره قصيدة يقول فيها ^(١) :

ويا صاحِرْ إن الركب قد سار مسرعا ونحن قعودُ ما الذي أنت صانعُ
أترضى بأن تبقى الخلفَ بعدهم صريعَ الأمانى والغرامُ ينازع
وهذا لسانُ الكونِ ينطقُ جهرَةً بأنَّ جميعَ الكائناتِ قواطِعُ

فهو يهتف بصاحبه أن يتبع ركب المحبوب ولا يتخلف ، حتى لا يفقد أمانه ويضيع منه حبه ، بل إن الكون كله ليهتف به أن يرحل وراءه ويهاجر له ، فجميع الكائنات ماتزال مهاجرة تتبعه . وكثير من شعر هؤلاء الصوفية كانوا ينظمونه ليردده المنشدون في الذكر بين صفوف الذاكرين الله كثيرا يملئهم حاسة وإمعانا في ذكر الله وتسيحه ، من مثل قول عبد الغفار بن أحمد بن نوح القوصي الصوفي المتوفى سنة ٧٠٨ للهجرة :

أنا أَقْنَى أَنْ تَرَكَ الْحَبَّ ذَنْبٌ آثَمُ فِي مَذْهَبِي مَنْ لَمْ يُحِبْ
ذُقْ عَلَى أَمْرِي مَرَارَاتِ الْهَوَى فَهَوَّ عَذَبٌ وَعَذَابُ الْحَبِّ عَذَبٌ
كُلَّ قَلْبٍ لَيْسَ فِيهِ سَاكِنٌ صَبَوَةٌ عُدْرِيَّةٌ مَازَاكَ قَلْبُ

ويكثر هؤلاء الشعراء من الصوفية في أيام المماليك ، ومن أشهرهم برهان الدين بن زقاعة ، المتوفى سنة ٨٥٩ عن سن عالية ، وكان يتبرك به السلطان برقوق وابنه السلطان فرج ، وله في الحب الصوفي ومواجهه أشعار كثيرة من مثل قوله ^(٢) :

رَأَى عَقْلٌ وَلَيْسَ فِيهِ حَارَا فَأَضْرَمَ فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ نَارَا
أَلَا بِسَالَانِي دَغْنِي فَسَانِي رَأَيْتَ الْمَوْتَ حَاجَا وَعَاطَارَا
وَأَهْلُ الْحَبِّ قَدْ سَيَكُرُوا وَلَكِنْ صَحَا كُلُّ وَفَرَّقَتَا سُكَارَى

وهي نار كانت لا تزال مشتعلة في قلوب الصوفية ، نار حميم للذات العلية ، نار لا تنطفئ أبداً في أثناء حميم بل جهادهم الشاق العنيف في هذا الحب ، الذي كانوا لا يزالون يرحلون إليه ورحلتهم الصوفية المجهدة حباً وعمرة ، وما يزالون راحلين هالمين مفضين إلى سكر لا يداينيه سكر ، متجردين عن كل رغبة في النفس ، حتى لكأنما تعطل إرادتهم ويموت كل شيء إلا رغبتهم الجامعة في الوجد الرباني .

ويلقانا شعراء صوفية كثيرون في كل طريقة من طرق الصوفية بل إن كثيرين من أصحاب هذه الطرق التي كان يرثها الأبناء عن الآباء كانوا شعراء وبحري الشعر على ألسنتهم على نحو ما نقرأ عند السادة الوفاة الشاذلية، والسادة البكرية في أيام المالك وأيام العثمانيين من مثل قول علي بن وفا :

تَهَيَّأَ عَنْ عَيْنِي فَفَيْتِكَ شَاهِدِي وَوَجَّهْتُكَ مَشْهُودِي وَمَا عَنكَ عَانِي
فَإِنْ غَبَتْ فَلِأَشْهَاعٍ مِنْ مَغَارِبِ وَإِنْ لُغَتْ فَلِأَرْوَاحٍ مِنْ مَشَارِقِ

ويتلو الشهاب الخفاجي البيتين بطائفة من أشعار أبنائه ويقول لهم أنفس قدسية أُنْفِضَتْ عَلَيْهَا الْعُلُومُ الدُّنْيَا^(١). ونشأ للصوفية وطرقهم من قديم يريدون كثيرون كانوا لا يزالون ينهون بأصحاب طرقهم وأساتذتهم، وقد يبالغون في ذلك، فيطلبون منهم الهداية إلى طريق التقوى والصلاح^(٢).

وكان المديح النبوي يقترن بشعر التصوف من قديم ، ومنذ حسان بن ثابت وكعب بن زهير والشعراء بمدح الرسول ﷺ . وأخذت هذه المديح تتكاثر منذ القرن الرابع الهجري ، تكاثرت على ألسنة أهل السنة مجتهدين في الرسول المثل الكامل للمسلم في نسكه وجهاده في سبيل نشر دعوته ورسائله النبوية ، وكذلك على ألسنة الشيعة ذاهبين إلى أن نوره المهدى يتجسد في أئمتهم من بعده . وبالمثل على ألسنة للتصوفة وقد أخذوا منذ الحلاج يشيرون فكرة الحقيقة المهدية وأن الرسول مبدأ الوجود الروحي للحياة الإنسانية ، بل مبدأ النور في الكون ، منه يستمد ضياءه . وقد مضى كل هؤلاء المادحين ينهون بصحابة الرسول وبمعجزاته المادية ومعجزته الكبرى القرآنية ، مع التوسل إليه بطلب الشفاعة يوم العرض وأن يكون دائماً معينا لهم ونورا هاديا . وما زال الشعراء للصريون - مثل شعراء العالم الإسلامي يتغنون بمدح الرسول ﷺ ، حتى إذا نشبت

الحروب الصليبية ، وكانت حرباً دينية ، أخذ حملة الصليب يهاجمون رسول الإسلام برماثل منكورة ، واندلعت الحروب بين المسلمين وبينهم فكان طيعاً أن يزدهر المذبح النبوي للرد على أعداء الإسلام من جهة ، ومن جهة ثانية لرفع سيرته العطرة وجهاده في نشر رسالته شعاراً يتخذ منه الذائدون عن حمى الإسلام القدوة الحسنة دالاً فيهم الحماية لدق أعتاق الصليبيين وسحقهم سحقاً ذريعاً . وكاد لا يخلو ديوان شاعر مصري حيثذ من مدحة أو مدائح نبوية ، وخاصة منذ ظهور البوصيري أنه مادم مصري للرسول ، بل أنه مادم عرى له على الإطلاق ، وسنخصه بكلمة ، ولكتيبرين من معاصريه مدائح نبوية طائفة ، ونكتفي بأن نشير من بينهم إلى شيخ الإسلام تقي الدين محمد بن علي المشهور باسم ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وله أكثر من مدحة نبوية ، ومن قوله في مديحه **عليه السلام** ^(١) :

لم يبق لي أملٌ سواك فإنْ بَقْتُ ودَعْتُ أيامَ الحياةِ وداعاً
لأستلذُّ لغيرِ وجهك منظرًا وسوى حديثك لا أريدُ مماها

وكان العَرَّازي معاصره المار ذكره بين الوشاحين يكرر من المذبح النبوي ، ومن قوله في بعض مديحه للرسول الكريم ^(٢) :

أَلْقَى النَّبِيُّ بَرهَانًا وَمَعجزةً وَغَيْرَ مَنْ جَاءَهُ بِالوحي جبريلُ
سَلَّ الإلهُ بِهِ سِيفًا لِلنَّبِيِّ وَذَلِكَ السِّيفُ - حَقُّ الْحَشْرِ - مَسْلُوكُ
وَبَلَّ لِمَنْ جَعَدُوا بَرهَانَهُ وَتَنَى عَنَّا رُشْدَهُمْ غَيٌّ وَتَضَلُّلُ

ولابن سيد الناس صاحب السيرة النبوية المتوفى سنة ٧٣٤ للهجرة ديوان خصه بمديح الرسول عليه السلام سماه « بشرى اليب بذكر الحبيب » مخطوط بدار الكتب المصرية . ولابن نياه ويرهان الدين القيراطي مدائح نبوية مختلفة ، ويظل الشعراء يمدحون الرسول الكريم مدائح كثيرة ويتردد ذلك في الحقة المائنة عند الشهاب الحفاجي وغيره ^(٣) ، كما يتردد التوسل به وطلب الشفاعة ، على نحو ما نجد عند عبد الله الإدكاوي من مثل قوله متوسلاً ^(٤) :

(١) القوت ١٨٧/٢ .
الحلي ٤١٣/٤ وما بعدها ، وقد أشد الهي في كتابه لهذا
كثيراً من المدائح النبوية .
(٢) النبل الصافي ٣٤٣/١ .
(٣) تاريخ المجلد ١/٣٥٣ .
(٤) تاريخ المجلد ١/٣٥٣ .

(٣) وانظر نسخة الرسالة للمسي (طبعة هيى الباقى)

يَا رَبُّ بِالْهَادِي الشَّفِيعِ مُحَمَّدٍ مَنْ قَدْ بَدَا هَذَا الْوُجُودُ لِأَجْلِ
كُنْ لِي مَعِيًا فِي مَعَادِي وَاتَّخِضْ هُمْ الْمَعَاشِ وَمَا أَرَى مِنْ ثِقَلِهِ
وَاسْتَرْ بِضَلِّكَ زَلَّتِي وَاغْفِرْ بَعْدَ لَكَ سِتْنِي وَاشْفِ الْحَشَا مِنْ غِلِّي

وهو يضرع إلى الله متوسلا إليه بالرسول الشفيع يوم القيامة لأهل دينه أن يكون حونا له في معاده ومعاشه ، وأن يخرجه من ذنوبه ويسر حيوه ، وحرى بنا أن نتوسع قليلا في الحديث عن بعض شعراء التصوف والمذبح النبوي :

ابن الكيزاني^(١)

هو محمد بن إبراهيم الكنائي للمقرئ الواعظ الشافعي ، مصري الدار ، من شعراء الحب الإلهي وما يتصل به من الأحوال والمقامات ، اشتهر باسم ابن الكيزاني ، من شعراء مصر في النصف الأول من القرن السادس الهجري ، إذ توفي سنة ٥٦٢ للهجرة ، وقد رأى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب الذي زار مصر في العقد الخامس من القرن السابع الهجري ديوانه يباع بكثرة في سوق القسطنطين وسوق القاهرة ، غير أنه لم يصلنا إذ سقط من يد الزمن ، وقد فُوت منه العباد الأصفياني في كتابه « الحريدة » طائفة كبيرة من شعره ، تصور إلى حد بعيد مواجده الصوفية ، ونراه يقدم لما بأنه « فقيه واعظ مذكر حسن العبارة مليح الإشارة لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه طوبى وحلاوة .. وله ديوان شعر ينهات الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله ، لما أودع فيه من المعنى الدقيق ، واللفظ الرشيق ، والوزن اللوافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق . ودفن عند قبر الشافعي » ويقول عنه : عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمقول والمشروع ، مشهور بالتحقيق في علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعركة بالقديم مكنون الحديث إلا أنه ابتدع مقالة ضلُّ بها اعتقاده ، وزلُّ في مزالقها سَدَّاده ، إذ ادعى أن أفعال العباد قديمة والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة » وهم أشباه الكرامية بخراسان « فهو عالم

والوفاء بالوحيات للصفدي ٣٤٧/١ والنجم الزاهرة ٣٦٧/٥ ، ٣٧٦ . وراجع مقالنا لنا عن ابن الكيزاني في مجلة الثقافة ، المجلدين ٦٩٢ ، ٦٩٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن الكيزاني وأشعاره للمغرب لابن سعيد (القسم الخامس بالقسطنطين) ص ٢٦١ وما بعدها ، وتذكرة الخطاط ١٣١٩/٤ والحريدة (قسم مصر) ١٨/٢ وابن خلكان ٤٦١/٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٩٠/٦

بالسنة والفقه والشريعة وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، غير أنه صاحب مقالة خاصة تشبه مقالة الكرامية في خراسان . ويقول المقدسي الذي زار مصر في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان لهم محلة بالقسطاط ، ومن الممكن أن تكون هذه المحلة ظلت حتى عصر ابن الكيزاني ، وهو بذلك كان كراميا صوفيا ، أو صوفيا على مذهب الكرامية القائلين بالتشبيه على الذات العلية للعباد ، وهو تشبيه كان يفتقر بالتزويه ، وتبدو الفكرة معقدة ولكن من الممكن تصورها ، فأتت إذ نشاهد كائنات جميلة ترى فيه خالقك ، مع تزويه عن أن يكون هونفس الكائن الجميل . وليست هذه الفكرة كل ما يميز الكرامية ، فقد كانوا يعتقدون - كما اعتقد الكيزانية - فكرة القدم في أفعال العباد لا في أفعال الله وحدها ، وقد أنكر المهاد ذلك على ابن الكيزاني . وهو والكرامية معه إنما يريدون قدمها في العلم الإلهي ، ومادام العلم الإلهي قديما فهي قديمة مثله . ومربنا آتفا أن المهاد قال إنه كانت تبعه بمصر لهذه في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فرقة كانت تعتق نحلته ، ويقول القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ : « لابن الكيزاني بمصر وسواحل الشام فرق تسمى إليه في المعتقد وأكثرهم بحوف مصر » ويقول ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ : « بمصر طائفة ينسبون إلى ابن الكيزاني ويعتقدون مقالته » . وفي ذلك ما يدل على أن مترعه الصوف ظل معروفا بمصر وظل له أتباع طوال القرن السابع الهجري على الأقل . ويبدو أنه كان هناك من يعارضه في حياته وبعد مماته ، فقد ذكروا أن الفقيه نجم الدين الحنبوشي نبش قبره في عهد صلاح الدين وأخرج منه عظامه ، وقال : « لا تنفق مجاورة زنديق إلى صديق » ويقصد بالصديق الشافعي . وقد نقله إلى سفح المقطم ، يقول ابن خلكان : « وقبره مشهور هناك يزار ، وزرته مرارا ، رحمه الله » ويقول ابن تفرى يردى : « لا يلتفت لقول الحنبوشي فيه لأنها أهل عصر واحد ، وتهور الحنبوشي معروف » . وتجمع كتب التراجم على أنه كان ورعا زاهدا ، بل متصوفا متقشفا ، وقد أنشد له المهاد أكثر من ثلاثمائة بيت في الحب الإلهي ، تسيل غنوبة ورشاقة وحنقة من مثل قوله :

تَلَدْتُ لِي فِي هَوَى لَيْلٍ مَعَانِي	لَأَنَّ فِي ذِكْرهَا بَرْدًا عَلَى كَبْدِي
وَأَشْتَهِي سَقَى أَنْ لَا يَفَارِقَنِي	لَأَنَّهَا أَوْدَعَتْهُ بَاطِنَ الْجَسَدِ
وَلَيْسَ فِي النِّوَمِ لِي مَاعِشْتُ مِنْ أَرْبِ	لَأَنَّهَا أَوْقَعَتْ جَفْنِي عَلَى السُّهْدِ
وَلَوْ تَمَادَتْ عَلَى الْمَجْرَانِ رَاضِيَةً	بِالْمَجْرِ لَمْ أَشْكُ مَا أَتَى إِلَى أَحَدِ
اللَّوْمِ أَشْبَهُ بِي مِنْهَا وَإِنْ ظَلَمْتُ	أَنَا الَّذِي سَقَتْ حَقْنِي فِي الْهَوَى يَلْدِي

ولو أننا لم نعرف قاتل هذا الشر وأنه من الصوفية لظنتاه شاعرا عذريا ، فهو يشكو الصد والمجر ويرمز عن الذات الإلهية بليلى ، ويتأدى فى العتاب ، معلنا سقمه وسهده ، بل لقد عرض نفسه للموت والمهلاك . وابن الكيزانى مثله مثل شعراء الحب الإلهى جميعا فقد رفعوا كل الحواجز بينهم وبين أصحاب المنزل العنبرى ، معبرين بما فى غزلهم من حسيّة واضحة عن رموز ومعان صوفية ، حتى لنرى ابن الكيزانى يقول :

أترعم ليل أننى لا أحبها	وأنى - بلا ألقاه - غيرُ حَمُولٍ
فلا ووقوفى بين ألوية الهوى	وعصيانِ قلبى للهوى وعذول
لو انتظمتنى أسهمُ المجر كُلِّها	لكنْتُ على الأيام غيرُ ملولٍ
ولست أبالى إذ تعلقتُ حبِّها	أفاضتُ دموعى أم أضرتُ نُحول
وما عَبتى بالنوم إلا نعلُ	عسى الطيفُ منها أن يكونَ رسول

وهل من فارق بين هذه الأبيات وأبيات الحب العنبرى ؟ إنه لذكر وقوفه بمعاهد الهوى وعصيانته للمنزل أو العواذل وصبره على المجران الأليم وما يعانى فيه من البكاء والنحيب والسقم والنحول ، ويأمل فى طيف يزوره فى الحلم ليلًا ، ولكن لنحضر هذا القهم الظاهرى للأبيات قابت الكيزانى إنما يتخذ ذلك كله رموزا عن معانى حبه وهيامه بالذات العلية ، وهو هيام لا نهائى غير محدود بحس ولا ما يشبه الحس ، هيام كله لوعة ووجد ، وجد سماوى علوى يتدلّع شرده فى كل جسمه وجوارحه وحشاه وهو صابر لا يتألم ولا يشكو ، بل يجد لذة لا يبلغها وصف فى لُله ، حتى ليبدل دمه فى سبيل حبه طائفا مختارا ، فهو النور الذى يضىء فى جنبات قلبه وقواده ، وهو الحمز الروحانية التى سرت فى شرايينه ، فلم يعد يملك إزاءها حولا ولا قوة ، يقول :

جرّ كيف شئتَ فلستُ أولَ عاشقٍ كاسُ الهبةِ فى محبتهِ سُقى

إنه لم يعد فى حال صحو بل أصبح فى حال سكر بالعشق الإلهى الذى لا حدود ولاضفاف له ، عشق ما إن يأمل فيه بقاء محبوبه ، حتى يعتمد عنه ، تاركا له الحسرات والدموع ، لقد كان شهوده قاب قوسين أو أدنى ، وسرعان ما طار الحلم وولى الأمل ، ويتأدى ابن الكيزانى :

يا حادى العيسِ اضطرب ساعةً فهجنى سارت مع الرُكبِ
لاتخذُ بالتفريق عن عاجل رفقا بقلبِ الهائمِ العُصْبِ

وهو يعبر عن ضياع الأمل في لقاء المحبوب بالرحلة ولوعاتها المضة في نفوس العشاق تعبيرا رمزيا عن آلامه وأوصابه وأوجاعه النفسية ، فلم يعد يستطيع اللحاق بمحبوه فضلا عن مشاهدته . وحل نحو ما يعبر عن ذلك تعبيرا حسيا بالرحلة كذلك يعبر عنه - كما عبر المحبون العفريون طويلا - بـيكاء الديار والوقوف على الأطلال الدارسة أو العافية ، بمثل قوله :

بِرَبِّكَمَا عَرَجْنَا سَاعَةً نَتَوَخَّعُ عَلَى الطَّلَلِ الدَّارِسِ
فَقِيضُ الدَّمْعِ عَلَى رَسْمِهِ يَتَرَجَّمُ عَنْ حَرْقِ الْبَائِسِ

ودائما يتعلق ابن الكيزاني بخيط من الأمل في مشاهدة محبوبه ، ونوره يتألق له ولا يراه ، ويبحث عنه بين الأطلال ، ويسأل عنه اليأس ، وهي ملحمة في المسير ، لتلتفت إليه ، وهو هائم على وجهه غارق في دموعه ، ونار الحب تنفذ في أحشائه ، يقول :

يَا مَنْ يَنْتَبِهُ عَلَى الزَّمَانِ بِحَسَنِ اعْطِيفٍ عَلَى الصَّبِّ الْمُشَوِّقِ الثَّانِي
أَضْحَى يَخَافُ عَلَى احْتِرَاقِ قَوَادِهِ أَسْفًا لِأَنَّكَ مِنْهُ فِي سَوْدَائِهِ

ودائما تلقانا عند ابن الكيزاني هذه اللوعة ونارها التي توشك أن تحرق والتي ما يزال يلوقها ويصطل بها مالكة عليه قلبه مستأثرة منه بكل شيء ، إنه ليس حبا فقط ، بل هو حب ومحنة أو هو سعادة وحذاب ، وهو راض بذلك كل الرضا ، حتى لا يطلب لحبه دواء ولا شفاء ، يقول :

اصْبِرُوا عَنِّي طَبِيبِي وَدَعُونِي وَحَسْبِيبِي
عَلَّلُوا قَلْبِي بِذِكْرِهِ هُ فَقَدْ زَادَ لِحَبِيبِي
طَابَ هَتَكِي فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَاشِي وَرَقِيبِي
لَا أَبَالِي بِقَوَاتِ الثَّفِّ سَ سَادَامَ نَصِيبِي
لَيْسَ مِنْ لَامٍ وَإِنْ أَطُ خَبَّ فِيهِ بِمَحْصِيبِي
جَسَدِي رَاضٍ بِسُقْمِي وَجُفُونِي بِسَحْصِيبِي

إن الداء هو نفس الدواء وإن العلة هي نفس الشفاء ، وهو لا يفكر في بزه من علة أو داء ، لأنها سعادته الغامرة ، وحقاً إنها يثيران حريقاً في قواده ، غير أن ما يشره معها من رجحان المحبة الرابطة المصق ينسبه الحريق وناره المظلمة التي لاتطفئ في سويداء قواده أبداً .

ابن الفارض (١)

هو عمر بن كمال الدين على الفارض ، كان أبوه من حاة سوريا ، هاجر منها في مطالع شبابه إلى القاهرة ، وفيها رزقه الله ابنه عمر سنة ٥٧٦ للهجرة ، فهو مصرى المولد والنشأ والمرى والحياة . كان أبوه من علماء الفقه والشريعة ولُقّب بالفارض لكاتبته الفروض على النساء والرجال . ولي نيابة الأحكام بالقاهرة والفسطاط ، ويقال إنه عُرضت عليه وظيفة قاضى القضاة فأبأها ولزم قاعة الخطابة بالجامع الأزهر يتسكك ، وعُنى بابنه فألحقه بدروس العلماء بالعلوم الشرعية واللسانية ، حتى إذا شبّ دفعه إلى التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من التصوفة في الجبل الثانى من المقطم ، وهناك أخذ عمر يتجرد للعبادة والنسك . وأحسن برغبة شديدة للمقام بمكة مهبط الوحى على الرسول ﷺ فرحل إليها ، ومكث بها خمسة عشر عاما ساعيا في أوديتها عابدا الله ناسكا مؤملا في أن تفيض عليه الفتوحات الإلهية ، مكثرا من الصلاة والصيام ، حتى نُصحت له الأبواب المغلقة ، وشعر كأنه في مقام الشهود للذات العلية . وعاد إلى وطنه ، غير أنه ظل يأسى لفراقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله :

باسمى رُوح بمكةً روحى شادياَ إن رغبَ فى إسعادى
كان فيها أنسى ويمرّاجُ قُنسى ومقامى المقامُ والفتحُ بادى

ولزم مناسك العبادة وخاصة وادى المستضعفين بالمقطم والجامع الأزهر ، يذكر الله ويسبحه ويعبده حتى عبادته ناسكا خاشعا متضرعا ، شاعرا من وقت إلى آخر أنه أصبح في مقام الشهود لربه ، فيشخص بصره ويغيب عن كل ماحوله غيبة قد تطول أياما وهو لا يسمع صوتا ولا يرى أحدا ولا يشرب ولا يطعم ولا ينام ، فقد غاب عن كل حواسه وغمره نور شهوده للذات العلية ، ومضى يمكث على التقوى والنسك والصلاة ، وشاع أمره في القاهرة فكان الناس يزدحمون عليه إذا سار في الطرقات يلتصقون منه الدعاء ، وهو غائب عنهم ، مشغول بحبه لربه وما ينظم في هذا

للكثير محمد مصطفى طمى وكاتبه فصول في الشعر ونقده ص ١٩٧ وما بعدها . وديوانه طبع بمصر مرارا طبعا مستقلة ، وطبع مع شرح عبد الغنى النابلسى وهو شرح صوفى رمزى ، ومع شرح حسن البورينى على ظاهر اللفظ دون تأويل .

(١) انظر في ابن الفارض وترجمته وأشعاره النجوم الزاهرة ٢٨٨/٦ وابن خلكان ٤٥٤/٣ وميزان الاحتمال ١٤٢/٣ وعبر النعمى ١٢٩/٥ والبداية والنهاية ١٤٢/١٣ ولسان الميزان ٣١٧/٤ وشذرات الذهب ١٤٩/٥ وحسن المحاضرة ٥١٨/١ وكتاب ابن الفارض والحب الإلهى

الحب من أشعار لعلها أروع مانظمه الصوفية في حبيب الإلهي ، حتى لُقّب بحق سلطان العاشقين للذات الربانية . وهي أشعار تموج بوجود ملئح لاحدود له ، متخذاً لذلك لغة العشاق العذريين ومايذكرونه من معاهد المحبوبة يريد معاهد مكة التي هبط عليه فيها النور الإلهي ، وأيضا مايذكرونه من نسيم الصبا المحمل بشذى المحبوبة ، وهو في أثناء ذلك يئن وينوح آملاً في الوصال وأن يشرق عليه النور الرباني ، متجرعاً غصص الهجر والصد والسهاد ، ويصبح فيمن تحدته نفسه بسلوك هذا الطريق المحفوف بمالا يحصى من الأشواك والصعاب :

هو الحبُ فاسْتَمُ بِالْحَشَامِ الْهَوَى سَهْلُ فَا اخْتَارَهُ مُضَيَّ بِهِ وَلَهُ عَقْلُ
وَعِشْ نَخَابًا فَالْحُبُّ رَاحَتُهُ عَنَّا وَأَوَّلُهُ سُقْمٌ وَآخِرُهُ قَتْلُ

وهو لا يريد القتل الحقيقي ، بل يتخذهُ رمزًا للحظات الفناء في الذات العلية حين يتجرد الصوفي - مثل ابن الفارض - من حواسه ومن كل وجوده فلا يشعر بزمان ولا بمكان ، وكأنما غاب عن حياته ، بل كأنما مات بسبب حبه شهيداً ، وهو موت لا يتحقق تصوف بدونه ، حتى ينمحي المتصوف في الذات الربانية ونورها الإلهي ، وحتى لا يرى في الوجود سوى ربه المائل في الكون وكنائنه وكل شيء فيه ، يقول :

تراه - إن غابَ عني - كلُّ جارحةٍ في كلِّ معنى لطيفٍ راتني بهج
في نَفْمةِ العودِ والثَّيِّ الرُّخيمِ إذا نَأَلَقَا بَيْنَ أَلْحَانٍ مِنَ الْهَرَجِ^(١)
وفي مَسَارِحِ غَزَلَانِ الْخَمَائِلِ في بَرْدِ الْأَصَاتِلِ وَالْإصْبَاحِ فِي الْبَلَجِ^(٢)
وفي مَسَاقِطِ أَنْدَاءِ الْغَامِ عَلَى بِسَاطِ نَوْرِ مِنَ الْأَزْهَارِ مُتَشَجِّجِ
وفي مَسَاحِبِ أَذْيَالِ الثَّيِّبِ إذا أَهْدَى إِلَى سُحْبَرٍ ، أَطِيبَ الْأَرْجِ^(٣)

فهو يرى الله وجلاله وجماله مائلاً في جميع أركان الكون وعناصره : في أنغام العود والثاي المراقبة لألحان المزج ، وفي مشهد غزلان الرخايس وقد انتعشت قلوبها بأنفاس الأصيل والصبح ، وفي الأزهار والورود مساقط أنداء الغمام وهي متناثرة هنا وهناك على أبسطها الطليعة البيجة ، وفي النسيم يملأ الجو سحرًا بشذاه وأريجهم العطر . وابن الفارض لا يعبر بذلك ومثله في أشعاره عن إيمانه

(٣) الأرج : الشذى والرائحة العطرة .

(١) الرخيم : اللين الناعم .

(٢) البلج : أول إسفار الصبح وانتشار الضوء .

بوحدة الوجود التي كان يؤمن بها غلاة الصوفية من أمثال ابن العربي معاصره ، فهو إنما يريد أن يقول إن نور الله منبث في الكون بجميع كائناته وعناصره ، متجل في كل مناظره ومشاهده ، وذلك هو سر وجوده وهيامه وولمه بربه ، يريد أن يشرق عليه ضياء جماله . ويظل يحلم بشهوده حلما متصلا بمجاهدا في سبيل ذلك محتملا من العذاب ما يطاق وما لا يطاق ، متغنيا بالجمال الرباني وما يصلى فيه من هجر ، هانفا من قواده :

يَهْ دَلَالًا فَأَنْتَ أَهْلٌ إِذَاكَ وَتَحَكُّمٌ فَالْحَسَنُ قَدْ أَعْطَاكَ
وَتَلَاكَ إِنْ كَانَ فِيهِ اتِّلَافٌ بِكَ عَجَلٌ بِهِ جُمْلَتُ قِدَاكَ
فَقَدْ أَهْلُ الْجَمَالِ حُسْنًا وَحُسْنِي فِيهِمْ فَاكَّةٌ إِلَى مَعْنَاكَ

وهو يضيف إلى الذات العلية التحكم والدلال على طريقة أصحاب الحب العنري ، ولا يلبث أن يرجع الحب الصوفي أن يعقب في البيت الثاني ، فهو يطلب أن يتلف في حبه مادام في تلفه اتلافا بربه المحبوب ، وهو لا يريد التلف الحقيقي إنما يريد الفناء المطلق في ربه وجماله الذي يفوق كل جمال ، بل إن كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجل في الكون بنوره . وعلى نحو اتخاذ ابن الفارض للنزل العنري رمزاً لحيه الصوفي نزاه يتخذ الخمر ونشوتها رمزاً لهذا الحب ، ولا خمر ولا كوس ولا دنان ولا سقاء ، وإنما هو جمال الذات الإلهية الذي شغف به حتى لبطن كأنما نهل من شراب قدسي مسكر ، فهو سكران دائما منتشي غائب عن وجوده . ومن قوله في ذلك من قصيدة بدعية :

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرَمُ
لَهَا الْبَذَرُ كَأَسْرُ وَهَى شَمْسٍ يُدِيرُهَا هَلَالٌ وَكَمْ يَدُو - إِذَا مَرَجَتْ - نَجْمُ
وَأِنْ خَطَرْتُ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ أَقَامَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ وَارْتَحَلَ الْهَمُّ
وَلَوْ نَفَّحُوا مِنْهَا قَرَى قَبْرِ مَبِيتٍ لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَاتَّمَشَ الْجِسْمُ

وهو يقول إن سكره بتلك المدامة أو الخمر قديم أقدم من الوجود ، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية التي يذهب المتصوفة إلى أنها تسبق نشأة الكون ، وأن أضواءه مازالت تفيض من تلك الحقيقة في نفوس الأنبياء ونفس الرسول ﷺ ونفوس المتصوفة من بعده حتى تجلت في ابن الفارض ، ومن هنا يقول إن سكره بها ونشوته يسبقان الخليفة . ويقول إنها تجلب الفرح وتطرود

الهم ، ونحى الروح لا بمازا بل حقيقة ، فلو صبوها على قبر ميت لعادت إليه الروح ودبت فيه الحياة . ونمضى فيقول : إنها صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هواء ، ونور ولا نار ، وروح ولا جسم . خمر ربانية لا تنسوها أى شائبة مادية ، خمر ينشئ بها ابن الفارض وأمثاله فيفيئون عن وجودهم غيبة كلها متاع وكلها نعيم لا حدود له . ودبوانه كله من هذا الطراز انتشاء وسكر وحب ووجد ووله والنياع ، وتطول إحدى قصائده حتى تبلغ سبعائه وستين بيتا أو تزيد ، وهى تائبة ونسبى التائبة الكبرى لأن له بجانبها تائبة صغرى ، وهو فيها يصور معراجة القدسي بمكة وفتوحه التي هبطت عليه هناك وإغماءه حيثذ في الحقيقتين : الإلهية والمحمدية ، حتى ليتكلم في بعض أجزاء القصيدة باسمها ، وهو يستلها ببيان شربه من كأس المحبة الربانية ونشوته بها وما تجشمه في معراجة من أهوال وعطوب وعمن ، وكلها كما يقول منح من ربه وعطايا اجتازها في معراجة ، خالصا إلى الانمحاء والفتاء في الذات العلية حتى ليقول :

ولم تَهَوَّنِي مالم تكن في قانياً ولم تَفْنَ مالم تُجْتَلَبْ فبك صورتي
كلانا مُصَلٍّ واحدٌ ساجدٌ إلى حقيقته بالجمع في كل سَجْدَةٍ
وما كان لي صُلَى سوايَ ولم تكن صلاتي لغيري في أَدَا كل رُكْعَةٍ

وكأنه يشعر في البيت الأول أنه لا يزال دون الحب الإلهي لانصاله بل لانصافه بالصفات البشرية . ويقول في البيت الثاني إنها ينبغي أن تُنمحي فيه حتى يفنى في الذات الربانية وتتجلّى فيه الصورة الإلهية ، وما يلبث أن يقول في البيت الثالث إن حواسه تعطلت وتعطلت فيه كل إرادة وشعور ، حتى فنى فتاء مطلقا في ربه ، متخطيا مرتبة الصحو إلى مرتبة الشهود أو كما يسميها الجمع ، وكأنما يصل لنفسه أو لربه متجليا فيه ، يقول :

وطاحَ وجودي في شهودي ونبْتُ عن وجود شهودي ماحياً غير مثبتٍ
وفي الصُّخْر بعد الحرِّ لم أكنُ غيرها وذاني بذاني إذ تجلّت تجلّت

فهو قد انمحي وفنى فتاء كلياً في الذات العلية ، وبلغ من هذا الانمحاء والفتاء أعلى مراتبه ، إذ لا يعتره في حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الرباني ، بل أيضا يعتره في حال الصحو ، فهو دائما محوٌّ فإن في الذات الإلهية . وهو دائما يعلن أنه متمسك أشد التمسك بالكتاب وأداء الفرائض

الدينية وبالسنة والحديث النبوي ، فمنها يستمد في كل موارد الروحانية . وقد أشار مرارا إلى أن لب تصوفه وما يذهب إليه من عقيدة الفناء في الذات الربانية إنما يصدر فيه عن الرسول ، يقول :

وجاء حديث في اتحادى ثابت رواية في الثقل غير ضعیفة
يشير بحسب الحق بعد تقرب إليه بفعل أو أداء فريضة

وهو يشير إلى الحديث النبوي المشهور : « ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبيته ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها .. وإن سألني أعطيته ، ولئن استأذني لأعذنه » . وفكرة الانحماة والفناء واضحة في الحديث ، ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن تصوف ابن الفارض وأمثاله إنما كان تصوفاً إسلامياً خالصاً . وما زال يتسلق لربه حتى وفاته سنة ٦٣٢ للهجرة .

البوصيرى^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد ، كان أبوه من بوصير وأمه من دلاص ، فكأن لنفسه من اسم بلديها لقباً هو الدلاصيرى ، غير أن اللقب الذي غلب عليه ، وبه اشتهر ، هو البوصيرى . واختلف م ترجموا له في تاريخ مولده كما اختلفوا في تاريخ وفاته ، والأرجح أنه ولد سنة ٦٠٨ وتوفي سنة ٦٩٨ وقى بل ولد سنة ٥٩٨ وتوفي قبل السنة السابعة قبل سنة ٦٩٤ أو ٩٥ أو ٩٦ أو ٩٧ وقيل بل سنة ٦٨١ والصحيح ما رجحناه . واختلف مثل لداته إلى الكتابات حتى حفظ القرآن الكريم ، ثم انتظم في حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الشريعة واللغة ، ويبدو أن ميوله الأدبية اتضحت فيه مبكرة وفتحت في نفسه ملكاته الشعرية ، مما جعله يتظم فيمن يعملون في الكتابة الدنيوية ، وعين في دواوين بليس بالشرقية . ومر بنا هجاؤه للموظفين هناك وتسجيله عليهم

والخط المجلدة ليل مبارك ١٠/٨ وكتابتها في الشعر ونقده ص ٢٢٩ - ٢٥٤ . وديوانه (طبعة المجلد) بتحقيق محمد سيد كيلاني . وأورد بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي ٨١/٥ ترجماته برده إلى اللغات الأجنبية ونخباتها وتنظيراتها وشرحها المختص وكذلك المنزلة .

(١) انظر في البوصيرى وحياته وأشعاره القوات ٤١٢/٢ والرائق بالرفعات للصفدي ١٠٥/٣ وحسن المحاضرة ٥٧٠/١ وشذرات الذهب ٤٢/٥ ومقدمة ابن حجر الميمني على شرح مدحه الفخرية النبوية ولطائف الفن لابن حطاه الله السكندري وطبقات الصوفية للشرعاني ١١/٢ وما بعدها ،

الحياة للدولة وأكل أموال الناس بالباطل . ويبدو أنه زهد في العمل معهم سريعا وعاد إلى القاهرة ، محترفا إقراء القرآن للصبية وبعض الفتية في مسجد الشيخ عبد الظاهر ، وكان مسجدا مغمورا وتصادف أن أمر الملك الصالح في أثناء توليه لمقاليذ الأمور بمصر (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ) بتوزيع ألف دينار على طلبة العلم . ولم يصب منها مسجده المغمور وطلابه شيئا ، فنظم على لسان المسجد شكوى للملك الصالح استهلها بقوله :

ليت شمرى مامْتَضَى حِرْمَانِي دون غمري والألفُ للرَّحْمَنِ
أتراني لا أَسْتَحِقَّ لكوني جامعا شملَ قارئ القرآن

ونراه كثير الرحلة إلى البلدان المصرية والاتصال بمن فيها من الولاة ، وله فيهم بعض المدائح وكذلك في بعض وزراء الدولتين الأيوبيه والملوكية وفي بعض الأمراء والسلاطين ، ويبدو أنه كان يضطر للمديح اضطرارا ، ليوفر لأولاده الكثيرين الطعام والثياب ، ويصرح بذلك مرارا في مديحه بمثل قوله :

إليك نشكو حالنا إنا عائلة في غاية الكثرة

وكما تلقانا في أشعاره المبكرة أهاج مختلفة لموظفي الشرقية تلقانا عنده دعابات مختلفة تصور المزاج المصري المعروف بالبلبل إلى الفكاهة والتأدرة ، وربما أراد بشكواه في مدائحه من فقره ويؤسه إلى الدعابة ، ويقول :

ولو أنني وحدي لكنتُ مريداً في رباطٍ أوعابداً في مَنَازرة

وكانه كان يشر في أعماقه بأنه خلق لايكون إنسانا يضطرب في الحياة ومشاغلا اليومية ومكاسها الضرورية له ولأسرته ، وإنما ليكون عابدا ناسكا في رباط صوفي أو في كهف يخلو فيه للنسك والعبادة . ويبدو أنه مدَّ إحدى رحلاته إلى الاسكندرية وتعرف على أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية المشهورة ، وانتظم في سلك مريديه وطريقته الصوفية ، حتى إذا خلفه أبو العباس المرسى على الطريقة ظل يلزمه ، حتى عُدَّ ثاني اثنين من تلاميذه هو وابن عطاء الله السكندري ، وفي ديوانه قصيدة دالية يمدحه بها ، ويعزيه في شيخه أبي الحسن حين توفي سنة ٦٥٦ ويشيد به إشادة رائمة إذ كان من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، يقول :

اسْئَلْ طَرِيقَ مُحَمَّدٍ شَرِيعَةً وَحَقِيقَةً وَعَمَلِيَّةً الْمَحْتَدِ
 إِنَّ الْإِمَامَ الشَّاذِلِيَّ طَرِيقَهُ فِي الْفَضْلِ وَاضِحَةٌ لِعَيْنِ الْمَهْتَدِي
 قَطْبُ الزَّمَانِ وَغَوْنُهُ وَإِمَامُهُ عَيْنُ الْوُجُودِ لِسَانُ سِرِّ الْمَوْجِدِ

فهو قطب الزمان وإمامه ، وعين الوجود إذ كان يؤمن المتصوفة بأن القبس الإلهي المبثوث في الأنبياء نُقل إليهم وإلى أئمتهم ، ويقول إنه من أهل الشريعة المحمدية والحقيقة الصوفية ويشير إلى أنه سليل الرسول ﷺ فهو عمدي نسا وحقيقة صوفية وشريعة إسلامية .

ويبدو أن البوصري منذ صلته بالطريقة الشاذلية لم يتجه بأشعاره نحو المحبة الإلهية على نحو ما اتجه ابن الفارض ، بل اتجه إلى المديح النبوي ، وبلغ فيه ذروة لم يبلغها أحد قبله ولا في زمنه ، فقد نظم فيه ديواناً رائعاً . وكان الصليبيون ، شامت وجوهمهم ، يكتبون رسائل ضد الدين الحنيف وصاحبه ، فرد عليهم طويلاً في مديحه النبوي ، وأفرد للرد عليهم وعلى اليهود قصيدة طويلة في نحو مائتين وسبعين بيتاً ، داحضاً افتراءاتهم على الرسول الكريم ناقضاً ما ادعاه النصارى من ألوهية المسيح وصلبه وما جاء في التوراة المخترقة من ارتكاب الأنبياء للمعاصي ، وسمى قصيدته « المخرج والمردود على النصارى واليهود » ويتحدث في حاشية فياضة عن صفات الرسول وسيرته ومعجزاته الباهرة وانتصاراته الساحقة على أعدائه وأعداء الله . ويكثر من المديح النبوي ومن التنويه بالخلفاء الراشدين وبالصحابة وآل البيت مصوراً في الرسول أزلية النور المحمدي المعنوي لب الوجود وروحه ، وكأن للرسول وجودين هذا الوجود المعنوي الذي يستمد منه الكون وجوده والذي تعاقب في الأنبياء منذ آدم ، ووجود ثان حسي مادي هو وجوده حين وُلد ثم بُعث بشيراً ونذيراً ، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة المحمدية الأزلية وصورة الإنسان ، على نحو ما نقرأ في قوله :

مَحَمَّدٌ حُجَّةُ اللَّهِ الَّتِي ظَهَرَتْ بِسَمِّهِ مَا هَا فِي الْخَلْقِ تَحْوِيلُ
 مِنْ كَمَلِ اللَّهِ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ فَلَمْ يَفْتِكْ عَلَى الْخَالِقِينَ تَكْوِيلُ
 مِنْ آدَمَ وَلَحِينَ الْوَضْعِ جَوْهَرُهُ أَلْ حَكُونُ فِي أَنْفُسِ الْأَصْدَافِ مَحْمُولُ
 فَلِلنَّبْوَةِ إِتْمَامٌ وَمُبْنَدٌ بِهِ وَلِلْفَخْرِ تَعْجِيلٌ وَتَأْجِيلُ

ودائماً يعصف الحنين بقلبه إلى زيارة مكة والمدينة عصف الوجد الملتاع ، ودائماً يردد معجزات

الرسول وجهاده في غزواته ، ودائما يكرر حقيقته الأزلية ، حتى وكأنه مبدأ الوجود ومبدأ النبين وأيضاً خاتمهم ، يقول :

كَانَ سِرًّا فِي ضَمِيرِ الْقَيْبِ مَنْ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ كَوْنٌ أَوْ يَكُونَا
تَشْرِقَ الْأَكْوَانُ مِنْ أَنْوَارِهِ كَلِمَا أَوْدَعَهَا اللَّهُ جَبِينَا
خَتَمَ اللَّهُ النَّبِينَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَجْثَلَ مِنْ آدَمَ طِينَا
فَهُوَ فِي آبَائِهِمْ خَيْرٌ أَبٍ وَهُوَ فِي أَبْنَائِهِمْ خَيْرٌ ابْنِ الْبَيْنَا

فهو السر الأول في الكون أو هو العلة الأولى ، خُلِقَ قَبْلَ الْكَوْنِ وخلق قبل أن يُجْثَلَ أو يُخلَقَ آدم ، وكل نور في الكون مستمد منه ، وهو مبدأ الأنبياء ومنتهاهم ، وهو أبوهم المعنوي الأزلي ، فيه تبدأ الحياة وإليه تنتهي . ويكثر البوصيري في مدائمه النبوية من الفسادة للرسول أن يقبل توبته وأن يكون شافعه يوم القيامة حتى ينال رضوان ربه وغفرانه .

ويشتهر البوصيري بمدحه النبوية السماة بالهمزية وقد سماها « أم القرى في مدح خير الرورى » وهى في نحو أربعائة وخمسين بيتاً وعُنى كثيرون بشرحها ، وهو فيها يحمل سيرة الرسول حتى يوقد حمية الشباب المحاربين للصليين ، ويفتحها بفكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول سر الوجود ونوره الذى يفيض على الكون وعلى الأنبياء من قديم ، يقول :

كَيْفَ تَرَقَّى رَقِيكَ الْأَنْبِيَاءُ يَا سَمَاءُ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
إِنَّمَا مَثَلُوا صِفَاتِكَ لِلثَّاءِ سَوَى كَمَا مَثَلُ النُّجُومِ الْمَاءُ
أَنْتَ مَصْبَاحُ كُلِّ فَضْلٍ فَاتَّصَ حُدُودُهَا عَنِ ضَوْتِكَ الْأَضْوَاءُ

فالرسول لا تبلغ منزلته ودرجته الرفيعة منزلة أى نبيٍ أو رسول ، إنه في أعلى عليين ، وكل رسول إنما مثل جانباً من صفاته الربانية ، كما تمثّل النجوم المراتية على صفحة الماء النجوم على صفحة السماء . وإن كل ضوء ونور في الكون يستمد من مصباحه ، فهو منبع كل نور ومصدره . ويتحدث عن مولده وما اقترن به من دلائل النبوة ، و يفيض في الحديث عن سيرته حتى مبعثه ، ويعدد بعض معجزاته الباهرة وفي مقدمتها الإسراء ، ويصور جهاده الباسل في نشر دينه ، ويرد على النصارى واليهود افتراءاتهم على الدين الخفيف ، ويعرض بعض معتقداتهم الفاسدة ، ويلم بعداء اليهود للإسلام وحرهم لرسوله . ويصور حجته إلى مكة وأداء المسلمين

لنأسك الحج . وبنوه بمواقف كبار الصحابة وبالصحابة جميعا وبأستاذيه الشافلي وخليفته
أبي العباس الرسي ، ويتضرع في أثناء ذلك للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه في محو ذنوبه .

وأروع من هذه المدحة النبوية مدحة للبيبة المساة بالبردة وقد عارضها كثيرون ويقال إنه كان
قد أصابه قالج ، فنظم هذه القصيدة وأخذها شفيعا لدى الله كي يعافيه ، وظل يكرر إنشادها
ويكي ويدعو ويتوسل ، ونام فرأى النبي ﷺ يمسح على وجهه يده المباركة ويلقى عليه بردة ،
وانتبه فوجد نفسه معافى ، وشاعت القصة وسُميت القصيدة البردة . وهو يفتحها منزلا بمجازية
من ذي سلم أشعلت الحب في قلبه ، وهو إنما يتخذها رمزا لوجده للتلذذ بحب الرسول عليه
السلام ، ويلم بأصل من أصول الطريقة الشاذلية . وهو كبح جماح النفس وردّها عن شهواتها .
ويتحدث عن فضائل الرسول مبتدئا بفضيلة الزهد وكيف أنه لولاه لم تخرج الدنيا من العدم
ويسترسل في تصوير الحقيقة المحمدية الأزلية قائلا :

فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقِي وَفِي خَلْقِي وَلَمْ يَدَانُوهُ فِي عِلْمِي وَلَا كَرَمِي
وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مَلْتَمَسٌ غَرَقًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشَقًا مِنَ الدَّيَمِ
فَإِنَّهُ شَمْسٌ فَضَلِي هُمْ كَوَاكِبُهَا يُظْهِرُنْ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

فهو يفوق الأنبياء صورة وخلقا وعلمًا وكرمًا وكلهم يلتمس من علمه وحكمته ويستمد من
نوره ، فنوره يتجلى في الأنبياء جميعا ومهما تعددوا في الأزمنة فإنهم شخصية واحدة وحقيقة
واحدة هي الحقيقة المحمدية . وبفيض البوصيري في بيان معجزات الرسول ، وخاصة القرآن
معجزته الكبرى كما يفيض في بيان جهاد الرسول وصحابته لأعداء الرسول ودينه الخفيف حتى
استسلموا صاغرين . ويضرب للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه كما يضرب لله أن يلطف به في
دنياه وآخرته . ولا تزال هذه القصيدة وأختها الحمزية تنشد إلى اليوم في حفلات الموالد وحلقات
الذكر الصوفي وله بجانبها في المدايح النبوية أناشيد أخرى رائعة .

محمد بن أبي الحسن^(١) البكري الصلّيفي

من سلالة أبي بكر الصديق بمصر ، ولد بها سنة ٩٣٠ وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأقبل على حفظ المتن والتلق على شيوخ عصره يأخذ ما عندهم ، وكان أستاذه الأول أباه ، وجلس مكانه في الجامع الأزهر للتدريس بعد وفاته وعمره لا يتجاوز إحدى وعشرين سنة ، وكان يدرس لطلابه فقه الشافعي ، وله شرح على متن أبي شجاع . وكان آية في العلم والزهد واشتهر بتعمقه في العلوم الشرعية واللغوية والصوفية ، وورث عن أبيه مشيخة السادة البكرية وله بناجي ربه :

رَبِّ إِنِّي عَبْدٌ ذَلِيلٌ ضَعِيفٌ فَلِحَالٍ بِاللَّطْفِ مِنْكَ تَدَارَكُ
كُلُّ قَطْرٍ أَصَابَنِي مِنْكَ بَحْرٌ كَيْفَ وَالْحَالُ فِي تَجْرِي بِحَارِكُ
كُلُّ جِزْءٍ مِنِّي لِرُكِّ دَارٍ عَمَّرَ اللَّهُ بِأَحْبَبِي دِبَارِكُ
مَنْ رَأَى رَأَاكَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ أَيْ شَكٍّ وَقَدْ جَعَلْتُ مَرَارِكُ

وتمثل في الآيات مثولا بينا فكرة الاتحاد بالذات الربانية المعروفة عند المتصوفة وما يتبعها من فكرة الفناء ، فناء الإنسان عن صفاته البشرية ، وهي فكرة رأيانها واضحة عند ابن الفارض : وله قصائد كثيرة يصف فيها حبه ومواجهه الروحية من مثل قوله :

حَبِيبُكَ دَانٍ رَقِيبٌ قَرِيبُ فَإِذَا الْبُكَاءُ وَمَاذَا التَّحِيبُ
نَعَمْ هُوَ دَانٍ وَلَكِنِّي بَعِيدُ فَقِيدُ طَرِيدُ غَرِيبُ
بُكَائِي عَلَى لَأَنِّي بُلِيتُ بِدَاءِ الصُّدُودِ وَعَزُّ الطَّيِّبُ

وعلى هذا النحو دائما هو واله ملتان يبنى الوصال ، ومحبوه قريب منه ، بعيد لأنه لا ينيله أمنيته من الوصول وهو لذلك دائم القلق ، ويئن والمحبوب منصرف عنه معرض . وهو يهتف

للعميدروس (طبع بغداد) ص ٤١٤ وكتاب بيت الصديق
للسيد محمد توفيق البكري وما ذكره من مراجع .

(١) انظر في محمد بن أبي الحسن رحمة الألبا للشافعي
٢٢٠/٢ وأكمل الترجمة بعد ترجمته لابن أبي المواب ص
٢٢٢ دلائل شلوات اللهب ٤٣١/٨ والنور السافر

وينادى آملا. راجيا ويردد ما رده ابن الفارض وغيره من الصوفية قبله . من الحديث عن مدامة الحب الإلهي ورجيقه المسكر للصوفية .

وللبكري استغاثات كثيرة بالرسول ﷺ حبيب الله خير مبعوث قربه الله إليه ، وسره الأهل الذى لا ينجب أمه ، والذى ينال سؤله اللانث . ومن قوله فى إحدى استغاثاته :

يا أكرمَ الخلق على ربِّهِ وخيرَ من فيهم به يُسألُ
قد سئى الكربُ وكم مرفُ قُرُجَتَ كَرَمًا بعضُهُ يُذهَلُ
وأنتَ بابُ الله أىِّ امرئٍ أتاه من غيرِكَ لا بدخلُ

ويضيف فى استغاثاته بالرسول إلى تفريج الكرب عنه وإقالته من عثراته الشفاعة له من ذنب يوم المحشر بما أوتى من محبة الله ورؤيته له فى عروجه إلى السموات .

٥

شعراء الفكاهة

من أهم ما يميز مصر قديما وحديثا ميل أهلها إلى الفكاهة والتندير والدعابة ، وقد صورنا ذلك تصويرا جامعا فى كتابنا « الفكاهة فى مصر » مستعرضين هذه الخصلة فى مزاج المصريين من عصر الفراعنة حتى العصر الحديث . ونراها واضحة طوال هذا العصر . بل منذ أن وجدت مصر شخصيتها الأدبية زمن الدولة الطولونية على نحو ما يتضح من نيز شاعر بلقب الجمل الأكبر ، وخلفه شاعر كان يلقب بالجمل الأصغر ، ويقول ابن سعيد . « كان ينحرف فى الطرفة والتطايب منحى الجمل الأكبر ^(١) » . ولا يلبث أن يقول فى سعيد القاص شاعر الإخشيد الملقب هو الآخر بقاضى البقر : « من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه لديه بما كان فيه من الحلاوة والتندير والمزول ^(٢) » . وإذا مضينا إلى زمن الدولة الفاطمية وجدنا ظاهرة النبز بالألقاب دعابة للشعراء

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

(١) المغرب لابن سعيد (نسخ الفسطاط) ص ٢٧٠

تسع ، إذ ينز غير شاعر بلقب غريب كما بوضع ذلك كتاب الخريدة للهاد الأصماني إذ يلقانا فيه شاعر لُقِب بِشَلْعٍ وثان بالوضيع وثالث بالكاسات ورابع بالجهجهان وخامس بالنساس إلى غير ذلك من ألقاب .

ومن أوائل الشعراء في هذا العصر ابن وكيع التنبسي ومرث في الفصل الماضي مربعة مزدوجة له ، جعل موضوعها غزله بفلام مسيحي ، وقد مضى فيها بداعبه ، منثرا له ، إن ظل هاجرا ، أن يشكوه إلى القساوسة ويتبع في ذلك محتجا بتعاليم المسيح ووصايا متى ولوقا ومرقص وبوحنا ، ويقول إنه سيشكوه إلى الأسقف فإن لم يقطع عن هجره شكاه إلى المطران ، فإن لم يكف شكاه إلى البطريك . وكانت تقترن بهذه الفكاهة سخرية شديدة بالفاطمين ووزرائهم عرضنا لها في حديثنا عن المهجاء . وأدى هذا الميل إلى السخرية والفكاهة والرغبة في التندبر بالمصريين إلى الاتساع في القذف بسهام التورية ، وهي تكثر في سماء أشعارهم طوال هذا العصر حتى لنشبه النيازك التي يكثر إلقاؤها إلى الفضاء في الأعياد ، فلاتزال النيازك تلقى ليلة العيد ، ولايزال الشعراء المصريون يرمون بتورياتهم قلحا ومدحا وغزلا على كل لون من مثل قول الشريف العقيل مثبا على زامر ونايه أو ناياته ^(١) :

وزامر يكذبُ فيه عائبُهُ تكثرُ في صنعة عجائبه
يحجب صبرَ المرء عنه حاجبُهُ كأنما نسايتُهُ ذوائبه

والتورية واضحة في حاجب وذوائب . ومن تعلقوا بصنع التورية في الحقبة الفاطمية ابن قادوس - كما مر في غير هذا الموضع - ومثله قر الدولة جعفر بن دؤاس ، وله بقول في ابن أفلح أحد الكتاب الشعراء وكان شديد السواد ^(٢) :

هذا ابنُ أفلحَ كاتبٌ منفسرٌ بصفاته
أقلامُبه من غيره ودوائبه من ذاته

وتلقانا بجانب التورية دعابات كثيرة للشعراء في زمن الفاطميين ، يداعبون بها زملاءهم من الشعراء وأصدقاءهم من الكتاب والعلماء والأطباء ، من ذلك دعابة مشهورة للقاضي الجليس

شاعر الفاطميين ووزيرهم طلائع ابن رزيك وجه بها إلى طيب تمهده وكان محموا ، فلم ير أعلى
بديه وفيها يقول (١) :

وَأَصْلُ يَلْتَنِي مَنْ قَدْ غَزَانِي مِنْ السُّقْمِ الْمَلْحِ بِمَسْكَرَيْنِ
طَيْبٌ طَيْبٌ كَقُرَابٍ يَبْنِي يَفْرُقُ بَيْنَ عَافِيٍّ وَبَيْنِ
أَنَّى الْحُمَى وَقَدْ شَاحَتْ وَبَاخَتْ فَرْدٌ لَهَا الشَّابُّ يَنْخَتِنِ
وَدَبْرَهَا بِشَدْبِيرٍ لَطِيفٍ حَكَاهُ عَنْ سِنَانٍ أَوْ حَتْنِ (٢)
وَكَانَتْ نَوَّةً فِي كُلِّ يَوْمٍ فَصِيرُهَا بِجَذْرِ نَوْنَيْنِ

والجلیس يداعب الطیب فبدلاً من أن يصله بعافيته فرق بينها ، ويقول إنه جاء في أواخر
الحمى وقد شاحت وباحت أو فترت فإذا هو يرد لها الشاب بورقين من سقوف الدواء أو كما يقول
بنسختين ، وكأنما أحكم تدبيره في رد قوة الحمى إليها فإذا هي لاتعاوده في اليوم نوبة بل نوتين .
ولعل القارئ لم ينس ابن النوروى في الحقة الأبوية ووصفه لحدة ابن أنى حصينة وصفا ساخرا
لاذها . ومن طريف ما نقرأ من دعابات في هذه الحقب دحابة البهاء زهير مع أحد أصدقائه ، وقد
جمل موضوعها بقلته ، يقول (٣) :

لَكَ بِأَصْدَقِ بَقْلَةٍ لَبَسَتْ نَسَاوَى غَرْدَلَةٍ
تَمْشَى فَتَحْسِبُهَا الْعَبْرُ نُ عَلَى الطَّرِيقِ مُشْكَلَةٍ (٤)
وَتُخَالُ مَدْبِرَةٌ إِذَا مَا أَقْبَلْتُ مُسْتَعْجَلَةٍ
مَقْدَارُ خَطْوَتِهَا الطَّوْ يَلِي حِينَ نَسْعُ أَنْمَلَةٍ
تَهْتَرُ وَهِيَ مَكَانُهَا فَكَأَنَّمَا هِيَ زَلْزَلَةٍ

ويريد البهاء زهير بالخردلة أقل شيء في الصغر ، ويقول إنها حين تمشي يُظَنُّ أنها مقبلة لبطئها
الشديد ، ويجعلها مدبرة حين تقبل ومقدار خطوتها الطويلة أنملة لما بالنا بخطوتها القصيرة ، وإنها
لتهتر واقفة لانسير ولا تتحرك كأنما هي زلزلة .

(٣) كتاب البهاء زهير للشیخ مصطفى عبدالرازق ص

(١) الحريدة ١٩٢/١ .

(٢) سنان هو سنان بن ثابت بن مرة من أطباء القرن

الثالث ومطه حين بن إسحق .

وتكرر التورية في شعر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين كثرة مفرطة من مثل قوله منشوقا إلى مصر وإلى شربة من ماء النيل^(١) :

بَاقِي قُلِّ لِلنَّيْلِ عَنِّي إِنِّي لَمْ أَشْفِ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ غَلِيلاً
وَسَلَّى الْفَزَادَ فَإِنَّهُ لِي شَاهِدٌ أَنْ كَانَ طَرَفِي بِالْبِكَاءِ بَخِيلاً
يَا قَلْبُ كَمْ خَلَّفْتَ نَمَّ بَيْتُهُ وَأَطْن صَبْرِكَ أَنْ يَكُونَ جَمِيلاً

فقد غاب عن مصر مع صلاح الدين في بعض رحلاته وحملاته إلى الموصل ، وهو يعلن أن ماء الفرات لن يشق غليله ، ولن يكف بكاؤه شوقا إلى مصر ورياضتها ونيلها . والتورية واضحة في كلمة جميل بعد ذكره لبثنة صاحبة جميل الشاعر الغزل القديم .

ويتوقف ابن حجة الحموي بكتابه خزانة الأدب في حديثه عن التورية ملاحظا أنه خلفت القاضي الفاضل شعبتان^(٢) : شعبة مبكرة وشعبة لاحقة ، أما المبكرة فجميعها مصريون وجميع اللاحقة شاميون ، ويمتدُّ المبكرة ومن قاموا عليها من المصريين في القرنين السادس والسابع للهجرة مسما لهم ، وهم ابن سناء الملك من مثل قوله في بعض غزله^(٣) :

مَلَكْتُ الْخَافِقِينَ فَهَتَّ عَجَبًا وَلَيْسَ هُمَا سِوَى قَلْبِي وَفَرْطِك

فهى لا تمتلك قرطها الخافق المتهر وحده بل تمتلك أيضا قلبه الخافق ، والتورية في كلمة الخافقين وهما الشرق والغرب . ويذكر ابن حجة بعد ابن سناء الملك شعراء القرن السابع المصريين : الجزار والوراق وابن النقيب والحمامي وابن دانيال ومحيي الدين بن عبد الظاهر ، وسلم يبعث توريات من مترجم لهم منهم ، ومن توريات ابن النقيب قوله المشهور^(٤) :

أَقُولُ وَقَدْ شَتْنَا إِلَى الْحَرْبِ غَارَةً دَعَوْنِي فَإِنِّي آكَلُ الْحَبِيزَ بِالْجَبَنِ

والتورية في الجبن واضحة . ومن توريات الناصر الحمامي قوله في بعض غزله^(٥) :

وَيُظَنِّي حَيًّا رَوَيْتُ بِرَيْقِهِ فَإِذَا دَعَا قَلْبِي بِجَاوِبِهِ الصَّدَى

(٣) الديوان ص ٤٦٣ والخزانة ص ٣٠٠

(٤) خزانة الأدب ص ٣٠٨

(٥) نفس المصدر ص ٣٠٨

(١) خزانة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق) ص ٣٠٠

(٢) خزانة الأدب ص ٢٩٨ .

والمعنى القريب للمُصَلَّى المتصل بالدعاء والجواب وجع الصوت ، والمعنى البعيد المراد الذى ورئى عنه النصير الحامى هو العطش . ويتوقف ابن حجة طويلا عند توريات ابن نباتة ، وقد روى منها أكثر من مائة تورية ، غير مارواه مما أخذته عنه الصفدى وغيره ، ومن طريف تورياته قوله لمن أهدى إليه تمرا رديئا غالبه نوى ، إذ كتب إليه ^(١) :

أرسلت تمرا بل نوى فقبلته يد الوداد فما عليك عتاب
وإذا تباعدت الجسوم فودنا باقى ونحن على الثوى أحباب
والمعنى القريب المتبادر لكلمة النوى هو نوى العمر ، والمعنى البعيد الذى أراده ابن نباتة هو البعد والفراق .

ويترك ابن حجة توريات ابن نباتة إلى توريات من جاء بعده من المصريين أمثال ابن الصائغ الحنفى وفخر الدين بن مكانس وبدر الدين البشنكى وابن أبى الوفا وابن حجر العسقلانى المصرى . وتستمر التورية فى الحقبة العثمانية وكأنها والمزاج المصرى صنوان لا يفترقان . ويلقانا فى أيام العثمانيين شاعر فكه كان يمشى للهزل هو عامر الأنبوطى وسنترجم له عما قليل بين شعراء الفكاهة فى المصر .

ابن ^(٢) ميكنة

هو إسماعيل بن محمد الإسكندرى عاش فى القرنين الخامس والسادس للهجرة إذ توفى سنة ٥١٠ هـ وفيه يقول أبو الصلت فى الرسالة المصرية : « شاعر مكث التصرف ، قليل التكلف ، يفتن فى نوعى جد التمرىض وهزل ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله » . وكان مع جودة شعره يتبدل فى مديحه وبلغ منه ذلك أنه انقطع إلى عامل مسيحي يسمى أبامليح فى عهد بدر الجمالى وزير المستنصر وكأنه لم يجد عند بدر ما يقبضه ، فلما تحولت الوزارة منه إلى ابنه الأفضل وتعرض لاستباحته لم يقبله ولم يقبل عليه ، لقوله فى رثاء أبى مليح :

طويث سماء المكرما ت وكورت شمس المديح
ماذا أرجى فى حيا فى بعد موت أبى مليح

والخريدة ٢٠٣/٢ وفوات الوفيات ٣٦/١ وصحاح السلفى فى
المواضع مغرقة .

(١) خزائن الأدب ص ٣٩٢

(٢) انظر فى ابن ميكنة وترجمته وأفعاله الرسالة
للصربية لأمة بن أبى الصلت نشر عبد السلام هرون

ويبدو أن البيت الثاني هو الذى آذى نفس الأفضل ، فأعرض عنه وكفله عز الدولة بن فائق
ويبدو أنه كان من كبار رجال الدولة الفاطمية ، وله فى المديح كثير من الأبيات الطريفة كقوله :

بِلِقَاكَ مَبْهَجًا وَالنَّبْتُ فِي يَدِهِ يَهْمِي فَيَجْمَعُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالطَّرِيقِ
وقوله :

الطَّوْدُ حَاسِدٌ جِلْمِهِ وَأَنَاثِهِ وَالسِّبْ حَاسِدٌ بَاسِهِ وَمَضَاهِيهِ

وله أشعار غزلية كثيرة كان يعرف كيف يسوق فيها أفكارا وصورا مبتكرة ، وهو كالسابق إليها
أوسابق فعلا من مثل قوله بصف خصلة من الشعر التوت على خد جميل فى شكل عقرب :

قُلْتُ إِذْ عَقَرَبَ الدَّلَا لُ عَلَى خَدِّهِ الشَّعْرُ
مَارَرْتِي قَطُّ قَبْلَ ذَا عَقْرَبُ حَلَّتِ الْقَمَرُ

والحديث عن عقرب الشعر وقرنه يبرج العقرب قديم ، وربما كان أروع من هذه الصورة ،
وهى بحق صورة مبتكرة له قوله :

لَا تَخْذَعُكَ وَجَنَةُ عَمْرَةٍ رَقَّتْ فِي الْيَاقُوتِ طَبْعُ الْجَلْمِدِ

وعلى شاكلة هذه الصورة المبتكرة قوله :

الْحَسَنُ فِي وَجْتِهِ وَطَرَفِهِ يَفْتَحُ وَرْدًا وَيَقْضَى نَرْجِسًا

وكانت له أشعار كثيرة فى المجون والحمر ومعاقره الدنان ، وكثيرا ما ينفذ منها إلى صور وخيالات
بديعة من مثل قوله يصف الحمر وهى تُصَبُّ من إبريق :

إِيرِيقُنَا عَاكِفٌ عَلَى قَدَحٍ كَأَنَّهُ الْأُمُّ تَرْضَعُ الْوَلَدَا
أَوْعَابُدُ مِنْ بَنَى الْجَوْسِ إِذَا تَوَهَّمُ الْكَأْسُ شُعْلَةً سَجْدًا

وكان فى ابن مكنسة ميل شديد إلى الفكاهة والدعابة ، وله فى ذلك نواحر وأشعار كثيرة ،
كان فيها يتاجن على طريقة أبى الشمقمق الذى عرضنا له فى كتاب العصر العباسى الأول ، إذ كان
دائم التصوير لبؤسه وقره وغلوداره من الطعام وجبت الجرذان فيها وبنات وِردان أو الصراصير ،
ويتابعه ابن مكنسة واصفا قبح داره وضيقها ، قائلا :

لِيَ بُتٌ كَأَنَّهُ بَيْتُ شَمْرِ لَابِنِ حِجَاجٍ مِنْ قَصِيدِ سَخِيفٍ
أَيْنَ لِلْعَنُكُوتِ بَيْتٌ ضَعِيفٌ مِثْلُهُ وَهُوَ مِثْلُ عَقْلِ الضَّعِيفِ
بِقَعَةٍ صَدُّ مَطْلَعِ الشَّمْسِ عَنْهَا فَأَنَا - مَذْ سَكْتُهَا - فِي الْكُفُوفِ

وهو يذكر حيث بنات وردان فيه وضيقه الشديد وقبحه ، ويقول أنه يشبه بيت شعر سخيـف من أشعار ابن حجاج المفعشة ، ويقول إنه - مذ سكته - في الكسوف ولا يريد كسوف الشمس وهو المعنى القريب للملائم لما قبله ، وإنما يريد المعنى البعيد من التجمل والاستحياء الشديد . وهي تورية واضحة . ومن قوله الفكاهة يشكو شيخوخته ووهن عظمه وكلال بصره :

عَشْتُ خَمْسِينَ بَلْ تَزِيدُ دُ رَقِيعًا كَمَا تَرَى
أَحْسَبُ الْمُقْلَ بُدْنَقًا وَكَذَا الْبِلْعَ سُكْرًا
وَأَطْنُ الطَوِيلَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُدَوَّرًا
قَدْ كَبُرَ بَرْ يَبْرُ يَبْرُ تْ وَعَقْلٌ إِلَى وَرَا
عَجَبًا كَيْفَ كُلُّ شَيْءٍ سَبِيءٍ أَرَاهُ تَغْيَرًا
لَا أَرَى الْيَبْضَ صَارَ بُوً كَلُّ إِلَّا مُقَشَّرًا
وَإِذَا دُقُّ بِالْحِجَا رِ زَجَاجٍ تَكْسَرًا

وهو يعطن في مطلع الأبيات أنه عاش ماجنا رقيقا ؛ وكأنه لن يكف عن رقاته ومجونه ، ويصور شيخوخته وضعف نظره حتى لم يعد يفرق بين نمر الدوم المسى بالمقل والبندق ولا بين الملح والسكر ولا بين الطويل والمُدور ؛ ويحسم ارتعاشه في شيخوخته بالبيت الرابع إذا لم يكده يلفظ بكلمة كبرت حتى ارتمش به فله مكونا شطرا من بيت ، ويعجب أن كل شيء تغير ، ونقرأ ما تنير فنتسرق في الضحك ، إذ تحولت الحقائق في عقله الكليل إلى عجائب ، فالبيض يؤكل مقشرا ، والزجاج إذا دق بالحجارة تكسر . وما من ريب في أن هذه الفكاهة فيه والدعابة هي التي جعلت المصريين لزمته يلقبونه ابن مكتسة .

الجزائر^(١)

هو يحيى بن عبدالمعظم ولد سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٦٧٩ فهو من شعراء الدولتين : الأيوبية والملوكية ، نشأ بالفسطاط في أسرة كانت تحترف الجزارة ، ويقول ابن سعيد صديقه في ترجمته له بكتاب المغرب : دكاكين أسرته في الفسطاط عاينها وأبصرته معهم بها . وكان في أول أمره قصّابا وسال الشعر على لسانه وكانت ملكته خصة فاحترفه ، وقصد به السلاطين والأمراء وعمال الدولة في الاسكندرية والمحلة ودمياط . وروى ابن سعيد في ترجمته قطعة كبيرة من شعره ومدائحه ، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ٦٢٧ ويقول صاحب مسالك الأبصار : « قال الشعر وهو صغير أول ما احتلم ، وطاف بأركان بيت له واستلم » . ويشيد ابن سعيد بكرمه وما أغدق عليه من بره ، ويذكر دعوته له مرارا للزخوة مع طائفة كبيرة من شعراء جيله أمثال ابن النقيب والسراج الوراق . وكانت للجزائر مسامرات ولقاءات كثيرة مع البوصيري والحامى وابن دانيال ، وجعله كرمه يقترب ممن كانوا يقدون على مصر أمثال ابن العديم وابن خلكان وابن سعيد الذى يشيد بوصف مروءته وكرمه وحسن عشرته . ويحيل إلى الإنسان كأن لم يبق سلطان ولا وزير ولا قاض ولا كبير في الدولة إلا أسبغ عليه مدائحه ، وهى مدائح وسطى ليست بالغة الجودة ، ومع ذلك يقول الصفدى : « لم يكن في عصره من يقاربه في جودة النظم غير السراج الوراق ، وهو كان فارس الحلبة ، ومنه أخذوا وعلى نمطه نسجوا ومن مادته استمدوا » ويقول ابن سعيد : « رُزق من حسن الاهتداء لغرائب المعاني وبدائع الألفاظ ما يبدل على غوص فكره ، وطريقه من أسهل الطرق التى يميل إليها العامة ولا يبنكرها الخاصة ، لقرب مأخذها وحسن مترعها » .

وابن سعيد دقيق كل الدقة في وصف لغة الجزائر بأنها سهلة تميل إليها العامة ، مع فصاحتها ، وهى ظاهرة ترجع إلى نشأته ، وأنه ترى بين طبقة العامة في الفسطاط لزمته ، فطبعى أن لا ينجح في أشعاره إلى الألفاظ الغريبة إنما ينجح إلى الألفاظ الواسطة بين لغة العامة ولغة الخاصة بحيث يرضى الطرفين ويقع منها موقعا حسنا . والجزائر إحدى حلقات هذه السلسلة التى تصور صلة عامة

الزاهرة ٣٤٥/٧ وشذرات ابن الجواد ٣٦٤/٥ ومطالع البدور للزورلى ١٩١/٢ وما بعدها ، ومكتبة جامعة القاهرة مصورة لمختبرات من شعره بخط الصفدى في ١٨٠ ورقة .

(١) انظر في الجزائر وترجمته وشعره المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٩٦ وحسن المحاضرة ٥٦٨/١ وفوات الرويات ٦٣٠/٢ ومسالك الأبصار لابن فضل لفة المصرى (مخطوطة دار الكتب المصرية) ١٢ الورقة ١٦٦ والنجوم

الشعب المصرى دائما بالشعر العربى صلة لاتنقطع ، إذ دائما نرى شعراء من طبقة العامة الكادحة يرقون فى الشعر إلى درجة عالية مثل ظافر الحداد فى الحقبة الفاطمية ، وكثير من معاصرى الجزار كانوا مثله من أبناء عامة الشعب نذكر منهم صديقه الوراق ، وكان وراقا يبيع الكتب ، وكذلك صديقه الحامى ، وكان له حَمَامٌ يقوم عليه ، ومثل مجاهد الحياط بالفسطاط ، وله فيه بيت مشهور لزمناها دار على الألسنة إذ يقول :

وليس يرجوه غيرُ كلبٍ وليس يخشاه غيرُ ثبسى
ورودُ عليه الجزار غيرُ غاضب بل كأنما يريد استمرارًا فى الدعابة :

بسرَجِينَا بنو كلبٍ وبخشاننا بنو عجلٍ

ويبدو أنه كان يعود فى بواكير حياته إلى القصة والجزارة مما جعل صديقا له يسمى شرف الدين يعاتبه ويكثر من عتابه ولومه لتركه الأدب إلى حرفة الجزارة فقال :

كيف لآ أنشكرُ الجزارةَ ما عشتُ تَ حِفَاطًا وأرفضُ الآدابا
وها أضحتِ الكلابُ تُرَجِّبُ نى وبالشعرِ كنتُ أرجو الكلابا

ولا بد أن أزمة كرامة مرت به ، فانسحب فترة إلى دكاكين أهله ، ولكن سرعان ما عاد إلى الأدب وإلى الكرام من ممدوحيه وأصدقائه وزملائه الكثيرين .

وربما كان أهم ما يتصف به الجزار ميل متأصل فى نفسه إلى الفكاهة والدعابة ، مما جعله يُشَبِّه بآبن مكنسة وأبى الشمقمق العباسى فى الشكوى من بؤسه وفقره مداعبا متفكها بمثل قوله :

لى من الشمس خِلْمَةٌ صفراء لا أبالى إذا أتانى الشتاء
يتى الأرضُ والفضاء به سو رٌ مُدَارٌ وسقف يبنى السماء
لو ترائى فى الشمس والبردُ قد أُنز حلَّ جسمى لقلتُ إني هباء
كلما قلت فى غَدٍ أدرك السو لَ أتانى غَدٌ بما لا أنشاء

فحق الثياب لا يجدها ، وبيت الأرض وسقف السماء ، وقد أنخله البرد حتى صار شبعا لا يكاد يرى ، وكل يوم يأمل ويرجو وينيب الأمل والرجاء ، إذ لا ينال شيئا من دنياه سوى اليأس والشقاء ، ويعود إلى وصف داره قائلا :

وَدَارٍ خَرَابٍ بِهَا قَدْ نَزَلْتُ وَلَكِنْ نَزَلْتُ إِلَى السَّابِقَةِ
فَلَا فَرْقَ مَا بَيْنَ أَنِّي أَكُونُ بِهَا أَوْ أَكُونُ عَلَى الْقَارِعَةِ
وَأَخْشَى بِهَا أَنْ أَقِيمَ الصَّلَاةَ فَتَسْجُدَ حَيْطَانُهَا الرَّامِكَةُ
إِذَا مَا قَرَأْتُ : (إِذَا زُلْزِلَتْ) خَشِيتُ بِأَنْ تَقْرَأَ : (الْوَاقِعَةُ)

إنها دار خربة هوت به إلى الأرض السابعة ولا سقف ولا حيطان فكأنه على القارعة أو على الطريق . وإنه ليخشى أن يقيم بها الصلاة فتتفص حيطانها . ويتندر قائلاً إذا قرأت في صلاتي سورة الزلزلة خشيت أن تقرأ هي سورة الواقعة ، والتورية واضحة ، ويعود إلى ثيابه ويصف جبة له هذا الوصف الفكه :

لِيْ يَصْفِيَهُ تَعْدُ مِنَ الْعُمْرِ سِنِيًا غَسَلَهَا أَلْفَ غَسْلَةٍ
كُلُّ يَوْمٍ بِحَوْطِهَا الْعَصْرَ وَالذُّقْرَ مَرَارًا وَمَا تُقِرُّ بِعُنْطَةٍ
أَيْنَ عَيْشِي بِهَا الْقَدِيمِ وَذَلِكَ التَّسْبِيحُ فِيهَا وَخَطَرُنِي وَالشَّمْلَةَ
حَيْثُ لَا فِي أَجْنَابِهَا رَقْعَةً قَطُّ وَلَا فِي أَكْثَامِهَا قَطُّ وَصَلَهُ

فهى نصفية أو جبة ، طالما لبست وغسلت وصُيِّت ، وفي كلمة العصر « تورية » لأنها كانت شائعة الدلالة على عصر الحصينين تأديبا للمجرمين وتقريرا لهم ، وترشحها في البيت كلمة الإقرار بالعملة وهى بفتح العين الجناية وبالضم النقود . والشملة لا تزال تستعمل في العامة المصرية على ما يتلفح به الرجال من الصوف أو الحرير ، وهى فصيحة . والأبيات مختارة من قطعة طويلة مضحكة في وصف هذه الجبة البالية . وصل التراويح عند الوزير بهاء الدين بن حنا فقرأ الإمام في ركعة من ركعات التراويح سورة الأنعام ، فقال ثوبا :

مَالِي عَلَى الْأَنْعَامِ مِنْ قُدْرَةٍ لَأَسِيًّا فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ
فَلَا تَسْمَوْنِي حُضُورًا سِوَى فِي لَيْلَةِ الْأَنْفَالِ وَالْمَائِدَةِ

ولكلمة الأنفال معنى قريب هو السورة الكريمة ومعنى بعيد هو الهبات ، وهو المراد ، وبالمثل لكلمة المائدة معنى قريب هو سورتها في القرآن ومعنى بعيد هو مائدة الطعام وهو المراد . وله في أطعمة رمضان : القطائف والكنافة وما إليها مداخلات كثيرة من مثل قوله :

سَقَى اللَّهُ أَكْنَافَ الْكَنَافَةِ بِالْقَطْرِ وَجَادَ عَلَيْهَا سُكَّرَ دَائِمُ الدَّرِّ

والقطر هنا السكر ، والدر : المطلان والكثرة .

وتزوج أبوه امرأة متقدمة في السن ، ففسي ينتم منه ومنها بفكاهات واصفا فيها هرمها ، مصورا ضعف عقلها لكبر سنها وقبح وجهها كما يزعم بمثل قوله :

تَزُوجُ الشَّيْخُ أَبَى شَيْخَةً لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذِهْنٌ
لَوْ بَرَزَتْ صُورَتُهَا فِي الدُّجَى مَا جَسَرْتُ تَبَصُّرَهَا الْجِنُّ
كَأَنَّهَا فِي قَرَشِهَا رِمَّةٌ وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قُطُنٌ
وَقَانِلٌ قَالَ لَهَا سَيْئَهَا فَقُلْتُ مَا فِي لَهَا سَيِّئٌ

والبيت الثالث شديد الإفذاء لهذه المرأة المسنة ، واستخدام التورية في البيت الأخير إذ سئل عن سنها أى عمرها ، فجعل السؤال عن أستانها .

وينظم في حمار له مقطعات كثيرة فكهة ، ومات فأكثر من رثائه محاكيا بشارا في رثائه لأنثاه ، وجمع بعض معاصريه مراتبه لحماره في مجلد ، وهى مراث تدور على الدعابة الخالصة . ومن قوله اللاذع في أحد البخلاء لأيامه :

لَا يَسْتَطِيعُ بَرَى رَغِبَ سَفَا عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ يُكْسَرُ
فَلَوْ أَنَّهُ صَلَّى - وَحَا شَاهَ لَقَالَ الْخَبِيزُ أَكْبَرُ

وفي الحق أنه كان جعبة فكاهة ودعابة ، وهو أحد من أكثروا لزمنه صنع التوريات ، وقد روى له ابن حجة طائفة كبيرة ، منها قوله :

قُلْتُ لَسُّمُ الْجِسْمِ مَنَى وَقَدْ أَفْرَطَ بِي قَرَطٌ صَنَّا وَاسْتَكْتَابَ
فَعَلْتُ بِي بِاسْمُ مَالٍ يَكُنْ ثُلْبُسُ - وَالله - عَلَيْهِ الثَّيَابُ

والشطر الأخير له معنيان : المعنى الظاهر الضنا والتحول حتى لا تكاد الثياب تلبس ، والمعنى البعيد المراد وهو : مالا يصح ولا يجوز أبدا .

السراج ^(١) الوراق

هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن رفيق الجزار وصديقه ، وُلد مثله بالفسطاط سنة ٦١٥ وتوفي سنة ٦٩٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرفا في فنون البلاغة ، وهو شاعر مصر (الفسطاط) في زمانه بلا مدافعة » ويقول صاحب فوات الوفيات : « كان حسن التخیل ، جيد المقاصد ، صحيح المعاني ، عذب التراكيب عارفا بالبدیع وأنواعه » . ولم يكثر أحد من الشعر إكثاره إذ كان ديوانه سبعة أجزاء كبار ، وأكثره مقطوعات قصيرة . ويمتاز شعره - مثل الجزار - بالسهولة المفرطة ، لسبب طبعي ، وهو أنه نشأ في أسرة شعبية متواضعة ، وما زال الشعر يصعد به حتى عُيِّن كاتباً للدرج عند بعض الأمراء ، ويبدو أنه لم يظل في ذلك طويلا وأنه احترف الوراقة ، وفي شعره مدائح لبعض السلاطين والأمراء كقولهِ في الظاهر يبرس أثناء الاحتفال بافتتاح مدرسته الظاهرية :

وشبَّدها للعلم مدرسة غدا عراقُ إليها شَبَقٌ وشَامُ
ولا تذكُرْنَ يوما نظاميَ لها فليس بضاهي ذا النظامِ نظامُ

وهو يجعلها فوق نظامية بغداد المشهورة التي بناها بها نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور ، وقد عرضنا لها في حديثنا عن العراق بالجزء السابق من هذه السلسلة ومدى إتفاقه عليها وعلى العلماء والطلاب بها ، وما حبس عليها من أوقاف دائرة ، وكان لها شأن بعيد في النهضة العلمية ببغداد . ومر بنا حديث عن المدرسة الظاهرية في فصل الثقافة . وللوراق مرثية بديعة في المعزايك حين قتل ، يقول فيها :

نقيمُ عليه مأتما بعد مأتمٍ ونسفعُ دما دون سَفَحِ المقطَّمِ

وله شعر غزل كبير مثل الجزار ولا نحس عنده بحرقة ولا بلوعة ، مثله في ذلك مثل صاحبه ، ومن قوله في بعض غزله :

٣٠٠ وما بعدها ومطالع البدور ٩٠/١ وخطط القريري ٣٤١/٣ . ومن ديوانه مخطوطة بدار الكتب المصرية ومصورة بخط الصفدي في مكتبة الجامعة في ١٨٠ ورقة .

(١) انظر في السراج الوراق وترجمته وأشعاره فوات الوفيات لابن شاکر ٢١٣/٢ والنجوم الزاهرة ٨٣/٨ وشفرات الذهب ١٣١/٥ وخزانة الأدب للحموي ص

فِي خَدَّهَا ضَلَّ عِلْمُ النَّاسِ وَاخْتَلَفُوا أَلِلشَّقَاتِ أُمُّ لِلوردِ نِسْبَتُهُ
فَذاكَ بِالْحَالِ بَقِيضٍ لِلشَّقِيقِ وَذَا دَلِيلُهُ أَنَّ مَاءَ الوردِ رَيْقُهُ

وإذا غضضنا النظر عن حشره لعلم الناس واختلافهم في خد صاحبه ، فإن الصورة تبدو بعد ذلك بديمة ومعروف أن الشقيق قائم الحمرة ، وقد أبدع فعلا إذ جعل دليل نسبة الخد إلى الورد رى صاحبه الشبه بمائه . ومن غزله أيضا :

لَا تَحْجُبِ الطَّيْفَ إِنِّي عَنْهُ مَحْجُوبٌ لَمْ يَبَيِّنْ مِنِّي لِفِرطِ السُّقْمِ مَطْلُوبٌ
وَلَا تَنْقُ بَأَنِّي إِنْ مَوْعِدُهُ بَأَنِّ أُمِيشَ لِلْقِيَا الطَّيْفِ مَكْتُوبٌ
هَذَا وَخَدُّكَ مَحْضُوبٌ يُشَاكِلُهُ دَمْعُ بَقِيضٍ عَلَى خَدِّي مَحْضُوبٌ
تَأْوُدُ الْفُصْنَ مَهْتَرًا فَأَبْنَانَا أَنَّ الَّذِي فِيكَ خَلَقْتُ فِيهِ مَكْسُوبٌ

وإنه لينى رؤية خيال المحبوبة قبل موته وهيبات ، ويقول إنه يبكى دما قانيا كخد صاحبه في حمرة . ويزعم أن ميلان الفصن واهتزازه إنما هو خلق فيه اكتسبه من تقليد صاحبه . وهو يستعير صورة الكسب في البيت من رأى المعتزلة في أن الإنسان يكسب عمله بفعله لا بقدر مقدور عليه .

وأهمية السراج الوراق في تاريخ الشعر المصري كاهية الجزار ، إنما ترجع إلى جانب الفكاهة والدعابة عنده ، وقد خطا بفن التورية خطوة أوسع من خطوة صديقه الجزار ، مستغلا فيها إلى أبعد حد لقبه : السراج الوراق كما استغل الجزار لقبه في كثير من نورياته . ومن المؤكد أن السراج أرى عليه في هذا الباب حتى قال له بعض معاصريه : « لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعره » ومن نورياته في لقبه السراج قوله مادحا :

كَمْ قَطَعَ الْجُودُ مِنْ لِسَانٍ قَلَّدَ مِنْ نَظْمِهِ الثُّحُورَا
فَهَا أَنَا شَاعِرٌ سِرَاجٌ قَاطَعٌ لِسَانِي أَرْدَكَ نُورَا

وهو يشير إلى السراج الحقيقي حين يقول « اقطع لساني » وهو إنما يريد النوال الذي يقطع لسانه ويزيده مدحا وتنويعا وإشادة . ومن نورياته في لقبه الوراق :

وَاعْتَجَلْتَنِي وَصَحَائِنِي قَدْ سَوَّدَتْ وَصَحَائِفُ الْأَبْرَارِ فِي إِشْرَاقِ

وفضيجنى لعننى لى قائلو أكذا تكون صحائفُ الوراقِ

فهو خجل من لقاء ربه بصحائفه السود ، ويقول له لانمه : أكذا تكون صحائف الوراق سوداء ، بينما ينبغي أن تكون مشرقة يضاه كصحائف زملائه من الوراقين . ومن تورياته في غير لقبه « السراج » وصناعته « الوراق » :

أصونُ أدبىمَ وجبى عن أناسى لقاء الموت عندهمُ الأدبُ
وربُّ الشرِّ عندهمُ بغيضٌ ولو وافى به لَهْمُ حبيب

ولكلمة حبيب معنيان : معنى قريب من الحب ، ومعنى بعيد هو أبو نغم إذ اسمه حبيب ، وهو المعنى المراد . ومن تورياته البديعة قوله :

دَعِ الهُونى وانتصبْ واكتبْ واكْذَحْ فَنفَسُ للرَّه كدَاحَه
وَكُنْ عن الرَّاحَة في عَزَلَه فَالْصَّغُ موجودٌ مع الرَّاحَة

ولكلمة الراحة معنيان : معنى أول هو الراحة من الاستراحة ، ومعنى ثان هو الكف أو اليد ، ومن تورياته في بقلة معروفة في مصر باسم « الرجل » ، وقد أضافه بعض أصدقائه ، فداعبه قاتلا :

وأحمقِ أضافنا بِبِقَلَه لِنَسِبِ بَيْنَهَا وَوُضَلَه
إِذْ مَدَّ في وجه الضيوف رِجْلَه

وهو لا يريد مد الرجل الحقيقية ، وإنما يريد مد طعام الرجل على المائدة ، مما يدل بوضوح على حضور بديهة الوراق . ومن تورياته .

فَسِرْ لى عابِرُ منامًا فَصَلْ فى قوله وأَجْمَلْ
وقال : لا بد من طُلُوعِ فكان ذاك الطُلُوعُ دُمْلُ

والطلوع : الصعود والرق ، واستغل الوراق تسمية العامة للدمل طلوعا ، وصنع هذه التورية البارة . وفي كتاب خزانة الأدب للحموى توريات كثيرة للسراج الوراق اقتطفنا منها ما أنشدناه . ووراءها توريات لانقل عنها لطفًا وبراعة .

ابن^(١) دانيال .

هو شمس الدين محمد بن دانيال ، ولد سنة ٦٤٦ للهجرة بالموصل وتركها فنى إلى القاهرة ، ولا نعرف أسباب هجرته من بلدته ولا تاريخ هذه الهجرة ، ويقال إنه نزل القاهرة في سن العشرين ، ويلقب بالكحّال ، ويقولون : كان له دكان كحل داخل باب الفتوح ويلقبونه بالحكيم وليس معروفا بالضبط هل احترف طب العيون أو كان تاجر كحل وياته فقط . وأغلب الظن أنه كان يعالج العيون لقوله :

بأسألى عن حرفى فى الزرى واضبغى فيهم وإفلاسى
مأحال من درهم إنفاقه بأخذه من أعين الناس

والتورية في الشطر الأخير واضحة ، وهى عبارة تدور على ألسنة العامة ، يقولون يأخذ حقه من عينه أى رغم أنفه ، وهو لا يريد ذلك إنما يريد الإشارة إلى صنته وحرفته . وكانت تتعقد في دكانه أغلب اللبالي ندوة سمر يجتمع فيها كبار الفكهين لزمته من أمثال الجزار وابن النقيب والوراق والحامى ، ويروى أنهم جاموه يوما فقالوا له : نحتاج إلى عصيات يومنون بذلك إلى أن من يداوى عيونه يُجهز على بصره فيصبح ضريرا محتاجا إلى عصا تقوده ، فقال لهم على الفور : ليس عندى إلا أن يكون فيكم من يقوده تعالى . وكان يلزم الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون قبل نقله الحكم في عهد أبيه ، وأعطاه يوما فرسا ومرت أيام فإذا به يراه على حمار أعرج ، فقال له : يا حكيم أما أعطيتك فرسا تركبه ؟ فأجابه مسرعا : نعم بعت وزدت على ثمنه واشتريت هذا الحمار ، فضحك الأشرف وأعطاه فرسا آخر . ومن تورياته الطريفة قوله :

قد عقلنا والعقل أى وثاقى وصبرنا والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلا كان مثلى فاضلا عند قسمة الأرزاق

وكلمة « فاضلا » الثانية ليست من الفضيلة كسابقتهما . وإنما من الفضل بمعنى الزائد عن

الطالع للشوكاني ١٧١/٢ وكتابه الفكاهة في مصر (طبع دار
الملاي) ص ٥٣ وماهبطا .

(١) انظر في ابن دانيال وزجه وأشعاره فرائد الوفيات
٢٨٣/٢ والدرر الكائنة لابن حجر ٣٨٢/٢ وشمس
اللمب لابن العماد ٢٧/٦ والنجوم الزاهرة ٢١٥/٨ والبر

الحاجة . وهذا الجانب الفكه في ابن دانيال استطاع أن ينفذ منه إلى صنع ثلاث تمثيلات أو كما يسميها بابات لتثقل على مسرح خيال الظل في أيامه ، وهو مسرح دُمى متحركة متجاوزة ، واسم أولاهها « طيف الخيال » ، والثانية « عجب وغريب » ، والثالثة « مقيم » . وتصور الأولى الحياة الاجتماعية لعهد الظاهر بيبرس . والثانية تصور سوقا مصرية ومن فيها من أخلاط الناس والأمم وقد جمدت ألسنتهم عند لهجاتهم الوطنية في بلدانهم وصور مبعنة من كلامهم تثير الضحك في النظارة . وتصور الثالثة الحيل وخاصة حيل المحبين مع صور مضحكة من عراك الدبكة ونطاح الكباش والثيران .

وأبدع المسرحيات الثلاث وأطرفها « طيف الخيال » ، وهي مسرحية شعرية نثرية ونثرها مسجوع كثر المقامات وليس فيها لفظ غريب ، وكأنما حاول ابن دانيال أن يجعلها قريبة قرىبا شديداً إلى عامية أهل القاهرة لزمه ، وهو يفتتحها بتقديمه لطيف الخيال الأحذب الموصل متغنيا بفضله وجده وهزله ، ويسلم سلام القادم ويرد عليه الرئيس السلام مادحا له ولحديثه بمثل قوله :

قَسَا بِحُسْنِ قَوَامِكَ الْفَتَانِ يَا أَوْحَدَ الْأَمْرَاءِ فِي الْحُدُبَانِ
بِأَمْشَةِ الْفُصْنِ الرُّطْبِيِّ إِذَا انْتَشَى مِنْ حَدِيثِهِ يَمِيسُ بِالرَّمَانِ
بِأَعْجَلَا شَكَلَ الْهَلَالِ بِقَدِّهِ حَاشَاكَ أَنْ تُعْزِرَى إِلَى نُقْصَانِ

ويستمر في تحسين حديثه ، فهو صاحب رَدَقَيْنِ ، وهو جمل جليل السام ، بل هو كالعود الأحذب الطرب . ويرد طيف الخيال عليه : لافضاً الله فاك ، ولا أقال من سيف الحبة قفاك . وكان الحاسب رجل شرطة وقانون . فهو يتمنى أن يظل سيفه مسلطاً على قفاه . وبغنى طيف الخيال بأبيات يستقبل بها النظارة من الحاضرين ، ويذكر أنه جاء مصر من الموصل زمن الظاهر بيبرس حين أمر في سنة ٦٦٦ بتحريم المنكرات وإغلاق الحانات وإعدام أحد أصحابها المسمى ابن الكازروني بعد تجريبه في الطرقات وفي عنقه دَنْ نَبِيذٍ أو نَبَاذِيَّة . وإلى ذلك يشير طيف الخيال ، إذ يقول ابن دانيال على لسانه :

لَقَدْ كَانَ حَدُّ السُّكْرِ مِنْ قَبْلِ صَلْبِهِ خَفِيفَ الْأَذَى إِذْ كَانَ فِي شَرْعِنَا جَلْدًا
فَلَمَّا بَدَا الصَّلُوبُ قَلْتُ لِصَاحِبِي أَلَا تُبْ فَإِنَّ الْحَدَّ قَدْ جَاوَزَ الْحَدَّ
والتورية واضحة في كلمة « جاوز الحد » إذ لا يريد المعنى المتبادر من مجاوزة الشيء لحدّه

وإفراطه ، وإنما يريد مجاوزة الحد الشرعى فى العقوبة . ويتوقف طيف الخيال الأحذب ليدى إبليس وغواياته ويندب تحطيم أوانى الخمر وذنائبه وندمانها وسقاتها بمثل قوله :

مات - يا قوم - شَيْخَنَا إبليسُ وخلا منه رَبُّهُ المَآنُوسُ
والقَنَانِ به تَكْثُرُنَّ والخَمُّ سَارُ من بعد كسرهما محبوسُ
وَقَدَّو القَصْفُ ذاهلون وقد كا دتْ على سَبْلِهَا تَسِيلُ النفوسُ
والحَرَاثِشُ حولها يَبْناكو ن بنارِ تُراعى منها المحبوسُ
وقضيبُ ونرجسُ وسُعادُ باكباتُ وَنُزْهَةٌ وعُروسُ

والرثية طويلة ، واكتفينا منها بهذه الآيات لندل على مانعوج به من هزل ودعابة . ويذكر طيف الخيال أنه جاء إلى مصر يبحث عن أخيه الأمير وصال ، وهو أمير مزيف ، ويظهر أخوه ، ويطلب الأمير كاتبه ، ويعدُّه فى توقعات وودائع ، ويأمره بكتابة تقليد بولاية ، تدليسا وإفتراء . ويلقب الكاتب طيف الخيال بلقب صُرْبَر انتقاما منه حين هزى به ، فى مقابل لقب لشارع بغدادى مشهور يسمى صُرْدَر . ويذكر وصال لأخيه أنه قد عزم على ترك الخلاعة والمجون والتوبة إلى الله والعمل بعمل أهل السنة والجماعة ، بادئا بالزواج . وتبدأ مشاهد التثيلية من حين هذا اللقاء بين وصال وأخيه وتدور حول مشكلة الخاطبة فى الحقب الماضية وما كان ينشأ عنها من أغلاط فى تبين حقائق العروسين ، فالزوج يدعى أنه من أمراء الموصل ومعه كاتبه وحاسبه المزيف ، وحقيقته أنه بانس فقير لا يملك شَرَى يُقِر كما يقول بلسانه فى التثيلية ، حين طُلب منه المهر . وقد أطلق البخور ورُشَّ الطَّيِّب على الحضور ويُشد :

أَسْبَتُ أَفْقَرَ مَنْ يَرُوحُ وَيَقْتَدِى ما فى يَدِى من فاققى إلا يَدِى
فى منزلٍ لم يَحْوَ غَيْرِ قَاعِدَا فإذا رَقَدْتُ رَقَدْتُ غَيْرَ مَعْدِى
وترى البعوضَ يطير وهو يَرِيشُ فإذا نَمَكُنْ فوق عِرْقٍ يَقْصِدِ
والفَارُ يَرْكُضُ كالخَيْولِ تَسَابَتْ من كلِّ جَزْداءِ الأديمِ وأَجْرَدِ
وترى الخنافسَ كالزَنُوجِ تَصَفَّفَتْ من كلِّ سوداءِ الأديمِ وأَسْوَدِ
هذا ولِ ثوبٍ نراه مَرْمُعا من كلِّ لونٍ مثل ريشِ الهُدَّهِدِ

ومع ذلك يُرَفِّق الأمير وصال على عروسه ، وحين تكشف عن وجهها يصيبه الدهول لهرمها

وقبحها المتأهى ، وينادى على الحاطبة وتأنيه ويشكومنها . وينشد طيف الخيال على لسانه شكوى مرة من زوجته . ويصور ما ينماطه من الحشيش وما يرسم له من الخيالات والأوهام ، حتى ليرى وجهه في زير مملوء ماء فيظن به لصا إذ يراه يعبس ويضحك مثل عبه وضحكه ، فيحطمه حطما . وتموت الحاطبة وينوح عليها زوجها بمثل قوله :

ساعدوني بالتشوخ والتعديدي بعد فقد العجوز أم رشيد
هلكت آخر الليالي السود باليالي الوصال بالله عودي

والتبثلية تزخر بالمواقف المتناقضة كما تزخر بهذه الروح الفكاهية ، ويتخللها الفناء والرقص ويتردد فيها التسلسل ، وشخصها في غابة الوضوح . وهى تصور جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات الشعب بحكامه في تلك الحقبة . ومازال ابن دانيال يتمتع أهل القاهرة بتبثيلياته المزلية وفكاهاته التى كانت تدور فى أفواه الناس حتى وفاته سنة ٧١٠ للهجرة .

عامر^(١) الأنبوطى

يقول الجبرنى في ترجمته : « شاعر مفلق هجاءه ويقول إنه كان يقيم في بلده ويلم بالقاهرة من حين إلى حين فيزور العلماء والأعيان ، وكلما رأى قصيدة مشهورة سائرة قلبها وزنا وقافية إلى المزمل والطبيخ ، فكان الشيوخ والشراء يتحامونه ويكرمونه ويمجزلون له في العطاء ، وكان فيه ظرف يجعلهم يأنسون لكلامه ويهشون لشعره الفكاهي . من ذلك نظمه لألفية في الطعام على غرار ألفية ابن مالك في النحو ، استلها بقوله :

يقول عامر هو الأنبوطى	أحمد رى لست بالقنوطى ^(٢)
وأستمين الله في ألفيه	مقاصد الأكل بها محوئيه
فيها صنوف الأكل والمطاعم	لثنت لكل جانح وهانم ^(٣)
طعامنا الضاني للذيد للثهم	لما وسمتا ثم خبرا فالتقم

(٢) القنوطى : كلمة جليتها القافية ولعله يريد بها اليأس
(٣) الهانم : شجيد العطنس .

(١) انظر في ترجمة عامر الأنبوطى وشعره الجبرنى
٧٤٨/١ .

فَإِنَّمَا نَفْسُهُ وَالْأَكْلَ عَمَّ مَطَاعَمُ إِلَى سَنَاهَا الْقَلْبُ أَمْ^(١)
وَالْأَصْلُ فِي الْأَخْبَارِ أَنْ تُقْمَرًا وَجُوزُوا التَّقْدِيدَ إِذْ لَا ضَرَرَ^(٢)

ولاريب في أن شيوخ الأزهر وطلابه حين كانوا يسمعون منه شيئا من أشعار هذه الألفية يفرقون في الضحك إغراقا ، لأنه نقل أكثر صنيع ابن مالك في ألفيته النحوية الجادة منتهى الجد إلى هذه الألفية الجديدة المضحكة غاية الضحك . ورأى أن لامية العجم للطغرائي تستولى على إعجاب الشعراء والناس منذ زمنه في القرن السادس لما تحمل من حكم وخبرات تنفع الناس في حياتهم وسلوكهم ، فنظم على وزنها وقافيتها لامية في الطعام من مثل قوله :

أَنَاجِرُ الضَّانِ زِيَّاقُ مِنَ الْمَلِكِ وَأَصْحَنُ الرِّزِّ فِيهَا مِنْتَهَى أَمَلِ^(٣)
وَلَا خَلِيلٌ يَدْفَعُ الْجُوعَ بِرَحْمَتِي وَلَا كَرِيمٌ يَلْحَمُ الضَّانَ يَسْمَحُ لِي
طَالَ التَّلَهْفُ لِلْمَطْعُومِ وَاشْتَمَلْتُ حُشَاشَتِي بِحَامِ الْيَتِّ حِينَ قُلِّي
أُرِيدُ أَكْلًا نَفْسًا أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْعِبَادَاتِ وَالْمَطْلُوبِ مِنْ عَمَلِ

وكانت لابن الوردي الشامي المتوفى سنة ٧٤٩ قصيدة لامية جعلها جميعا حكما وأمثالا ، طارت شهرتها بين معاصريه ومن خلفوهم فصاغ على وزنها لامية حكيمة في الطعام ، يقول فيها :

اجْتَنِبْ مَطْعُومَ عَدَمٍ وَبَصِلْ فِي عَشاءٍ فَهُوَ لِلْعَقْلِ خَبِيلٌ
وَعَنِ الْبَيْصَارِ لَا تُفَنِّ بِهْ تُمَسِّ فِي صَحَّةِ جَسْمٍ مِنْ عِلَلٍ
سَاحَتِفْلُ بِالضَّانِ إِنْ كُنْتَ فَنِي زَاكِي الْعَقْلِ وَدَعْ عَنكَ الْكَسْلَ
مِنْ كِبَابٍ وَضُلُوعٍ قَدْ زَكَّتْ أَكْلُهَا يَتَنَّى عَنِ الْقَلْبِ الْوَجَلُ

وطعام العدم والبصل وكذلك البيصار من الأكالات الشعبية المصرية ، وهو ينهى عن أكلها ويدعو إلى أكل لحم الخرفان الضاني ومايتخذ منه من طعام الكباب واللحم المشوى .

وكان عامر بهذه الأشعار وما يماثلها يطرف معاصريه في القاهرة ويسرى عن نفوسهم بهزله ويجعلهم يستفرقون في الضحك ، بما يعرض عليهم في أشعاره الفكاهة من أصناف الأطعمة وألوان

(٣) أناجر : جمع أنجر ويطلق في العامة على أنواع الطعام وطوبى الكبيرة .

(١) أَمْ : قصد .
(٢) قمر : كلمة عامية نرى تعرض على الناس

الحلوى ، مع إكثاره من دعاء ربه أن يُنبئه «كبابا» ودواء من الحلوى والخشاف . ومازال ذلك دأبه في أشعاره حتى توفى سنة ١١٧٣ للهجرة .

٦

شعراء شعبيون

ليس معنى هذا العنوان أن شعراء مصر لهذا العصر ينقسمون إلى شعبيين وغير شعبيين ، فشعراؤها جميعا كانوا شعبيين إذا أردنا من نشأوا في بيئات شعبية ولم يكونوا من أبناء القصور أو من الطبقات الأرستقراطية . ونستطيع أن نستقي فقط نعيم بن المزمز أول خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، فهو وحده الذى نستطيع أن نقول عنه إنه نشأ في ترف ونعيم ، أما بعد ذلك فالشعراء كانوا من أبناء الشعب ، وكثيرون منهم كانوا من طبقة الدنيا التي تمتحن الحرف والصناعات ، بل هم أنفسهم كانوا يمتحنون تلك الصناعات والحرف على نحو ما مر بنا في حديثنا عن ظافر الحداد وأنه نشأ حدادا ، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه ، فترك عالم الحدادة إلى عالم الشعر والفن . وبلغنا كثيرون من هؤلاء الشعراء المحترفين حرفا متنوعة مثل الجزار والوراق وبجاهد الحياط والحمامي الذين عرضنا لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .

ومعنى ذلك أننا لا نريد أن نتحدث عن شعبية شعراء العصر بهذا المعنى من نشأتهم في الأوساط الشعبية ، فهي نشأة مشتركة تجلهم جميعا شعراء شعبيين ، إنما نريد معنى أدق من ذلك معنى يتصل بلغة طائفة من شعراء مصر في العصر رأوا أن ينظموا بلغة الحياة اليومية حتى يصلوا مباشرة إلى التأثير في الناس باستخدام العامية لغتهم في التخاطب اليومي . وكانت قد نشأت في البلاد العربية فنون شعرية عامية ، هي الزجل أنشأته أو استحدثته الأندلس ، والمواليا استحدثته أهل واسط بالعراق ، والكان وكان استحدثته بغداد ومثله القوما . وسرعان ما شاعت هذه الفنون في العالم العربي وخاصة الزجل والمواليا .

والزجل أنواع منه ما يسمى بالاسم الأصل وهو الزجل ويختص بالزجل والنسب والحمر والطبيعة ، ومنه ما سُمِّيَ مصر بُلَيْمًا وجمعه على بلاليق ، وهو ما تضمن الزجل أو الخلاعة والأحاض ، ومنه ما سُمِّيَ قَرْيَاً وهو ما تضمن الهجاء أو المزحل ، ومنه ما سُمِّيَ مكفراً وهو ما تضمن المواعظ والحكمة ، وكأنهم اشتقوه من تكفير الذنوب . ومررنا أن الشريف العقيلي في القرن

الخامس كان ينتم كل قافية من قوافي ديوانه بأبيات مكفّرة لما قدم في القافية من مجون .

وأخذت مصر منذ القرن السادس الهجري تشترك في صنع الزجل بأنواعه السابقة ، وأخذت تلطف أساليبه وأوزانه حتى بلغت فيه غاية لانتكاد تدرك ، وكما أقبلت على الزجل بالمعنى العام أقبلت على البُليق وهو زجل هزل ويقول ابن سعيد في منتصف القرن السابع الهجري : « كان بالفسطاط جماعة يصنفون البُليق ، وهو على طريقة الزجل الأندلسي ، منهم ساكن البُليق ، ومن بُليقاته :

بَسَى من الدين الثاني نرجع لدينى الحفاني
نرجع لدينى الأول عن الثا لسن نحول
إن كنت فـ ذا تقول اصغع وقطع آذان

وهذا من الطراز العالي في هذا الفن ، وهو عنوان كاف عن غيره^(١) . واشتهر في القرن السابع ابن دقيق العيد ينظم البلايق^(٢) ومن اشتهر في القرن الثامن بصنع البلايق زين الدين القوصي وقدرى له ابن حجر بُليقاً^(٣) ومثله سراج الدين عمر بن مولا هم ، وقدرى له ابن تغرى بردى بُليقاً^(٤) هزلياً رقص به منشده بين يدي السلطان حسن ، وفيه يقول :

من قال أنا جندى خلق فقد صدق
عندى قبا من عهد نوح على الفتوح^(٥)
لو صادفوا شمس السطوح كان احترق

وقد أشار بقوله : « أنا جندى خلق » أى هرم إلى يلبغا مملوك السلطان وكان واقفا بين يديه ، وأغرق السلطان في الضحك واستعاد البُليق مرارا . وبجانب البلايق تلقانا أزجال كثيرة في هذا العصر ، من ذلك مطلع زجل رواه صفى الدين الحلبي ، وكان قد نزل القاهرة في العقد الثالث من القرن الثامن الهجري ، وهو يجرى على هذا النمط^(٦) :

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٣٦٥
(٢) انظر بعض بُليقات ابن دقيق في الطالع السعيد ص ٣٧٧
(٣) النجوم الزاهرة ٣١٧/١٠ - ٣١٨ .
(٤) القبا : ثوب يلبس فوق الثياب أو ينسطق عليه .
(٥) العاقل الحالى لصق الدين الحلبي نشر ولم هو نرباخ
(٦) بلطانيا ص ٢٧ .
(٧) الدرر الكامنة ١٤/٣

مَنْ نَشْتَقُوا سِيدَ الْمَلَاخِ فِي خَدُّوْ مَا وَنَارُ طَرَزُوا مِنْ زَانُوا بِالْجِدَارِ
عَرَضْتُ لَوْ بِالْإِتْمَاحِ صَارَ وَرَدُّوْ كَالْبَهَارِ^(١) وَتَبَدَّلُ لُؤْنُو بِالضَّفَارِ

وَأَشَدُّ زَجْلا مِصْرِيَا كَامِلَا ، قَالَ : سَمِعْتُهُ لِلْمِصْرِيِّينَ ، وَهُوَ بِصُورِ خُفَّةِ رُوحِهِمْ وَرَقَّتِهِمْ
وَلَطْفِهِمْ وَظَرْفِهِمْ ، وَمَا جَاءَ فِيهِ^(٢) :

لَسَ غَرِيبٌ مِّنْ فَارَقَ أَوْطَانُو أَوْ يَبْعُدُ عَنْ نَاطِرُو الْمُحِبُّو
إِلَّا مَن دَارُو قَبْلُ دَارُو وَالْحَبِيبُ عَنْ نَاطِرُو مُحِبُّو
جِيئَ عَنِّي حَبِيبُو أَهْلُو وَأَسْرَفُو فِي جَمْعِ حُفَاظُو
وَالرَّقِيبُ قَدْ غَيَّبُوا عَنِّي حَتَّى عَنِّي قَبْدُ الْفَاعِلُو
كُلُّ يَوْمٍ لِأَجَلُو يَغِيبُ قَلْبُو رَبُّ غَيْظُ قَلْبِ الذِي غَاظُو
مَاضِطَّرُّ إِلَّا وَهُوَ خَائِفُ أَوْعَبَّرُ إِلَّا وَهُوَ مَرْعُوبُ
لَسَ نَظْمِي نَلْفَظُ مَعْرُ لَفْظُهُ لَا وَلَا يَرْبِئُ إِلَيْهِ مَكْتُوبُ
رَيْتُ حَبِيبِي فِي الرِّيَاضِ يَمْرُحُ بَيْنَ أَقْرَانُو وَأَتْرَابُو
قُلْتُ قَدْ صَحَّ الْمَثَلُ فِينَا مِنْ لَقَى أَحْبَابُونِسِي أَصْحَابُو
فَقَالُوا قَدْ ضَجَّتْ بِنَا أَعْدَانَا وَرَمُونَا قُلْتُ مَا صَابُوا

وَالزَّجَلُ يَسِيلُ رَقَّةً وَنَعُومَةً وَعُلُوبَةً . وَقَدْ رَوَى صَاحِبُ خَزَانَةِ الْأَدَبِ قِطْعَةً مِنْ زَجَلِ ابْنِ
الْفُحَّاحِ فِي وَصْفِ التَّرْجَمِ^(٣) . وَلَمَّا تَوَفَّى السُّلْطَانُ الْأَشْرَفُ شُعْبَانَ سَنَةِ ٧٧٨ حَزَنَ النَّاسُ عَلَيْهِ حَزْنَ
عَظِيمًا وَرَثَاهُ الشُّعْرَاءُ بَعْدَهُ قِصَائِدًا ، كَمَا رَثَاهُ الزَّجَالُونَ وَمِنْ قَوْلِ أَحَدِهِمْ^(٤) :

كَوْكَبُ السَّعْدِ غَابَ مِنْ الْقَلَمَةِ وَهَلَّأُو قَدْ انْطَفَأَ بِأَمَانِ
وَزُحِّلَ قَدْ قَارَنَ الرِّيحُ لِكُفُوفِ شَمْسِ الْفُحْشَى شُعْبَانِ

وَمِنْ أَطْرُفِ الْأَزْجَالِ الْمِصْرِيَةِ لِمَهْدِ الْمَالِكِ زَجَلُ نَشْرَتِهِ قَدِيمًا بِمَجْلَةِ الثَّقَافَةِ^(٥) نَظَمَهُ زَجَالُ
مِصْرِي فِي رِثَاءِ الْفَيْلِ مَرْزُوقٍ ، وَهُوَ فَيْلٌ كَانَ قَدْ أَهْدَاهُ تَيْمُورُ لَنْكَ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْمَجْرِي
إِلَى سُلْطَانِ مِصْرَ ، وَتَصَادَفَ أَنَّ الظَّهَانَ الْمُوَكَّلِينَ بِهِ سَارُوا مَعَهُ نَحْوَ بُولَاقٍ وَرَجَعُوا بِمَاجَزَيْنِ بِهِ عَلَ

(١) التَّجْرِمُ الزَّامِرَةُ ٨٣/١١

(١) الْبَارِ : زَهْرُ أَصْفَرِ .

(٥) مَجْلَةُ الثَّقَافَةِ : الْعِدَدُ رَقْمُ ٣٧١ لِسَنَةِ ١٩٤٦ .

(٢) الْبَاطِلُ الْخَالِ ص ١٠٩

(٣) خَزَانَةُ الْأَدَبِ ص ٢١٩

قنطرة ضعيفة فوق ماء ، فانخفضت به ولم يقدر أحد على إنقاذه ومات ، وخرج الناس زمرا
بتفرجون عليه ، وأنشأ فيه بعض الزجالة مرثية بديعة ، وفيها يقول على لسان زوجته باكية له
نادية :

سهم الفراق قد صاب قلبي يا مسلمين
ونا غريبة هندية قلبي حزين
وعببت حتى أبكت جيرانها^(١)
من كثر مانحت ناحوا لأحزانها
من نارها صارت تلطم بؤدانها^(٢)
حق الزرافة جاءتها منحمره
تيكى على الفيل الى مات في القنطرة

وكانت لدى هذا الزجال روح فكهة ولفات ذهنية بديعة ، إذ جعل زوجة الفيل هندية كما
جعلها تلطم بؤدانها ، أو آذانها ، واختار الزرافة لتساعددها في حزنها لما يبدو عليها دائما من تأمل
وحزن كأنما ضاع منها شيء . ويبدو أن الزجل ازدهر حيثذ بمصر . وفي دار الكعب مجلد نفيس
لأحوال زجل مصرية مطبوع بباريس .

وتظل الأزجال حية في الحقة العثمانية ومثلها المواليا ، وهى الفن الشعبي العامى الذى
استكلمته المصريون ومعروف أنه يخرج من بحر البسيط ، ونجدته في ديوان ابن الفارض الصوفى ،
واشتهر به في عصر الماليك أبو بكر بن العجمي حين كتاب الإنشاء في مطلع القرن التاسع الهجرى
وكان إمام فن المواليا^(٣) لزمته وضروبه المتشعبة ، ومن موابياته :

للحب قالوا معتك الذى اذبلتو جدلوا بقبله فقلبو فيك خيلتو
فقال أقسم لو أن البوس سبلتو ومات ، للشرق مايرتو وقبلتو^(١)

قد تكون من القبلة بضم القاف وهو المعنى المتبادر لبقها
بكلمة البوس ، وقد تكون من القبلة بكسر القاف أى
مأذارة نحو القبلة بعد موته وهو المعنى المراد .

- (١) عبط : بكت .
(٢) ودانها بالعابة : آذانها .
(٣) خزنة الأدب ص ٤٣ .
(٤) درنو : كلمة حامية أى أدرته . وفي قبلتو تورية لأنها

وتظل المواليا حية في أيام المالك وأيضاً في أيام العثانيين . وكانت توزعها منذ القرن السابع الهجري الأنواع التي مرت في الزجل وهي : البقي ، وموضوعه الغزل وقد تصحبه الخلاعة ، وأنشد الجبرتي من أمثله الغزلية البارعة قول الشيخ شمس الحفني الشافعي الخَلَوْنِ :

خَطَرُ عَلَى غَزَالِي مَرَّ مَا أَتَكَلَّمُ فَوْقَ جُفُونِهِ وَقَلْبِي وَالْحِشَاءُ أَكَلَّمُ
إِيشُ كَانَ يَضْرَهُ إِذَا بِالرَّاسِ لِي سَلَّمَ حَتَّى أَسْرَّ مَهْجَتِي لَوْلَا السَّلَامُ سَلَّمَ

والنوع الثاني القرقيبا وينظم في المزل والفكاهة وما يتصل بها ويسوق الجبرتي منه مثل قول حسن شمه .

قَالُوا تَحِبُّ الْمُدْمُسُ؟ قُلْتُ بِالزَّيْتِ حَارٌّ وَالْعَبِشُ الْإِيضُ تَحِبُّهُ قُلْتُ وَالْكِشْكَارُ
قَالُوا تَحِبُّ الْمَطْبُقُ؟ قُلْتُ بِالْقَنْطَارِ قَالُوا أَشْ تَقُلُّ فِي الْخَضَارَى قُلْتُ عَقْلُ طَارِ

والقول المدمس طعام شعبي لأهل مصر ومثله الكشك ، والمطبق نوع من الرقاق عشو بالنقل والسكر ، أما الخضار فن طيور البحيرات . والنوع الثالث من المواليا المكفر وينظم في الحب الإلهي والمديح النبوي والمواظ وفي ديوان ابن الفارض منه أمثلة متعددة . ويسوق منه الجبرتي قول الشيخ شمس الحفني أو الحضاوي وهو مواليا يمكن قراءتها مرة على هذا النظم .

بَاقِهِ بِأَقْلَبُ دَعَّ عَنْكَ الْهَوَى وَاسَلَّمَ مِنْ كُلِّ مَيْلٍ وَوَفَى عَهْدِهِمْ أَسَلَّمَ
وَالزَّمْ حَمِي سَادَةٍ مِنْ أَمَّهُمْ يَسَلَّمَ وَاسَلَّمَ سَبِيلَ التَّقَى يَوْمَ الْفَقَا تَسَلَّمَ

ويقول صفى الدين الحلبي إن القوما خاصة بسجود رمضان من قول المغنين في آخر كل بيت فيها
« قوما قوما للسجود » . أما الكان وكان فالشطر الأول من البيت فيه غالباً يكون أطول من الشطر الثاني وهو خاص بالحكايات والخرافات والمراجعات فكان قائله يحكى ما كان وكان . ويقول إن
فن القوما وكذلك فن الكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق ^(١) . ويحكى ابن تغري بردي منه منظومة في وقعة قوصون ساقى الناصر بن قلاوون وما كان من قتله ، وهي تستهل على هذا النظم ^(٢) :

مِنْ الْكَرْكُ جَانَا النَّاصِرُ وَجَبَّ مَعَهُ أُسْدُ الْغَابَةِ

ووقفك يا أمير قوصون ما كانتِ آلا كذابة

ويبدو أن المصريين حاكوا فن القوما العراق أيضا ، إذ نرى الجبرقى فى الحقبة العثمانية يتوقف مرارا ليقول إن هذا الشاعر أو ذاك كان ينظم فى الزجل والقوما والكان وكان والمواليا والبليق^(١) . ونقف قليلا عند بعض أصحاب هذا الشعر الشعبي العامى .

إبراهيم^(٢) الممار

هو جمال الدين إبراهيم بن على الممار ، يقول فيه صاحب فوات الوقيات : « إبراهيم الحائك وقيل الممار وقيل الحجار عامى مطبوع تقع له التوريات المليحة المتسكنة لاسيا فى الأزجال والبلاليت » ويقول الصفدى : « عامى مطبوع تقع له التوريات المليحة المتسكنة المطبوعة الجيدة ولاسيا فى الأزجال والبلاليت ، بحيث إنه فى ذلك غاية لاتدرك ، أما المقاطيع الشعرية فإنه يقعد به عنها مراعاة الإعراب وتصريف الأفعال » ويقول ابن تغرى بردى : « كان ذكى الفطرة قوى القرعة لطيف الطبع » ويقول ابن حجر : « كان يلزم القناعة ولا يتردد إلى أحد من الأكابر إلى أن مات فى الطاعون سنة ٧٤٩ ومن قوله فيه قبل موته .

فُجِعَ الطاعون داءً فُقدتْ فيه الأُحبة
بيعتْ الأنفسُ فيه كلُّ إنسانٍ بحُبه

وفى كلمة « حبة » تورية واضحة لأن الطاعون يصحبه دمل كبير ، وله توريات كثيرة كما قال من ترجموا له ، من ذلك قوله :

ياقلبُ صبرا حلَّ الفراق ولو رُميتَ ممن نحبُ بالبَّينِ
وأنتَ يادمعُ إن ظهرتَ بما يُخفيه قلبي سقطتْ من عيني

وفى كلمة « سقطت من عيني » تورية إذ لا يريد معناها القريب وهو تحدر الدمع من عينه وإنما يريد معناها المعروف فى العامية إلى اليوم وهو أنه ضاع ولم تعد له مكانة . وكان الناصر بن قلاوون

والوفاء ١٧٣/٦ والدرر الكاشنة لابن حجر ٥٠/١ وتاريخ

ابن لياس فى مواضع متفرقة وخزانة الأدب ص ٣٨٥ .
وله زجل مسجون فى كتاب عقود الليل للتساجى

(١) انظر الجليل ٢٩٠/١ .

(٢) انظر فى الممار وترجمته ونشأته فوات الوقيات
٥٥/١ والنجم الزاهرة ٢١٢/١٠ وللبل الصافي ١٧٤/١

يألفه وبقره منه لطرافة تورياته وله في زوجه مداعبا :

لَا جَلَّوْا عِرْسِي وَعَابَتْهَا وَجَدْتُ فِيهَا كُلَّ عَيْبٍ يُقَالُ
فَقُلْتُ لِلدَّلَالِ مَاذَا تَرَى ؟ فَقَالَ : مَا أَضْمَنُ إِلَّا الْحَلَالَ

والدلال : جالب العروس ، ولكلمة الحلال معنيان : ضد الحرام والمباح . ومن تورياته مداعبا بعض من أمر بصفحه ، فحتى في هذا الموقف يفزع إلى التورية قائلا :

مَا كَانَ صَفْعُ بِالرِّضَا لَكِنَّهُ مِنْ خَلْفِ أَذْنِي
لَوْلَا يَدُ سَبَقَتْ لَهُ لِأَمْرَتِهِ بِالْكَفِّ عَنْهُ

وفي البيت الأول تورية في كلمة « من خلف أذني » إذ تحمل معنيين هما القفا موضع الصفع وعدم الاكتراث . وفي البيت الثاني تورية في كلمة « يد » إذ لها معنيان هما النعمة والصفع باليد ، وبالمثل لكلمة « الكف » معنيان هما : الانصراف عن الشيء والصفع بالكف . ومن تورياته :

وِخَادِمٍ يَطْلُو عَلَى عَشَاقِهِ بَرْتِيَّةٍ مِنَ الْجَمَالِ نَالِهَا
وِإِسْمُهُ - وَهُوَ الْعَجِيبُ - مُحَسَّنٌ وَكَمْ دُمُوعٍ فِي الْهَوَى أَسَا لَهَا

وفي كلمة « أسالها » تورية إذ تحمل معنى قريبا هو إسالة الدمع ومعنى بعيدا من الأسى وهو الحزن كأنه يرق لحبيه حين يرى دموعهم ويحزن لهم . ومن لطائف تورياته :

مَا مَعْرُ إِلَّا مِثْلُ مُسْتَحْسَنٍ فَاسْتَوْتَنُوهُ مَشْرِقًا أَوْ مَقْرِبًا
هَذَا وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ بِهِ فَنِيْمُوا مِنْهُ صَعِيدًا طَيِّبًا

وقد اقتبس الشطر الأخير من الآية القرآنية : (فَنِيْمُوا مِنْهُ صَعِيدًا طَيِّبًا) وهو لا يريد معنى الصعيد في الآية وهو وجه الأرض وإنما يريد صعيد مصر ووجهها القبلى ، وهى تورية بدعية ، ومن ذلك قوله :

حَزَنَ الْخَزَّانُ لَا أَنْ رَأَى نِيلَنَا قَدْ عَمَّ سَهْلًا وَجَيْلٌ
وَرَأَى الْأَرْضَ لَنَا قَدْ أَخْرَجَتْ سُبُلَاتِ ذَاتَ حَبٍّ فَاخْتَلِلَ
وَبِكَى إِذْ رَمِدَتْ أَعْيُنُهُ زَادَهَا اللَّهُ عَرُوقًا وَسَبَلٌ

والبل : داء يصيب العين بفشاوة كأنها نسج المنكبوت بعروق حمراء ، وهو لا يريد هذا المعنى فهو لا يريد الداء على الحزان وإنما يريد الداء لأرض مصر ونيلها وأن تزيد عروق قبح وسبل كما تقول العامة أو سنبلات . ومن تورياته :

شهرُ الصيام نولِي فراقه يومٌ عيدي
فقبل شيعٍ بستٍ فقلت أيضا وسيدي

وكلمة « ست » لها معنيان معنى قريب هو الأيام الستة البيض التي تصام نقلا بعد رمضان ، ومعنى ثان هو السيدة ، وقد وجه العبارة إلى هذا المعنى كما يشهد بذلك الشطر التالي . ولم يُعَنَّ كعب الأدب والتراجم برواية شيء من بلاليقه . ومن موابياته :

مَزَجْتُ يوما مع الحُبِّ الرشيْق القَدَّ وقلت آهِ على من قَبْلَكَ في الحَدِّ
فكَلَّ سيفو من أَجْفَانو لقتلِ حَدِّ قلت انتهى الأمر يا حَبِيبِي لهذا الحَدِّ
وفي كلمة « الحد » الأخيرة تورية إذ لها معنيان : العقوبة مثل كلمة الحد السابقة ، والنهاية المفرطة . ومن موابياته أيضا :

رمى ، أصاب صميمَ القلب زين الزَّينِ وَأَصْبَحْتُ مُضْنَى قَلْقٍ أَخْشَى حلولَ الحَبْنِ
وكنْتُ قَبْلُ خَلِيٍّ لم أَشْكُ وشكَّ البينِ سالمٌ من العشق حتى صابني بالعينِ
ولكلمة « صابني بالعين » معنيان هما الحسد ، وإصابة المحب لهجوه بعينه وسهامها القاتلة . وله موابيات وأشعار مفعشة كثيرة كان يقولها نظرفا لأهل زمنه .

الغُبَارِي (١)

هو خلف بن محمد الغُبَارِي عاش في القرن الثامن الهجري ، وكان فقيها وعالما وأديبا وشاعرا ينظم الشعر الفصيح ولكنه اشتهر بنظم الزجل . ونرى السلاطين منذ الناصر بن قلاوون يقربونه منهم ، كما نراه ينظم أرجالا مختلفة في أحداث مصر ، ولا يعرف تاريخ وفاته ، ويقال إن مثذنة

النواحي ص ٢٥٥ وكتاب « الزجل والرجالون » لأبي بينة ص ٢١ .

(١) انظر في الغُبَارِي تاريخ ابن راس في مواضع متفرقة من القرن الثامن الهجري ، وراجع زجلا له في عقود اللآل

المسجد بقلمة الجليل سقطت عليه فأت ودُفن تحت أنقاضها ، وهو يعد أستاذ فن الزجل لزمه ،
فمنه تلقاه كثير من المصريين ، ويبدو أنه نظم في موضوعات كثيرة : في المديح والثناء والأحداث
السياسية ، ومن زجل له في مديح السلطان شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ) وكان محبوبا من رعيته :

حُبَّ قلبي شعبان موثق رشيد وجمالو أشرق ومالو حدود
وأبوه الحسن وعمه الحسين وارث الملك من جُودود لجودود
زَهَقِي السعد بين يديك شاويش فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصَّب لك كرسي على الملكة وظهر لك نصره بفتح المين
والعصائب من حولك اشالت - خفقت في الركوب عليك - البنود
فاحكم احكم في مصر ياسلطان فجميع الجنود لحسنتك جنود

والشاويش : رتبة عسكرية ، ويريد الغباري أن السعد مثل بين يدي السلطان شعبان مؤثرا
بأمره ، ويقول إن العصابات أو جماعات الفرسان والرجالة اشالت أى رفعت البنود والأعلام
كتابة عن أنه أصبح في مصر صاحب الأمر والنهي والسلطان . ونراه متصلا بابنه السلطان على
(٧٧٨ - ٧٨٣ هـ) ناظرا الأزجال في الأحداث الكبرى لأيامه ، من ذلك زجل طويل نظم في
وقعة الريان بالبحيرة القريبة من الإسكندرية ، وفي مطالعه يقول :

جا الخبر يوم الأربعاء بأنو في ليلة الأحد
جا دمنهور عرب غلوا سوقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم هو الذي للجميع حذو
فبرز أينمش سريع بمالك وجند توب
وعُدِد ماها عدد ويطلبوا لهم طلب
حضرُوا ما التقوا أخذ من جميع العرب حضر

وله وراء ذلك أزجال كثيرة في النصائح والوصايا والحكم ، ولعلها أروع مما أنشدناه ، إذ
كانت تفصل من روحه ومن خبرته بالحياة ، وكأنما يريد بها إلى حسن التربية وإحكام السلوك
والانتفاع بخبرة الآباء والأسلاف وبمجاربهم في الحياة ، من مثل قوله في زجل طويل :
في الناس رأينا للخير معادن والدر يوجد في كثر مثله

وَأَنْ رُمَتْ جَوْهَرٌ فِي الشَّخْصِ مَكْنُونٌ فَجَوْهَرُ الشَّخْصِ حَسَنٌ فَمَعْلُومٌ
وَأَنْ كَانَ تَرِيدَ صَحَّةَ الْمَعَانِي وَشَرَحَ مَا فِي الْبَيَانِ مَحْرُومٌ
خُذْ فِرْعَ يَأِيدُكَ مِنْ أَوَّلِ حَتِّظَلٍ وَازْرَعْ جَذْوَرَهُ فِي أَرْضِ عَتَبٍ
وَاسْقِهِ بِمَاءِ بَانَ وَوَرَدٍ مَمْزُوجٍ وَعَقِدْ جُلُوبَ وَحَلٍّ سَكْرٍ^(١)
وَحِينَ تَشُوقُهُ عَقْدَ ثَمَارِهِ وَأَنْ أَوَانَهُ وَحَلٍّ فَصْلُهُ
فُوقَهُ نَرَاهُ مَرٌّ وَالسَّبَبُ فِيهِ مَا يَرْجِعُ الْفِرْعَ إِلَّا لِأَصْلِهِ

ولغة هذا الزجل تختلف عن لغة الزجلين السابقين ، فهي أكثر خفة وقربا من اللغة العامية المصرية ، وليس ذلك فحسب فهي تكتظ بالصور والاختلة البديعة ، وكأننا بازاء شاعر بارع يحسن تأليف الصور وإيرادها في موضع البراهين الساطعة ، ومن طريف حكمه ووصاياه في هذا الزجل نفسه قوله ناصحا صادقا :

لَا تَخْتَصِرْ أَيَّ ابْنِ آدَمَ فِي طَوْلِ حَبَاتِكَ وَلَا تَنْمُهُ
كَمْ حَيٍّ خَامِلٌ يَقُولُ عَلَيْهِ مَا يَعْرِفُ اسْمَ الْبَيْمِ مِنْ اسْمَةٍ
وَأَنْ جِيتَ صَاحِبَتَهُ فِي يَوْمٍ بَيَانٍ لَكَ تَظْهَرُ مَعَارِفُهُ وَيَنْجَلِي عِلْمُهُ
وَيَشَبُهَ الرُّوضُ حِينَ يَلُوحُ شَوْكُهُ وَالْوَرْدُ مَسْتَوِدٌ مِنْ تَحْتِ مِيلُهُ
وَالْبَحْرُ تَلْقَى الرَّمَمَ نَعُومٌ بِهِ وَالذَّرُّ غَابِصٌ مَغْلُوطٌ بِرَمْلُهُ

وهي وصية نفيسة أن لا يبادر الإنسان إلى الحكم حكما سريعا على شخص دون تبين حقيقته ومعرفة جواهره ، والنَّلُّ في العامية : الشوك . ويمثل هذا الزجل كان الغباري إمام فنه في زمنه غير مدافع .

(١) البان : شجر ينفود الأغصان تشبه به الحسان .
والجلاب : ماء الورد والزمهر .

ابن^(١) سودون

هو على بن سودون أکبر شخصية شعبية فکهة في القرن التاسع الهجري عُنى في بواکیر حياته بحفظ القرآن الکریم ومحبصیل العلوم والمعارف حتى أصبح شیخاً فقیهاً ، ومُتِّحاً إماماً بأحد المساجد في القاهرة ، وكان فيه ميل متأصل إلى الفكاهة والهزل وقدرة على نظم الأشعار المازلة الفکهة . فشغف الناس به ، وتنافسوا في رواية أشعاره ودعاباته . ولم يلبث أن عُنى بجمعها وأضاف إليها بعض حکایات فکهة مکتونا من ذلك کتابه "أو دیوانه" : "نزهة النفوس ومضحک العیوس" وجعله في خمسة أبواب : الباب الأول في القصائد والتصادیق ، ويقصد بالتصادیق مقدماتها وهي قصائد نُظمت بالفصحی ، والباب الثاني في الحکایات الملافیق وواضح من اسمه أنه أقاصیص قصیرة ، والباب الثالث في الموشحات المبالیة كما یقول وهي بالعامة ومثل هذا الباب باب الزجل والموالیا التالی فهو أيضا عامی اللغة . أما الباب الخامس فجعله للطرف العجیبة والتحف الغریبة ، وكأنّ البابين الثالث والرابع هما الخاصان بالشعر الشعبي العامی وإن كانت العامة عنده تتسرب إلى الباب الأول : باب القصائد ، ومن الطریف أن عامیته شعرا ونثرا تقترب جدا من عامیتنا الحديثة ، وقد یكون في ذلك ما یشیر إلى أن مصر بلد محافظ . وبدون ریب یصور ابن سودون في کتابه مزاج المصریین الفکة . وفکاهته تقوم على ضروب من المفارقة المطلقة . تجعلک تشعر بغير قليل من فقدان التوازن على شاکلة قوله في وصف الریع وجمال طبیعته :

إلى الریع أرى الأهواء تلونى	لما بدا زهره في حسن تلونى
قد عطر الأرض نشر الفول حين سرت	نسيمة سحرا منه تحيى
كان زهرته أم الخلول إذا	فلقتها فوق نفع بصحنون
وكاد يشبه تاج القمح بامية	لولا شعور كأعراف البراذين ^(٢)
واعجب من الماء وسط البحر كيف غدا	يمشى بلا قدم سحبا على الطين
مسللا قد جرى بإصاح منطلقا	فاعجب لمن جمع الصلین في حين

نزهة النفوس ومضحک العیوس مطبوع في القرن الثامن عشر وطبع حديثا .
(٢) البراذین : جمع برفون وهو البخل .

(١) انظر في ابن سودون شذرات الذهب ٣٠٧/٧ ومقاتلین لا في تحليل دیوانه مجلّة الکاتب العدیدین رقم ١٠ ، ١٢ وراجع کتابنا الفكاهة في مصر ص ٦٧ وديوان

ومن يراه يتحدث عن الربيع والزهر في البيت الأول يظن أنه سيستمزج في الحديث عن الجبال
 الحاج في الطبيعة وأزهارها وورودها ورياحيتها ، وإذا هو يسقط به إلى النشر الفائح من نبات
 القبول وإلى زهره الذي يشبه صَدَقَة أم الخلول التي يَطْعَمُها المصريون واضمين على الخلول النعناع
 والبهارات . أما القمع فتشبه سنابله البامية : الخضار المعروفة ، لولا ما يتدلَّى من سنابله من شعور
 كأعراف البغال والحيل . ويعجب عجا لاحت له من جريان الماء على الطين ، ويسمى الماء
 سلسلا إذا جرى منحدرا . ويستغل الكلمة ابن سودون إذ لما هذا المعنى ومعنى ثان من السلسلة
 بمعنى مقيدا بالسلاسل .

ونحن في أثناء ذلك كله نضحك ، لما أصاب توازننا المنطق من اختلال ، وكأنما الأشياء تهوى
 أمامنا من حائق . ومن ذلك قوله .

عَجِبُ عَجِبُ هَذَا عَجِبُ بَقَرَا تَمْشِي وَلَهَا ذَنْبُ
 وَلَهَا فِي بُزْزِزْهَا لَبَنُ يَبْدُو لِلنَّاسِ إِذَا حَلَبُوا
 مِنْ أَعْجَبَ مَا فِي مَصْرِ يُرَى الْكَرْمُ يُرَى فِيهِ الْعَجِبُ
 وَالتَّحْلُ يُرَى فِيهِ بَلَحُ أَيْضًا وَيُرَى فِيهِ رُطْبُ
 وَالْمَرْكَبُ مَعَ مَاقِدٍ وَصَقَّتْ فِي الْبَحْرِ بِجَلٍ تَنْحَبُ
 وَالنَّاقَةُ لَا مَنَقَارَ لَهَا وَالْوَزَّةُ لَيْسَ لَهَا قَتَبُ

وحين نقرأ قوله عجب ، نظن أنه سيعرض علينا بعض العجائب فإذا هو يعرض بدييات غاية
 في البدهة ، في صورة مفرقة من التباله . ونحس كأن عُدُونَا أصاب منطقنا أو وقع عليه ، فالبقرة
 تمشي ولها ذنب وضرع مملوء لبنا ، وشجر الكرم يحمل العنب ، وعلى النخل البلح بُسْرًا ورطبًا ،
 والملاحون يجرّون بجبالهم المركب الموسوق ، والثاقه لا متفار لها وكأنه كان يظنها يحسبها الضخم من
 الطير . ويظن الإوزة من الإبل تمشي على أربع ، ويتساءل عن قتها أو رحلها . وكل هذه
 مفارقات تمتد على منطقنا فنفقد توازننا ونستغرق في الضحك لهذا الهزل الذي يُلْقَى فيه المنطق
 الشديد إلقاءً .

ومن طريف هزل ابن سودون ومفارقاته المنطقية المتناهية في الإضحاح . وصفه لحفل زواجه
 وقيح زوجته على هذا النمط :

حَلُّ السُّرُورُ بِهَذَا الْعَقْدِ مَبْتَدَا وَنَجْمُ طَالَمَهُ بِالسَّعْدِ قَدْ ظَهَرَ

وه القُلُّ، كُلُّ وَجْهٍ الْأَرْضِ فَاثْمَطَتْ
وَالطَّيْرُ مِنْ فَرْحِهَا فِي دَوَّحِهَا صَدَحَتْ
تَقُولُ فِي صَدْحِهَا : دَامَ الْهَنَا أَبَدًا
هَذَا وَعَقْلُ عَرُوسِي كَانَ أَصْفَرُ مِنْ
فِي السَّنِّ قَدْ طَمَعَتْ مَاضِرٌ لَوْ طَمِعَتْ
فِي وَجْهِهَا نَسَتْ فِي أَذْنِهَا طَرَشُ
يَا حَسَنَ قَامَتَا الْعَوْجَا إِذَا خَطَرْتُ
تَظَلُّ تَهْتَفُ لِي : حَسَا حَظِيَّتْ بَهَا

وهو في أوائل الآيات يجعل السعد رفيقا له كما يجعل الطبيعة ترقص طربا لزفاته على عروسه ،
فالأشجار تنثر أزهارها فرحا والطير تصدح على أعوادها داعية للعرسين بدوام الهنا أبدا . وفجأ
بعد ذلك بمفارقة منطقية شديدة ، فالعروس عجوز شمطاء صماء في وجهها نَمَشٌ وفي عينيها
عمش وقد حَتَّى قَامَتَا المَرْمُ . ومع كل هذا القبح تظل تهتف به أن يحمده الله على حظوته بها ،
ويحمي لَوُطَعَتْ سيف أو حازها الموت ودفت في التراب إلى غير مآب .

وعلى نحو هزل ابن سودون في تصويره لحفل قرانه نراه يهزل في رثائه لأمه هزلا ، يبعث على
الابتسام بل على الضحك والإغراق فيه ، يقول :

لَمُوتِ أُمِّي أَرَى الْأَحْزَانَ تَحْنِنِي
وَطَلَلَا دَلْعَنِي حَالُ تَرْيِينِي
أَقُولُ : « مَمَّ مَمَّ » تَجِي بِالْأَكْلِ تُطْعِمُنِي
تَقُولُ « هُوَهُو » يَهْزُ كَي تَنْشِينِي
كَمْ كَحْلَتْنِي وَلِي فِي جِبْهَتِي جَعَلْتُ
وَمِنْ فَجْبِي إِنْ أَهْرَبَ وَرَامَ أُنِي
وَزَعْرَدَتْ فِي طَهْرِي فَرْحَةٌ وَغَدَتْ
وَخَلْفَتْنِي بِنَا ابْنُ أَرْبَعِي
فَطَلَلَا لَحَحْتَنِي لَحَسَ تَحْنِنِي
خَوْفَا عَلَى خَاطِرِي كَي لَا تَبْكِينِي
أَقُولُ : « أُمُور » تَجِي بِالْمَاءِ تَنْقِينِي
تَقُولُ « هُوَهُو » يَهْزُ كَي تَنْشِينِي
« صَوُورُ بِنْيَلِي » وَكَمْ كَانَتْ تَحْنِنِي
مَسْكِي وَبَقِي لَهُ كَانَتْ تَحْنِنِي
تَنْثُرُ الْمَلْحَ مِنْ فَوْقِ وَتَرْقِنِي
وَأَرْبَعِينَ سِنِينَ فِي حِسَابِي

والمرثية طويلة اقصرنا منها على هذه الآيات وكلها على هذا النحو عدوان على ما تألف في
الرثاء عامة ، إذ بدلا من أن يحمل كل بيت صرخة ألم أو دعة حزن تتحول المرثية كلها هزلا

ودعابة . وكأنما ينظمها في عيد من أعياد أمه فهو يذكّرها بأيام طفولته وكيف كان يقول لها « مَم » فتأتي له بالطعام « وأُنبِوه » فتأتي له بالماء ، وكيف كان ييكي على صدرها وهي تنزه في حنان ، كما يذكّرها بأيام صباه ، وكيف كانت تدلّي من شعره تعويذة على جبينه ، وكيف كانت تحبّه حين يهرب من الكتاب . ويذكّرها بيوم يختانه وزغاريد هافيه وكيف كانت تنثر فوقه الملح بركة ، وترقيه من شر كل ما يؤذيه . وكل هذه مفارقة شديدة للثناء وموقف الموت الوقور الحزين ، فإذا ابن سودون يهزل فنضحك ونشاهد معه في الضحك . وقد جاء في المروية ببعض كلمات الأطفال ، وهو يكثر من لحنهم في هزله كقوله :

ولما أن كبرتُ بحمد ربّي وصار لِمَتَّهِ عقل ابتداء
بقيتُ أقول : نُو نُو تاتّة ودَحُو كخْ وأُنبِوه مَم آه

والكلمات كلها من لغة الأطفال قبل نطقهم بالكلام ، ومعنى كلمة دح في اللهجة المصرية العامية حسنا كلمة كخ قبيح ولا تفعل . والحق أن ابن سودون كان جَمْعَ هزل وفكاهة ، وقد بتى فكاهته على المفارقة المنطقية فتحس دائما بعدوانه على منطقنا يلاهته ، ونشعر كأنما الأشياء من حولنا تَهْوِي من أبراج عالية ، هي أبراج المنطق والعقل الواعي ، فنضحك ونترسل في الضحك .

الفضل الخراساني

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

ظلت مصر في عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين لا تعرف من الدواوين سوى ديوان الخراج والبريد ، وكانت الكتابة في الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرب في عهد الوليد بن عبد الملك ، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يحلبهم الولاة معهم من العراق ^(١) ، وبحق يقول القلقشندي إنه « لم يصدر عنهم ما يدون في الكتب وتنقله الألسنة » ^(٢) . ومرجع ذلك - كما لاحظ - أن الولاة لم يهتموا حينئذ باتخاذ ديوان للإنشاء . يوظف فيه كتاب مجيدون وتصدر عنهم رسائل محبرة .

حتى إذا ولي مصر أحمد بن طولون وأسس بها دولته الطولونية وامتد سلطانه إلى الشام وعلا شأنه أقام ديوان الإنشاء ورفع مقداره كما يقول القلقشندي ^(٣) ، واتخذ فيه جماعة من مهرة الكتاب على رأسهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم ابن عبد كان . ويشهد اسمه بأنه فارسي الأصل ، إذ الكاف في الفارسية القديمة تدل على التصغير والألف والنون على النسبة ، فبعد كان يقابلها في العربية عيدي . وقد ظل قائما على ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن طولون في عهد ابنه خماروية حتى توفي فخلفه على الديوان إسحق بن نصير الكاتب البغدادى .

وابن عبد كان يتدبّر بمصر سلسلة كتبها المشهورين ، ودوت شهرته منذ زمت لا في مصر وحدها بل أيضا في العراق ، إذ تجده بعد نحو قرن من الزمان يُقرن إلى أبي إسحق الصائى كاتبها حينئذ . وإذا رجعنا إلى رسائله الديوانية وجدناه يُعنى فيها بالسمع ، وقد يتخفف منه فيستخدم

(٢) صبح الأمنى ٩٥/١

(١) انظر كتابه « الفن ومناهجه في النثر العربي » (طبع

(٣) صبح الأمنى ٩٥/١ و ٢٨/١١ .

دار المعارف) ص ٣٤٥ وما بعدها .

الازدواج من حين إلى آخر ، وسجعه خفيف . ويمده بغير قليل من التصاوير^(١) ، وتوقف القلقشندى في كتابه صبح الأعشى ليدكر عنه كيف وضع رسوم الدعاء في افتتاح الرسائل وكيف تبدئ أجوبة الكتب^(٢) . وكان أهل بغداد في زمنه يخطون عليه مصر ، ويقولون إن بها كتابا - يقصدون ابن عبد كان - ليس لأمر المؤمنين بمدينة بغداد مثله^(٣) . وكانت رسائله متداولة بين الكتاب حتى زمن ياقوت في القرن السابع الهجري^(٤) .

ونغصى إلى زمن الدولة الإخشيدية وقد ترتب ديوان الإنشاء وكثر الكتاب فيه ، غير أن أحدا منهم لم يشتهر شهرة ابن عبد كان ، ومن كتاب الديوان حيث ذكر إبراهيم بن عبد الله النجيري ، واشتهر برسالة طويلة له ، ردّها على رومانوس حاكم يزنطة ، وكان قد أرسل إلى الإخشيد رسالة يفخر فيها ويمنّ عليه بأنه كاتبه وعادته أن لا يكتب إلا خليفة ، فكان له النجيري الصاع صاعين ، ولإعجابه برسالة كتب منها نسخا وأرسلها إلى العراق مفاعرا بها مباحيا^(٥) .

ويستولى الفاطميون على مقاليد الأمور بمصر منذ منتصف القرن الرابع الهجري وبمعظم ديوان الإنشاء في زمانهم لاتساع دولتهم من أقاصى المغرب إلى نهر الفرات وامتداد سلطانهم إلى الحجاز واليمن وأبضا لأنهم كانوا أصحاب نخلة شعبة غالية اتخذوا لها دعاة كثيرين في العالم العربي ونظموا الدعوة لها تنظيما دقيقا ، فكان من الطبيعي أن يهتموا اهتماما واسعا بديوان الإنشاء القائم على كل شئون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية ، وفي ذلك يقول القلقشندى : « لما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتبه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، ووليه عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغاتهم ما بين مسلم وذمى^(٦) » . وكانت لصاحب هذا الديوان منزلة كبرى لدى الفاطميين ، فكان لا يتولاه - كما يقول القلقشندى - إلا أجل كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجل ويلقب بكتاب الدُسْت ، والدست صدر المجلس إشارة إلى أنه في الصلح من مناصب الدولة ، وكان أول أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطقات .. وله حاجب من الأمراء والشيوخ ، وله في مجلسه المرتبة العظيمة والمخاد والمسدند والدواة العظيمة

(١) الفن وملامحه في النثر العربي ص ٣٤٩ وما بعدها . (٥) المغرب في حل المغرب لابن سعيد : القسم الخامس

(٢) صبح الأعشى ١٦٠/٨ وما بعدها . بالقساطر (طبع جامعة القاهرة) ص ١٦٧ وما بعدها .

(٣) صبح الأعشى ١٧/٣ . (٦) صبح الأعشى ٩٦/١ .

(٤) معجم الأدباء ٨٥/٦ .

الشان ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة^(١) . وكانت تساعد طائفة من الكتاب البلغاء . وبلغ من اهتمام الفاطميين بهذا الديوان أن ألحقوا به دائما أكبر النحاة واللغويين في أيامهم لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان ، ومن اختاروه لذلك ابن بابشاذ كبير نحاة مصر ولغويها في القرن الخامس الهجري وخلفه في مكانه ابن بركات من تلاميذه ، حتى إذا توفى خلفه ابن برى اللغوي المشهور ، إلى نهاية أيام الدولة الفاطمية^(٢) . وكان يلتحق بالديوان بعض الشباب للتدريب فيه على تجويد الكتابة ، حتى إذا جودها شاب وأتقنها أصبح من كتّابه على نحو ماحدث^(٣) للفاضل الفاضل بأخرة من زمن الفاطميين .

وظل للديوان الإنشاء مكانته في عهد الأيوبيين ، وبتولاه لصلاح الدين الفاضل الفاضل مع قيامه على وزارته ، ويشرك معه العاد الأصماني في الكتابة ، وكان صاحب الديوان حيثذ يسمى كاتب اللشنت وكاتب اللزج وهو الورق الذي يكتب فيه . واتسع عمل هذا الديوان اتساعا كبيرا في عهد المالك ، مما جعل الظاهر يبرس بعين ثلاثة كانوا أصحاب اللشنت ، حتى إذا تحولت السلطة إلى قلاوون سمي صاحب الديوان كاتب السر^(٤) . ورفع منزله فوق كتاب اللست . وجعلهم أعلى درجة من كتاب الدرج ، وكان في كل ولاية كبيرة لمصر ديوان إنشاء : في الإسكندرية وفي دمشق وغير دمشق . وظل هذا الديوان قائما إلى نهاية عصر المالك ، حتى إذا تبعت مصر الدولة العثمانية ضاعت منزلته نهائيا وأصبح أثرها بعد عين .

وفي صبح الأعشى للقلقشندي ثبت بأسماء من تولوا رئاسة هذا الديوان حتى زمنه^(٥) سنة ٨٢١ وأضاف إليه ابن تغرى بردى من تولوه حتى أيامه^(٦) سنة ٨٦٥ وأتمه السيوطي حتى نهاية القرن التاسع الهجري^(٧) ، ووراء هؤلاء الرؤساء كتاب كثيرا ما بذوا من كانوا يكتبون بين أيديهم وهم كثيرون . ومرتبنا أن ابن عبد كان الذي وضع رسوم الكتابة الإنشائية بمصر لزمن الطولونيين كان يعنى بالجمع فإن تركه ظل صور من الازدواج ، وظل كتاب الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجري يترسمون طريقته ، فهم يسجمون ويزاوجون على نحو ما يلاحظ في الكتب التي كانت تصدر عن المعز والعزیز ، ويبدو أن ابن سورين المسيحي كاتب العزيز والحاكم كان يعنى بالجمع

(١) صبح الأعشى ١٠٢/١

(٥) صبح الأعشى ٩١/١ وما بعدها

(٢) انظر كتابنا المدارس النحوية ، طبع دار المعارف

(٦) النجم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٣٤/٧ وما

بعدها

ص ٣٣٨

(٧) حسن المجاهرة ٢٢٠/٢

(٣) ابن خلكان ٢٢٠/٧

(٤) السلوك للسقري ٦٦٦/١ وابن تغرى بردى ٣٣٢/٧

كثيراً^(١) ، وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجري ، وجدنا كتابا يصدر على لسان الخليفة الظاهر سنة ٤١٤ مسجوعا كله ، وربما كان الذي كتبه أحمد بن علي بن خيران الملقب بولي الدولة ، وكان يلى ديوان الإنشاء في عهد الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) والمتنصر إلى وفاته سنة ٤٣١ ، وكان كاتباً شاعراً ، وكان يعتد بشعره وكتابه مما جعله يرسل إلى الشريف المرتضى ببغداد جزءاً من شعره ورسائله ليعرضها على الأدباء هناك ، فإن استحسوها أدخلها له بمكة دار العلم ، وأعجب هلال بن الحسن الصائغ - فيما يبدو - برسائله^(٢) . ويقول ابن سعيد في المغرب : « وقفت على رسائله في مجلدين . وأكثرها من طبقة المفسول »^(٣) . ويسوق له رسالة عن الظاهر مسجوعة ، ويبدو أن ابن سعيد بالغ في الحكم عليه ، أو لعله وجد عنده السجع فقط ولم يجد سجعاً يزدان بألوان البديع ، ولذلك قال إن رسائله مفسولة أى من زينة البديع ومحسناته ، ومع ذلك فقد روى له قوله في فصل من إحدى رسائله : « وكان قلمك يجف^(٤) ولا يجف^(٥) ، وسيفك من ذوى العناد يكف^(٦) ولا يكف^(٧) ، ووزنك في سدّ ثلم الفساد يرجع ولا يجف^(٨) . والجناس واضح بين يجف^(٩) ويجف^(١٠) وبين يكف^(١١) ويكف^(١٢) وقد طابق بين يرجع ويجف مما يدل على أن ابن خيران لم يكن يحلّ سجعاً من محسنات البديع ، فهو ليس مفسولاً دائماً كما يقول ابن سعيد .

ولعل أهم كاتب خلف ابن خيران يديوان الإنشاء في القرن الخامس الهجري ابن أبي الشخاء ولم يكن من رؤساء الديوان بل كان من الكتاب فيه ، وسترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . واشتهر ابن الصيرفي في أثره إذ تولى ديوان الإنشاء في عهد الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وسترجم له عما قليل . وكان يكتب معه ابن قادوس المار ذكره بين الشعراء ، ومازال يرقى في الديوان حتى أسند إليه الديوان مع الموفق بن الحلال إلى وفاته سنة ٥٥١ . وكان يعمل معه لزمّن ابن الصيرفي الحسن بن زيد الأنصاري وهو حفيد ابن أبي الشخاء من قبل أمه ، وكان كاتباً بليغاً واحتفظ العهد الأصمعي بظانفة من رسائله الديوانية والشخصية^(١٣) . وقام على ديوان الإنشاء حتى نهاية الدولة الفاطمية للموفق بن الحلال وفي صبح الأعشى بعض رسائله^(١٤) ، وعلى يديه تخرّج القاضي الفاضل

(١) المغرب في حل المغرب (القسم الخاص بالقاهرة -

(٥) بكف : يسيل .

طبع مطبعة دار الكتب) ص ٢٤٩

(٦) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٧٣/٢ .

(٢) معجم الأدباء ٥/٩ وما بعدها

(٧) صبح الأعشى ٣١٠/١٠ و٣١٦ وانظر في ترجمته

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٢٤٧ .

الخريدة ٢٣٥/١ وابن خلكان ٢٢٠/٧ وشعرات الذهب

٢١٩/٤ .

(٤) يجف : يسرع . وفي الأصل يوجف

في صناعة الرسائل . وظل يرعى له حق التعليم والتخريج إلى أن توفي سنة ٥٦٦ للهجرة .
 وكان القاضي الفاضل صاحب ديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين وابنه العزيز ومقاليذ الأمور
 كلها بيده فأشرك معه العباد الأصحاب كما أسلفنا ، وسنترجم لها بعد قليل ، ومن كتاب الأيوبيين في
 عهد الفاضل ابن مماتي وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ، وكتب من بعدها للأيوبيين
 جماعة ، منهم البهاء زهير الشاعر الذي ترجمنا له ، ولم تؤثر له رسائل مدونة ، وأشرك معه إبراهيم
 بن لقمان لعهد الصالح نجم الدين أيوب . ولم يلبث الصالح أن أعفى البهاء ، وظل ابن لقمان حتى
 نهاية الدولة الأيوبية ، وامتازت الكتابة الديوانية في العهد الأيوبي بأنه تكوّن فيها مدرسة جديدة
 قادها القاضي الفاضل ، والحق أنها ليست جديدة خالصة ، فهي الثمرة النهائية لرقى الكتابة زمن
 الفاطميين ، إذ نرى الفاضل يكثر من المحسنات البديعة ، وكانت قد بدأت مع ابن خيران كما مر
 بنا ، وأضاف الفاضل إليها الإكثار من التورية ، وهي أيضا قديمة في الكتابات والأشعار الفاطمية
 منذ القرن الخامس على نحو ما مر بنا في حديثنا عن أشعار الشريف العقيل . وألف في العصر الأيوبي
 كتابان في دواوين الخراج وشئونها المالية هما كتابا قوانين الدواوين لابن مماتي ، وسنعرض له في
 ترجمته عما قليل ، وكتاب لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية لعثمان بن إبراهيم
 النابلسي ، وكان كتابا في دواوين مصر لعهد السلطان نجم الدين الأيوبي (٦٣٧-٦٤٨هـ) .
 وبلغنا إبراهيم^(١) بن لقمان على ديوان الإنشاء أيام المالك في عهد أيك وقطر ويبرس ومدة
 قليلة في عهد قلاوون ثم نقله إلى الوزارة ، وظل وزيرا لابنه خليل . ثم عاد كتابا في ديوان الإنشاء
 إلى أن توفي سنة ٦٩٣ . وكان يشاركه في عهد الظاهر بيبرس محي الدين بن عبد الظاهر ، وهو
 أهم كتاب المالك ، وجعله قلاوون كاتب السر ، وظيفته أنشأها لأول مرة ، وسنترجم لابن
 عبد الظاهر ، ومن كان يكتب بين يديه في الديوان ابنه فتح^(٢) الدين . وخلفه على كتابة السر
 لعهد السلطان خليل بن قلاوون ، وكتب بين يديه أيضا سيّطه شافع^(٣) بن علي بن عباس ، وهو
 الذي كتب عن السلطان قلاوون رسالة طويلة إلى السلطان أحمد القان بن هولاكو جواب كتاب
 كان قد أرسله القان إلى قلاوون يذكر فيه إسلامه وأنه حُرّم على عساكره الغارات على البلاد^(٤) .

٤١٩/٥ .

(١) انظر في ابن لقمان صبح الأعشى ١١١/١٠ والنجوم

الزاهرة ٥٠/٨

(٢) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٣٧٩/١ .

(٣) صبح الأعشى ٢٣٧/٧

(٤) انظر في فتح الدين حسن المحاضرة ٥٧٠/١ والنجوم

الزاهرة ٣٥/٨ وصبح الأعشى ٣٣٩/١٣ وشفرة الذهب

ويلمع في رياسة ديوان الإنشاء بمصر ودمشق منذ عهد السلطان خليل التوفى سنة ٦٩٣ حتى نهاية القرن الثامن غير كاتب من أسرة فضل الله العمرى . وأول من ولى كتابة السرمها أو بعبارة أخرى رياسة الديوان عبد^(١) الوهاب بن فضل الله العمرى ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى العقد الثانى من القرن الثامن إذ نقله الناصر بن قلاوون إلى دمشق ووليا بعده من الأسرة في سنة ٧٢٩ أخوه^(٢) محمى الدين يحيى ، وكان يشترك في كتابة السرايه شهاب الدين أحمد ، وفي سنة ٧٣٢ نقلها الناصر فترة قليلة إلى دمشق ولم يلبث أن أعادها فظلا على كتابة السرحى سنة ٧٣٨ إذ تغير الناصر على شهاب الدين وأقام مقامه أخاه^(٣) علاء الدين ، وظل في الوظيفة حتى سنة ٧٦٩ وتولاها بعده ابنه بدر الدين^(٤) إلى أن توفى سنة ٧٩٦ .

ومن الكتاب المهمين المعاصرين له ابن مكناس ، وسترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . ويلمع في أوائل عهد المماليك البرجية اسم القلقشندى صاحب صبح الأضنى ، ولم يتول كتابة السرحى ولكنه ألمع كاتب بالدواوين في زمنه وسترجم له بين كتّاب المقامات . ويتولى رياسة ديوان الإنشاء غير كاتب مصرى وشامى ويتوقف النشاط فيه مع دخول العثمانيين مصر كما أسلفنا . ونعرض طائفة من أنبه كتابه .

ابن^(٥) الصمى

هو على بن منجب بن سليمان ولد بالقاهرة سنة ٤٦٣ وكان أبوه صمى ، بينما كان جده معدودا بين كتّاب زمنه . ولعله هو الذى وجهه إلى اتخاذ الكتابة الديوانية حرفة له . ولا بد أنه جمع له من أسبابها وأدواتها الثقافية ما جعله يتقنها سريعا ، والتحق بديوان الجيش وعنى به صاحبه صاعد بن مفرج ، وعمل في ديوان الخراج . وتنبه له وزير مصر لأيامه الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧-٥١٥هـ) فنقله إلى ديوان الإنشاء ، وأعجب به متوليه سناء الملك أبو محمد الحسنى

الحاضرة ٦٠٤/١ وصح الأضنى ٩٧/١ ، ٢٣٧/٨ -
٢٤١ ، ٣١٦ - ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ونسط المرقى
٢١٤/٢ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة - طبع دار
الكتب المصرية) ص ٢٥٢ وراجع كتابه قانون ديوان
الرسائل (طبع مصر) والإشارة إلى من نال الوزارة (طبع
المعهد الطبى الفرنسى بالقاهرة) .

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٠/٩
(٢) انظر ترجمته في فوات الوفيات ٤٦/٢
(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/١١
(٤) النجوم الزاهرة ١٤٠/١٢ .
(٥) انظر في ابن الصمى وترجمته ورسائله معجم الأدباء
٧٩/١٥ وتاريخ مصر لابن مسير في مواضع مختلفة وحسن

الزبدى ، فأسند إليه كتابة التقاليد والمراسيم والتوقيعات ، حتى إذا توفى الخليفة الفاطمى المستمل سنة ٤٩٥ وولّى الأفضل الجمالى ابنه الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وهو فى الخامسة من عمره حينئذ نرى ابن الصيرفى هو الذى يكتب السجل بوفاة المستمل وولاية الأمر . ويُقرأ سجله على رموس كافة الأجناد والأمراء . ويضيف إلى ذلك كتابا عن الأمر عند استقراره فى الخلافة بعد أبيه بأنه فُوض إلى الأفضل الجمالى وزيره تدبير شئون الدولة والرعية . ويكتب كتابا ثانيا إلى ولاية الأطراف بعد كتابة السجل أو العهد وتفويض الأمور إلى الأفضل مهتئا فيه بخلافة الأمر وتجديد ولايته . ويسجل القلقشندى فى صُبحه طائفة أخرى من كتب ابن الصيرفى فى البشارة بسلامة الخليفة فى مواسم رمضان إذ كانت تكتب فى مواكب الجمعة الأولى والثانية والثالثة وكذلك فى عيد الفطر وعيد النحر ، وحذف القلقشندى من تلك الكتب اسم الخليفة ، وقد ظل يعمل فى ديوان الإنشاء لعهد الأمر برياسة الشيخ ابن أسامة ، حتى إذا خلفه فيه ابنه أبو الرضا شركه فى برياسة الديوان ، ثم انفرد برياسته لعهد الحافظ (٥٢٤-٥٤٣هـ) . ويبدو أنه ظل يعمل فيه حتى توفى سنة ٥٤٢ . ويذكر ياقوت أنه توفى لأيام طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفاتر بعد سنة ٥٥٠ ولعل التاريخ الأول لوفاته هو الصحيح .

وكان ابن الصيرفى كاتباً بليغاً بل يُعدّ أبلغ الكتاب المصريين زمن الفاطميين ، وفيه يقول ياقوت : « أحد فضلاء المصريين وبلغاتهم مسلّم ذلك له غير منازع فيه . . وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تريد على أربع مجلدات » ويشيد ابن سعيد فى المغرب ببلاغته قائلاً : « وقعت على ترسله فى مجلدات عدة ، فوجدت [القاضى] الفاضل اليسى ينسج على منواله ويتربع مترعه » وسنعرف عما قليل أن القاضى الفاضل أبرع كتاب مصر فى هذا العصر . وتضح مهارة ابن الصيرفى اليبانية فى أول كتاب احتفظ له القلقشندى به ، وهو السجل الذى كتبه على لسان الأمر بوفاة الخليفة المستمل وولايته الخلافة بعده سنة ٤٩٥ وقد استله بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين ، يقصد آياه من الخلفاء الفاطميين ، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاها لهداية الناس ، ويصلى على جدّه لأبيه على بن أبى طالب ، ويقول « إن الله أكرمته بالترلة العلية ، وانتخبه للإمامة رافة بالبرية ، وخصّه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مبرة التعظيم ومزية التفضيل » . وكل ذلك ترداد لما كان يبدىء الفاطميون فيه ويعيدون من تفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وغيرهما من جُلّة الصحابة ، وأن الله خصه بعلم فوق العلم الدينى المعروف للأمة ، به يعرف المعنى الحقيقى للقرآن أو المعنى الحقى الذى

يعلم على الفهم العادى ، ويشيد ابن الصيرفى على لسان الأمر بنشر آية المستعمل للعدل بين الزهية ، ويصور فداحة الرزء به والفجعة فيه ثم يقول :

« وقد كان الإمام المستعمل بالله - قدس الله روحه - عند نقله ، جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ما حازه من آية عن جده ، وعهد إلى أن أخلفه فى العالم ، وأجرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه المتعالم ، وأطلعنى من العلوم على السر المكتون ، وأففى إلى من الحكمة بالغامض المصون ، وأوصانى بالمعطف على البرية ، والعمل فىهم بسيئره المرضية ، بما جبلنى ^(١) الله عليه من الفضل ، وخصنى به من إيثار العدل ، وإننى - فيما استرعيته - سالك منهاجه ، عامل بموجب الشرف الذى عصب الله لى تاجه .

والسجل أو العهد كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة ، لا غرابة فى كلمة ولا نبوى لفظ ، بل ينساب الكلام فى فيض من البراعة البائية ، وفيه يقرر ابن الصيرفى على لسان الأمر أن الخلافة انتقلت إليه بالوراثه عن آباءه ، وأن أباه عهد إليه بها ، فهو يخلفه عن عهد أو وصية ، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة لعل وأنها تنتقل بالوصية من الأب إلى الابن . ويقول ابن الصيرفى على لسان الأمر إن الله أطلعه من العلوم على السر المكتون ومن الحكمة على الغامض المصون ، مشيراً بذلك إلى عقيدة الفاطميين فى أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم باطنى يتوارثه إمام بعد إمام متتلاً من جيل إلى جيل ، وهو عندهم علم لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب ، بل أيضاً يتسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة ، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة لا تحدها حدود ، طاعة بدون قيد أو شرط .

وتتوالى كتب ابن الصيرفى فى الجزء الثامن من صبح الأعشى يكتبها فى وصف خطابة الأمر وصلاته فى جُمُع شهر رمضان وفى عيد الفطر وعيد النحر أو الأضحى وفى وفاة النبى . ولا نراه يعود إلى مثل الإشارات السالفة للعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويبدو أنه لم يكن غالباً فى العقيدة أول لعل القلقشندى حذف مما دونه من كتبه ورسائله غلوه . ولم يكن كاتباً بليطاً يكتب الرسائل الديوانية فحسب ، بل كان أيضاً يكتب رسائل أدبية طريفة ، وقد أشار إليها ابن سعيد فى المغرب حين قال : « له تصانيف مشهورة صغار ظراف » ويبدو أنه كان قد صنفها للوزير الأفضل بن بدر الجمالى صاحب الأيادى السابقة عليه ، وله فيه إشارات مختلفة سجلها فى رسائله الديوانية التى

أشرنا إليها ورددها مرارا وتكرارا ، وقد ذكر ابن سعيد من تصانيفه كتاب « لَمَحُ السُّلُحِ »^(١) ، وأورد من نثره فيه قوله :

« جرت العادة في النُّعَاسِ ، إعمال الكاس والطاس ، وهذه الآلة - إذا فقدت الراح - بمتزلة أجسام علمت الأرواح ، فداو لإحيائها قلبا لي جريحا ، وإذا كانت عازِّزَ فَكُنْ مسيحا » .
والنُّعَاسُ عيد من أعياد القبط بمصر كان يحتفل ببليلته النصارى والمسلمون في الحادى عشر من شهر طوبة أشد أشهر الشتاء برودة ، وكانوا يكثرُونَ فيه من الملاحى في الزوارق بالنبل وعلى شاطئيه كما كانوا يكثرُونَ من إيقاد المشاعل والفوانيس مع الاستماع إلى المُنْغِنِ والمُغْنِيَاتِ . وواضح أن ابن الصيرفى يشير إلى ما كان يتخذ في هذا العيد من اللهو وشرب الخمر في أوعيتها من الكاس والطاس ، ويقول إن هذه الأوعية إن لم تملأ بالخمر أو الراح كانت أجساما بدون أرواح . وكأنه يطلب خمرًا من صديق ، فيقول له : داو لإحيائها قلبا لي جريحا ، يطلب منه أن ييث في دنائه الحياة التى علمتها بفقدائها الراح . ويقول إنها أصبحت مثل الميت المعروف باسم عازر الذى أحياه المسيح ، فأحيها وابعثها من جديد . ويذكر ابن سعيد من رسائل ابن الصيرفى الأدبية التى صنفها للأفضل الجبالى رسالة بعنوان « منافع القرائح » وينقل من صدرها قوله :

« أول ما تُتَرَبَّبُ به إلى الله تعالى الإكثار من تَحْمِيدِهِ ، والإقرار بربوبيته وتوحيده ، والصلاة على نبيه محمد الذى عُصِدَ بتأييده ، وَخَصَّهُ من الشرف بما لا سبيل إلى تحديده »^(٢) ، وعلى آله للمنوحين من الفضل ما يعمجز الواصف عن تعديده ، ثُمَّ التوسل إلى ملوك كل وقت بشكر نعمتهم ومواصلة خدمتهم ، وشَهْرَ خصائصهم التى امتازوا بها عن العباد ، وذكر مناقبهم التى سارت في الأقطار وَتَقَبَّتْ^(٣) في البلاد ، والاجتهاد فيها نفقت^(٤) بشريف مقامهم سوقه ، والاعتماد على مظهر سُوْقِهِ^(٥) في البلاغة وَبُسُوْقِهِ ، ولاخلاف أن سلطان هذا العصر ، والمخصوص من الفضائل بما لا يدخل تحت الحصر ، مالكنّا السيد الأجل بالأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، يقول ابن سعيد : وأخذ في الاطتاب على الأفضل . ويذكر أنه قال من تمة تقدمت لتلك الرسالة :

(١) في الغرب (قسم القاهرة) : ملح الملح .
(٢) في الغرب : مجديده
(٣) تقبت : ذعبت وشاعت .
(٤) نفق : راج .
(٥) سوقه وبسوقه : ارتخاه

« فجب على كل من صَفَتْ فكرته ، وصَحَّت فِطْرته ، وأمكنه استنباط معنى غامض ، واستدلَّ على المحاسن بِرِقْها الوامض ، وعرف موضع الفضيلة فيما يضمه ^(١) من تصنيف ، وعلم موقع الوسيلة به إلى كل موقف شريف ، أن يُظهر كامن قُوته ، ويُعمل مطايا رِوِيَّته ، فيما يجدم مجلته ^(٢) العالی به ، مما يُطْرَبُ موردته ومسموعه ، ويعجب مؤلفه ومجموعه .

وواضح أن ابن الصمفی كان يحسن الكتابة إحسانا بعيدا ، دون أى غرابة فى لفظ ، بل مع السهولة والبسر ، فسجعه خفيف لا غلط فيه ولا كرازة ، وكأنه يفيض من ينبوع غَلِيق ، شربا يتمتع النفس . وكان يوشيه أحيانا بالألفاظ القرآنية مثل قوله عن المناقب إنها « نُقِبَتْ فى البلاد ، أى مضت وانتشرت أخذًا من قوله تعالى : (فتقَّبُوا فى البلاد هل من محيص) . واقتباسه للألفاظ والآيات القرآنية واضح فى رسائله . وكثيرا ما يوشى سجعه بالمحسنات البديعة وخاصة الاستمارة والتشبيه والجناس والطباق . وأورد ابن سعيد لُقْزَا له فى السيف على هذا النحو : « يبالغ فى شكره إذا أقصد ^(٣) وجرح ، وتقبل فى تركيته شهادة المجرَّح » . وفى كلمتى التزكية والمجرَّح توريثان واضحتان فلتركبة معنيان . التعديل من قولهم زكى الشهود أى علَّمهم ، وهو المعنى القريب للكلمة بدليل كلمة الشهادة . والمعنى الثانى بعيد ، وهو الإطراء وهو المراد ، وكذلك لكلمة المجرَّح معنى قريب بدليل كلمة الشهادة وهو الذى لاتقبل شهادته . ومعنى ثان بعيد وهو المجرَّح بالسيف فى الحرب ، وهو أيضا المراد . ولعل فى هاتين التوريثين مايدل على أن ابن الصمفی كان يستظهر التورية فى نثره أحيانا ومُرَّبنا أن شعراء القرن الخامس وفى مقدمتهم الشريف العقيلي كانوا يستخدمونها كثيرا . وتبعهم فى ذلك الكتاب كما نرى الآن عند ابن الصمفی . وبذلك يتبين خطأ ابن حجة الحموى حين زعم أن القاضى الفاضل هو الذى ذلل من التورية الصعاب وأنزل الشعراء بساحتها ورحابها ^(٤) فقد نزلها شعراء الدولة الفاطمية من قبله وكتَّابها ، وبهديهم اهتدى القاضى الفاضل ، وعن قوسهم رمى .

ولابن الصمفی كتابان مطبوعان موجزان هما : قانون ديوان الرسائل ، وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة . والكتاب الأول فى نظام ديوان الرسائل وبيان ماينبئ أن يتحلَّى به رئيسه وموظفوه من ثقافات وصفات مميزة ، وبه مقتطفات من بعض رسائله وهو كتاب نفيس . والكتاب الثانى

(٣) فى اللرب : أُنشد ، وأُنشد السهم : أصاب

(٤) خزنة الأدب للحموى (طبعة بولاق) ص ٦٧

(١) فى اللرب : يضمه .

(٢) فى اللرب : مجله .

يُورخ في إجمال لوزراء الدولة الفاطمية ، وهو مع إجماله بالغ الأهمية التاريخية . وأنشد باقوت لابن الصيرفي بعض أشعار ، وهي تدل على أن ملكته النثرية كانت أنصب من ملكته الشعرية .

القاضي^(١) الفاضل

هو عبد الرحيم بن علي بن حسن اللخمي أصلاً ، العسقلاني مولداً ، اليَسَّاني نسبة إذ كان أبوه يتولى قضاء يَسَّان بفلسطين للفاطميين فُسب إليها . ويذكر بعض من ترجموا له أنه ولد سنة ٥٢٩ وأكبر الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ . كما سرى بعد قليل . وكان طبيعياً أن يُعَتى أبوه بتريته ، وبدأ بإرساله إلى كُتَّاب أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، وحفظه وحفظ كثيراً من الأشعار . ويبدو أن الأب أحسَّ بميل ابنه إلى الأدب ، فرأى أن يرسل به إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ليتدرب فيه على الكتابة ، وفرح الابن برغبة أبيه : أن يصبح من كُتَّاب الدواوين الفاطمية ، فسافر إلى حاضرة الفاطميين لمهد الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) ويقول الرواة إنه كان في الخامسة عشرة من عمره ، ونظن ظناً أن سنه كانت أعلى من ذلك على الأقل ستين أو أكثر حتى يتسنى له أن يهاجر من يسان إلى القاهرة ، وقد اشتد عوده قليلاً وخاصة أنه كان أحذب ضعيف البنية . ويقول الرواة إنه حين أُلِّمَ بديوان الإنشاء كان يرأسه الموفق بن الخلال أحد كتاب مصر المبدعين ، وكان يشركه في رياسته ابن قادوس الذي ترجمنا له بين الشعراء ، وظلت لها الرياسة حتى توفي ابن قادوس فانفرد بها الموفق بن الخلال حتى نهاية الدولة الفاطمية . وعُتِيَ به الكاتبان الكبيران ، وخاصة الموفق بن الخلال ، ويقول القاضي الفاضل إنه سأله في أول لقاء له : ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فأجابه ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة ، فقال له . في هذا بلاغ ثم أمره بملازمته فكثت يتردد إليه ويتدرب بين يديه ، وأمره الموفق بحلِّ شعر ديوان الحماسة ، فحلَّه من أوله إلى آخره ، ولم يزل ابن

الكب التاريخية في زمنه وخاصة كتاب الروضتين . ونشر له د . أحمد بدوي ديوانه ومختارات هي الدين بن عبد الظاهر من نثره باسم الدر النظم من ترسل عبد الرحيم . وله فيه كتاب يمتزج : القاضي الفاضل : دراسة ونماذج ، وانظر كتابنا « الفن وطفاه في النثر العربي » ص ٣٦٨ .

(١) انظر في ترجمة القاضي الفاضل ورسائله وشعره عبر النجعي ٢٩٣/٤ وابن خلكان ١٥٨/٣ وطبقات الشافعية للسبكي ١٦٦/٧ وحسن الماضرة للسيوطي ٥٦٢/١ والحريدة للمهاد الأصماني (قسم شعراء مصر) ٣٥/١ والجموع الزاهرة ١٥٦/٦ وشذرات الذهب ٣٢٤/٤ ونهاية الأرب ١/٨ - ٥١ وصبح الأحسن (انظر القهرس) وراجع

الحلال يدربه حتى أتقن فن الكتابة . ويبدو أنه أحس أن المكانة التي يريدها لنفسه في ديوان الإنشاء بالقاهرة من الصعب تحقيقها سريعاً لكثرة منافسيه فيه ، فرحل إلى ابن حديد قاضي الإسكندرية ومتولى الأمر فيها لعله يحقق لنفسه ما يريد من الشهرة ، ورُحِبَ به ابن حديد وعهد إليه بالكتابة عنه وظل عنده ثمان سنوات ، وكانت كتبه تسترعى أنظار موظفي الديوان الفاطمي لفصاحتها فيها وحسن بيانه . ويقول الرواة إنها لفتت نظر العادل بن رزيك حين تقلد الوزارة للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٥٦ فأرسل إلى ابن حديد في طلبه ليعمل في دواوينه ، وأرسله إليه ، ووظفه رئيساً لديوان الجيش وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير . ويبدو أنه انتقل من ديوان ابن حديد إلى دواوين الخلافة بالقاهرة في وقت مبكر عن خلافة العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧) إذ نرى في الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهداً من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ولم يُذكر اسم الخليفة ، وآخر خليفة فاطمي تولى الخلافة بعد أبيه الفائزين الظاهر الذي تقلدها من سنة ٥٤٩ إلى سنة ٥٥٥ ووليها بعده عمه العاضد آخر خلفائهم . وواضح أن هذا العهد يؤكد أن القاضي الفاضل عمل في دواوين القاهرة على الأقل في عهد الفائزين لا بد أن يكون قد عمل فيها قبله في عهد أبيه الظاهر (٥٤٣ - ٥٤٩) حتى يمكن أن يكتب عنه هذا العهد . وقد استخلصه الموفق ابن الحلال رئيس ديوان الإنشاء لنفسه فكان يكتب بين يديه . ولا يلبث شاور أن يقتل العادل ويستولى على مقاليد الوزارة سنة ٥٥٨ . وينشب خلاف عنيف بين شاور وضرغام على نحو ما مر بنا في الفصل الأول من هذا القسم ، ويستنجد شاور والخليفة العاضد بنور الدين صاحب حلب ، ويُقدّم عليه شاور ويرسل معه بمساكر يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وينصرانه . وسرعان ما يعرض اليدهم التي نصرته . وتطور الأمور ويستعين شاور بالصليبيين مرارا ، ويستصرخ العاضد نور الدين فيرسل إليه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين المرة تلو المرة ولكن شاور لا يثوب إلى رشده فيُفَتِكَ به ويُقتل ، ويتقلد أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية للخليفة العاضد .

وفي هذه الأثناء كان القاضي الفاضل يكتب السجلات والتقايد والمنشورات عن العاضد بين يدي الموفق بن الحلال ، وكان قد أخذ بصرف الموفق يضعف جدا حتى أضرب ، فأصبح القاضي الفاضل هو المنتصرف في المكاتبات باسم العاضد وفي الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهد من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ، ولم يذكر اسم الخليفة ، وأكبر الظن أنه العاضد ، وتكثر العهود والسجلات من إنشائه في الجزء العاشر مما كتب به عن العاضد إلى القضاة

والولاية بتقليد أعمالهم ، ومن ذلك العهد الذى كتبه عن العاضد بتولى أسد الدين شيركوه الوزارة في شهر ربيع سنة ٥٦٤ وتفويض كل شيء إليه ، وأيضا العهد الذى كتبه عن العاضد في نفس السنة حين توفى أسد الدين في جمادى الآخرة بتولى ابن أخيه صلاح الدين الوزارة بعده . وكان القاضي الفاضل قد وثق الصلة به وبعمه ، وأنس به صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكّن كما يقول ابن خلكان ، فلم يكف له برياسته لديوان الإنشاء ، بل اتخذ وزيراً ، فلما يرم شيئاً إلا بعد مشورته ، وكان إذا أناب عنه أحداً من أفراد أسرته بمصر في أثناء غزواته للصليبيين أبقاه معه لإدارة دفة السياسة ، وكثيراً ما كان يصحبه معه في مواقفه مع الصليبيين ، وخاصة منذ منازلته لهم في حطين وفتح القدس .

وكان القاضي الفاضل اللسان المبين لصلاح الدين طوال حكمه يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة مسجلاً أحداث زمنه ومبلغاً عنه عهوده وسجلاته وتوقعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه من الإسكندرية إلى الفرات وإلى النوبة وأقاصى الصعيد والحجاز واليمن . وبلغ من تقدير صلاح الدين له أن كان يقول لأصحابه ، لا تنظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم ، إنما ملكتها بقلم القاضي الفاضل . وللفاضل كتب كثيرة وجه بها إليه ، تفيض بالحب والإجلال والإعزاز ، وكان حاضراً وفاته بدمشق سنة ٥٨٩ ، وبكاء بكاء مرا . وولى بعده على مصر ابنه العزيز قآزده ، وظل عنده في نفس المكانة التي كانت له عند أبيه والرفعة ونفاذ الأمر ، وتوفى العزيز سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه المنصور وكان صبياً فظل على ولائه له وعونه ، حتى قدم الأفضل عمه من الشام . ولم يلبث السلطان العادل أخو صلاح الدين أن قدم إلى مصر بنية أخلها من المنصور وعنه الأفضل في سنة ٥٩٦ وكانت بينه وبين القاضي الفاضل وحشة كما يقول ابن تغرى بردى ، فدها الفاضل على نفسه بالموت - فيما يقولون - واستجاب الله دعوته فبينما كان العادل داخلاً من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة .

وكان الفاضل شاعراً وله ديوان شعر مطبوع ، كما كان كاتباً ، ودوت شهرته في الكتابة ، وعُدَّ فيها رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون ، وفيه يقول العباد الأصبهاني في كتاب الخريدة : « رَبِّ القلم والبيان واللّسن واللسان ، والقرينة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والبدئية المعجزة ، والبدئية المطرزة ، والفضل الذى مأسع في الأوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلق بفباره ، أو جرى في مضماره ، فهو كالشرعة الحمديدية التي نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يبتزع الأفكار ، ويبتزع الأبيكار ، وبطلع الأنوار ، ويبدع الأزهار » . ويقول النويرى : « إلى القاضي

انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذور الفضائل واعترفت ، وأمام فضله ألفت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت به نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لأعاليه ، والفاضل بغير إطالة .

وفيما يلي قطعة من السجل أو العهد الذي كتبه بلسان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مستندا فيه الوزارة إلى صلاح الدين ، يقول بعد أن صور ماقلمه هو وعمه أسد الدين شيركوه للعاضد من عون متحدثا بلسان الخليفة :

« ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث ، لأعتك غريزة ، عزيزة ، وسجية ، سجيئة ^(١) ، وشيعة ، وسيمة ^(٢) ، وخلاق ، فيها ما يحب الخلاق ، ومخائر ^(٣) ، لم يمز مثلها حائر ، ومحاسن ، ماؤها غير آسن ^(٤) ، ومآثر جد غير عائر ، ومفاخر ، غفل عنها الأول ليستأثر بها الآخر ، وبراعة لسان ينسجم قطارها ^(٥) ، وشجاعة جنان تضطرم نارها ، وخلال جلال ^(٦) عليك شواهد أنوارها تتوضح ، ومساعي لديك كإمام ^(٧) نورها تتفتح .. وأبسط بك قد قرض إليك أمير المؤمنين بسطا وقبضا ، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ، واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكك شيئا ودحضا ، واعقد حبسى ^(٨) العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقدا ونقضا . وانفذ فيما أمهلك له فقد أدى بك نافذة من السياسة وقرضا ، وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصرف ، وثقف أود ^(٩) الأيام فعلبك أمانة التهذيب والتثقيف .

وإنما اخترت هذه القطعة من سجل أو عهد كتبه الفاضل سنة ٥٦٤ لأدل على أن خصائص فنه النثرى كانت قد استوت ونبتأت له مبكرة ، وقد استهل القطعة بذكر الإسناد والحديث كأنه يريد أن يحدث تورية ، فهو لا يريد الحديث النبوى وإنما يريد ما سبق في العهد من حديث عن عم صلاح الدين وجهوده التي بذلها للخليفة الفاطمى ، وجعل لصلاح الدين إسنادا فيه لا من السند وإنما من المساندة والمساعدة ، ومضى في تورياته المتصلة بالحديث النبوى ، فجعل قديم فخر

(١) سجيئة : خفيفة ، وسجيئة الثانية : دالة .

(٢) جلال : عظام .

(٣) سيمة : جميلة

(٤) كإمام : جمع كمية وهي غطاء النود والزمهر .

(٥) مخائر جمع مخيرة : طيبة .

(٦) حبسى : جمع حيرة ، وهي التوب بديره الجالس

(٧) آسن : متغير العلم .

حول ساليه وظهره للاستناد عليه

(٨) قطارها : قطرها ومطرها .

(٩) أود : اعرجاج .

صلاح الدين وحديثه مستندا جامعا ، وكتب المساند النبوية معروفة ومنها الجامع الصحيح للبخارى ، وقد جانس بين الحديث أى الكلام السابق وحديث بمعنى جديد والطباق واضح بين كلمتي قديم وحديث . وتوالى سجمات قصيرة أقامها على الجناس الناقص وكان كلها يجمع صوره . ويجانس بين خلّاتق بمعنى طباع والخلّاتق بمعنى الناس والتورية واضحة في كلمة الخلّاتق . وتوالى جناسات ناقصة وتداخلها بعض التصاویر ، فهاء الحسن غير آسن والجَدُّ أو الحظ غير عائر . ومحاول الإغراب والابداع في سجمه فَيَأْتِي بسجمة هي كلمة مفاخر تليها سجمة طويلة يداخلها طباق بين الأول والآخر . وبوغل في إغرابه وإبداعه ، فَيَأْتِي بسجمتين تداخلها في صدرهما سجمتان إذ يقول : « وبراعة لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جَنَان يضطرم نارها » . ويعمد إلى التصوير البارع في السجمتين التاليتين فشواهد أنوار الخلال أو الخصال تتوضح ، وكأنا نُوَرُّ المساعي وزهرها تتفتح . ويفزع إلى الطباق في السجمات الخمس التالية وقد تصنع أو تكلف في استخدامه للطباق بذكره المصطلحين التحويين : رفعا وخفضا ، ولكنه تصنع مقبول ، فقد استظهرهما في خفة وعذوبة .

ولعل فيما قلنا ما يصور بوضوح خصائص القاضى الفاضل في كتابته الديوانية ، وهي كتابة فيها روح مصراتي نشأ في دواويننا وصل لسانه في رسائل كتابها من أمثال ابن الصيرفي والموفق بن الخلال ، كتابة ليس فيها ثقل ولا تكلف بعيد ، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير . وتتردد في الكتب التي ترجمت للقاضى الفاضل أو عرضت لبراعته البلاغية عبارات مضيئة بحسبها البياني كقوله عن صلاح الدين وأسرته :

« أنتم - بابني أيوب - أيديكم آفة أنفس الأموال ، كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال ، ولو ملكتم الدهر لامتطيتم لياله أدامه ^(١) ، وقُلْدَمْ يَبْضُ أبامه صوارم ^(٢) ، وأفْنَيْم شموه وألّاره في الهبات دناتير ودراهم ، وأوقاتكم أعراس إلا على الأموال فهي مآتم ، والجود في أيديكم خاتم ، ونَفْسُ حاتم ^(٣) في نقش ذلك الخاتم » .

والقطعة تملأ بالاستعارات والتشبيهات الرائعة ، مع ما يحفُّ بها من الجناسات والطباقات ، ومع ما صيغت فيه من العبارات الناصعة التي تلذ الألسنة والأفئدة . ومن هذا النسيج البديع قوله من رسالة في صفة قلعة شاهقة ، اسمها كوكب :

(١) أدامه جمع أدهم : يريد خيولا سودا معدة للحرب (٢) حاتم : جواد العرب المشهور

(٣) صوارم : جمع صارم وهو السيف .

«وهذه القلعة عُقاب في عُقاب»^(١) ، ونجم في سحاب ، وهامة لها الغامة عامة ، وأنملة إذا خضبا الأصيل كان الهلال لها قلامة .

والجناس واضح بين عُقاب بضم العين وعقاب بكسرهما ، وقد استمر في تشبيهات وتصويرات بدیعة ، وقال نقاده : إن قوله : «كان الهلال لها قلامة» أخذه من قول ابن المعتز في الهلال :

ولاح ضَوْكُ هلالٍ كاد يفضحنا مثل القلامة قد قُذْتُ من الظفر

غير أن القاضي أضاف إلى القلامة إضافة بدیعة بذكره الأنملة إذا خضبا الأصيل . ولعل في ذلك مايشير إلى قدرته على مراعاة النظر في صياغاته ، وذلك كثير في كتاباته على نحو ما نرى الآن حين ذكر القلامة ذكر معها الأنملة والخضاب . ومن أروع رسائله ورسالته ، التي كتب بها إلى الخليفة الناصر يشره فيها بانتصار صلاح الدين على حملة الصليب في حِطِّين وفتح العظم لبيت المقدس .

وللقاضي الفاضل كثير من الرسائل الشخصية ، وسنقف عندها قليلا في غير هذا الموضع ، ومُرَبَّنَا أن مخطوطة فصوص الفصول المحفوظة بدار الكتب المصرية تحمل مراسلات كثيرة بينه وبين ابن سناء الملك ، وكان يتخذها ابنا روحيا له وذكرنا في غير هذا الموضع أن بها ملاحظات ومراجعات نقدية كثيرة .

عبي الدين^(٢) بن عبد الظاهر

هو عبد الله بن عبد الظاهر المصري من بيت علم وحق وأدب ، ولد سنة ٦٢٠ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لدانه ثم اختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين وأصحاب التاريخ والسير ، وأحسن بجميل شديد إلى الأدب وجرى على لسانه الشعر ، وأنس في نفسه قدرة أدبية ، فالتحق بالدواوين لعهد الأيوبيين ، ولم يلبث أن أظله عهد المماليك ونرى نجمه يتألق في عهد الظاهر

التن في مواضع مختلفة وصح الأثنى (انظر الفهرس وخاصة ١٥٦/١ و ١٧٦/١ و ٣٥٦/٧ و ٣٦٦/٨ و ٣٠٠/٨ ، ١١٧/١٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦ و ١٣٩/١٤ وراجع كتابه تشريف الأيام والصور في سيرة الملك الناصر قلاوون (نشر وزارة الثقافة) .

(١) عقاب بضم العين طائر جارح وبكسرهما جمع عقبة وهي المرق الصب في الجبال .

(٢) انظر في عبي الدين بن عبد الظاهر وترجمته ورسالته فوات الوفيات ٤٥١/١ وتاريخ ابن كثير ٣٣٤/١٣ وشذرات الذهب ٤٢١/٥ والتجويد الزاهرة ٣٨/٨ وحسن المحاضرة للسيوطي ٤٧٠/١ و ٣٦٦/٢ ونهاية الأرب : الجزء

يبرس ، إذ أصبح رئيسا لكتاب الدُست ، ثم رئيسا لديوان الإنشاء ، وتظل له هذه الوظيفة في عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل حتى يلبى نداء ربه سنة ٦٩٢ . وعنه كانت تصدر العقود والسجلات والتقايد والمنشورات والتوقيعات نحو أربعين عاما ، مما جعله يضع مصطلحات ديوان الإنشاء لزمه وبقية زمن المالك ، وكان ابنه فتح الدين على غراره مهارة بيانية ، وورق إلى وظيفة كاتب السر لعهد قلاوون وابنه الأشرف خليل . وهى أكبر وظيفة في الدولة حينئذ ، وسبق أباه إلى رضوان ربه بعام فحزن عليه حزنا شديدا .

وقد أشاد بمحمى الدين وبلاغته معاصروه إشادات رائعة ، من ذلك قول النويرى في نهاية الارب : « كان محمى الدين أجَلَ كتاب العصر ، وفضلاء العصر ، وأكابر أعيان الدُّول ، والذي اختر بوجوده أبناء عصره على الأول ، له من النظم الفائق ماراتق صناعة وحسن ، ومن النثر الراقى مافاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه في البلاغة أسهل طريق وفى الفصاحة أوضح محجة » ويقول ابن شاعر في كتابه الفوات عنه : « الكاتب الناظم النائر شيخ أهل الترسل ومن سلك الطريقة الفاضلية في إنشائه » . وجمع بعض رسائل القاضي الفاضل في كتاب سماه : « الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم » .

وكان يستخدم في كتاباته السجع ، وكثيرا ما يبطل السجعة الثانية ليضمها ما يريد من المحسات البديعة ، وفى مقدمتها التصاوير والجناس والطباق ، وكذلك ما يريد من الاقتباسات القرآنية ومن حُلِّ بعض الأشعار ونثرها ، مع حسن الألفاظ وعلوية الكلم . وكان يرافق الظاهر يبرس وقلاوون والأشرف خليل فى غزواتهم ، ويرسل بوصفها ملك اليمن وغيره من أصحاب السلطان وللوزراء فى مصر . ومن رسائله المهمة رسالته إلى الوزير بهاء الدين بن حنا ، يصف له حروب يبرس مع التتار وبني سلجوق واقتلاعه مدينة قيسارية من أيديهما مع ما أخذ فى طريقة إليها من الحصون والبلاد ، مصورا مسيرة الجيش المصرى فى جبال شامخة مذكلا فيها طريقه لايحوقه عن مقصده عائق . والرسالة طويلة فى نحو خمس عشرة صحيفة مدونة فى الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ، وهى وثيقة تاريخية بحروب يبرس للتتار والسلجوقيين فى ذى القعدة من سنة ٦٧٢ وفيها يقول : « سرنا لا يستقر بنا فى شيء من المهالك قرار ، ولا يُقَدِّح من غير ستابك الخيل نار ، ولا نمرُ

على مدينة إلا مرور الرياح على الخائل في الأصائل والأبكار . ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزود الزائر من الأهبة ، أو يتزود الطائر من الثَّغْبَة ^(١) ، نسبق وَقْدَ الرِّيح من حيث نَسَحَى ، ونكاد مواطئ خيلنا بما تَسْجِه أذيال الصوافن ^(٢) تَسَحَى ، نحمل هُنا الخيل العتاق ، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق ، وكلُّ يقول لسلطاننا نصره الله :

أين أزمعتَ أيُّهَذَا المَهَامُ نحن نبتُ الرُّبَى وأنت الغَمَامُ

وبنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدتها ليلة الملسوع ، وتسمى العين بها هجمة هجوع . وأخذنا في اختراق غابات أشجار نخي الرقيق عن رفيقه ، ونشغله عن اقتفاء طريقه ، يتبرى منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه ، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه ، حولها مغائر أحجار كأنها قبور بُعْثِرَتْ ، أو جبال تَفْطُرَتْ ^(٣) ، بيننا غنائس لا بل مغائس ماخر جنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول ونعمت بالثلوج ، وعُميت مسالكها فلا أحد إلا هو قائل : فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج ، نصيق مناهجها بمشى الواحد ، وتلف شجراتها التفاف الأكام على السواعد .

وعلى هذه الشاكلة يتدفق ابن عبد الظاهر في الرسالة دون أى عائق من لفظ غريب أو أسلوب ملتو ، بل سبولة وعلوبة مع السجع الرشيق ومع ما يشاء من الجناسات والاستعارات دون أن نشعر بالكلفة أو بشيء منها ، وفي صبح الأعشى رسائل وعهود له بديعة ، منها عهد الظاهر يبرس لابنه الملك السعيد وعهد قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، وفيه ينوه ابن عبد الظاهر بالأشرف على لسان أبيه قلاوون قائلا :

هو الذى بقواعد السلطنة أدرى وبقوانينها الأعرف ، وعلى الرعايا الأعطف ، وبالرعايا الأرف ، وهو الذى ما قبل لبناء ملك هذا عليه قد وهى إلا وقبل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف ، والذى ما برح النصر ينشئ من مهاب تأميلة الفلاح ، ويتبسّم نغره فتوسم الثغور من ميسمه النجاح ، ويُقسّم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح .. والذى كم جلا بيهي جبينه من بهيم ، وكم غدا الملك بحسن روايته ويمن

(٣) تفتت : تشققت .

(١) الثغبة : الجرمة .

(٢) الصوافن : جمع الصافن وهو القرس

آرائه بهم ، وكم أبرأ مورد العذب هيم^(١) ، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه إبراهيم .
والسجعات في هذا العهد تتوالى في مجاميع على حرف واحد أو روى واحد ، قد يكون الفاء أو
الحاء أو الميم كما في هذه القطعة ، وقد يكون حرفاً آخر كالمدال أو التاء أو النون إلى غير ذلك من
حروف تتعاقب فيها السجعات في خفة . وقد ورى في السجعات الغائية حين ذكر فيها لفظ
« أشرف » موزياً به عن الأشرف خليل ، ولم يكف بهذه التورية في اسمه فقد أضاف إليها تورية
أخرى في لفظ إبراهيم بآخر القطعة ، وقدم لذلك بذكر الخليل كأنه يريد إبراهيم عليه السلام ،
وهو لا يريد إنم يريد بالكلمة أنه أبرأها أى عطاشاً أشد العطش . ومن ذلك قوله في رسالة إلى
صاحب اليمن مبشراً بفتوح قلاوون لبعض حصون الصليبيين بالشام .

« تعطيه الملوك الجزية عن يدي وهم صاغرون ، ويصطفى كراماً أموالهم وهم صابرون
لا مصابرون ، وكم شكت منه حمة تنبئ بشكوها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته مرة وما من
مرة خاف ، وما زالت أيدى المالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون
والعصا^(٢) ، وتبكي بدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بدمع العاصي .
وواضح في أول هذه القطعة اقتباس محي الدين بن عبد الظاهر لآية سورة التوبة : (حتى
يعطوا الجزية عن يدي وهم صاغرون) . ويكثر الاقتباس لآي الذكر الحكيم وألفاظه في كتاباته كما
يكثر حل الشعر والاستشهاد بنصوصه وأياته . وقد ورى في القطعة بذكره لفظ مرة الثانية من
العار مقدماً لها بذكر حمة والمرة وهما من مدن الشام . وورى أيضاً في قوله : « وناهيك بدمع
العاصي » وهو إنم يريد نهر حمة المعروف باسم العاصي . ودانما نحس عنده العنوبة والسلاسة وكأنه
يستمد من نبع فياض لا يفيض أبداً ، على نحو ما نرى في قوله من رسالة يصف بها فتح قلاوون
لطرابلس :

« صرف مولانا السلطان إلى طرابلس لبنان ، وسبق جيشه إليها كل خير وليس الخبر كالمبرك
وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسه عيونها والمخاوف كلها أمان .. وفي خلعتهم جنود
لا تستبعد مغازة . وكم راحت وغدت وفي نفسها للأعداء حزازة ، فامتطوا بنحوهم من جبال
لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ، ومعارج لمرافق بها غير الرياح الموج ، وانغطت الجنود من تلك
الجنادل انحطاط الأجادل^(٣) ، واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال^(٤) ، ولم يحفل أحد

(٣) الأجادل : الصغور .

(١) هيم : جمع أهم وهو العطشان عطشاً شديداً .

(٤) الأوعال : جمع وعل وهو تيس الجبل

(٢) العاصي : الحصون .

منهم بطريق لاصق ، ولاجل شائق ، فقال : هذا منخفض أوعال .

والكلمات والسجعات تنزلق عن اللسان في خفة إذ كانت ملكة الأدبية خصبة ، فهي ماتزال ترفده بما يريد من الألفاظ التي تروق في السمع لا بسجعتها فحسب ، بل أيضا بجرسها وحسن انتخابها لها ، وما يوفره لها من محاسن بديعة بقدر الحاجة دون تكثر يجعلها إلى تكلف شديد . وحقا كان يتصنع أحيانا لبعض مصطلحات النحو ولكنه لأنيق بها إلا في الحين بعد الحين ماعدا رسالة اقترحت عليه أن تكون توقيعا لمدرس نحو استلها بقوله مداعبا : « حرس الله نعمة مولاي ، ولازال كلم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلme يأتلف ، ومناذى جوده لايرغم وأحمد عبته لا ينصرف » ومضى فيها على هذه الشاكلة متصنعا لمصطلحات النحو ، ولكن من الحق أنه أرادها إلى الدعابة ، وعلى نحو ما كان يبشر بالفتوح كان يبشر بوفاء النيل وله في ذلك رسائل بارعة يقول في إحداها :

« نِعْمُ الله وإن كانت متعددة ، ومِنَحُه وإن غدت بالبركات مَرْدُدة ، ومِثُّه وإن أصبحت إلى القلوب متوددة ، فإن أَسْلَمْها وأَكْمَلْها ، وأَجْمَلْها وأَفْضَلْها ، وأَجْرَلْها وَأَهْلَها ، وَأَتَمَّها وَأَعْمَّها ، وَأَضَمَّها وَأَلَمَّها ، نِعْمَةُ أَجْزَاتِ المَنِّ والمَنِّح ، وَأَنْزَلَتْ في بَرَكِ سَفْحِ المَقْطَمِ أَغْزَرَ سَفْحٍ ، وَأَنْتَ بما يَعْجِبُ الزَّرْعُ ، وَيَعْجِزُ البرقُ اللَّعَافُ ، وَيُبِيلُ^(١) القِطَاعُ ، وَيُبِيلُ^(٢) الأَطْعَامُ ، وبأني في الغد بأكثر من اليوم وفي اليوم بأكثر من الأمس ، ويركب الطريق مجدًا فإن ظهرت بوجهه حمرة فهي مايعرض للمسافر من حر الشمس .. وبيننا يكون في الباب إذا هو في الطاق ، وبيننا يكون في الاحتراق^(٣) ، إذا هو في الاجترأ للإغراق ، وبيننا يكون في الهجاري ، إذا هو في السواري^(٤) » .

والتورية واضحة في كلمة سفح الثانية ، إذ ليس معناها معنى سابقتها وهي سفح جبل المقطم إذ أراد الانصباب من قولهم سفح الماء إذا صب . واقتبس من القرآن الكريم قوله عز شأنه في سورة الفتح (يعجب الزرع) واقتباسه من الذكر الحكيم كثير في كتاباته كما أسلفنا . وتعليل مايتخلط النيل من الطمي بأنه نفس الحمرة التي تعرض للمسافر من طول سفره وتعرضه للشمس لتعليل حسن يدل على عمق تخيله وطرافته . وتصويره لفيضان النيل وأنه سرهان ما يملأ مجرى النهر وتعلو أمواجه ويطلق عجابه ويتأذى طوقانه ، فيينا يدخل سدة باب إذا هو في الطاق وأعل الشرقات ،

(١) بيل القطاع : يروي قطاع الأرض مرارا . (٣) الاحتراق : قلة الماء .

(٢) بيل الأقطاع : يحمل الضياع تمطر الظنة والشار . (٤) السواري : يريد الأقال .

وبينا تكون مصر قبل فيضانه في زمن الاحتراق والتمطش للماء إذا هو يخرق الآفاق فيها لإغراقها بمياهه العذبة ، وبينا يكون في أسافل الأرض ومجاريها إذا هو في السواري وأعلى الأعلى .

ولم يكن يحيى الدين بن عبد الظاهر كاتباً ديوانياً فحسب ، فله رسائل شخصية سلم بإحداها ، وأيضاً كان مؤرخاً ، وعنه أخذ البرزالي وغيره من كبار المؤرخين لزمه ، واهتم في التاريخ بكتابة السير ، فكتب سيرة الظاهر بيبرس ، وهي أحد مصادر المقرئ في خططه ، وكتب سيرة قلاوون بعنوان « تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور » ، وكتب أيضاً سيرة الأشرف خليل بعنوان « الألفاظ الحقة من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » وله كتاب في خطط القاهرة ينقل عنه كثيراً المقرئ وكذلك القلقشندي في صبح الأعشى . ولعل فيما قدما من رسائله الديوانية ما يدل بوضوح على قدرته البيانية والبلاغة .

ابن^(١) فضل الله العمري

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، من سلالة أسرة مصرية تنسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولَيْتَ أسرته ديوان الإنشاء بمصر ودمشق نحو قرن من الزمان هو القرن الثامن الهجري ، وقد وُلِدَ لأبيه كاتب السر بدمشق سنة ٧٠٠ للهجرة وبها نشأ ، فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات علمائها من أمثال ابن تيمية الفقيه الحنبل المشهور وقاضى قضاة دمشق الشافى شهاب الدين محمد بن المجد وشيخ الشافعية بدمشق برهان الدين بن الفركاح الفزارى وأخذ علم الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهاني نزيل دمشق منذ سنة ٧٢٤ وبها ظل سبع سنوات وكان من أبرع علماء زمنه في العقليات ، وأذن لابن فضل الله في الإفتاء على مذهب الشافى . وأخذ شهاب الدين العربية عن كمال الدين بن قاضى شُهْبَة وابن الزُّمْلَكَانِ ، أما الأدب فأخذه عن أبيه ورفيقه في ديوان الإنشاء الشهاب محمود وعلاء الدين

والثلثات ١٦٠/٦ والوفاء ٢٥٢/٨ وتاريخ الأدب الجفراني لكراتشكوفسكى ٤١٠/١ . وطُبِعَ له الجزء الأول من موسوعة مسائل الأجبار وانظر فيها ما تقدم في حديثنا عن النشاط الجفراني بمصر وطُبِعَ له كتابه التعريف بالمصطلح الشريف .

(١) انظر في ترجمة ابن فضل الله فوات الوفيات ١٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٣٤/١٠ والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٥٢/١ وصبح الأعشى وخاصة الجزء الحادى عشر والرابع عشر (انظر الفهرس) وخطط المقرئ ٣٨٩/١ وحسن المحاضرة ٣٧١/١ ، ٣٩٤ ، ٢٣٤/٢

الوداعي . ورحل إلى مصر في أثناء الطلب ، وأخذ العربية عن شيوخها وعلمائها مثل ابن الصانع الحنفي ونزيلها أبي حيان الأندلسي . وسمع الحديث على علمائها كما سمعه على حُفَاط الشام . ويبدو أنه نزع إلى العمل مع أبيه مبكرا في ديوان الإنشاء بدمشق ، وتخرج فيه كتابا بارعا . وكان إلى ذلك لا يزال يأخذ عن العلماء في زمنه بالشام ومصر ، وكان أبوه يعمل أحيانا بالديوان في دمشق وأحيانا يعطل ، فكان إذا عمل لزمه ، حتى إذا استدعى الناصر محمد بن قلاوون أباه لكتابة السر بالقاهرة سنة ٧٢٩ تقلد معه هذه الوظيفة فكان هو الذي يقرأ كتب البريد ورسائله على الناصر ، ونقلها إلى دمشق في شعبان سنة ٧٣٢ ثم أعادها ثانية إلى القاهرة مستدا إليها كتابة السر ورياسة ديوان الإنشاء سنة ٧٣٣ ويبدو أنه كان حاد الطبع ، ولم يتحاش عن إظهار هذه الحدة في مخاطبته للناصر ، فتغير عليه وصرفه ، وولى أخاه علاء الدين مكانه ، وكانت منزلة أبيه عند الناصر قد عظمت ، وطلب أن يرجع إلى دمشق فأجاب به إلى طلبه ، على أن تستمر له رياسة ديوان الإنشاء في جميع ديار السلطنة وأن يكون جميع الموظفين في تلك الدواوين نوابه ، وسرعان ما لى نداء ربه . وعاد الناصر في سنة ٧٤٠ فرضى عن شهاب الدين وولاه كتابة السر بدمشق ، ودخلها في الحرم سنة ٧٤١ وظل على وظيفته بها حتى طُلب إلى القاهرة سنة ٧٤٣ لكثرة الشكايات منه وشفع فيه أخوه علاء الدين ، وقُبِلت شفاعته وعاد إلى دمشق ، وبارحها في سنة ٧٤٩ لقضاء فريضة الحج ، وتوفى بمكة ونقل تابوته إلى دمشق ، ولم يكد يبلغ الخمسين من عمره .

وكان شاعرا كما كان كاتباً ، نظم كثيرا من القصائد والأراجيز والمقطعات والديوبيت ، غير أن شهرته الكتابية غطت على شهرته الشعرية ، وقد أشاد بكتابته معاصروه من ذلك قول صلاح الدين الصفدى : « هو الإمام الفاضل البليغ المفوه الحافظ حجة الكتاب ، إمام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعاني وتوصلا ، بتوقد ذكاء وفطنة ويتلهب ، وينحدر سبله مذاكرة وحفظا ويتصبب ، ويتدفق بحره بالجواهر كلاما ، ويتألق إنشاؤه بالوارق المسترة نظاما ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتتدى عباراته انسجاما وصياغة ، وينظر إلى غرر المعاني من سر رقيق ، ويغوص في لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، يكتب من رأس قلمه بديا ، ما يعجز تروى القاضي الفاضل أن يدانيه تشبها .. صرف الزمان أمرا ونهيا ، ودبر الممالك تنفيذا ورأيا » .

ولعل من الطريف ان ابن فضل الله جمع من كتاباته نماذج في جميع صور المكاتبات الديوانية وضمنها كتابه النفيس : « التعريف بالمصطلح الشريف » وجعله في سبعة أقسام أولها في رتب

المكاتبات إلى الخليفة العباسي بالقاهرة وعنه مع رسوم الكتابة إلى أمراء البلدان وراء السلطة المصرية من الهند إلى الأندلس ، وأيضا إلى نواب السلطة والحكم خارج مصر . والقسم الثاني في المعهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والناشير والمعهود إما من الخلفاء إلى السلاطين وإما من السلاطين إلى ولاية العهد . والتقاليد خاصة بكبار الموظفين والتواقيع لصغارهم والمراسيم لصغار الأمور والشئون والناشير خاصة بالأمراء والجنود ، والقسم الثالث خاص بنسخ الأيمان على العامة والولاية وكبار الموظفين وأهل الكتاب . والقسم الرابع في الأمان والهدن مع الأعداء ونقض المعاهدات . والقسم الخامس في حدود المدن والبلاد وهو جغرافى . والقسم السادس في مراكز البريد ووسائله برا وبحرا . والقسم السابع في الآلات وخاصة آلات الحرب من سيف وغير سيف وكذلك آلات السفر وآلات الصيد وآلات الطرب وأيضا الحيوان الأليف والوحشى والطير ، ويتسع هذا القسم للحديث عن المدن والحصون وأنواعها والأزمنة وفصولها والأنواء . وواضح أن الأقسام الأربعة الأولى هي التى دفعته لإعطاء النماذج الكتابية المتصلة بموضوعاتها . أما الأقسام الثلاثة التالية فقد رأى معرفتها ضرورة لكتاب الديوان لأنها تصل بأعمالها اتصالا قويا . واشتهر هذا الكتاب بعد ابن فضل الله واتخذته الكتّاب إماما لهم وجعلوه نصب أمينهم فى كتاباتهم الديوانية بما كون نماذجها وأمثله ، واعتمد عليه الفلقشندي فى بيان رسوم الكتابة الديوانية ، وما يصورها من أمثلة بليغة عميقة ، من ذلك قوله فى تقليد وزير ووصيته بما يبنى عليه فى وزارته :

« عليه بالكفاة الأمانة ، وتجنب الحقنة وإن كانوا ذوى غنا ، وإياه والعاجز ، ومن لورأى المصلحة بين عينيه ألقى بينه وبينها ألف حاجز ، وليظهر بابه ، ويسهل حجابها ، ويفكر فيها بعد أكثر مما قرب مقدما الأهم فالأهم من المصالح ، وينظر إلى ما غاب عنه وحضر نظر الماسى والمصايح ، ولا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيائته ، ولا بدع من جميل نظره من صحت لديه كفايته ، أو تحققت عنده أمانته . وليصرف اهتمامه إلى استخلاص مال الله الذى نحن أمانؤه ، وبه يشغل أوقاته وتمتلى كالإناء آناؤه ، فلا يدع شيئا يجب لبيت المال المعمور من مستحقه ، ولا يستمع فى تخلية بشيء منه كما نوصيه أن لا يأخذ شيئا إلا بحقه . »

وواضح أن ابن فضل الله لا يتكلف فى كتابته ، وكأنه - كما قال الصفدى - بحريته ، وفى تضاعيف تدقه ينثر جواهر المحسنات ، وهى تواتيه طبيعة ، تارة يطابق وتارة يخالف فى سر دون أن نحس عنده بتصنع أو ما يشبه التصنع . ومن طريف وصفه للسيف فى كتابه التعريف قوله :

« سَلْ سيفا سال السَنُون من لُعابه ، وسار الموت في إهابه ^(١) ، وتناول غِرَارُهُ ^(٢) ملء جنبه
فاجمع ، وتناوب ^(٣) اللوئب للمهج فا رجع ، وتباكى على من قتل فجرت دموعه دماء ،
ونحرق على من سلم فوقدت ضلوعه نارا وترقرت مآقيه ماء » .

وهي كلمات قصار ولكنها مليئة بالاستعارات والتشخيصات المتلاحقة ، وفيها الجناس والطباق
وكأنها غير ملحوظين ، لما تجريان فيه من سهولة اللفظ وعذوبته . وله في وصف قدح أو كأس :
« تَكُونُ من جوهر مكنون ، ونجمد من هواء مظنون ، وأخذ خلدًا لابنة العنب ^(٤) . وطاف به
الساق فأصبح منه في راحة وهو في تعب ، فَهَقَّ عليه الإبريق فصدح ، وطار منه شرار المدام
فليل : قدح » .

والقطعة مثل سابقتها زاخرة بالاستعارات والصور العريفة . مع جناسات وطباقات بديعة ومع
جمال الجرس والمهارة في انتخاب اللفظ ، وقد ختمها بكلمة قدح والتورية واضحة ، فهو لا يريد
ما يتبادر من أنه يريد القدح الذي يصفه ، إنما يريد الفعل الماضي قدح أى قدح الشرر وأذكاه من
قولهم قدح النار من الزند .

ولابن فضل الله العمري بجانب رسائله الديوانية رسائل شخصية قليلة وذكر له مترجموه نحو
عشرة كتب ، منها التعريف بالمصطلح الشريف الذي وصفناه . ومنها فواصل السمرق فضائل آل
عمر ، ومنها صُباية المشتاق في مجلد في مدح النبي ﷺ . وأهم كتبه دون ريب كتابه « مسالك
الأبصار » وقد نشر الجزء الأول منه وهو خاص بالديارات ، وهو في أكثر من عشرين مجلدا ،
وهو مقسوم إلى قسمين كبيرين : قسم للأرض وأقاليمها وبحارها وطرقها أو مسالكها ، وقسم
للممالك في العالم الإسلامي وغيره وسكان المعمورة ، وبه فصول طويلة عن الكتاب والشعراء في
العالم العربي بمختلف أقطاره ، وعادة يضع مقدمة مسجوعة لكل كاتب وشاعر ثم يبنار للكاتب
نماذج من رسائله وللشاعر نماذج من شعره ، وبه مقتبسات من كتب سقطت من يد الزمن ، ومن
خير ما احتفظ به تراجمه لشعراء عقلية ، وكذلك معلوماته الجغرافية والتاريخية عنها . وبالكاتب
مفخرة طريقة بين المشرق والمغرب تمس حضارتها ومن كان بها من أفاض العلماء والأدباء .

(١) إهابه : جلده .

(٢) غرار الأمر : قام به مرة بعد مرة .

(٣) تناوب : جلد .

(٤) غرار السيف : حده .

(٤) الحنجر : البيت . ابنة العنب : الحنجر .

الرسائل الشخصية

تخرج كتب الأدب والتراجم بكثير من رسائل الأدباء والكتاب المصريين الشخصية والإخوانية في التهنئة والتأدي والشكر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية . وعادة معانيها محدودة ، ولكن أصحابها يحاولون إظهار براعتهم بإطالتها وتخيير عباراتها ونشر زخارف البديع ومعناته عليها حتى تروق من تُرسل إليهم وتبلغ من التأثير فيهم المبلغ المشود . ومن برعوا في تديجها وكتابتها في أيام الفاطميين عبد المجيد بن أبي الشغواء الصقلي الكاتب الديواني لزمان الخليفة المستنصر ، وسنخسه بمحدث مفرد ، وكان لا يكاد يقل عنه إحسانا في تلك الرسائل سبطه أو ابن ابنته الحسن ^(١) بن زيد الأنصاري الكاتب مثله في الدواوين الفاطمية ، وكان جده لأبيه شاعرا ، وهو على بن إسماعيل ، وكان أيضا فقيها ولى قضاء الأردن للفاطميين ، ويقول السلفي في معجمه : لم يكن له نظير في الأدب بقطره سوى ابن أبي الشغواء ، وقتلها بدر الجبالى وزير المستنصر . والحسن بن زيد بذلك سليل قتلين وكأنما كُيِّبَ عليه أن يقتل مثلها ، وتولى إثم ذلك الحسن بن الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣) في أوائل خلافة أبيه لأيات في هجائه دسها بعض معاصريه عليه ، وكأنما أراد القدر أن يثأر له وكان الحسن قد استبدَّ بتنفيذ الأمور دون أبيه فدس عليه السم في طعامه فأت لسنه ٥٢٨ .

وواضح أن الحسن بن زيد - كما يقول ابن سعيد - عريق النسب ، في صناعة الأدب ، يمتُّ إليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأحوال وأعام ، ويقول الهاد الأصمباني : « وصفه القاضي الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله » . واحتفظ الهاد له في خريدته بطائفة من رسائله اللبوانية والشخصية ، من ذلك قوله في رسالة إلى صديق يهته بالبره من مرضه .

« إذا قدَّم الوداد ، وصحَّ الاعتقاد ، وصفت الضمائر ، وتخلَّصت السرائر ، حلَّ الإخاء المكتسب ، محلَّ أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الارتار ، والمتحابان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسرَّ ، ومشاركين فيما نفع وضرَّ ، وتلك حالى وحال حضرة مولاي فاني وإياها

(١) ومجم السلفي ص ٤٤٨ .

(١) انظر ترجمة الحسن بن زيد الحريدية (قسم شعراء

مصر) ٦٧/٢ وما بعدها والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٣٧

كنفس قُسمت على جسمين ، وروح قُرئت بين شخصين ، فأما ألها فقد مضى وأزعجني ، وأما برؤها فقد سرها وأبهجني .

ومهارته في صياغة أسجاعه واضحة فعباراتها تتوازن وتتبادل تعادلا دقيقا ، وكأن كل كلمة في السجعة الثانية تعانق أختها في السجعة الأولى في علوية ونصاعة وسلاسة وطلاقة . ومن كتاب له في تعزية :

« الحُطْبُ الحادث ، فادحُ كارت^(١) ، كادت له القلوب أن تبتأ من أضالها ، والعيون أن تتعرض بدماها من مدامها ، والضحى أن يدرع^(٢) جلاب الدُّجَّة ، والحوامل أن تُجهض بما في بطونها من الأجنة . وإن المنية حوَّض كل الناس وارده ، ومنهل كل الحليقة قاصده ، لا يسلم منها ملك نافذ الأمر .. ولا تقير خامل الذكر » .

وتحمل القطعة نفس الصياغة السالفة بكل ما تنسم به من اكتمال الإيقاع في الألفاظ بين اللسجمات وحسن الانتخاب للألفاظ والكلمات .

وكان يعاصر الحسن بن زيد الشاعر ظافر الحداد الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، وكانت قد انعقدت صداقة بينه وبين أبي الصلت أمية بن عبد العزيز نزيل الإسكندرية ، وكان قد بارحها إلى المهديّة بتونس سنة ٥٠٦ . ولم يصله من ظافر كتاب فأرسل إليه يعاتبه ، ومن قوله يحببه عن كتابه^(٣) :

« فضضت الكتاب عن رسالتك التي يهيج قشيبا^(٤) ، ويضوع^(٥) طليبا ، ولا يترنّف قليبا^(٦) ، فخلتُ أني أختال أيّ اختيال في حلل الشباب ، وأذكر الأحباب ، وأرشف الرُضاب^(٧) ، من الثايبا العذاب ، بعد الصدّ والاجتباب :

ذكرتُ به عهدا كأن لم أقسُر به
وعَيْنا كأنني كنت أقطمه ونَبَا

ثم نزهت ناظري ، وجلوت خاطري ، بيدائع مانضته الكتاب ، من العتاب ، حتى وددت أني أجدد كل يوم ذنبا ، يوجب منه عبا ، كي أقطف منه مثل تلك الأزهار ، وأجني مثل تلك

(٥) يضوع : يفوح

(١) كارت : حزن .

(٦) قليبا : معينا

(٢) يدرع : يلبس . الدجّة : الظلمة .

(٧) الرضاب : الرين

(٣) انظر الرسالة في ديوان ظافر

(٤) قشيب : جدي

الأثمار ، فأنصحبها رياضاً ، وأعذبها حياضاً ، وأشرفها أجساماً وأعراضاً .

وظاير يعنى فى رسالته بسجعاته ، ويوفر لها كل ما يستطيع من جمال اللفظ وحسن الجرس ، حتى تقع من نفس أمية الموقع الذى يريد من بلاغة القول وروعة البيان . وإذا مضينا إلى زمن الأيوبيين لقينا القاضى الفاضل أهم كتابهم يديج كثيراً من الرسائل الإخوانية أو الشخصية واختلف منها على الدين بن عبد الظاهر باقات كثيرة فى مختاراته من رسائله التى سماها « الدر النظيم من نرسل عبد الرحيم » ومن قوله فى إحداها يصف لأحد أصدقائه دمشق :

« إني وصلت إلى دمشق المحروسة حين شرد بردها ، وورد وردها ، واضطر نباتها ، وحسن نعتها ، وصفا ماؤها ، وضفا^(١) رداؤها ، وتفتت أطيارها ، وتبست أزهارها ، وانثر^(٢) زهر أفحوانها فحكى ثنور غزلانها ، ومالت قصب بانها ، فانتنت تننى ولدانها . فلما قربت من بساتينها ، ولاح لى فسح ميادينها ، وتوسطت جنة واديا ، ورأيت ما أودعه الله العظيم فيها ، سمعت عند ذلك حماما يغرد ، وهزاراً^(٣) ينشد ويردد ، وقمرية^(٤) ينوح ، وبلبل بأشجانها يوح . »

وسلوب القاضى الفاضل واضح فى هذه القطعة لأبسجاءه فحسب وما يبلغ فيها من اكتمال الجرس والإيقاع بين أوائلها وتواليها ، بل أيضاً بما يوشى به كلامه من الاستعارات البديعة وزخارف الجناسات ، وكان ما يزال يضيف إلى مثل ذلك طباقاته وتورياته الرشقة وما عرف به من العناية بمراجعة النظر . وكثرت للرسائل بينه وبين ابن سناء الملك وأبيه القاضى الرشيد ، مما أتاح لابن سناء الملك أن يجمع منها كتاباً يسمى « فصوص الفصول وعقود العقول » ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بمخطوطة منه ، وهو مقسوم قسمين : قسم لمراسلات القاضى الفاضل وابن سناء الملك وقسم لمراسلات القاضى الفاضل مع أبيه ، وفيه مراجعات كثيرة بين الفاضل وابن سناء الملك تصل بنظرات له ونقد لبعض أبيات من قصائده . وحرى بنا أن نذكر كثرة استشهاد الفاضل فى رسائله الشخصية بالشعر حتى ليرى له القلقشندى فى الجزء الأول من صحبه^(٥) رسالة موزعة بين كلمات نثرية تليها أبيات شعرية ، ورسالة ثانية موزعة بين كلمات وشطور أبيات . ومن كتاب الديوان حيثئذ البارعين فى تحبير الرسائل الشخصية الأسعد بن عماد ، وسترجم له عما قيل .

(١) ضفا : سجع .

(٢) انثر : سجع .

(٣) هزار : سجع .

(٤) قمرية : سجع .

(٥) سجع : سجع .

ونغشى في زمن المالك فنجد الأدياء من كتاب وشعراء يتبادلون رسائل شخصية كثيرة ، من ذلك رسالة بعث بها محي الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٥٣ إلى الشاعر ابن النقيب الذي مرت ترجمته ، وقد بلغه أن شخصا عابه في جملة وأزرى به وبقدرته الكتابية ، وكان لا يزال شابا في نحو الثلاثين من عمره ، ويبدو أنه عرف أن ابن النقيب ردُّ على عابه ، فكتب إليه يهجو هذا العائب ويشكره على جميل رده عليه ، وهي رسالة طويلة ^(١) ، جعل عنوانها : التواضع ، وقد مضى فيها يصور حملة هذا العائب عليه ثم أخذ يعثفه تعنيفا شديدا ، وأنهاها بالدعاء لابن النقيب والدعاء على عابه بالويل والثبور ، ونلم بأطراف منها ، يقول :

« إن فلانا غَضُّ منى .. وزعم أن إناه إبانى غير مُقَمِّم ^(٢) ، وبناء مجدى غير محكم ، وأن جوارح إجادنى جرمة ، وقرائع ارجمالى قرمة ^(٣) ، وأن صدور المجالس تنكر إقدام أقدامى ، ويطون الطروس لأتلفح بأفلامى ، وأنى لا أعذنى جملة الكتاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للكرم لا أدخل معهم فى باب ، والذي أقوله له مخاطبا ، وأومى ^(٤) به إليه مجاوبا : ماكل الأفاقى نعبث بها الأنامل ، ولاكل المراعى تنصبُّ بها الحبال ، ولاكل زَنَازِر ^(٥) يُخاضِرُ ، ولاكل جَنَاح يُهاضِرُ ، ولاكل جامع يُراضِرُ ، ولاكل سابعة تُفاضِرُ ^(٦) .. ولا يَصُرُ الزناد الوارى ^(٧) » قدحُ القادح ، كما أنه لا يصير النجم السارى ينبُجُ التابع .

والرسالة على هذه الشاكلة من السجع الموقَّع الملحن تلحينا حسنا ، مع توشيته بزخارف الاستعارات ومحاسن الجناسات ، وقد ورى في كلمة « قدح القادح » مع ذكر الزند الوارى فلم يرد بها قدح القادح للزند طلبا لإخراج النار منه ، وإنما أراد ذم الهاجى ، من قولهم : قدح فى عرض أخيه إذا عابه وثلبه .

وتكثر في الرسائل الشخصية حيثذ تقریظات الأدياء والشعراء ، ولعل شاعرا لم يكثر تقریظ شعره ومصنفاته كما قرَّظ ابن نباتة . ومُرٌّ في ترجمته أن له كتابا سماه « سجع المطوق » ترجم فيه لكل من قرَّظوا كتابه « بجمع القوائد » . وتلميذه برهان الدين القيراطى الذى مرَّت ترجمته بين الشعراء تقریظ طريف لشعره ونثره ، ومن قوله فيه ^(٨) :

(١) انظرها في نهاية « تمام المتن في شرح رسالة ابن .. » زعار : النهر الزنار : التلى الطامى .

(٢) نفاض : تكون سابعة ضافية

(٣) الوارى : المخذ .

(٤) خزنة الأدب للحوى ص ٥٤٧ .

زبدون للصندى

(٥) مقيم : ملهى

(٦) قرمة : جرمة .

(٧) أومى : أشير .

« لا غرو أن فضّح بديع^(١) الزمان بلفظه البديع ، وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التي كل فصل منها ربيع ، وتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس بلاغته بروجًا ، وأعلّٰى هممه التي لا ترضى الشهب جياذًا والأهله سُرُوجًا .. وقد زهت أمداحه المؤيدية^(٢) فأصبحت بيوته المرفوعة (ذات العاد) وراقت محاسن التي (لم يخلق مثلها في البلاد) .. وطالما سرح الناظر في بستانها نظره ، ورام^(٣) ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباي فوجدها مسكرة^(٤) ، وعلم المنتهى أن هذا خاتم الأدباء لامحاله ، والمترسل الذي نهض عنه بأعباء كل رسالة .

والتقريظ زاهر بالانقباس لآي القرآن الكريم وألفاظه كقوليه في مديح آيات ابن نباته إن بيوته المرفوعة أصبحت ذات العاد . وفي كلمة بيوت تورية إذ لا يريد بيوت الشعر من الخيام التي ترفعها الأعمدة أخذًا من قوله تعالى في سورة الفجر (ألم تركب فعل ربك بعاد إرم ذات العاد) أي أنهم كانوا أهل خيام وأعمدة ، وهو لا يريد ذلك كله وإنما يريد بيوت شعر ابن نباتة أو آياته . وأكمل في العبارة التالية وصف القرآن في السورة نفسها لعاد بقوله : (التي لم يخلق مثلها في البلاد) . وراعى النظر مراعاة دقيقة حين ذكر ابن سكرة فذكر معه القطر النباي يريد شعر ابن نباتة المحلو . وحين ذكر المنتهى أشار إلى ما قبل من تنبؤ وأنه نهض عنه بأعباء كل رسالة ومعروف أنه لم يثبت تنبؤ المنتهى تاريخيا غير أن القيراطي رأى استغلال ذلك في جلب ما يتخدم غرضه من مراعاة النظر والتورية بكلمة رسالة . وربما كان أكثر من رسائل التقريظات رسائل الاستعدادات ، إذ كان الأدباء من الكتاب والشعراء يستدعى بعضهم بعضًا للمشاركة في مجالسهم ومابها من أنس ومدام ومن رفاق وصحاب . ولبلد الدين بن صاحب المتوفى سنة ٧٨٨ للهجرة رسالة^(٥) طويلة أرسل بها إلى فخر الدين بن مكانس يدعوه لجلس أنس وشراب ، واصفًا له ما سيتمتع به معه من خمر معتقة ، وكأنه كان من المدمنين عليها في غير تخرج ، وله يقول : هـ هل لك - بسط الله آمالك ، وضاعف نعيمك ودلائك - في عنراء مصونة ، كاللدرة المكنونة ، فتنة مفتونة ، كأن على خدها فوق ورده ياصينة .. لها من ذاتها طرب يغنى عن المزامير ، بلقية الجمال لها (صرح مرمّد من قوارير) ليلها من حسنات نهار ، وضوء وجهها ليد لامسها سوار ، تثلثت بالصباح ، وتلطف حتى مازجت الأرواح ، أدمجها كلما تمتق يغلو ،

(١) بديع الزمان : صاحب اللغات والرسائل المشهور . (٤) مسكرة : منقطة .

(٢) القويدية : يريد أمداحه في القويد (انظر تهجته) . (٥) مطالع الدعور للزفول ١٥٧/١ والأدب في مصر

(٣) ابن سكرة : شاعر بغدادى ماجن محاصر للمنتهى . الملوكى للدكتور محمد زغلول سلام ص ١١ .

ووردها كلما مرَّ بحلوه ، أيامها أعياد ، وأوقاتها أنوار القلوب والأعياد . من ه القاصرات الطرف ، في كل قَصْر وهي على الإطلاق ذهبية المعصر .. لاتنزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف الثعب من صانع راحتها ، حمراء تخلف ثوبها على النعمان ، بل تكاد تطبق عيناها على الإنسان .

وهو يثر في الرسالة كثيرا من التصاویر مع القدرة البديعة على صياغة السجع والاقباس فيه أحبابنا من لفظ الذكر الحكيم كقوله مودياً عن دَنّ الخمر الزجاجية بما جاء في سورة النمل من وصف الصرح في قصر سليمان عليه السلام الذي شمرت بلفيس ملكة سبأ ثوبها حين دخلته إذ (حسبه لُجَّةً وكشفت عن ساقها قال إنه صرح مُرد من قوارير) أى من زجاج شفاف لا يحجب ماوراءه . ووصف بدر الدين بن الصاحب الخمر التي دعا ابن مكناس إليها بأنها من القاصرات الطرف اللاتي لم يمسهن أحد ، أخذاً للكلمة من الذكر الحكيم . ولم يلبث أن قال إنها ذهبية المعصر . والتورية واضحة إذ لا يريد أن عصرها ذهبي كما يقال عصر هرون الرشيد الذهبي مثلاً وإنما يريد أنها صفراء اللون حين تعصر من عنها وكرمها . وفي السجنتين التاليتين بآخر القطعة توريثان واضحتان ، فهو لا يريد بلفظة « راحتها » كفها كما تشهد لذلك كلمة صانع ، وإنما يريد الخمر نفسها إذ تسمى راحة . وبالمثل لا يريد في السجعة التالية بالإنسان إنسان العين وسوادها وإنما يريد الإنسان الحقيقي الذي يحتسبها .

وظلت الرسائل الشخصية تتداول بين الأدياء طوال الحقبة العثمانية ، ودخلها غير قليل من التكلف والتصنع . ونسوق قطعة جيتئت من رسالة محمد بن أبي الحسن البكري الذي مرت ترجمته ، أرسل بها إلى النور العسلي ليشلى بمجلسه في منزله نَصْر يلقى في شاطئ ماء النيل وقت فيضانه بنخضة الزروع الزاهية ، وفيها يقول (١) :

« سيدنا البر الذي يجرى بحر الفضائل من برّه ، ويمدب الورد والصندُ بما يصدر من صدره ، ويفيض إحسانه نهراً لراحته وآمله ، وتبتدر الأنام لتلقى تيار أنامله ، وتتزاحم على سيف (٢) زخار علومه ، تراحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه .. ومدينة بولاق هي مجتمع البحور ، ومدار ظلك السرور ، يفلتك الجبور ، طفحت بالنيل لا جُزَرَ عن الجزر مدّه المديد ، واستلت سيف النهر لقطع حروف الجحروف من أقصى الصعيد » .

والرسالة تجري على هذه الصورة من التكلف الشديد كما يلاحظ في السجعات الأخيرة ، وقد تصنع فيها لذكر مصطلحات الفلك والعروض والنحو . ولحمد الطيلوني من كتاب القرن الحادى

عشر المجرى وشعرته رسالة^(١) هجا بها القاضي عمر المقرئ هجاء أراد به إلى الفكاهة والفحك من مثل قوله :

« يامن نوبة رث ، وحديث غث ، ياكثر الثباح ، ياخابا في الغدو والرواح ، ياتارك السئة والفرض ، يامن سعى بالفساد في الأرض ، يامهبط الدواهي ، وتابع النى والملاهي .. ياكثر الشكوى ، ياأثقل من رضى^(٢) ، ياموت الحبيب وطلعة الرقيب .. ياأثقل من المكتب على الصبيان ، ومن كرا^(٣) الدار على السكان » .

والرسالة طويلة اقتطف منها المحب مقتطفات في نحو سبع صفحات أتبعها بقصيدة هجاء على غرارها للشهاب الحضاى مؤلف ربحانة الألبا . وتظل المحسنات البديعة بارزة في الرسائل ، ولكننا نشعر في العبارات بضعف الصياغة ، وقلما نشعر بمعاطفة فياضة أو إحساس مرهف أو معنى دقيق . وحرى بنا أن نقف عند بعض النابهن من كتاب هذه الرسائل الشخصية على مدار العصر ومختلف أزمته .

ابن^(١) أنى الشخاء

وقيل ابن الشخاء ، هو الحسن بن محمد بن عبد الصمد العسقلانى ، ولانعرف متى انتقل هو أو أسرته العسقلانية إلى القاهرة ، ويبدو أنه التحق مبكرا بدواوين الدولة الفاطمية لعهد الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) وتخرج فيها على من كان يعمل بها من كبار الكتاب ، ولع اسمه فيها وتألق ، غير أننا لانمضى إلى سنة ٤٨٢ حتى نراه يُقتل بسجن مصر المسمى خزانة البنود ، وأكبر الظن أن بدرًا الجمالى وزير المستنصر هو الذى أمر بقتله كما أمر بقتل صهره القاضي إسماعيل بن على كأمراً بنا آنفاً في الحديث عن حفيدهما الحسن بن زيد .

وكان ابن أنى الشخاء شاعرا بارعا كما كان كاتباً بارعا ، ولذلك لُقّب بالهجد ذى الفضيلتين ، وفيه يقول العماد : « الهجد مجيد كتمته ، قادر على ابتداع الكلام ونحته ، له الخطب البديعة ، والملاح الصنيعة » ، ويقول ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء والشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة قيل إن القاضي الفاضل عبد الرحيم اليتسانى منها استمعد ، وبها اعتد .. كتب في ديوان

(١) نسخة ربحانة المسجى (تحقيق عبد الفتاح الحلو طبعة ١٩٥٨/٤)

(٢) انظر في ابن أنى الشخاء معجم الأدباء لياقوت

١٥٢/٩ والخيرة لابن بسام (طبع الدار العربية للكتاب

بتونس القسم الرابع - المجلد الثانى) ص ٦٢٧ وابن خلكان . ٨٩/٢

(٣) رضى : جبل بالمدنية

(٤) كرا : أكر

الرسائل للمستنصر صاحب مصر.. إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء وأمرائه زمانه ، ويقول عنه ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة ، والرسائل المهيبة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطولى » . وبدون ريب كان أبرع كاتب قاهري في القرن الخامس الهجري ، كما تشهد رسائله الديوانية والشخصية ، واحتفظ بإقوت وابن بسم في الذخيرة بطلاقة كبيرة منها ، وأكثرها رسائل شخصية بديعة ، من ذلك قوله في رسالة استعطاف : « المودات إذا كانت مينة العفود ، صادقة الشهود ، موضوعة على أصل عريق ، وأساس وثيق ، لم تَحْزَمْهَا الشبهة المُرْمِضة ^(١) ، ولم تزلها الأباطيل المعترضة ، وإن تناقضتها ألسن مختلفة ، وعكثها برود من اللفظ مفوَّدة ^(٢) ، ولما رأيت زيارة مولاي قد صارت مرقمة ، وجَنُوب ^(٣) مودته قد عادت مروعة ، وصرت أرى قوله متناقضا ، وماء البشر من وجهه غائضا ، من بعد ما عهدته :

تَبَيَّ طَلَاةٌ وَجْهَهُ عَن وَجْهِهِ فَكَادَ تَلْقَى الشَّجَحَ قَبْلَ لِقَائِهِ
وَضِيَاءَ وَجْهِهِ لَوْ تَأَمَّلَهُ أَمْرُو صَادِي الْجَوَانِحِ ^(٤) لَارْتَوَى مِنْ مَانِهِ

لم أتماسر على سؤاله عن العلة خوفاً أن يعيب على الارتباب بوجهه ، ويتطرق سوء الظن على عهده ، فسألت من يعلم دقائقه ، ويحبر ظاهره وباطنه ، فأخبرني أن بعض الناس - ولم يسس - نقل إليه عني فشنَّ الغارة على وفاته ، وزلزل أواخيه ^(٥) وده وإخائه ، قتل : عتب ، والله ولا ذنب ، وشكابة ولا نكابة ^(٦) ، وأنا أحاكم مولاي إلى إنصافه ، لإسماعه ، وعذله ، لأفضله ، وما كان أجدره برفض قول الماحل ^(٧) ، وتغليب الحق على الباطل .. والآن فقد أَوْضَعْتُ وَأَوْجَفْتُ ^(٨) ، وتألفت مولاي واستعطف ، فإن عادت ظلال وده مذبذبة ، وحبال كرمه محصورة ^(٩) جديدة ، فحسنٌ بتلك الشائيل ، أن تجمع شمل الفضائل .

والسجمات تنزل عن القم بخفة ورشاقة ، تشهد لابن أبي الشغب بأنه كان كاتباً مجيداً حقاً ، وأن الكلم كان بطاوعه ، ليحيله درراً مختارة . وكان يزين سجعاته بمحسنات البديع من جناس

(١) المرمضة : الموجعة .

(٢) البرود للثورة : الثياب الرقيقة المخططة .

(٣) الجنوب : ربح لينة كالسليم ، والامتارة واضحة .

(٤) صادي الجوانح : عطشان .

(٥) أواخي : أوصري .

(٦) نكابة : غلبة وقهر .

(٧) الماحل : السامي باليمين .

(٨) أوضع : سار سيراً سريعاً ، ومثلها أوجف .

(٩) محصورة : محكة مينة .

وطباق . وتكثر عنده الاستعارات المبتكرة الطريفة ، وكان يعرف كيف يغمس عليها ويستخرج لآلتها النفيسة من أصدافها البراقة ، وطبيعي للقاضي الفاضل وللكتاب من بعده أن يضروا بحفظ كلامه ويستحضروه فيما يكتبون ويصوغون . وله من رسالة يعاتب فيها بعض القواد .

« رأيت فلاناً عند نظرنه لى بالأمس قد قُلب^(١) حاجبه ، وزعزع مناكبه ، فقلت : ماله ؟ أنزل إليه وحنى ، أم عصب^(٢) به أمر ونهى ، أم قلَّ عقله فعقَّ نفسه وظلمها ، وجهل مقادير الأشياء وقيمها ، واعتقد أن الدنيا طوع حكه ، والقطن صائب فهمه ، أم رأى الللائكة المقربين تشفع به ، والحدود العين^(٣) تشكو لاجع حبه ، وغار الجنة تدلَّت إلى يده ، ونار جهنم تُقبس من زنده ، والكوثر يمدُّ من معينه ، والسموات مطوياتُ يمينه »

وهو عتاب مرير لهذا القائد الذى شمع بأنفه عليه ، وتعالى واستكبر استكباراً ، فغى يهزأ به ويسخر منه سخريات متعاقبة ، فهو ليس نيباً مرسلًا . ولا أمراً ناهياً ، بل هو جاهل مغرور ، لا يعرف قيم الناس ولا أقدارها ، وكأنما ظن أنه الحاكم بأمره وأن عقله يجمع القطن ، بل لكأنما توهم أنه نبي تشفع به لللائكة ، وأن الحدود العين تشكو بتأريح حبه ، وأن غار الجنة مدَّ يده ، ونار جهنم تقبس من زنده الوارى المضطرم ، ومن معينه يشمد نهر الجنة ، أو أحد أنهارها : الكوثر . بل لكأنما توهم نفسه رب الكون ، ونحال السموات مطوياتُ يمينه . وعلى هذا النحو تتوالى سخرياته ، يطمئن بها هذا القائد فى الصميم ، وفى آخر القطعة اقتباس واضح لآية سورة الزمر : (والسموات مطوياتُ يمينه) . ويكثر هذا الاقتباس لآيات القرآن الكريم وألفاظه فى رسائله ، كما يكثر الاستشهاد بالشعر وإنشاده فيها مازجاً له بكلامه . وكلُّ ذلك وما تقدم من استخدامه للمحسنات البيعية وضمه الكتاب المصريون بعده شعاراً لهم وسبباً فى رسائلهم وله من رسالة فى هجاء مضيف ومائتته .

« ولجتُ منزلاً قد استعار من قلب العاشق حراً ورحباً^(١) ومن أخلاق مالكة ضيقاً وحرماً ، كأنما زفرت فيه النار ، ونُقِط على جذرائه بالقار ، فجلست طويلاً إلى أن حضر الإخوان ، وقُدِّم

(١) قلب : حبس وضم حاجبيه .

(٢) عصب : ضمَّ إليه .

(٣) العين : جمع عيناء : ولعة العينين جعلتها .

(٤) رهجا : غياراً .

الخيوان^(١) ، فرأيت أرغفة قد أحكت في الصغر والإلطف ، ولم تتعوذ^(٢) قط من الأضياف .. وثلاثة صحاف ، واسعة الأكتاف ، بميدة الأوساط من الأطراف ، قد جُعل في قرارة كل منها مالا يدفع الثَّقب^(٣) ، ولا يجده اليد إلا بالتعب ، فجُلتنا جولة وعينه تطرف علينا شِلالا وبِميننا ، وتتفقد منا حركة وسكوننا ، وقتنا ولم نقارب الكفاف ، وقد ظُنُّ بنا الإسراف .

والسجع يطرد دائما عنده على هذا النحو من صفاء اللفظ ورحابته والقدرة الباهرة على الملازمة بين السجعات في الجرس ، مع الانطلاق والسهولة ، وكأنه يصدر عن النيل العذب وسلاسته . وهو بحق جدير بما أسبغ عليه الأسلاف من ثناء وإطراء .

ابن مَئاني^(١)

هو أسعد بن الخطير مذهب بن مينا بن أبي المليح زكريا بن مَئاني ، سليل أسرة قبطية من أسبوط ، هاجرت منها إلى القاهرة في القرن الخامس الهجري ، وكان جده مَئاني جوهريا واشتهر بأنه كان يصبغ البَلُورَ صبغة الباقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر . ويقال إن الفَصَّ من عمله كان إذا نودي عليه في سوق الصاغة تشوف نحوه العيون لجودته وحسن منظره . واتصل ابنه أبو المليح بوزير المستنصر بدر الجمالي أمير الجيوش ، ووظفه بديوان الإقطاعات وشئون المال ، وكتب بعده لابنه الأفضل ، وظل هذا العمل الديواني في بيته ، يتولون ديوان الإقطاعات أو ديوان الجيش أو ديوان المال ، ولعلها جميعا كانت ديوانا واحدا متداخلا . وتولَّى هذا الديوان لآخر أيام الدولة الفاطمية الخطير مذهب ، حتى إذا أسندت الوزارة في آخر أيام العاضد الفاطمي إلى أسد الدين شيركوه نراه يُسلم هو وأولاده على يده . وأقره أسد الدين على ما يده من ديوان الإقطاعات ، وقيل بل ديوان الجيش . وكانا متداخلين كما ذكرنا . ومعروف أن أسد الدين شيركوه ولي الوزارة المصرية

للفنطى ٢٣١/١ ونسخت للقرنيزى ٥٧٧/٢ والنجوم الزاهرة ١٧٨/٦ والديانة والنهاية لابن كثير ٥٢/١٣ وشفقات الذهب ٢٠/٥ وحسن الحضرة ٥٦٥/١ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٤٢/٨ ولأبيه الخطير ترجمة بعده في الحريدة وقيله في المغرب .

(١) الخوان : الثلاثة عليا الطمام
(٢) كتابة عن أن الأضياف لم يسرها
(٣) الثقب : الجرح الشديد
(٤) انظر في ابن مئاني وترجمته ورسائله الحريدة (قسم مصر) ١٠٠/١ ومجموع الأدباء ١٠٠/٦ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٦٩ وابن خلكان ٢١٠/١ وإنباء الرواة

سنة ٥٦٤ وكان أسعد في العشرين من عمره فأسلم وحسن إسلامه وهو لا يزال في ريعان شبابه ، وكان ساعد أبيه وعونه طوال عمله الديوانى إلى وفاته سنة ٥٧٧ .

وكان القاضى الفاضل يعجب بابن ممان ويسميه بلبل المجلس لظرفه ، مما جعله يعينه ناظر الدواوين بمصر مع إسناده ديوانى الجيش والمال إليه ، وظل له هذا العمل بقية مدة صلاح الدين وابنه العزيز والأفضل ، حتى إذا ولي السلطان العادل بن أيوب سنة ٥٩٦ واستوزر الصنى بن شكر أخذ الجوى يكفهر بينه وبين الوزير ، بسبب ما كان يصدر منه في حقه أيام عمله في الديوان معه ، فلم تخمس مدة طويلة حتى أخذ يدبر عليه المؤامرات ، وصودرت أمواله . واستمرت فترة نحو عام ثم احتال في الفرار إلى الشام ، وأبعد في فراره حتى نزل حلب سنة ٦٠٤ على سلطانها الظاهر بن صلاح الدين فأحسن استقباله ، وجعل له راتباً معلوما وظل يسبغ عليه عطاياه حتى توفى هناك سنة ٦٠٦ .

وصنف ابن ممان مصنفات كثيرة عدل له ياقوت في معجمه منها أكثر من عشرين مصنفًا ، منها مؤلفات ومنها مختارات شعرية من بعض الدواوين أو من كتب الموسوعات الشعرية مثل الذخيرة لابن بسام . ومن مصنفاته « الشيء بالشيء » يذكر ، ويقال إن القاضى الفاضل أعجب به حين عرضه عليه وسماه سلاسل الذهب . ومن أهم مؤلفاته كتاب قوانين الدواوين الذى نشره بمصر عزيز سوريال عطية في جزء واحد ، ويبدو أنه مختصر للكتاب إذ يقول المقرئ في خطه : « كتابه قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجري فيها ، وهو أربعة أجزاء ضخمة ، والذى يقع في أيدي الناس جزء واحد اختصره منها غير المصنف ، فإن ابن ممان ذكر فيه أربعة آلاف ضبعة من أعمال مصر ومساحة كل ضبعة وقانون ربيها ومنحصلها من حبن (نقد) وغلة » . ومن أهم مؤلفاته تهذيب أفعال ابن طريف في اللغة ، ويقول القفطى في إنباه الرواة : « أجاده ، وأتى فيه بالحسن وزيادة » ومن أجله ترجم له بين اللغويين والنحاة . وله كتاب اختار العامية لغة له ، هو كتاب الفاشوش في حكم قراقوش ، وسنعرض له في غير هذا الموضع . وكان له ديوان شعرى سقط من يد الزمن . ونظم سيرة صلاح الدين كما نظم كتاب كلية ودمنة شعرا . وكان أبوه الخطير شاعرا كما تدل على ذلك ترجمته عند العماد وفى المغرب .

وكان ابن ممان يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، وفيه يقول العماد : « أحد الكتاب في الديوان الفاضل ، ذو الفضل الجلى ، والشعر العلى ، والنظم السوى ، والخط القوى ، والسحر

المانوى ^(١) ، والروى الروى ^(٢) ، والقافية القافية ^(٣) أثر الحسن ، والقرينة المقترحة صورة
 الثمن ، والفكرة المستقيمة على جد ^(٤) البراعة ، والفظة المستمدة من مدد الصناعة . وبعد
 أن أشد العاد طائفة من أشعاره روى فصولا من رسائله الشخصية تدل على براعته الكتابية بجانب
 براعته الشعرية مستهلا بما يقوله : « ومن نَزَر ^(٥) نزه البديع ، ونور فجره الصديق ^(٦) وغرر درره
 الثمينة ^(٧) ودرر غرره الصنعة ^(٨) ، ما تُحْدَى ^(٩) له بهائم الخاتم . وتُحْدَى ^(١٠) به كرام
 المكارم ، ويرتفع الحسن في روضه ، وتكرع الحساء من حوضه ، وتنشط الآداب بدابه ^(١١) ،
 وترتبط الأبواب ببابه . »

ومن طريف مادونه له العاد فصل من رسالة شخصية يصور فيها فراقه لصديق في إحدى
 الأمسيات قائلا :

« فصلت عنه في أنحريات النهار ، وقد ظهر في أطراف الجدران قَرَق ^(١٢) فراق الشمس
 اصفرار ، فلما ذَهَبُ ذهبُ الأصل بنار الشفق ، ولبست المشارق السواد لما تم في المغرب على
 الشمس من الغرق ، وأقبلت مواكب الكواكب في طلب النار ، كدراهم النار ^(١٣) وتشابهت
 زواهرها - وإن اختلفت في الأسحار - بالأزهار في الأشجار ، وتكلف القمر الموافقة فظهر على
 وجهه الكلف ^(١٤) ، ومرت به طوابع النجوم فلم يتخبرها حسدا فأعرب عن غدر الخلف
 بالسلف ، وظهر الوجوم ، في وجوه النجوم ، وعجل صَبَرُ السَّريين ^(١٥) فواحد طائر يحوم ، وآخر
 واقع لا يقوم . ولم تزل متلاحقة متسابقة لتخفو الأثر وتسمع الخبر ، إلى أن بدا سَوَسَنُ الفجر
 ولاح ، وابسم نثر الصباح عن الأفاح ^(١٦) ، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا ، وبرزت الغزالة من
 أسْرِ الكِناس ^(١٧) طلفة الهباء . »

(١٠) تحدى : تساق بالأراجيز والأشعار .

(١١) دابه : تسويل دابه أى غطه (١٢) فرق : جزء

(١٣) النار : ما ينزل على العروس في الزفة من الدراهم

(١٤) الكلف : ما يحول وجه القمر أحيانا من كفرة

(١٥) السريان : نجان أحدهما يسمى النسر الطائر ويسمى

الثاني النسر الواقع

(١٦) أفاح : جمع أفرحان وهو نبت زهره أبيض وورده

كأشنان المشار وهو الأولولة ويشبه به الأسنان .

(١٧) الغزالة : الشمس . الكناس : بيت الغزال في

الشجر يستتر به . طلفة الهباء : بشة الوجه .

(١) المانوى نسبة إلى ماني مؤسس مذهب المانوية الفارسي

قبل الإسلام

(٢) الروى الأول : الحرف الذي بُني عليه القصيدة

والروى الثانية من الماء أى شاق الخلة .

(٣) القافية الأولى : نهاية البيت في القصيدة ، والقافية

الثانية من قفا الشيء أى نجه .

(٤) جد : نج مستور (٥) نور : زهر

(٦) الصديق : المشرق نورا (٧) الصنعة : الناصفة

(٨) الصنعة : البديعة .

(٩) تحدى : قطع . بهائم : جمادات . الخاتم : التوازي

وبدل هذا الفصل على أن الهاد الأصيلاني كان محققا كل الحق في التنويه ببراعة ابن ممان الكنائية ، وهي براعة تكاد تبدو في كل سجمة من سجمات هذا الفصل ، فأضواء الشمس في الأصيل نمكس بعفرتها على أطراف الجدران فرقا وفرعا لهول الفراق . وتَوَارَى ذهب الأصيل وراء نار الشفق الملتاع ، ولبت المشارق السواد على الشمس الغريقة في المغارب . وأقبلت مواكب الكواكب ، وجبوشها تطالب للشمس بالنار ، متفرقة ومتجمعة وكأنها ينثار الدراهم في الأعراس ، أو كأنها الأزهار على الأشجار في الأسحار ، وتكلف القمر أن يظهر وحده لغياب الشمس أخته فظهر الكلف على وجهه ، ومرت به الكواكب وطولها فلم يسألها ما الخبر ، حسداً وغدراً كما يغدر الخلف بالسلف . وبدأ الوجوم في وجوه النجوم ، وكاد النيران أن يفقدا صبرها فواحد طائر بحوم وآخر واقع لا يقوم . ولم تزل النجوم متلاحقة ، إلى أن بدا سوسن الفجر وزهره الأبيض المشرق ولاح ضباؤه ، وابسم نثر الصباح عن أضواء كالأقحاح . وطالما شَبَّ الشعراء بمجموعة نجوم الثريا بالعنود . ويستغل ذلك ابن ممان ، كما يستغل تسمية الشعراء للشمس الغزالة فجعلها تستر ليلا وراء الأفق في كناس ككناس الغزال والظباء في الشجر . ومراعاة الظنير واضحة في السجمات الأخيرة . ويشيع في الفصل كله حسن التعليل ، كتعليل ابن ممان الرائع لصفرة الأصيل على أطراف الجدران ، وتعليله لانتشار الظلام في بواكب الليل على المشارق حزناً على غرق الشمس ، وهو حزن تبعه لبس السواد ، ومن هذا اللون أيضا تعليله لكلف القمر لتكلفه الحزن على غرق الشمس . ويتأدى ابن ممان مع مراعاة الظنير ، فيجعل القمر لا يسأل الكواكب عن مصير الشمس حسداً يستشعر فيه من تلقاء نفسه غدر الخلف المعروف بالسلف . ومن هذا اللون أيضا ما علل به طبران أحد النسرين ووقع صاحبه لما قدما من صبرهما . وتلاحق في تضاعف ذلك الاستعارات ، وما يوشى به سجمات من الجناسات والعلقات . وله من صدر مكانة :

« لم يزل العبد لما عرض من إعراض المجلس .. ذا زفراتٍ سَوَامٍ تنصَّرم^(١) ، وعبرات هوام تنصَّرم^(٢) ، وعبارات عن بسط عذره تمزُّ بالكلام عِيَا فيتنمُّ^(٣) » ، بالصمت عن أن يتحرَّز ويتحرَّم^(٤) ، وأفكارٍ تنزَّه عن إساءة الظن بمودته فا يتكذَّر حتى يتكرم ، فكم تناول القلب جلَّده ، فجَلَّده بالقلق لما تجاوز حدَّه وحدَّه^(٥) ، وأجرى من سوابق دموعه حسكراً أجرى شفق

(١) ينحرم : يحده حراما

(٥) حده : ضربه بالسياط

(١) سوام : لازمة لا يبرح . تنصرم : تنتقل

(٢) هوام : ساقطة . تنصرم : تنطفئ

(٣) يتنم : يتوكل

خَدَهُ وَخَدَهُ^(١) .. إلى أن بدت صحيفة وجه صَبْرِهِ مسدودةً ، ونمى لو كان الموت قبل إخلافه وعدّه ، وإخلافه وَدُهُ^(٢) وَدُهُ^(٣) ، حتى جَنَى وَرَدَ ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره ، ورفع ناظره بقدمه عليه على كَأْفَةِ أمثاله وأنظاره ، فلم أن عَلم المودة قد رُفِعَ ، وموصول حبل الجفوة قد قُطِعَ ، وكاد القلب يخرج لمصاحته لو استطاع نفاذاً ، واجتمعت فيه أمانى النفس ، فاتخذته دون جميع المَلَأْ مَلَأْ^(٤) . وتناول بيد الإجلال ، وفَضَّ يد الإدلال ، فوجده منظوماً على خطِّ كالكتوس المرسومة لما لاح مداده مُدَاماً ونَقَطَهُ حَيّاً . وألفاظ تبيح للخواطر طرباً ، وتغريضات لو كان التصريح فضة لكانت ذهباً ، ومَنَى مالاحت سحائبها حتى وَكَفَتْ^(٥) وأبَاد ما استكفت فواضلها حتى عَمَتْ وَكَفَتْ .

ووشى الجناسات والاستعارات واضح في هذا الفصل ، فالزفرات تتصرَّم والعبرات تتصرَّم بينا يتذم بالصمت ويحرم . ولانلبث أن تلقانا جناساته التامة . فالقلب يلوذ إزاء إغراض صاحبه عنه في مجله يجلده فيضربه بأسواط القلق ، حين تجاوز خَدَهُ ومنهائه ، ويعدّه كما يُحَدُّ الجناة ، وتجري سوابق دموعه فتشقى خده وتخدّه أى تشقه وتؤثر فيه ، وتخلق وتبل مودة صاحبه فيمتنى لو كان الموت وَدُهُ وزاره . ويعود ابن ممانى إلى هذا الجنس التام بين « المَلَأْ مَلَأْ » كما يعود إليه في نهاية الفصل حين وكفت السحب أى أمطرت وعمت فواضل صاحبه وكفت من الكفاية . وتلقانا في الفصل مراعاة النظر والبطاق ، وكأنما كان ذلك شعاراً له في نثره . ومن طريف ما أثر عنه من تصويره لوفاء النيل قوله .

« وأما النيل المبارك فإنه عَمَّ الْبَقَاعَ^(٦) ، وطبّق^(٧) ، الْبَقَاعَ ، وانتقل من الإصبع للذراع ، حتى لم يُلَفْ بمصر قاطع طريق سواه ، ولا موهوب مرهوب إلا إياه . »

وهو يصور في هذه الكلمات القليلة فيضان النيل بل طوفانه الذى لا يقاس بالإصبع وإنما بالذراع والذى علا موجه مرتفعات الوادى وجميع البقاع ، حتى قطع الطرق وأخذ بخرق الدور والسكان ، وذهب الناس وطلبوا منه الأمان . ولعل في كل ما قلنا ما يصور قدرة ابن ممانى البليغة

(١) خده : شقّه وأثر به

الكفاية

(٢) إخالق الشبى : جعله خالياً

(٣) ودّه : زأزه

(٤) ملأ : ملأ

(٥) وكفت : عَمَّ

(٦) البقاع : مرتفعات وادى النيل

(٧) طبق : عَمَّ

وأنه كان جديرا بأن تبنى كتب الأدب والتراجم . بشعره ونثره ، ونحمل إلينا باقات كثيرة من رسائله .

فخر الدين ^(١) بن مكانس

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن إبراهيم بن مكانس ، من سلالة أسرة قبطية ، ولد لأبيه سنة ٧٤٥ بالقاهرة . وكان الأب مسلما كما يتضح من اسمه ، وكان من الكتاب في الدواوين ، فنشأ ابنه على غواره ، وكان ذكيا ذا ملكة خصب ، فسال الشعر مبكرا على لسانه . وصحب برهان الدين القيراطي وبدر الدين البشكى الشاعر أحد تلاميذ ابن نباتة ، وعنه روى شعره ونثره . وكان حنفي المذهب . واحتل سريعا مكانة أدبية بين أقرانه في القاهرة ودواوينها السلطانية ، ورقى بها إلى منصب ناظر الدولة ، وغيره من المناصب الرفيعة . وغضب عليه السلطان برقوق (٧٨٣-٨٠١) فلت مرة فأمر بمصادرته وتأديبه على خشبة السرايا منكسا على رأسه ، فقال :

وما تعلقتُ بالسرايا منكسا لجرمة أوجبتُ تعذيبَ ناسوتي ^(٢)
لكنني مذ نفتتُ السحر من أدنى علقتُ تطليق هاروت وماروت

وبدل البيتان على ظرفه . وعفا عنه السلطان برقوق وأعادته إلى العمل ، ثم عينه وزير دمشق ، فأقام بها مدة . وفي صحبة السلطان برقوق دخل حلب ، وطارح فضلاءها كما طارح فضلاء دمشق . وطلبه السلطان برقوق بعد عودته إلى القاهرة ليل الوزارة بالديار المصرية ، غير أنه توفي قبل دخوله القاهرة ، ودفن بها سنة ٧٩٤ قبل أن يكمل ستة الخمسين . وخلف ديوان شعر كبير ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منه إحداهما بخط ابنه مجد الدين وكان شاعرا بارعا على شاكفة أبيه ، وقد أنشدنا بعض شعره البديع في غير هذا الموضع .

وأشاد بفخر الدين كل من ترجموا له ، فيقول ابن حجر في الدر الكامنة : « كان قوى الذهن حسن النوق حاد النادرة يتوقد ذكاء » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان أدبيا فاضلا شاعرا

٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٤١١ ، ٥٤٧

(٢) لحمة : لجرم أى الذنب . ناسوتي : جدى

(١) انظر في ابن مكانس وترجمته ونثره وشعره الدر

الكامنة ٤٣٨/٢ والنجوم الزاهرة ١٢/١٢ وصح الأعتى

٢٦٧/١٤ وخزانة الأدب للحوى ص ١٩ ، ٢٢٤ ،

فصيحاً بليغاً .. وهو أحد فحولة الشعراء بالديار المصرية في عصره ، وشعره في غاية الحسن والرفقة والانسجام ، وديوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدي الناس ، وكان كثير التورية فيه على نحو ما ينضح مما رواه له مترجموه وخاصة الحموى صاحب خزانة الأدب . وله رسائل شخصية تدل على روعته البيانية ، من ذلك رسالة احتفظ بها القلقشندي في صبحه كتب بها إلى بدر الدين البشكني في غيخته عن مصر بدمشق سنة ٧٨٤ وتصادف أن كان فيضان النيل عالياً وزاد زيادة مفرطة ، فرأى أن يصور له ذلك قائلاً :

« ربنا اجعلنا في هذا الطوفان من الآمنين ، وسلاماً على نوح في العالمين . مات أخيراً مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ .. فإنه قارب النيل أن يمتزج بنهر الهجرة بل وصل وامتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه المعنى بقول القائل : حَدَّثَ عن البحر ولا حرج .. وسَمَّى الناس من ماء حياته للمهودة كما شربوا من الموت أصعب كأس ، وسُئِلَ ابن أبي الرُّدَاد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ، امتلأ اليباب^(١) ، وهال العباب ، كال فطُف ، وزار فما خُف ، جمع في صموده إلى الجبال بين الحادى والملاح ، ودخل الناس إلى أسواق مصر وخصوصاً سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح^(٢) ، وغَدَا الثَّيَّار ينساب في كل يَم كالأيَّام^(٣) ، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنما هي قطع العُيَم ، واستحالت الأفلاك فكل بُرْج مائي ، وتغيَّرت الألوان فكل مائي الأرض سمائي .. وتحال إلى أن أقرف^(٤) الليمون الأخضر ، واحمرت^(٥) عنبه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر ، ولقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد ، وأصبح كل جلدول منه جعفر^(٦) ويزيد .. ولكم قال الهرم للسَّارين ، ياساريةُ الجبل ، وأنشد وقد شمر ساقه للخصوس : أنا الغريق فما خوفي من البلل ، وكم قال أبو الهول : لاهول إلّا هولُ هذا البحر ، وقال المسافرون : مارأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء^(٧) النهر .. ولورآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار ، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم يرُ منه غير الآثار ، لبكى بعيني عُرْوَة^(٨) ، وأوى من الرُّصد إلى رُبُوَة .. وكل سفينة قد علت على وجه الماء ، وارتقت لارتفاع البحر إلى أن اختلطت بالسماء ، وقد قالت لها أنزاجها عند الفراق إلّا ترجعي ،

(١) اليباب : القفر والخراب .

(٢) يريد السفن

(٣) اليم : البحر . الأيم : الحبة الذكر

(٤) أقرف هنا : صطّر ، من لفظة المعروفة طية الرائحة

(٥) احمرت عنه : كتابة عن الحمرة في طمس النيل

(٦) الجعفر : النهر الصغير .

(٧) ما وراء النهر : ما وراء خراسان و شمالها الشرق

(٨) عروة هو عروة بن حزام العاشق المشهور في صدر الإسلام

وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل : (ياسماء أقمي ^(١)) .. ولقد طار الشتر مبلول الجناح ، ودنا نهر الهجرة من السكارى بالشحانين ^(٢) إلى أن كاد يدفعه من قام بالروح ، ونرجس البساتين وقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم .. والورد وقيل له مالك من آس ، وغصن البان وقد قيل له طوى لمن عانقك ولا بأس .

ونكنى بهذه المقطعات من الرسالة فإنها طويلة ، وهى رسالة بديعة فى وصف فيضان النيل وسمو أمواجه وارتفاعها إلى أعلى الأعلى فى شواطئ النيل حتى كادت أن تمتزج بالهجرة فى السماء كما يقول ابن مكناس ، فإذا الحادى للإبل يلتقى بالملاح ، وإذا الناس يدخلون إلى أسواق مصر والفسطاط على سفن ذات ألواح . فقد انسابت غدرانه وأمواجه إلى الطرقات والشوارع وتعال هضاب أمواجه إلى السماء حتى لكأنها قطع السحاب . ولم تعد هناك أرض وسما ولا أفلاك ووهاد ، وحلا النيل وتظرف حتى عطر الليمون الأخضر ، واحمرت عينه إشارة إلى طمبه الأحمر ، فأغرق الناس وأذاقهم الموت الزؤام . ويستمر ابن مكناس فى هذه الاستعارات ، فيخلط بين النيل وبين وزن المديد الصعب فى الشعر وبجره وكذلك بين جدوله والجمفر أى النهر الصغير . ويستعير الكلمة المأثورة عن عمر بن الخطاب وهو على المنبر حين هتف بقائده سارية وهو يحارب فى الشام فقال له ياسارية الجبل أى الزمه ويقال أن الريح حملت الكلمة إلى سارية . وما أروع تصويره لهرم الجيزة وقد شمر ساقه للفيضان حين علا إلى جدرانه فقال متمثلا بشطر من الشعر : أنا الغريق فما خوفي من الليل . وقد ورى بكلمة ماوراء النهر فهو لا يريد ماوراء النيل من بلاد السودان وإنما يريد ماوراء خراسان فى أوزبكستان الحالية وكانت تسمى بلاد ماوراء النهر . والمعشوق بستان ورباط عظيم كانا بظاهر القاهرة . وقد اقتبس من الحديث عن الطوفان فى القرآن الكريم : (ياسماء أقمي) . وتلقانا فى الرسالة آيات أخرى وأشعار كثيرة مثورة . وما أسرع ماجاء باقتباس من سورة يوسف عن أبيه وقد أسف عليه : (وبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) . وورى فى كلمة آس فهى تحمل معنيين : الآس زهر وردى أو أبيض ، والآسى الطبيب المداوى . والاستعارات بديعة هى وما تتحلل به من زخارف البديع وحلاه ومحساته من جناس وطباقات ومراعاة نظير وحسن تعليل .

ووشى شخص قيوانى ضرير إلى أبى بكر بن المعجمي أحد الكتاب النابهن فى ديوان الإنشاء

(١) أقمي : أمسكى عن الماه

(٢) الشحانين : لهاها القوارب .

بأن صديقه ابن مكانس يقول عنه إنه يستعين بكلام غيره ، فتأذى ابن المعجمي من ذلك . وتأذى ابن مكانس من كذب الناقل فكذب إليه من رسالة :

« (ليس على الأعمى حرج) بلغنى - ما بلغ سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب الشاعر الناظم النائر المحقق الأمة الكاتب الحجة زين الدنيا والدين ، قرّة عين الكرام الكاتبين ، لازال زينة يَحُلِّي به العاقل ، وَيُظَلِّ تحت جناح أدبه القائل ^(١) - من غيبة ذلك الضرير ، مالاخشى الله فيه بظهر الغيب ، ونقل إلى المسامح الكريمة مالا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الرُئْب ، ولكن لاغناء لسيف ذهن الملوك الكليل من التنصل ، ^(٢) ولا بد من نهلة اعتذار على سبيل التعلل .. ولو اختلف الأدباء على إمام لأهل هذه الصناعة مطهر من الأرجاس ^(٣) ، لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس .. والمستول من إحسانه أمران : أحدهما الجواب فإنه يقوم عند الملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والآخر رد كل فاسق عن الباب العالي فن أبا بكر أول من تصلب ^(٤) في الردة ، وبلغ الملوك أن هذا الضرير قصد بعض الأصحاب برمية كهذه فأُصِّى ^(٥) ، وتردّد إليه مرة أخرى فد (عَبَسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) .. »

والسجعات خفيفة رشيفة مع مايزينها من الاستعارات والجناسات ، وفي كلمة « القائل » تورية واضحة ، إذ لا يريد أن ابن المعجمي يُظَلِّ تحت جناح أدبه الأديب المتكلم القائل ، وإنما يريد القائل من القبلولة ووقتها الحار في الظهيرة ، فهو غوث العائدين وملأذ المعوزين المحتاجين . واستغل اسمه أبا بكر في التورية باسم أبي بكر الصديق مثلطفا بذكر حادث صلته بالمسلمين نزولا على أمر الرسول ﷺ له حين اشتد به المرض إذ قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » . وعاد ابن مكانس إلى التورية بأنى بكر الصديق حين طلب من ابن المعجمي أن لا يفتح بابه للواشى مقتديا في ذلك بالصديق حين تشدد في حروب الردة على نحو ما هو معروف . ولم يلبث أن اقتبس من الذكر الحكيم آية تصور ما ينبغي على ابن المعجمي من لقاء الواشى لقاء متجنبها على نحو ما تصور ذلك الآية : (عَبَسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) . ولعل في كل ما قدمت ما يصور خفة روح ابن مكانس وعذوبة سحبه وما يشع فيه من سلاسة .

(٤) تصلب : تشدد .

(٥) أصى السهم : أصاب إصابة نافذة

(١) القائل : الثعب من القبلولة وهو وسط النهار

(٢) التنصل : التبره

(٣) الأرجاس : جمع رجس وهو الإثم

المقامات

معروف أن المقامة حديث قصصى قصير بصور كيف يحتال أديب مشؤل على سامعيه بسجعه وأساليه الرشقة ، فيستخرج الدراهم والدنانير من جيوبهم ، وهو جواب آفاق يظهر في بلدان كثيرة أدبيا متسولا يجلب الجماهير ببيانه وبلاغته ، ويديع الزمان الممذاني هو أول من ابتكر هذه الأحاديث القصصية ، على نحو ما هو معروف عن مقاماته ، ونسج على منواله الحريرى في مقاماته المشهورة .

وأكب الناس على مقاماتها إكبابا شديدا مما دفع كثيرين من الأدباء في الأقطار العربية المختلفة إلى محاكاتها ف هذا الفن البديع ، تارة يبنونه على الشحاذة الأدبية مثلها ، وتارة يستقلون عنها مكثفين فيه بضرب من الحديث القصصى الفكه . وقد يتكون القصص جانبيا ، ويبنون المقامة على الوعظ أو على عرض مسائل علمية ، أو على وصف الحيوانات ، أو وصف البساتين والحوار بين الأزهار ، وغير ذلك من موضوعات شتى . ولظافر الحداد الذى ترجمنا له بين الشراء والذى توفى بعد الحريرى بنحو عشر سنوات مقامة ^(١) ، صور فيها نفسه وقد أصبح ذات يوم تائقا إلى لقاء بعض الأدباء ، ومطرته الح ، لم يلبث أن جاءته منهم رفقة ، فتلقاهم بالبشر والسرور وأخذ فى الحديث معهم ، حتى دن وقت الغداء فأسر إليه غلام أن ليس عندهم للإتفاق إلا الإملاق ، وبينما هو يفكر فى وسيلة لإنقاذ الموقف إذا الباب يقرع وإذا رسول شواء كان قد خلصه من حبس الشرطة برسل إليه بإناء كبير مليء بأرز ولحم وسكر . وبعد حوار مع غلامه هل يرجعه للشواء أو يقبله ، يقنعه بقبوله . ويشبع الضيفان ، ولا يجد عنده شيئا من فاخر الحلوى يقدمه لهم . ويقدم قصيدة يعتذر بها عن ضيق حاله ، ويستفزهم الضحك والطرب ، ويعودون إلى حديثهم العذب حتى غروب الشمس ، ويستهل ظافر مقامته على هذا النمط :

« أصبحت ذات يوم فى منزل ، وقد كلّ جئاني وبئاني ولساني وإنساني ^(٢) ، من الذآب فى الطلب ، والإكباب على الكعب ، ومتابعة المراجعة ، فى النسخ والمطالعة ، بين معنى أحكه ، أو

(١) انظر ديوان ظافر ص ٣٤٩

(٢) إنسانى : يريد إنسان عنه

خطُّ أرقه^(١) ، فتأت النفس إلى الإحاض بمفاكهة أدب ، والارتياض بمذاكرة لبيب ، وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقرع . قلت له : ما الشأن ؟ فقال جماعة من الإخوان ، منهم فلان ، فذكر لي كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، قلت : وبحك عَجَلُ ففتح الباب ، وأذن للأحباب ، فهم نزهة النفس ، وثمره الأنس .

ونقضي المقامة بهذا السجع الحقيق ، الذى يكاد يطير عن الأفواه طيرانا بعدونه وقصره ، وحسن الاختيار للفظه . ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية الرشيد^(٢) بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٢ وهو أخو المذهب الذى ترجمنا له بين الشعراء وكان شاعرا مثله ، ويقول ابن خلكان له ديوان شعر ، وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة صنف كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان فى شعراء عصره ، وكان تكله لكتاب البنية للعالي وسقط من يد الزمن ، وقال العماد الأصمباني عنه : « أوجد عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعيات والآداب » ويقول ياقوت عنه : « كان كاتباً شاعراً ، فقيها نحويًا لغويًا عروضيًا مؤرخًا منطقيًا . مهتمًا ، عارفاً بالطب والموسيقى والتجريم مفتتًا . ومن كُتبه كتاب منية الأملى وبلغه المدعى ، وهو موسوعة علمية . وصور معارفه الكثيرة فى مقامة تسمى المقامة الحصصية^(٣) ، استعرض فيها جواب من معارفه العلمية الواسعة ، وهو يدير فيها الحوار بينه وبين طائفة من العلماء بادئا بعالم نحوى موردا عليه من النحو ومسائله ما يهره . ويصنع نفس الصنيع بعالم بلاغى ، ويتوالى حواراه أو حديثه مع علماء العروض والفقه وأصوله والتفسير والتأويل والفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والرياضة وعلم الفلك والهيئة والأجرام والكواكب العلوية وعلم الطب . حتى إذا أنهى المقامة تلاها بشرح لما جاء فيها من مسائل هذه العلوم ومصطلحاتها . والمقامة تموج بالسجع ، من ذلك قوله فى مطالع مقامته ناعيا على من لا يعرفون سوى علم أو علمين ويعتمدون إلى التزيى بزي الزهاد والصوفية احتيالا على الناس ليسبقوا عليهم من أموالهم ، وهم لا يقدررون العلوم حق قدرها فضلا عن التغفل إلى مسائلها ومشاكلها :

« أحسبم بأعلام الضلال أن كل من نظر فى علم أو علمين وحفظ مسألة أو مسألتين ثم قصر ميزاله^(٤) ، وقصر سياله^(٥) ، مظهرًا للنسك والزهادة ، متعرضا للاستفادة فى معرض

(١) أرقه : أكتبه

(٢) من هذه المقامة مخطوطة بدار الكتب المصرية

(٣) انظر فى الرشيد وترجمته الحريذة (قسم شعراء مصر)

وعطوطتان بمكتبة الإسكندرية

٢٠٠/١ وابن خلكان ١٦٠/١ والثغرات ١٩٧/٤ ، ٢٠٣

(٤) سراكه : ثوبه (٥) سياله : شاربه

الإفادة ، يستوهب بذلك الطعام ، ويستجلب الحُطام ^(١) ، ويحب الحرام ، ويسمى بالشيخ الإمام ، قد صلح لأن يفصل بين العلوم ، ويميز بين المحمود منها والمذموم .

والمقامة كسابقتها ليس فيها أديب شحاذ يروى حيله وما يحسن من الأساليب الأدبية ، فقد تحولت من بعض الوجوه إلى ما يشبه الرسائل إذ تناول موضوعاً يحلُّ صاحبها فيه محل أبي الفتح الإسكندري عند بديع الزمان وأبي زيد السروجي عند الحريري .

ويعرض الأدفوى في الطالع السعيد طائفة من هذه المقامات أو الرسائل على ألسنة كتابها من أدباء الصعيد ، من ذلك مقامة ^(٢) أو رسالة لمحمد بن يوسف بن غرير المتوفى بعد سنة ٦٦٥ يمدح فيها أميراً ويصف خروجه إلى الصعيد ، من ذلك قوله فيها :

« خرج يوماً مامع أناس ، وصل بهم إيلناس ، كل منهم يهتز للأكرومة ، ويأوى إلى أشرف ^(٣) أرومة ، على خيل مسومة ^(٤) ، مثقفة مقومة ، مابين جئون أدهم ^(٥) ، أدكى من فارسه وأفهم ، إذا زاع عن سينان ، أو انعطف لعنان ، وأشهب ككرم ، له سافة ريم ^(٦) ، كأنما خلق من عقيق أو تردى برداء شقيق ، إن أوردته الطراد ، أوردك المراد ، وهلاج ^(٧) إن زجرته ألب أديمه ^(٨) ، روضة بهار ^(٩) ، ينظر في ليل كالنهار ، ينساب انسياب الأيم ^(١٠) ، ويمر مرور القيم ، لا ينبه النائم إذا عُبِر به ، ولا يحرك الهواء في سيره ، أخف وطأً من طيف ، وأوطأ من مهاد الصيف .. ولم يزل بنا المسير ، وكل منا في طاعة صاحبه أسير ، إلى أن قصدنا واديا ، كان لعيوننا باديا ، فا قطعنا منه عرضا ، حتى أتينا أرضا ، كأنما فُرش قرارها زبرجد ، وصيفت ألوانها من كجبن وعسجد .. تُهدى للناشق ، أنفاس المشوق للعاشق » .

والمقامة على هذا النحو قطع من الوصف المسجوع البارع للخيال ولكلاب الصعيد .

(١) رم : غلى أيضا . والفرس الأشهب : يخالط ياضه

سواد أو حمرة

(٢) الهلاج : الفرس في سيره بجثرة .

(٣) أديمه : جلده .

(٤) بهار : زهر أيضا .

(٥) الأيم : الحية الذكر .

(١) الحطام : متاع الحياة

(٢) الطالع السعيد للادفوى (طبع مطبعة الجبالية) ص

٣٦٧

(٣) الأرومة : الأصل ، الأكرومة : إكرام

(٤) سومة : مطلة لأصانها

(٥) جون أدهم : أسود

وتكثر المقامات في أيام المالك ، وتأخذ طابع المناظرات والمفاخرات ، وكأنما نسي أصلها عند المحدثين والحريري ناهيا ، فلا بطلٌ صاحب جيلٍ ، ولا قصصٌ ، وإنما حجاج وجدال وتوليد لا يكاد ينتهي للأدلة والبراهين ، مع السفطة والمغالطة وقلب المحاسن مساوياً بفرض الإنعام وإظهار القدرة على القهر والغلبة ، ومع المبالغات والإفراط فيها بهدف الاستملاء . ومن طريف هذه المقامات والمفاخرات المفاخرة بين السيف والقلم لابن نباتة ^(١) ، وفيها يستهل القلم مفاخرته بقوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) وهي براعة استهلال واضحة ، وما يلبث أن يقول ابن نباتة عنه .

« إن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعليا ، وزمام أمور الملك السائرة ، وقائمة ^(٢) أجنحة الطائفة ، ومطلق أرزاق عصفاته ^(٣) المتواترة ، وأعملة الهدى للشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة ، به رُغم كتابُ الله الذي لا يأتيه الباطل وسنة نبيه ﷺ التي تهذب الخواطر الخواطر ^(٤) .. إن نُظمتْ فرائد العلوم فإنما هو سلكها ، وإن علت أسرة الكتب فإنما هو ملكها .. وإن وعد أوفى يحلب الثمن ، وإن أوعد أنصاف كأنما يستمد من الثمن ^(٥) » .

ويستمر القلم في هذه المفاخرة ، فهو الذي يأمر بالجهاد والسيف ناهي في قرابه ، وهو الذي يأمر بالعدل والإحسان ، مع المهامة عن الدين وما ينزل بالأعداء من الرعب . وكأن ابن نباتة يريد أن يُعَلِّق فضله على السيف حتى في الحرب وجهاد الأعداء . ويستغفر القلم من الشرف وتخيلائه والخيلاء وكبريائه . وينبى السيف مدافعا عن حماه مستهلا كلامه بقوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد ومتافعٌ للناس وليعلم الله من ينصره ورُسله بالغيب إن الله قوي عزيز) ويحمد الله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف . ويفاخر القلم بعزمه الثاقب وفتوحه ، مما جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا . ويستغنى القلم في ذواته ويضطرب على وجه القرطاس ، ويفجر قائلا للسيف حدة وعنف .

« أناخاخرى وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضرب ، وأنا للهمزة وأنت للخراب ، وأنا للمعر ، وأنت المدمر .. وأنا ذو اللفظ المكين وأنت

(١) الخواطر : الحاشية عن الصواب

(١) خزنة الأدب المحوى ص ١٣٠ ، ٥٤٥

(٥) النعم : غبار الحرب . والوعد يكون في الخير والإبعاد

(٢) قائمة الأجنحة : ريشات أرح كبار في مقدمة

في الشر

الجناح

(٣) عصفاته : طلاب معروفة .

من دخل تحت قوله تعالى (أَوْمَنَ يَتَنَأُ فِي الْحَبَّةِ وَهُوَ فِي الْحَصَامِ غَيْرُ مَبِينٍ) لقد تعدّيت حدك ، وطلبت ما لم تبلغ به جهدهك ، هيأت أنا المتصّب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريق ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح .. أين بطشك من حلمي ، وجهلك من علمي .. وأين نذير الأعداء من رسول الأحياء .

ويرد عليه السيف مَغِيظًا مَحَقًا ، ويكيل له الكيل كيلين .. ويشعر القلم أخيراً بفضل السيف ، ويعلن إلى الصلح معترفين بأنها للملك كاليدنين وفي آفاقه كالقمرين . وهي مقامة أو قل مناظرة بدعية دُبِّجَتْ بأسلوب يتدفق بالسلاسة وخفة السجع ولطف مآخذه ودقة معانيه . وابن نباتة في نثره مثل شعره يمتاز بالصفاء مع الرصانة والرواق وبجمال اللفظ وحسن اختياره . ولابن مكناس الذي ترجمنا له بين كتاب الرسائل الشخصية مقامة في ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية بناها على الفكاهة والمجون إذ أدارها على الشراب . وقد جعلها حواراً بين عشرات من الأشخاص يمثلون ما كان بالقاهرة لزمته من المهن والصناعات .

وتظل المقامات حية في الفترة العثمانية ، وينحدر بعضها نحو الفكاهة والمجون والدعابة أو نحو الهجاء كما سترى عند الشهاب الحفاجي ، وسنخصه بكلمة ، وكثير منها يتخذ المديح موضوعاً له ، من ذلك مقامتان ^(١) لمصطفى اللقيبي النبطي المتوفى سنة ١١٧١ مدح بها الأمير العثماني رضوان كتحداً ، وإحداها طويلة وتكثر فيها مقطوعات الشعر ونقرأ بها قصيدتين ومزدوجة في مديح الأمير . ولحسن شمه مقامة ^(٢) في مديح الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الخلقوي ضمنها سائر الفنون الشعرية من النسيب والموشح والدويث والزجل والكان وكان والقوما والموالي مع العناية بالسجع في نثرها وحشد محسنات البديع ، وجدير بنا أن نترجم لبعض أصحاب المقامات والمفاخرات .

ابن ^(٣) أبي حَبَلْجَة

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد أبي حجلة التلمساني الأصل . ولد بزواوية جدّه أبي حجلة بتلمسان سنة ٧٢٥ ، ورحل في بواكير حياته إلى الحج ودخل دمشق ، ثم

(١) تاريخ الجمل ٢٢١/١ وماجدها

(٢) تاريخ الجمل ٢٩٠/١

(٣) انظر في ابن أبي حجلة الدرر الكامنة لابن حجر

(نشر دار الكتب الحديثة) ٣٥٠/١ والنجم الزاهرة لابن

نفرى بردى ١٣٩/١ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وشذرات

الذهب لابن الهادي ٢٤٠/١ وصبح الاغص ٢٧٦/١٤ .

والحجلة : طائر في حجم الحمام أحمر الرجلين والظفار .

استوطن مصر ، وأولع بالأدب حتى مهر فيه ، واعتنق المذهب الحنفي مع ميله إلى المذهب الحنبلي . ولم يلبث بمصر أن أصبح شاعرا بارعا فاضلا وكاتباً ناثراً ، وولى مشيخة الصوفية بخانقاه منبجك الیوسنی بظاهر القاهرة . وكان يكثر الإزراء على أهل الوحدة من الصوفية ، كما كان يحمل على ابن الفارض وأئمن بن بسية . وعارض جميع قصائده بقصائد نبوية . وما زال يتولى خانقاه منبجك حتى توفي سنة ٧٧٦ للهجرة . ويقول ابن تغري بردي : له مصنفات كثيرة تبلغ ستين مصنفًا ، وأكثرها كتب أدبية ومن أشهرها : «سكر دان السلطان» ، «و ديوان الصباة» ، «وما مطبوعان» .

ومعنى سبكر دان إتياء السكر وقد أهداه بعد سنة ٧٥٥ إلى سلطان مصر المملوكي السلطان حسن ابن محمد الناصر بن قلاوون ، وهو يدور في معظمه حول العدد ٧ وأصيبت في تاريخ مصر وأحداثها . وقد جملة في مقدمة وسبعة أبواب ، ويذكر في الباب الأول خاصية العدد : ٧ . ويتحدث في الباب الثاني عن السلطان حسن وأنه سابع السلاطين في أسرته . ويعرض في الباب الثالث لإقليم مصر وصلة العدد سبعة به . ويعود في الباب الرابع إلى السلطان حسن مع أحداث قصيرة عن تقدمه من ملوك مصر . ويخص الباب الخامس بأسرة السلطان حسن وجده قلاوون ويمتد به الحديث عن الأسرة في البابين السادس والسابع . ويتبع ابن أبي حجلة هذه الأبواب بأبواب سبعة أخرى ، يتناول في أولها قصة يوسف وتفسير سوره . ويعمل الثاني لقصة موسى وفرعون ، والثالث للملك مصر وبعض أخبارهم ، والرابع لسيرة الحاكم الفاطمي ، والخامس لبعض الأحداث بمصر ، والسادس لأحداث القاهرة . والسابع للزهرات السبع . وبما ذكره عن الحاكم الفاطمي ، أنه لبس الصوف سبع سنين وأمر بإلقاء الشمع ليلاً ونهاراً مدة سبع سنين ومنع النساء من الخروج سبع سنين وسبعة أشهر ، وكان يقرأ نسيه على المنبر كل جمعة أو كل سبعة أيام ، وقتل وهو يلبس سبع جئات بعضها فوق بعض . ولا ريب في أنه بالغ في ربط الأحداث التاريخية بالعدد ٧ ، ومع ذلك فالكتاب يشتمل على أخبار تاريخية كثيرة ، تجعل له من حيث التاريخ لامن حيث العدد ٧ غير قليل من الأهمية .

وكتاب ديوان الصباة - كما يتضح من عنوانه - يتناول العشق وكل ما يتصل به من الوصف المادي للمرأة ومن الزيارة والتمتع واللقاء والمجربان والاستعطاف وإفشاء السر والكتان والغيرة ومن أحب من أول نظرة وأشهر العشاق ، وهو في ثلاثين باباً ويغزير بالختارات الشعرية والثرية في الحب والصباة . ووضع بين يدي أبوابه عن العشق أسبابه وعلاماته ، ويذكر طائفة من أحداث

الأدباء والفلاسفة عنه . ويختمه بذكر من مات بسبب عشقه . والكتاب كسابقه طريف في بابه . وربما كان أهم من الكتابين السابقين لابن أبي حجلة مقاماته ، وكانت مشتهرة في زمنه ، ويقول ابن حجر : « أنشأ مقامات أجاد فيها » . ويعرض القلقشندي لإحدى مقاماته وهي المقامة الزعفرانية الخاصة بفيضان النيل ووفاته ، ويقتبس منها نحو خمس صفحات كبيرة مقلما لما بقوله عنه ، « الأديب الذي كان حجة العرب ، والنائر الذي كان ينسبته إلى الطيور ^(١) محرّك المناطق وإلى الشعر صُحَّاجة الأدب » ويستمر في الثناء عليه حتى يقول : من مقامته الزعفرانية عن أبي الرياش ، وكأن ابن أبي حجلة سُمي راويا أبا الرياش ، ومن قوله فيها :

« إن النيل تزايد دفعه فقد امتزج بالمصبرات تَجَّاجُهُ ^(٢) ، وأعجى طبيبَ النيطان ^(٣) علاجه :
وشرّق حتى ليس للشرّق مشرّقٌ وغرّب حتى ليس للغرب مغربٌ

قلت : فافعل التّغير ^(٤) ، بجزيرة الطّير ؟ قال : لم يبق بها هاتف يشتر بالصباح ، ولا ساع يسمي برجلٍ (ولا طائر يطير) بجتاح ، إلا اتخذ (نفقا في الأرض أو سلما في السماء) أو آوى (إلى جبل يحميه من الماء) فأذاق بها الحمام الحمام ^(٥) في المروج ، وترك أرضها كسماء ماها من فروج ، وتلا على الحمام : (أيما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج) وكف في سماء ماها من نسر واقع ، ويومئذ تصفرّ على ديارها البلاقع ^(٦) :

ومنهّل في الغراب مَبْتُ سَقَيْتُ منه القومَ واستقيتُ
قلت : فصر ؟ قال : زحف عليها بعسكره الجرار ، ونفط مائه الطّيار ، قلت فالجيزة ؟ قال .
طفى الماء حتى علا على قناطرها ونجسر ، ووقع بها القصب من قامت حين علا عليه الماء وتكسر ، فأصبح بعد اخضرار بَزْتِه ^(٧) شاحب الإهاب ، ناصل الخضاب ، غارقا في قعر بحر (بفشاه موج من فوق موج من فوقه سحاب) وقطع طريق زاويتها على مَنْ بها من المنقطعين والفقراء ، وترك الطّالّح كالالّح يمشي على الماء (فتأقوا مُصْبِحِينَ) : (أن لا يبدخلنها اليوم عليكم مسكين)

(١) النيطان : الحفول

(٢) التغير : طائر صغير كالصنوبر

(٣) الحمام : الموت . والجاسيت بين الحمام واضح

(٤) البلاقع : الخالية

(٥) بَزْتِه : شاتره وثوبه .

(١) يشير إلى كنية جده أبي حجلة كما يشير بنحريك المناطق إلى كتاب له سماه منطق الطير .

(٢) المصبرات : السحاب المطر تنصره الرياح .

تجاجة : سبله أو سبله المتشابهة . يبالغ في عذوه حتى صافح السحب .

وأدرّكهم الفرق فأبسوا ^(١) من الخلاص (فَنَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَاغَشِيَهُمْ) (ولات حين مناص ^(٢))
و (خَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ) فهذّت قواهم ، واستغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا وعملوا
الصالحات (وقليل ما هم) قلت : فالروضة ؟ قال : أحاط بها إحاطة الكمام ^(٣) بزهره ،
والكأس بحباب ^(٤) خمره :

فكأنها فيه بساطٌ أخضرٌ وكأنه فيها طرازٌ مذهبٌ ^(٥)
فلم يكن لها بدفع أصابعه يدان ، وكـم أنشد مرّجها حين (مرّج ^(٦) البحرين يلتقيان) :
أعيني كفاً عن فؤادي فإنه من البغي سئى اثنين في قتل واحدٍ ^(٧)

قلت : فدار ^(٨) الثحاس ؟ قال : أنتحس حالها ، وأفسد ما عليها وماها ، فدخل من حَمَامِها
الظُّهر ، وقطع الطريق بالجامع الظُّهر ، فألحق مجازَ بابِه بالحقيقة ، ورقى منه على درجتين في
دقيقة .. قلت فجزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جُلُّ ثمارها ، وأنى على مغانيها ^(٩) فلم يدع شيئا من
رَديِّها وخيارها ، أخلق دياجة روضها الأنف ^(١٠) ، وترك قلّقاسها في الجروف ^(١١) على شفا
جرف ^(١٢) :

بعيني رأيت الماء يوما وقد جرى على رأسه من شاهتي فتكسرا
طلما تضرع بأصابعه إلى ربّه ، ولطم يرهوسه الحيطان مما جرى من الماء على قلبه ، وغثّل بقول
الأول :

وإن سألوك عن قلبي وما قاسى قَلْ قاسى وُقْل قاسى وقُل قاسى
لم يُفده تحصنه من ورقه بالدُرُق ^(١٣) والستائر ، ولاحنّ عليه حين تضرع بأصابعه فصح أن

(١) أبسوا : يشروا حتى تكاد تلتفط أنفاسها

(٢) مناص : ملجأ ومفرّج (٨) تسمى الآن دير النحاس وهي أمام النيل بمصر القديمة

(٣) الكمام : جمع كم بكسر الكاف : غلاف الرمة قل (٩) مغانيها : مثارها

(١٠) الأنف : الجنب (١١) الجروف : شقوق المهرث وبجاريه

(١٢) شفا جرف : شفا : حرف : جرف : المكان يحرفه (١٣) الفرق : جمع فرقة : الترس

الماء (٤) الحباب : القواقع على وجه الكأس

(٥) جبل لون النيل مذهبا إشارة إلى ما كان يصحبه في

فيضانه من الطمي (٦) مرّج البحرين : أرسلها في مجريها متجاودين

(٧) يشير إلى أن البحرين بأعضان بخناق جزيرة الروضة

الماء سلطان جائره .

وهو وصف رائع لفيضان النيل وعلو أمواجه ، كأنما يريد أن يبلغ عنان السماء ، وحلقت الطير في أعلى علبين فرقا منه واعتصم الناس بالكبان والجبال . ويصف ابن أبي حجلة زحفه على القساط أو كما يسميها مصر وطغيانه على الجزيرة حتى علا قناطرها وجرد القصب من برته ، وطأ عليه حتى غرق في قاعه ، وقطع طريق الزاوية أو خانقاه الصوفية وأدركهم جميعا الفرق في حبابه ، وخر عليهم السقف من فوقهم ، ولاملجأ ولا مناص ، وأحاطت بجزيرة الروضة إحاطة السوار بالمعصم ، ولم تستطع دفع أصابعه التي يقاس بها عادة طوفان فيضانه ، ولارذ مجريه أو كما يسميها ابن أبي حجلة مجريه من حولها آخذين بخناقها ، كأنما يريدان أن تصبح خاوية على عروشها . ويصف دار النحاس وما أصابها وأصاب جامعها من مياه التدفقة ، ويصف ما أنزله بجزيرة أروى ومغانيا وكيف عم ماها من الخضراوات مثل القلقاس . وقد تكسر ، وهو يتضرع بأصابعه إلى ربه إذ أصبح عاليه سافله . وتبت فوقه فروع ذات ورق عريض ، ويتصورها ابن أبي حجلة ستائر له ودرقا أو تروسا غير أنها لم تقلده إزاء أمواج النيل وطوفانه .

ومضى ابن أبي حجلة فيصور ما أصاب بولاق وغير بولاق من النيل في هذه اللغة العذبة التي عرف كيف يصب فيها وصفه للنيل وفيضانه . وهو يكسوها بألوان البديع من جناس وغير جناس ، ولا تحس أى كلفة . وقدرته على بث التصاوير في لفته واضحة ، وهى تصاوير رسمها مصور ماهر . ومن تمة براعته الأدبية قدرته على اقتباس الأشعار في موضعها الملائم ، وأهم من ذلك قدرته على اقتباس الآيات والكلم القرآنية ، فتزيد لفته عذوبة ونساعة ، وهو تارة يأتي بالآيات تامة ، وتارة يأتي بكلم منها . ويكثر ذلك في المقامة ، وقد وضعنا الآيات بين قوسين هلالين تمييزا لها . وقد تمثل في القلقاس بيت يحمل شطره الثانى جناسا طريقا مع اسمه . وفى المقامة روح الدعابة والفكاهة المصرية ، وكأنه نشرها في استيظانه بمصر حتى الثمالة . والتورية عنده واضحة فى قوله عن النيل بدار النحاس : « قطع الطريق بالجامع الظهر فألقى مجاز بابه بالحقيقة » ولكلمة مجاز معنيان : معنى قريب وهو ما يخالف الحقيقة بدليل اقترانها به ، ومعنى بعيد وهو المعبّر إلى الجامع . وهو لا يريد المعنى القريب للقلب أى قلب الإنسان مما قد يفهم مع ظاهر استعارته ، وإنما يريد ما حدث للقلقاس من القلب فأصبح أسفله أعلاه ، وهى تورية بديعة . ولعل فيها قدمت ما يصور براعة ابن أبي حجلة الأدبية .

هو شهاب الدين أحمد بن علي ولد بقلقشندة بالقرب من قلوب سنة ٧٥٦ و إليها يُنسب ، وهو من أصل عرقي صميم إذ ينسب إلى عشائر فزارة التي استوطنت مصر عقب الفتح الإسلامي . ويبدو أنه نشأ في القاهرة ، وأخذ فيها ينهل من حلقات علماء الشافعية وغيرهم في زمنه ، وهو مع ذلك يعني بالأدب والعلوم اللغوية . وفي نحو العشرين من عمره بارحها إلى الإسكندرية ونزى العالم الشافعي الكبير المعروف بابن الملحق يميزه فيها سنة ٧٧٨ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي كما يميزه برواية مؤلفاته في الفقه والحديث وكل ما كان يرويه من الصحاح الستة ومسند الشافعي ومسند ابن حنبل . وسرعان ما تصدر للإفادة وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وأقبل عليه كثير من التلاميذ بأعذون عنه الفقه والأصول وعلوم العربية . وظل في ذلك نحو ثلاثة عشر عاما ، ألف في أثناءها شرحا في الفقه الشافعي على كتاب جامع المختصرات ومختصرات الجوامع سماه الغيوث الموامع . كما ألف في أنساب القبائل العربية كتابين هما : « نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب » و « قبائل الجبلان في التعريف بقبائل عرب الزمان » . ونراه في سنة ٧٩١ يترك مهنة التدريس للعمل بديوان الإنشاء ، وكان يرأسه بدر الدين بن علاء الدين بن يحيى بن فضل الله العمري ، وهو آخر من وليه من هذا البيت كما مر في ترجمة عمه ابن فضل الله العمري . واعترافا بفضلته أنشأ القلقشندي مقامة طويلة في تقريبه صور فيها صناعة الإنشاء وأصولها وعكف ثوبا على تأليف كتابه « صبح الأعشى في صناعة الإنشاء » . وهو موسوعة ضخمة في أربعة عشر مجلدا ظل يُعنى بتأليفها في نحو ربع قرن من الزمان حتى سنة ٨١٤ وظل يراجعها ويزيد عليها حتى حين وفاته سنة ٨٢١ للهجرة .

ويتبدى القلقشندي صبح الأعشى بمقدمة تتناول فضل الكتابة ومدلولها وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وصفات الكتاب وآدابهم والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه ووظائفه ، ثم تتوالى عشر مقالات أو أقسام كبيرة ، والمقالة الأولى تحدث عما يحتاج إليه كاتب

مقامات القلقشندي ومفاهيمه صبح الأعشى ١١٢/١٤ ،
٢٠٤ ، ٢٣١ . و صبح الأعشى مطبوع من قديم بدار
الكتب المصرية في ١٤ مجلدا .

(١) انظر في القلقشندي الضوء اللامع للسخاوي ٨/٢
وشفوات الذهب ١٤٩/٧ والمثل الصافي لابن نغرى بردي
٣٣٠/١ ومقدمة الجزء الأول من صبح الأعشى وتاريخ
الأدب المعروف لكراتشكوفسكي ١١٦/١ . وراجع في

الإنشاء من المعارف والأحداث المتعلقة بصناعته كالحط واللغة والنحو والبلاغة وغير ذلك من مختلف العلوم ، يشغل ذلك من الكتاب الجزء الأول بعد المقدمة والجزء الثاني وشرطاً غير قليل من الجزء الثالث . والمقالة الثانية تبدأ بالممالك والممالك ومعلومات تاريخية عن الخلافة الأموية والعباسية ومعلومات جغرافية وتاريخية مهمة عن مصر من أول دخولها في الإسلام إلى زمن القلقشندي ، ويترك مصر إلى الشام وجميع الدول التي كان لها أدنى صلة بمصر من أقصى الشرق إلى السودان وأقصى الغرب والبلدان الأوربية . ويمتد حديث القلقشندي في ذلك إلى الشطر الأكبر من الجزء الخامس . والمقالة الثالثة في أنواع المكاتبات وأسماء الكنى وألقاب أرباب السيوف والأقلام وأصحاب الوظائف من النصارى واليهود والخلفاء العباسيين والأمويين في الأندلس والقاطمين والموحدين بالمغرب وألقاب الملوك الأقدمين في اليمن وإيران ومصر والروم والحبشة وملوك فرغانة وأوروبا والحبشة مع التفصيل في الألقاب الإسلامية . ويعود إلى الحديث عن الورق والكتابة ويشغل ذلك كله بقية الجزء الخامس والجزء السادس . ويتحدث القلقشندي في المقالة الرابعة عن المكاتبات الصادرة عن ملوك مصر وغيرهم ومصطلحات الكتابة السلطانية والإخوانية ويمتد ذلك في الكتاب إلى شطر من الجزء التاسع ، والمقالة الخامسة يوضح فيها القلقشندي الولايات ووظائف الدولة الكبرى ويقدم طائفة كبيرة من البيعات والمعهود والتقاليد والمراسم والتفاوض والتوقيع وخاصة مايتصل بزمان المالك . وتحمل هذه المقالة كثيراً من الوثائق التاريخية والاجتماعية المهمة ، وهي تشغل بقية الجزء التاسع حتى نهاية الجزء الثاني عشر . والمقالة السادسة في منوعات من الوصايا الدينية والإطلاقات والمراسم السلطانية والإقطاعات والأيمان وعقود الصلح والأمانات والهَدَن . وتشغل هذه الوثائق الجزء الثالث عشر من الكتاب وشرطاً من الجزء الرابع عشر . وتعرض بقية هذا الجزء طرائف من المقامات والرسائل والمفاخر والإجازات والتعريفات والتقاليد ، وتلحق بالجزء خاتمة عن البريد وشئون المواصلات والانصالات بين مصر وغيرها من البلدان الإسلامية .

ونعود إلى مقامته التي أشرنا إليها والتي وصف فيها صناعة الإنشاء وقرظ بها صاحب ديوانها بدر الدين العمري وقد سماها : « الكواكب الدرّية في المناقب البدرية » وهي محكية أومروية على لسان الناصر بن نظام وبلغنا في فواتحها قوله :

« لم أزل من قبل أن يبلغ بريدُ عمري مركزَ التكليف ، ويتفرق جَمْعُ خاطري بالكَلَف بعد التأليف ، أنْعِبُ لاختصاص العلم أشارك التحصيل ، وأنزّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ..

أونسُ من شوارد العقول وَحْشِيَّهَا ، وَأَشْرُدُ عن روابض المنقول حُوشِيَّهَا ، وألتقط ضالَّةَ الحكمة حيث وجدتْها ، وأقْبِدُ نادرة العلم حيث أصبْتُها ، مقدِّمًا من العلوم أشرَفُها ، ومؤثِّرًا من القنون ألطفُها ، معتمدًا من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع ، مقبلاً منه على ما يستجلى حُسْنُهُ النظر ويستحلى ذكره السمع .. عارفاً لكل عالم حَقُّهُ ، ومَوْقِياً لكل علم مستحقُّهُ ، قد استغنيت بكتابي عن خَلِيٍّ ورفيقي ، وآثرت بيت خَلْقِي على شَفِيقٍ وشقيق .. إلى أن أتيج لي من الفتح ما أفاضت النعمة وحصلتُ من الغنيمة على ما اقتضته القسمة .

وأكبر الظن أن قد انضج لنا صوت القلقشندى وما يعمد إليه من حسن الجرس في انتخاب ألفاظه وفرواق أسجاعه ، بحيث لا تكاد نشر بتكلف عنده ، والجناس يرصع كلامه على نحو ما نرى في التكليف والكلف ، وأشراك (حبالات) الصائد ، والإشراك ، وشوارد وأشْرُدُ ، والوحشى والحوشى ، ويستجلى ويستحلى ، وحقه ومستحقه ، ورفيقي وشفيقي وشقيقى ، وكل ذلك يمر على اللسان والسمع دون أى إحساس بنبو أو كلفة غير مستحبة ، وبالمثل يرصع كلامه بطباقات كثيرة من مثل التفرق والجمع والتوحيد والتعطيل وشوارد العقول وروابض المنقول . وفى أثناء ذلك يوشى كلامه بالتورية إذ يقول : « أنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل » والتعطيل رفض التوحيد والشرية ، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد ، وهو لا يريد ، وإنما يريد التعطيل عن الاشتغال بالعلم والانصراف عنه . وبالمثل لا يريد بالإشراك الكفر الذى قد يفهم من اقترانه بالتعطيل إنما يريد الشركة أو المشاركة ، وأيضاً لا يريد بالتوحيد توحيد الله لاقرانه بالتزيه وإنما يريد الوحدة . والتعبير لذلك كله ملئاً بتوريات متعاقبة . وبالمثل قوله فى نهاية كلامه : « الفتح » وقد تلاه بالغنيمة والقسمة مورياً بذلك عن الفتح العلمى لا كما يظن من السياق الفتح الحرفى . وبالمثل كلمة القسمة فهو لا يريد بها المعنى القريب الملازم للغنيمة وهو القسمة فى الحرب وإنما يريد بها المعنى البعيد وهو الحظ من قولهم قسمة ونصيب .

ولعل خصائص صوت القلقشندى ولغته قد اتضحت لنا تماماً فهو كعناصره يستخدم السجع ويوشيه بمحسنات البديع وفى مقدمتها ، الجناس والطباق والتورية ، ونحس عنده بطواعة العبارات المسجوعة ومرانه على استخدام ألوان البديع دون أن نشر بأى ثقل أو أى عبارة أو كلمة مستكرهة . وإذا مضينا فى قراءة المقامة وجدناه يذكر على لسان الناثرين نظام أنه لابد لكل إنسان من حرفة يكتب بها معاشه وأن الكتابة هى خير الحرف ، وأفضل أنواعها الديوانية كتابة الإنشاء ، إذ لها الذروة المنيفة والرتبة الشريفة ، وأصحابها - كما يقول - أسُّ المُلْكِ وعماده ،

وأركان الملك وأطواره . ولسان الملكة الناطق ، وسهمها الموقر الراشق . ومحاور النائر بن نظام في كتابة الإنشاء والخرج أيها أفضل ؟ وبجيبه أنى لكتاب الأموال التأثير في قلّ الجيوش من غير قتال ، وفتح الحصون من غير نزال . وكأن القلم في يد كاتب الإنشاء ينال من الأعادي مالا تاله السيوف والرماح . ويأخذ القلقشندي على لسان النائر بن نظام في بيان مايلزم كاتب الإنشاء من حفظ كتاب الله وأحاديث رسوله وجوامع كلمه والعلم بالأحكام السلطانية واستظهار أشعار العرب على مر الأزمنة وأمثالهم وأقوال فصاحتهم وخطيبهم ورسائلهم مع سعة الباع في اللغة والنحو والتصريف وفي علوم المعاني والبيان والبديع ، ومع معرفة الخط وقوانينه وأصوله وقواعده ، ومع ماأنهم به الصناعة من الوقوف على علم الكلام وأصول الفقه والأحكام الشرعية والمنطق والجدل وأحوال الفرق والتحلّ وعلم العروض والقوافي والرياضيات والمهندسة وعلم الطب والبيطرة وعلم الأخلاق والسياسة وعلم تدبير المنزل والفراسة . وأيضا لايد من المعرفة بكل ماذكره القلقشندي بعد ذلك مفصلا في صبحه من شئون الولايات وألوان المكائيات والبيعات والعهود والتقاليد والمراسم والترايع والمناسير والأيمان والهدن وطرق البلدان ومسالكها . ويتساءل القلقشندي عن يضم هذه الرتبة الرئيسة والمنقبة الشريفة ؟ وبجيبه النائر بن نظام إن ذلك قاصر على آل فضل الله العمري ومنحصر في سيلة البدر ، الذي تدور عليه ، فهو ابن بجّدتها الذي ترجع في علومها ورسومها . وسائر أمورها إليه .

وللقلقشندي مقامة في المفاضلة بين العلوم . وهي تتزع مترع المقامة الحصيبة للرشد بن الزبير التي ألمنا بها فيما مر من حديثنا وفيها يعقد القلقشندي مفاخرة بين نحو سبعين علما ابتدأها بعلم اللغة واختتمها بفن التاريخ ذاكرًا فخر كل علم على ماسبقه ، محتجا عليه بفضايا موجودة فيه دون سابقه . استهلها ببيان منافع العلوم بعامة ، وذكر أنها اجتمعت يوما فتنجالت وتفاخرت ، وكل منها يتنصر لنفسه بالحجج والبراهين الدامغة . وقد تلا فخر علم اللغة بفخر علم الصرف ثم بفخر علم النحو عليه قائلا :

« هل أنت إلا بَصْعَةٌ ^(١) منى ، تُسَدُّ إِلَى وَتُنْقَلُ عَنى ، لم يزل علمك بابا من أبوابى ، وجعلتك داخلة في حسابى ، حتى مَيَّرَكَ المازنى فأفردك بالتصنيف ، وتلاه ابن جَبَّيْ قُبَيْعِى في التأليف .. وأنت مع ذلك كله مطوًى ضمن كُتُبى ، نَسَبْتُكَ متصلة بنسبى ، وحَسَبْتُكَ لاحقًا بحسبى . أنا مِلْعُ الكلام ، ومِسْكُ الحَتَام ، لا يَسْتغْنَى عَنى متكلم ، ولا يُلِيقُ جهلى بعالم ولا متعلم ،

في تبيين أحوال الألفاظ المركبة في دلالتها على المقاصد ، ويرتفع اللبس عن سامعها فيرجع من فهمها بالصلة والعائد .

وهذه القطعة من مفاخرة علم النحو على علم الصرف فضلا عن تصويرها لبراعة القلقشندي البانية ترينا جانبا من ثقافته بعلمى النحو والصرف ، وكانا مندجين بعضها ببعض في كتاب سيبويه ، وظلا على ذلك بعده حتى أفرد أبو عريان المازني علم الصرف بالتأليف وتبعه في ذلك ابن جني . ومضى المؤلفون في الطعن تارة يجمعون بينها ، وتارة يفصلون ، مما جعل القلقشندي يصور ذلك مرارا على لسان علم النحو قائلاً إن علم الصرف باب من أبوابه يُثقلُ عنه ويُستند إليه وأنه مطوًى في كُتبه متصل بنسبه لاحق بحسبه . واستخدم في آخر ما اقتبسناه من تلك المفاخرة مصطلحي الصلة والعائد المعروفين في النحو وهما صلة الموصول وما تحمل من الضمير العائد في عبارتها على الموصول ، معبرا بها عن العطية وما يعود منها بالنفع . وللقلقشندي مفاخرة ثانية بين السيف والقلم ، ومن قول القلم فيها مفاخرة للسيف :

« مهلا أيها المساجل ، وعلى رسلك أيها المغالب والمناضل ، لقد أسأت مقالا ، ونمّقت محالا .. وإنى - وإن صغر جرمي - فإني لكبير الفِعال ، وإن تحفّ بدني فإني لشديد البأس عند التزال . وإن عرّى جسمي فكم كسوت عاريا ، وإن جرى دمعي فكم أرويت ظاميا ، وإن ضاق ذرعي فإني بسعة المجال مشهور ، وإن قصّر باعِي فكم أطلّقت أسيرا وأنا في سجن الدواة مأسور . » ويضفي القلقشندي بمثل هذه الصياغة الموشاة بالجعج ومحسنات البديع من تصوير وغير تصوير ، ودائما نشرع عنده بالطلاقة والسلامة ونصاعة الكلم .

السبوطي^(١)

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد ، من سلالة شيخ صوفي أسبوطي هو همام الدين السبوطي ، وكان لأسرته وجاهة ورياسة في أسبوط ، منهم من ولى الحكم فيها ،

وبروكلان (الطبعة الأتالية ١٤٣/٢) . وانظر في مقاماته مجموعة خطبة بعنوان مقامات السبوطي بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع وطبع من مقاماته مجموعة بالآستانة . وانظر في نشاط السبوطي النحوي تأليفه وآراء كتابته المدارس النحوية ص ٣٦٢ .

(١) انظر في السبوطي وترجمته حسن الهاضرة ٣٣٥/١ والقصود اللامع للسخاوي ج ٤ رقم ٢٠٣ والكواكب السائرة للنري (نشر الجامعة الأمريكية ببيروت) ٢٢٦/١ وتاريخ ابن إياس في مواضع متفرقة وذيل الطبقات الكبرى للشراشبي ص ٤ والبدور الطالع للشوكاني ٣٢٨/١ والنور السافر للميدودي ص ٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية

ومنهم مَنْ ولى الحسبة ، ومنهم من كان تاجرا ثريا ، وأول من خدم العلم من أسرته أبوه ، وقد هاجر من بلدته إلى القاهرة ونبه شأنه بين فقهاء الشافعية وأفتى ودرّس وناب في الحكم بالقاهرة ، وفي سنة ٨٤٩ ولد له عبد الرحمن ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفى الأب ، ويبدو أنه ترك له ثروة أعانته على نشأة علمية طيبة ، وقد ترجم لنفسه في كتابه : « حسن المحاضرة » ترجمة ضافية ، ذكر فيها طائفة من شيوخه في مقدمتهم الشيخان : البلقيني والمتاوى في الفقه الشافعي وتوفى الدين الشبلي في الحديث والكافيحي في التفسير والأصول والعربية وعلم المعاني وسيف الدين الحنفى في الكشف للزمخشري وفي بعض المصنفات البلاغية للسكاكي والقزويني . ويقول إنه شرع في التصنيف سنة ٨٦٦ ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، كما يقول إنه أفتى في سنة ٨٧١ وعُقد له مجلس لإملاء الحديث سنة ٨٧٢ . ويذكر أن زار بلادًا كثيرة : الشام والحجاز واليمن والمند والمغرب والتكرور ، كما يذكر أنه تبحّر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبدیع ، ويقول إنه يستثنى الفقه فاستأذه كان أعلم به منه . أما العلوم الستة الباقية فلم يكن أحد يحاربه فيها ، ودونها في التعمق العلمي أصول الفقه والجدل والصرف ، ودونها هي الأخرى الإنشاء والترسل وعلم الميراث والقراءات ثم الطب . ويذكر أن مشايخه في الرواية سماعا وإجازة كثيرون إذ تبلغ عدّتهم نحو مائة وخمسين .

ويمضى السبوطي في ترجمته لنفسه ، فيذكر مؤلفاته في العلوم والفنون المختلفة ، وقد بلغت أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة ، منها في الحديث النبوي نحو تسعين مصنفًا وفي التفسير ومتعلقاته نحو عشرين وفي اللغة وعلوم العربية نحو خمسين وفي الأصول والبلاغة والتصوف نحو عشرين وفي الفقه نحو عشرين أيضا وفي التاريخ والأدب نحو خمسين . وعلى هذا النحو تلقانا لا مؤلفات بل سيول من المؤلفات في كل علم وفن . ويعتق بُعد السبوطي أكثر علماء هذا العصر تأليفا وإحاطة بالعلوم العربية والشرعية الدينية . وله أكثر من كتاب طُبِعَ في العصر الحديث وطارت شهرته ، من ذلك في الحديث النبوي كتابه « جمع الجوامع » وهو معجم واف للأحاديث النبوية ، ومن ذلك في التفسير تفسير الجلالين ، ومُرّ حديث عنه في الفصل الثاني ، وله لباب العقول في أسباب النزول ، وأيضا الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، وهو مطبوع في ستة مجلدات . وكتابه « الإتيان في علوم القرآن » كتاب رائع . ومن مصنفاته في التاريخ والتراجم تاريخ الخلفاء وهو مطبوع مرارا في الغرب والشرق . وقد عرضنا لنشاطه في هذا الجانب في حديثنا بالفصل الثاني عن التاريخ والمؤرخين . وكان نشاطه اللغوي والنحوي خصبًا إلى أبعد غاية ، وصورنا ذلك من بعض الوجوه

في حديثنا عن اللغة واللغويين والنحاة والنحويين في الفصل الثالث .

وهذا النشاط العلمي الواسع اقترن به نشاط أدبي ، فقد كان السيوطي شاعرا ، كما كان كاتباً ناثراً ، وعُني عناية واسعة بفن المقامة على الطريقة المصرية التي وصفناها ، فالمقامة لا تدور على الصميلة كما كانت عند الممذاني والحريري ، وإنما تدور على المنافرة والمفاخرة ، وأكثر من ذلك حتى تبلغ مقاماته نحو الأربعين ، وربما كان أطرفها ما أداره منها حول مفاخرات الأزهار والفواكه والبقول والنقل والمطور ، وقد خصص الأزهار بمقامته الوردية والفواكه بمقامته التفاحية والبقول الخضراء بمقامته الزمردية والثقل بمقامته الفستقية والمطور بمقامته المسكية ، وخصص الأحجار الكريمة بمقامته الياقوتية . وتقف قليلا عند مقامته الوردية فعل غرارها تلك المقامات جميعا ، وهي مفاخرة أو مناظرة بين الأزهار والرياحين ، استلها الورد ببيان عحاسنه وأنه ملك الرياحين منعش للأرواح ومناع إلى حين ، وأنه ظاهر على أزهار البساتين متصير منها بقوة الشوكة والصولة . وواضح ما في كلمة الشوكة من تورية إذ لا يريد البأس بشهادة كلمة الصولة ، وإنما يريد الشوكة الحقيقية للورد واحدة أشراكه ، وما يلبث الورد أن يدلّ بفوائده الطيبة ، ويرد عليه الزجر مفاخرا بمحاسنه محاولا أن يقض منه ، قائلا :

« لقد تجاوزت الحد ، يا ورد ، وزعمت أنك جمع في فرد ، إن اعتقدت أنه لك بحمرتك فخر ، فإنه منك فجر .. فاحفظ بالصمت حرمتك ، وإلا كسرت بقائم سني شوكتك . وإني القائم في الدباجي على ساق ، الساهر طول الليل في عبادة ربي فلا تطرف أحدا .. وأنا فريد الزمان في المحاسن والإحسان ، ولهذا قال في كسرى أنوشروان : الزجرس ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر .. وأنا المشبه في عيون الملاح ، والمقرون في مهات الأدوية بالصلاح . »

وللسيوطي بجانب ذلك مقامات جعل عتورها الذي تدور عليه مسائل علمية ، إذ يورد فيها أسئلة تحمل ألفاظا غريبة ملفزا بها ، ثم يذكر جوابها مفسرا لها . مزيلا عنها غرابها ، محاكيا بذلك الحريري في مقامته الطيبة نسبة إلى طيبة أي المدينة وقد ضمنها مائة مسألة فقهية وأجوبتها كأن يقول فيها : « أبتباح ماء الضرير ؟ » ويجب أبو زيد السروجي بطل المقامات الحريرية : نعم ويُجْتَنَبُ ماء البصير . والضرير : حرف الوادي والبصير الكلب . ونرى السيوطي يستوحى هذه المقامة ، فيكتب على غزاوها مقامته المكية ، ويستلها على هذا النمط :

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : ما زلت أتحم المهامه ^(١) الخيفة ، وأدخل في المسالك العنيفة

إلى أن نزلت بمكة الشريفة ، فحططتُ الرِّحالَ بِمِثَابِهَا ^(١) ، وأرحت النفس من عنائها ، وظللت أجوب في مشاهدتها وأجول في معاهدها .. وأتردد في القدو والرواح ، وأترؤد من تلك الآثار في المساء والصباح ، وأنمى أديبا يُسَلِّى بِمِسامِرته الرُّقْبة ، وأديبا يُبَيِّن بِمُحَاضِرته الإِزْبة ^(٢) ، فبينما أنا ذات ليلة في المطاف ، وقد تسمرتُ سحائب الألفاف ، إذا أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين ، وهم بين سلام وترحيب ، وبكاء ونحيب . وفي صدر الحلقة ، شاب نحيف الحلقة ، قد تدرع بثياب البهاء . قال هاشم بن القاسم : فتساميت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه ، لأستور بياطنه على ظاهره ، وأستظهر من كامنه على باهره ، وأتخذة معاضدا ونصيرا ، ومحاضرا وسَمِيرا ، فقلت : وَحَيْتُ مامتك رأيت ، وَحَيْتُ ^(٣) ما عنك فهمت ، فانتِ على ما ادَّعيت ببرهان من الدلائل ، وأجب إلى ما أقترحه عليك من مسائل ، فقال : على الخبر سقطت ، ومن البحر لقطت ، فأوضح عن مسألك ، وأفصح عن مقالك ، فقلت : مانقول فيمن نرضاً ولم يمسح أُمُّهُ ؟ فقال : لم يصحْ بِأَمَّةٍ .

والأم الأولى الرأس والوضوء بدون مسحها باطل ، وقد ألغز السيوطي بها ، كما هو واضح . وتوالت الأسئلة على هذا النحو مثل هل يجوز بيع الحر؟ والجواب الجواز ، لأن المراد بالحر الفرس الأصيل . ومثل هل تصح الصلاة على الفحل ؟ والجواب تصح لأن المراد بالفحل الحصيد المتخذ من فحل النخل .

وللسيوطي مقامة ثانية سماها المقامة الأسبوطية بناها على ألغاز نحوية ، محاكاة لمقامة الحريري المسماة بالمقامة القطعية وهي المقامة الرابعة والعشرون بين مقاماته . وللسيوطي مقامة فكهة سماها « رشفة الزلال من السحر الحلال كتبها على لسان عشرين عالما بينهم المقرئ والمفسر والأصولي والفقهاء واللغوي والنحوي ، وجعل كلا منهم يصف ليلة زفافه على عروسه بلفظ علمه ومصطلحاته . ومن مقاماته مقامة تسمى الجبزية جعل موضوعها لغزا شعريا . وكأنه كان يرى المقامة صالحة لأن تعرض أى موضوع حتى لئلا يتخذ نجاة أبوى الرسول ﷺ من النار موضوعا لإحدى مقاماته ، وقد سماها المقامة السندسية ، وهي مطبوعة ، ونجاة أبوى الرسول من النار لا يشوبها أى شك . إذ هما الطاهران الطيبان الذكيان النيران . ولعل فيما قدمنا مايدل على الخصائص الأدبية لمقامات السيوطي وبدون ريب كانت ملكاته العلمية أخصب من ملكاته الأدبية .

(١) عتاب : جمع حبة . (٢) الإزبة : الأمانة . (٣) شام : نظر متطلعا أو مؤملا شيئا

الشهاب^(١) الحفاجي

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الحفاجي المصري ، ولد لفقيه شافعي بسرياقوس قرب القاهرة سنة ٩٧٧ ونشأ في حجر أبيه يعلمه ، ثم اختلف إلى شيوخ الأزهر في زمنه ، فأخذ النحو وعلوم العربية عن خاله أبي بكر الشمراني والفقه الشافعي عن مفتي زمنه شمس الدين الرمل . ومضى ينهل من حلقات الشيوخ المختلفين الحديث والتفسير والأدب والمنطق وعلم الأصول ، ورحل مبكراً مع أبيه إلى حج بيت الله وأخذ عن شيوخ الحرمين لأيامه . ولم يعد إلى مصر بعد الحج ، بل رحل إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية فأخذ عن شيوخها ، وفي طريقه إليها نهل من حلقات الشيوخ في بيت المقدس ودمشق . وعُرف فضله في القسطنطينية فعين قاضياً في الروملی ثم في سلاتيك . وعينه السلطان مراد قاضياً للمسكر بمصر ، فظل بها مدة ، وزار القسطنطينية فلقبه مفتياً بحجى بن زكريا لقاء سبأ وأمر بعزله . وعاد إلى مصر وعين قاضياً في القاهرة وأخذ يصنف ويحاضر طلابه وأتوه من كل بلد عربى ، ومن أهمهم عبد القادر البغدادي صاحب الحزانة ، وظل على ذلك حتى وفاته سنة ١٠٦٩ للهجرة ، وكان ماحدث له في لقاء المفتي سبباً في أن يكتب رسالة في بيان فساد القضاء والحكم في القسطنطينية وأتبعها بنحس مقامات يصور فيها تفاقم الأحوال بعاصمة الخلافة . وكان إلى ذلك عالماً ومؤرخاً كبيراً ، صنف حاشية على تفسير اليضاوى طبعت بمصر في ثمانية مجلدات وحاشية على شفاء القاضي عياض طبعت في أربع مجلدات وله شفاء الغليل بما في كلام العرب من اللخيل وهو كتاب نفيس طُبع مرارا . وصنف في تراجم الأدباء لزمنه في جميع البلدان العربية كتابه « ربحانة الألبا » الذي نذكره كثيراً في هوامش الفترة العثمانية ومثله خبايا الزوايا ولا يزال مخطوطا . وكان شاعراً مجيداً ، وتحفظ المكتبة التيمورية بديوانه مخطوطا ، وقد أنشد من شعره كثيراً في الربحانة وبالمثل أنشد منه كثيراً الهجى في ترجمته له ، وهي في أكثر من مائة صفحة .

وقد دَوَّن الشهاب الحفاجي مقاماته التي أشرنا إليها في ترجمته التي عقدها لنفسه في نهاية كتابه الربحانة وسمى أولها المقامة الرومية وهو يستهلها بقوله : « أنبأنا النعمان بن ماء السماء عن شقيق وقد رحل من وادى العقيق في الحجاز إلى القسطنطينية ، ويصفها بأن البحر قد مدَّ لعاقيها ساعديه

٩٧٧ وسلامة الأثر ٣٣١/١ وسلامة المصر ص ١٢٠

(١) انظر في الشهاب الحفاجي ترجمته لنفسه في نهاية ربحانة الألبا ٣٢٥/٢ وما بعدها ونقطة الربحانة ٣٩٥/٤ -

بينما تقبل الأمواج الأرض بين يديه ، ويصف من بها من الجوارى الحسان والفرسان الشجعان ، ثم يهاجم متصوفها وعلماءها . ولا يلبث أن يكوى المفتى دون ذكر اسمه بسياط من الهجاء المقذع من مثل قوله :

« لوقارنه الشُّعد الأكبر إلى أعلى عُلَّين ، حملته بنات نَعشٍ إلى أسفل سافلين ، أعمى البصرة والبصر ، عارَ على آدم أُنَى البشر ، إنما خلق اعتذارا للإبليس في ترك السجود ، وأثنى يقبل له عذر وهو كفور جحود .. وما أحسنه في زوال النعم ، وأقبحه إذا قضى له الدهر بدولة وحكم » .

ويختم المقامة بمديح السلطان العثماني حينذاك . ويذكر بعدها مقامة الغربة راويا لها عن الربيع ابن ريان عن شقيق بن التمان ، وفيها بصور فساد الأمور في القسطنطينية ، ويوجه إلى المفتى المذكور فيها قصيدة هجاء لاذعة . ويتلوها بالمقامة الساسانية ، وقد استعار اسمها من الحريري في مقامته التاسعة والأربعين ، وفيها صور الفقهاء والعلماء في القسطنطينية كأنهم جميعا أهل كُذبة . واستجداء يتقدمهم المفتى . ويقول قد تُفقد العلم لولا يقايا شرح الله بهم صدر الدين . ويدعو للدولة العثمانية بالازدهار . ويعارض بالمقامة الرابعة رسالة لرشيد الدين الطواط المترجم له في قسم إيران كتبها خيمن كان يزاحمه في أداته ودواته وعمله في ديوان الدولة الخوارزمية وفيها يزرى بصاحبه ويحط منه حطاً شديداً . ونسج الشهاب الحجاجي على منواله في صنع هذه المقامة قاصداً بها المفتى خصيصة مسيا له باسم الوزير ، وفيها يضع منه ويهجو هجاء مرا ، وبصور قصته معه وأنه سمع قول الرشاة ونفاه ويمثل به تمثيلاً شديداً . والمقامة الخامسة سماها المقامة المغربية ، اقترض اسمها من لدن الحريري وتسميته لمقامته السادسة عشرة بالمقامة المغربية ، والشهاب الحجاجي يكثر في مقامته تلك من بعض الأمثال والأعلام والمقتطفات من الأشعار وبعض أقوال الحكماء والألفاظ الغريبة ، ولذلك أتبعها بشرح لما استظهره في المقامة من ذلك كله .

٤

المواعظ والالتهالات

فَرَضَ الإسلام الوعظ في خطب صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وفي خطب صلاة الميدين ، وكان يتولاها أئمة المساجد ، وأحيانا خلفاء الأمة ، واشتهر كثير من الوعاظ نسمع عنهم في كل بلدة ، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجاميع من خطبهم إلا ما كان من خطب ابن نباتة خطيب

سيف الدولة الحمداني . وطبيعي أن يشتهر بمصر غير واعظ ، ويلقانا في مفتتح هذا العصر أبو الحسن ^(١) على بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٣٣٨ وقد استوطن القسطنطينية ، وكان له بها مجلس وعظ عظيم . ويستولى المعز لدين الله الفاطمي على مصر ، ويؤسس بها الدولة الفاطمية التي ظلت نحو مائتي عام ، وكان خطيبا مفوها ، وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر ، ولم تحتفظ كتب التاريخ بشيء من خطبه ومواعظه في القاهرة ، وقد احتفظت بخطبة ^(٢) خطيبها عقب وفاة أبيه المنصور في بلدة المنصورة بالقرب من القيروان ، بدأها بأسجاع في بيان عظمة الله وتحميده وتمجيده . وكان ابنه العزيز يخطب مثله في الجامع الأزهر حتى إذا بنى الحاكم جامعاً أخذ هو ومن جاءوا بعده يخطبون فيه ^(٣) . ويبدو أن الخطب والمواعظ كانت تُعدُّ لهم - ولمن ينيونهم عنهم من الوزراء - في ديوان الإنشاء . ويذكر الرواة لابن أبي الشخاء كاتب الدواوين في زمن المستنصر مجموعة من المواعظ لملها كانت خطيباً أعدها للخليفة ووزيره بدر الجبالى ، وقد اشتهرت في أيامه ببلاغتها ، إذ كان - كما مر بنا في ترجمته - كاتباً بارعاً ، وتقتطف قطعة من إحدى خطبه ، إذ يقول ^(٤) :

«أيها الناس فكروا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة ، وخففوا ظهوركم من الأصار المستحقة ^(٥) ، ولا تأسموا ^(٦) أطاعكم في رياض الأمانى التشعبة ، ولا تملوا صغركم ^(٧) إلى زيارج ^(٨) الدنيا الهيبة .. أين الجباية الماضية المتعبة ، والملك المعظمة المرجبة ^(٩) أولو الحفدة ^(١٠) والحجبة ، والزخارف المعجبة ، والجيش الجائرة اللجة ^(١١) .. طرقت - واقه - خيامهم غير منتبهة ، وأصبحت أظفار المنية من مهجهم قانية ^(١٢) مخنضبة ، وأكلت لحومهم هوام الأرض السيئة ^(١٣) ، ثم إنهم مجموعون لبوم لأيقبل فيه عذراً ولا متعبة ، ونجازى كل نفس

(١) انظر فيه حسن المحاضرة للسيوطي ٥٥١/١ والعبر

٢٤٧/٢

(٢) الصخر : الشق والجانب

(٣) انظر سيرة الأستاذ جردر (طبع دار الفكر العربي)

(٤) زيارج : جمع زيرج : الحيلة والزينة

(٥) المرجبة : الموقرة المظلة

ص ٧٦

(٦) الحفدة : الأعران .

(٧) النجوم الزاهرة ١٠٢/٤

(٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (طبع القاهرة سنة

(٩) الجراة : الكتيبة . العجة : ذات الجلبة والصوضاء

١٩٢٩ ٥٤٥/١٠

(١٠) قانية : حمراء . مخنضبة : مصبوبة بالخصاب

(١١) الأصار : الذنوب . المستحقة : للزينة

الأحمر

(١٢) أسام الدابة في الرمي : غلاماً نرمى فيه كما تناء

(١٣) السجة : الجامعة

بما كانت مكتسبة ، فلما سعيدة مقرّبة ، تجرى من تحتها الأنهار مثوبة ^(١) ، وإما شقيّة معذّبة ، في النار مُكبّكة ^(٢) .

وقد التزم ابن أبي الشخاء في موعظه الباء والماء في روى أسجاعه ، ليعطى للصوت في أول السجعة وما وراءه من الكلمات والمقاطع الفرصة كي يعلو ، ثم ينخفض فجأة آخر السجعة ، وكأنما لم تعد فيه بقية من شدة التأثير . وخصائص ابن أبي الشخاء الفنية التي عرضنا لها في حديثنا عنه واضحة أتم وضوح في هذه القطعة من الخطبة ، فهو يعنى بالتصاویر عناية شديدة ، إذ يطلب إلى الناس أن يفكوا أنفسهم من سلاسل الآمال المبهمة ومحطوا عن ظهورهم ذنوبهم المقرّفة ، ويصرفوا أطماعهم عن رياض الأمانى المشعبة ، ولا تغرنهم زينة الحياة الدنيا . ويدعو الناس إلى العظة بالألم الحالية والملوك السالفة وما كانوا فيه من ترف ونعيم . كل ذلك زال إلى غير مآب ، وذاقوا كئوس الموت دهاقا ، وأكلت هوائم الأرض وحشراتنا لحومهم . ويرفع أمام أعين الناس يوم القيامة ، يوم الجزاء الأكبر ، فلما إلى النعيم وإما إلى الجحيم .

ونمضى إلى زمن الأيوبيين ، فليقلنا إبراهيم بن منصور المتوفى سنة ٥٩٦ إمام جامع عمرو بن العاص بالقسطنطينية وخطيبه ، وولى الخطابة بعده ابنه محمد يقول السبكى : « وله ديوان خطب مشهور ^(٣) » . وطبيعى أن الخطابة لزمن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام وبذل المهج والأرواح في سبيل نصرة دينه الحنيف . ولم تكن خطب الجهاد تلقى في أيام الجمع فحسب . بل كانت تلقى كلما أريد تجميع الشعب لحمل السيف والسلاح . ويروى المقرئى ^(٤) أنه حينما علم الفرنج بموت الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ تقدموا من دباط نجاه المنصورة « فورد كتاب إلى القاهرة من السكر أوله : (انْزِلُوا خُفَاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) وكان في الكتاب مواعظ بليغة في الحث على الجهاد ، فقرأ على منبر جامع القاهرة ، وقد جُمع الناس لسماعه ، فارتجت القاهرة والقسطنطينية وضواحيها وخرج الناس للقاء الصليبيين من المدينتين الكبيرتين ومن سائر الأعمال ، فاجتمع عالم عظيم سحق الصليبيين سحقاً ذريعاً كما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

(٣) انظر ترجمة أبيه عند السبكى ٣٧/٧

(٤) الخطط ٤١٣/١

(١) مثوبة : مكافأة

(٢) مكبكة : مجمعة .

ونلتقى في زمن المالك بابن النير ^(١) الإسكندري المتوفى سنة ٦٨٣ المتولى قضاء الإسكندرية وخطابها مرتين ، ويقول صاحب فوات الوفيات : « له ديوان خطب » . وكان يعاصره أخطب الخطباء قاطبة أيام المالك ابن دقيق ^(٢) العيد المتوفى سنة ٧٠٢ علم الأعلام وشيخ الإسلام وقاضى القضاة في جميع ديار مصر منذ سنة ٦٩٥ إلى وفاته . ويشيد مترجموه بورعه وتقواه ، ويقول السبكي : « له ديوان خطب مفرد معروف » . وكان شاعراً ، ويطلق مترجموه في ذكر أشعاره ، ولا يعرضون شيئاً من خطبه ومواظفه إلا موعظة ذكر السيوطي أنه كتب بها إلى قاضى اخميم بالصعيد ، وفيها يقول ^(٣) :

« نحمد الله الذى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) ، ويمهل حتى يلتبس الإهمال بالإهمال على المفلور ، ونذكره بأيام الله (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ونعذره صفقة مَنْ يباع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار . وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار ، والمقتضى لإصدارها ما لمناه من الغفلة المستحكة على القلوب ، ومن تقاعد المغمم بما يجب للرب على المريب ، .. ووالله إن الأمر عظيم ، والخطب جسيم ، ولا أرى .. إلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصره متهمة على حفظ نفسه ودنياه ، فناية مطلبه حب الجاه .. فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله غير مرحوم .. واجعل أكثر همومك الاستعداد ليوم المعاد ، والتأهب لجواب الملك الجواد فإنه يقول : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عما كانوا يعملون) .

ولعل في هذه القطعة ما يصور وعظ ابن دقيق العيد في خطبه وأنه كان يتدفق فيه كالنبيل المذهب . مما جعل معاصريه يشيدون طويلاً برفاق وعظه وكلمه التى كان يجلب بها وما يضمها من آى الذكر الحكيم عقول مستمعيه ، فيملأ نفوسهم بالإجابة إلى الله . وكان دائماً يرفع أمام أعينهم أهوال يوم المحشر يوم تجزى كل نفس بما كسبت وعملت وقدمت ، فإذا هم يرتجفون ويكون بدموع غزار ، وقد خشعت قلوبهم وذابت نفوسهم وهلموا إلى دعاء الله يستغفرونه ويتوبون إليه توبة نصوحاً .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن دقيق العيد

ص ١٤٦ .

(٣) حسن المحاضرة ١٦٨/٢

(١) انظر في ابن النير فوات الوفيات ١٣٢/١ والنجوم

الراية ٣٦١/٧ وحسن المحاضرة ٣١٦/١ وشنرات الذهب

وما يزال السيوطي في حسن المذاكرة يسوق إلينا أسماء كبار الوعاظ وخاصة بين الصوفية ، ومُر بنا في الفصل الأول حديث مفصل عن التصوف بمصر وكيف أخذ يزدهر بها منذ عيت به الدولة في عهد صلاح الدين ، وإنشائه لحائقه سعيد السعداء . واتسع بناء الحائقاته بعده في أيام المالك ، وكانت دورا كبيرة للنسك ودراسة العلوم الدينية على نحو ما يذكرون عن خانقاه سرياقوس التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، ومُر حديث مفصل عنها وعن غيرها من الحائقات المملوكية . وبنوا بجانبها للصوفية اثني عشر رباطا . كل ذلك عمل على ازدهار التصوف بمصر منذ القرن السادس الهجري . وكان كثير من الصوفية يتبعون الطريقتين العراقيتين : القادرية الجبلانية والرقاعية .

ولم تشع طريقة في العالم الإسلامي إلا كان لها فروع وأتباع في مصر ، وأخذت تؤسس بها طرق مشهورة في مقدمتها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى مؤسسها أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ وسنخصه بترجمة قصيرة . وتلتها سريعا الطريقة البرهامية نسبة إلى إبراهيم ^(١) اللسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ بلسوق بالقرب من رشيد ، وهو من ذرية علي بن أبي طالب ، والطريقة الأحمدية نسبة إلى أحمد ^(٢) البدوي المتوفى سنة ٦٧٥ بطنطا وهو أيضا سليل علي بن أبي طالب . وكان لكل طريقة ورد خاص تردده ، كله ابتهالات إلى الله ومناجيات وأدعية ، وكثرت على السنة المتصوفة هذه الأدعية والمناجيات والابتهالات والأوراد ، وسنعرض لهذا الجانب عند أبي الحسن الشاذلي في ترجمته . وسوق قطعة من ورد أو حزب إبراهيم اللسوقي ، يقول مناجيا ربه :

« بأسمائك يارب العالمين . بالمسموات القائمة ، فمن بالقدره واقفات ، بالشيء المتطابقات ، بالحجب المترادفات ، بمواقف الأملاك (الملائكة) في مجارى الأفلاك . بالكروسي البسيط ، بالعرش المحيط .. اللهم احرسني من كيد الفاسق ، ومن سطوة المارق ، ومن لدغة المنافق » .
وكان يعاصر اللسوقي والبدوي أبو العباس ^(٣) المرسى المتوفى سنة ٦٨٦ تلميذ أبي الحسن

(٣) انظر في ترجمة أبي العباس كتاب لطائف المنن في شأبه أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن وراجع الشرائع ١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧١/٧ وحسن المذاكرة ٥٢٣/١ والرائع ٢٦٨/٧ وشذرات الذهب ٢٧٣/٥ .

(١) انظر اللسوقي في الطبقات الكبرى للشراف (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ١٨٣/١ وخطط على مبارك ٧/١١ (٢) راجع ترجمة البدوي في الشرائع ٢٠٢/١ والنجوم الزاهرة ٢٥٣/٧ وحسن المذاكرة ٥٢١/١ وشذرات الذهب

الشاذلى ، وهو أندلسى من مرسية ، ولد بها سنة ٦١٦ للهجرة ، وفى الرابعة والعشرين من سنه خرج إلى الحج ، وفى طريقه توقف بنونس ، وفيها تعرف على الصوفى الكبير أبى الحسن الشاذلى ، وأصبح أقرب أتباعه ومريدبه إليه ، حتى إذا رحل إلى الاسكندرية سنة ٦٤٢ رحل معه . وكان لا يبرح مجلسه ، وزوجه ابته ، وأعلن إلى أتباعه فى جامع المطارين بالإسكندرية أنه خليفته ، وكان يتقن العلوم الشرعية ، ويدرسها هى وبعض كتب الصوفية ، وأقبل على دروسه الطلاب . واستأذن شيخه فى السفر إلى القاهرة للتدريس بمساجدها ونشر طريقته بها ، فأذن له ، وكان يلقى دروسه فى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص وجامع القفس ويسمى الآن جامع أولاد عنان بالقرب من محطة باب الحديد . وكانت حلقته فى الجامعين تزدهم بالطلاب والعلماء . وتوفى أستاذه سنة ٦٥٦ فخلفه على الطريقة ، وكان أكثر مقامه بالإسكندرية ، ومن حين إلى حين يتزل القاهرة ، ناشرا هنا وهناك الطريقة الشاذلية ، وتلميذه ابن عطاء الله كتاب قصره عليه وعلى أستاذه الشاذلى سماه « لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن » ويعد جامعهم اليوم أكبر جوامع الإسكندرية ، ويورد ابن عطاء الله كثيرا من أقواله ، كما يورد له وردا أو حزبا نقتطف من ابتهالاته وأدبيته قوله (١) :

« اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا منك ، والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك .. اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيننا وبين الصديق والنية والإخلاص والخشوع والهيبة والحياء والمراقبة ونور اليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والسر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم فى القرآن وخُصنا منك بالمحبة .. وآتانا العلم اللدنى والعمل الصالح والرزق المنى على بساط علم التوحيد والشرع .. وسحر لى الرزق واعصمى من تعلق الهمة به ومن الذلل للخلق بسببه .. وهب لى لسانا لا يفتعن ذكرك وقلبا يسمع بالحق منك .. وبُغض لنا الدنيا وحبيب لنا الآخرة .. اللهم لاتعذبنا بإراداتنا وحب شهواتنا فنشتغل أو نُحجب أو نفرح بوجود مرادنا أو نخزن أو نسخط .. وأنت أعلم بقلوبنا فارحمنا بالنعم الأكبر والمزيد الأفضل والنور الأكمل » .

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله على هامش كتاب لطائف

المن والأخلاق للشمراوى (طبع المطبعة الحسينية بمصر) ٣٧/٢

والورد طويل ويتخلله كثير من الآيات القرآنية ، وهو مناجاة روحية صافية للذات العلية . ويتضح فيه كيف تجمع الطريقة الشاذلية بين علم الشريعة وعلم الحقيقة الصوفية ، ولعل ذلك ما جعلها تشدُّ على أتباعها في أن لا يلبسوا المرقعات وأن لا يسألوا الناس شيئا مما في أيديهم من مال أو غذاء مع الاعتماد على النفس في كسب القوت عن طريق التجارة والزراعة وغيرها . وبذلك وصلت بين أتباعها والحياة والشريعة ، وسنخص ابن عطاء الله نلميذ أبي العباس الرسي بترجمة قصيرة . ومن متصوفة مصر المعاصرين لأبي العباس عبدالعزيز^(١) الدُميرى الدَّيرى ، ولد بقرية دَميرة بالقرب من دمياط سنة ٦١٢ وتوفى بديرين في الصعيد سنة ٩٩٤ وكان ينحدر في ريف مصر شمالا وجنوبا ، وكان فقيها شافعيًا ، ونظم كتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي ، ونظم سيرة نبوية ، وكان له تفسير في مجلدين . وكان متقشفاً مخشوشا ، وله في التصوف كتاب « طهارة القلوب في ذكر علام الغيوب » وهو يمثل بمناجيات إلهية بديعة من مثل قوله :

« إلهي ، عرفتنا بربوبيتك ، وغرقتنا في بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قُدسك ، ونعمتنا بذكرك وأنسك .

إلهي ، إن ظلمة ظُلْمنا لأنفسنا قد عمّت ، وبخارَ الغفلة على قلوبنا قد طُمّت ، فاعجز شامل ، والحصر^(٢) حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم .

إلهي ، ماعصيتك جهلا بعقابك ، ولانعرضا لعذابك ، ولكن سئلت^(٣) لنا نفوسنا ، وأعانتنا شِقْوتنا ، وغرّنا شرك علينا ، وأطمعنا في عفوك بِرُك بنا ، فالآن من عناهلك من يَسْتَقِلُّنا ؟ وبِحَبْلِ مَنْ نَعْتَمُّ إن قطعْتَ حَبْلَكَ عنا ؟ واخْجَلِّتْنا من الوقوف غدا بين يديك ، وافضيتنا إذا عُرِضَتْ أعمالنا القيحةُ عليك .

اللهم اغفر ما علمتَ ، ولا نهتك ماسترت .

إلهي ، إن كنا عصيانك يجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا ربًّا يغفر الذنوب ولأَيُّال .

وهي مناجاة لله بديعة صافية كل الصفاء نقية كل النقاء ، مناجاة تنبئ عن قصور العبد وتعلقه

(٢) الحصر : المي .

(١) انظر في طبقات الشافعية للسبكي ١٩٩/٨ وحسن

(٣) سئلت : أغرت . ونحال في الشرود والسرور .

الحاضرة ٤٢١/١ والشرعاني ٢٢٤/١ ومناجياته المذكورة في

بربه وطعمه في غفرانه وعفوه إذ يرى كل صلته ونسكه وعبادته وكل ما قدم بقصر عن حق إلهه .
ويروى السبكي مناجاة لصوفي شاذلي من صوفية القرن الثامن هـ شمس^(١) الدين بن اللبان محمد
ابن أحمد المتوفى سنة ٧٤٩ وقد أخذ الطريقة الشاذلية عن ختنه (والد زوجته) باقوت العرشي
تلميذ أبي العباس المرسي ، ويقول السبكي إنه نقل مناجاته عن كتابه « المشابه في الربانيات »
وهي تطرد على هذا النمط .

« إلهي ! جَلَّتْ عَظَمَتُكَ أَنْ يَفْصِكَ عَاصِي ، أَوْ يَسَاكَ نَاسِي ، وَلَكِنْ أَوْحَيْتَ رُوحَ أَوْامِرِكَ
فِي أَسْرَارِ الْكَائِنَاتِ ، فَذَكَرَكَ النَّاسِي بِنَسْيَانِهِ ، وَأَطَاعَكَ الْعَاصِي بِعَصْيَانِهِ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
بِسُبْحِ مُحَمَّدٍ ، إِنْ عَصَى دَاعِيَ إِيمَانِهِ فَقَدْ أَطَاعَ دَاعِيَ سُلْطَانِهِ ، وَلَكِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّتُكَ ،
وَقَدْ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) .

ويبدو أن كتاب المشابه في الربانيات كان شطحات كثيرة على نحو ما نرى الآن من قوله : إن
العاصي يطيع الله بعصيانته وإنه إن عصى داعي إيمانه فقد أطاع داعي سلطانه ، فكيف يُعَدُّ
العاصي لله مطيعاً له ؟ وإذن لا يكون في الدنيا عاصي ومطيع . ولذلك يقول السبكي إن هذه
المناجاة مما أخذ عليه . ويقول ابن حجر : ضُبِطَتْ عَلَيْهِ كَلِمَاتٌ عَلَى طَرِيقِ الْإِتِّحَادِيَةِ الْقَائِلِينَ
بِالْحُلُولِ ، كَمَا يَقُولُ إِنْ لَهُ كِتَابًا عَلَى لِسَانِ الصُّوفِيَةِ ، فِيهِ مِنْ إشارات الصوفية القائِلين بالوَحْدَةِ ،
وهو في غَايَةِ الْحُلَاوَةِ لِقَظًا وَفِي الْمَعْنَى سَمِ قَاتِل .

وكان يعاصره يوسف^(٢) بن عبد الله المعجمي الكردي المصري الدار المتوفى سنة ٧٦٨ وقد
دفن بزاويته بقرافة مصر . ويقول ابن حجر : « له زوايا في عدة بلاد » . ويصفه ابن تيمية بـ
يقوله : « الإمام العالم المسلِّك الصوفي العارف بالله تعالى المعتقد .. وقبره يقصد للزيارة ، كان
شيخاً حقيقاً ومُتَقَنِّدِي طَرِيقَةٍ ، كان إماماً المسلِّكين (آخذى اليهود على المريدين) في عصره وله
رسالة في التصوف سماها « رِيحَانُ الْقُلُوبِ وَالتَّوَصُّلُ إِلَى الْمَهْجُوبِ » . ومن هذه الرسالة مخطوطتان
بدار الكتب المصرية وقد ذكر فيها شرائط التوبة وليس الحرقَةُ أو المرقمة الصوفية وتلقين
الذكر .. ويقول ابن تيمية بـ : انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء ، وكان

(٢) انظر في يوسف المعجمي النجوم الزاهرة ٩٤/١١
والدرر الكاشفة لابن حجر ٢٣٨/٥ والشراف ٧١/٢ وحسن
المناصرة ٤٢٦/١

(١) انظر ابن اللبان في الدرر الكاشفة ٤٢٠/٣ والسبكي
٩٤/٩ وحسن المناصرة ٤٢٨/١ والوافي بالوفيات للصفدي
١٦٨/٢ ورملة الحنان ٣٣٣/٤ وشنفرات الذهب ١٦٣/٦

على قدم هائل ، كان غالب علماء عصره يقتنون به ، وكان له أورداد وأذكار هائلة ، وهذه الأذكار والأورداد سقطت من يد الزمن . وهو وأورداده رمز لمن جاء بعده من المتصوفة في أيام الماليك وما كان لهم من أورداد وأحزاب سقطت من يد الزمن .

ونغضى إلى أيام العنانيين وتلتقى في مطلعها بأبي السعود ^(١) الجارحي المتصوف المتوفى سنة ٩٣٠ ويشيد به الشمراني ، وأهم منه الشمراني ^(٢) نفسه المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن الزهد والتصوف في الفصل الأول ، وفي كتابه « لطائف المنن والأخلاق » بيان بالمولفات التي قرأها وبأسانئذته ومراحل حياته الصوفية والأخلاق التي التزمها في حياته . ومع أنه صوفي سني نراه يدافع عن أستاذه الروحي : ابن عربي ، محاولاً تأويل عباراته على نحو ما يصور ذلك في كتابه « الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر » . ونظّل الطرق التي عرضنا لها في غير هذا الموضع ناشطة بمصر . ويعلم شأن الطريقة الخلتوية المنسوبة إلى الشيخ محمد الخلتوي منذ نزل القاهرة الشيخ مصطفى ^(٣) بن كمال الدين البكري الناشئ ببيت المقدس ، وقد طُوف في بلدان الشام والعراق وتركيا وحج مراراً وسكن بأخرة القاهرة وتوفى بها سنة ١١٦٢ ويعرف به الجبيري قاتلاً : شيخ الطريقة والحقيقة ، قدوة السالكين ، ومرقى المریدين الإمام المسلك ، تأليفه تقارب الماشين ، وأورداده أكثر من ستين ورداً . وأجلها ورد السحر ، ونقتطف من مناجياته لربه فيه وابتلائاته قوله ^(٤) :

« إلهي ، أنت المدهو بكل لسان ، وللقصود في كل آن .

إلهي ، أنت قلت : (ادعوني أستجب لكم) فما نحن منجّهون إليك بكليتنا فلا تردنا ، واستجب لنا كما وعدتنا .

إلهي ، ابن المفر منك وأنت المحيط بالأكوان ؟ وكيف الهراح عنك وأنت الذي يُبدّنا بلطائف الإحسان .

والشمراني إمام الصوف في عصره لتوفيق الطويل .

(٣) انظر في ترجمة مصطفى البكري الصديق الخلتوي تاريخ الجبيري ١/١٦٥ وسلك الدرر ٤/١٩٠ وهاجرة المعارف الإسلامية في البكري .

(٤) انظر في ورد السحر البكري مجموع الأورداد الكبير (طبع مكتبة النصر) ص ٧٨ - ١١٨

(١) راجع فيه الطبقات الكبرى للشمراني ١٤٣/٢
(٢) انظر في ترجمة الشمراني كتابه « لطائف المنن والأخلاق » في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، والكواكب السائرة ٢/٢٥٩ وطبقات للناوي الكبرى ٢/٤٩٥ والمخطط التوفيقية ١٤/١٠٩ وكتب الشمراني والتصوف الإسلامي له عبدالباق سرور ،

إلهي ، بحق جمالك الذي كُتِبَ به أكبادُ المهين ، ويحلاك الذي تحيرت في عظمته ألبابُ العارفين .

إلهي ، بالنور المحمدي الذي رفعت على كل رفيع مقامه ، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك أعلامه ، أفتح لنا فتحاً صمدانياً وعلماً ربانياً ، ومحباً رحانياً ، وقبلاً إحسانياً .
وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الخلوتية جمع من العلماء المصريين الأعلام في مقلتهم الشيخ الحنفى شيخ الجامع الأزهر وهو ملحق أسانيد الطريقة بعده ، ومن أخذها عنه الشيخ أحمد الدردير . ومنحصره بترجمة قصيرة بعد أبي الحسن الشافلى وابن عطاء الله السكندري .

أبو الحسن ^(١) الشافلى

هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار ، من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولد سنة ٥٩٣ للهجرة بقرية تسمى غمارة بالقرب من سيّنة في المغرب الأقصى ، وعلى عادة لداته في النشأة بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم وأكسب على العلوم الإسلامية واللغوية حتى أتقنها . ولم يكد يبلغ نحو العشرين من عمره حتى أحس برغبة شديدة للنهل من معين الصوفية ، فرحل إلى المشرق ليلقى العلماء النساك ، ونزل تونس ، ولقى فيها وفي المدن المغربية قبلها حَمَلَةَ طريقة الصوفى المسمى أبي مدين . ولم يلبث أن عزم على أداء فريضة الحج فزار مصر ودخل الحجاز ، ثم زار فلسطين والشام والعراق ، وتعرف في بغداد على صوفى رفاعى هو أبو الفتح الواسطى ، وكأنما كان باب سلوكه الصوفى . وعاد إلى المغرب ، فكان من محاسن الصدف أن تعرف في فاس على صوفى هو عبد السلام بن مشيش ، فلزمه ، واتخذهُ إماماً وشيخاً ، وقد دفعه دفعاً إلى أن يمشي للتصوف ومحبة الله ، إذ كان يكرر عليه قوله : « أدّمين على الشرب والمجبة وكأسها مع السكر والصحو ، كلما أقتت أو تيقظت شربت ، حتى يكون سكرك به ، وحتى تغيّب بجماله عن المجبة وعن الشرب والشراب والكأس ، بما يبدو لك من نور جماله ، وقدس كما له وجلاله » . ولم يلبث شيخه أن أمره

الشافلى المذكور عبد الحليم محمود ، وأعلام الاسكندرية في العصر الاسلامى للمذكور جمال الدين الشيال ص ١٦١ والأدب في التراث الصوفى للمذكور محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٥٠ .

(١) راجع ترجمة الشافلى في كتاب « لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن » وحسن الحاضرة ٥٢٠/١ ونكت الحسان ص ٣١٣ والشعرى في الطبقات ١/٢ والنجوم الزاهرة ٦٩/٧ وراجع للفاخر الطبة في آثار الشاذلية لابن عباد وهو مطبوع ، وأبو الحسن

بالمجرة إلى شاذلة بالقرب من تونس في إفريقية الوسطى ، فهاجر إليها ، وهناك أخذ ينشر في الناس الدعوة إلى التصوف ، ولصفت البلدة باسمه حتى اشتهر باسم الشاذلى وكان يتركها أحيانا إلى تونس وفيها تعرف بتلميذه أبى العباس المرسى وتوثقت الصلة بينها في الله وعبته حتى قال له الشاذلى يوما : « ماصحبتك إلا لتكون أنت أنا »

وهاجر الشاذلى وتلميذه أبو العباس وجمع من مريديه إلى الاسكندرية في سنة ٦٤٢ وبها ألقى عصا تسياره ، وذاع صيته لافى الإسكندرية وحدها ، بل أيضا في القاهرة ، إذ كان يتردد عليها لنشر طريقته الصوفية ، وكان يحضر مجالسه في مدرسة الحديث الكاملية شيوخ الإسلام حينئذ وأكابر العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين .. وكان يلقى دروسه ومواعظه في الاسكندرية بجامع العطارين . وطار صيته فيها وفى القاهرة والمدن المصرية ، فانهال المصريون عليه ، يطلبون القرب من الله على يديه ، وفى هذه الأثناء أصاب عينيه رمد أفقده بصره . وكان يُعجب بأبى العباس المرسى منذ لقائه به فأعلن فى أتباعه - كما مر بنا - أنه خليفته على طريقته ، وهى تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب . والشعور بالباطنى الصوفى .

وهاجم الشاذلى بقوة حياة الخانقاهات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرُحْل ، فعنده أن الصوفى الحقيقى لا يكون سائلا ولا طفيليا بمد يده للغير ، بل لابد أن يعتمد على نفسه فى كسب قوته ، فتصوّفه أو طريقته الصوفية كانت طريقة سنية . وكان يدعو مريديه لحمل السلاح ضد أعداء الإسلام الصليبيين ، وكان يرحل معهم إلى ميادين الحرب كما حدث فى موقعة المنصورة المشهورة لمهد السلطان نجم الدين أيوب وابنه توران شاه حين اقتحم لويس التاسع ملك فرنسا دمياط وتقدم منها سنة ٦٤٧ يحميه نحو المنصورة إذ نجده مع مريديه هناك ، ونجد معه شيوخ الدين وعلماء الكبار من مثل العزيز بن عبد السلام وابن دقيق العيد ومحمى الدين بن سراقه وغيرهم من جُلّة الشيوخ . وحدث أن تكلموا يوما واعظين ، وجاء الدور فى الكلام والخطابة على أبى الحسن ، فتكلم - كما يقول الرواة - بالأسرار المحبية والعلوم الجليلة ، وانهى الشيخ العزيز بن عبد السلام ، فقام هاتفا منبرها قائلا : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله . وأنزل الجيش المصرى بالصليبيين هزيمة ساحقة ، واستسلم ملكهم لويس التاسع ذليلا كسيرا ، وارتحلوا عن دمياط خاضعين مدحورين إلى البحر المتوسط وماوراءه .

وعاد أبو الحسن الشاذلي إلى الاسكندرية والعلماء والناس يَكُونُ عليه للاستزادة من علمه وطريقته وتعاليمه . حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ خرج إلى الحج عن طريق القصير ومعه أبو العباس وبعض مريديه ، وفي صحراء عذاب بين قنا والقصير أحسَّ بدنو أجله فأعلن إلى أتباعه استخلافه عليهم أبا العباس المرسى ، ولم يلبث أن أسلم روحه إلى بارئته . وتدل أقواله وأدعيته وإبتهالاته ومناجياته لربه في أوراده على أنه كان يملك ناصية العربية مصرًا أزمها كيف شاء ، وله أوراد كثيرة ، وقد ساق ابن عطاء الله منها في كتابه لطائف المتن أربعة أوراد له أو أحزاب ، لعل أهمها الحزب المسمى بالحزب الكبير وهو يستله ويتخلله بآيات قرآنية كثيرة ، ويناجي ربه فيه بمثل قوله :

« اللهم إنك تعلم أني بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شيء من جهالتى بملكك فسحَّ ذلك برحمتك كما وسعته بملكك واغفرلى إنك على كل شيء قدير . يارزاق يا قوى يا عزيز ! لك مقاليد السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر قابضًا لنا من الرزق ما توصلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ما منحول به بيننا وبين نعمتك ، ومن حلمك ما يسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التي ختمت بها لأولائك ، واجعل خير أيامنا وأسعدنا يوم لقائك ، وزحزحنا عن حب الدنيا وعن نار الشهوة وأدخلنا بفضلك في ميادين الرحمة ، واكسنا من نورك جلايب العصمة ، واجعل لنا ظهيرًا من عقولنا ، ومهيئنا من أرواحنا ، ومسخرًا من أنفسنا (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا) . »

اللهم إنا نسألك إيمانًا دائمًا ، ونسألك قلبًا خاشعًا ، ونسألك علمًا نافعا ، ونسألك يقينًا صادقًا ، ونسألك دينًا قويمًا ، ونسألك العافية من كل بلية ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس . »

والمناجاة طويلة ، وهو يلم فيها - كما نرى - بطلب المغفرة والرحمة من ربه وأن يكون خير أيامه وأسعدنا يوم لقائه وأن ينقِّره من حب الدنيا ويعصمه من شهواتها وأن يجعل حياته نسكا وعبادة له . وما يزال في الورد يتننى أن يبه الله رضاه وحبَّه وأن يدفع عه كل ضر وأذى وأن يغنيه عن السؤال وأن ينعم عليه بعرِّ الدنيا من الإيمان والمعرفة وبعرِّ الآخرة من اللقاء والمشاهدة . ولم يكن يطلب إلى أصحابه أن يشقوا على أنفسهم في العبادة والتسك وأن يلبسوا الخرق والمرمَّات بل كان يطلب إليهم الرفق بأنفسهم في التقوى والعبادة ، وأن يشتركوا في الحياة مع مجتمعهم تجارًا وزراعا وأصحاب حرف ، فإن العمل نفسه يعد عبادة . وبذلك كان يدعو أتباعه أن لا يكونوا حالة على

المجتمع بل يعملوا ويحلوا مع صفاء النفس ومحو الروح ، ومع التقوى والعمل الصالح . وشاعت طريقته في الديار المصرية وفي شمال أفريقيا وخاصة في الشمال الغربي ، وتفرعت منها أكثر من عشرة طرق من أهمها الطريقتان الوفاية والخلوتية .

ابن عطاء ^(١) الله السكندري

هو تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري ، ولد بالإسكندرية في أواخر العقد السادس من القرن السابع ، واستهل حياته بحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يعكف على دراسة العلوم الدينية واللغوية حتى برع فيها ، يقول السيوطي : « كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير وعديث ونحو وأصول وفقه على مذهب مالك » . ويبدو أنه جمع إلى مذهب مالك دراسة مذهب الشافعي مما جعل السبكي يترجم له في طبقات الشافعية ، وله في مذهب مالك مختصر تهذيب المدونة للبرادعي . وكان في أول أمره منصرفاً عن التصوف والصوفية . بل كان ينكر عليهم طريقتهم ، حتى تصادف أن استمع إلى أبي العباس الرمسي تلميذ أبي الحسن الشاذلي ، فأعجب به ، وأخذ يقتنع بطريقة القوم ، حتى أصبح أكبر مرید لأبي العباس وآثر تلاميذه عنده ، ولما توفى سنة ٦٨٥ خلفه على رياسة الطريقة الشاذلية . وله فضل كبير في نشرها ، فقد كان فقيهاً كبيراً ، كما كان صوفياً شاذلياً لئياً ، فجلس مجلس أستاذه يدرس للناس الفقه والتفسير ويعظمهم ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير فيهم .

واستوطن ابن عطاء الله القاهرة ، واتخذ له حلقة في الجامع الأزهر تارة وفي المدرسة المنصورية تارة أخرى يعظ الناس ويرشدهم ، وأكب عليه الفقهاء وفي مقدمتهم تقي الدين السبكي ، وأكبت عليه العامة ، ودخل كثيرون في طريقته لروعة وعظه وحسن بيانه ، وخاصة أنه كان يمزج مواعظه بالقرآن الكريم والحديث النبوي وأقوال السلف . فكثر أتباعه ، وأصبح لطريقته الشاذلية شأن عظيم ، وكان يكرر ويردد دائماً مبادئها الأساسية وهو أن الصوفي الحقيقي من يجمع بين علوم الشريعة وعلوم الصوفية ، وأنه لا تصوف بدون أداء الفرائض والتوابع ، وأن على المتصوف أن يكتسب قوته وما يقيم به أوده ، وأما من يسألون الناس ويتضرعون إليهم طالبين ما يسألون به رفقهم

(١) ١٣٥١ هـ . ص ٧٠ والواق ٥٧/٨ وشذرات الذهب ١٩/٦ وكتابا عنه للدكتور الخزازي وأعلام الإسكندرية للدكتور الشبال ص ٢١٤ .

(١) انظر في ابن عطاء الله النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨ وطبقات الشافعية ٢٣/٩ والدرر الكامنة ٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشمراني ١٤/٢ والدرر الطالع ١٠٧/١ والدياج للذهب لابن فرحون (طبع القاهرة

فلبوا من التصوف في شيء . فالصوفي يعمل ويحني ثمرة عمله ولا يسأل سوى ربه راضيا برزقه ونصيبه من دنياه ، ويقول ابن حجر : « كان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه » وأنف في مناقب شيخه أبي العباس المرسي وأبي الحسن الشاذلي كتابه « لطائف المنن » فأرسي به الطريقة وتعاليمها وكتب لها الذبيح . ويقول الذهبي : « كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل » ويقول السبكي : « كان إماما عارفا صاحب إشارات وكرامات وقدم راسخ في التصوف » ويقول صاحب النجوم الزاهرة في التعريف به « الشيخ القدوة العارف بالله تعالى الصوفي الواعظ المذكر المسلك ، وكان يحضر حلقة وعظه خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير في القلوب وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق » . وصنف ابن عطاء الله « لطائف للنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن والتوير في إسقاط التدبير ، والمرق إلى القدس الأتقي ، وتاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس ، ومفتاح ^(١) الفلاح ومصباح الأرواح » . وواضح من عنوانات هذه المصنفات أنها كتب صوفية . وله أقوال وكلمات بليغة دعوها أصحابه في كتاب باسم « حكم ابن عطاء الله السكندري » وهي منشورة . وله أشعار على طريقة الصوفية . أنشدنا منها مقطوعة في غير هذا الموضع . وتوفي بالمدرسة المنصورية كهلا سنة ٧٠٩ ودفن بجبانة ^(٢) آل أبي الوفا شرق جبانة الإمام الليث ، وكانت جنازته - كما يقول مترجموه - حيلة لكثرة أتباعه من الفقهاء والطماء والعامة .

وكان ابن عطاء الله إذا وعظ استرسل في وعظه ، وقد يذكر آية قرآنية أو حديثا نبوياً فتوالى سيول القول ، من ذلك ما جاء في وصفه للرسول ﷺ في كتابه « لطائف المنن » إذ يقول : « مشرق الأنوار ومعدن الأسرار ، من له الفتح والختام ، والحائز للمقامات العلية بالتمام ، رسول رب العالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . فهو نور الأنوار وسر الأسرار ، إليه تنزل الأسرار الربانية ، وعنه تؤخذ المعارف الإلهية . أخذ أهل الظاهر عنه ظاهريهم ، وأخذ أهل الباطن (الصوفية) منه باطنهم ، وقال ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء ، وكل على قدر إرثه ، وإرثه على قدر نوره ، ونوره على قدر ضحه ، وضحه على قدر صفاء قلبه ، و صفاء قلبه على قدر معرفته بربه ، ومعرفته بربه على حسب ماسبق له من حبه » .

(٢) في الإسكندرية مسجد منسوب إليه ، ولعله كان يلقى

فيه أحيانا بعض مواضع

(١) انظره مطبوعا مع لطائف للنن على عاشر كتاب

لطائف للنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله

على الإطلاق للشراف (طبع المطبعة الميمنية)

أحمد ^(١) الدردير

هو أحمد بن محمد العدوي المالكي الأزهرى الشهير بالدردير ، ولد ببني عدى سنة ١١٢٧ للهجرة وحفظ القرآن الكريم وجُوده وشُغف بطلب العلم ، فورد القاهرة ، وأكْبُ على حلقات العلماء يأخذ كل ما عندهم من حديث وفقه وتفسير وعلم كلام ولغة ونحو وبلاغة . وشغف بدروس الشيخ الحنفى شيخ الجامع الأزهر حينذاك ، وكان قد انتظم فى سلك الخلوتية - كما مر بنا - عن طريق الشيخ الخلوق الكبير مصطفى بن كمال الدين البكرى ، فأخذ الدردير عنه الطريقة فيمن أخذوها عنه من العلماء والأجلاء وكان زاهدا عفيفا تقيا ورعاسليم الباطن مهتبا كرم الخلق ، فقربه منه الشيخ الحنفى وشيوخه بعامة . وسرعان ما أذنوا له بالإفتاء فى حضرتهم ، وأجازوا له التدريس ، فكان يدرس للطلاب المذهب المالكى ، وله فيه شرح ومختصر خليله اقتصر فيه على الراجح من أقوال أئمة المذهب المالكى . ولما توفى شيخ المالكية : الشيخ الصميدى شغل مكانه فى المشيخة والإفتاء ، وعيّن ناظرا على وقف الصعايدة وشيخا لطائفة الخلوتية الصوفية .

وعُدَّ الجبْرِ فى تاريخه مؤلفات الدردير فى الفقه المالكى وفى علم التوحيد وفى متشابهات القرآن وفى علوم البلاغة . وذكر له بجانب ذلك مؤلفات فى التصوف منها تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان ، وشرح على ورد الشيخ كرم الدين الخلوق ، وشرح على صلوات السيد أحمد البدوى وهى صلوات نبوية . وما زال الدردير يتولى مشيخة المالكية بالجامع الأزهر ومشيخة الطائفة الخلوتية الصوفية حتى توفى سنة ١٢٠١ للهجرة ، وصُلِّيَ عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ، ودُفِنَ بزاويته التى بناها بجى الكمكيين . وله ورد أو حزب مشهور باسم المسبحات ^(٢) والصلوات ، والمسبحات أدعية وابتهالات عشر ، وتليها صلوات عطرة على الرسول ﷺ ، وله معها منظومة لأسماء الله الحسنى ، تشتمل فى نهايتها على صلوات وتسليمات على الرسول ﷺ وأدعية له ولشيوخه فى الطريقة الخلوتية ، وما يقول فى مسبحاته داعيا ربه متتبلا إليه .

اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذل إلا لك ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا . وأعوذ بك من شاة الأعداء ،

الكبير (طبع مكتبة الناصر) ص ١٣

(١) انظر فى الدردير تاريخ الجبْرِ ١٤٧/٢

(٢) انظر فى هذه المسبحات والصلوات بمصر الأورد

وَحُضَالِ الدَّاءِ ، وَغِيَةِ الرِّجَاءِ ، وَزَوَالِ النِّعْمَةِ ، وَفُجَاءَةِ النِّقْمَةِ .

اللهم إني أعوذ بك من شر الخَلْقِ وهم الرِّزْقُ ، وسوء الخُلُقِ .

اللهم إني أعوذ بك من الرُّبُغِ والجَزَعِ ، وأعوذ بك من الطَّمَعِ في غير مطمَعٍ .

ويظل يستعبد من المم والحزن ومن شر ما خلق الله ومن أن يظلم أو يظلم أو يئس على إنسان أو يئس عليه ذو سلطان أو يظن أو يظن عليه . ويستعبد من الشرك الظاهر والباطن ، ويتوسل إلى الله أن يكون دائما في حرز منيع من جميع خلقه ، وأن يظل معافي في بدنه ودينه ودنياه .

ونتقل معه إلى الصلوات على الرسول ، وتوضح فيها نظرية الحقيقة المحمدية التي مر بنا حديث عنها عند البوصري ، إذ يقول :

« اللهم اجعل أفضل صلواتك أبداً ، وأنى بركتك سرمداً ، وأزكى تحياتك فضلا وعدداً ، على أشرف الخلائق الإنسانية ، وجمع الحقائق الإيمانية .. شاهد أسرار الأزل ، وترجمان لسان القدم .. وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي ، روح جسد الكونين ، وعين حياة الدارين . اللهم صل على من منه انشقت الأسرار ، وانفلق الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، ونزلت علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يلزمه مناسبات ولا لاحق ، فرباض الملكوت يزهو جلاله موقفة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة .

اللهم صل على الذات المحمدية ، اللطيفة الأحدية ، شمس سماء الأسرار ، ومظهر الأنوار . ومركز مدار الجلال ، وقطب فلك الجلال . »

ونظرية الحقيقة المحمدية وما يطوى فيها من قدم الوجود المهدى وأن وجود الكائنات مستعار منه واضحة في قول الدردير عن الرسول عليه السلام إنه ترجمان لسان القدم ، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي وروح جسد الكونين وأن الأنوار منه انشقت ، فنوره هو المرتضى في كل نور ، ووجوده هو المشاهد في كل وجود . وكل ذلك يعني أزلية النور المهدى أو قل أزلية الحقيقة المحمدية . ويوزع الدردير صلواته على الحروف المجانية فلكل حرف سجعاته الخاصة ، ومع الصلوات أدعية وابتهالات شتى من مثل قوله في الصلوات على حرف الدال :

« اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد واسئلك بنا طريق الرشاد .

وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد واخضع علينا الرضوان والوداد ،

وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وتوَجَّنا بتاج القبول بين العباد .

وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَارَأْفَ بِنَا رَأْفَةَ الْحَبِيبِ بِحَبِيبِهِ يَوْمَ الثَّنَاءِ (١) ،
وتتوالى مثل هذه الأدعية مع الصلوات على الرسول ﷺ وَكَأَنَّ اللُّرْدِيرَ يَسْتَمِدُّ مِنْ مَعِينٍ
لَا يَنْضَبُ ، وَهُوَ مَعِينٌ يَسِيلُ دَائِمًا سَلَامَةً وَعِلْوِيَّةً .

٥

كتب النوادر والسير والقصص الشعبية

(١) كتب النوادر

تطلق كلمة النوادر إطلاقين ، فهي تارة يراد بها الأقاصيص القصيرة التي تزوِّج عن النفس أو
التي يُقَصِّدُ بها إلى غرض خلق نيل ، وتارة يراد بها أقاصيص فكهة قصيرة سخرية بما حكم أو معلم
أو قاض أو مجمل . وكتب الأدب العربي تمتلئ بهذين النوعين من كتب النوادر ، وهي كثيرة في
مصر على مدار هذا العصر ، ونكتفي بالحديث عن كتاب من المجموعة الأولى وكتابين من المجموعة
الثانية .

كتاب المكافأة

مؤلف هذا الكتاب أحمد (٢) بن يوسف المعروف باسم ابن الداية كانت أم أبيه يوسف بن
إبراهيم داية لإبراهيم بن المهدي عم المأمون فنسب إليها . وظل يوسف في خدمته حتى توفي ،
ويبدو أنه كان مثقفا ثقافة متنوعة ، مما جعل بعض ولادة العباسيين بمصر يستكبه في ديوانها ،
واستقر مقامه بها هو وأسرته منذ سنة ٢٢٦ للهجرة . ويروي أنه صنف كتابا في أخبار أصحاب
الطب ، مما يؤكد أنه كان على صلة بعلوم الأوائل . ويرزق بابنه أحمد ، وعُني بتثقيفه ، مما أهله
ليعمل كاتباً في دواوين الدولة الطولونية وليكتب سيرة أحمد بن طولون وابنه غمارويه وليس ذلك
فحسب ، فإنه وصله بعلوم الأوائل وبرع فيها وخاصة في الطب والرياضة والفلك وأيضا في
الفلسفة . ويسوق له مترجموه كتابا في أخبار الأطباء وكتابا في النسب والتناسب وكتابا في الأقواس

ولستوعب ابن سعيد في كتابه المغرب (نجم الفسطاط)

كتاب من سيرة أحمد بن طولون وابنه غمارويه . وكتاب
المكافأة طبع حرارا .

(١) يوم الثناء : يوم القيامة

(٢) انظر في أحمد بن يوسف مجمع الأدباء ١٥٤/٥

وتاريخ الحكماء للتفطى (مختصر الزوائد) ص ٧٨

المثالة ، كما يسوقون له كتاب مختصر المنطق وكتاب السياسة لأفلاطون ، وشرح كتاب الفرة في الفلك لبطليموس . وقد توفي سنة ٣٤٠ .

وتؤكد سيرة أحمد بن يوسف وسيرة أبيه أنها كانا من أصحاب المروءات ، وكانا بحسنان تميز أموالهما في التجارة والزراعة ، فأغدقا كثيرا على كل من رآياه تلم به كارثة أو يترل به خطب من الخطوب . ولعل هذا الجانب في أحمد بن يوسف هو الذى جعله يؤلف كتابه « المكافأة » . وهو في ثلاثة أقسام : قسم يضم إحدى وثلاثين نادرة أو حكاية قصيرة تدور حول مكافأة الجميل بالجميل ليرغب في عون المنكوب ومد يد المساعدة إليه ، وحتى يكافئ الإنسان جميلا بجميل يمثله . ويعرض ذلك في النوادر عرضا جذابا بما يذكر من نوادر وقعت في أيامه وغير أيامه في مصر وغير مصر . ويتلو هذا القسم بقسم ثان يضم إحدى وعشرين نادرة أو حكاية قصيرة تصور كيف أن مكافأة القبيح تستبج قبيحا مثله ، حتى يردع أهل الشر والسوء ، ويكفوا عن سوتهم وشرهم لما يحترن من أوتهم العواقب . والقسم الثالث يضم تسع عشرة نادرة أو حكاية قصيرة وهى تصور حسن المعنى وكيف أن أناسا تورطوا في شر أو بلاء ونجوا منه . والكتاب بذلك دعوة حارة إلى عمل الخير بضرب أمثلة بديعة من النوادر والحكايات القصيرة . وهو مكتوب بفصحى جزلة ناصعة ، إذ كان أحمد بن يوسف من كتّاب زمنه البارعين . ويبدو أنه قصد به إلى أن يشع في الشعب ، ولعل ذلك هو السبب في أننا نراه يقترب من لفته اليومية ، إذ تدور فيه صيغ وتعاير لاتزال تجري على ألسنتنا في الحياة اليومية من مثل :

كاد والله يموت فرحا - كثر الله في الناس مثله - حصلنى على الباب أى لحقنى - اعتذرت إليه من تقصيرى في حق - امرأة تطلق (أى أصابها المخاض) - ست (أى سيدة) - امرأة مقربة (أى قريت ولادتها) . واستخدم قليلا مدّ تاء المخاطبة بحيث تتولد من الكسرة باء فقال على لسان تاجر يكافئ سيدة على جميل : « هذا جزاء ماقد متبه » كما نقول في عاميتنا المصرية . واستخدم أيضا مطابقتنا في العامية بين الفعل والفاعل في الجمع فقال : « اشتها على صياني حلواء في العبد » والصحيح أن يقال « اشتهى على صياني » . ويكثر من الاستفهام في الجمل دون ذكر أداة من أدوات الاستفهام كما نصنع أيضا في عاميتنا . وكثير من نوادر الكتاب واسع الدلالة التاريخية على زمن المؤلف وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بجانب دلالاته القيمة على الأسلوب الأدبى في مصر حينئذ ، وما كان يستخدم فيه من عبارات لاتزال حية إلى اليوم .

أخبار سيويه المصري

ألف هذا الكتاب ابن ^(١) زولاق الحسن بن إبراهيم المولود سنة ٣٠٦ والمتوفى سنة ٣٨٧ وقد جمع فيه نوادر رفيق له في الدراسة هو محمد ^(٢) بن موسى الكندي المعروف باسم سيويه المصري ، ولم يكن عالما بالنحو فحسب بل كان عالما أيضا بالقراءات والفقه وعلوم الحديث ورواية الشعر ، وكان غفيا متسكا اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والعباد ، وبلغ في ذلك - كما يقول ياقوت - مبلغا جالس به حكام مصر ، وكان يقدمهم نقدا يحمله كثيرا من السوم ، ولم يكن يخفيه بل كان يملئه في الأسواق وعلى رهوس الأَشْهاد ، وكان الناس يتبعونه يكتبون نقده ، ويروونه في المجالس العامة والمساجد والمنزهات . وما زال هذا دأبه حتى توفي سنة ٣٥٨ مع نهاية الدولة الإخشيدية . وكان ابن زولاق مؤرخا كبيرا ، ويقول ابن خلكان له كتاب في خطط مصر استقصى فيه ، وله كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذبيلا على كتاب الكندي : أخبار قضاة مصر ، وكان قد انتهى فيه إلى سنة ٢٤٦ ، فكله ابن زولاق إلى سنة ٣٨٦ ، وله كتاب في سيرة الإخشيد اعتمد عليه ابن سعيد في قسم القساطر من كتابه « المغرب » .

ويسوق ابن زولاق في كتابه أخبار سيويه مشاهد مختلفة لنقد سيويه للحكام وللناس في عصره ممزوجا بشيء من التباه ، ولم يكن ينقد أو يذم بلفظ قبيح ، إنما كان يزجر وينهر بألفاظ غير قبيحة ولكنها تخر ونخر الإبر ، من ذلك أن الإخشيد كان يركب في موكب لصلاة الجمعة ، فتصدى له يوما في أثناء ركوبه إلى الصلاة والناس محتشدون لرؤيته فقال بأعلى صوته : « ماهذه الأشباح الواقفة ، والتمائيل الماكفة ؟ سُلِّطَتْ عليهم قاصفة (يوم تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تتبعها الرَّادِقَةُ) قلوبهم (يومئذ واجفة) » فقال له رجل : « إنه الإخشيد يمر إلى الصلاة ، فلم يفرغ ولم يسكت بل قال توا : « هذا الأصلع البطين » ، المسنن البدن ، قطع الله منه الوَئِينَ ^(٣) ، ولاسلك به ذات اليمين ، أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ، ولا حاجب ولا حاجبان ، ولا تابع ولا تابعان ؟ لا قَبِيلَ الله له صلاة ولا قبل له زكاة ، وعمرَ يحشمه القَلَاة » .

(٢) راجع في سيويه المصري معجم الأدباء ١٩/٦١

(٣) الوئين : الشريان الرئيس الخارج من القلب .

(١) انظر في ابن زولاق معجم الأدباء ٧/٢٢٥ وابن

خلكان ٩١/٢ ولسان الميزان لابن حجر ١٩١/٢ حيث يقول إنه كان يتولى المطالمة للفاطمين ويظهر التشيع لهم .

وكان سيويه المصرى يستخدم السجع دائما فى نقده أو قل فى هجائه للحكام ، ويوشيه بآية أو آيات قرآنية على نحو مأمُرُ بنا آنفا أو بحديث نبوى . وكان يسوق مثل هذا الهجاء فى أثناء وعظه للناس ، إذ كان واعظا كبيرا . والناس يضحكون لتنفيه عنهم ما كان يقع عليهم من ظلم الحكام لزمته فيضحكون ويفرقون فى الضحك . وكان بعض الحكام والوزراء يقرّبه ويحاله أملا فى أن لا يكويهم أمام الشعب بسياطه . ورأى أبا الفضل جعفر بن القرات يسير فى موكب كبير وكان قد تولى الوزارة ، فقال : « ما بال أبى الفضل قد جمع كتابه ، ولقّن أصحابه ، وحشد بين يديه حجاجه ، وشمر أنفه ، وساق الصاكر خلفه ؟ أبلغه أن الإسلام طُرِق فخرج ينصره ، أو أن ركن الكعبة سُرِق فخرج لهذا الأمر ينكره ؟ » . ومع أن سيويه كان يصوغ نواته فى هذه القصص المسجوعة نجد عنده بعض ظواهر من عاميتنا أو لغتنا المتداولة ، من ذلك أنه كان يعيد الضمير لغير العاقل مع الفعل مجموعا فى مثل : « فجاءت فراريج فلقطوا ما بين يديه » والقصيح فلقطت ما بين يديه . وكان أسلافنا سبقونا إلى ذلك فى لغتهم اليومية منذ مئات السنين .

كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

ألف هذا الكتاب ابن ممانى الذى مرت ترجمته ، وقد قصّ فيه طائفة من النوادر نسبها إلى قراقوش ^(١) التركى أحد قواد صلاح الدين الأيوبي . وكان قد أنابه عنه مدة بالديار المصرية وقوّض أمورها إليه ، وهو الذى بنى السور الذى كان يحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل والقناطر فى طريق الأهرام . وكانت فيه شدة وقسوة ، كما كانت فيه غلظة وغير قليل من الحق ، فأنهز ابن ممانى ذلك فيه ، وألصق به طائفة من النوادر فى أحكامه جمعها فى كتابه « الفاشوش » ^(٢) فى حكم قراقوش . ويدافع عنه ابن خلكان قائلا : فى الكتاب أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة فإن صلاح الدين كان معتمدا فى أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفائته ما قوّضها إليه .

ويبدو أن قراقوش قصّ فى تسخير المصريين فى بناء السور والقلعة والقناطر المذكورة ، فانتقم لهم ابن ممانى منه بهذا الكتاب الذى وضعه عليه . وهو يستهله بقوله : « إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش حُرمة فاشوش ، قد أتلّف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غُمة ، لا يفتدى بعالم ،

(١) انظر فى قراقوش ابن خلكان ٩١/٤ والنجوم الزاهرة (٢) راجع فى تحليل هذا الكتاب مقالا لنا فى مجلة الكاتب

ولا يعرف المظلوم من الظالم والشكبة عنده لمن سبق ، ولا يتدنى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يرُدَّ كلمه ويشنط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صنت هذا الكتاب لصالح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين . . . ويأخذ ابن ممان في سرد أحكام قراقوش المضحكة . من ذلك أن سيدة سوداء شكت قراقوش جارية مملوكة لها ، فوجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء ، فردَّ شكواها مؤمنا بأنها ليست السيدة بل هي الجارية ، والجارية البيضاء هي السيدة ، وهم بجبها لولا أن شفت فيها جارتها فعفا عنها . ومن ذلك أن رجلين من أصحاب الحمى الطويلة جاءه يشكون إليه رجلا أبرد كان يعبت بلحيتهما ، ونظر قراقوش إلى الرجل فلم يجد له حبة حينئذ صرخ في الرجلين قائلا : إنها اللذان اعتديا عليه بتف لحية ، وصاح في غلمانه أن يزجوا بالرجلين في غياهب السجون حتى يثبت الشعر في ذفن للرجل وتطول لحبته . ومن ذلك أن الشرطة جاءت بهدَّاد له قتل نفسا محرمة بغير حق ، فأمر بشقه فقبل له إنه حدادك الذي يتعلَّ لك القرس ، فنظر أمام بابه فرأى رجلا قفاصا فقال : « اشنقوا القفاص وسببوا (اتركوا) الحداد . وعلى هذا النحو يصور ابن ممان قراقوش متصرفا في القضايا بحمق مابعده حمق ، ونضحك للتضاد بين المقدمات والنتائج ، تباينا يفسح فيه المنطق ، فسيدة تدخل شاكية لخادمتها ، فتخرج خادمة والخادمة تصبح سيدتها ، ورجل يدخل بدون حبة ، فيخرج وله حبة تُتفت ، أو قل يدخل جانبنا ويخرج مجنبا عليه ، وقاتل يراى ويرى يقتل .

وما نظن أحدا في مصر قديما بلغ من التشهير بحاكم مابلغه ابن ممان من التشهير بقراقوش وأحكامه بين الناس عن طريق هذه النوادر الشعبية التي اختار لها لغة المصريين الدارجة لزمته قاصدا بذلك أن تشيع بين العامة ، وهي فعلا شاعت أكبر شيوخ وأوسع في مدن مصر وريفها ، فكلما اشتكوا من حاكم وظلمه قالوا : « حكم ولا حكم قراقوش » .

وأضافت الحقب التالية إلى شخصية قراقوش نوادر مضحكة بجانب ماني كتاب الفاشوش من نوادر كثيرة ، مما جعل السبوطي يؤلف كتابا يستمر له اسم كتاب ابن ممان ، مضافا فيه إلى قراقوش نوادر جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش في الأزمنة التالية شخصية خيالية لكل حاكم أحرق بخلط حمقه بظلمه . وأكبر الظن أن كلمة قراقوش التي تطلق في تركيا والشام على خيال الظل وتصويره للحكام الظالمين الحق ترجع في اشتقاقها إلى اسم قراقوش لا إلى ما يقال من أنها مؤلفة من لفظتين تركيتين هما « قره » أي أسود و« قوز » أي عين وبذلك يكون معناها العين

السوداء لأن من كانوا يرضون هذه اللعبة بتركها كانوا من الفجر الجوالين ، غير أنا نرجح الرأي الأول . وقد دخلت الكلمة ثانية إلى مصر باسم « أراجوز » .

هز (١) القحوف

نمضى إلى زمن العثمانيين بمصر فنجد عالما واعظا يسمى يوسف الشربيني يصف حال سكان الريف المصرى وما نزل بهم لعهد العثمانيين من البؤس والفقر والفسك والجهل في قصيدة يسميها « قصيدة أبى شادوف » وشرح لها يسميه « هز القحوف » وقد ملأ الشرح بنوادر فكاهية عما كان يعانيه أهل الريف حينئذ من الأمية والجهل وبطش الكاشف أو حاكم الإقليم وظلمه وما كان يصلهم من السخرة وما كانوا يرزحون فيه من المسغبة فإن طعموا لم يطعموا إلا العنيس وطعاما يتخذ من القول يسمى اليسار واليش العتيق ، ومعاذ الله أن يطعموا شيئا وراء ذلك من لحم وغير لحم . ويقول عن أبى شادوف الثرى الرئى صاحب القصيدة إنه لم يكن يملك سوى حمار أخرج وعزتين وحصاة في ثور الساقية ونصف بقرة وعشر دجاجات وديك وأربع كبلات من نخال الشعير . ويفيض الكتاب بنوادر لاذعة تحمل في أطوائها كثيرا من الطعنات لحكم العثمانيين الفاشم وسوآته .

(ب) كتب السيرة والقصص الشعبية

كثرت في مصر منذ أيام الفاطميين كتب قصص الأنبياء مجموعة أو مفردة : قصة لموسى وقصة يوسف عليها السلام أو لغيرهما من الأنبياء وخاصة إبراهيم الخليل . ومر بنا في الحديث عن كتابة التاريخ في الفصل الثانى بيان لبعض ما كتب في السيرة النبوية ، ومنذ الحروب الصليبية كثرت الكتابة في ميلاد الرسول ﷺ وما اقترن به من خوارق وحياته وما راقها من معجزات ، وكان ذلك يكتب نثرا وتخلله أشعار باسم « المولد النبوى » . وعادة كان هذا المولد يلقى في الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول ، وكانت تلقى معه « قصة الإسراء والمعراج » الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى والعروج به إلى السماء . وقد أصبح من الثابت أن دانق تآثر تأثرا واضحا بهذه القصة الأخيرة في الكوميديا الإلمبية (١) وعجائب هذا القصص الدينى الذى لا يزال كثير منه مخطوطا

(١) انظر في تحليل كتاب هز القحوف مقالا لنا في مجلة (٢) راجع تاريخ الفكر الأندلسى لباتشا ترجمه الدكتور حسين مؤنس ص ٥٥١ - ٥٦٤ .

الكتاب المصرى عدد يناير سنة ١٩٤٧ ص ٧٢٩ .

ومحفوظا برفوف دار الكتب المصرية قصص كثير محفوظ بتلك الرفوف عن العشاق المذربين .
ونعرض الآن طائفة من السير والقصص الشعبية التي ألقت في مصر - أو أخذت بها شكلها
النهائي - وهي سيرة عنزة والسيرة الملالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة .

سيرة ^(١) عنزة

أساس هذه السيرة أخبار عنزة في الجاهلية وما جاء فيها من أنه كان ابن أمة ومن أنباء فروسته
وحبه لعلبة ابنة عمه . ويتحول عنزة في السيرة بطلا عظيما للمحمة عرية تمتد فيها بطولاته من
العصر الجاهلي حتى نهاية القرون الخمسة الأولى للإسلام . ويقال - طبقا لرواية في أول كتاب منية
النفس في أشعار عنزة عبس - إن أول كتابة لهذه السيرة كانت في أيام العزيز الخليفة الفاطمي
(٣٦٥-٣٨٦هـ) إذ حدثت ربة في قصره جملة أهل القاهرة يلهجون بالحديث عنها ، فأشار
على شخص يسمى يوسف بن إسماعيل أن يشغل الناس بسيرة تلهبهم عن الكلام فيها ، فألف لهم
سيرة عنزة وشُفوا بها . غير أن هذه الرواية - إن صحت - إنما تشير إلى أول ما كان من وضع
السيرة . إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى أوائل القرن السادس الهجري ، وحتى أصبحت في اثنين
وثلاثين جزءا ، وهي منشورة في أربع مجلدات . ولا تمتد فيها سيرة عنزة في الزمان فحسب ، بل
تتد أيضا في المكان ، إذ تشمل ساحات بطولات عنزة العالم القديم : الهند وفارس ومصر والشام
وجنوب أوربا وشمال إفريقيا والحشة والسودان . وهي موزعة بين نثر وأشعار ، مما أتاح لروايتها من
قديم أن يشدوها الناس على الرابطة في حفلات كانت تعقد لها . وقد كتبت بلغة تدنو دنوا شديدا
من اللغة البومبة ، وصيغت صياغة قصصية جذابة بحيث يقطع الكلام في كل جزء من أجزائها
عند حادث مهم . وبذلك يشغف القارئ والسامع بمعرفة الجزء الذي يليه . وهكذا حتى نهايتها .
وتتسع السيرة في عرض أخبار الجاهلية حتى نصل إلى زمن زهير ملك بني عبس قبيلة البطل ، وتعرض
السيرة مولد عنزة وبطولته في صباه وشبابه وحبه لابنة عمه وحمايته لقيته ضد القبائل المتافسة
لها وما فرضه عليه عمه لقاء زواجه ببلبة من أعمال شديدة الخطر جسّته الرحلة إلى العراق وملازمة

(١) انظر في سيرة عنزة وترجماتها وما وضع فيها المستشرقون

من بحوث دائرة المعارف الإسلامية

ملوك الحيرة ووفوده على إيران وتعرفه بملوكها وفي مقدمتهم كسرى وما كان من طلبهم منه العون في منازلة بطل إغريق .

ويصبح عنزة حاكما للشام ويفد على القسطنطينية ويقود مع إمبراطورها حروبا ضد الفرنجة ويبلغ إسبانيا ويخترق شمال إفريقيا إلى مصر ويستعين به ملك روما ضد بوهمد ويقتله ، وهو أحد أمراء الحروب الصليبية الأولى وكان نورمانديا إيطاليا ، وكان المؤلف الأخير للسيرة كان يعرف أصله وموطنه . ومعروف أن الحملة المذكورة نزلت آسية الصغرى سنة ٤٩٠ للهجرة ولذلك نقول إن ميادين السيرة وساحاتها البطولية تمتد حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، وليس بوهمد فقط الوحيد من أمراء الحملة الصليبية الذي بلغنا في السيرة ، إذ بلغنا فيها أيضا زواج عنزة من أميرة فرنجية وإنجابها منها الجوفران وربما كان تحريقا لجودفرى صاحب بويون دوق اللورين الأدنى الذي استولى على بيت المقدس سنة ٤٩٢ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه بلدوين . ويطولات عنزة في السيرة تسع لا تشمل ميادين الحروب الصليبية والبلاد الأوربية فحسب ، بل أيضا لتشمل الهند والسودان وبلاد النجاشي ، وعرف عنزة أنه جد أمه زيبية . وكل من يقرأ السيرة يرى أن أجيال المؤلفين التي تداولتها كانت أجيالا بصيرة بتاريخ العرب في الجاهلية وما اتصل بها من قصة إبراهيم الخليل وتاريخ العرب في الإسلام وفتراتهم العظيمة وتاريخ الفرس وملوكهم وبلاطهم وآدابهم وتاريخ الحروب الصليبية وطقوس النصارى وشعائرتهم وأعيادهم . والسيرة ملحمة رائعة للبطولة العربية التي مثلها عنزة أروع تمثيل في أكثر من خمسمائة عام ومثل معها فضائلها النبيلة التي نقلها الصليبيون إلى ديارهم . وقد تخللت السيرة أحلام وروى وأساطير وخوارق عجيبة .

السيرة ^(١) الخلايلة

تروى هذه السيرة حروب مستمرة بين بني هلال ومن دخل معهم من قبائل زغبة وسلم ورياح وعدى وريصة والأنبج إلى إقليم طرابلس وتونس وشمال إفريقيا ومن كان بهذه الأقاليم من الصنهاجين وزنانة وغيرهم من القبائل المغربية المستوطنة . وكانت القبائل العربية المذكورة قد

١- الخلايلة والقرناتية ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية وكتابا في السيرة الخلايلة لعبد الحميد بن يوسف .

(١) انظر في السيرة الخلايلة الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ص ٦٢ وكذلك الجزء السابع ص ٤٣ وأولئك مقدمة ابن خلدون حيث روى بها لشعرا

حاربت مصر لمعهد المعز أول الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٠ تحت لواء الأعصم القرمطى . وكان قد استولى على دمشق والرملة ودخل مصر والتقى بالجيش الفاطمى فى عين شمس بالقرب من القاهرة وكاد يُكْتَبُ له النصر لولا خروج بعض قواده عليه وانضمام القبائل ساقفة الذكر إلى الجيش المصرى . وبذلك دارت عليه الدوائر فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين موطنه . وأسكن المعز تلك القبائل القبية الصعيد ، لعله يمكن الانتفاع بها فى المستقبل . وحانت الفرصة لذلك فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) إذ خرج عليه المعز بن باديس الصنهاجى صاحب تونس والقيروان سنة ٤٤٣ وأعلن العودة إلى المنصب المالكي السنى وتبعت للخليفة العباسى القائم بأمره ، وانفصل بذلك الجناح الغربى للدولة الفاطمية ولم تقم للمذهب الشيعى الفاطمى قائمة فى تلك الأنحاء منذ هذا التاريخ . واستشاط المستنصر غضبا ، وأشار عليه وزيره اليازورى أن يسلط عليه القبائل القبية النازلة بالصعيد منذ أيام جده المعز ، فاتصل بشيوخهم ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ما تحت يد المعز إقطاعا لهم وأيضا كل ما يمتلكونه من بلاد المغرب وسرھان مآبته جمعهم ، وخرجت إلى المغرب : إلى تونس وإفريقية ، واستولت فى سنة ٤٤٣ على برقة بزعامة يحيى الرياحى وتملك بنوزغة فى سنة ٤٤٦ طرابلس ، وانجبت هلال ورياح والأبيض وعدى إلى إفريقيا وأضرموها نارا بقيادة زعيمهم مؤنس بن يحيى الرياحى وحاول المعز بن باديس أن يقربه منه مجزلا له العطايا ولم يغن ذلك عنه شيئا . ونازل تلك الجموع وحرته وأنزلت به هزائم متوالية ، مما اضطره أن يجل لهم القيروان وأن يكتفى بالمهدية وبلدان صغيرة حوها . واكتفى بما من بعده ابنه نعيم الذى حكم بعده إلى نهاية القرن الخامس . وأخذت تتضعص الإمارة بينا تحول إقليم تونس والجزائر إلى إقطاعات صغيرة يحكمها هلاليون أو زياتيون إلى أن أعادت دولة للوحدين إلى شطر كبير من المغرب وحدته .

ويبدو أنه حين ارتفعت هذه القبائل القبية هجرنا إلى المغرب أرسلت إلى عشايرها فى الجزيرة العربية أن تقدم عليها لتشاركها فى هذه الهجرة الكبيرة وأن عشايرهم لا بُدَّ دعوتها ، يدل على ذلك أننا نجد القاصد للسيرة أو قصاصها استغلوا فيها قصة فتاة جميلة من بنى هلال هى الجازية بنت الحسن بن سرحان عشقها فتى من عشيرتها وأراد الزواج منها وتصادف أن أمير مكة شكر بن أبى الفرج (٤٣٠-٤٥٣هـ) رآها وأعجب بها ، وطلب يدها من أبيها فأقره على عشيقها ، وزوجها منه . ثم حدث أن أغضب شكر عشيرتها ، ورأوا الانتقام منه فاحتالوا عليه لأخذ الجازية وحرمانه منها ، فادعوا أنهم يريدونها لزيارة أبويها فى نجد ، حتى إذا قلمت معهم

مضوا مع أيها في الرحلة إلى إفريقيا ، وهناك زُوجوها من ابن عمها ولكن قلبها ظل معلقا بزوجها الأول حتى ماتت من شدة هيامها وحبا له . وهى قصة صحيحة في أصلها المتصل بشكر أمير مكة وزوجه الجازية ، مما يدل على أن عشائر هلالية من الجزيرة قدمت على بنى هلال بالصعيد أو بعد تركهم له مباشرة وواصلت بدورها الهجرة إلى المغرب .

والأساس في السيرة نارغنى صحيح وهو هجرة بنى هلال ومن معهم من القبائل القيسية إلى المغرب واستيلائهم على بعض مدنه ، غير أن الأحداث بعد ذلك تمضى وكأنها أضغاث أحلام لتلك الهجرة الكبيرة إذ سُمى القصاص بطلها أبازيد الهلالى وسُموا خصمه في قبيلة زناتة : الزناتى خليفة . وبذلك غابت عن السيرة قبيلة صنهاجة وأميرها المعز بن باديس الصنهاجى ، كما غاب زعيم القبائل بجى الرياحى وابنه مؤنس . وقد يرجع ذلك إلى أن القاص أو القصاص الذين وضعوها كانوا بمصر بعيدين عن ساحة الأحداث أو ساحاتها فبدت وقائعها وكأنها أخلاط أحلام ، بما في ذلك اسم بطلها العريين الخباليين : أبى زيد الهلالى ودياب بن غانم الزغنى . وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنها تأخرت في وضعها طويلا عن زمن أحداثها ولذلك كنا نظن أنها ألُفت في القرن السابع الهجرى أو بعده في القرن الثامن وهى مكتوبة باللغة اليومية : شعرا ونثرا ، وقد تعلق بها الشعب المصرى في ريفه وحضره ، وعادة كان يلقيها على الناس منشدا على ربابة في المقاهى والحفلات ، يسمونه الشاعر . وللسيرة ثلاث مراحل : مرحلة الريادة إلى بلاد المغرب ، وفيها يرود الطريق بطلها الخبالى أبو زيد الهلالى وأبناء أخته بجى ومرعى ويونس وفى تونس يُلقَى بهم في غياهب السجون ، ويستطيع أبو زيد الفرار من السجن ويستنفر القبيلة لتخليص أبنائها الثلاثة . والمرحلة الثانية تسمى التفرية وفيها تهاجر القبيلة إلى تونس وتمكنها سعدى ابنة ملكها الزناتى خليفة من دخولها وتمك القبيلة الأسرى الثلاثة . ويأخذ الحسن بن سرحان القيروان ودياب تونس وأبو زيد الأندلس ويستولون على قلاع كثيرة حتى يصلوا إلى أقصى المغرب . والمرحلة الثالثة خاصة بأبناء الأبطال ويسمون الأيتام ، وفيها يجمع زيدان بن أبى زيد الهلالى العرب من الشام والحجاز ويلتقى بهم في صعيد مصر ويرحل معهم إلى تونس ويشدد الحصار عليها وغل أميرها دياب بن غانم الزغنى ويوافيه الهلالية من الأندلس ويفتحون جميعا المدينة ويقتلون دياب بن غانم . ويتنازل الهلالية عنها لابن الزناتى خليفة ويتأثر على الهلالية ابن الحسن بن سرحان ، ويعود زيدان الهلالى إلى صعيد مصر ، كما يعود الهلالية الذين قدموا من الأندلس إليها . وبذلك تنتهى السيرة ، وهى تمتلئ بانطباعات مصرية كثيرة .

سيرة الظاهر بيبرس^(١)

كان طبعاً أن يضع المصريون سيرة شعبية طويلة للظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التي لم تقم بعدها للتار قائمة . بل لقد ولوا الأدبار إلى الشمال في الشام وبيبرس يلاحقهم حتى انجهموا شرقاً إلى شمال العراق . وبمجرد استيلائه على الحكم في مصر سنة ٦٥٨ أخذ يثبت حكمه باستدماحه أحد سلالة العباسيين ، وكان من أبناء الخليفة العباسي الظاهر ونجا من مذبحة المغول ببغداد ونزل دمشق ، فاستدعاه بيبرس إلى القاهرة ، وبأيمه بالخلافة ، وبذلك أصبح بيبرس حامياً لها . وتبعه في حمايته سلاطين المالك إلى أن أخذ السلطان سليم الثاني قانع مصر الخليفة العباسي معه إلى القسطنطينية . وكان بيبرس سيوا حازماً وقائداً ماهراً فاتسع بدولته في الجنوب ببلاد النوبة ودانت له القبائل في ليبيا ، وهزم التار على الفرات في غير معركة وأوقع بالأرمن خسائر فادحة ، وكال للصليبيين ضربات قاصمة ، واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم ، ودان له الحشاشون الفدائيون داخل الشام بالطاعة . وتعدّ أباهم أزهي أيام مصر زمن المالك وأعظمها ازدهاراً ، لذلك كان من الطبيعي أن تؤلف عنه سيرة شعبية ، وهو فيها بطل عرّي يسمى « محمود بيبرس » وقد مثلوا فيه القروية العرية ومظاهرها الباسلة وخاصة في حروبه مع الصليبيين .

ولغة السيرة عامية والنثر يغلب فيها بالقياس إلى الشعر ، ولذلك لم تكن تُنشد ، بل كانت تُروى ، وتنسب إلى أربعة رواة أصليين هم ابن الديناري وكاتم السراي كاتب السروناتر الجيش والصاحب والدويداري (تحريف للدودار) وهو الأمين الخاص للسلطان . وتتداخل في السيرة قصص طويلة كقصّة إبراهيم الخوراني ورحلته إلى روما . وتتحدث السيرة عن نشأة محمود بيبرس وعلاقته بالسلطان الأيوبي نجم الدين الملقب بالملك الصالح وماعهد إليه من الأعمال ، وصلته بشجرة الدر وأبيك وقطر . ونصف جلوسه على عرش مصر وامتداد حروبه وساحات بطولته إلى أوروبا ، وتعرض أعاله وإخضاعه الفدائيين الحشاشين المشهورين بكثرة اغتيالهم منذ زعيمهم الحسن الصباح ، وتذكر من زعماتهم جمال الدين شبحه ، ولعله صاحب القبر المعروف باسمه في دمياط . ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية النصرانية وقد أنجبت منه ابناً حاربته قبل أن

(١) انظر هذه السيرة تحت كلمة بيبرس في دائرة المعارف الإسلامية ،

يعرفه . ويبدو أن هذه السيرة لم تكتب في عهد قريب من الظاهر ، لأن الأحداث التاريخية وأسماء الأبطال سوى الظاهر يشوبها كثير من الخيال وتحفل بأساطير وأعمال غارقة للعادة ، ونرجح كتابتها بعد القرن السابع وقد تكون كتابتها تأخرت إلى القرن التاسع الهجري .

سيرة ^(١) سيف بن ذي يزن

قصة شعبية مصرية طويلة ، تعرض بطولة سيف بن ذي يزن لسليل ملوك حمير ، وهي تصور الصراع بين العرب والأحباش في أواخر العصر الجاهلي . وكيف طردهم سيف بن ذي يزن من الجزيرة العربية بعد أن كانوا قد سيطروا على اليمن . وهي في ١٧ جزءا وتحمل كثيرا من الأساطير والعجائب ومغامرات سيف بن ذي يزن في سبيل استقلال بلاده ، وبذلك تأخذ السيرة مكانة في التاريخ القومي العربي ، إذ موضوعها حرب بين العرب وأمة الأحباش الأجنبية وتُجمل السيرة سيف بن ذي يزن حنبفا يقتحم معاقل الشرك وهو يقول انما لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله ، ويغلب أن تكون قد ألفت بمصر في القرن الثامن أو التاسع للهجرة .

ألف ^(٢) ليلة وليلة

ذكر ابن النديم في كتابه « الفهرست » : من كتب الأحمار والخرافات التي نُقلت عن الفرس كتاب هزار أفسانه أى ألف خرافة . والمعروف أنه يرجع إلى أصل هندي . ويغلب أن يكون قد نُقل إلى العربية في القرن الثالث الهجري ، ولا يعرف بالضبط متى أُضيفت إلى اسمه وهو ألف ليلة كلمة ليلة الثانية ، ويغلب أن يكون قد أُريد بها أن يحوى ليالي كثيرة تزيد عن الألف . وأُخذت تضاف إلى الكتاب في بغداد أقاصيص كثيرة ، وبالمثل أضافت إليه مصر بدورها أقاصيص متنوعة . ويمكن أن نميز الأقاصيص المندية الأصل فيه بتداخلها كحكاية الصعاليك الثلاثة . ونميز الحكايات الفارسية فيه بحكايات الظرفاء وبعض الحكايات المفردة . وبه حكايات عربية خالصة كحكاية حاتم الطائي وإبراهيم المهدى . ويشج في الحكايات البغدادية ذكر هرون الرشيد وتكرهه وتدبئه البالغ وجهه لمهاج الحياة وللرعية وحب الرعية له ووصف بلاطه وقصوره . وتكثر

كتابه « أصول الأدب » ودائرة المعارف الإسلامية وما ذكرت من مراجع .

(١) راجع في هذه السيرة وما بها من تأثرات مصرية مقال باريه هنا في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر في ألف ليلة وليلة مجمل لأحمد حسن الزيات في

القصص المصرية في الكتاب وحكايات الشطار بها وما تطبع به من المروءة والفكاهة كما في حكايات علاء الدين أبي الشامات وأحمد الدنف ودليلة المختالة وزينب النصابة ومعروف الإسكافي وعلى الزينقي، ويشيع السحر في هذه الحكايات كما تشيع عادات المصريين، وتصور حياتهم في الأسواق والحمامات وما يقلب عليهم من الإيمان بالطلاسم والرق والتعاويذ. ونلتقي بجوانب من هذا كله في حكايات مصرية أخرى كحكاية أبي قير وحكاية أبي صير ومثلها حكاية الصباح العجيب وأيضاً حكاية مريم الزنارية وحكاية الصميدى وزوجته الإفرنجية وهما تعكسان الصراع بين المسلمين وحملة الصليب. وأهم من كل ما سبق لمصر في الكتاب أنها هي التي صاغته بلفتها العامية وانتشر بها في العالم العربي منذ القرن الثامن الهجري، وبالمثل انتشرت فيه بتلك العامية السُّير الشعبية: سير عنتره والهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن. وكان لذلك أثر واسع في تعرف تلك البلدان على العامية المصرية من قديم. وكثيرون يظنون أن تعرف تلك البلدان على عاميتنا أو لفتنا اليومية حديثاً، وأن الإذاعة والسينما أتاحتا لها هذا التعرف في عصرنا، وهو - كما قلنا - تعرف قديم.

خاتمة

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بمصر في عصر الدول والإمارات، ورأيت أن أضُم إلى العصر ما سبقه بها منذ الفتح العربي من مختلف شئونها التاريخية والأدبية والعلمية على مر الأزمنة الإسلامية، وأوضحت كيف أن قبط مصر رحبوا بالعرب لما كفّلوا لهم من معتقداتهم الدينية وما رفعوا عنهم من ظلم الروم وضرائبهم الفادحة. وتولى أمرها فاتحها العظيم عمرو بن العاص، وتعاقب الولاة عليها في زمن الأمويين وأخذوا يفرضون على أهلها ضرائب استثنائية، وأمر الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز برفعها عن كواهلهم. وتحول الخلافة إلى العباسيين ويرسلون إلى مصر بولاتهم حتى إذا انتصف القرن الثالث وليها أحمد بن طولون وأسس بها الدولة الطولونية، واستشعرت مصر في عهدها استقلالها، وبالمثل في عهد الدولة الإخشيدية. ومايكاد ينتصف القرن الرابع حتى تتولاها الدولة الفاطمية الإسماعيلية، وظل المصريون منصرفين عنها وعن مبادئها الشيعية المتطرفة، وتضعف دولتهم وينزل الصليبيون الشام، ويؤسسون دولة لهم في بيت المقدس. ويدور الزمن دورات وتسقط الدولة الفاطمية، ويتولى مصر صلاح الدين الأيوبي، وينازل حملة الصليب ويسحق جموعهم سحقاً في حطين وغير حطين، ويسير سيرته خلفاؤه من حكام الدولة الأيوبية في ضربهم الضربات الماحقة، ويخلفهم المماليك فيسحقون جموع المغول في عين جالوت سحقاً ذريعاً، ويطرودون حملة الصليب نهائياً من الشام إلى البحر المتوسط وما وراءه. ويستولي العثمانيون على مصر لمدة ثلاثة قرون وتصبح بعد أن كانت دولة عظيمة ولاية تابعة للدولة العثمانية.

وقد أتاحت الزروع والبساتين على ضفاف النيل رخاء واسعاً لسكان مصر من قديم. وأعطى هذا الرخاء لحكامها منذ ابن طولون الفرصة واسعة لبناء البيمارستانات والجوامع الكبيرة والقصور الفخمة. وأتاح ثراؤها الضخم للدولة الفاطمية حياة مرفهة بالغة القرف كما أتاح لصالح الدين أن يعد جيشه بل جيوشه لضرب حملة الصليب ضربات قاصمة، وأيضاً فإنه بنى بالقاهرة قلعة المشهورة ومارستاناً كبيراً سوى ما شُيد من المدارس. وتزدهر الحياة

بصر لعهد المالك وتكاثر الأعياد بها تكاثراً واسعاً وتوسع موجات الغناء وفنون اللهو والتسلية، وارتقى حينئذ خيال الظل وأصبح مسرحاً شعبياً عاماً. وألمت بعد عرض المجتمع في مصر للدعوة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية وانصراف المصريين عنها، كما ألمت بالزهد وما كان بمصر من جماعات النساك وكيف أسس ذو النون المصري التصوف الإسلامي ومبادئه الروحية وما يتصل به من الأحوال والمقامات، ويزدهر التصوف منذ زمن الدولة الأيوبية، ويتضح فيه اتجاهان: اتجاه فلسفي يمثل ابن الفارض واتجاه سُني شعبي تمثله الطرق الصوفية، ومن أهمها الطريقة الشاذلية التي أسسها أبو الحسن الشاذلي، وقد تعددت فروعه لعهد المالك تعدداً واسعاً، حتى بلغت أحد عشر فرعاً، ومن أهمها الطريقتان: الوفاية والخلوتية.

ومعروف أن مصر أدت دوراً عالمياً عظيماً في تاريخ الحضارة الإنسانية، ولا تزال أهراماتها الشاهقة تمثل هذا الدور تمثيلاً باهراً، ويدين لها العلم بمعناه العالمي ديناً كبيراً بما أدت له في الهندسة والمعمار والطب والرياضة، وتظل جذوتها العلمية متقدة مهما اقتحم أسوارها من الجيوش المغيرة، على نحو ما هو معروف عنها في عهد البطالمة إذ لم تلبث في أيامهم أن استعادت نشاطها وأخذت ترسل أضيائها في الفلسفة وغير الفلسفة. وما إن يمضي على دخولها في الإسلام نحو قرن ونصف حتى تعود روحها العلمية إلى النشاط وإرسال أضيائها وشررها إلى العالم العربي، على نحو ما هو معروف عن ابنها وَرْش وَخَلّ المغاربة والأندلسيين قراءته إلى أوطانهم، ولا تزال القراءة الشائعة في المغرب إلى اليوم، وما يلبث الأندلسيون والمغاربة أن يتتلمذوا لعبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك، ويحملون عنه المذهب المالكي في الفقه. وينزل مصر الإمام الشافعي ويعنى تلامذته المصريون بمذهبه الفقهى والمحاورة فيه، ويأخذونه عنهم تلامذة من الشام والعراق وإيران وينشرونه في بلدانهم. ويكتب مؤرخها ابن عبد الحكم - لأول مرة - تاريخ الفتح بمصر والمغرب، ويحمله عنه المغاربة وأهل الأندلس كما يكتب مؤرخها ابن هشام السيرة النبوية المعطرة، ويحملها المؤرخون لها في العالم العربي جميعه مغرباً وغير مغرب.

وعنى حكام مصر - منذ عهد ابن طولون - بالحركة العلمية وإثرائها ويؤسس فيها الفاطميون جامعة كبرى تسمى: «دار العلم» كما يبنون الجامع الأزهر ويظل جامعة إسلامية

كبرى إلى اليوم، وينشئ بها صلاح الدين الأيوبي خمس مدارس. ويتبارى خلفاؤه الأيوبيون والمماليك في إنشاء المدارس بها والإكثار منها حتى ليقول ابن بطوطة الذى زار مصر سنة ٧٢٦ إن أحدا لا يستطيع أن يحيط بعصرها لكثرتها، وكانت المساجد والجامع - وخاصة الجامع الأزهر - تنافس المدارس في هذه الحركة العلمية، وكانت مصر قد ظلت ملاذا لعلماء العالم العربى غربا وشرقا، وخاصة بعد استيلاء التورمان على صقلية والإسبان على مدن الأندلس وبعد غزو المغول لمصر إيران والعراق، وأيضا فإنها أصبحت الحامية للثقافة الإسلامية والعربية. وفى كل مجال يلقانا علماءها فى الفلسفة وعلوم الأوائل من الرياضيات والطبيعات والطب والجغرافيا، وينهض فيها العلماء باللغة والنحو منذ أوائل القرن الرابع الهجرى وتصبح لها مدرسة نحوية يلمع فيها غير نحوى كبير منذ الدولة الأيوبية، ويكثر فيها علماء البلاغة والنقد منذ ابن وكيع التنيسى فى القرن الرابع الهجرى، ويتكاثر بها علماء القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقه بمختلف مذاهبه الكبرى وعلم الكلام، ويؤرخ لكل علمائها الأعلام فى العلوم جميعا تأريحا دقيقا. وتنشط الكتابات التاريخية نشاطا واسعا فى السيرة النبوية العطرة والتاريخ العام وتاريخ مصر ودولها وتاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية وتاريخ الرجال والعلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء.

وتأخذ مصر فى التعرب منذ الفتح الإسلامى، ويدخل كثير من أبنائها فى الدين الحنيف، وحتى القبط أو - بمهارة أدق - جميع من بقى منهم على دينه المسيحى يأخذون فى التعرب ويتم تعريبهم فى القرن الثالث الهجرى. ويتصل نشاط الشعر فى مصر، ويظل محدودا زمن بنى أمية، وزارها فى أيامهم بعض الشعراء من نجد والحجاز والعراق، ويتسع نشاط الشعر بمصر فى زمن ولادة العباسيين أو يأخذ فى النشاط. ويصبح لها شعراء نابهن مثل المعل الطائى، وينزلها أبو نواس لمديح الحصبب وإلى الخراج فيها، كما ينزلها أبو تمام لمديح ولاتها ويظل بها فترة. ومن شعرائها فى النصف الأول من القرن الثالث ذوالنون المصرى الإخميمى مؤسس التصوف، ويشتهر بها فى بواكير أيام الدولة الطولونية الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام. ويبدو أن الشعراء تكاثروا فى عهد هذه الدولة، يدل على ذلك أنها حين انتهت فى أواخر القرن الثالث بكاهها منهم كثيرون حتى ليقول المقرئى إنه رأى كتابا به اثنتا عشرة كراسة بأسماء الشعراء الذين بكوها، ويعلق على ذلك قائلا: إذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فما مقدار شعرهم؟ ثم يقول إنه لا يوجد لأحدهم الآن ديوان واحد،

ومما يؤكد بوضوح ما كان بمصر من حركة شعرية خصبة أن نجد الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ للهجرة يؤلف كتابا في أخبار شعراء مصر.

وينزلها قبيل منتصف القرن الرابع المتنبى ويحدث نزوله بها حركة أدبية واسعة، ويظل الشعراء فيها نشيطا في عهد الفاطميين، ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنه لما توفى ابن كلثوم وزير المعز وابنه العزيز رثاه مائة شاعر. وينثر الخلفاء الفاطميون ووزرائهم العطايا والأموال على الشعراء، مما جعلهم يلهبون بالتناء عليهم، ويؤلف بأخرة من العصر الفاطمى الرشيد بن الزبير كتابا في شعراء مصر سباه: «جنان الجنان ورياض الأذهان» سقط من يد الزمن، ويخص شعراءها في القرن السادس الهجرى العباد الأصبهاني وزير صلاح الدين الأيوبي بمجلدين في كتابه الخريدة، ترجم فيها نحو مائة وأربعين شاعرا، ويقد عليها في أواخر أيام الدولة الأيوبية على بن سعيد الأندلسى صاحب كتاب المغرب ويخصها هي وشعراءها وكتّابها وحكامها ووزراءها وقضاها بستة مجلدات من كتابه ضاع أكثرها، وبقي منها القسمان الخاصان بالفسطاط والقاهرة، وحققا ونشرا. وتظل كتب التراجم في عصر المماليك تترجم لكثيرين من الشعراء النابيين بمصر. وتألفت حينئذ أسماء كثيرين منهم ونُشرت دواوينهم كما نُشرت طائفة من دواوين الشعراء في المهددين الفاطمى والأيوبي. وبقيت من هذا النشاط بقية أيام العثمانيين مما جعل شهاب الدين الخفاجى في القرن الحادى عشر الهجرى يؤلف كتابا في شعراء زمانه سباه: «ريحانة الألبا» خص مصر بالقسم الثالث منه، وملتقى بتراجم كثيرين منهم بعد الخفاجى في كتب التراجم والتاريخ وخاصة تاريخ الجبرى.

ويكثر الشعر الدورى بمصر وتكثر مزدوجاته ومسقطاته ورباعياته. وتكثر الموشحات وكان شعراء مصر قد أخذوا يتعرفون عليها في أواخر أيام الدولة الفاطمية، ويتصدى لها الشاعر ابن سناء الملك في أيام صلاح الدين والدولة الأيوبية فيضع لها عروضها كما وضع الخليل بن أحمد قديما عروض الشعر العربى على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس: «دار الطراز». وقد ألحق بدراسته له في الكتاب أربعة وثلاثين موشحة بديعة لكبار الوشاحين الأندلسيين، وأتمها بخمس وثلاثين موشحة له، وبذلك أعد هذا الفن الأندلسى للذوق والانتشار، فأقبل عليه شعراء مصريون وغير مصريين ينظمون فيه موشحات لهم رائحة،

ونفس ابن سناء الملك مضى ينظم فيه عشرات جديدة من الموشحات حتى لنجد السخاوى فى كتابه «سجع الورق المنتخبة فى جمع الموشحات المنتخبة» ينشد له أربعا وثلاثين موشحة. وترجمت لوشأخين مصريين كبيرين هما العزازى وابن الوكيل. وشاعت الموشحات بمصر على ألسنة المتصوفة فى أذكآرهم، ولعل ابن وفاسيخ الطريقة الوفاينة فى أواخر القرن الثامن الهجرى وأوائل التاسع ديوان جميعه موشحات صوفية. ويكثر القاضى الفاضل وزير صلاح الدين فى شعره من المحسنات البديعية، ويصبح له فى طريقة استخدامه لها وفى إكتآره من التورية مدرسة يتكآثر أتباعها فى أيام الدولتين الأيوبية والملوكية بمصر والشام.

ويكثر شعر المديح، ويظل يجرى على ألسنة زمن الولاة أيام الدولتين الأموية والعباسية، حتى إذا أطل مصر عهد الدولة الطولونية تبارى الشعراء فى مديح أحمد بن طولون وفى مقدمتهم الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام الذى مر ذكره آنفا، ومن شعراء تلك الدولة المريمى القاسم بن يحيى شاعر خمارويه. ويشتهر بعده فى زمن الإخشيد سعيد بن فاخر شاعره، ويترجم الثعالبى فى اليتيمة لكثيرين من شعراء الدولة الإخشيدية، وخاصة من التفوا حول المتنبى حين مقامه فى القاهرة مادحا لكافور، ويكثر المديح كثرة مفرطة منذ القرن السادس الهجرى ويكثر شعراؤه النابهن، وقد ترجمت خمسة منهم عارضا روائع مدائحهم، وهم المهذب بن الزهير شاعر ثلاثع بن رزيك الوزير بأخرة من الدولة الفاطمية، وقد نوه طويلا ببعض انتصاراته على حملة الصليب، وابن قلافس الشاعر الاسكندرى المادح لشاور الوزير الفاطمى والمهاجر بشعره إلى صقلية واليمن مادحا رجالاتها مدحا رائعا، والشاعر المبدع ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل، وهو أهم شعراء مصر قبل العصر الحديث ويتميز بفرائد بديعة من التصاوير الطريفة والألفاظ الحلوة العذبة، وابن نباتة شاعر المؤيد صاحب حماة والسلطان المملوكى حسن، ويتميز بلفظ سهلة رشيقة مع كثرة التوريات، والشيخ عبدآقه الشبراوى شيخ الأزهر فى أيام العثمانيين وله مدائح كثيرة فى ولاتهم.

وينشط الرثاء فى مصر للحكام وكبار الكتاب وأصحاب المناصب العليا فى الدول المتعاقبة، وتكثر الشكوى من الزمن وتقلباته ونوائبه، على نحو ما نجد عند على بن النضر الشاعر الفاطمى ومراثيه وشكواه من الزمن، وعند على بن عرام شاعر أسوان، وله مرثية

بهدية بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم، وابن النقيب الحسن بن شاور وله شكوى مرة من الظلم والخسف ومن العوز والبؤس، وعبداه الإداكوى أيام العثانيين، وله مرثية يرثى فيها نفسه ويكيها وقد حمله النعش إلى متواه. وكان للدعوة الفاطمية الإسماعيلية شعراء غلوا في مديح خلفائهم غلوا مَقَيَاتًا، إذ جعلوهم فوق البشر والبشرية مسبقين عليهم بعض صفات الذات العلية، وأهم شعرائهم ابن هاني الأندلسي، وتوج أشعاره في الميز الفاطمي بضلال ما بعده ضلال، وكان شاعرا فذا غير أنه سخر ملكته الشعرية في مديح الميز بصفات إلهية قدسية، بيتان ما بعده بيتان. وعلى شاكلته المؤيد في الدين الشيرازي إذ يجعل الخلفاء الفاطميين في مديحه فوق الطبيعة البشرية ويسبغ عليهم الصفات الربانية. وثالث هؤلاء الشعراء ظافر الحداد وهو مصرى من الإسكندرية، ويلتقط من ابن هاني - الذي صرح في بعض مديحه للأمر بأنه يحاول محاكاته - بعض معانيه مثل فكرة طاعة الخليفة الفاطمي وأنها فرض واجب، كما أخذ عنه فكرة أن الخليفة نور خالص، غير أنه ظل لا يسرف إسراف ابن هاني والمؤيد الشيرازي في إضفاء الصفات الإلهية على الخليفة، ومع ذلك يُعد شذوذا على المصريين في أيام الفاطميين، إذ انصرفوا انصرافا تاما عن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية المنحرفة، وظلوا مثل آبائهم سُنيّين.

ويكثر الغزل مصورا عاطفة الحب الإنسانية عند الشعراء المصريين وقد بثوا فيه حبا متقددا لا تحبو ناره أبدا بما يصور من اللوعات والصبابة والهيام والوله، ويوج شعر كثيرين يوجد لا حدود له على نحو ما يلاحظ في غزل ابن سناء الملك، ويم الغزل الوجداني بعض أشعار الغزلين، وكأنما يتأثرون فيه الغزل الصوفي المتتابع المعاصر لهم، ومن أهم شعرائه وأروعهم ابن النبيه، وغزله يتسامى إلى مستوى وجداني رفيع، مما دفع المغنين إلى التغنى به لا في مصر وحدها بل أيضا في كثير من ديار العرب، وتفتت السيدة أم كلثوم ببعض غزله الوجداني المكثف باللهفة واللوعة والرقّة واللفظ. ولا يقل عنه في الغزل الوجداني روعة البهاء زهير، وكأنما انطبع الوجد الصوفي وأشواقه في أعماق نفسه مما جعل بعض غزلياته تلبس عند الأسلاف بغزليات ابن الفارض وما تحمل من مواجد صوفية. ولابن مطروح صديقه حظ من هذا الغزل المملوء بحرارة الوجد ولوعاته والذي يقطر رقة ودمانة وظرفا. ولبرهان الدين القيراطي غزل وجداني كثير يتمثل فيه هذه الطريقة الغرامية التي يذوب

فيها الحب لوعة وهياما، وتلتقى في أيام العثانيين بالقُسَيْل وما يتميز به غزله من رهاقة الحس ودقته.

ويتكاثر الفخر بدوره : الفخر بالأخلاق النبيلة وبالبأس والشجاعة، ولا ينسأ الملك فيه منظومة رائمة جسّد فيها روحا قوية عاتية : روح بطولة صلاح الدين وجيشه المصرى الباسل وما أذاقا حملة الصليب من دمار وتكحيل لا يماثله تكحيل. ومن قديم يسيل الهجاء في ألسنة الشعراء المصريين، وكثيرا ما سلطوا سهامه على الفاطميين ووزرائهم وقد ينحون به أحيانا نحو الدعابة. وتلتقى في الفخر بتحميم بن المعز الفاطمي المفاخر بأسرته الفاطمية العلوية فخرا مضطربا يشرر كثير وجهه إلى ابن المعتز الشاعر العباسي وأسرته العباسية، ولطلائع بن رُزَيْك وزير الفاطميين بأخرة من أيامهم فخر كثير بانتصاراته على حملة الصليب. وكان ابن الذرؤى من كبار المهجائين، وله أهجية في أحذب مليئة بالسخرية الموجعة، ومثله أحمد بن عبد الدائم الشرمساحي، وكان يكثر من هجائه للناس حتى القضاة وعلماء الدين، وعلى شاكلته حسن البدرى المجازي إذ لم يسلم من هجائه أحد حتى المتصوفة.

ويتعمق الشعور بجمال الطبيعة على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه وحدائقه نفوس الشعراء منذ المرمي شاعر خاراويه، وتكثر بمجالس الأنس واللهو والفناء والطرب، ويمثل ذلك كله ابن وكيع المشغوف في أشعاره بالطبيعة والحمر، والشريف العقيل شاعر الطبيعة المصرية غير مدافع، وابن قادوس وكان يشغف بوصف الحمر، ومثله عبد الباقي الإسحاقى أيام العثانيين. وعُرفت مصر بالزهد والنسك من قديم، ويظل شعر الزهد فيها مزدهرا على مر الأزمنة، وكان ذو النون المصرى - كما مرّ بنا - قد وضع أسس التصوف الإسلامى في القرن الثالث الهجرى. غير أنه لم يزدهر بمصر إلا منذ عصر صلاح الدين الأيوبي، وأخذ يتضع فيه - كما مرّ بنا - اتجاهان : اتجاه فلسفى مثله خير تمثيل ابن الفارض واتجاه سنى مثله أصحاب الطرق الصوفية وأتباعهم من مثل الطريقة الشاذلية، ومن أتباعها الشعراء أبو الفتح المرسى، وقد ترجمت قبله لابن الكيزاني الصوفي المعاصر لصلاح الدين وله أشعار صوفية بديعة، وفصلت القول في ابن الفارض وبجاهداته الروحية وعشقه الرباني، وفنائه وانغمائه في الذات الإلهية إنحاء كليا.

وكان الشعراء المصريون يتغنون بمدح الرسول ﷺ من قديم، وأخذ هذا المدح يزدهر في زمن الحروب الصليبية وأكبر ملاح مصرى للرسول البوصيرى ويشتهر بمدحه النبوية المسماة بالمعزية، وربما فاقتها روعة ميمته المسماة بالبردة، وظلت القصيدتان تنشدان - إلى اليوم - في حفلات الموالد وحلقات الذكر الصوفى. وولتقى في العصر العثمانى بمحمد بن أبى الحسن البكرى، وله أشعار يصور فيها بعض مواجده الصوفية، وسؤاله الرسول الشفاعة له يوم القيامة. وألمت بشعراء الفكاكة وعرضت في ترجمات ابن مكنسة والجزار والسراج الوراق طرائف من فكاهاتهم كما عرضت عند ابن دانيال مسرحياته الفكاهة وخاصة مسرحية «طيف الخيال» وهى عمل تمثيلى بديع. وألمت بهامر الأبوطلّى في أيام العثمانيين ومعارضته الفكاهة لألفية ابن مالك وغيرها. وعرضت جوانب من الشعر الشعبى وثلاثة من أعلامه هم: إبراهيم المعمار وتورياته المستملحة، والفبارى وأزجاله المتنوعة وابن سودون وفكاهاته المضحكة سواء في وصفه لزوجته ليلة الدخلة أو في رثائه لأمه أو في حديثه عن عجائب الطبيعة، وفيها جميعاً يعتمد على المنطق اعتداء يجعل قارئه يستغرق في الضحك.

وينهى النثر وتزدهر الرسائل الديوانية فيه منذ أيام ابن عيكان كاتب أحد بن طولون، ومن أعلام الكتاب الديوانيين في عهد الفاطميين ابن الصيرفى، وتتميز لغة كتابته بالسجع والسهولة والتوشيح لها بالألفاظ القرآنية والمحسنات البديعة. ولتلقى بالقاضى الفاضل أهم كتاب مصر، وهو رأس مدرسة ظلت حية في أيام الأيوبيين والمماليك، وهى تلتزم السجع مع صفاء التعبير ومع الإكثار من المحسنات البديعية والعناية بالتورية. ومن كبار الكتاب في أيام المماليك محبى الدين بن عبد الظاهر وابن فضل الله العمرى، وتطبع كتابتها الديوانية بطوابع كتابة القاضى الفاضل.

وتكثر الرسائل الشخصية من تهنئة وشكر وعتاب وتعزية واعتذار منذ أيام الفاطميين وتعمها خصائص الكتابة الديوانية لأن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين، ومن أهمهم ابن أبى الشخفاء في زمن الفاطميين، وسجعانه خفيفة رشيقة مع صفاء اللفظ ورسائله. وابن عمادى كاتب الدواوين في عهد صلاح الدين رسائل شخصية يعنى فيها بالسجع ومحسنات البديع ومراعاة النظير وحسن التعليل. ويتميز ابن مكانس في أيام المماليك بالسجع الرشيق والاستعارات والتوريات والجناسات البديعة مع خفة الروح والمذوبة والسلاسة.

ويعنى غير كاتب بصنع مقامات منذ أواخر الدولة الفاطمية، ولا تدور على الشحاذة الأدبية المعروفة في مقامات الهمذاني والحريري، بل تدور على المحاورات أو على عرض بعض مسائل علمية أو على المفاخرات أو على حديث قصصى أو على وعظ، ومن نلتقى بهم فيها ابن أبي حجلة المغربي، وله مقامة بديعة في وصف فيضان النيل، والقلقشندى وله مقامة في وصف صناعة الإنشاء وتكريظ صاحب ديوانها، وأخرى في المفاضلة بين العلوم، والسيوطى وله مقامات كثيرة، وأغلبها مفاخرات تدور بين الأزهار أو بين الفواكه أو بين البقول أو بين المطور، والشهاب الخفاجى أيام العثمانيين وله مقامات مختلفة، منها مقامة رومية في وصف القسطنطينية، وفيها يهاجم منصوفتها وعلماءها ومفتيها، ويختمها بمديح السلطان العثمانى. وتتكاثر المواعظ والابتهالات وقد ترجمت في عَرْضها لأبى الحسن الشاذلى إمام الطريقة الشاذلية، وذكرت قطعة من حزبه الكبير، كما ترجمت لابن عطاء الله السكندرى وذكرت بعض مواعظه، وبالمثل لأحمد الدردير أيام العثمانيين وذكرت قطعة من ورده أو حزبه المشهور. وعرضت كتب النوادر والسير الشعبية بأدنا بكتاب المكافأة لابن الداية، وتلوته بأخبار سبيويه المصرى، وكان ينقد الحكام نقدا به كثير من السوم. وتحدثت عن كتاب الفاشوس في حكم قراقوش لابن محاق، وكتاب هز القحوف ليوסף الشريبنى وما يحملان في نوادرهما من سخرية لازعة بالحكام، كما تحدثت عن كتب السير والقصص الشعبية: سيرة عنتره والسيرة الملالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذى يزن وعن ألف ليلة وليلة.

الفهرس

صفحة	
١٢ - ٥	مقدمة
٦٨ - ١٣	الفصل الأول : السياسة والمجتمع
١٣	١ - فتح العرب لمصر والحقب الأولى
	(أ) فتح العرب لمصر
	(ب) زمن الولاة
	(جـ) الطولونيون
	(د) الإخشيديون
٢١	٢ - الفاطميون - الأيوبيون
	(أ) الفاطميون
	(ب) الأيوبيون (صلاح الدين)
٣٤	٣ - المماليك - العثمانيون
	(أ) المماليك
	(ب) العثمانيون
٤٤	٤ - المجتمع
٥٦	٥ - التشيع : الدعوة الفاطمية الإسماعيلية
٦٠	٦ - الزهد والتصوف
١٦٠ - ٦٩	الفصل الثاني : الثقافة
٦٩	١ - الحركة العلمية
٨٨	٢ - علوم الأرائل - علم الجغرافيا
	(أ) علوم الأرائل
	(ب) علم الجغرافيا
١٠٨	٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

صفحة

٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام	١٢٨
٥ - التاريخ	١٥١
الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء	١٦١ - ٢٥٦
١ - تعرب مصر	١٦١
٢ - كثرة الشعراء	١٦٦
٣ - شعر دوري ورباعيات وموشحات وبديعيات	١٧٢
(أ) الشعر الدوري	
(ب) الرباعيات	
(حـ) الموشحات : العزازی . ابن الوكيل	
(د) البديعيات	
٤ - شعراء المديح : المهذب بن الزهير ، ابن قلاقس ، ابن سناء	
الملك ، ابن نباتة ، عبد الله الشبراوی	١٨٥
٥ - شعراء المراثي والشكوى	٢١٩
على بن النضر . على بن عرام . ابن النقيب : الحسن بن شاور .	
عبد الله الإدكاوی	
٦ - شعراء الدعوة الإسماعيلية	٢٣٩
ابن هاني . المؤيد في الدين الشيرازی . ظافر الحداد .	
الفصل الرابع : طوائف من الشعراء	٢٥٧ - ٣٩٩
١ - شعراء الغزل	٢٥٧
ابن النبیة . البهاء زهير . ابن مطروح . برهان الدين القيراطی .	
نور الدين على الصیلي .	
٢ - شعراء الفخر والهجاء	٢٩٧
تیم بن المعز . طلائع بن رزیک . ابن النروی . أحمد بن	
عبد الدائم . حسن الیدری الحجازی	
٣ - شعراء الطبيعة وبجاس اللهو	٣٢٢
ابن وكيع التنیسی . الشریف العقیل . ابن قادوس . عبد الباقي	
الإسحاقی	

- ٤ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ٣٤٢
ابن الكيزاني . ابن الفارض . البوصيري . محمد بن أبي الحسن
البكري
- ٥ - شعراء الفكاهة ٣٦٧
ابن مكنسة . الجزار . السراج الوراق . ابن دانيال . عامر
الأنهوطي
- ٦ - شعراء شعييون ٣٨٦
إبراهيم المعمار . الفباري . ابن سودون
- الفصل الخامس : النثر وكتابه ٤٠٠ - ٤٨٩
- ١ - الرسائل الديوانية : ابن الصيرفي . القاضي الفاضل . يحيى
الدين بن عبد الظاهر . ابن فضل الله العمري ٤٠٠
- ٢ - الرسائل الشخصية ٤٢٤
ابن أبي الشخباء . ابن محاق . فخر الدين بن مكناس
- ٣ - المقامات ٤٤٢
ابن أبي حجلة . القلقشندي . السيوطي . الشهاب الخفاجي
- ٤ - المواعظ والابتهالات ٤٦٠
أبو الحسن الشاذلي . ابن عطاء الله السكندري . أحمد الدردير
- ٥ - كتب النوادر والسير والقصص الشعبية ٤٧٧
(١) كتب النوادر
كتاب المكافأة . أخبار سيبويه المصري . كتاب
الفاشوش في حكم قراقوش . هز القحوف .
- (ب) كتب السير والقصص الشعبية
سيرة عنقرة . السيرة الملالية . سيرة الظاهر بيبرس . سيرة سيف
ابن ذي بزن . ألف ليلة وليلة
- خاتمة ٤٩٠ - ٤٩٨

